تفسير القرآن العظيم

للإمام الحافظ

عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

طبعة مجودة قوبلت على أوثق النسخ الخطية والمطبوعة، محققة الأحاديث والآثار، مخرجة القراءات، ذات فوائد منتخبة وفهارس علمية.

تحقيق الأحاديث والآثار

للشيخ عادل بن يوسف العزازي

قام على الخدمة العلمية للكتاب ومقابلة النسخ

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين — أبو مجدي جمال بن السيد الأبيض

أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة — أبو طلحة شاهر بن سيد زكي

إشراف ومتابعة

أبي الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز

المجلد السادس

الأحزاب - الطور

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٧٣١٢

الطبعة: الأولى

التاريخ: ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

للنشر والتوزيع

المكتبة الإسلامية

الإدارة والفرع الرئيس

القاهرة ٣٣ ش صعب صالح عين شمس الشرقية

ت: ٢٤٩٩١٢٥٤ - ٢٤٩٠٠٦٠٦ فاكس ٢٤٩٠٠٨٠٨

فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر درب الأتراك ت/٢٥١٠٨٠٠٤ محمول: ٠١١١٢٧٢٨٧٢٥

E-mail: islamya2005@hotmail.com

facebook Alslamya.2005

سُورَةُ الأَحْزَابِ

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال عبد الله ابن الإمام أحمد[1]: حدَّثنا خلف بن هشام، حدَّثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرٍّ قال: قال لي أُبَيُّ بن كعبٍ: كَأين[2] تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كَأين تعدها[3]؟ قال: قلت: ثلاثًا وسبعين آيةً: فقال: قَط! لقد رأيتها وإنها لتُعَادِل «سورة البقرة»، ولقد قرأنا فيها: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ، نَكَالًا مِنَ اللهِ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[4].

ورواه النَّسائي من وجهٍ آخر، عن عاصم -وهو ابن أبي النجود، وهو ابن بَهْدَلَة- به. وهذا إسنادٌ حسنٌ، وهو يقتضي أنَّه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ[5] وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

هذا تنبيهٌ بالأعلىٰ علىٰ الأدْنَىٰ، فإنَّه تعالىٰ إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأَنْ يأتمر من دونه بذلك بطريق الأَوْلَىٰ والأحرىٰ. وقد قال طَلْق بن حبيب: التَّقوىٰ: أَن تعملَ بطاعةِ الله، علىٰ نورٍ مِن الله، ترجُو ثوابَ الله، وأن تَترُكَ معصيةَ الله، علىٰ نورٍ مِن الله، مخافَةَ عذاب الله.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فهو أحقُّ أَن تَتَّبعَ أوامره وتُطيعَه، فإنَّه عليمٌ بعواقب الأمور، حكيمٌ في أقواله وأفعاله. ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: مِن قرآنٍ وسُنَّةٍ[6]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا

---

(١) في (ز): (قال الإمام أحمد: إنما قاله عبد الله بن أحمد). (٢) في (ز): (كان).

(٣) أي: كم آية تقرأ؟ وكم آية تعد هذه السورة؟

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٣٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧١٥٠).

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: دُمْ علىٰ تقواه، ومن هنا نأخذ أن الأمر بالشيء، قد يكون أمرًا بتجديده، وقد يكون أمرًا بالاستمرار عليه، وقد يكون أمرًا بالتفصيل لهذا المأمور به.

(٦) فالسُّنَّة وحيٌ من عند الله كالقرآن؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾. ينظر: «فتح الباري»: (١٣/ ٢٩٠)، و«حجية السنة» للدكتور/ عبدالغني عبدالخالق، وأيضًا للدكتور/ حسين شواط، و«دفاع عن السنة» للدكتور/ محمد أبو شهبة.

تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: فلا تخفىٰ عليه خافيةٌ.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي: وكفىٰ به وكيلًا لمن توكَّل عليه وأناب إليه[1].

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

يقول تعالىٰ موطِّئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا حسيًّا معروفًا، وهو أنَّه كما لا يكون للشَّخص الواحد قلبَان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقولِهِ: «أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي» أُمًّا له، كذلك لا يَصير الدَّعيُّ ولدًا للرَّجل إذا تبَنَّاه فدعاه ابنًا له، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، كقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا﴾ [المجادلة: ٢].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾: هذا هو المقصود بالنَّفي؛ فإنَّها نزلت في شأنِ زيدِ بن حارثةَ مولىٰ النَّبيِّ ﷺ، كان النَّبيُّ ﷺ قد تبَنَّاه قبل النُّبوَّة، وكان يقال له: «زَيْدُ بن محمَّد» فأراد الله تعالىٰ أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النِّسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ كما قال في أثناء السُّورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال هاهنا: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ يعني: تبَنِّيكم[2] لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًّا، فإنَّه مخلوقٌ مِن صلب رجلٍ آخر، فما يُمكِن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبَشَرِ الواحد قلبان.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾: قال سعيد بن جبير ﴿يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: العدل. وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: الصراط المُسْتَقِيم.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ: أنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ مِن قريشٍ، كان يقال له: «ذو القَلْبَيْن»، وأنَّه كان يزعم أن له قلبين، كلٌّ منهما بعقلٍ وافرٍ. فأنزل اللهُ هذه الآية ردًّا عليه. هكذا روىٰ العَوْفي عن ابن عبَّاسٍ[3]. قاله مجاهد، وعكرمة، والحسن[4]، وقتادة، واختاره ابن جرير.

---

(١) لوحة (٢٣٠ب). (٢) في (ز): (نبيكم).

(٣) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢١/ ٧٤)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.
وروىٰ نحوه عن سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد بأسانيد مرسلة، ورواه ابن أبي حاتم (١٧٥٧١ - ١٧٥٧٤).

(٤) لوحة (٢٣١أ).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا زهير، عن قابوس -يعني: ابن أبي ظَبْيَان- أنَّ أباه حدَّثه قال: قلت لابن عبَّاسٍ: أرأيت قول الله تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾، ما عَنَىٰ بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يومًا يُصلِّي، فخَطَر خَطْرَةً[١]، فقال المنافقون الَّذِين يُصلُّون معه: ألا تَرَوْن له قلبين، قلبًا معكم وقلبًا معهم؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[٢].

وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرَّحمن الدَّارمي، عن صاعد الحراني -وعن عبد بن حميد، عن أحمد بن يونس- كلاهما عن زهير، وهو ابن معاوية به. ثم قال: وهذا حديثٌ حسنٌ. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث زهير به.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، في قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ قال: بلغَنَا أنَّ ذلك كان في زيد بن حارثة، ضُرِبَ لَهُ مثل، يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك[٣].

وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة[٤]. وهذا يوافق ما قدَّمناه من التَّفسير، والله أعلم.

وقوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ : هذا أمرٌ ناسخٌ لما كان في ابتداء الإِسْلَام مِن جواز ادِّعاء الأبناء الأجانب، وهم الأَدْعِيَاء، فأمر الله تعالىٰ برَدِّ نسبهم إلىٰ آبائهم في الحقيقة، وأنَّ هذا هو العدل والقِسْط.

قال البخاري: حدَّثنا مُعَلىٰ بن أسد، حدَّثنا عبد العزيز بن المختار، حدَّثنا موسىٰ بن عقبة قال: حدَّثني سالم عن عبد الله بن عمر؛ أنَّ زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ، ما كنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد، حتىٰ نزل القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٥]. وأخرجه مسلم والتِّرمذي والنَّسائي، من طرق، عن موسىٰ بن عقبة به.

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء مِن كلِّ وجهٍ، في الخلوة بالمَحَارِم وغير ذلك؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله، إنَّا كنَّا ندعو «سالمًا» ابنًا، وإنَّ الله قد أنزل ما أَنْزَل، وإنَّه كان يدخل عَلَيَّ، وإنِّي أجد في نفسِ أبي حذيفة مِن ذلك [شيئًا][٦]، فقال[٧] ﷺ: «أَرْضِعِيهِ

---

(١) الخاطِرُ ما يَخْطُرُ في القلب من تدبيرٍ أَو أَمْرٍ، والخاطر: الهاجس، وقد خَطَرَ بباله وعليه يَخْطِرُ ويَخْطُرُ خُطُورًا: إِذا ذكره بعد نسيان، ويقال: خَطَرَ ببالي وعلىٰ بالي كذا وكذا يَخْطُر خُطُورًا، إِذا وقع ذلك في بالك ووَهْمِك، وأَخْطَرَهُ اللهُ ببالي، وخَطَرَ الشيطانُ بين الإِنسان وقلبه: أَوصل وَسْواسَهُ إِلىٰ قلبه. «اللسان»: خطر.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢٦٧)، والترمذي (٣١٩٩)، والطبري (٢١/ ١١٨)، وابن أبي حاتم (١٧٥٧٠)، وفيه قابوس بن أبي ظبيان، قال الحافظ: فيه لين.

(٣) مرسل: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١١)، ومن طريقه الطبري (٢١/ ٧٥).

(٤) هذه كلها أسانيد مرسلة.

(٥) البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥)، والترمذي (٣٢٠٩) (٣٨١٤)، والنسائي (٤١٦) كتاب التفسير.

(٦) سقط من (ز). (٧) لوحة (٢٣١ ب).

تَحْرُمِي عَلَيْهِ» الحديث[١].

ولهذا لما نسخ هذا الحُكْم أباح تعالىٰ زوجةَ الدَّعِيِّ، وتزوَّج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش زوجةِ زيد بن حارثة، وقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، احترازًا عن زوجة الدَّعيِّ، فإنَّه ليس من الصُّلب، فأمَّا الابن من الرَّضاعة: فمُنَزَّلٌ منزلة ابن الصُّلب شرعًا، بقوله ﷺ في «الصَّحيحين»: «حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[٢].

فأمَّا دعوة الغَيْر ابنًا علىٰ سَبِيل التَّكريم والتَّحبيب: فليس ممَّا نهىٰ عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السُّنن إلا التِّرمذي[٣]، مِن حديث سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن الحسن العُرَني، عن ابن عبَّاسٍ ﷺ قال: قَدِمْنا علىٰ رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطَّلب علىٰ حُمُرَات لنَا مِن جَمْع[٤]، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول: «أُبَيْنِيَّ لَا تَرْمُوا الجَمْرَةَ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ»[٥].

قال أبو عبيد وغيره: «أُبَيْنِيَّ» تصغير «بني». وهذا ظاهر الدَّلالة، فإنَّ هذا كان في حَجَّة الوداع سنةَ عشرٍ، وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ في شأن زيد بن حارثة، وقد قُتِلَ في يوم مُؤْتَة سنة ثمان، وأيضًا ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي عَوانة الوضَّاح بن عبد الله اليَشْكُري، عن الجَعْد أبي[٦] عثمان البصري، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا بُنَيَّ». ورواه أبو داود والترمذي[٧].

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: أمر الله تعالىٰ بردِّ أنساب الأدعياء إلىٰ آبائهم، إن عُرِفُوا، فإن لم يَعْرِفُوا آباءهم، فهم إخوانهم في الدِّين ومواليهم؛ أي: عوضًا عمَّا فاتهم من النَّسب. ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج مِن مكَّة عام عُمرة القَضَاء، وتبعتهم ابنة حمزة تنادي: يا عَمِّ، يا عَمِّ. فأخذها عليٌّ وقال لفاطمة: دونَكِ ابنة عَمِّك فاحتمليها[٨]. فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ في: أيِّهم يكفلها، فكلٌّ أدلىٰ بحجَّةٍ؛ فقال عليٌّ: أنا أحقُّ بها وهي ابنة عمي، وقال[٩] زيد: ابنة أخي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحتي -يعني أسماء بنت عميس- فقضىٰ النَّبيُّ ﷺ لخالتها، وقال: «الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ». وقال لعلي: «أَنْتَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْكَ». وقال

(١) مسلم (١٤٥٣)، وأصل الحديث عند البخاري (٤٠٠٠) (٥٠٨٨).
(٢) البخاري (٥٠٩٩)، ومسلم (١٤٤٤).
(٣) بل رواه الترمذي (٨٩٣) بنحوه.
(٤) جَمْع: هي المزدلفة، واللطخ: الضرب بالكف وليس بالشديد.
(٥) صحيح: رواه أبو داود (١٩٤٠)، والنسائي (٥/ ٢٧٠)، وأحمد (١/ ٢٣٤)، وابن ماجة (٣٠٢٥).
(٦) في (ز): (عن الجعدي عثمان)، وهو خطأ.
(٧) مسلم (٢١٥١)، وأبو داود (٤٩٦٤)، والترمذي (٢٨٣١).
(٨) في (ز): (فاحتملتها).
(٩) لوحة (٢٣٢ أ).

لجعفر: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي». وقال لزيد: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»(١).

ففي هذا الحديث أحكامٌ كثيرةٌ مِن أحسنها: أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حكم بالحقِّ، وأرضىٰ كلًّا من المتنازعين، وقال لزيد: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بَكْرَة: قال الله ﷻ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، فأنا ممَّن لا يُعرف أبوه، وأنا مِن إخوانكم في الدِّين. قال أبي: والله إنِّي لأظنُّه لو عَلِمَ أنَّ أباه كان حِمارًا لانتمىٰ إليه(٢).

وقد جاء في الحديث: «مَنِ ادَّعَىٰ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ»(٣). وهذا تشديدٌ وتهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ في التَّبرِّي من النَّسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلىٰ غير أبيه في الحقيقةِ خطأً بعد الاجتهاد واستفراغ الوُسْع؛ فإنَّ الله قد وضع الحرج في الخطإ ورَفَع إثمه، كما أرشد إليه في قوله آمرًا عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ»(٤).

وفي «صحيح البخاري» عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنِ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»(٥).

وفي الحديث الآخر: «إِنَّ اللهَ رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ»(٦).

وقال هاهنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وإنَّما الإثم علىٰ مَنْ تعمَّد الباطل كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وفي(٧) الحديث المتقدم: «مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُهُ، إِلَّا كَفَرَ»(٨).

وفي القرآن المنسوخ: «فَإِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ».

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

---

(١) البخاري (٢٦٩٩، ٤٦٥١)، والترمذي (١٩٠٤) (٣٧١٦) (٣٧٦٥).

(٢) الطبري (٢١/ ١٢١).

(٣) البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (٦١)، ولفظ الحديث: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعىٰ لغَيْرِ أبيهِ - وهو يَعْلَمُهُ - إلَّا كَفَرَه»، وفي لفظ: «فالجنَّةُ عليه حَرامٌ».

(٤) مسلم (١٢٦)

(٥) البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٦) صحيح لغيره: ثبت عن ابن عبَّاس، وأم الدرداء، وهو عند ابن ماجة (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، والحاكم (٢/ ١٩٨) وصححه، وصححه الألباني كما في «الإرواء» (٨٢)، وانظر تفسير سورة البقرة الآية (٢٨٦).

(٧) لوحة (٢٣٢ب).

(٨) تقدم قريبًا.

ابن مسعود، عن ابن عبَّاس، عن عمر أنَّه قال: بعث الله محمَّدًا ﷺ بالحقِّ، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أُنزل عليه آية الرَّجم، فرجم رسولُ الله ﷺ، ورَجَمْنا بعدَهُ. ثم قال: قد كنَّا نقرأ: «وَلَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ [فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ -أو: إِنْ كُفْرًا بِكُمْ- أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ»] [(١)]، وإنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي [(٢)] [كَمَا أُطْرِيَ] [(٣)] عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». وربما قال مَعْمَر: «كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ» [(٤)].

ورواه في الحديث الآخر: «ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ المَيِّتِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ» [(٥)].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾

قد علم الله تعالىٰ شفقة رسوله ﷺ علىٰ أمته، ونصحَه لهم، فجعله أولىٰ بِهِم مِن أنفسِهِم، وحكمه فيهم مُقدَّمًا علىٰ اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]. وفي «الصحيح»: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [(٦)]. وفي «الصحيح» أيضًا أنَّ عمر ﵁ قال: يا رسول الله، والله لأنت أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن نفسي. فقال: «لا يَا عُمَرُ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». فقال: يا رسول الله لأَنْت أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ حتَّىٰ مِن نفسي. فقال: «الآنَ يَا عُمَرُ» [(٧)].

ولهذا قال تعالىٰ في هذه الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾.

وقال البخاري عندها: حدَّثنا إبراهيم بن المنذر، حدَّثنا [محمَّد بن] [(٨)] فُلَيح، حدَّثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَة، عن أبي هريرة ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ [(٩)] مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا؛ فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي؛ فَأَنَا مَوْلَاهُ». تفرَّد به البخاري [(١٠)].

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».
(٢) الإطْراءُ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في المَدْح والكَذِبُ فيه. «النهاية».
(٣) في (ز): (كإطرار).
(٤) أحمد (١/ ٤٧)، ورواه البخاري (٦٨٣٠).
(٥) مسلم (٩٣٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٢).
(٦) البخاري (١٤) (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٧) البخاري (٦٦٣٢).
(٨) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.
(٩) لوحة (٢٣٣أ).
(١٠) البخاري (٤٧٨١).

ورواه أيضًا في «الاستقراض» وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن فليح به مثله[(١)] .

ورواه الإمام أحمد من حديث أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ بنحوه[(٢)] .

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن الزهري في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ كان يقول: «أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مَاتَ وَتَرَكَ دَيْنًا فَإِلَيَّ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ». ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل به نحوه[(٣)] .

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتَّوقير والإعظام، ولكن لا تجوزُ الخلوةُ بهنَّ، ولا ينتشرُ التَّحريم إلىٰ بناتِهنَّ وأخواتِهنَّ بالإجماع، وإن سمَّىٰ بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشَّافعي في «المختصر»، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم.

وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونصَّ الشَّافعي علىٰ أنَّه يُقال ذلك.

وهل يقال لهن: أُمَّهات المُؤْمِنَات، فيدخل النِّساء في جمع المذكَّر السَّالم تغليبًا؟ فيه قولان: صحَّ عن عائشة ﵂ أنَّها قالت: لا يُقَال ذلك[(٤)] . وهذا أصحُّ الوجهين في مذهب الشَّافعي ﵀.

وقد روي عن أُبي بن كعب وابن عبَّاسٍ أنهما قرآ: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ»[(٥)] ، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشَّافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود:

حدَّثنا عبد الله بن محمَّد النفيلي، حدَّثنا ابن المبارك، عن محمَّد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ[(٦)] ، فَإِذَا أَتَىٰ أَحَدُكُمُ الغَائِطَ فَلَا يَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرْهَا، وَلَا يَسْتَطِبْ[(٧)] بِيَمِينِهِ»، وكان يأمر بثلاثة

---

(١) البخاري (٢٣٩٩)، وابن جرير (٢١/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم (١٧٥٨٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أحمد (٢/ ٣٥٦)، وهو عند البخاري من هذا الطريق (٦٧٤٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٢٩٦)، وأبو داود (٣٣٤٣)، والنسائي (٤/ ٦٥).

(٤) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٧)، وأخرج ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٤٧)، وابن المنذر، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٧٠)، ورواه أبو نعيم في «مسانيد فراس» (٢٥)، وإسناده صحيح عن عائشة؛ أن امرأة قالت لها: يا أمي. فقالت: أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم.

وأخرج ابن سعد (٨/ ١٧٨) عن أم سلمة قالت: أنا أم الرجال منكم والنساء.

(٥) أثر أُبيّ رواه البيهقي في «سننه» (٧/ ٦٩)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٧) إلىٰ عبد الرزاق (١٣١٦، ١٣٠٧) وسعيد بن منصور وإسحاق بن راهويه وابن المنذر، وبعض طرقه صحيحة.

وأما أثر ابن عبَّاس فقد رواه الحاكم (٣/ ٤١٥)، وصححه وتعقبه الحافظ الذهبي فقال: بل طلحة ساقط. يعني أحد رواة السند، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» إلىٰ الفريابي وابن مردويه والبيهقي (٧/ ٦٩).

(٦) لوحة (٢٣٣ ب).

(٧) الاسْتِطَابَة والإطابة: كِنايةٌ عن الاسْتِنْجاء. سُمِّي بها من الطيب؛ لأنه يُطَيِّبُ جَسَده بإزالة ما عليه من الخَبَثِ

أحجارٍ، وينهىٰ عن الروث والرمة(١).

وأخرجه النسائي وابن ماجة، من حديث ابن عجلان.

والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: القرابات أولىٰ بالتَّوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخةٌ لما كان قبلها من التَّوارث بالحلف والمؤَاخَاة الَّتِي كانت بينهم، كما قال ابن عبَّاس وغيره: كان المهاجري يَرِثُ الأنصاري دون قَرَابَاتِهِ وذوي رحمه، للأُخوَّة التي آخىٰ بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحدٍ من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثًا عن الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي -من ساكني بغداد- عن عبد الرَّحمن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزُّبير بن العوَّام قال: أنزل الله عز وجل فينا خاصَّة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، وذلك أنَّا معشر قريش لما قَدِمنا «المدينة» قَدِمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم ووارثناهم. فآخىٰ أبو بكر خارجة بن زيد، وآخىٰ عمر فلانًا، وآخىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلًا مِن بني زُرَيق، سعد الزرقي، ويقول بعض النَّاس غيره. قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرىٰ، فوَاللهِ [يا بني](٢)، لو مات يومئذٍ عن الدنيا، ما ورثه غيري، حتىٰ أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلىٰ مواريثنا(٣).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النَّصر والبر والصِّلة والإحسان والوصيَّة.

وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم، وهو أنَّ أُولِي الأرحام بعضهُم أولَىٰ ببعضٍ، حكم من الله مقدَّرٌ مكتوبٌ في(٤) الكتاب الأوَّل، الَّذِي لا يبدَّل، ولا يغيَّر. قاله مجاهد وغيرُ واحدٍ. وإن كان قد يُقَال: قد شرع خلافه في وقتٍ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنَّه سينسخه إلىٰ ما هو جارٍ في قدره الأزليِّ وقضائه القَدَرِيِّ الشَّرعي.

= بالاسْتِنْجاء؛ أي: يُطَهِّره. يقال منه: أطابَ واسْتَطاب. «النهاية».

(١) حسن: أبو داود (٨)، والنسائي (١/ ٣٨)، وابن ماجة (٣١٣)، والنسائي (١/ ٣٨).

(٢) في (ز): (ما بي).

(٣) حسن رجاله ثقات: رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٨٣)، ورجاله ثقات عدا عبد الرحمن بن أبي الزناد: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد، ومعنىٰ الحديث صحيح كما ورد نحوه في آخر سورة الأنفال.

(٤) لوحة (٢٣٤أ).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن أُولي العزم الخمسة وبقيَّة الأنبياء: أنَّه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامةِ دين الله، وإبلاغ رسالته، والتَّعاون والتَّناصر والاتِّفاق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونصَّ مِن بينهم علىٰ هؤلاء الخمسة، وهم أولُو العزم، وهو من باب عطف الخاصِّ علىٰ العامِّ، وقد صرَّح بذكرهم أيضًا في هذه الآية، وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح(١) والخاتم، ومَنْ بينهما علىٰ التَّرتيب. فهذه هي الوصيَّة التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه -صلوات الله وسلامه عليه- ثم رتَّبهم بحسب وُجُودِهِم صلوات الله وسلامه عليهم.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة الدمشقي، حدَّثنا محمَّد بن بكار، حدَّثنا سعيد بن بشير، حدَّثني قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ [في قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ الآية: قال النَّبيُّ ﷺ](٢): «**كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ، [فَبُدِئَ بِي](٣) قَبْلَهُمْ**»، وسعيد بن بشير فيه ضعف(٤).

وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلًا وهو أشبه(٥)، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفًا(٦)، والله أعلم.

وقال أبو بكر البزار: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا(٧) حمزة الزيات، حدَّثنا علي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: خيارُ ولد آدم خمسةٌ: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمَّد، وخيرهم محمَّدٌ - صلىٰ الله عليهم وسلم - أجمعين. موقوفٌ، و«حمزة» فيه ضعفٌ(٨).

---

(١) في (ز): (الناتج). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٣) بياض في (ز).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٥٩٤)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣) في إسناده سعيد بن بشير: قال الحافظ ضعيف، (تقريب: ٢٢٧٦).

(٥) مرسل: الطبري (٢٠/ ٣١٣ - شاكر).

(٦) الطبري (٢٠/ ٣١٣). (٧) لوحة (٢٣٤ب).

(٨) رواه البزار (٢٣٦٨) «كشف الأستار»، وقال الهيثمي (٨/ ٢٥٨): رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، وأما قول ابن

وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق: الذي أُخذ منهم حين أُخرجوا في صورة الذَّرِّ مِن صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم -يعني: ذريته- وأن فيهم الغَنِيَّ والفقيرَ، وحسنَ الصُّورة، ودون ذلك، فقال: رَبِّ، لو سَوَّيتَ بين عبادك؟ فقال: إنِّي أَحْبَبْتُ أن أُشْكَر. وأُري فيهم الأنبياء مثل السُّرُج، عليهم كالنُّور، وخصُّوا بميثاقٍ آخر من الرِّسالة والنُّبوَّة، فهو الَّذي يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [(١)]. وهذا قول مجاهد أيضًا.

وقال ابن عبَّاس: الميثاق الغليظ: العهد.

وقوله: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرُّسل.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مِن أُمَمِهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعًا، فنحن نشهد أنَّ الرُّسل قد بَلَّغُوا رسالات ربِّهم، ونصحُوا الأمَمَ وأَفْصَحُوا لهم عَن الحقِّ المبينِ، الواضح الجليِّ، الَّذِي لا لَبْسَ فيه، ولا شكَّ، ولا امتراءَ، وإن كذَّبهم مَنْ كذبهم من الجهلة والمعاندين والمَارِقِين والقَاسطين، فما جاءت به الرُّسل هو الحق، ومَنْ خالفهم فهُو علىٰ الضَّلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نعمتِهِ وفضله وإحسانه إلىٰ عباده المؤمنين، في صَرْفِه أعداءهم وهزمِهِ إيَّاهم عام تألَّبوا عليهم وتحزَّبوا وذلك عام الخندقِ، وذلك في شوَّال سنة خمسٍ مِن الهجرة علىٰ الصَّحيح المشهور.

وقال موسىٰ بن عُقْبة وغيره: كانت في سنة أربع.

وكان سبب قدوم [(٢)] الأحزاب: أنَّ نفرًا من أشرافِ يهودِ بني النَّضير، الَّذين كانوا قد أجلَاهُم رسول الله ﷺ من «المدينة» إلىٰ خيبر، منهم: سلام بن أبي الحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الرَّبيع،

= كثير: حمزة فيه ضعف فقد وثقه ابن معين «تاريخ ابن معين» (١/ ١٠١)، وقال ابن سعد: وكان صدوقًا صاحب حديث (الطبقات ٦/ ٣٨٥)، وقول أبي هريرة صحيح ويشهد له حديث الشفاعة.

(١) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٨٥٣٧)، والآجري في «الشريعة» (٤٣٤)، وابن بطة في «الإبانة»: (١٣٣٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٢) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٦٦)، والضياء في «المختارة» (١١٥٨) من طرق عن أبي العالية عن أُبَيٍّ، وهذا إسناد صحيح.

(٢) لوحة (٢٣٥أ).

خرجوا إلىٰ مكَّة واجتمعوا بأشرافِ قريشٍ، وألَّبوهم علىٰ حربِ رسول الله ﷺ ووعدُوهُم مِن أنفسهم النَّصر والإعانة. فأجابُوهُم إلىٰ ذلك، ثمَّ خرجوا [إلىٰ](١) غَطَفَان فدعوهم فاستجَابُوا لهم أيضًا. وخرجت قريشٌ في أحَابِيشِها ومَن تابَعَهَا، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلىٰ غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريبٌ مِن عشرة آلاف، فلمَّا سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندقِ حول «المدينة» مما يَلِي الشَّرق، وذلك بإشارةِ سلمان الفارسي، فعَمِل المسلمون فيه واجتهَدُوا، ونقلَ معهُم رسول الله ﷺ التُّراب وحفَر، وكان في حَفرِهِ ذلك آياتٌ بيِّناتٌ ودلائل واضحات.

وجاء المشركُون فنزَلُوا شرقي «المدينة» قريبًا من «أُحد»، ونزلَت طائفةٌ منهم في أعالي أرض «المدينة»، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ، ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظهورَهُم إلىٰ سَلْع(٢) ووجوههم إلىٰ نحو العدوِّ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرَّجَّالة والخيَّالة أن تصل إليهم، وجعل النِّساء والذَّراري في آطام «المدينة»، وكانت بنو قريظة -وهم طائفة من اليهود- لهم حصنٌ شرقي «المدينة»، ولهم عهدٌ من النَّبيِّ ﷺ وذمَّة، وهم قريبٌ مِن ثمانمائة مقاتلٍ فذهب إليهم حُيَيُّ بن أخطب النَّضري [اليهودي](٣)، فلم يزل بهم حتَّىٰ نقضوا العهد، ومالَئُوا الأحزاب علىٰ رسول الله ﷺ، فعَظُم الخَطْب واشتدَّ الأمر وضاقَ الحال، كما قال الله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ومكثوا محاصرين للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه قريبًا من شهرٍ، إلا أنَّهم لا يَصِلُون إليهم، ولم يقع بينهم قتالٌ، إلا أن عمرو بن عبد ودّ(٤) العامري -وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهليَّة- رَكِبَ ومعه فوارس فاقتحموا الخندقَ، وخلَصُوا إلىٰ ناحيةِ المسلِمين، فندب رسولُ الله ﷺ خيل المُسْلِمين إليه، فلَمْ يبرُز إليه أحدٌ، فأَمَرَ عليًّا فخرج إليه، فتجاوَلَا ساعةً، ثم قتله عليٌّ ﷺ فكان علامةً علىٰ النَّصر(٥).

ثم أرسل الله ﷻ علىٰ الأحزاب ريحًا شديدةَ الهبوب قويَّةً، حتىٰ لم تَبْقَ لهم خيمةٌ ولا شيءٌ ولا تُوقَد لهم نارٌ، ولا يَقِرُّ لهم قرارٌ حتىٰ ارتحلوا خائبينَ خاسرين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾.

قال مجاهد: وهي «الصبا»، ويؤيِّده الحديث الآخر: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»(٦).

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا عبد الأعلىٰ، حدَّثنا داود، عن عِكْرمة قال: قالت الجنوبُ للشَّمال ليلة الأحزاب: انطلِقِي ننصرْ رسول الله ﷺ فقالت الشَّمال: إنَّ الحرة لا تسري باللَّيل. قال: فكانت الرِّيح التي أرسلت عليهم الصَّبا.

---

(١) سقط من (ز). (٢) سَلْع: جبل بالمدينة. (٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٢٣٥ب).

(٥) قال الشيخ مقبل بن هادي الوادعيُّ رحمه الله: إن أصل القصة ثابت وهي بروز عليٍّ لعمرو بن ود وقتله إياه. «إجابة السائل» (ص٤٦٥). (٦) رواه البخاري (١٠٣٥).

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيدٍ الأشَجِّ، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ فذكره[(١)].

وقال ابن جريرٍ أيضًا: حدَّثنا يونس، حدَّثنا ابن وَهْبٍ، حدَّثني عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله ابن عمر قال: أرسلني خالي عبد الله[(٢)] بن مَظْعون ليلة الخندق في بردٍ شديدٍ وريح إلىٰ «المدينة»، فقال: ائتنا بطعامٍ ولحافٍ. قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي، وقال: «مَنْ أَتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا». قال: فذهبت والرِّيح تسفِي كلَّ شيءٍ، فجعلت لا ألقىٰ أحدًا إلا أَمَرْتُهُ بالرُّجوع إلىٰ النَّبيِّ ﷺ قال: فمَا يلوِي أحدٌ منهم عنقه. قال: وكان معي ترسٌ لي، فكانت الرِّيح تضربه عليَّ، قال: وكان فيه حديدٌ، قال: فَضَرَبَتْهُ الرِّيح حتىٰ وقع بعض ذلك الحديد علىٰ كفِّي، فأنفدها إلىٰ الأرض[(٣)].

وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرُّعب والخوف، فكان[(٤)] رئيس كلِّ قبيلةٍ يقول: يا بني فلان إليَّ. فيجتمعون إليه فيقول: النَّجاء، النَّجاء. لما ألقىٰ الله تعالىٰ فِي قلوبهم مِن الرُّعب.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمَّد بن كعبٍ القُرَظِيِّ قال: قال فتًىٰ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله ﷺ وصَحِبْتُمُوه؟ قال: نعم يا ابن أخي. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنَّا نجهد. قال الفتىٰ: والله لو أدركناه ما تَرَكْنَاه يمشِي علىٰ الأرض ولحملناه علىٰ أعناقنا. قال: قال حذيفة: يا ابن أخي، والله لَوْ رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلَّىٰ رسول الله ﷺ هُوِيًّا[(٥)] من اللَّيل، ثم التفت فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ؟ - يشرط له النَّبيُّ ﷺ أنَّه يرجع- أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ». قال: فما قام رجلٌ. ثم صلَّىٰ رسول الله ﷺ هويًّا من اللَّيل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منَّا رجلٌ. ثم صلَّىٰ رسول الله ﷺ هُويًّا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ؟ -يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة- أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ». فما قام رجلٌ مِنَ القَوْمِ؛ مِن شدَّة الخوف، وشدَّة الجوع، وشدَّة البرد. فلمَّا لَمْ يقُم أحدٌ، دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لِي بُدٌّ مِن القيام حين دعاني فقال: «يَا حُذَيْفَةُ، اذْهَبْ

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٢١/ ١٢٧) عن عكرمة من قوله، ورواه ابن أبي حاتم (١٧٦٠١) عن ابن عبَّاس موقوفًا.

(٢) هكذا في (ز)، وهو الصواب، خلافًا لما في بعض النسخ و «تفسير الطبري»، فقد ذكرت «عثمان بن مظعون»، وهو خطأٌ شديدٌ، فعثمان بن مظعون ﵁ توفي بعد شهوده بدرًا في السنة الثانية من الهجرة، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وأما عبد الله بن مظعون فتوفي عام (٣٠هـ)، وانظر: «الإصابة» (٤/ ٢٢٥).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٢١/ ١٢٧)، وفيه عبد الله بن عمر العمري: ضعيف.

(٤) لوحة (٢٣٦أ).

(٥) أي: جزءًا من الليل.

فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا». قال: فذهبت فدخلت [في القوم][1] والرِّيح وجنود الله عَجَلْ تفعَلُ بهم ما تَفْعَلُ، لا تُقِرُّ لهم قِدْرًا[2][3] ولا نارًا ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه. قال حذيفة: فأخذتُ بيد الرَّجل الَّذِي إلىٰ جنبي، فقلت: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنَّكم والله ما أصبحتم بدارِ مقامٍ، لقد هلك الكُرَاعُ[4] والخُفُّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبَلَغَنا عنهم الَّذي نكْرَهُ، ولقينا مِن هذه الرِّيح الَّذِي ترون. والله ما تطمئن لنا قِدْرٌ، ولا تَقُوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناءٌ، فارتحلوا، فإنِّي مُرْتَحِلٌ، ثم قام[5] إلىٰ جَمَله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به علىٰ ثلاث، فما أطلق عقَالَه إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ: «أَلَّا تُحْدِثَ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي»، ثم شئتُ، لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلىٰ رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يصلي في مِرْطٍ[6][7] لبعض نسائه مُرَحلٍ، فلما رآني أدخلني بين رجليه، وطرح عليَّ طرف المرْطِ، ثم ركع، وسجد وإنِّي لفيه، فلما سَلَّم أخبرته الخبر، وسمعت غَطَفان بما فعلت قريش، فانشمروا[8] راجعين إلىٰ بلادهم[9].

وقد رواه مسلم في «صحيحه» من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجلٌ: لو أدركتُ رسول الله ﷺ، قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟ لقد رَأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلةٍ ذات ريحٍ[10] شديدةٍ وقُرٍّ[11]، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، يَكُونُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟». فلم يجبه منَّا أحدٌ، ثمَّ الثَّانية، ثم الثَّالثة مثله. ثم قال: «يَا حُذَيْفَةُ، قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرٍ مِنَ الْقَوْمِ». فلم أجد بدًّا إذ دَعَانِي باسمي أن أقوم، فقال: «ائْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ[12]». قال: فمضيت كأنَّما أمشي في حَمَّامٍ[13] حتىٰ أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلَىٰ

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): (قرارًا)، والمثبت من «سيرة ابن هشام».
(٣) القِدْر: وعاء يطبخ فيه. (٤) الكُرَاع: اسم لجميع الخيل، ويعني بالخف: الإبل.
(٥) لوحة (٢٣٦ ب).
(٦) المِرْط: كساء من صوفٍ، وربما كان من خزٍّ أو غيره، وجمعه: مروط، ومرط مرحل: نقش فيه تصاوير الرحال.
(٧) في (ز): (في مرض). (٨) أي: أسرعوا.
(٩) سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٦)، وسيأتي نحوه في «صحيح مسلم»، انظر الآتي.
(١٠) في (ز): (برد شديد وقر). (١١) القُر: البرد.
(١٢) معناه: لا تفزعهم عَلَيَّ، ولا تحركهم عَلَيَّ، وقيل: معناه لا تنفرهم. وهو قريب من المعنىٰ الأول، والمراد: لا تحركهم عليك؛ فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضررًا عَلَيَّ؛ لأنك رسولي وصاحبي. «شرح مسلم» للنووي.
(١٣) يعني: أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئًا، بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتىٰ عاد إلىٰ النبي ﷺ، فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله ﷺ، ولفظة الحمام عربية، وهو مذكر مشتق من الحميم، وهو الماء الحار. «شرح مسلم».

ظهره[١] بالنَّار، فوضعت سهمًا في كَبِد قوسي[٢]، وأردت أن أرميَه، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله ﷺ: «لا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، ولو رَمَيْته لأصبته. قال: فرجعت كأنَّما أمشي في حَمَّام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فَرَغتُ وقُررْتُ فأخبرتُ رسول الله ﷺ، وألبسني مِن فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يصلِّي فيها، فلم أَزَلْ نائمًا حتىٰ الصُّبح، فلمَّا أن أصبحتُ قال رسول الله ﷺ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»[٣].

ورواه يونس بن بُكَيْر، عن هشام بن سعد، عن زيد[٤] بن أسلم: أن رجلًا قال لحذيفة رضي الله عنه: نشكو إلىٰ الله صحبتكم لرسول الله ﷺ؛ إنكم أدركتموه ولم ندركه، ورأيتموه ولم نره. فقال حذيفة: ونحن نشكو إلىٰ الله إيمانكم به ولم تروه، والله لا تدري يا ابن أخي، لو أدركتَه كيف كنتَ تكونُ؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخَندقِ في ليلةٍ باردةٍ مَطِيرةٍ... ثم ذكر نحو ما تقدَّم مطوَّلًا[٥].

وروىٰ بلال بن يحيىٰ العَبْسي، عن حذيفة نحو ذلك أيضًا.

وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عكرمة بن عمار، عن محمَّد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذَكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أمَا واللهِ لو شَهِدْنا ذلك لكنَّا فَعَلْنَا وفَعَلْنَا. فقال حذيفة: لا تمنَّوْا ذلك. لقد رأيتُنا ليلةَ الأحزاب ونحن صافُّون قُعودٌ، وأبو سفيانَ ومَنْ معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفلَ منَّا نخافهم علىٰ ذَرارِينَا، وما أتَت علينا قطُّ أشدُّ ظلمةً ولا أشدُّ ريحًا، في أصوات رِيحها أمثال الصَّواعق، وهي ظلمةٌ ما يرىٰ أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النَّبيَّ ﷺ، ويقولون: «إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ». فما يستأذِنُهُ أحدٌ منهم إلا أَذِن له، ويَأْذَن لهم فيتسَلَّلُون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رَجُلًا رجلًا حتىٰ أتىٰ عَلَيَّ وما عَلَيَّ جُنَّةٌ[٦] من العدوِّ ولا مِن البرد إلَّا مِرْطٍ لامرأتي، ما يجاوز ركبتي. قال: فأتاني ﷺ وأنا جَاثٍ علىٰ ركبتي فقال: «مَنْ هَذَا؟» فقلت: حذيفة. قال: «حُذَيْفَةُ». فتقاصرت[٧] بالأرض فقلت: بلىٰ يا رسول الله، كراهية أن أقوم. [قال: «قُمْ»][٨]. فقمت، فقال: «إِنَّهُ كَائِنٌ[٩] فِي الْقَوْمِ خَبَرٌ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ» -قال: وأنا من أشدِّ النَّاس فزعًا وأشدهم قُرًّا- قال: فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ، احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ». قال: فوالله ما خلق الله فزعًا ولا قرًّا في جوفي إلا خرج[١٠] مِن جوفي، فما أجد فيه شيئًا. قال: فلمَّا ولَّيت قال: «يَا حُذَيْفَةُ، لا تُحْدِثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّىٰ

---

(١) أي: يدفئه ويدنيه منها. (٢) كبد القوس: مقبضها، وكبد كل شيء وسطه.
(٣) مسلم (١٧٨٨)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٥٦) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٥٤).
(٤) لوحة (٢٣٧أ). (٥) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٥٠ - ٤٥٥).
(٦) **الجُنَّة**: كل ما يقي.
(٧) المعنىٰ: أنه تكلف القِصَر؛ حتىٰ يكون ذلك سببًا في عدول النبي ﷺ عن تكليفه بالأمر.
(٨) سقط من (ز). (٩) في (ز): (إن كان). (١٠) لوحة (٢٣٧ب).

تَأْتِيَنِي». قال: فخرجت حتىٰ إذا دَنَوْتُ مِن عسكر القوم نظرتُ في ضوءِ نارٍ لهم تَوَقَّدُ، وإذا رجلٌ أدهمُ ضخمٌ يقولُ بيده[١] علىٰ النَّار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهمًا مِن كنانتي أبيض الرِّيش، فأضعه في كَبِد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تُحدِثَنَّ فِيهِمْ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي»، [فأمسكت][٢]؛ ورددت سَهْمِي إلىٰ كنانتي، ثم إني شَجَّعت نفسِي حتَّىٰ دخلت العسكر، فإذا أدنىٰ النَّاس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيلَ الرحيلَ، لا مُقام لكم. وإذا الرِّيح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرًا، فوَالله إنِّي لأسمع صوتَ الحِجَارَةِ في رحالهم وَفُرُسَتْهُمُ[٣][٤] الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا انتصفت في الطَّريق أو نحوًا من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارسًا أو نحو ذلك مُعْتَمِّين، فقالوا: أَخْبِر صاحبك أنَّ الله تعالىٰ كفَاه القوم. فرجعت إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو مشتملٌ في شملةٍ يُصَلِّي، فوالله ما عدا أن رجعت رَاجَعَني القُرُّ وجعلت أُقَرْقِفُ[٥]، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ [بيدِه][٦] وهو يُصَلِّي، فدَنَوْت منه، فأسبل عليَّ شملته[٧]. وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلَّىٰ، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أني تركتهم يترحلون، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٨].

وأخرج أبو داود في «سننه» منه: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ[٩]، من حديث عكرمة بن عمار به.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ تقدَّم عن حذيفة أنَّهم بنو قريظة، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: من شِدَّة الخوف والفزَع، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

قال ابن جرير[١٠]: ظنَّ بعض مَنْ كان مع رسول الله ﷺ أنَّ الدَّائرة علىٰ المؤمنين، وأنَّ الله سيفعل ذلك.

وقال محمَّد بن إسحاق في قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظنَّ المؤمنون كلَّ ظنٍّ، ونَجَمَ النِّفاق حتىٰ قال مُعَتِّب بن قشير -أخو بني عمرو بن عوف-:

---

(١) أي: يضعها علىٰ النار.
(٢) سقط من (ز).
(٣) أي: افترستهم، كالحيوان المفترس.
(٤) في (ز): (ورسهم الريح).
(٥) أي: أرعد من شدة البرد.
(٦) سقط من (ز).
(٧) في (ز): (فأسبل علي شملة).
(٨) رواه الحاكم (٣٠/ ٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥١ - ٤٥٣)، وفي إسناده أبو حذيفة موسىٰ بن مسعود النهدي: صدوق سيئ الحفظ، ومحمَّد بن عبيد لم يوثقه غير ابن حبان، وعليه: فالحديث بهذا السياق ضعيف، ويكفي في ذلك ما تقدم من رواية مسلم، وليس فيها سبب نزول الآية.
(٩) حسن: رواه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨).
(١٠) لوحة (٢٣٨أ).

كان محمَّدٌ يَعِدُنا أن نأكل كنوز كِسْرَىٰ وقيصر، وأحدنا لا يقدِرُ علىٰ أن يذهب إلىٰ الغَائِطِ.

وقال الحسن في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظنونٌ مختلفةٌ، ظنَّ المنافقون أنَّ محمَّدًا وأصحابه سيُسْتَأْصَلُون، وأيقن المؤمنون أنَّ ما وعد الله ورسوله حقٌّ، وأنَّه سيُظْهِرُه علىٰ الدِّين كلِّه ولو كره المشركون.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدَّثنا أبو عامر (ح) وحدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو عامر العقدي، حدَّثنا الزبير - يعني: ابن عبد الله، مولىٰ عثمان بن عفان- عن رُبَيْح بن عبد الرحمن ابن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: «نَعَمْ، قُولُوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا». قال: فضرب وجوه أعدائِهِ بالرِّيح، فهزمهم بالرِّيح، وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي عامر العقدي[(١)].

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول «المدينة»، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضِّيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم: إنَّهم ابتُلوا واختُبروا وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فحينئذٍ ظهر النِّفاق، وتكلَّم الَّذين في قلوبهم مَرَضٌ بما في نفوسِهِم.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أمَّا المنافق، فنجَم نِفاقُه، والَّذي في قلبه شبهةٌ أو حَسِيكَةٌ[(٢)]، ضَعُفَ حاله فتنفَّس بما يجده من[(٣)] الوسواس في نفسه؛ لضَعْف إيمانه، وشدَّة ما هو فيه مِن ضيقِ الحال.

وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: «المدينة»، كما جاء في «الصحيح»: «أُرِيتُ [فِي المَنَامِ][(٤)] دَارَ هِجْرَتِكُمْ، أَرْضٌ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ؛ فَذَهَبَ وَهْلِي[(٥)] أَنَّهَا هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ»، وفي لفظٍ: «المَدِينَةُ»[(٦)].

فأمَّا الحديثُ الَّذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيم بن مهدي، حدَّثنا صالح بن عمر، عن يزيد بن

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣)، وفيه الزبير بن عبد الله وربيح بن أبي سعيد: كلاهما ضعيف.

(٢) الحَسِيكة: العداوة والحقد. (٣) لوحة (٢٣٨ب). (٤) سقط من (ز).

(٥) وهلي: وهمي. وهَجَرُ: اسمٌ لجميع أرض البحرَيْن. وقال ابنُ الأثير: بلدٌ معروف بالبَحرَيْن. وقال غيرُه: هو قَصَبةُ بلادِ البحرَيْن. «تاج العروس».

(٦) رواه البخاري (٣١٢٤) (٣٦٢٦).

أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن البراء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّىٰ (المَدِينَة) يَثْرِبَ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ، هِيَ طَابَةُ، هِيَ طَابَةُ»[(١)]. تفرَّد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم.

ويقال: إنَّما كان أصل تسميتها «يثرب» برجلٍ نزلها مِن العماليق يُقَال له: يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عِمْلاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. قاله السُّهيلي، قال: وروي عن بعضهم أنه قال: إنَّ لها [في التوراة][(٢)] أحد عشر اسمًا: «المدينة»، و«طابة»، و«طيبة»، و«المسكينة»، و«الجابرة»، و«المحبة»، و«المحبوبة»، و«القاصمة»، و«المجبورة»، و«العذراء»، و«المرحومة».

وعن كعب الأحبار قال: إنَّا نجد في التَّوراة يقول الله للمدينة: يا طَيْبة، ويا طابة، ويا مسكينة، [لا تقلِّي الكنوز، أرفع أحاجرك علىٰ أحاجر القُرَىٰ][(٣)].

وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: هاهنا، يعنون عند النَّبيِّ ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلىٰ بيوتكم ومنازلكم. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾: قال العوفي، عن ابن عبَّاس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتُنا نخاف عليها السَّرَقَ[(٤)]. وكذا قال غير واحدٍ.

وذكر ابن إسحاق: أنَّ القائل لذلك هو: أوس بن قَيظي؛ يعني: اعتذروا في الرجوع إلىٰ منازلهم بأنَّها عَورَة؛ أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدوِّ، فهم يَخْشَوْن عليها منهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: هَرَبًا من الزَّحف.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ[(٥)] إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٢٨٥)، وفيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف.

(٢) ليست في (ز). (٣) بياض في (ز).

(٤) رواه الطبري (٢١/ ١٣٥)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: هل يستفاد من الآية إبطال الأسباب؛ لأن الإنسان لو رأىٰ نارًا تلتهم الشَّجر مقبلةً عليه، هل يهرب أم لا؟ يهرب؛ لأنه ربما ينجو.

- ولو قال قائل: هذه الآية تنفي العمل بالسبب.

فالجواب علىٰ ذلك أن نقول: إذا كان العمل بالسبب مبطل لحكم شرعيٍّ، فإنه لايجوز كهذه الآية أو كهذه الحال.

فإبطال الأسباب القدرية بانتهاك الأحكام الشرعية، هذا لا يجوز؛ يعني: كون الإنسان يترك الحكم الشرعي الواجب؛ خوفًا من آثاره، فهذا ليس بجائزٍ، لكن إذا كان سببًا حقيقًا مأذونًا فيه شرعًا، فلتفعله، لا نقول للرجل: إذا رأيت النار مقبلةً عليك فقف، فإن الفرار لا ينفعك، فهذا غير صحيح، بل نقول في هذه الحال: فِرَّ؛ لأن هذا سببٌ مباحٌ، مأذونٌ فيه شرعًا، وسببٌ حقيقيٌّ، لكن أن نجعل الأسباب معطلةً للأحكام الشرعية، فهذا لا يجوز.

يخبر تعالىٰ عن هؤلاء الَّذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أنَّهم لو دَخل عليهم الأعداء مِن كلِّ جانبٍ مِن جوانب «المدينة»، وقُطرٍ مِن أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدُّخول في الكُفر لكفروا سريعًا، وهم لا يحافِظُون علىٰ الإيمان، ولا يَسْتَمْسِكُون به مع أَدْنَىٰ خوفٍ وفزعٍ.

هكذا فسَّرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذمٌّ لهم في غاية الذَّمِّ.

ثم قال تعالىٰ يذكرهم بما كانُوا عاهدوا الله مِن قبل هذا الخَوْف، ألا يولُّوا الأدبار ولا يَفِرُّوا من الزَّحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: وإن الله تعالىٰ سيسألهم عَن ذلك العهد لا بدَّ من ذلك.

ثم أخبرهم أنَّ فِرَارهم ذلك لا يؤَخِّر آجالَهُم، ولا يُطَوِّل أعمارهم، بل رُبَّما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذِهِم غِرَّةً؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هَرَبكم وفراركم، ﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

ثم قال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم مِن الله، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ليس لهم ولا لِغَيْرِهِم مِن دون الله مجيرٌ ولا مغيثٌ[(١)].

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾

يخبر تعالَىٰ عن إحاطةِ علمِهِ بالمعوِّقين لغيرهم عن شهودِ الحرب، والقَائِلين لإخوانهم؛ أي: أصحابهم وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: إلىٰ ما نَحْن فيه من الإقامة في الظِّلال والثِّمار، وهم مع ذلك ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بُخَلاء بالمودَّة، والشَّفقة عليكم.

وقال السُّدِّي[(٢)]: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الغنائم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: مِن شدَّة خوفه وجزَعِه، وهكذا خوف هؤلاء الجُبَنَاء من القِتَال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأَمْن، تَكَلَّموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادَّعَوْا لأنفسهِمُ المقامات العالية في الشَّجاعة والنَّجدة، وهم يَكْذِبُون في ذلك.

وقال ابن عبَّاسٍ: ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: استقبلوكم.

وقال قتادة: أَمَّا عند الغنيمة فأشَحُّ قومٍ، وأسوأه مقاسمة: أعطُونا، أعطُونا، قد شَهِدْنا معكم. وأمَّا

---

(١) في (ز): (مجيرًا ولا مغيثًا). (٢) لوحة (٢٣٩ب).

عند البأس فأَجْبَنُ قوم، وأخذله للحقِّ.

وهم مع ذلك أَشِحَّةٌ علىٰ الخير؛ أي: ليس فيهم خير، قد جَمَعُوا الجُبْنَ والكَذِبَ وقلَّة الخيرَ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَارًا جَفَاءً وَغِلْظَةً ... وَفِي الحَرْبِ أَمْثَالَ النِّسَاءِ العَوَارِكِ

أي: فِي حال المسالمة كأنَّهم الحمير. والأعيار: جمع عير، وهو الحمار، وفي الحَرْب كأنَّهم النِّساء الحُيَّض؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا هينًا عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾

وهذا أيضًا مِن صفاتهم القبيحة في الجبن والخوف والخور، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ بل هم قريبٌ منهم، وإنَّ لهم عودةً إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: ويَوَدُّون إذا جاءت الأحزاب أنَّهم لا يكونون حاضرين معكم في «المدينة» بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان مِن أمركم مع عَدُوِّكُم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهُرِكُم، لما قاتلوا مَعَكُم إلا قليلًا؛ لكثرة جُبْنِهِم وذلَّتِهِم وضعف يَقِينِهِم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ (١) وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ (٢) إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾

هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التَّأسِّي برسول الله ﷺ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ؛ ولهذا أمر

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: استدل بعض الجهال بهذه الآية في مشروعية ختم القرآن بقولهم: صدق الله العظيم، وقالوا: كيف تنكرون علينا إذا أتممنا القراءة وقلنا: صدق الله العظيم، مع أن الله يقول: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ويقول: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ ماذا نقول في الجواب علىٰ هذه الشبهة؟

نقول: نحن لا ننكر أن يقول أحد: صدق الله ورسوله، لما نراه من الإيمان، بأن يقول الإنسان: صدق الله ورسوله، وأن من لم تكن عقيدته هذه فهو كافرٌ، لكننا ننكر أن نجعل هذه الثناء علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ عند الانتهاء من التلاوة، مع أنه لم يرد، فهل نحن أعلم بشريعة الله من رسول الله؟ وهل نحن أحرص منه علىٰ تطبيق شريعة الله؟! أبدًا، فإذا لم يكن كذلك، فإن الواجب علينا أن نحذو حذوه، وإذا كان يقول عند انتهاء تلاوته: صدق الله، فإننا نقولها علىٰ العين والرأس، وإذا كان لا يقولها، فلا نقولها، ونقول لهم: إذا كنتم تعتقدون مشروعية ذلك، فقولوها -أيضًا- في الصلاة، إذا انتهيتم من القراءة في الصلاة، قبل أن تكبروا قولوا: صدق الله؛ لأن التلاوة في الصلاة أفضل من التلاوة في خارج الصلاة؛ المهم: أنه لا دليل في مثل هذه الآية.

(٢) لوحة (٢٤٠أ).

النَّاس بالتَّأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ يوم الأحزاب، في صبْرِهِ ومصابرَتِهِ ومرابطتِهِ ومجاهدتِهِ وانتظاره الفرج مِن ربِّه ﷻ -صلوات الله وسلامه عليه- دائمًا إلىٰ يوم الدين؛ ولهذا قال تعالىٰ للَّذِين تقلَّقوا وتضَجَّروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلَّا اقتديتم به وتأسَّيْتُم بشمائله؟ ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدِّقين بموعود الله لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

قال ابن عبَّاس وقتادة: يعنون قوله تعالىٰ في «سورة البقرة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النَّصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ دليلٌ علىٰ زيادةِ الإيمان وقوَّته بالنِّسبة إلىٰ النَّاس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمَّة: إنه يزيد وينقص. وقد قرَّرنا ذلك في أول «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنَّة.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ذلك الحال والضِّيق والشِّدَّة [ما زادهم][1] ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقيادًا لأوامره، وطاعةً لرسُولِهِ.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

لمَّا ذكر عن المنافقين أنَّهم نقضوا العهد الَّذِي كانوا عاهدوا الله[2] عليه لا يُوَلُّون الأدبار، وصف المُؤْمِنِين بأنَّهم استمروا علىٰ العهد والمِيثَاق و﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، قال بعضهم: أَجَلَهُ.

وقال البخاري: عهده. وهو يَرْجع إلىٰ الأوَّل.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيَّروا عهدَ الله، ولا نَقَضُوه ولا بدَّلُوه.

قال البخاريُّ: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزُّهري قال: أخبرني خارجة بن زيد بن

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٢٤٠ب).

ثابت، عن أَبِيهِ قال: لما نسخنا المصحف فَقَدتُّ آيةً من «سورة الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ﷺ يَقْرَؤُها، لم أجدها مع أحدٍ إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري -الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين-: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(١).

انفرد به البخاري دون مسلم. وأخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي والنسائي -في (التفسير) من «سننيهما»- من حديث الزهري به. وقال التِّرمذي: «حسن صحيح».

وقال البخاري أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الأنصاري، حدَّثني أبي، عن ثُمامَة، عن أنس بن مالك قال: نرىٰ هذه الآية نزلت في أنسِ بن النضر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(٢) الآية.

انفرد به البخاريُّ مِن هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرقٍ أُخر.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عمِّي أنس بن النضر سُمِّيت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدرٍ، فشَقَّ عليه وقال: أوَّل مشهدٍ شَهِدَه رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ عنه، لَئِنْ أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَّ الله ما أَصْنَعُ. قال: فهاب أَن يقول غيرها، فشَهِدَ مع رسول الله ﷺ [يوم](٣) أُحُدٍ، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو(٤) [أين](٥) واهًا(٦) لريحِ الجنَّة أجده دون أُحدٍ، قال: فقاتلهم حتىٰ قُتل. قال: فَوُجد في جسده بضعٌ وثمانون مِن ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ، فقالت أخته -عمتي الرُّبَيِّعُ ابنة النَّضرِ-: فما عرفتُ أخي إلا بِبَنَانِهِ. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟(٧) مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾. قال: فكانوا يَرَون أَنَّها نزلت فيه وفي أصحابه(٨).

ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة به. ورواه النسائي أيضًا وابن جرير من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس به نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا حميد، عن أنس: أنَّ عمه -يعني: أنس بن النَّضر- غاب عن قتال بَدرٍ، فقال: غُيِّبتُ عن أوَّل قتالٍ قاتلَهُ رسول الله ﷺ المشركين، لئن الله أشهدني قتالًا للمشركين، لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع. قال: فلمَّا كان يوم أحدٍ انكشف

---

(١) البخاري (٤٧٨٤)، والترمذي (٣١٠٤)، والنسائي في «التفسير» (٤٢١).

(٢) البخاري (٤٧٨٣).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (يا أبا عمر)، والمثبت هو الصواب.

(٥) في (ز): (أَينْ)، والمثبت كما في «المسند».

(٦) واهًا: كلمة تحنن وتلهف، قالها أنسٌ لسعد.

(٧) لوحة (٢٤١أ).

(٨) مسلم (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٩٤)، والترمذي (٣٢٠٠)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٨٦)، وفي «التفسير» (٤٢٢).

المسلمون، فقال: اللَّهم إنِّي أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني: أصحابه- وأبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء -يعني: المشركين- ثم تقدَّم فلَقِيَه سعد -يعني: ابن معاذ- دون أحدٍ، فقال: أنا مَعَكَ. قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع. قال: فوجد فيه بضع وثمانون ضربةَ سيفٍ، وطَعنةَ رمحٍ، ورميةَ سهمٍ. وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه نزلت: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[(١)] .

وأخرجه التِّرمذي في (التَّفسير) عن عبد بن حميد، والنَّسائي فيه أيضًا، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما عن يزيد بن هارون به. وقال التِّرمذي: حسنٌ. وقد رواه البخاري في «المغازي»: عن حسَّان ابن حسان، عن محمَّد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن[(٢)] أنس، به، ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن الفضل العسقلاني، حدَّثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسىٰ بن موسىٰ بن طلحة بن عبيد الله، حدَّثني أبي، عن جدي، عن موسىٰ بن طلحة، عن أبيه طلحة قال: لما أن رجع النَّبيُّ ﷺ من أُحُدٍ، صعد المنبر، فحَمِد الله وأثنىٰ عليه، وعَزَّىٰ المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. الآية كلها، فقام إليه [رجل][(٣)] من المسلمين فقال: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء؟ فأقبلت وَعَلَيَّ ثوبان أخضران حَضْرَميَّان فقال: «أَيُّهَا السَّائِلُ، هَذَا مِنْهُمْ»[(٤)] .

وكذا رواه[(٥)] ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلْحي به. وأخرجه الترمذي في (التفسير) و(المناقب) أيضًا، وابن جرير، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن طلحة بن يحيىٰ، عن موسىٰ وعيسىٰ ابني طلحة، عن أبيهما به. وقال: حسنٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من حديث يونس.

وقال أيضًا: حدَّثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدَّثنا أبو عامر -يعني: العقدي- حدَّثني إسحاق -يعني: ابن طلحة بن عبيد الله- عن موسىٰ بن طلحة قال: [دخلت علىٰ معاوية ﷺ فلمَّا خرجت، دعاني فقال: ألا أضعُ عندك يا ابن أخي حديثًا سَمِعْتُه مِن رسول الله ﷺ؟ أشهد لَسَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ»[(٦)] .

(١) البخاري (٤٠٤٨)، وأحمد (٣/ ٢٠١)، والترمذي (٣٢٠١)، والنسائي (٤٢٢)، وابن أبي حاتم (١٧٦٤١).
(٢) في (ز): (عن حميد بن أنس)، وهو خطأ. (٣) سقط من (ز).
(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٧٦٤٢)، والطبري (٢١/ ١٤٨)، والترمذي (٣٢٠٣، ٣٧٤٢).
(٥) لوحة (٢٤١ب).
(٦) رواه الترمذي (٣٢٥٢) (٣٧٤٥)، وابن ماجة (١٢٦)، والطبري (٢١/ ١٤٧)، وفيه إسحاق بن يحيىٰ: متروك. لكن الحديث حسن بالرواية السابقة.

ورواه ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عبد الحميد الحِمَّاني، عن إسحاق بن يحيىٰ بن طلحة الطَّلْحي، عن موسىٰ بن طلحة قال:] [1]قام معاوية بن أبي سفيان فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ».

ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قال: عهده، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قال: يومًا فيه قتال فيصدق في اللِّقاء.

وقال الحسن: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يعني: موته علىٰ الصِّدق والوفاء. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الموت علىٰ مثلِ ذلك، ومنهم مَنْ لَمْ يُبَدِّل تبديلًا. وكذا قال قتادة، وابن زيد.

وقال بعضهم: ﴿نَحْبَهُۥ﴾: نذره.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيَّروا عهدهم، وبدَّلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا علىٰ ما عاهدوا الله عليه، وما نَقَضُوه كفعل المنافقين الَّذين قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾.

وقوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾أي: إنما يختبر عباده بالخَوْف والزِّلزال ليَمِيزَ الخبيث من الطَّيِّب، فيُظهر أَمْرَ هذا بالفعل، وأمر هذا بالفِعْل، مع أنَّه تعالىٰ يعلم الشَّيء قبل كونه، ولكن لا يُعَذِّب الخلق بعلْمِهِ فيهِمْ، حتىٰ يعملوا بما يَعْلَمُه فيهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣١]، فهذا عِلْمٌ بالشَّيءِ بعد كوْنِهِ، وإن كان العِلْم السَّابق حاصلًا به قبل وجوده. وكذا قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ولهذا قال هاهنا: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصَبْرِهم علىٰ ما عاهدوا الله عليه، وقِيَامِهِم به، ومحافظتهم عليه. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾: وهم النَّاقضون لعهد الله المُخَالِفُون لأوامره، فاستحقُّوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم [2]تحت مشيئتِهِ في الدُّنيا، إن شاء اسْتَمَرَّ بهم علىٰ ما فعلوا حتىٰ يلقوه به فيُعَذِّبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلىٰ النُّزوع عن النِّفاق إلىٰ الإيمان، وعَمَلِ الصَّالح بعد الفُسُوق [والعِصْيَان] [3]. ولما كانت رأفته ورحمته بخلقه هي الغالبة [4]لغضبه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) لوحة (٢٤٢أ).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (هي الغاية).

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن «المدينة»، بما أرسل عليهم من الرِّيح والجُنُود الإلهيَّة، ولولا أن جعل الله رسوله رحمةً للعالمين، لكانت هذه الرِّيح عليهم أشدَّ من الرِّيح العقيم علىٰ عادٍ، ولكن قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ [وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ](١)﴾ [الأنفال: ٣٣]، فسَلَّط عليهم هواء فرَّق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهَوىٰ، وهم أخلاط مِن قبائلَ شتَّىٰ، أحزاب وآراء، فناسب أن يُرسِل عليهم الهَواء الَّذي فرَّق جماعتهم، وردَّهُم خائبين خاسِرين بغَيْظِهِم وحَنَقِهِم، لم يَنَالُوا خيرًا لا في الدُّنيا، مما كان في أنفسِهِم مِن الظَّفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحمَّلوه من الآثام في مُبَارَزَة الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه- بالعداوة، وهمِّهم بقَتْلِه، واستئصالِ جيشه، ومَنْ هَمَّ بشيءٍ وصَدَّق هَمَّه بفعْلِهِ، فهو في الحقيقة كفاعله.

وقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: لم يحتاجوا إلىٰ منازلتهم ومُبَارَزَتِهم حتَّىٰ يُجْلُوهُم عَن بلادهم، بل كفىٰ الله وَحْدَه، ونَصَر عبده، وأعزَّ جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ». أخرجاه مِن حديث أبي هريرة(٢).

وفي «الصَّحيحين» من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوْفىٰ قال: دعا رسول الله ﷺ علىٰ الأحزاب فقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ. اللَّهُمَّ، اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ»(٣). وفي قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إشارة إلىٰ وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المُسْلِمُون في بلادهم.

قال محمَّد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق(٤) قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُونَهُمْ»(٥) فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان هو يَغْزُوهُم بعد ذلك، حتىٰ فتح الله عليه مكَّة.

وهذا الحديث الذي ذكره محمَّد بن إسحاق حديث صحيح، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ، عن سفيان، حدَّثني أبو إسحاق قال: سمعت سليمان بن صُرَد يقول: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا»(٦).

وهكذا رواه البخاري في «صحيحه»، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق به.

---

(١) ليست في (ز).
(٢) البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٧٢٤).
(٣) البخاري (٢٢٢٣، ٤١١٥) ومسلم (١٧٤١).
(٤) لوحة (٢٤٢ ب).
(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٦)، وفي إسناده انقطاع، لكن الحديث صحيح، انظر ما بعده.
(٦) البخاري (٤١١٩)، وأحمد (٤/ ٢٦٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: بحوله وقوَّته ردَّهم خائبين، لم ينالوا خيرًا، وأعزَّ الله الإسلام وأهلَهُ وصدق وعده، ونصر رسولَهُ وعَبْدَه، فله الحمد والمنَّة.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾

قد تقدَّم: أنَّ بني قُرَيْظَة لما قدمت جنود الأحزاب، ونزلوا علىٰ «المدينة»، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَيِّ بن أخطب النَّضري -لعنه الله- دخل حصنهم، ولم يَزَلْ بسيِّدهم كعب بن أسد حتىٰ نقض العهد، وقال له فيما قال: وَيْحَكَ، قد جئتك بعِزِّ الدَّهر، أتيتك بقريشٍ وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتىٰ يستأصلوا محمَّدًا وأصحابه. فقال له كعب: بل والله أتيتني بذُلِّ الدَّهر. وَيْحَكَ يا حُيَيُّ، إنَّك مشئومٌ، فدَعْنَا منك. فلم يزل يفتل في الذِّروة والغَارب[(١)] حتىٰ أجَابَه، واشترط له حُيَيٌّ إِن ذهب الأحزابُ ولم يكن مِن أمرهم شيءٌ أن يدخل معهم في الحِصْن فيكون له أسوتهم. فلما نَقَضت قريظةُ وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه، وَشَقَّ عليه وعلىٰ المسلمين جدًّا، فلمَّا أيَّد الله ونَصَر وكبت الأعداء وردَّهم خائبين بأخسر صفقةٍ، ورجع رسول الله ﷺ إلىٰ «المدينة» مؤيدًا منصورًا، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء[(٢)] تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تَبَدَّىٰ له جبريل معتجرًا[(٣)] بعمامة مِن إستبرق، علىٰ بغلةٍ عليها قطيفةٌ مِن ديباج، فقال: «**أَوَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللهِ؟**» قال: «**نعَمْ**». قال: «**لَكِنَّ المَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا، وَهَذَا الآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ القَوْمِ**». ثم قال: «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ**». وفي روايةٍ فقال له: «**عَذِيرَكَ مِنْ مُقَاتِلٍ**[(٤)]**، أَوَضَعْتُمُ السِّلَاحَ؟**» قال: «**نَعَمْ**». قال: «**لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدُ، انْهَضْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ**». قال: «**أَيْنَ؟**». قال: «**بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُزَلْزِلَ عَلَيْهِمْ**». فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر النَّاس بالمسير إلىٰ بني قريظة، وكانت علىٰ أميالٍ من «المدينة»، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[(٥)]. فسار النَّاس، فأدركتهم الصَّلاة في الطَّريق، فصلَّىٰ بعضُهُم في الطَّريق وقالوا: لم يرد منَّا رسولُ الله ﷺ إلا تعجيلَ

---

(١) هذا مثل في المخادعة. الغارب: مُقَدَّم السَّنَام، والذِّرْوَة: أعلاه، والأصل فيه: أنَّ الرجُل إذا أراد أن يُؤَنِّسَ البَعِير الصَّعْبَ لِيَزُمَّه ويَنْقَادَ لَهُ جعل يُمِرُّ يَدَه عليه ويَمْسح غارِبَه ويَفْتِل وَبَره، حتىٰ يَسْتَأْنِس ويَضَع فيه الزِّمام. «النهاية»، وانظر: «مجمع الأمثال» للميداني: (٢/ ٦٩).

(٢) لوحة (٢٤٣أ).

(٣) اعتجر الرجل بعمامته: لفها علىٰ رأسه ورد طرفها علىٰ وجهه، وشيئًا منها تحت ذقنه. «فتح الباري»: (١١/ ٤٤٢).

(٤) أي: هات من يعذرك فيه، وفعيل هنا بمعنىٰ فاعل.

(٥) أصل القصة في «صحيح البخاري» (٤١٢٢)، وأما ما أورده هنا فقد رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٨٠٧).

السَّير، وقال آخرون: لا نصلِّيها إلا في بني قريظة. فلم يُعَنِّف واحدًا من الفريقين. وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف علىٰ «المدينة» ابن أم مكتوم، وأعطىٰ الراية لـ«علي بن أبي طالب». ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلةً، فلما طال عليهم الحالُ نزلوا علىٰ حكم سعد بن معاذ -سيد الأوس- لأنَّهم كانوا حلفاءهم في الجاهليَّة، واعتقَدُوا أنَّه يُحْسِنُ إِلَيْهِم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظنَّ هؤلاء أنَّ سعدًا سيفعل فيهم كما فعل ابن أُبيٍّ في أولئك، ولم يَعْلَمُوا أنَّ سعدًا ؓ كان قد أصابه سهمٌ في أَكْحَلِهِ[١] أيَّام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحَلِهِ، وأنزله في قبَّةٍ في المسجد ليعوده من قريبٍ. وقال سعد فيما دعا به: اللَّهمَّ إن كنتَ أبقيتَ مِنْ حربِ قريشٍ شيئًا فأبقني لها. وإن كنتَ وضعت الحرب بَيْنَنَا وبينهم فافجرها ولا تُمِتْنِي حتىٰ تُقرَّ عيني مِن بني قريظة. فاستجاب الله دعاءه، وقَدَّر عليهم أن نزلوا علىٰ حكمه باختيارهم [طلبًا][٢] مِن تلقاء أنفسهم، فعند ذلك اسْتَدْعَاه رسول الله[٣] ﷺ من «المدينة» ليَحْكُم فيهم، فلمَّا أقبل وهو راكبٌ [علىٰ حمارٍ][٤] قد وطَّئُوا[٥] له عليه، جعل الأوس يلوذون بِهِ ويقولون: يا سعدُ، إنَّهم مواليك، فأَحْسِن فيهم. ويُرَقِّقُونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكتٌ لا يَرُدُّ عليهم. فلَمَّا أكثروا عليه قال: لقد آنَ لسعدٍ ألا تأخذَهُ في الله لومة لائم. فعرفوا أنَّه غير مُسْتَبْقِيهم، فلمَّا دنا من الخَيْمَة التي فيها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُمْ**». فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظامًا وإكرامًا واحترامًا له في محلِّ ولايته؛ ليكون أنفذ لحُكْمِهِ فيهم. فلمَّا جلس قال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَؤُلَاءِ** -وأشار إليهم- **قَدْ نَزَلُوا عَلَىٰ حُكْمِكَ، فَاحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ**». قال: وحكمي نافذٌ عليهم؟ قال: «**نَعَمْ**». قال: وعلىٰ مَنْ في هذه الخيمة؟ قال: «**نَعَمْ**». قال: وعلىٰ مَنْ هاهنا -وأشار إلىٰ الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ- وهو معرضٌ بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكرامًا وإعظامًا -فقال له رسول الله ﷺ: «**نَعَمْ**». فقال: إنِّي أحكم أَن تُقْتَل مُقَاتلتُهُم، وتُسبىٰ ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**[٦]». وفي روايةٍ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ المَلِكِ**»[٧].

ثمَّ أمر رسولُ الله ﷺ بالأخاديد فَخُدَّت في الأرضِ[٨]، وجِيءَ بهم مُكَتَّفِين، فضَرَب أعناقهم، وكانُوا ما بين السَّبعمائة إلىٰ الثَّمانمائة، وسَبَىٰ مَنْ لم يُنبت[٩] منهم مع النِّساء وأموالهم، وهذا كله مقرَّرٌ مفصَّلٌ

(١) **الأكحل**: عِرْقٌ معروف، قال الخليل: هو عرق الحياة، يقال: هو نهر الحياة، ففي كل عضوٍ شعبةٌ منه، وله فيها اسمٌ متفرد، فاذا قطع في اليد لم يرقأ الدم. وقال غيره: هو عرقٌ واحدٌ يقال له في اليد: الأكحل، وفي الفخذ: النسا، وفي الظهر: الأبهر. «شرح مسلم» للنووي.

(٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (٢٤٣ب).

(٤) بياض في (ز).

(٥) أي: جعلوه وطيئًا حتىٰ لا يتأذىٰ بالركوب.

(٦) **الأرقعة**: السموات، الواحدة: رقيع.

(٧) انظر: «السيرة النبوية» (٣/ ١٩٢ - ١٩٣).

(٨) أي: حفرت وشقت.

(٩) أي: من لم ينبت له شعر العانة، وهذا من علامات البلوغ.

بأدلَّتِهِ وأحاديثه وبسطه في كتاب (السيرة) الذي أفردناه موجزًا ومقتصًّا. ولله الحمد والمنَّة.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونُوا الأحزاب وساعدوهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، مِن بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤُهم الحجاز قديمًا، طَمَعًا في اتِّباع النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يَجدُونه مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، فعليهم لعنة الله(١) .

وقوله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾ يعني: حصونهم. كذا قال مجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم ومنه سُمِّيَت صياصي البَقَر، وهي قرونها؛ لأنَّها أعلىٰ شيءٍ فيها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ وهو: الخوف؛ لأنهم كانوا مالَئُوا المشركين علىٰ حرب رسول الله ﷺ، ولَيْس مَنْ يعلم كمَنْ لَا يعلم، فأخافوا المسلمين ورَامُوا قتلهم ليَعزُّوا في الدُّنيا، فانعكس عليهم الحَالُ، وانقلب الفَالُ، انشمر(٢) المشركون ففَازُوا بصفقة المغبون، فكَمَا راموا العِزَّ ذُلُّوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأُضِيفَ إلىٰ ذلك شقاوَة الآخرة، فصَارَت الجملة أنَّ هذه هي الصَّفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ ، فالَّذِين قُتِلُوا هم المقَاتلة، والأُسَرَاء هم الأصاغر والنِّساء.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي قال: عُرضتُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ يوم قريظة فشَكُّوا فِيَّ، فأمر بِيَ النَّبيُّ ﷺ أن ينظروا: هل أَنْبت بعدُ؟ فنظروا فلم يَجِدُوني أَنْبَتُّ، فخَلَّىٰ عنِّي وألحقني بالسَّبْي(٣) . وكذا رواه أهل السُّنن كلهم من طرق، عن عبد الملك ابن عمير به. وقال التِّرمذي: «حسن صحيح». ورواه النَّسائي أيضًا، من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن عطية بنحوه.

وقوله: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ أي: جعلها لكم مِن قتلكم لهم ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾ قيل: خيبر. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والرُّوم. وقال ابن جرير: يجوز أَن يكون الجميع مرادًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ : قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، أخبرنا محمَّد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاصٍ قال: أخبرتني عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أَقْفُو النَّاس(٤) ، فسَمِعت وَئِيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجَنَّه،

---

(١) لوحة (٢٤٤أ). (٢) أي: أسرعوا راجعين إلىٰ مواطنهم.

(٣) **صحيح:** أبو داود (٤٤٠٤)، والترمذي (١٥٨٤) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٦/ ١٥٥)، وابن ماجة (٢٥٤١)، وأحمد (٤/ ٣٨٣) (٥/ ٣١١).

(٤) أقفو: أتبع. والوئيد: شدة الوطء علىٰ الأرض يسمع كالدوي من بعد.

قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه دِرْعٌ مِن حديدٍ قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوَّف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم النَّاس وأطولهم، فمَرَّ وهو يرتجز ويقول[١]:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدُ الهَيْجَا حَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ المَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قالت: فقُمْتُ فاقتحمت حديقةً، فإذا فيها نفرٌ من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجلٌ عليه تَسْبغَة له[٢] -تعني المغفر- فقال عمر: ما جاء بكِ؟ لعمري والله إنَّكِ لجريئة[٣]، وما يُؤَمِّنُكِ أن يكون بلاء أو يكون[٤] تَحَوُّز[٥]. قالت: فما زال يلومني حتى تَمَنَّيت أنَّ الأرض انشقتْ بي ساعتئذٍ، فدخلت فيها، فرفع الرَّجل التسبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك، إنَّك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التَّحَوُّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟ قالت: ويرمي سعدًا رجلٌ من قريشٍ -يقال له: ابن العَرِقة- بسهمٍ له، وقال له: خُذْهَا وأنا ابن العَرِقة فأصاب[٦] أَكْحَلَه فقطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم، لا تمتني حتى تُقِرَّ عيني مِن قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهليَّة، قالت: فرقأ كَلْمُه[٧]، وبعث الله الرِّيح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويًّا عزيزًا. فلحق أبو سفيان ومَنْ معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومَنْ معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى «المدينة»، وأمر بقبَّةٍ من أدم[٨] فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاءه جبريل عليه السلام وإنَّ على ثناياه لنقع الغُبَار، فقال: «**أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟ لَا وَاللهِ مَا وَضَعَتِ المَلَائِكَةُ بَعْدُ السِّلَاحَ، اخْرُجْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَاتِلْهُمْ**». قالت: فلبس رسول الله ﷺ لَأْمَتَهُ[٩]، وأذَّن في النَّاس بالرَّحيل أن يخرجوا، [فخرج رسول الله ﷺ][١٠] فمَرَّ على بني غَنْم[١١] وهم جيران المسجد حوله، فقال: ومَنْ مرَّ بكم؟ قالوا: مرَّ بنا دحية الكلبي -وكان دحية الكلبي تُشبه لحيتُهُ وسنه ووجهه جبريلَ عليه السلام فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلةً، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حُكم رسول الله ﷺ. فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنَّه الذَّبح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ: «**انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى

---

(١) لوحة (٢٤٤ب).

(٢) **التَّسْبِغَة**: شيءٌ من حلق الدُّرُوع والزَّرد، يُعَلَّق بالخُوذَة دائرًا معها ليستُر الرَّقبة وَجَيبَ الدِّرْع. «النهاية».

(٣) في (ز) كلمة تقرأ: (تحربه)، والمثبت كما في «المسند».

(٤) في (ز): (أن يكون).

(٥) التحوز: هو من قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ أي: منضمًّا إليها، والتحوز والتحيز والانحياز بمعنًى واحد.

(٦) في (ز): (فأصابت).

(٧) **الكَلْم**: الجرح، ورقأ الدم: انقطع.

(٨) **الأدَم**: الجلد.

(٩) **اللَّأمة**: الدرع والسلاح.

(١٠) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١١) في (ز): (بني تميم)، والمثبت موافق لما في «المسند».

سعد بن معاذ][(١)] فأُتِيَ به علىٰ حمارٍ عليه إِكَافٌ[(٢)] من ليفٍ قد حُمِل عليه، وحَفَّ به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النِّكاية[(٣)]، ومَنْ قد[(٤)] علمت، قالت: ولا يَرْجعُ إليهم شيئًا، ولا يلتفت إليهم، حتىٰ إذا دنا من دورهم التفت إلىٰ قومه فقال: قد آنَ لي ألَّا أُبَالِي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ». فقال عمر: سيدنا الله. قال: «أَنْزِلُوهُ». فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «احْكُمْ فِيهِمْ». قال سعد: فإنِّي أحكم فيهم أن تُقْتَل مقاتلتهم، وتسبىٰ ذَرَارِيهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ رَسُولِهِ». ثم دعا سعدٌ فقال: اللَّهمَّ، إن كنت أبقيتَ علىٰ نبيك مِن حرب قريشٍ شيئًا، فأبقني لها. وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم، فاقبضني إليك. قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد بَرِئَ منه إلا مثل الخُرْص[(٥)]، ورجع إلىٰ قُبَّتِهِ الَّتِي ضرب عليه رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: فَحَضَره رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمر. قالت: فوَّالذي نفس محمَّدٍ بيده، إنِّي لأعرف بكاء أبي بكرٍ مِن بكاء عمر، وأنا في حُجْرَتِي؛ وكانوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قال علقمة: فقلت: أيْ أمَّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع علىٰ أحدٍ، ولكنَّه كان إذا وجد فإنَّما هو آخذٌ بلحْيَتِه[(٦)].

وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة نحوًا من هذا، ولكنَّه أخصر منه، وفيه دُعاء سعد رضي الله عنه[(٧)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[(٨)]

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٢) الإكاف: البرذعة.

(٣) نكيت في العدو نكاية: إذا أكثرت فيهم الجراح والقتل. يصفهم بالبأس والشدة.

(٤) لوحة (٢٤٥أ).

(٥) الخُرْص: الحلقة الصغيرة من الحُلي، وهو من حُلي الأذن.

(٦) رجاله ثقات: عدا عمرو بن علقمة، قال الحافظ: مقبول، لكن أصل الحديث مختصرٌ في «الصحيحين» كما أشار بن كثير انظر: «صحيح البخاري» (٤١٦٢)، ومسلم (١٧٦٩).

(٧) البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩).

(٨) قال العلامة السعدي رحمه الله: وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله، وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقىٰ في حرية نفسه، إن شاء أعطىٰ، وإن شاء منع.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن مَنْ تؤثر الدنيا علىٰ الله ورسوله، والدار الآخرة، وعن مقارنتها.

=

هذا أمرٌ مِن الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- بأن يخيِّر نساءَه بين: أن يُفارِقَهُنَّ فيذهبن إلىٰ غيرهِ ممن يَحصُل لهنَّ عنده الحياةُ الدُّنيا وزينتها، وبين الصَّبر علىٰ ما عنده مِن ضيق الحال، ولهنَّ عند الله في ذَلِك الثَّواب الجزيل، فاخترْنَ -رضيَ الله عنهن وأرضاهنَّ- اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرة، فجمع الله لهنَّ بعد ذلك بين خير الدُّنيا وسعادة الآخرة.

قال البخاري: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة ﵂ زوج النَّبيِّ ﷺ(1) أخبرته: أنَّ رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخيِّر أزواجه، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكِ أَنْ [لا](2) تَسْتَعْجِلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ»، وقد علمَ أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «وَإِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾...إلىٰ تمام الآيتين»، فقلتُ له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟! فإنِّي أُريد اللهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخرةَ(3).

وكذا رواه معلقًا عن الليث: حدَّثني يونس، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة، فذكره وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النَّبيِّ ﷺ مثل ما فعلت(4).

وقد حكىٰ البخاري أن مَعْمَرًا اضطرب، فتارةً رواه عن الزُّهري، عن أبي سلمة، وتارةً رواه عن الزُّهري، عن عُرْوَة، عن عائشة.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن عبَدة الضَّبِّي، حدَّثنا أبو عَوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: لما نزل الخيار قال لي رسول الله ﷺ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَذْكُرَ لَكِ أَمْرًا، فَلَا تَقْضِي فِيهِ شَيْئًا حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ». قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: فردَّه عليها. فقالت: فما هو يا رسول الله؟ قالت: فقرأ عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلىٰ آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ففرح بذلك النَّبيُّ ﷺ.

وحدَّثنا ابن وَكِيعٍ، حدَّثنا محمَّد بن بشرٍ، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة ﵂

= ومنها: سلامة زوجاته -رضي الله عنهن- عن الإثم، والتعرض لسخط الله ورسوله...

ومنها: إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن، وبيان علو هممهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلىٰ خيار درجات الجنة، وأن يَكُنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة...

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يَكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحدٌ من النساء.

(1) لوحة (٢٤٥ب). (2) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

(3) البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥)، والطبري (٢١/ ١٥٧-١٥٨).

(4) البخاري تعليقًا (كتاب التفسير، باب ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٩]).

قالت: لما نزلت آية التَّخيير، بدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «يَا عَائِشَةُ، إِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكِ أَمْرًا، فَلَا تَفْتَاتِي[(١)] فِيهِ [بِشَيْءٍ][(٢)]، حَتَّىٰ تَعْرِضِيهِ عَلَىٰ أَبَوَيْكِ أَبِي بَكْرٍ وَأُمِّ رُومَانَ». فقلتُ: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾». قالت: فإني أُريدُ اللهَ ورسولَهُ والدَّار الآخرة، ولا أُؤَامِر في ذلك أبويَّ أبا بكر وأم رومان. فضحك رسول الله ﷺ، ثم استقرأ الحُجَر فقال: «إِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ[(٣)] كَذَا وَكَذَا». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة -رضي الله عنهن- كلهن[(٤)].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشَجِّ، عن أبي أسامة، عن محمَّد بن عمرو به.

قال ابن جرير: وحدَّثنا سعيد بن يحيىٰ الأموي، حدَّثنا أبي، عن محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله ابن أبي بكر، عن عَمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل إلىٰ نسائِهِ أمر أن يخيرهن، فدخل عليَّ فقال: «سَأَذْكُرُ لَكِ أَمْرًا فَلَا تَعْجَلِي حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبَاكِ». فقلت: وما هو يا نبي الله؟ قال: «إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُخَيِّرَكُنَّ»، وتلا عليها آية التَّخيير، إلىٰ آخر الآيتين. قالت: فقلتُ: وما الذي تقول: «لَا تَعْجَلِي حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبَاكِ»؟! فإنِّي أختار الله ورسوله، فَسُرَّ بذلك، وعَرَض علىٰ نسائِهِ فتتابعن كُلُّهن، فاخترنَ الله ورسوله ﷺ[(٥)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يزيد بن سنان البصري، حدَّثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدَّثني اللَّيث، حدَّثني عُقَيل، عن الزهري، أخبرنَي عُبيد الله بن عبد الله بن أبي ثَور، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قالت عائشة رضي الله عنها: أنزلت آية التَّخيير فبدأ بي أَوَّلَ امرأةٍ مِن نسائه، فقال: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكِ أَلَّا تَعْجَلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ». قالت: قد عَلِم أن أبوي لم يكونا يأمُرَانِي بفراقه. قالت: ثم قال: «إِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾... الآيتين». قالت عائشة: فقلت: أَفِي هذا أستأمر أبويَّ؟! فإنِّي أُرِيد اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ. ثمَّ خيَّر نساءَه كلهنَّ، فقلن مثل ما قالت عائشة -رضي الله عنهنَّ-[(٦)].

وأخرجه البخاري ومسلم جميعًا، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مثله.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن مسلم بن صَبِيح، عن مسروق، عن

---

(١) أي: لا تسبقي أبويك بإبداء الرأي فيه. (٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (٢٤٦أ).

(٤) صحيح: رواه الطبري (٢١/ ١٥٧ - ١٥٨)، وابن أبي حاتم (١٧٦٥٢).

(٥) الطبري (٢١/ ١٥٨)، ولا يضر تدليس ابن إسحاق، فالحديث ثابت كما تقدم.

(٦) ابن أبي حاتم (١٧٦٥٣)، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث صدوق يخطئ، ولا يضر ذلك فالحديث صحيح كما تقدم، بل تابعه قتيبة عند البخاري ومسلم كما سيأتي، وكفىٰ لثبوت الحديث رواية الشيخين له.

عائشة قالت: خيَّرَنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئًا. أخرجاه من حديث الأعمش(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدَّثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن علىٰ رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنَّبيُّ ﷺ جالسٌ: فلم يؤذن له(٢). ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنَّبيُّ ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه، وهو ساكتٌ، فقال عمر: لأكلمنَّ النَّبيَّ ﷺ لعلَّه يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد -امرأة عمر- سألتني النَّفقة آنفًا، فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا(٣). فضحك النَّبيُّ ﷺ حتىٰ بدا ناجذه(٤) وقال: «هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ». فقام أبو بكر رضي الله عنه إلىٰ عائشةَ ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلىٰ حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النَّبيَّ ﷺ ما ليس عنده؟!. فنهاهما رسول الله ﷺ فقُلْنَ نساؤه: واللهِ لا نسأل رسولَ الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله ﷻ الخيار، فبدأ بعائشة فقال: «إِنِّي أَذْكُرُ لَكِ أَمْرًا مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟! بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأةٍ من نسائك ما اخترتُ. فقال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا، لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا». انفرَدَ بإخراجه [مسلم](٥) دون البخاري، فرواه هو والنَّسائي من حديث زكريا بن إسحاق المكي به(٦).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيْج بن يونس، حدَّثنا علي بن هاشم بن البريد، عن محمَّد بن عبيد [الله بن علي](٧) بن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ خيَّرَ نساءه الدنيا والآخرة، ولم يُخيِّرهُنَّ الطلاق(٨).

وهذا منقطعٌ، وقد رُوي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك، وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أُعْطِيكُنَّ حقوقكن وأُطْلِقُ سراحَكُنَّ.

وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهنَّ لو طَلَّقَهُنَّ علىٰ قولين، وأصحُّهما: نعم لو وقع،

---

(١) البخاري (٥٢٦٢)، ومسلم (١٤٧٧)، وأحمد (٦/ ٤٥، ٤٧).

(٢) لوحة (٢٤٦ب).

(٣) (فوجأت عنقها) أي: دفعت فيه، وهو كالطعن فيه باليد، ومنه: وجأه بالخنجر وغيره، وقال الخليل: وجأه: ضرب عنقه.

(٤) الناجذ: واحد النواجذ، وهي من الأسنان التي تبدو عند الضحك.

(٥) سقط من (ز).

(٦) مسلم (١٤٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٨).

(٧) سقط من (ز)، والصواب إثباته.

(٨) ضعيف جدًّا: رواه أحمد (١/ ٧٨)، وفيه محمَّد بن عبيد الله أبي رافع: منكر الحديث.

ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم.

قال عكرمة: وكان تحته يومئذٍ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَيّ النَّضريَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية -رضي الله عنهن وأرضاهن-(١).

[(٢)ولم يتزوج واحدةً منهن، إلا بعد أن تُوُفِّيَت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزَّىٰ بن قصي بن كلاب، تزوَّجها رسول الله ﷺ بمكَّة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلىٰ أن أَكْرَمَهُ الله برسالته فآمَنَتْ به ونصرته، وكانت له وزيرَ صدقٍ، وماتت قبل الهجرة بثلاثِ سنين ﵂ في الأصحِّ، ولها خصائص: منها: أنَّه لم يتزوَّج عليها غيرها، ومنها: أن أولادَهُ كلهم منهَا، إلَّا إبراهيم، فإنَّه مِن سُرِّيَّتِهِ مارية، ومنها: أنَّها خير نساء الأُمَّة.

واختلف في تفضيلها علىٰ عائشة علىٰ ثلاثة أقوالٍ، ثالثها: الوقف.

وسُئل شيخنا أبو العبَّاس ابن تيميَّة عنهما فقال: اختصَّت كل واحدةٍ منهما بخاصيةٍ، فخديجة كان تأثيرها في أوَّل الإسلام، وكانت تُسلِّي رسول الله ﷺ وتُثبِّتُه، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرَّة الإسلام، واحتملت الأذىٰ في اللهِ وفي رسولِهِ وكان نصرتها للرَّسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها مِن النُّصرة والبَذْل ما ليس لِغَيْرِها. وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام، فلها مِن التَّفقُّه في الدِّين وتبليغه إلىٰ الأُمَّة، وانتفاع بنيها بما أدَّت إليهم من العلم، ما ليس لغيرِها. هذا معنىٰ كلامه ﵁.

ومن خصائصها: أن الله سبحانه بعث إليها السلامَ مَع جبريل، فبلَّغها رسول الله ﷺ ذلك: روىٰ البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ﵁ قال: أتىٰ جبريل ﵇ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجةُ قد أَتَتْ معها إناء فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هِي أَتَتْكَ فأقرأها السَّلامَ (٣) مِن رَبِّها ومنِّي، وبشِّرها ببيتٍ في الجنَّة مِن قَصَبٍ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب (٤). وهذه لعَمْرُ الله، خاصَّة لم تكن لِسِوَاهَا.

وأمَّا عائشة ﵂: فإنَّ جبريل سلَّم عليها علىٰ لسان النَّبيِّ ﷺ، فروىٰ البخاري بإسناده: أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: «**يَا عَائِشَةُ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ**». فقلت: وعليه السلامُ ورحمة الله وبركاته، ترىٰ ما لا أرىٰ، تريد رسول الله ﷺ (٥).

ومن خواصِّ خديجة ﵂: أنَّه لم تسؤه قطُّ، ولم تُغَاضِبْهُ، ولم يَنَلْهَا منه إيلاءٌ، ولا عَتَب قط، ولا

---

(١) لوحة (٢٤٧أ).

(٢) من هذا الموضع زيادة ليست في (ز) قدر أربع صفحات، وهي مثبتة في بعض النسخ الخطية، وفيها مسائل لطيفة ومهمة، فرأينا إضافتها بين المعقوفتين مع التنبيه علىٰ ذلك.

(٣) في البخاري: (فاقرأ عَلَيْهَا السَّلَامَ).

(٤) البخاري (٣٨٢٠). (٥) البخاري (٣١٦٠).

هَجْر، وكفىٰ بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها: أنَّها أوَّل امرأةٍ آمنت بالله ورسوله مِن هذه الأُمَّة.

فصل

فلمَّا توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة ﵂، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ابن عبد وُدٍّ بن نصر بن مالك بن جبل بن عامر بن لؤي، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومَهَا لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصِّها: أنها آثَرَتْ بيومها حب النَّبيِّ ﷺ تقربًا إلىٰ رسول الله ﷺ، وحبًّا له، وإيثارًا لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويَوْم سودة، ويقسم لِنِسَائِه، ولا يقسم لها وهي راضيةٌ بذلك مؤثرةٌ، لتُرْضِي رسول الله ﷺ.

وتزوَّج الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشةَ بنتَ أبي بكر﵄ وهي بنت ستٍّ سنين قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنىٰ بها بـ«المدينة» أول مقْدمه في السنة الأولىٰ، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمانٍ عشرة، وتوفيت بـ«المدينة»، ودفنت بـ«البقيع»، وأوصت أن يُصَلِّي عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين.

ومن خصائصها: أنَّها كانت أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه في «البخاري» وغيره، أنه سئل: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عَائِشَةُ**». قيل: فمن الرجال؟ قال: «**أَبُوهَا**»[(١)].

ومن خصائصها أيضًا: أنه لم يتزوج بكْرًا غيرها[(٢)].

ومن خصائصها: أنَّه كان ينزل عليه الوحي وهو في لِحَافِها دون غيرها[(٣)].

ومن خصائصها: أن الله ﷻ لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: «**وَلا عَلَيْكِ أَلَّا تَعْجَلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**». فقالت: أفي هذا أستأمر أبويَّ، فإنِّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة؟!. فاستنَّ بها بقية أزواجه ﷺ وقلن كما قالت[(٤)].

ومن خصائصها: أن الله سبحانه برَّأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحْيًا يُتْلَىٰ في محاريب المسلمين وصلواتهم إلىٰ يوم القيامة، وشَهِدَ لها أنَّها من الطَّيِّبات، ووعدها المغفرة والرِّزق الكريم، وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك كان خيرًا لها، ولم يكن بذلك الَّذِي قيل فيها شرٌّ لها، ولا عيبٌ لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلىٰ قَدْرَها وعظَّم شأنها، وأصارَ لها ذكرًا بالطَّيِّب والبراءة بين أهلِ الأرض والسَّماء، فيا لها من منقبةٍ ما أجلها. وتأمَّل هذا التَّشريف والإكرام

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٢) (٦٨٨٥)، ومسلم (٢٣٨٤)، والترمذي (٣٨٨٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١١٧)، وأحمد (٤/ ٢٠٣).

(٢) البخاري (٤٧٨٩). (٣) البخاري (٢٤٣٦) (٣٥٥٤). (٤) تقدم.

الناشئ عَن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: وَلَشَأْنِي في نفسي كان أحقرَ مِن أن يتكلَّم الله فيَّ بوحيٍ يُتْلَىٰ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ رُؤْيَا يُبَرِّئُني الله بها (١)، فهذه صدِّيقة الأمَّة، وأمُّ المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنَّها بريئةٌ مظلومةٌ، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلىٰ أبويها، وإلىٰ رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمَن قد صام يومًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، قد قام ليلةً أو ليلتين، فظهر عليه شيءٌ من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنَّهم ممن يُتبَرَّك بلِقَائِهم، ويُغتنم بصالح دعائهم، وأنَّهم يَجِب علىٰ النَّاس احترامهم وتعظيمهم وتَعْزِيرهم(٢) وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثَرَىٰ أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي تنتقم لهم لأجلها مَنْ تَنَقَّصَهُمْ في الحال، وأَن يؤخذ مَن أساء الأدب عليهم من غيرِ إمهالٍ، وإنَّ إساءة الأدب عليهم ذنبٌ لا يكفره شيءٌ إلا رضاهم.

ولو كان هذا مِن وراء كفايةٍ لهان، ولكن من وراءِ تخلُّفٍ، وهذه الحَمَاقَات والرُّعونات نتاج الجَهْل الصَّميم، والعقل غير المستقيم، فإنَّ ذلك إنَّما يصدرُ مِن جاهلٍ معجَبٍ بنفسه، غافلٍ عن جرمِهِ وعيوبِهِ وذنوبِهِ، مغترٍّ بإمهال الله له عن أخذِهِ بما هو فيه من الكِبْرِ والازدراء علىٰ من لعلَّه عند الله خير منه. نسأل الله العافية في الدُّنيا والآخرة. وينبغي للعَبْد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا، وهو عند الله حقيرٌ.

ومن خصائص عائشة ﵂: أنَّ الأكابر من الصَّحابة ﵃ كان إذا أُشْكِلَ الأمر عليهم من الدِّين استفتوها فيجدون علمه عندها.

ومن خصائصها: أنَّ رسول الله ﷺ توفي في بيتها(٣).

ومن خصائصها: أن الملك أرىٰ صورتها للنَّبيِّ ﷺ قبل أن يتزوَّجها في خرقةِ حرير، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ»(٤).

ومن خصائصها: أنَّ النَّاس كانوا يتحرَّون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقربًا إلىٰ الرسول ﷺ، فيُتْحِفُونَه بما يُحِبُّ في منزل أحب نسائه إليه رضي الله عنهم أجمعين(٥).

وتكنىٰ «أم عبد الله»(٦)، وروي: أنَّها أسقطت من النَّبيِّ ﷺ سقطًا، ولا يثبت ذلك(٧).

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدرًا، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين.

---

(١) البخاري (٢٥٦٨، ٢٦٦١، ٤١٤١)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) أي: نصرتهم.

(٣) البخاري (٤١٨٤).

(٤) البخاري (٥٠٧٨).

(٥) البخاري (٢٤٣٦) (٣٥٥٤).

(٦) رواه أبو داود (٣٧٣٩) (٤٩٧٠)، وابن ماجة (٧١١٧)، وإسناده حسن.

(٧) لا دليل عليه.

ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمَّد المقدسي في «مختصره» في «السيرة»: أن النَّبيَّ ﷺ طلَّقها، فأتاه جبريل فقال: «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ وإِنَّهَا زَوْجَتُكَ فِي الجَنَّةِ**»(١).

وقال الطبراني في «المعجم الكبير»: حدَّثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيىٰ، حدَّثنا جدي حرملة، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثنا عمرو بن صالح الحضرمي، عن موسىٰ بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النَّبيَّ ﷺ طلَّق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التُّراب علىٰ رأسه، وقال: ما يعبأ الله بابن الخطَّاب بعد هذا. فنزل جبريل عليه السلام علىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ رَحْمَةً لِعُمَرَ**»(٢).

وتزوَّج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيَان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحشٍ إلىٰ أرض الحِبشة، فتنَصَّر بالحبشة، وأتمَّ الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بأرضَ الحبشة، وأصدقها عند النَّجاشي أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أُميَّة الضمري بها إلىٰ أرض الحبشة(٣)، ووَلِي نكاحها عثمان بن عفان(٤)، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان «المدينة»، وقالت له: إنك مشركٌ، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوَّج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أُمَيَّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ابن يقظة بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، تُوُفِّيت سنة اثنتين وستين، ودفنت بالبَقِيع، وهي آخر أزواج النَّبيِّ ﷺ موتًا، وقيل: بل ميمونة.

ومن خصائصها: أنَّ جبريل دخل علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففِي «صحيح مسلم» عن أبي عثمان قال: أُنبئت أنَّ جبريل أتىٰ النَّبيَّ ﷺ وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدَّث، ثم قام فقال نبيُّ الله ﷺ لأم سلمة: «مَنْ هَذَا؟» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وايم الله، ما حسبته إلَّا إيَّاه، حتىٰ سمعت خطبة النَّبيِّ ﷺ يخبر أنَّه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد(٥).

وزوَّجها ابنُها «عُمر» من رسول الله ﷺ، وردَّت طائفةٌ ذلك بأنَّ ابنها لم يكن له مِن السِّنِّ حينئذٍ ما يعقد التَّزويج، وردَّ الإمام أحمد ذلك، وأنكر علىٰ من قاله، ويدل علىٰ صحة قول أحمد ما رواه مسلم

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٥٠)، وفيه قيس بن زيد: ضعيف، وله شواهد منها حديث عمار بن ياسر: رواه أبو نعيم، وفيه الحسن بن أبي جعفر الجعفري: ضعيف، وبمجموع الطرق فالحديث صحيح.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٩١).

(٣) يعني: ليخطبها.

(٤) قال المصنف رحمه الله في كتابه «السيرة النبوية» (٤/ ٥٨٤): «والصواب: عثمان بن أبي العاص»، ثم قال: «وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة». اهـ

(٥) مسلم (٢٤٥١).

في «صحيحه»: أن عمر بن أبي سلمة -ابنها- سأل النَّبيَّ ﷺ عن القُبْلَة للصَّائم؟ فقال: «سَلْ هَذِهِ» يعني: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَتْقَاكُمْ للهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ»[1] أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغيرٍ جدًّا، و«عُمر» ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال البيهقي: وقول من زعم أنه كان صغيرًا دعوىٰ، ولم يثبت صغره بإسنادٍ صحيحٍ.

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بني خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها فزوجه الله إيَّاها من فوق سبع سمواتٍ، وأنزل عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذانٍ، وكانت تفخر بذلك علىٰ سائر أزواج النَّبيِّ ﷺ، وتقول: زوَّجكن أهاليكن وزوَّجني الله من فوق سبع سمواته، وهذا من خصائصها. توفيت بـ«المدينة» سنة عشرين، ودفنت بالبقيع.

وتزوج النَّبيُّ ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وكانت تحت عبد الله بن جحش، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمىٰ أم المساكين، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيرًا، شهرين أو ثلاثة وتوفيت رضي الله عنها.

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، وكانت سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضىٰ رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها سنة ستٍّ من الهِجْرَة، وتُوُفِّيت سنة ستٍّ وخمسين، وهي الَّتِي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيتٍ مِن الرَّقيق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكان ذلك مِن بركتها علىٰ قومها.

وتزوَّج رسول الله ﷺ صفيَّة بنت حيي، من ولد هارون بن عمران أَخِي موسىٰ، سنة سبعٍ، فإنَّها سُبِيَت مِن خيبر، وكانت قَبْلَهُ تحت كنانة بن أبي الحقيق، فقتله رسول الله ﷺ، توفيت سنة ستٍّ وثلاثين، وقيل: سنة خمسين.

ومن خصائصها: أنَّ رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها. قال أنس: أمهرها نفسها، وصار ذلك سنةً للأُمَّة إلىٰ يوم القيامة، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها، وتصير زوجته علىٰ منصوص الإمام أحمد.

قال الترمذي: حدَّثنا إسحاق بن منصور، وعبد بن حميد، قالا: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا معمر، عن ثابت، عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: صفية بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النَّبيُّ ﷺ وهي تبكي فقال: «مَا يُبْكِيكِ؟» قالت: قالت لي حفصة: إنِّي ابنة يهوديٍّ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّكِ

---

(١) مسلم (١١٠٨).

لابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَبِمَا تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟!» ثم قال: «اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ»[(١)]. قال الترمذي: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه. وهذا من خصائصها ﵂.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوجها بسَرِف، وهو على تسعة أميالٍ من مكة، وهي آخر مَن تزوج من أمهات المؤمنين، تُوُفِّيت سنه ثلاث وستين، وهي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عبَّاس، فإنَّ أمَّه أم الفضل بنت الحارث، وهي التي اختلف في نكاح النبيِّ ﷺ لها. هل نكحها حلالًا أو مُحْرِمًا؟ والصَّحيح: إنَّما تزوجها حلالًا كما قال أبو رافع الشفير في نكاحها.

قال الحافظ أبو محمَّد المقدسي وغيره: وعقد على سبع ولم يدخل بهن، فالصلاة على أزواجه تابعةٌ لاحترامهن وتحريمهن على الأمَّة، وأنَّهنَّ نساؤه ﷺ في الدُّنيا والآخرة، فمَن فارقها في حياته ولم يدخل بها، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللَّاتي دخل بهنَّ صلَّى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليمًا][(٢)].

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى واعظًا نساء النَّبيِّ ﷺ اللَّاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحتَ رسول الله ﷺ أن يخبرهن[(٣)] بحكمهن [وتخصيصهن][(٤)] دون سائر النساء، بأنَّ مَن يأتِ منهنَّ بفاحشةٍ مبينةٍ -قال ابن عبَّاس: وهي النُّشوز وسوء الخلق. وعلى كلِّ تقديرٍ فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤]، فلمَّا كانت محلَّتهن رفيعةً، ناسب أن يجعل الذَّنب لو وقع منهن مغلَّظًا، صيانةً لجنابهن وحجابهن الرَّفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قال مالكٌ عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: في الدُّنيا والآخرة.

وعن ابن أبي نجيح [عن مجاهد][(٥)] مثله.

---

(١) الترمذي (٣٠٩٤)، وقال: حسن صحيح.

(٢) انتهت الزيادة المشار إليها من عدة صفحات.

(٣) في (ز): (أن يخترن).

(٤) ليست في (ز).

(٥) سقط من (ز).

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا هينًا.

ثم ذكر عَدْلَه وفضله في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يُطِع الله ورسوله ويستجب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: في الجنَّة، فإنَّهنَّ في منازل رسول الله ﷺ، في أعلىٰ علِّيِّين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلىٰ العرش.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ[1] فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه آدابٌ أمر الله تعالىٰ بها نساء النَّبيِّ ﷺ، ونساء الأمة تبعٌ لهنَّ في ذلك، فقال مخاطبًا لنساء النَّبيِّ ﷺ بأنهنَّ إذا اتَّقين الله كما أمرهن فإنه[2] لا يُشْبهههن أحدٌ من النِّساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة.

ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، قال السُّدِّي وغيره: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: دَغَل[3]، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير.

ومعنىٰ هذا: أنَّها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيمٌ؛ أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الْزَمْنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجةٍ؛ ومن الحوائج الشرعيَّة: الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلاتٌ**[4]»[5] وفي رواية: «**وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**»[6].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا حميد بن مَسْعَدة[7]، حدَّثنا أبو رجاء الكلبي روح بن المسيب -ثقة- حدَّثنا ثابت البناني، عن أنس رضي الله عنه قال: جئنَ النِّساءُ إلىٰ رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله،

---

(١) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** رحمه الله: قال ابن عباس: المرأة تُندب إذا خاطبت الأجانب إلىٰ الغِلْظة في القول من غير رفع صوتٍ، فإن المرأة مأمورةٌ بخفض الكلام.

(٢) لوحة (٢٤٧ب). (٣) أي: تاركات للطِّيب. (٤) البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢).

(٥) **الدغل** – بالتحريك –: الفساد، والداغل: الذي يبغي لأصحابه الشر.

(٦) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (٥٦٧)، تفرد بهذه الزيادة حبيب بن أبي ثابت، ولها شاهد من حديث أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي، رواه أحمد (٦/ ٣٧١)، وصححه ابن خزيمة (١٦٨٩)، وابن حبان (٧/ ٢) وحسنه الألباني.

(٧) في (ز): (مسعود)، وهو خطأ.

ذهب الرِّجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالىٰ، فما لنا عملٌ ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَعَدَ -أو كلمة نحوها[١]- مِنْكُنَّ فِي بَيْتِهَا فَإِنَّهَا تُدْرِكُ عَمَلَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٢].

ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجلٌ من أهل البصرة مشهورٌ[٣].

وقال البزار أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا عمرو بن عاصم، حدَّثنا همام، عن قتادة، عن مُوَرِّق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ[٤]، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بِرَوْحَةِ[٥] رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا»[٦].

ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن عمرو بن عاصم به نحوه.

وروىٰ البزَّار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضًا عن النَّبيِّ ﷺ قال: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا»[٧]، وهذا إسنادٌ جيدٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأةُ تخرج تمشِي بين يدي الرِّجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يقول: إذا خرجتن من بيوتكن[٨] -وكانت لهنَّ مشية وتكسُّر وتغنُّج[٩] - فنهىٰ الله عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والتَّبرُّج: أنَّها تلقي الخِمَار علىٰ رأسها، ولا تشُدُّه فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التَّبرُّج، ثم عمَّت نساء المؤمنين في التبرج.

---

(١) في «شعب الإيمان» للبيهقي: «مِهْنَةُ إِحْداكُنَّ».

(٢) ضعيف: رواه البزار (١٤٨٥)، ورواه أبو يعلىٰ (٣٤١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٧٤٢)، وفيه روح بن المسيب أبو رجاء: ضعفه ابن حبان وابن عدي ووثقه ابن معين، قال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات لا تحل الرواية عنه، وضعف الحديث من أجله.

(٣) قلت: شهرته لا تعني صحة حديثه، قال ابن معين: صويلح، وقال أبو حاتم: صالح ليس بالقوي، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات.

(٤) أي: زينها في نظر الرجال، وقيل: نظر إليها ليغويها ويغوي بها، وأصل الاستشراف: رفع البصر للنظر إلىٰ الشيء وبسط الكف فوق الحاجب.

(٥) الروحة: المرة من الرواح.

(٦) صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: رواه البزار (١٨٢٠)، ورواه الترمذي (١١٧٣)، وابن خزيمة (١٦٨٥)، وابن حبان (٥٥٩٨)، وأعله الدارقطني بالوقف «العلل» (٥/ ٣١٤)، وأورد الألباني له متابعات في «إرواء الغليل» (٢٧٣) وحكم بصحته.

(٧) أبو داود (٥٨٠)، والبيهقي (٣/ ١٣١)، وابن خزيمة (١٦٨٨)، والحاكم (١/ ٣٢٨) وصححه علىٰ شرطهما وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في كتاب «جلباب المرأة المسلمة».

(٨) لوحة (٢٤٨أ).

(٩) التَّغَنُّج: التدلل والتكسر.

وقال ابن جرير: حدَّثني ابن زهير، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا داود -يعني ابن أبي الفرات- حدَّثنا علي بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السَّهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحًا وفي النساء دَمَامةٌ، وكان نساء السَّهل صِباحًا وفي الرجال دمامةٌ، وإن إبليس أتىٰ رجلًا من أهل السَّهل في صورة غلامٍ، فآجَر نفسه منه، فكان يخدمه، واتَّخذ إبليس شيئًا مثل الذي يُزَمِّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوتٍ لم يسمَع النَّاس مثله، فبلغ ذلك مِن حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتَّخذوا عيدًا يجتمعون إليه في السَّنة، فيتبرَّجُ النساء للرجال. قال: ويتزيَّن[١] الرجال لهن، وإن رجلًا من أهل الجبل هَجَم عليهم في عيدهم ذلك، فرأىٰ النِّساء وصَبَاحتهن، فأتىٰ أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحَوَّلوا إليهنَّ، فنزلوا معهنَّ وظهرت الفاحشة فيهنَّ، فهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ نهاهُنَّ أولًا عن الشَّرِّ، ثم أمرهنَّ بالخير مِن إقامة الصلاة وهي: عبادة الله وحده لا شَريك له، وإيتاء الزَّكاة وهي: الإحسان إلىٰ المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وهذا مِن باب عطف العامِّ علىٰ الخاصِّ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا نصٌّ في دخول أزواج النَّبيِّ ﷺ في أهل البَيْت هاهنا؛ لأنَّهنَّ سبب نزول هذه الآية، وسبب النُّزول داخلٌ فيه قولًا واحدًا، إما وحده علىٰ قولٍ أو مع غيره علىٰ الصَّحيح.

وروىٰ ابن جرير: عن عِكْرِمة أنه كان ينادي في السُّوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: نزلت في نساء النَّبيِّ ﷺ خاصَّةً، وهكذا روىٰ[٣] ابن أبي حاتم قال:

حدَّثنا علي بن حرب الموصلي، حدَّثنا زيد بن الحُبَاب، حدَّثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النَّبيِّ ﷺ خاصَّةً[٤].

وقال عكرمة: مَن شاء بَاهَلْتُهُ أنَّها نزلت في أزواج النَّبيِّ ﷺ[٥].

---

(١) في (ز): (وينزل)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) حسن: رواه الطبري (٢٢/ ٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٥١)، وابن أبي حاتم (١٧٦٧٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٨).

(٣) لوحة (٢٤٨ب).

(٤) حسن: رجاله كلهم ثقات عدا زيد بن الحباب: صدوق قال الحافظ: صدوق يخطئ في حديث عن الثوري (تقريب ترجمة ٢١٢٤) وهذا الأثر ليس من روايته عن الثوري فالإسناد حسن، رواه ابن أبي حاتم (١٧٦٧٥).

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٧٦٧٥).

فإن كان المراد أنهنَّ كُنَّ سبب النُّزول دون غيرهنَّ فصحيحٌ، وإن أُريد أنهنَّ المراد فقط دون غيرهنَّ ففي هذا نظرٌ؛ فإنَّه قد وردت أحاديث تدلُّ علىٰ أنَّ المراد أعم من ذلك:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستَّة أشهر إذا خرج إلىٰ صلاة الفجر يقول: «الصَّلاةُ يَا أَهْلَ البَيْتِ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»(١).

ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن عفان به. وقال: حسنٌ غريبٌ.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيعٍ، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطت «المدينة» سبعة أشهر علىٰ عهد رسول الله ﷺ، [قال: رأيتُ رسول الله ﷺ](٢) إذا طلع الفجر جاء إلىٰ باب عليٍّ وفاطمةَ فقال: «الصَّلاةُ الصَّلاةُ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»(٣).

أبو داود الأعمىٰ هو: نفيع بن الحارث، كذَّابٌ.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن مصعب، حدَّثنا الأوزاعي، حدَّثنا شداد أبو(٤) عمار قال: دخلت علىٰ واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليًّا ﷺ فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلىٰ. قال: أتيت فاطمة أسألها عن عليٍّ فقالت: تَوَجه إلىٰ رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتىٰ جاء رسول الله ﷺ، ومعه [عليٌّ](٥) وحَسنٌ وحُسينٌ، آخذٌ كل واحدٍ منهما بيده حتىٰ دخل، فأدنىٰ عليًّا وفاطمةَ وأجلسهما بين يديه، وأجلس حَسنًا وحُسينًا كل واحد منهما علىٰ فخذه، ثم لفَّ عليهم ثوبه -أو(٦) قال: كساءه- ثم تلا هذه الآية: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ»(٧)، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه -زاد في آخره: قال واثلة: فقلتُ: وأنا يا رسول الله -صلىٰ الله عليك- من أهلِك؟ قال: «وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِي» قال واثلة: إنَّها مِن أرجىٰ ما أرتجي(٨).

---

(١) **ضعيف:** الترمذي (٣٢٠٦)، وأحمد (٣/ ٢٨٥)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٢) سقط من (ز).

(٣) **موضوع:** رواه الطبري (٢٠/ ٣١٤ شاكر)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦١٤٤)، وابن عساكر في «معجمه» (٩١٨).

(٤) في (ز): (شداد بن عمار)، وهو خطأ.

(٥) سقط من (ز).

(٦) لوحة (٢٤٩أ).

(٧) **صحيح:** رواه أحمد (٤/ ١٠٧)، ومحمَّد بن مصعب القرقساني: صدوق كثير الغلط.

وتابع الأوزاعيَّ كلثومُ المحاربيُّ ورجاله ثقات عدا كلثوم المحاربي: لم يُذكر فيه جرحٌ ولا تعديلٌ، رواه الطبري (٢٢/ ٦، ٧) وبالجملة: فالحديث صحيح.

(٨) رواه الطبري (٢٢/ ٧)، وفي إسناده عبد الكريم بن أبي عمير، قال الذهبي في «المغني»: (٢/ ٤٠٢): أتىٰ بخبر منكر.

ثم رواه أيضًا عن عبد الأعلىٰ بن واصل(١)، عن الفضل بن دُكَيْن، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي(٢) عمار قال: إنِّي لجالسٌ عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا عليًّا فشتموه، فلمَّا قاموا قال: اجلس حتَّىٰ أخبرك عن الَّذي شتموه، إنِّي عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقىٰ ﷺ عليهم كساءً له، ثم قال: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: «وَأَنْتَ» قال: فوالله إنَّها لأوثق عملي عندي(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن نمير، حدَّثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء ابن أبي رباح، حدَّثني من سمع أم سلمة تذكر أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ﵂ ببرمة فيها خَزيرة(٤)، فدخلت بها عليه فقال لها: «ادْعِي زَوْجَكِ وَابْنَيْكِ». قالت: فجاء عليٌّ وحسنٌ وحسينٌ فدخلوا عليه، فجلسوا يَأْكُلُون مِن تلك الخزيرة، وهو علىٰ منامةٍ له علىٰ دكان(٥) تحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أُصَلِّي، فأنزل الله ﷿ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت: فأخذ فضلَ الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوىٰ(٦) بها إلىٰ السماء، ثم قال: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي(٧)، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»، قالت: فأدخلت رأسِي البيتَ فقلتُ: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إِنَّكَ إِلَىٰ خَيْرٍ، إِنَّكَ إِلَىٰ خَيْرٍ»(٨).

في إسناده مَن لم يسمَّ(٩)، وهو شيخُ عطاءٍ، وبقية رجاله ثقات.

طريق أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا عوف، عن [أبي المُعَذَّل عطية الطُّفَاوِيّ](١٠)، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ(١١) في بيتي يومًا فقالت الخادم: إنَّ فاطمة وعليًّا بالسدَّة(١٢) قالت: فقال لي: «قُومِي فَتَنَحَّي عَنْ أَهْلِ بَيْتِي». قالت: فقمت فتنحَّيت في البيت قريبًا، فدخل عليٌّ وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصَّبِيين

---

(١) في (ز): (زامل). (٢) في (ز): (شداد بن أبي عمار)، وهو خطأ.

(٣) رواه الطبري (٢٢/ ٦، ٧)، ورجاله ثقات عدا كلثوم المحاربي وأورده ابن أبي حاتم (٧/ ١٦٤) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٤) الخَزِيرَة: لَحْمٌ يُقَطَّع صغارًا ويُصَبُّ عليه ماءٌ كَثِيرٌ، فإذا نَضِج ذُرَّ عليه الدَّقيق، فإن لم يكن فيها لحمٌ فهي عَصِيدَةٌ، وقيل: هي حَسًا من دقيقٍ ودَسَمٍ، وقيل: إذا كان من دَقيقٍ فهي حَرِيرَةٌ، وإذا كان من نُخَالَةٍ فهو خَزِيرَةٌ. «النهاية»: (٢/ ٢٨).

(٥) الدُّكان: الدكة المبنيَّة للجلوس عليها. (٦) أي: توجه بها.

(٧) هكذا في (ز)، وفي «المسند»، ووقع في بعض الطبعات: (حامتي)، وحامة الرجل: خاصته ومن يقرب منه.

(٨) ضعيف: فيها من لم يسم وهو شيخ عطاء. رواه أحمد (٦/ ٢٩٢).

(٩) في (ز): (من لم يسمع).

(١٠) في (ز): (أبي المعدل عن عطية الطفاوي)، وهو خطأ، والمثبت هو الصواب فـ(أبو المعذل) هو عطية الطفاوي كما في «تعجيل المنفعة»، و«المسند»، وغيرها من المصادر.

(١١) لوحة (٢٤٩ب). (١٢) السّدة: كالظلة علىٰ الباب لتقي المطر.

فوضعهما في حجره فقبَّلهما، واعتنق عليًّا بإحدىٰ يديه وفاطمة باليد الأُخرىٰ، وقَبَّل فاطمة وقَبَّل عليًّا، وأغدق عليهم خَميصَة[1] سوداء وقال: «اللَّهُمَّ، إِلَيْكَ لا إِلَى النَّارِ أَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي». قالت: فقلتُ: وأنا يا رسول الله -صلىٰ الله عليك؟ قال: «وَأَنْتِ»[2].

طريق أخرىٰ: قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا [الحسن بن عطية، حدَّثنا][3] فضيل بن مرزوق، عن عطيَّة، عن أبي سعيدٍ، عن أم سلمة؛ أنَّ هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت: وأنا جالسةٌ علىٰ باب البيت فقلت: يا رسول الله، ألستُ من أهل البيت؟ فقال: «إِنَّكِ إِلَىٰ خَيْرٍ، أَنْتِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ» قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ، وعلِيٌّ، وفاطمةُ، والحسنُ، والحسينُ ﷺ[4].

طريق أخرىٰ: رواه ابن جرير أيضًا، عن أبي كُرَيْبٍ، عن وَكِيعٍ، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أمِّ سلمة بنحوه[5].

طريق أخرىٰ: قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا خالد بن مَخْلَد، حدَّثني موسىٰ بن يعقوب، حدَّثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة قال: أخبرتني أم سلمة ﵂ أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأر إلىٰ الله ﷻ ثم قال: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم. فقال: «أَنْتِ مِنْ أَهْلِي»[6].

طريق أخرىٰ: رواه ابن جرير أيضًا، عن أحمد بن محمَّد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمَّد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيىٰ بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، عن أُمِّه بنحو ذلك[7].

طريق أخرىٰ: قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا مصعب بن المقدام، حدَّثنا سعيد بن زربي، عن محمَّد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلىٰ رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عَصيدَة[8][9] تحملها علىٰ طبقٍ، فوضعتها بين يديه فقال: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ وَابْنَاكِ؟»

---

(١) الخَمِيصة: كساء أسود مربع من خزٍّ أو صوفٍ.

(٢) ضعيف: رواها أحمد (٦/ ٢٩٦)، وفيها عطية الطفاوي: لم يوثقه غير ابن حبان، وأبوه لم يسم فهو مجهول.

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواها الطبري (٢٢/ ٧)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٢٣٧)، وفيها عطية العوفي وهو شيعيٌّ مدلسٌ كثير الخطإ.

(٥) صححه الألباني ﵀: فيها شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام. رواه الترمذي (٣٨٧١) وقال الألباني: صحيح بما تقدم رقم (٣٤٣٥)، ورواه الطبري (٢٢/ ٧).

(٦) رواه الطبري (٢٢/ ٧ - ٨).

(٧) الطبري (٢٢/ ٨).

(٨) العَصِيدة: دقيق يلت بالسمن ويطبخ.

(٩) لوحة (٢٥٠أ).

فقالت: في البيت. فقال: «ادْعِيهِمْ». فجاءت إلىٰ عليٍّ فقالت: أجِبْ رسول الله أنت وابناك. قالت أم سلمة: فلمَّا رآهم مقبلين مدَّ يده إلىٰ كساء كان علىٰ المنامة، فمده وبسطه، وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله، فضَمَّه فوق رءوسهم، وأومأ بيدِهِ اليُمْنَىٰ إلىٰ ربه ﷻ فقال: «اللَّهُمَّ، هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»[(١)].

طريق أخرىٰ: قال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلىٰ بيتي فقال: «لا تَأْذَنِي لِأَحَدٍ». فجاءت فاطمة فلَم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجُبَه عن أُمِّه وجدِّه، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أَحْجُبَه، ثم جاء عليٌّ فلم أستطع أن أحجُبَه، فاجتمعوا فَجَلَّلهم رسول الله ﷺ بكساءٍ كان عليه، ثم قال: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا علىٰ البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله[(٢)] ما أنعم، وقال: «إِنَّكِ إِلَىٰ خَيْرٍ»[(٣)].

حديث آخر: قال ابن جرير، حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا محمَّد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة ﵂: خرج رسول الله ﷺ ذات غداةٍ، وعليه مِرْطٌ[(٤)] مُرَحَّلٌ من شَعْرٍ أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثمَّ جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٥)].

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمَّد بن بشر به.

طريق أخرىٰ: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدَّثنا محمَّد ابن يزيد، عن العوام -يعني: ابن حَوْشَب- عن عمٍّ له قال: دخلت مع أبي علىٰ عائشة، فسألتها عن علي ﵁ فقالت ﵂: تسألني عن رجلٍ كان مِن أحب النَّاس إلىٰ رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب[(٦)] النَّاس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليًّا وفاطمةَ وحسنًا وحسينًا، فألقىٰ عليهم ثوبًا فقال: «اللَّهُمَّ، هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحَّي، فَإِنَّكِ عَلَىٰ خَيْرٍ»[(٧)].

---

(١) رواه الطبري (٢٢/ ٨). (٢) أي: ما قال: نعم. (٣) رواه الطبري (٢٢/ ٨).

(٤) المِرْط: كساء من صوف، وربما كان من خز أو غيره، ومرحل: عليه تصاوير الرحال.

(٥) مسلم (٢٠٨١) (٢٤٢٤)، والطبري (٢٢/ ٦). (٦) لوحة (٢٥٠ب).

(٧) ضعيف: رواه الطبري (٢٢/ ٦)، وفيه من لم يسم.

حديث آخر: قال ابن جرير، حدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثنا بكر بن يحيىٰ بن زَبَّان العَنزيُّ[(١)]، حدَّثنا مندَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي خَمْسَةٍ: فِيَّ، وَفِي عَلِيٍّ، وَحَسَنٍ، وَحُسَيْنٍ، وَفَاطِمَةَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**»[(٢)].

قد تقدَّم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم.

وروىٰ ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العِجْلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفًا، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثنا أبو بكر الحنفي، حدَّثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سَمِعْتُ عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ عليًّا وابنيه وفاطمةَ فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «**رَبِّ، هَؤُلَاءِ أَهْلِي وَأَهْلُ بَيْتِي**»[(٣)].

حديث آخر: وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثني زُهَير بن حرب، وشُجاع بن مَخْلَد جميعًا، عن ابن عُلَيَّة -قال زهير: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثني أبو[(٤)] حَيَّان، حدَّثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعمر بن سلمة إلىٰ زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لَقِيتَ يا زيدُ خيرًا كثيرًا؛ [رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيتَ يا زيد خيرًا كثيرًا][(٥)]؛ حدِّثنا يا زيد ما سَمِعْت من رسول الله ﷺ. قال: يا ابن أخي، والله لقد كَبِرَتْ سِنِّي، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعي من رسول الله ﷺ، فما حَدَّثتكُم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلِّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوما خطيبًا بماءٍ يدعىٰ «خُمًّا» -بين «مكة» و«المدينة»- فحمد الله وأثنىٰ عليه ووعظ وَذَكَّر، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثِقْلَيْنِ، وَأَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ**[(٦)]**، فِيهِ الهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**». فَحَثَّ علىٰ كتاب الله وَرَغَّب فيه، ثم قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**» ثلاثًا. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زَيد؟ أليس نساؤُه مِن أهل بيته؟ قال: نساؤُه مِن أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصَّدَقة بعده. قال: ومَنْ هم؟ قال: هم آل عليٍّ، وآلُ عَقِيلٍ، وآلُ جعفرَ، وآلُ عبَّاس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصَّدقة؟ قال: نعم[(٧)].

---

(١) في (ز): (العربي).
(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (٢٢/ ٨)، وفيه عطية العوفي وهو شيعيٌّ مدلسٌ كثير الخطإ.
(٣) رواه الطبري (٢٢/ ٨)، وإسناده صحيح.
(٤) في (ز): (حدَّثني ابن حبان)، وهو خطأ.
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٦) لوحة (٢٥١أ).
(٧) مسلم (٢٤٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٦٦)، وأبو داود (٤٧٣٩).

ثم رواه عن محمَّد بن بَكَّار بن الريَّان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حَيَّان، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: مَنْ أهل بيته؟ نساؤه[١]؟ قال: لَا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرَّجل العصرَ مِن الدَّهر ثم يطلقها فترجع إلىٰ أَبيها وقومها. أهلُ بيتِهِ أصلُهُ وعَصبَتُهُ الَّذِين حُرِمُوا الصَّدَقة بعده.

هكذا وقع في هذه الرواية، والأُولىٰ أولىٰ، والأخذ بها أحرىٰ. وهذه الثَّانية تحتملُ أنَّه أراد تفسيرَ الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنَّما المراد بهم آلُهُ الَّذِين حُرِمُوا الصَّدَقَة، أو أنه ليس المراد بالأهلِ الأزواج فقط، بل هم مع آلِهِ، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعًا بينها وبين الرواية التي قَبْلَهَا، وجمعًا أيضًا بين القرآن والأحاديث المتقدِّمة إن صحَّت، فإنَّ في بعضِ أسانيدها نظرًا، والله أعلم.

ثمَّ الَّذِي لا يشك فيه من تَدَبَّر القرآن أنَّ نساءَ النَّبيِّ ﷺ داخلاتٌ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾، فإن سياق الكلام معهنَّ؛ ولهذا قال تعالىٰ بعد هذا كله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: اعملن بما ينزِّل الله علىٰ رسوله في بيوتكنَّ من الكتاب والسُّنَّة. قاله قتادة وغير واحدٍ، واذكرنَ هذه النِّعمة التي خُصِصْتُنَّ بها مِن بين النَّاس، أنَّ الوحي يَنْزِل في بيوتكنَّ دون سائر النَّاس، وعائشة [الصِّدِّيقة][٢] بنت الصِّدِّيق أَوْلاهُنَّ بهذه النِّعمة، وأحظاهنَّ بهذه الغنيمَةِ، وأخصهُنَّ مِن هذه الرَّحمة العميمة، فإنَّه لم ينزل علىٰ رسولِ الله ﷺ الوحيُ في فراش امرأةٍ سواهَا، كما نصَّ علىٰ ذلك[٣] صلوات الله وسلامه عليه[٤].

قال بعض العلماء: لأنَّه لم يتزوَّج بكْرًا سواها، ولم يَنَم معها رجلٌ في فراشها سواه، فناسبَ أن تخصص بهذه المزيَّة، وأن تفرد بهذه الرُّتبة العليَّة. ولكن إذا كان أزواجه مِن أهل بيته، فقرابته أحقُّ بهذه التَّسمية، كما تقدَّم في الحديث: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ**». وهذا يشبه ما ثبت في «صحيح مسلم»: أنَّ رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أُسِّس علىٰ التَّقوىٰ مِن أوَّل يوم، فقال: «**هُوَ مَسْجِدِي هَذَا**»[٥]. فهذا مِن هذا القبيل؛ فإنَّ الآية إنما نزلت في «مسجد قُباء»، كما ورد في الأحاديث الأُخر[٦]. ولكن إذا كان ذاك أُسِّسَ علىٰ التَّقوىٰ من أول يومٍ، فمسجد رسول الله ﷺ أولىٰ بِتَسمِيَته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا [أبو][٧] الوليد، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبي[٨] جميلة قال: إن الحسن بن علي استُخلفَ حين قُتِل عليٌّ ﷺ قال: فبينما هو

---

(١) في (ز): (فتأوَّه). (٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٢٥١ب).

(٤) انظر: «صحيح البخاري» (٢٥٨١). (٥) مسلم (١٣٩٨).

(٦) راجع تفسير الآية (١٠٨) من سورة التوبة. (٧) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٨) في (ز): (عن ابن جميلة)، والمثبت هو الصواب.

يصلِّي إذ وثب عليه رجلٌ فطعنه بخنجرٍ وزعم حصين أنَّه بلغه أنَّ الَّذي طعنه رجلٌ مِن بني أسد، وحسن ساجد قال: فيَزْعُمُون أنَّ الطَّعنة وقعت في وَرِكِه، فمرض منها أشهرًا، ثم بَرَأَ فقعد علىٰ المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتَّقوا الله فينا، فإنَّا أُمَرَاؤُكم وضِيفَانُكم، ونحن أهل البَيْت الَّذِي قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: فما زال يَقُولُها حتَّىٰ ما بَقِي أحدٌ مِن أهل المسجد إلَّا وهُو يَحِنُّ بكاءً[1].

وقال السُّدِّي، عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسين لرجلٍ مِن أهل الشَّام: أما قرأت في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نَعم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكنَّ بلغتنَّ هذه المنزلة، وبخبرته بكنَّ وأنكنَّ أهل لذلك، أعطاكنَّ ذلك وخصكنَّ بذلك.

قال ابن جرير: واذكرنَ نعمة الله عليكن بأن جعلكنَّ في بيوتٍ تتلىٰ فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله علىٰ ذلك واحمدنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطفٍ بكنَّ، إذ جعلكنَّ في البيوت[2] التي تُتْلىٰ فيها آياتُهُ والحكمة. وهي السُّنَّة، خبيرًا بكنَّ إذ اختاركنَّ لرسوله أزواجًا.

وقال قتادة: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتنُّ عليهنَّ بذلك. رواه ابن جرير.

وقال عطيَّة العَوْفي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعني: لطيفٌ باستخراجها، خبيرٌ بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روي عن الربيع بن أنس، وقتادة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا عثمان بن حكيم، حدَّثنا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٧٦٧٦)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٤١) من طريق أبي عوانة، والطبراني في «الكبير» (٢١٦١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله ثقات.

(٢) لوحة (٢٥٢أ).

عبد الرحمن بن شيبة، سمعت أم سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ تقول: قلت للنَّبيِّ ﷺ: ما لنا لا نُذْكَرُ في القرآن كما يذكر الرِّجال؟ قالت: فلم يَرُعْني منه [يومئذٍ][١] إلا ونداؤه علىٰ المنبر، قالت، وأنا أسرِّح شعري، فلففت شَعْرِي، ثم خرجت إلىٰ حُجْرةٍ من حُجَر بيتي[٢]، فجعلت سمعي عند الجريدِ، فإذا هو يقول عند المنبر: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ... إلىٰ آخر الآية»[٣].

وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد به مثله.

طريق أخرىٰ عنها: قال النسائي أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن حاتم، حدَّثنا سُوَيْد، أخبرنا عبد الله بن شَريك، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أم سلمة أنها قالت للنَّبيِّ ﷺ: يا نبي الله، ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن، والنساء لا يُذكرن؟ فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٤].

وقد رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن أبي معاوية، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة: أن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، حدَّثه عن أم سلمة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، أيُذكر الرجال في كل شيءٍ ولا نُذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية[٥].

طريق أخرىٰ: قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله[٦]، يُذكر الرجال ولا نُذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية[٧].

حديثٌ آخرُ: قال ابن جرير: حدَّثنا [أبو كُرَيب قال: حدَّثنا][٨] سَيَّار بن مظاهر العَنزي[٩] حدَّثنا أبو كُدَيْنة يحيىٰ بن المهلَّب، عن قابوس بن أبي ظَبْيان، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: قال النِّساء للنَّبيِّ ﷺ: ما له يَذكر المؤمنين ولا يَذكر المؤمنات؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية[١٠].

وحدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد؛ عن قتادة قال: دخل نساءٌ علىٰ نساء النَّبيِّ ﷺ، فقلن: قد

---

(١) في (ز): (ذات يوم)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) في (ز): (حجرتي حجرة بيتي)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٣٠١)، والنسائي (٢/ ١٧٣)، والحاكم (٢/ ٤١٦) وصححه وأقره الذهبي.

(٤) رواه النسائي (٢/١٦٩)، ورجاله ثقات إلا أن شريك بن عبد الله القاضي ضعيف سيئ الحفظ، ولكن يشهد له الروايات المذكورة.

(٥) صحيح بهذا الإسناد، رواه الطبري (٢٢/٨).

(٦) لوحة (٢٥٢ب).

(٧) رواه الطبري (٢٢/ ١٠)، والترمذي (٣٠٢٢)، وأحمد (٦/ ٣٢٢)، والحاكم (٢/ ٣٠٥) (٢/٤١٦)، وقال في الموضع الأول: صحيح علىٰ شرط الشيخين إن كان مجاهد سمعه من أم سلمة، ووافقه الذهبي، وقال في الموضع الثاني: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٨) سقط من (ز).

(٩) في (ز): (سنان بن مظاهر العري).

(١٠) رواه الطبري (٢٢/ ٨، ٩)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٦١٤)، وفيه قابوس بن أبي ظبيان: ضعيف.

ذَكَرَكُنَّ الله في القُرْآن، ولم نُذكَر بشيءٍ، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية[1].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دليلٌ علىٰ أنَّ الإيمان غير الإسلام، وهو أخصُّ منه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]. وفي «الصحيحين»: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[2] فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدلَّ علىٰ أنَّه أخص[3] منه كما قررناه في أول «شرح البخاري».

وقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ «القنوت»: هو الطَّاعة في سكونٍ، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦]، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣]، ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]. فالإسلام بعده مرتبةٌ يرتقي إليها، ثمَّ القنوت ناشئٌ عنهما.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾: هذا في الأقوال، فإنَّ الصِّدق خصلةٌ محمودةٌ؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجَرَّبْ عليه كِذْبَةٌ لا في الجاهليَّة ولا في الإسلامِ، وهو علامةٌ علىٰ الإيمان، كما أنَّ الكذب أمارةٌ علىٰ النِّفاق، ومَنْ صدق نجا، [«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ][4]. وَلا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَلا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا». والأحاديث فيه كثيرةٌ جدًّا[5].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾: هذه سَجِيَّة[6] الأثبات، وهي الصَّبر علىٰ المصائب، والعلم بأن المقدُور[7] كائنٌ لا محالة، وَتَلَقِّي ذلك بالصبر والثَّبات، وإنَّما الصَّبر عند الصَّدمة الأولىٰ[8]؛ أي: أصعبه في أوَّل وهلةٍ، ثمَّ ما بعده أسهل منه، وهو صدق السَّجيَّة وثباتها.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ [«الخشوع»][9]: السُّكون والطَّمأنينة والتُّؤدة والوقار والتَّواضع؛ والحامل عليه: الخوف من الله ومراقبته، [كما في الحديث][10]: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[11].

---

(١) **مرسل**: رواه الطبري (٢٢/ ٨) مرسلًا. (٢) البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧). (٣) في (ز): (أخف منه).

(٤) في (ز): أخّر هذه العبارة التي بين المعقوفتين وقدم العبارة التي بعدها.

(٥) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي (١٩٧٢)، وأحمد (١/ ٤١٠).

(٦) في (ز): (هذه نتيجة). (٧) لوحة (٢٥٣أ).

(٨) **جزء من حديث صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس ﵁.

(٩) في (ز): (أي: السكون). (١٠) ليست في (ز). (١١) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾: «الصدقة»: هي الإحسان إلىٰ النَّاس المحاويج الضُّعفاء، الَّذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يُعْطَون من فضول الأموال طاعةً لله وإحسانًا إلىٰ خلقه، وقد ثبت في «الصحيحين»: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» فذكر منهم: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(١).

وفي الحديث الآخر: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ»(٢).

[وفي(٣) «الترمذي» عن أنس بن مالك ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»(٤).

وفي «الصحيحين» عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ. فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(٥).

وفي حديث أبي ذرٍّ أنَّه قال: سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإِيمَانُ بِاللهِ». قلت: يا نبيَّ الله، مع الإيمان عمل؟ قال: «تَرْضَخُ مِمَّا خَوَّلَكَ اللهُ»، أو «تَرْضَخُ مِمَّا رَزَقَكَ اللهُ»؛ ولهذا لما خطب النَّبيُّ ﷺ يوم العيد قال في خطبته: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ». وكأنَّه حثَّهنَّ ورغَّبهنَّ علىٰ ما يفدين به أنفسهنَّ من النَّار، وقال عمر بن الخطاب ﵁: ذكر لي أن الأعمال تَتباهىٰ، فتقول الصَّدقة: أنا أفضلكم(٦).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁ قال: ضرب رسول الله ﷺ مثَلَ البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جبَّتان مِن حديدٍ، أو جنَّتان من حديدٍ. قد اضطرت أيديهما إلىٰ ثديهما وتراقيهما، فجعل المتصدِّق، كلَّما تصدَّق بصدقةٍ انبسطت عنه، حتىٰ تغشىٰ أنامله، وتعفو أثره، وجعل البَخِيل كلما همَّ بصدقةٍ قلصت، وأخذت كل حلقةٍ مكانها. قال أبو هريرة: فأنا رأيت

---

(١) البخاري (٦٦٠) (١٤٢٣) (٦٤٧٩) (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١)، والترمذي (٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٢٢٣)، وأحمد (٢/ ٤٣٩).

(٢) هو جزء من حديث معاذ المشهور: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجة (٢٩٧٣) وقال الترمذي: حسن صحيح، صححه الألباني بطرقه في تعليقه علىٰ كتاب «الإيمان» لابن أبي شيبة (١).

(٣) من هنا وقع سقط في (ز) قدر صفحة زدناها من النسخ الأخرىٰ.

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٦٦٤) والضياء المقدسي في «المختارة» (١٨٤٧)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وفيه أبو عيسىٰ الخزاز أبو خلف: منكر الحديث، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٨٨٥) وضعيف الجامع (١٤٨٩)، لكن ثبت الحديث بلفظ: صدقة السر تطفئ غضب الرب، له طرق وشواهد أوردها الشيخ الألباني ﵀ في «السلسلة الصحيحة» (١٩٠٨).

(٥) البخاري (٧٤٤٣) (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، وابن ماجة (١٨٥)، والترمذي (٢٤١٥).

(٦) صححه الألباني ﵀: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٧٦).

رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا في جيبه. فلو رأيته يوسعها ولا يتسع[١] . وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦] فجُود الرَّجل يُحَبِّبه إلىٰ أضداده، وبُخْلُهُ يُبَغِّضه إلىٰ أولاده. كما قيل:

وَيُظْهِرُ عَيْبَ المَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ ... وَتَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا سَخَاؤُهُ

تَغَطَّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي ... أَرَىٰ كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءُ غِطَاؤُهُ][٢]

والأحاديث في الحثِّ عليها كثيرةٌ جدًّا له موضع بذاته.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾: في الحديث الذي رواه ابن ماجة: «وَالصَّوْمُ زَكَاةُ البَدَنِ»[٣] أي: تُزكِّيه وتطهره وتنقِّيه من الأخلاط الرَّديئة طبعًا وشرعًا.

قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام مِن كلِّ شهرٍ، دخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

ولما كان الصوم من أكبر العون علىٰ كسر الشهوة -كما قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ[٤] فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[٥]»[٦] - ناسبَ أن يذكر بعده: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: عن المحارمِ والمآثمِ إلَّا عن المُبَاح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عبيد الله، حدَّثنا محمَّد بن جابر، عن علي بن الأقمر، عن الأغرِّ أبي مسلم، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ،

---

(١) البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١). (٢) هنا نهاية السقط.

(٣) ضعيف: رواه ابن ماجة (١٧٤٥)، وفيه: موسىٰ بن عبيدة الربذي: ضعيف.

(٤) الباءة -ويقال أيضًا: الباهة- القدرة علىٰ مُؤن النكاح، وبالقصر: الوَطء، قال الخَطابيُّ: المرادُ بالباءة النكاح، وأصله: الموضع الذي يتبوؤه ويأوي إليه، وقال النووي: اختلفَ العلماءُ في المراد بالباءة هنا علىٰ قولين يرجعان إلىٰ معنًىٰ واحدٍ، أصحهما: أن المراد معناها اللغوي، وهو الجماع. «فتح الباري»: (٩/ ١٠٨)، وانظر: «اللسان»: بوأ، وبوه.

(٥) الوِجَاء: أنْ تُرَضَّ أُنثيا الفَحْل رَضًّا شَديدًا يُذْهِبُ شَهوةَ الجِماع، ويَتَنَزَّل في قَطْعه مَنْزلةَ الخَصْي، وقيل: هو أن تُوجَأَ العُروق والخُصْيَتانِ بحالِهما. أراد: أنَّ الصَّومَ يَقْطَعُ النِّكاح كما يَقْطَعه الوِجَاء، ورُوِيَ [وَجًىٰ] بوَزْن عَصًا: يريد التَّعَب والحَفَىٰ، وذلك بَعيدٌ إلا أن يُراد فيه مَعْنىٰ الفُتُور؛ لأنَّ مَن وُجِيَ فَتَر عن المَشْي، فشَبَّه الصَّوم في باب النِّكاح بالتَّعَبِ في باب المَشْي. «النهاية»: (٥/ ١٥٢)، وانظر: «اللسان»: وجأ.

(٦) البخاري (١٩٠٥) (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، وأبو داود (٢٠٤٦)، و الترمذي (١٠٨١)، والنسائي (٤/ ١٧١) (٦/ ٥٦)، وابن ماجة (١٨٤٥).

فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا [(١)] تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ» [(٢)].

وقد رواه أبو داود، والنَّسائي، وابن ماجة، من حديث الأعمش، [عن علي بن الأقمر] [(٣)]، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيدٍ [(٤)] وأبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بمثله.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخُدْري ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العباد أفضل درجةً عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ». قال: قلت: يا رسول الله، ومَن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللهَ أَفْضَلَ مِنْهُ» [(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم [(٦)]، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النَّبيُّ ﷺ يسير في طريقِ مكَّة، فأتىٰ علىٰ جُمْدان [(٧)] فقال: «هَذَا جُمْدَانُ، سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ [(٨)]». قالوا: وما المُفرِّدون؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا». ثم قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين؟ قال: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين؟ قال: «وَالمُقَصِّرِينَ» [(٩)].

تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حُجَيْن بن المثنىٰ، حدَّثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد -مولىٰ عبد الله بن عَيَّاش [(١٠)] بن أبي ربيعة- أنَّه بلغه عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَىٰ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ» [(١١)]. وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي

---

(١) في (ز): (كانا).

(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٧٦٨٤)، أبو داود (١٣٩٠)، (١٤٥١)، وابن ماجة (١٣٣٥)، والنسائي (١٣١٠).

(٣) سقط من (ز)، وحذفها خطأ.

(٤) لوحة (٢٥٣ب).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٥)، وفيه ابن لهيعة: اختلط. ورواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم ضعيفة.

(٦) في (ز): (إبراهيم بن عبد الرحمن)، وهو خطأ.

(٧) جُمْدان: جبل علىٰ بُعد ليلة من المدينة.

(٨) فسرهم رسول الله ﷺ بالذاكرين الله كثيرًا والذاكرات... قال ابن قتيبة وغيره: وأصل المفرِّدين الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم فبقوا يذكرون الله تعالىٰ، وجاء في رواية: هم الذين اهتروا في ذكر الله؛ أي: لهجوا به، وقال ابن الأعرابي: يقال (فرد الرجل): إذا تفقه واعتزل وخلا بمراعاة الأمر والنهي. «شرح مسلم» للنووي.

(٩) رواه مسلم (٢٦٧٦) دون آخره، والزيادة صحيحة والحديث بتمامه عند أحمد (٢٠/ ٤١١).

(١٠) في (ز): (عبَّاس)، وهو خطأ.

(١١) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٣٩)، فيه زياد بن أبي زياد: لم يلقَ معاذًا فالإسناد منقطع، لكنه ثبت موقوفًا من كلام معاذ بإسنادٍ حسنٍ.

الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ [غَدًا][(١)] فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: «ذِكْرُ اللهِ ﷻ»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنيّ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: أن رجلًا سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول الله؟ فقال: «أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا». قال: فأيُّ الصائمين أكثر أجرًا؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا». ثم ذكَر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا». فقال أبو بكر لعمر ﵄: ذهب الذاكرون بكلِّ خير[(٣)]. فقال رسول الله ﷺ: «أَجَلْ»[(٤)].

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذِّكر عند قوله تعالىٰ في هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، إن شاء الله تعالىٰ. وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: هيَّأ لهم منه لذُنُوبِهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا وهو الجنَّة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾

قال العوفي عن ابن عبَّاسٍ: قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليَخْطُب علىٰ فتاه زيد بن حارثة، فدخل علىٰ زينب بنت جحش [الأسدية][(٥)] فخطبها، فقالت: لست بناكحتِه، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ فَانْكِحِيهِ». قالت: يا رسول الله، أُؤَامَرُ في نفسي. فبينما هما يتحدَّثان أنزل الله هذه الآية علىٰ رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي مَنكحًا يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ». قالت: إذًا لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي[(٦)].

وقال ابن لَهيعة، عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خيرٌ منه حسبًا -وكانت امرأة فيها حدَّة-

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبته في «المسند».

(٢) ضعيف: إسناد هذا الطريق ضعيف، لكن له شاهد من حديث أبي الدرداء رواه أحمد (٥/ ١٩٥)، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩٠) وفي آخره قال معاذ: ما شيء أنجىٰ من عذاب الله من ذكر الله. وسيأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾. والحديث حسنه المنذري (٢/ ٢٥٤)، والهيثمي (١٠/ ٧٣)، وصححه الحاكم (١/ ٢٧٣)، لكن أعله الدارقطني في «العلل» (١٠٨٢)؛ لأن مداره علىٰ زياد بن أبي زياد وهو ضعيف وهونفس علة رواية حديث معاذ.

(٣) لوحة (٢٥٤أ).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٤٣٨)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وزبَّان بن فائد: قال الحافظ: ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته (تقريب - ترجمة ١٩٨٦) وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا ينفرد عن سهل بن معاذ بنسخة كأنها موضوعة لا يحتج به (المجروحين - ٣٧٨).

(٥) ليست في (ز).

(٦) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢٢/ ١١) وسنده مسلسل بالضعفاء.

فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها[(١)].

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان: أنها نزلت في زينب بنت جحش [الأسدية][(٢)] حين خطبها رسول الله ﷺ علىٰ مولاه زيد بن حارثة، فامتنعت ثم أجابت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، وكانت أول مَنْ هاجر من النساء -يعني: بعد صلح الحديبية- فوهبت نفسها للنبيِّ ﷺ، فقال: قد قبلت. فزوجها زيد بن حارثة -يعني والله أعلم بعد فراقه زينب- فسخطت هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوَّجَنا عبده. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾[(٣)] إلىٰ آخر الآية. قال: وجاء أمر أجمع من هذا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال: فذاك خاصٌّ وهذا إجماعٌ[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن ثابت البُنَاني، عن أنس قال: خطب النَّبيُّ ﷺ علىٰ جُلَيْبِيبٍ امرأةً من الأنصار إلىٰ أبيها، فقال: حتىٰ أستأمر أمَّها. فقال النَّبيُّ ﷺ: [«فنَعَمْ][(٥)] إذًا». قال: فانطلق الرجل إلىٰ امرأته، [فذكر ذلك لها][(٦)]، فقالت: لاها الله ذا[(٧)(٨)]، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جُلَيبيًا، وقد منعناها مِن فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرَّجل يُريد أن يخبر النَّبيَّ ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تَرُدُّوا علىٰ رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رَضِيَه لكم فأنكحوه. قال: فكأنَّها جَلَّت عن أبويها، وقالا: صدقتِ. فذهب أبوها إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال: «فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ». قال: فزوَّجها، ثم فزع أهل «المدينة»، فركب جُلَيْبِيب فوجدوه قد قتل، وحوله ناسٌ من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها [وإنَّها][(٩)] لمن أنفقِ بيتٍ بـ«المدينة»[(١٠)(١١)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد -يعني: ابن سلمة- عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي برزة الأسلمي أن جُليبيبًا كان امرءًا يدخل علىٰ النساء يَمُرُّ بهنَّ ويُلَاعِبهنَّ، فقلت لامرأتي: لا يدخلنَّ اليومَ عليكم جُليبيبٌ، فإنَّه إن دخل عليكم لأفعلنَّ ولأفعلنَّ. قال: وكانت

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٢٢/ ١١)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، ومحمَّد بن حفص أبو عبيد الوصابي، أورد ابن أبي حاتم أن بعض أهل حمص ذكروا أنه ليس بصدوق. ورواه ابن جرير كذلك من طريق آخر وفيه ضعف.

(٢) ليست في (ز).

(٣) لوحة (٢٥٤ب).

(٤) **مرسل ضعيف**: لأنه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يسنده إلىٰ الصحابة، رواه الطبري (٢٢/ ١٢) وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم متروك الحديث.

(٥) سقط من (ز).

(٦) سقط من (ز).

(٧) في (ز): (لاها والله ما وجد).

(٨) معناه: لا، والله لا يكون ذا.

(٩) سقط من (ز).

(١٠) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ١٣٦).

(١١) أي: أكثرهن نفقة.

الأنصار إذا كان لأحدهم أيِّم لم يزوجها حتىٰ يعلم: هل لنبيِّ الله ﷺ فيها حاجة أم لا ؟ فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ». قال: نعم، وكرامة يا رسول الله، ونُعْمَةُ[١] عينٍ. فقال: «إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي». قال: فلِمَن [يا رسول الله][٢] ؟ قال: «لِجُلَيْبِيبٍ». فقال: يا رسول الله، أشاور أُمَّها. فأتىٰ أُمَّها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتَكِ؟ فقالت: نعم ونُعمة عين. فقال: إنَّه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيبٍ. فقالت: أَجُلَيبيبٌ إِنِّيه[٣] ؟ أَجُلَيبيبٌ إِنِّيه؟ لجليبيب إِنِّيه؟ لا لَعَمْر الله لا تُزَوَّجُه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: مَنْ خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها. قالت[٤] : أتردون علىٰ رسول الله ﷺ أمره؟! ادْفَعُونِي إليه، فإنه لن يضيعني. فانطلق أبوها إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: شأنَك بها. فَزَوَّجها جليبيبًا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاةٍ له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قالوا: نفقد فلانًا ونفقد فلانًا. قال: «انْظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قالوا: لا. قال: «لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا». قال: «فَاطْلُبُوهُ فِي القَتْلَىٰ». فطلبوه فوجدوه إلىٰ جنب سبعةٍ قد قتلهم ثم قتلوه. [قالوا: يا رسول الله، ها هو ذَا إلىٰ جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه][٥] . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: «قَتَلَ سَبْعَةً [وَقَتَلُوهُ][٦] ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ». مرتين أو ثلاثًا، ثم وضعه رسول الله ﷺ علىٰ ساعديه [وحفر له، ما له سرير إلا ساعد النَّبيِّ ﷺ][٧] . ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنَّه غسَّله ﷺ. قال ثابت: فما كان في الأنصار أَيِّمٌ أنفقَ منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتًا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: «اللَّهُمَّ، صُبَّ عَلَيْهَا [الخَيْرَ][٨] صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ[٩] عَيْشَهَا كَدًّا» كذا قال، فما كان في الأنصار أَيِّم أنفقَ منها[١٠] .

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في (الفضائل) قصة قتله[١١] . وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» أنَّ الجارية لما قالت في خدرها: أتردُّون علىٰ رسول الله ﷺ أمره؟ تلَتْ هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ .

وقال ابن جُرَيْج: [أخبرني عامر بن مصعب، عن طاوس قال: إنَّه سأل ابن عبَّاسٍ عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عبَّاسٍ ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ

---

(١) أي: قرة عين وسرورًا. (٢) سقط من (ز).
(٣) إِنِّيه: لفظة تستعملها العرب في الإنكار... «النهاية»، و«اللسان»: أني.
(٤) لوحة (٢٥٥أ). (٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز).
(٩) في (ز): (واجعل عيشها كذا وكذا قال)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(١٠) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٤٢). (١١) مسلم (٢٤٧٢)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٤٢).

مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾ (١)] (٢).

فهذه الآية عامَّةٌ في جميع الأمور، وذلك أنَّه إذا حكم الله ورسوله بشيءٍ فليس لأحدٍ مخالفته ولا اختيار لأحدٍ هاهنا ولا رأي ولا قول، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء:٦٥] وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» (٣). ولهذا شدَّد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي (٤) فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧ ﴾ (٥)

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نبيِّه -صلوات الله وسلامُهُ عليه- إنَّه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه -أي: بالإسلام ومتابعة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام-: ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالعتق من الرِّقِّ، وكان سيِّدًا كبيرَ الشَّأن جليل القَدْر، حبيبًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، يقال له: الحِبُّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبُّ ابن الحِبِّ. قالت عائشة ﵂: ما بَعَثَه رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ إلَّا أمَّره عليهم، ولو عاش بعده لاسْتَخْلَفَهُ (٦). رواه أحمد عن سعيد بن محمَّد الوراق ومحمَّد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهي عنها.

وقال البزار: حدَّثنا خالد بن يوسف، حدَّثنا أبو عَوَانة (ح)، وحدَّثنا محمَّد بن مَعْمَر، حدَّثنا أبو داود، حدَّثنا أبو عوانة، أخبرني عمر بن أبي سلمة، عن أبيه: حدَّثني أسامة بن زيد قال: كنت في

(١) في إسناده عامر بن مصعب. قال الحافظ: شيخ لابن جريج لا يعرف.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وفيه نعيم بن حماد كثير الخطإ.

(٤) لوحة (٢٥٥ب).

(٥) قال العلامة السعدي ﵀: وفي هذه الآيات المشتملات علىٰ هذه القصة فوائد، منها: الثناء علىٰ زيد بن حارثة... ومنها: أن الرسول ﷺ، قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلغه، حتىٰ هذا الأمر، الذي فيه عتابه. وهذا يدل علىٰ أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه...

ومنها: أن المستشار مؤتمنٌ، يجب عليه -إذا استشير في أمرٍ من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير...

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

(٦) رواه أحمد (٦/ ٢٨١)، وفيه عبد الله البهي: صدوق يخطئ.

المسجد، فأتاني العبَّاس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقالا: يا أسامة، استأذنْ لنا علىٰ رسول الله ﷺ. قال: فأتيتُ رسولَ الله فأخبرته، فقلت: عليٌّ والعبَّاس يستأذنان؟ فقال: «أَتَدْرِي مَا حَاجَتُهُمَا؟» قلت: لا يا رسول الله. فقال: «لَكِنِّي أَدْرِي»، قال: فأذن لهما. قالا: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أيُّ أهلك أحبُّ إليك؟ فقال: «أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ» قالا: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْهِ»(١).

وكان رسول الله ﷺ قد زَوَّجه بابنة عمَّته زينب بنت جحش الأسدية -وأُمُّها أميمة بنت عبد المطلب- وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخِمارًا، ومِلْحَفةً، ودرْعًا، وخمسين مُدًّا من طعامٍ، وعشرة أمدادٍ مِن تمرٍ. قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريبًا من سنةٍ أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيدٌ يشكوها إلىٰ رسول الله ﷺ فجعل رسول الله يقول له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، وَاتَّقِ اللهَ». قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ (٢) مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم هاهنا آثارًا عن بعض السلف رحمهم الله أحببنا أن نضرب عنها صَفْحًا [لعدم صحَّتها](٣) فلا نوردها.

وقد روىٰ الإمام أحمد هاهنا أيضًا حديثًا، من رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضًا.

وقد روىٰ البخاري أيضًا بعضه مختصرًا فقال: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحيم، حدَّثنا مُعَلَّىٰ بن منصور، عن حماد بن زيد، حدَّثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نَزَلَتْ في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدَّثنا ابن عيينة، عن علي بن زيد بن جُدْعان قال: سَألَنِي عليُّ بن الحسين ما يقول الحسن في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؟ فذكرت له فقال: لا، ولكنَّ الله أعلم نبيَّه أنَّها ستكون مِن أزواجِهِ قبل أن يتزوجها، فلمَّا أتاه زيدٌ ليشكوها إليه قال: «اتَّقِ اللهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ». فقال: قد أخبرتك أني مُزَوّجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه(٥).

---

(١) رواه البزار (٢٦٢٠)، والترمذي (٣٨١٩) وحسنه، ورواه ابن أبي حاتم (١٧٦٨٩)، والحاكم (٢/ ٤٥٢) وصححه وتعقبه الذهبي فقال: عمر بن أبي سلمة ضعيف، والضياء في «المختارة» (١٣٨٠)، قلت: وفي الإسناد: عمر بن أبي سلمة، قال الحافظ: صدوق يخطئ، والحديث ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٤٤) وأعله بعمر بن أبي سلمة.

(٢) لوحة (٢٥٦أ). (٣) سقط من (ز). (٤) البخاري (٤٧٨٧) (٧٤٢٠).

(٥) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٧٦٩١)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

وهكذا رُوي عن السُّدِّي أنه قال نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدَّثني إسحاق بن شاهين، حدَّثني خالد، عن داود عن عامر، عن عائشة ﵂ أنها قالت: لو كتم محمَّدٌ ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله، لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾: «الوطر»: هو الحاجة والأرب؛ أي: لما فَرَغ منها وفارقها زَوَّجناكها، وكان الَّذِي وَلِيَ تزويجها منه هو الله ﷿ بمعنىٰ: أنَّه أوحىٰ إليه أن يدخل عليها بلا وليٍّ ولا مهرٍ ولا عقدٍ ولا شهودٍ من البشر.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم -يعني: ابن القاسم أبا النَّضر- حدَّثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس ﵁ قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ». فانطلق حتىٰ أتاها وهي تُخَمِّر عَجِينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري -حتىٰ ما أستطيع أن أنظر إليها- أن رسول الله ﷺ ذَكَرَها، فوليتها ظهري ونكصت علىٰ عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله[٢] ﷺ يَذْكُرُك. قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئًا حتىٰ أُؤَامِرَ ربي ﷿ فقامت إلىٰ مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذنٍ. ولقد رأيتنا حين دَخَلَتْ علىٰ رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللَّحم، فخرج النَّاس وبَقِي رجالٌ يتحدَّثون في البيت بعد الطَّعام، فخرج رسول الله ﷺ [واتَّبعته][٣] فجعل يتتبع حُجر نسائه يُسَلِّم عليهنَّ، ويَقُلْن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أنَّ القوم قد خرجوا أو أُخْبر. قال: فانطلق حتىٰ دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقي السِّتر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية[٤].

ورواه مسلم والنَّسائي من طرق، عن سليمان بن المغيرة به.

وقد روىٰ البخاري: عن أنس بن مالك ﵁ أنَّ زينب بنت جحش كانت تفخر علىٰ أزواج النَّبيِّ ﷺ فتقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ وزوَّجَني الله من فوق سبع سموات[٥].

وقد قَدَّمنا في «سورة النور» عن محمَّد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب ﵂: أنا التي [نزل][٦] تَزْوِيجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نَزَل عُذْري من السماء، فاعترفت لها زينب ﵂[٧].

---

(١) مسلم (٢٨٨)، والطبري (٢٢/ ١٣). (٢) لوحة (٢٥٦ب).
(٣) سقط من (ز). (٤) مسلم (١٤٢٨)، وأحمد (٣/ ١٩٥)، والنسائي (٦/ ٧٩).
(٥) البخاري (٧٤٢١). (٦) سقط من (ز).
(٧) سبقت الإشارة إلىٰ ضعف هذه الرواية في تفسير سورة آل عمران، وسورة النور، وفي إسنادها: معلىٰ بن عرفان: واهٍ ليس بشيء.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنَّبيِّ ﷺ: إني لأدل عليك بثلاثٍ، ما من نسائك امرأةٌ تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيكَ الله من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام[1].

وقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلَّا يبقىٰ حرجٌ علىٰ المؤمنين في تزويج مطلقاتِ الأدعياء، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان قبل النُّبوَّة قد تبنَّىٰ زيد بن حارثةَ، فكان يقال له: «زيد ابن محمَّد»، فلما قطع الله هذه النِّسبة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ[2] هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحشٍ لما طلَّقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التَّحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] لِيَحترزَ مِن الابن الدَّعِيِّ؛ فإنَّ ذلك كان كثيرًا فيهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الَّذي وقع قد قدَّره الله تعالىٰ وحتَّمه، وهو كائنٌ لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النَّبيِّ ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحلَّ له وأمرَهُ به مِن تزويج زينب الَّتي طلَّقها دَعِيُّه زيد بن حارثة.

وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيءٍ وعليهم في ذلك حَرَجٌ، وهذا رَدٌّ علىٰ مَنْ تَوَهَّم مِن المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعِيه، الذي كان قد تبنَّاه.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدِّره كائنًا لا محالةَ، وواقعًا لا محيدَ عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لَمْ يشأ لم يكُن.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾

---

(١) رواه الطبري (٢٢/ ١٤)، والحاكم (٢/ ٢٥)، وإسناده مرسل.
(٢) لوحة (٢٥٧أ).

يمدح تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلىٰ خلقه ويُؤَدُّونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحدٍ عن إبلاغ رسالات الله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفىٰ بالله ناصرًا ومعينًا. وسيد النَّاس في هذا المقام -بل وفي كل مقام- محمَّد رسول الله ﷺ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلىٰ أهل المشارق والمغارب، إلىٰ جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمَتَهُ ودينه وشرعه علىٰ جميع الأديان والشَّرائع، فإنَّه قد كان النَّبيُّ يُبْعَث إلىٰ قومه خاصَّةً، وأما هو -صلوات الله عليه- فإنَّه بُعث إلىٰ جميع الخلق عَرَبِهِم وعجَمِهِم، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أُمَّته مِن بعده، فكان[١] أعلىٰ مَنْ قَام بها بعدَهُ أصحابه ﷺ، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ، في ليلِهِ ونهارِهِ، وحَضَرِهِ وسفرِهِ، وسرِّهِ وعلانيتِهِ، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كلُّ خلفٍ عن سلفهم إلىٰ زمَانِنَا هذا، فبِنُورِهِم يقتدِي المهتدون، وعلىٰ منهجهم يسلكُ الموفَّقون. فنسأل الله الكريم المنَّان أن يجعلنا مِن خَلَفِهِم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن نُمَيْر، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَرِي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَىٰ أَمْرَ اللهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لا يَقُولُهُ، فَيَقُولُ اللهُ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ، خَشِيتُ النَّاسَ. فَيَقُولُ: فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَىٰ»**[٢].

ورواه أيضًا عن عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن زبيد، عن عمرو بن مرة.

ورواه ابن ماجة، عن أبي كُرَيْبٍ، عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمش به.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهىٰ تعالىٰ أن يقال بعد هذا: «زيد ابن محمَّد» أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبنَّاه، فإنَّه -صلوات الله عليه وسلامه- لم يَعِش له ولدٌ ذكَرٌ حتىٰ بلغ الحُلُم؛ فإنَّه وُلِدَ له: القاسم، والطَّيِّب، والطَّاهر، من خديجة فماتوا صغارًا، وولد له إبراهيم من مارية القبطيَّة، فمات أيضًا رضيعًا، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقيَّة، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ثلاثٌ وتأخَّرت فاطمة حتىٰ أُصِيبَت به صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعدَه لستَّة أشهرٍ.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه الآية نصٌّ فِي أنَّه لا نبيَّ بعدَهُ، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسولَ [بعده][٣] بطريق الأَوْلَىٰ والأَحْرَىٰ؛ لأنَّ مقام الرِّسالة أخصُّ مِن مقام النُّبوَّة، فإن كلَّ رسولٍ نبيٌّ، ولا

---

(١) لوحة (٢٥٧ب).

(٢) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجة (٤٠٠٨)، وفيه انقطاع؛ لأن أبا البختري وهو سعيد بن فيروز لم يدرك أبا سعيد الخدري، ورواه أحمد (٣/ ٩١)، والطيالسي (٢٩٣) (٢٢٠٦)، وعنه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٧١) عن أبي البختري، عن رجل، عن أبي سعيد، وهذا الرجل مبهمٌ، ولكن الحديث ثابتٌ بلفظ آخر عن أبي سعيد مرفوعًا: «لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بحق إذا علمه» رواه أحمد (٣/ ٨٤)، وأبو نعيم (٣/ ٩٩)، وإسناده صحيح.

(٣) ليست في (ز).

ينعكس[(١)]. وبذلك وَرَدَت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعةٍ من الصحابة.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر الأزدي، حدَّثنا زُهَيْر بن محمَّد[(٢)]، عن عبد الله بن محمَّد بن عقيل، عن الطُّفيل بن أبيّ بن كعب، عن أبيه، عن النَّبيّ ﷺ قال: «**مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا فَأَحْسَنَهَا[(٣)] وَأَكْمَلَهَا، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبُنْيَانِ وَيُعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبِنَةِ؟ فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبِنَةِ**»[(٤)].

ورواه التِّرمذي، عن بُنْدَار، عن أبي عامرٍ العقدي به، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا المختار بن فُلفُل، قال: حدَّثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ**» قال: فشقَّ ذلك علىٰ النَّاس قال: قال: «**وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ**». قالوا: يا رسول الله، وما المبشِّرات؟ قال: «**رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ**»[(٥)].

وهكذا روىٰ الترمذي عن الحسن بن محمَّد الزعفراني، عن عفان بن مسلم به، وقال: صحيحٌ غريبٌ من حديث المختار بن فُلفُل.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا سَليم بن حَيَّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبِنَةِ! فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، خُتِمَ بِيَ الأَنْبِيَاءُ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**»[(٦)].

ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي من طرق، عن سليم بن حيَّان به. وقال الترمذي: صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ النَّبِيِّينَ [مِنْ قَبْلِي][(٧)] كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا فَأَتَمَّهَا**

---

(١) اختلف العلماء في هذه المسألة علىٰ أقوال، وجمهور علماء أهل السنة علىٰ التفريق بين الرسول والنبي، والأدلة تؤيد ذلك، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ...﴾ [الحج:٥٢]، وغير ذلك من الأدلة.

- وأما تحديد الفارق عند من تبنَّىٰ هذا القول فمختلف فيه كذلك، ولعل الأقرب: أن الرسولَ من بُعث بشرع جديد والنبيّ من بعث لتقرير شرع مَن قبله؛ وهو بالطبع مأمور بتبليغه، إذ من المعلوم أن العلماء مأمورون بذلك، فهم بذلك أولىٰ، كما لا يخفىٰ. وانظر: «تفسير الألوسي» (٥/ ٤٤٩، ٤٥٠)، و«التعليقات الأثرية علىٰ العقيدة الطحاوية»، و«إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل».

(٢) لوحة (٢٥٨أ). (٣) في (ز): (فأحكمها).

(٤) **حسن صحيح**: رواه أحمد (٥/ ١٣٦)، والترمذي (٣٦١٣)، ويشهد له حديث جابر وأبي سعيدٍ الخدري الآتيين.

(٥) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٢٦٧)، والترمذي (٢٢٧٢).

(٦) البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) (١٣٠)، ورواه مسلم (٢٢٨٦)، وأحمد (٣/ ٩) من حديث أبي سعيدٍ (١٣٢)، ورواه مسلم (٢٨٦٩) (٥/ ٤٥٤) من حديث أبي هريرة.

(٧) سقط من (ز).

إِلَّا لَبِنَةً وَاحِدَةً، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتْمَمْتُ تِلْكَ اللَّبِنَةَ»[(١)] . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، حدَّثنا عثمان بن عُبَيد الراسبي قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا نُبُوَّةَ بَعْدِي إِلَّا الْمُبَشِّرَاتِ**». قال: قيل: وما المبشرات[(٢)] يا رسول الله؟ قال: «**الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ**» أو قال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ**»[(٣)] .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَىٰ بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَأَجْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ وَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هَاهُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ؟!**» قال رسول الله ﷺ: «**فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةُ**». أخرجاه من حديث عبد الرزَّاق[(٤)] .

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضًا: قال الإمام مسلم: حدَّثنا يحيىٰ بن أيوب وقتيبة وعلي بن حجر[(٥)] قالوا: حدَّثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**».

ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث إسماعيل بن جعفر، وقال الترمذي: حسن صحيح[(٦)] .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا [فَأَتَمَّهَا]**[(٧)] **إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ وَاحِدَةٍ، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتْمَمْتُ تِلْكَ اللَّبِنَةَ**»[(٨)] . ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كُرَيْب، كلاهما عن أبي معاوية به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا معاوية بن صالح عن سعيد ابن سُويد الكلبي، عن عبد الأعلىٰ بن هلال السلمي، عن العِرْباض بن سارية قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ**»[(٩)] .

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٩)، ومسلم (٢٢٦٩). (٢) لوحة (٢٥٨ب). (٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٤٥٤).

(٤) أحمد (٢/ ٣١٢)، ومسلم (٢٢٨٦)، والحديث لم يعزه المزي في «تحفة الأشراف» إلا لمسلم، ولم أجده في البخاري، فلعل هذا وهم من ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٥) في (ز): (علي بن محمَّد). (٦) مسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣)، وابن ماجة (٥٦٧).

(٧) سقط من (ز). (٨) أحمد (٣/ ٩)، ومسلم (٢٢٦٩).

(٩) ضعيف بهذا اللفظ: تقدم عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة، والحديث ثبت بلفظ آخر صحيح: «كتبت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد» رواه أحمد (٥/ ٥٩).

حديث آخر: قال الزهري: أخبرني محمَّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ تَعَالَىٰ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ[(١)]» أخرجاه في «الصحيحين»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرة، عن عبد الرحمن ابن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا كالمودِّع، فقال: «أَنَا مُحَمَّدٌ [النَّبِيُّ][(٣)] الأُمِّيُّ -ثلاثًا- وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ العَرْشِ، وَتُجُوِّزَ بِي[(٤)]، وَعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ[(٥)] أُمَّتِي؛ فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ»، تفرَّد به الإمام أحمد[(٦)].

ورواه الإمام أحمد أيضًا عن يحيىٰ بن إسحاق، عن ابن لَهِيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن مريج[(٧)] الخولاني، عن أبي قيس -مولىٰ عمرو بن العاص- عن عبد الله بن عمرٍو فذكر مثله سواء.

والأحاديث في هذا كثيرةٌ، فمِن رحمة الله تعالىٰ بالعباد: إرسال محمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه- إليهم، ثم مِن تشريفه لهم: ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدِّين الحنيف له. وقد أخبر تعالىٰ في كتابِهِ، ورسولُهُ في السُّنَّة المتواترة عنه: أنَّه لا نبيَّ بعده؛ ليَعْلَمُوا أنَّ كلَّ مَنِ ادَّعىٰ هذا المقام بعده فهو كذَّابٌ أفَّاكٌ، دجَّالٌ ضالٌّ مضلٌّ، ولو تخرق وشعبَذ، وأتىٰ بأنواع السِّحر والطَّلاسم والنيرجيَّات[(٨)]، فكلُّها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرىٰ الله ﷻ علىٰ يدِ الأسود العَنْسي باليَمَن، ومسيلمة الكذَّاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردَةِ، ما علم كل ذي لبٍّ وفهمٍ وحِجًىٰ أنَّهما كاذبان ضالَّان، لعنهما الله. وكذلك كل مدَّعٍ لذلك إلىٰ يوم القيامة حتَّىٰ يختموا بالمَسِيح الدَّجَّال، يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العُلَمَاء والمؤمنون بكذب مَنْ جاء بها. وهذا مِن تمام لطف الله تعالىٰ بخلقه، فإنَّهم بضرورةِ الواقع لا يأمرون بمعروفٍ ولا ينهون عن منكرٍ إلَّا علىٰ سبيل الاتِّفاق، أو لما لهم فيه من المَقَاصِد إلىٰ غيرِهِ، ويكون في غايةِ الإفكِ والفجورِ في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ

---

(١) لوحة (٢٥٩أ).

(٢) البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).

(٣) سقط من (ز).

(٤) أي: خُفف بسببي عن الأمة.

(٥) في (ز): (وعرفت وعرفت أمتي).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ١٧٢)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٧) في (ز): (عبد الله بن سريج)، والذي في «المسند» (٢/ ٢١٢) (عبد الرحمن بن جبير)، وفي كتب الرجال كـ«الميزان» و«اللسان»: «عبد الرحمن بن مُرَيْح»، وهو مجهول.

(٨) النَّيْرَنْجُ، أو النَّيرَجُ: أَخَذٌ كالسِّحْر، وليس به؛ أي: ليس بحقيقتِه ولا كالسِّحر، إنَّما هو تَشْبيهٌ وتَلْبِيسٌ، وهي: النِّيرَنْجِيّات. «تاج العروس».

﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الآية [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء[١] عليهم السلام، فإنَّهم في غاية البر والصِّدق والرُّشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمُرونَ به وينهون عَنْهُ، مع ما يؤيَّدون به من الخَوَارِق للعادات والأدلَّة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائمًا مستمرًّا ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ[٢] وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين بكثرةِ ذكرهم لربِّهم تعالىٰ، المنعم عليهم بأنواع النِّعم وأصناف المننِ، لما لهم في ذلك مِن جزيل الثَّواب، وجميل المآبِ.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدَّثني مولىٰ بن عياش عن أبي بَحرية، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ[٣] الذَّهَبِ وَالوَرِقِ[٤]، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٥].

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد -مولىٰ ابن عيَّاش- عن أبي بَحرية -واسمه: عبد الله بن قيس التراغمي- عن أبي الدَّرداء به. قال الترمذي: ورواه بعضهم عنه فأرسله.

قلتُ: وقد تقدَّم هذا الحديث عند قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في «مسند الإمام أحمد» من حديث زياد بن أبي زياد مولىٰ عبد الله بن عَيَّاش: أنه بلغه عن معاذ بن جبلٍ، عن رسول الله ﷺ بنحوه، فالله أعلم.

---

(١) لوحة (٢٥٩ب).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فالملاقي هو الذي يسلم، وهو الذي يحيي هؤلاء، ولا شك أن الرب عز وجل إذا قال لهم: السلام عليكم، يزول عنهم كل خوفٍ، ولهذا تُسمَّىٰ الجنة دار السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]؛ لأنها دارٌ سالمةٌ من كل آفةٍ.

(٣) في (ز): (إنفاق).

(٤) الوَرِق: الفضة.

(٥) رواه أحمد (٥/ ١٩٥)، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩)، وله شاهد من حديث معاوية تقدم قريبًا عند قوله تعالىٰ: ﴿والذاكرين الله كثيرًا﴾، قال المنذري (٢/ ٢٥٤)، والهيثمي «مجمع الزوائد» (١/ ٧٣): إسناده حسن، ورواه الحاكم (١/ ٢٧٣) وقال: صحيح الإسناد، وأعله الدارقطني في «العلل» (١٠٨٢) بأن مولىٰ ابن عياش هو زياد بن أبي زياد وهو ضعيف، ومدار حديث معاذ عليه أيضًا. فلا يصح شاهدًا له.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا فرج[١] بن فَضَالة، عن أبي سعد الحِمْصي قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «**اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي أُعْظِمُ شُكْرَكَ، وَأَتَّبِعُ نَصِيحَتَكَ، وَأُكْثِرُ ذِكْرَكَ، وَأَحْفَظُ وَصِيَّتَكَ**»[٢].

ورواه الترمذي عن يحيىٰ بن موسىٰ، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعد الحمصي[٣]، عن أبي هريرة، فذكر مثله وقال: غريبٌ. وهكذا رواه الإمام أحمد أيضًا عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبي سعيد المدني عن أبي هريرة فذكره.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيان إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمرني بأمرٍ أتشبث به. قال: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ**»[٤].

وروىٰ الترمذي وابن ماجة منه الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح به. وقال التِّرمذي: حسنٌ غريبٌ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيج، حدَّثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إنَّ دَرَّاجًا أبا السَّمح حدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حَتَّىٰ يَقُولُوا: مَجْنُونٌ**»[٥].

وقال الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن أحمد، حدَّثنا عقبة بن مُكْرَم العَمِّي، حدَّثنا سعيد بن سفيان الجَحْدَري، حدَّثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثُبَيت الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا [حَتَّىٰ]**[٦] **يَقُولَ المُنَافِقُونَ: تُرَاءُونَ**»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا شداد أبو طلحة الراسبي، سمعت

---

(١) في (ز): (روح بن فضالة)، وهو خطأ.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٤٧٧)، وفيه فرج بن فضالة: ضعيف، ورواه الترمذي (٣٦٠٤)، وأحمد (٢/ ٣٦١) من طريق فرج بن فضالة به.

(٣) لوحة (٢٦٠أ).

(٤) حسن بهذا السياق: رواه أحمد (٤/ ١٩٠) رجاله ثقات عدا معاوية بن صالح، قال الحافظ: صدوق له أوهام، وروىٰ الجزء الأول الترمذي (٢٣٢٩)، وابن ماجة (٣٧٩٣)، من هذا الطريق، لكن له شواهد ومتابعات تقدم ذكرها في سورة البقرة الآية (٩٤).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٦٨)، وفيه دراج أبو السمح: قال الحافظ: صدوق أو في روايته عن أبي الهيثم ضعف.

(٦) بياض في (ز).

(٧) ضعيف: رواه الطبراني (١٢/ ١٩٦)، وفيه الحسن بن أبي جعفر الجفري: ضعيف.

أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، إِلَّا رَأَوْهُ(١) حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إنَّ الله لم يفرِض [علىٰ عباده](٣) فريضةً إلَّا [جعل لها حدًّا معلومًا، ثم](٤) عذَرَ أهلها في حال عذرٍ، غير الذِّكْر، فإنَّ الله لم يجعل له حدًّا ينتهي [إليه](٥)، ولم يعذُر أحدًا في تركه، إلا مغلوبًا علىٰ تركِهِ، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، باللَّيل والنَّهار، [في البرِّ والبحر](٦)، وفي السَّفر والحضر، والغنىٰ والفقر، والصِّحَّة والسَّقم، والسِّرِّ والعلانية، وعلىٰ كلِّ حالٍ، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فإذا فعلتم ذلك صلَّىٰ عليكم هو وملائكته(٧).

والأحاديث والآيات(٨) والآثار في الحثِّ علىٰ ذكر الله كثيرةٌ جدًّا، وفي هذه الآية الكريمة الحث علىٰ الإكثار مِن ذلك.

وقد صنف النَّاس في الأذكار المتعلِّقة بآناء اللَّيل والنهار كالنَّسائي والمعمري وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلَّفة في ذلك كتاب «الأذكار» للشيخ محيي الدين النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٩).

---

(١) في (ز): (إلا زاده حسرة).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٢٤)، وفيه شداد أبو طلحة: صدوق يخطئ، لكن للحديث شاهدٌ من حديث أبي هريرة، رواه أحمد (٢/ ٤٦٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه»، ورواه نحوه أبو داود (٤٨٥٦) (٥٠٥٩) وإسناده صحيح.

(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) سقط من (ز) (٧) رواه الطبري (٢٢/ ١٧)، وابن أبي حاتم (١٧٧٠١).

(٨) لوحة (٢٦٠ب).

(٩) ورد في بعض النسخ الخطية بعد هذه الفقرة زيادة في فضل الذكر وأقسامه رأينا إضافتها لفائدتها، وإنما جعلناها في الحاشية خشية أن تكون مضافةً من بعض النساخ أو المعلقين وليست من كلام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا نصها:
- «فذكر الله أصل موالاة الله ﷻ، ورأسها. والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتىٰ يصحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتىٰ يبغضه ويعاديه. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]، وما استجلبت نعم الله تعالىٰ واستدفعت نقمه بمثل ذكر الله، فالذكر جلاب النعم دفاع النقم. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ عنِ الذِينَ آمَنُوا﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج]، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ومادة الإيمان وقوته بذكر الله، فمن كان أكمل إيمانًا وأكثر ذكرًا كان دفاع الله عنه، ودفعه أعظم. ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، والذكر رأس الشكر، والشكر جلاب النعم، موجب للمزيد. قال بعض السلف: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك. ومجالس الذكر رياض الجنة كما روىٰ ابن أبي الدنيا من حديث جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «يأيها الناس ارتعوا في رياض الجنة»، قلنا: يا رسول الله: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»، ثم قال: «اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله يُنزل العبد منه حيث أنزله من نفسه». فمجالس الذكر مجالس الملائكة كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول =

= الله ﷺ: «إن لله ملائكة فَضْلًا عن كتاب الناس يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلم إلىٰ حاجتكم، فتحف بأجنحتها إلىٰ السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأوني؟ قال: يقولون: لا والله يا ربنا ما رأوك، فيقول: كيف لو أنهم رأوني؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك كانوا أشد عبادة وأشد تحميدًا وتمجيدًا، وأكثر تسبيحًا، فيقول: ما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد حرصًا عليها، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، فيقول: مم يتعوذون؟ قال: فيقولون: من النار، فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة، فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول مَلَكٌ من الملائكة: إن فيهم فلانًا ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم»، فهذا من بركتهم علىٰ نفوسهم وعلىٰ جليسهم، فلهم نصيب من قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وإن الله ﷻ ليباهي بالذاكرين الملائكة، كما روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية علىٰ حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج علىٰ حلقة من أصحابه. قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده علىٰ ما هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا به. قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟»، قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك؟ قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»، فهذه المباهاة من الرب - تبارك وتعالىٰ - ، دليل علىٰ شرف الذكر عنده ومحبته له وأن له مزية علىٰ غيره من الأعمال.

والذكر نوعان: أحدهما: ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به وهذا أيضًا نوعان: أحدهما: إنشاء الثناء بها من الذاكر، وهذا النوع هو المذكور في الحديث نحو: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، ونحو ذلك، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو: سبحان الله عدد خلقه، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله، وقول: الحمد لله عدد ما خلق في السماء، وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما خلق بينهما، وعدد ما هو خالق، أفضل من مجرد قولك: الحمد لله، وهذا في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم، لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته». رواه مسلم. وفي الترمذي و«سنن أبي داود» عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ علىٰ امرأة بين يديها نوىٰ أو حصىٰ تسبح به، فقال: «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل؟» فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك».

والنوع الثاني: الخبر عن الرب تبارك وتعالىٰ بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك: إن الله ﷻ يسمع أصوات عباده، ويرىٰ حركاتهم، ولا يخفىٰ عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم من آبائهم وأمهاتهم، وهو علىٰ كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد ونحو ذلك. وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثنىٰ به علىٰ نفسه، وبما أثنىٰ عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ]، وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع: حمد، وثناء، ومجد.

فالحمد: الإخبار عنه بصفات كماله مع محبته والرضا عنه، ولا يكون المحب الساكت حامدًا، ولا المثني بلا محبة حامدًا، حتىٰ يجمع له المحبة والثناء، فإن كرر المحامد شيئًا بعد شيء، كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا. قد جمع الله تعالىٰ لعبده الأنواع الثلاثة في أول سورة فاتحة الكتاب، =

= فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة] قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال: أثنىٰ علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مجدني عبدي.

- **النوع الثاني**: من الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، وهذا أيضًا نوعان: أحدهما: ذكره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا ونهىٰ عن كذا وأحب كذا وسخط كذا، والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر، فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه.

- فائدة: فهذا ذكره هو الفقه الأكبر، وما دونه من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية، ومِن ذِكْرِه تعالىٰ ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله علىٰ عبيده، وهذا من أجل أنواع الذكر، فهذه خمسة أنواع، وهي تكون بالقلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويصح المحبة، ويثير الحياء، ويبعث علىٰ المخافة، ويدعو إلىٰ المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعة والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا ما من تلك الأثمار، وإن أثمر شيئًا ما، فثمرته ضعيفة.

- والذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء علىٰ الله ﷻ بجميل صفاته وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟ ولهذا جاء في الحديث: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»؛ ولهذا كان مستحبًا في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته كما جاء في حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو في صلاته لم يحمد الله ولم يصلِّ علىٰ النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد عجل هذا**»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «**إذا صلىٰ أحدكم، فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلي علىٰ النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء**». رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وهكذا دعاء ذي النون الذي قال فيه النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**»، وفي الترمذي: «**دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**». وهكذا عامة الأدعية النبوية، ومنه قول النبي ﷺ في دعاء الكرب: «**لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم**». ومنه حديث بريدة الأسلمي، رواه أهل السنن أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو وهو يقول: اللهم أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ**». وروىٰ أبو داود والنسائي من حديث أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا: اللهم أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ**» وروىٰ أبو داود من حديث أنس، فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله والثناء عليه أنجح ما سأل به حوائجه، فهذا من فوائد الذكر، وهو أنه يجعل الدعاء مستجابًا فلهذا قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب] فالدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أقرب إلىٰ الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلىٰ ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل. فإنه يكون قد توسل إلىٰ المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرَّض، بل صَرَّح، بشدة حالته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضىٰ منه وأوصاف المسؤول مقتضىٰ منه، فاجتمع المقتضىٰ من السائل والمقتضىٰ من المسؤول في الدعاء، فكان أبلغ وألطف موقعًا وأتم معرفة وعبودية، وأنت ترىٰ في الشاهد ولله المثل الأعلىٰ أن الرجل إذا توسل إلىٰ من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره، وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب إلىٰ قضاء حاجته من أن يقول له ابتداء أعطني كذا وكذا، فإذا عرف هذا فتأمل قول موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ۝٢٤﴾ [القصص]، وقول ذي النون في دعائه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ

=

وقوله: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم:١٧، ١٨].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾: هذا تهييجٌ إلىٰ الذكر؛ أي: إنَّه سبحانه يذكركم

= إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقول أبينا آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف]، وفي «الصحيحين» أن أبا بكر الصديق ﷺ؛ قال يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلىٰ ربه بفضله وجوده، وأنه المتفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا فهكذا آداب الدعاء والعبودية.

- وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهي أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، وهذا من حيث النظر إلىٰ كل واحد منهما مجردًا، وقد تَعْرِضُ للمفضول ما يجعله أولىٰ من الفاضل، بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلىٰ الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن، وكذلك التشهد، وكذلك «رب اغفر لي» بين السجدتين، وقول: «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة.

- وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة، ذكر التهليل والتسبيح أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة. وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول، أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن علىٰ كل كلام كفضل الله علىٰ خلقه، لكن لكل مقام مقال، متىٰ فات مقاله فيه وعدل عنه إلىٰ غيره، واختلت الحكمة، وفقدت المصلحة المطلوبة منه، وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثاله أن يحدث له من التفكر في ذنوبه فيحصل له توبة واستغفار أو يحصل له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلىٰ الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحوطه، وكذلك أيضًا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة القرآن، لم يحضر قلبه فيها. وإذا أقبل علىٰ الذكر والدعاء إليها اجتمع قلبه كله علىٰ الله، وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالًا، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأكثر أجرًا، وهذا باب نافع يحتاج إلىٰ فقه نص وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطي كل ذي حق حقه ويضع كل شيء موضعه، فللعين موضع، وللرجل موضع، وللماء موضع، وللحم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، والله الموفق.

- وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب في وقت، والتحمير وماء الورد أنفع له في وقت. وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يومًا: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًا فالبخور وماء الورد نافع له، وإن كان دنسًا فالصابون والماء الجاري أنفع له فقال: كيف والثياب لا تزال دنسة؟

- ومن هذا الباب أن سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] تعدل ثلث القرآن، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعِدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص، ولما كان الصلاة مشتملة علىٰ القراءة والذكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية علىٰ أتم الوجوه، فكانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده بجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء فهذا أصل نافع جدًّا للعبد يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وينزلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيرنح عليه إبليس الفضل الذي بينهما أو ينظر إلىٰ فاضلها فيشتغل عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتفوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله به أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا» اهـ. [طيبة (٦/ ٤٣٣)].

فاذكُرُوه أنتم، كقوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»(١).

والصَّلاة مِن الله ثناؤه علىٰ العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه. وقال غيره: «الصلاة» من الله: الرحمة؛ [ورُدَّ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾](٢). وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وأما «الصلاة» من الملائكة فبمعنىٰ: الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [غافر: ٧-٩].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلىٰ نور الهدىٰ واليقين. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلىٰ الحق الذي جهله غيرهم، وبَصَّرهم الطريق الذي ضَلَّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلىٰ الكفر أو البدعة(٣) وأشياعهم من الطَّغَام. وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنَّة والنَّجاة من النَّار، وما ذاك إلا لمحبَّته لهم ورأفتِهِ بهم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس ﷺ قال: مر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت علىٰ ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعىٰ وتقول: ابني ابني، وَسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النَّار. قال: فَخَفَّضهم(٤) رسول الله ﷺ وقال: «[وَلَا اللهُ ﷻ](٥) لا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ»(٦).

إسناده علىٰ شرط «الصحيحين»، ولم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة، ولكن في «صحيح الإمام البخاري» عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ امرأةً من السَّبْي قد أخذت صبيًّا لها، فألصقته إلىٰ صدرها وأرضعته؛ فقال: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ

---

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). (٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (٢٦١أ). (٤) أي: سَكَّنَهم حتىٰ يتنبهوا لما يلقىٰ عليهم.

(٥) في (ز): (لا والله)، والمثبت موافق لما في «المسند»، وفي «المستدرك»: (لا والله لا يلقي الله حبيبه).

(٦) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٠٤)، والحاكم (٤/ ١٧٧)، وصححه علىٰ شرطهما. ويشهد له رواية البخاري الآتية.

عَلَىٰ ذَلِكَ؟» قالوا: لا. قال: «فَوَاللهِ، للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[(١)].

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ الظَّاهر: أنَّ المراد -والله أعلم- ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: من الله تعالىٰ يوم يلقونه ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: يوم يُسَلِّم عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

وزعم قتادة أنَّ المرادَ أنَّهم يحيي بعضهم بعضًا بالسَّلام يوم يلقون الله في الدَّار الآخرة. واختاره ابن جرير.

قلت: وقد يستدلُّ له بقوله تعالىٰ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة وما فيها من المآكِلِ والمشارِبِ، والملابس والمساكِنِ، والمناكِحِ والملاذِّ والمناظِرِ، وما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطر علىٰ قلبِ بشرٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء ابن يسار قال: لقيت عبد الله[(٢)] بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التَّوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوفٌ في التَّوراة بصفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزًا للأُمِّيِّين، أنت عبدي ورَسُولِي، سمَّيتُك المتوكِّل، لستَ بفظٍّ[(٣)] ولا غليظٍ ولا سخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع السَّيِّئة بالسَّيِّئة، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضَه الله حتَّىٰ يُقِيمَ به[(٤)] الملَّة العوجاء بأن يقولوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا[(٥)].

وقد رواه البخاري في (البيوع) عن محمَّد بن سنان، عن فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن علي به. ورواه في (التفسير) عن عبد الله -قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح- عن عبد العزيز بن [أبي سلمة][(٦)]، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون به. وقال البخاري في (البيوع): وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام.

وقال وهب بن منبه: إن الله أوحىٰ إلىٰ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل -يقال له: شعياء- أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني مُنطقٌ لسانكَ بوحيٍ وأبعث أميًا من الأُمِّيِّين، أبعثه [مبشرًا][(٧)] ليس بفظٍّ ولا

---

(١)البخاري (٥٩٩٩). (٢)لوحة (٢٦١ب). (٣)في (ز): (لا فظ).
(٤)في (ز): (حتىٰ يقيموا). (٥)البخاري (٢١٢٥)، وأحمد (٢/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم (١٧٧١٢).
(٦)سقط من (ز). (٧)ليست في (ز).

غليظٍ ولا سخَّابٍ في الأسواق، لو يمرُّ إلىٰ جنب سراجٍ لم يطفئه من سَكِينَتِه، ولو يمشي علىٰ القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرًا ونذيرًا، لا يقول الخَنَا، أفتح به أعينًا كُمْهًا[١]، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، أَسَدِّده لكلِّ أمرٍ جميلٍ، وأَهَبُ له كلَّ خُلُقٍ كريمٍ، وأجعل السَّكينة لباسَه، والبِرَّ شعاره، والتَّقوىٰ ضميره، والحكمةَ منطقه، والصدقَ والوفاءَ طبيعته، والعَفْوَ والمعروفَ خلقه، والحقَّ شريعته، والعدلَ سيرَته، والهُدَىٰ إمامه، والإسلامَ ملَّته، وأحمدَ اسمه، أهدِي به بعد الضَّلالة، وأُعَلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأعرف به بعد النُّكْرَة، وأُكَثِّر به بعد القلَّة، وأُغْنِي به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفُرْقَة، وأُؤَلِّف به بين أُمَمٍ متفرِّقةٍ، وقلوبٍ مختلفةٍ، وأهواءَ متشتتةٍ، وأستنقذ به فِئامًا من النَّاس عظيمةً من الهلكة، وأجعل أمَّته خير أمةٍ[٢] أُخْرِجت للنَّاس، يأمرون بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، موحِّدِين مؤمنين مُخْلِصِين، مصدِّقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التَّسبيح والتَّحميد، والثَّناء والتَّكبير والتَّوحيد، في مساجدِهِم ومجالسهم، ومضاجعِهِم ومنقلبِهِم ومثواهُم، يصلُّون لي قيامًا وقعودًا، ويُقَاتِلُون في سبيلِ اللهِ صفوفًا وزُحوفًا، ويخرجونَ مِن ديارهم ابتغاءَ مرضاتِي ألوفًا، يطهِّرُون الوجوه والأطرَاف، ويشدُّون الثِّياب في الأنصاف، قربانهم دماؤُهُم، وأناجيلهم في صدُورِهِم، رهبانٌ باللَّيل لُيُوثٌ بالنَّهار، وأجعل في أهل بيتِهِ وذريتِهِ السَّابقين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، أُمَّته من بعده يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، أعز مَنْ نصرهم، وأؤيد مَنْ دَعا لهم، وأجعل دائرة السَّوْءِ علىٰ مَنْ خالفهم أو بَغَىٰ عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئًا مما في أيديهم؛ أجعلهم ورثةً لنبيهم، والدَّاعية إلىٰ ربِّهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويُقِيمُون الصَّلاة ويُؤْتُون الزَّكاة، ويُوفُون بعهدهم، أختم بهم الخير الَّذِي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم[٣].

هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الرحمن بن صالح، حدَّثنا عبد الرحمن بن محمَّد بن عبيد الله العَرْزَمي[٤]، عن شَيْبَان النحوي، أخبرني قتادة، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: لما نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ -وقد كان أَمَر عليًّا ومعاذًا أن يسيرا إلىٰ اليمن- فقال: «**انطلِقَا فَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، إِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾»[٥].

ورواه الطبراني عن محمَّد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي،

---

(١) **الكُمْه**: جمع أكمه، وهو الأعمىٰ.
(٢) لوحة (٢٦٢أ).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧١٤) من رواية وهب بن منبه فيما يرويه من كتب بني إسرائيل.
(٤) في (ز): (عبيد الله القرشي)، وهو خطأ.
(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧١١)، وفيه عبد الرحمن بن محمَّد بن عبيد الله العَرْزَمي: ضعيف.

عن عبد الرحمن بن [محمَّد بن][(1)] عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله. وقال في آخره: «**فَإِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا عَلَىٰ أُمَّتِكَ وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ، وَدَاعِيًا إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[(2)] بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا بِالْقُرْآنِ**»[(3)].

وقوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ أي: لله بالوحدانيَّة، وأنَّه لا إله غيره، وعلىٰ النَّاس بأعمالهم يوم القِيامَة، ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾، [كقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]][(4)].

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثَّواب، ونذيرًا للكافرين من وَبِيلِ العقاب.

وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي: داعيًا للخلق إلىٰ عبادة ربِّهم عن أمرِه لك بذلك، ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ أي: وأمرُك ظاهرٌ فيما جئت به من الحقِّ، كالشَّمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاندٌ.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾؛ أي: لا تُطِعْهُم ولا تسمع[(5)] منهم في الَّذي يقولونه، ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي: اصْفَحْ وتجاوزْ عنهم، وَكِلْ أمرهم إلىٰ الله، فإنَّ فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكامٌ كثيرةٌ؛ منها: إطلاق النِّكاح علىٰ العَقْد وحده، وليس في القرآن آيةٌ أصرحُ في ذلك منها، وقد اختلفوا في النِّكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطءِ، أو فيهما؟ علىٰ ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنَّما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾. وفيها دلالةٌ لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها[(6)].

وقوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابيَّة في ذلك بالاتِّفاق.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٦٢ب).

(٣) ضعيف: رواه الطبراني (١١/ ٣١٢)، وهو ضعيف كسابقه.

(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): (لا تطعهم واسمع منهم).

(٦) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: النكاح حقيقة في الوطء، ويطلق ويراد به العقد كما في هذه الآية الكريمة، ولم يرد في القرآن الكريم النكاح إلا والمراد منه العقد؛ لأنه في معنىٰ الوطء، وهذا من أدب القرآن حيث يُكني عن الوطء بمثل المباشرة والملامسة والقربان والتغشي والإتيان.

وقد استدل ابن عبَّاس، وسعيد بن المسَيَّب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية علىٰ أن الطَّلاق لا يَقعُ إلَّا إذا تقدَّمه نكاحٌ؛ لأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النِّكاح بالطَّلاق، فدلَّ علىٰ أنَّه لا يَصِحُّ ولا يَقعُ قبله. وهذا مذهب الشَّافعي وأحمد بن حنبل وطائفةٌ كثيرةٌ من السَّلف والخلف رحمهم الله تعالىٰ.

وذهب مالك وأبو حنيفة -رحمهما الله- إلىٰ صحَّة الطَّلاق قبل[1] النِّكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانةٌ فهي طالقٌ»؛ فعندهما: متىٰ تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأةٍ أتزوجها فهِيَ طالقٌ»؛ فقال مالك: لا تطلق حتىٰ يعين المرأة. وقال أبو حنيفة: كل امرأةٍ يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور: فاحتجوا علىٰ عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور المروزي، حدَّثنا النضر بن شُمَيْل، حدَّثنا يونس -يعني: ابن أبي إسحاق- سمعت آدم مولىٰ خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: إذا قال: كل امرأةٍ أتزَوَّجُها فهي طالقٌ، قال: ليس بشيءٍ من أجل أن الله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ الآية[2].

وحدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأحْمَسِي، حدَّثنا وَكيعٌ، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق، عن ابن عبَّاس قال: إنَّما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترىٰ أن الطلاق بعد النِّكاح[3] ؟!

وهكذا روىٰ محمَّد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾؛ فلا طلاق [قبل النِّكاح][4].

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا طَلَاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ»[5]. رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، وقال التِّرمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ، وهو أحسن شيءٍ روي في هذا الباب». وهكذا روىٰ ابن ماجة عن عليٍّ والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا طَلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ»[6].

---

(١) لوحة (٢٦٣أ). (٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧١٨).

(٣) حسن صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٢٠)، وإسناده حسن. ويشهد لصحته الرواية الآتية، وثبت نحوه من طريق عطاء عن ابن عبَّاسٍ بسندٍ صحيحٍ: رواه عبد الرزاق (٦/ ٤١٥).

(٤) سقط من (ز).

(٥) حسن صحيح: روه أبو داود (٢١٩١)، وابن ماجة (٢٠٤٧)، والترمذي (١١٨١)، وأحمد (٢/ ١٨٩)، وإسناده حسن، ويشهد لصحته الحديث الآتي.

(٦) حسن صحيح: رواه ابن ماجة (٢٠٤٨)، وقال البوصيري: (هذا إسناد حسن وعلي بن الحسين، وهشام بن سعد: صدوق له أوهام)، قلت: ويشهد له الرواية السابقة، وحسنه الحافظ في «التلخيص» (٣/ ٢١٢).

[وفي الآية دليل على: أن المسيس مطلقٌ، ويراد به: الوطء.][(١)]

وقوله[(٢)]: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾: هذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طُلِّقَت قبل الدُّخول بها لا عدَّة عليها فتذهب فتتزوَّج في فورها مَنْ شاءَتْ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفَّى عنها زوجُهَا، فإنَّها تعتدُّ منه أربعة أشهرٍ وعشرًا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا.

وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: المتعة هاهنا أعمُّ مِن أن تكون نصف الصَّداق المسمَّى، أو المتعة الخاصَّة[(٣)] إن لم يكن قد سمَّى لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٢٣٦].

وفي «صحيح البخاري» عن سهل بن سعدٍ وأبي أسيد: أنَّ رسول الله ﷺ تزوَّج أميمة بنت شَرَاحيل، فلمَّا أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنَّها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيدٍ أن يجهزها ويكسوها ثَوْبَيْن رازقيَّيْن[(٤)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ ﵄: إن كان سمَّى لها صداقًا فليس لها إلا النِّصف، وإن لم يكن سمَّى لها صداقًا فأمتعها على قدر عسرِهِ ويسرِهِ، وهو السَّراح الجميل[(٥)].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾[(٦)]

يقول تعالى مخاطبًا نبيَّه -صلوات الله وسلامه عليه-: بأنَّه قد أحلَّ له مِن النِّساء أزواجَهُ اللَّاتي

(١) ليست في (ز). (٢) في (ز): (وقال).

(٣) لوحة (٢٦٣ ب). (٤) البخاري (٥٢٥٦).

(٥) رواه الطبري (٢٢/ ١٩)، والبيهقي (٧/ ٢٥٤)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاسٍ، لكن ثبت نحوه من طريقٍ آخر صحيح: رواه ابن أبي شيبة (٥/ ١٥٤)، والطبري (٢/ ٥٣٦).

(٦) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: هذه الآية من المتقدم في التلاوة المتأخر في النزول، ونظيرها آيتي الوفاة في البقرة على رأي الجمهور، إذ مضمون هذه الآية التوسعة على الرسول ﷺ إكرامًا له لما تحمله من نكاح زينب ثم قصره في الآيات بعد علي من تحته من النساء إكرامًا لهن أيضًا، وذلك في قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ [الأحزاب:٥٢]، ثم لم يقبض حتى رفع الله تعالى عنه الحظر إكرامًا وإعلاءً من شأنه إذ قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء.

أعطاهنَّ مُهُورَهُنَّ، وهي الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحدٍ، وقد كان مَهْرُه لنسائِهِ اثنتي عشْرَةَ أوقيَّةً ونَشًّا[١] وهو نصف أوقيَّة، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنَّه أمهرها عنه النَّجاشي: أربعمائة دينار، وإلا صفيَّة بنت حُيَيٍّ فإنَّه اصطفاها من سَبْيِ خيبرَ، ثم[٢] أعتقها وجعل عتقها صداقَها، وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقيَّة، أدَّىٰ عنها كتابتها إلىٰ ثابت بن قيس بن شماس وتزوَّجَها، رضي الله عن جميعهنَّ.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التَّسرِّي مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفيَّة وجويرية فأعتقهما وتزوَّجَهُما، وملك ريحانة بنت[٣] شمعون النضريَّة ومارية القبطيَّة أم ابنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانتا من السَّراري رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: هذا عدلٌ وَسطٌ بين الإفراط والتَّفريط؛ فإنَّ النَّصارىٰ لا يتزوَّجون المرأةَ إلَّا إذا كان الرَّجل بينه وبينها سبعة أجدادٍ فصاعدًا، واليَهودُ يتزوَّج أحدهم بنت أخيه وبنت أختِهِ، فجاءت هذه الشَّريعة الكاملة الطَّاهرة بهدم إفراط النَّصارىٰ، [فأباح][٤] بنت العَمِّ والعمَّة وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرَّطت[٥] فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشعٌ فظيعٌ.

وإنَّما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ فوَحَّدَ لفظ الذَّكر لشَرَفِهِ، وجمع الإناث لنَقْصِهنَّ كقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وله نظائرُ كثيرةٌ.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمَّار بن الحارث الرازي، حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، حدَّثنا إسرائيل، عن السُّدِّي، عن أبي صالح، عن أم هانئ قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذَرْتُ إليه بعُذْرِي، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلَم أكُن أَحلُّ له، ولم أكُن ممَّن هاجر معه، كنت من الطُّلقاء[٦]. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ، عن عبيد الله بن موسىٰ به.

ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالحٍ عنها بنحوه.

---

(١) النَّش: نصف أوقية، وهو عشرون درهمًا، والأوقية: أربعون.

(٢) في (ز): (فإنه أعتقها). (٣) لوحة (٢٦٤أ).

(٤) في (ز): (مما بلغ بنت العم). (٥) في (ز): (ما أفرطت).

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٢١)، والطبري (٢٢/ ١٥)، والترمذي (٣٢١٤)، وفي إسناده أبو صالح باذام مولىٰ أم هانئ: ضعيف.

ورواه الترمذي في «جامعه». وهكذا قال أبو رَزين وقتادة: إن المراد: مَن هاجر معه إلىٰ «المدينة».
وفي روايةٍ عن قتادة: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: أَسْلَمْن. وقال الضَّحَّاك: قرأ ابن مسعودٍ: «واللاتي هَاجَرْنَ[1] مَعَك»[2].

وقوله: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: ويحلُّ لك -يا أيها النَّبيُّ- المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوَّجها بغيرِ مهرٍ إن شئت ذلك[3]. وهذه الآية توالىٰ [فيها][4] شرطان، كقوله تعالىٰ إخبارًا عن نوحٍ عليه السلام أنَّه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسىٰ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال هاهنا: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعدٍ السَّاعدي؛ أنَّ رسول الله ﷺ جاءته امرأةٌ فقالت: يا رسول الله، إنِّي قد وَهَبتُ نفسي لك. فقامت قيامًا طويلًا فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله، زَوِّجنِيها إن لم يكن لك بها حاجةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصْدِقُهَا إِيَّاهُ؟**» فقال: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسْتَ لا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا**». فقال: لا أجد شيئًا. فقال: «**الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**» فالتمس فلم يجد شيئًا، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟**» قال: نعم؛ سورة كذا وسورة كذا -لسورٍ يُسمِّيها- فقال له رسول الله ﷺ: «**زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**». أخرجاه من حديث مالك[5].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا مرحومٌ، سمعت ثابتًا يقول: كنت مع أنس جالسًا وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأةٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك فيَّ حاجةٍ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها!. فقال: «**هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ، رَغِبَتْ فِي النَّبِيِّ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا**»[6]. انفرد بإخراجه البخاري من حديث مرحوم بن [عبد العزيز العطار][7]، عن ثابت البُنَاني، عن أنس به.

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا عبد الله بن بكر، حدَّثنا سِنان بن ربيعة، عن الحضرمي، عن أنس بن مالك: أن امرأةً أتت النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا. فذكرت من حسنها وجمالها،

---

(١) في (ز): (هاجرت)، والمثبت موافق لما في «الطبري»، بزيادة واو وعلىٰ ما في المصحف.
(٢) قراءة: قَرَأَ (وَاللَّاتِي) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (اللَّاتِي).
(٣) لوحة (٢٦٤ب). (٤) بياض في الأصل.
(٥) البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥)، وأحمد (٥/ ٣٣٨).
(٦) البخاري (٥١٢٠)، وأحمد (٣/ ٢٦٨)، والنسائي (٦/ ٧٨)، والمقصود بقوله: (قالت ابنته) أي: ابنة أنس رضي الله عنه.
(٧) في (ز): (عبد الغفار)، وهو خطأ.

فآثرتك بها. فقال: «قَدْ قَبِلْتُهَا» فلم تزل تَمْدَحُها حتىٰ ذكرت أنها لم تصدع ولم تَشْتَكِ شيئًا قط، فقال[١]: «لا حَاجَةَ لِي فِي ابْنَتِكِ». لم يخرِّجوه[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا منصور بن أبي مُزَاحم، حدَّثنا ابن أبي الوضاح -يعني: محمَّد بن مسلم- عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنَّبيِّ ﷺ خولة بنت حكيم[٣].

وقال ابن وهبٍ، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزِّنَاد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص -من بني سُلَيم- كانت من اللَّاتي وَهَبْن أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ[٤].

وفي روايةٍ له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنَّا نتحدَّث أنَّ خولةَ بنت حكيمٍ كانت وَهَبَتْ نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة[٥].

فيحتمل: أنَّ أمَّ سليمٍ هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأةٌ أخرىٰ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأحْمَسِي، حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوَّج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأةً، ست من قريش، خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صَعْصَعَة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنَّبيِّ ﷺ، وزينب أم المساكين -امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء- وهي التي اختارت الدُّنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذَتْ منه، وزينب بنت جحش الأسديَّة، والسَّبيتان صفيَّة بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية[٦].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث[٧].

---

(١) لوحة (٢٦٥أ).

(٢) ضعفه الألباني: رواه أحمد (٣/ ١٥٥) وفيه الحضرمي، الظاهر أنه ابن لاحق السعدي، ولا ينزل حديثه عن التحسين، لكنه منقطع كما قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٦٢٧٩)، والحديث رواه أيضًا أبو يعلىٰ (٤٢٣٤)، قال الهيثمي: (٢/ ٢٩٤): ورجاله ثقات، وقد حقق الألباني هذه الرواية، ورجَّح أنها من نفس طريق الحضرمي؛ وحكم علىٰ الحديث بالضعف.

(٣) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٢٤)، والبيهقي (٧/ ٥٥)، والطبري (٢٢/ ٢٣)، وفيه محمَّد بن مسلم: صدوق، لكن تابعه غير واحدٍ كما في الرواية التي بعدها.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٢٥)، والطبري (٢٢/ ٢٣) وإسناده صحيح، وانظر ما قبله.

(٥) رواه الطبري (٢٢/ ٢٣).

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٢٧)، وفيه موسىٰ بن عبيدة الربذي: ضعيف.

(٧) رواه الطبري (٢٢/ ٢٣)، وإسناده منقطع.

فيه انقطاع؛ هذا مرسلٌ، والمشهور: أن زينب التي كانت تدعىٰ: «أمُّ المساكينْ» هي زينب بنت خُزَيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النَّبيِّ ﷺ في حياته، فالله أعلم.

والغرض من هذا: أنَّ اللَّاتي وهبنَ أنفسهن من النَّبيِّ ﷺ كثيرٌ، كما قال البخاري[١]: حدَّثنا زكريا ابن يحيىٰ، حدَّثنا أبو أسامة قال: هشام بن عروة، حدَّثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللَّاتي وهبنَ أنفسهنَّ من النَّبيِّ ﷺ وأقول: أتهب امرأةٌ نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرىٰ ربك إلا يُسارعُ في هواكَ[٢].

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن منصور الجعفي، حدَّثنا يونس ابن بُكَيْر، عن عَنْبَسَة بن الأزهر، عن سِماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ وهبت نفسها له[٣].

ورواه ابن جريرٍ عن أبي كُرَيْبٍ، عن يونس بن بُكَير. أي: إنَّه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحًا له ومخصوصًا به؛ لأنَّه مردودٌ إلىٰ مشيئتِهِ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي: لا تحلُّ الموهوبة لغيرك، ولو أنَّ امرأةً وهبت نفسها لرجلٍ لم تحلَّ له حتَّىٰ يعطيها شيئًا. وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما.

أي: إنها إذا فوَّضت المرأة نفسها إلىٰ رجلٍ، فإنَّه متىٰ دخل بها وَجَبَ لها عليه بها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زَوْجُها[٤]، والموت والدخول سواء في تقرير المهرِ وثبوتِ مهر المثل في المفوضة لغير النَّبيِّ ﷺ، فأمَّا هو ﷺ فإنه لا يجب عليه للمفوِّضة شيءٌ ولو دخل بها؛ لأنَّ له أن يتزوَّج بغير صداقٍ ولا وليٍّ ولا شهودٍ، كما في قصة زينب بنت جحش ﵂. ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأةٍ تهب نفسها لرجلٍ بغير وليٍّ ولا مهرٍ إلا للنَّبيِّ ﷺ.

[وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾][٥]، قال أُبيُّ ابن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: أي: من حَصْرِهم في أربع نسوةٍ حرائر وما[٦] شاءوا من الإماء، واشتراط الوليِّ والمهرِ

(١) لوحة (٢٦٥ب). (٢) البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤)، وأحمد (٦/ ١٥٨).
(٣) ضعيف: من رواية سماك عن عكرمة، وروايته عنه مضطربة، رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٢٩)، والطبري (٢٢/ ١٧).
(٤) صحيح: تقدم عند تفسير الآية (٢٣٤) من سورة البقرة.
(٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٢٦٦أ).

والشهودِ عليهم، وهم الأمة، وقد رخَّصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئًا منه؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن بشر، حدَّثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه عن عائشة ﵂: أنها كانت تُعَيِّر النِّساء اللَّاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تَسْتَحِي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداقٍ؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إني أرىٰ ربَّك يُسارع لك في هواك[(١)].

وقد تقدَّم: أنَّ البخاري رواه من حديث [أبي][(٢)] أسامة عن هشام بن عُرْوَة، فدل هذا علىٰ أن المراد بقوله: ﴿تُرْجِي﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات [أنفسهن][(٣)] ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: مَنْ شئت قبلتها، ومَنْ شئت رددتها، ومَنْ رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدتَّ فيها فآويتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قال عامر الشَّعبي في قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾: كنَّ نساءً وهبن أنفسهن للنَّبيِّ ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنكحن بعده، منهن أم شريك.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهنَّ، فتُقدِّم مَن شئتَ، وتُؤخِّر مَن شئتَ، وتجامع مَن شِئْتَ، وتترك مَن شِئْتَ.

هكذا يروىٰ عن ابن عبَّاسٍ، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبي رَزِين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كان -صلوات الله وسلامه عليه- يَقْسِم لهنَّ؛ ولهذا ذهب طائفةٌ من الفُقهاء من الشَّافعيَّة وغيرهم إلىٰ أنَّه لم يكن القَسْم واجبًا عليه -صلوات الله[(٤)] وسلامه عليه- واحتجُّوا بهذه الآية الكريمة.

وقال البخاري: حدَّثنا حبَّان بن موسىٰ، حدَّثنا عبد الله -هو ابن المبارك- أخبرنا عاصم الأحول، عن مُعاذة عن عائشة؛ أنَّ رسول الله ﷺ كان يستأذِن في يوم المرأةِ منَّا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنتِ تقولين؟

---

(١) البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤)، وأحمد (٦/ ١٥٨).
(٢) سقط من (ز). (٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٢٦٦ب).

فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ فإنِّي لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا[١].

فهذا الحديث عنها يدل علىٰ أن المراد من ذلك: عدم وجوب القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أنَّ الآية عامَّةٌ في الواهبات وفي النِّساء اللَّاتي عنده، أنَّه مخيَّرٌ فيهنَّ إن شاء قسم، وإن شاء لم يَقْسِم. وهذا الَّذي اختاره حسنٌ جيِّدٌ قويٌّ، وفيه جمعٌ بين الأحاديث؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عَنْكَ الحَرَج في القسم، فإن شئت قسمتَ، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أيِّ ذلك فَعَلْتَ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارًا منك لا أنَّه علىٰ سبيل الوجوب، فَرِحْن بذلك واسْتَبْشَرْن به وحملن جميلكَ في ذلك، واعترفْنَ بمِنَّتِك عليهن في قسمكَ لهنَّ وتسويتك بينهنَّ وإنصافك لهنَّ وعدلك فيهنَّ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: من الميل إلىٰ بعضهنَّ دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يزيد، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قِلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ**»[٢].

ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة -وزاد أبو داود بعد قوله: «**فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ**»: «يعني: القلب». وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقاتٌ. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بضمائر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾ أي: يحلم ويغفر[٣].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

ذكر غير واحدٍ من العلماء -كابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم- أنَّ هذه الآية نزلت مجازاةً لأزواجِ النَّبيِّ ﷺ ورضًا عنهنَّ، علىٰ حسن صنيعهنَّ في اختيارهنَّ الله ورسوله والدَّارَ الآخرةَ، لما خيَّرهنَّ رسول الله ﷺ كما تقدَّم في الآية. فلمَّا اخترن رسول الله ﷺ، كان

---

(١) البخاري (٤٧٨٩).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٧/ ٦٣)، وابن ماجة (١٩٧١)، وأحمد (٦/ ١٤٤)، وقد اختلف في وقفه وإرساله، ورجح الأئمة إرساله وانظر: «العلل الكبير» للترمذي (٢٨٦)، و«العلل» لابن أبي حاتم (١٢٧٩)، و «العلل» للدارقطني (٣١٧٦)، وأشار إلىٰ علته النسائي والترمذي بعد روايتهما للحديث، والراجح الإرسال.

(٣) لوحة (٢٦٧/ أ).

جزاؤهنَّ أنَّ [الله][1] قَصَره عليهنَّ، وحرَّم عليه أن يتزوَّج بغيرهنَّ، أو يستبدل بهنَّ أزواجًا غيرهنَّ، ولو أعجبه حسنهنَّ إلا الإماء والسَّراري فلا حَجْر عليه فيهنَّ. ثم إنَّه تعالىٰ رفع عنه الحَجْر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التَّزوُّج، ولكن لم يَقَع منه بعد ذلك تَزَوُّجٌ لتكون المنَّة للرَّسول ﷺ عليهن[2].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتىٰ أحلَّ الله له النساء[3].

ورواه أيضًا من حديث ابن جُرَيْج، عن عَطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في «سننيهما»[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة، حدَّثني عمر بن أبي بكر، حدَّثني المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي، عن أبي النضر مولىٰ عمر بن عبيد الله، عن عبد الله ابن وهب بن زَمْعَة، عن أم سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتىٰ أحلَّ الله له أن يتزوج من النِّساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[5].

فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولىٰ ناسخة للتي بعدها، والله أعلم.

وقال آخرون: بل معنىٰ الآية: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النِّساء اللَّاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي[6] آتيتَ أجورهنَّ وما ملكت يمينك وبنات العمِّ والعمَّات والخال والخالات والواهبة، وما سوىٰ ذلك مِن أصناف النِّساء فلا يحلُّ لك. هذا مرويٌّ عن أُبَيِّ بن كعب، ومجاهد، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك -في رواية- وأبي رَزِين -في رواية عنه- وأبي صالِحٍ، والحسن، وقتادة -في رواية- والسُّدِّي، وغيرهم.

قال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن داود بن أبي هند، حدَّثني محمَّد بن أبي موسىٰ، عن زياد -رجل من الأنصار- قال: قلت لأبي بن كعب: أرأيت لو أنَّ أزواج النَّبيِّ ﷺ تُوُفين، أما كان له أن يتزوَّج؟ فقال: وما يمنعُهُ مِن ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. فقال: إنَّما أحلَّ الله له

---

(١) ليست في (ز).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٠٠-٢٠١)، وفي إسناده الواقدي وابن أبي نسيرة: متروكان، فالإسناد ضعيفٌ جدًّا.

(٣) صحيح: الترمذي (٣٢١٦)، والنسائي (٦/ ٥٦)، وأحمد (٦/ ١٨٦) من حديث عائشة.

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٤٨) من حديث أم سلمة. وفي إسناده عمر بن أبي بكر: مقبول، وهو شاهد لحديث عائشة السابق.

(٦) لوحة (٢٦٧ب).

ضَرْبًا من النِّساء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾(١) . ورواه عبد الله بن أحمد من طرق، عن داود به.

وروىٰ الترمذي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: نُهي رسول الله ﷺ عن أصناف النِّساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ، فأحلَّ الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحرَّم كلَّ ذات دينٍ غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ و قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سِوىٰ ذلك مِن أصناف النِّساء(٢) .

وقال مجاهد: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما سمَّىٰ لك، لا مسلمة ولا يهوديَّة ولا نصرانيَّة ولا كافرة.

وقال أبو صالح: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾: [أمر ألَّا يتزوج](٣) أعرابيَّةً ولا غريبةً، ويتزوَّج بعد مِن نساء تهامة، وما شاء مِن بنات العمِّ والعمَّة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائة.

وقال عكرمة: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: التي سمَّىٰ الله.

واختار ابن جرير: أنَّ الآية عامَّةٌ فيمن ذكر مِن أصناف النِّساء، وفي النِّساء اللَّواتي في عصمته وكنَّ تسعًا. وهذا الَّذي قاله جيِّدٌ(٤) ، ولعلَّه مرادُ كثيرٍ ممَّن حكينا عنه من السَّلف؛ فإن كثيرًا منهم رُوي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم.

ثم أورد ابن جريرٍ علىٰ نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلَّق حفصةَ ثم راجعها، وعزم علىٰ فراقِ سودةَ حتَّىٰ وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأنَّ هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وهذا الَّذي قاله مِن أنَّ هذا كان قبل نزول الآيةِ صحيحٌ، ولكن لا يحتاج إلىٰ ذلك؛ فإنَّ الآية إنَّما دلَّت علىٰ أنَّه لا يتزوَّج بمن عدا اللَّواتي في عصمته، وأنَّه لا يستبدل بهنَّ غيرهنَّ، ولا يدلُّ ذلك علىٰ أنَّه لا يطلق واحدةً منهنَّ مِن غير استبدالٍ، والله أعلم.

فأما قَضية سَوْدَة ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها وهي سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٢٢/ ٢١)، ومداره علىٰ محمَّد بن أبي موسىٰ: مجهول، وزياد: مجهول.

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٣٢١٥)، وحسنه، قلت: وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام. وقال أحمد: لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، والحديث ضعفه الشيخ الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٦٣١).

(٣) في (ز): (ولا أمر أن يتزوج).

(٤) لوحة (٢٦٨أ).

مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ الآية[(١)].

وأما قضية حفصة: فروىٰ أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان في «صحيحه» من طرق عن يحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حي، عن سلمة بن كُهَيْل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ، عن عمر: أن رسول الله ﷺ طلَّق حفصة ثم راجعها. وهذا إسنادٌ قويٌّ[(٢)].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ، حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، عن الأعمش، عن أبي صالحٍ، عن ابن عمر قال: دخل عمر علىٰ حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعلَّ رسول الله ﷺ طلقك؟ إنَّه قد كان طلقك مرَّةً ثم راجعك مِن أجلي؛ والله لئن كان طلقك مرَّةً أخرىٰ لا أُكَلِّمُكِ أبدًا. ورجاله علىٰ شرط «الصحيحين»[(٣)].

وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، فنهاه عن الزِّيادة عليهنَّ، أو طلاق واحدةٍ منهنَّ واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه.

وقد روىٰ الحافظ أبو بكر البزار حديثًا مناسبًا ذِكْرُه هاهنا، فقال:

حدَّثنا إبراهيم بن نصر، حدَّثنا مالك بن إسماعيل، حدَّثنا عبد السَّلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: كان البَدَلُ في الجاهليَّة أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك[(٤)] وأبادلُك بامرأتي: أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ قال: فدخل عيينة بن حصن علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذنٍ، فقال له رسول الله ﷺ: «**فَأَيْنَ الِاسْتِئْذَانُ؟**» فقال: يا رسول الله، ما استأذنتُ علىٰ رجلٍ من مُضَرَ منذ أدركتُ. ثم قال: مَن هذه الحُمَيْراء إلىٰ جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ**». قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال: «**يَا عُيَيْنَةُ إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ**». فلمَّا أن خرج قالت عائشة: مَنْ هذا؟ قال: [«**هَذَا**][(٥)] **أَحْمَقُ مُطَاعٌ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ مَا تَرَيْنَ لَسَيِّدُ قَوْمِهِ**»[(٦)].

ثم قال البزار: إسحاق بن عبد الله لين الحديث جدًّا، وإنَّما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبينَّا العلَّة فيه.

---

(١) انظر تفسير الآية (١٢٨) من سورة النساء.

(٢) صحيح رواه أبو داود (٢٢٨٣) والنسائي (٦/ ٢١٣)، وابن ماجة (٢٠١٦).

(٣) حسن رواه أبو يعلىٰ (١٧٢)، والبزار (١٥٠٢) (١٥٠٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٠٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٦١٢) ورجاله ثقات رجال الصحيح إلا أن يونس بن بكير أخرج له البخاري تعليقًا، وهو صدوق يخطئ كما في «التقريب».

(٤) لوحة (٢٦٨ب).

(٥) سقط من (ز).

(٦) ضعيف جدًّا رواه البزار (٢٢٥١- كشف)، والدارقطني (٣/ ٢١٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٢): وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ[1] ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكامٌ وآدابٌ شرعيَّةٌ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عنه أنه قال: وافقت ربِّي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتَّخذت من مقام إبراهيم مصلًّى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إنَّ نساءك يدخل عليهنَّ البرُّ والفاجرُ، فلو حَجَّبتهنَّ؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النَّبيِّ ﷺ لما[2] تمالأن عليه في الغَيرَةِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم:٥]، فنزلت كذلك[3].

وفي روايةٍ لمسلم ذِكْر أُسَارَىٰ بدر، وهي قضية رابعة[4].

وقد قال البخاري: حدَّثنا مُسَدَّدٌ، عن يحيىٰ، عن حُمَيْد، أن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البرُّ والفاجرُ، فلو[5] أَمَرْتَ أمَّهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب[6].

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحشٍ، التي تولَّىٰ الله تعالىٰ تزويجَهَا بنفسِهِ، وكان ذلك في ذي القعدة من السَّنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما.

وزعم أبو عُبَيدة معمر بن المثنىٰ، وخليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاثٍ، فالله أعلم.

قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الرَّقاشي، حدَّثنا مُعْتَمرٌ بن سليمان، سمعت أبي، حدَّثنا أبو مِجْلَزٍ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم

---

(١) قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: وبما ذكرنا تعلم أن هَٰذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةِ الدَّلِيلَ الْوَاضِحَ عَلَىٰ أَنَّ وُجُوبَ الْحِجَابِ حُكْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ، لَا خَاصٌّ بِأَزْوَاجِهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُ اللَّفْظِ خَاصًّا بِهِنَّ؛ لأَنَّ عُمُومَ عِلَّتِهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ عُمُومِ الْحُكْمِ فِيهِ، وَمَسْلَكُ الْعِلَّةِ الَّذِي دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، هُوَ عِلَّةُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]، هُوَ الْمَسْلَكُ الْمَعْرُوفُ فِي الْأُصُولِ بِمَسْلَكِ الإِيمَاءِ وَالتَّنْبِيهِ، وَضَابِطُ هَذَا الْمَسْلَكِ الْمُنْطَبِقِ عَلَىٰ جُزْئِيَّاتِهِ، هُوَ أَنْ يَقْتَرِنَ وَصْفٌ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ عَلَىٰ وَجْهٍ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذَلِكَ الْوَصْفُ عِلَّةً لِذَلِكَ الْحُكْمِ لَكَانَ الْكَلَامُ مَعِيبًا عِنْدَ الْعَارِفِينَ.

(٢) في (ز): (إنما تمالأن).

(٣) البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩).

(٤) مسلم (٢٣٩٩).

(٥) لوحة (٢٦٩أ).

(٦) البخاري (٤٧٩٤).

فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدَّثون، فإذا هو [كأنَّه][1] يتهيَّأ للقيام فلم يقوموا. فلمَّا رأىٰ ذلك قام، [فلمَّا قام قام][2] مَنْ قام، وقعد ثلاثة نفرٍ. فجاء النَّبيُّ ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوسٌ، ثم إنَّهم قاموا فانطلقت[3]، فجئت فأخبرت النَّبيَّ ﷺ أنَّهم قد انطلقوا. فجاء حتىٰ دخل، فذهبت أدخل، فألقىٰ [الحجاب][4] بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية[5].

وقد رواه أيضًا في موضع آخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان به. ثم رواه البخاري منفردًا به من حديث أيوب، عن أبي قِلابة، عن أنس بن مالك ﷺ [بنحوه. ثم قال: حدَّثنا أبو معمر، حدَّثنا عبد الوارث، حدَّثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك][6] قال: بُنِيَ [علىٰ][7] النَّبيِّ ﷺ بزينب بنت جحش بخبزٍ ولحمٍ، فأرسلْتُ علىٰ الطَّعام داعيًا، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثمَّ يجيءُ قومٌ فيأكلونَ ويخرجُونَ. فدعوتُ حتىٰ ما أجد أحدًا أدعوهُ، فقلت: يا نبيَّ الله، ما أجد أحدًا أدعوه. قال: «ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ»، وبَقِيَ ثلاثة رهطٍ يتَحدَّثون في البيت، فخرج النَّبيُّ ﷺ فانطلق إلىٰ حجرة عائشة، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ». قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارَك الله لك؟ فَتَقَرَّىٰ[8] حجر نسائه كُلِّهن، يقول لهنَّ كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع رسول الله ﷺ فإذا رهط ثلاثة [في البيت][9] يتحدَّثون. وكان النَّبيُّ ﷺ شديدَ الحياءِ، فخرج منطلقًا نحو حُجْرةِ عائشة، فما أدري أخبرتُه أم أخبر أن القوم خَرَجُوا؟ فرجع حتىٰ إذا وضع رجله في أُسْكُفة[10] الباب داخله، وأخرىٰ خارجه، أرْخَىٰ السِّتر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب[11].

انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب السِّتَّة، سوىٰ النَّسائي في «اليوم والليلة» من حديث عبد الوارث.

ثم رواه عن إسحاق -هو ابن منصور- عن عبد الله بن بكر السَّهمي، عن حُمَيد، عن أنس، بنحو ذلك، وقال «رجلان»: انفرد به من هذا الوجه[12]. وقد تقدَّم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس.

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

(٣) في (ز): (فانطلقوا)، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٤) سقط من (ز).

(٥) البخاري (٤٧٩١)، ومسلم (١٤٢٨) والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٧٤٢٠).

(٦) سقط من (ز).

(٧) لوحة (٢٦٩ب).

(٨) أي: تتبع.

(٩) سقط من (ز).

(١٠) الأُسْكُفة: خشبة الباب التي يوطأ عليها.

(١١) رواه البخاري (٤٧٩٢).

(١٢) البخاري (٤٧٩٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو المظفر، حدَّثنا جعفر بن سليمان، عن الجعد -أبي عثمان اليَشْكُرِي- عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيسًا ثم وضعته في تَوْرٍ[(١)]، فقالت: اذهب بهذَا إلىٰ رسول الله ﷺ، وأقرئه مني السَّلام، وَأَخْبِرْهُ أنَّ هذا منَّا له قليل -قال أنس: والنَّاس يومئذٍ في جَهدٍ- فجِئتُ به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أم سُلَيم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: أخبره أنَّ هذا منَّا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضَعْهُ» فوَضَعته في ناحية البيت، ثم قال: «اذْهَبْ فَادْعُ لِي فُلَانًا وَفُلَانًا». وسمَّىٰ رجالًا كثيرًا وقال: «وَمَنْ لَقِيتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». [فدعوتُ مَنْ قال لي ومَنْ لقيت من المسلمين][(٢)]، فجئت والبيت والصُّفَّة[(٣)] والحجرة مَلأىٰ من الناس -فقلت: يا أبا عثمان، كم كانوا؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة- قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ: «جِئْ بِهِ». فجئتُ به إليه، فوضع يده عليه ودعا وقال: «مَا شَاءَ اللهُ». ثم قال: «لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ، وَلْيُسَمُّوا، وَلْيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ». فجعلوا يسمُّون ويأكلون، حتىٰ أكلوا كلهم. فقال لي رسول الله ﷺ: «ارْفَعْهُ». قال: فجئتُ فأخذت التَّوَرَ فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت؟ قال: وتخلَّف رجالٌ يتحدَّثون في بيت رسول الله، وزَوجُ رسول الله ﷺ [التي دخل بها][(٤)] معهم مُولِّيةٌ وجهها إلىٰ الحائط، فأطالوا الحديث، فشقُّوا علىٰ رسول الله ﷺ، [وكان أشد النَّاس حياءً -ولو أُعْلِمُوا كان ذلك عليهم عزيزًا- فقام رسول الله ﷺ][(٥)] فخرج فسَلَّم علىٰ حُجَرِهِ وعلىٰ نسائِهِ، فلما رأوه قد جاء ظنُّوا أنهم قد ثَقِلوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتىٰ أرخىٰ السِّتر، ودخل البيت وأنا في الحجرة، فمكث رسولُ الله ﷺ في بيته[(٦)] يسيرًا، وأنزل الله عليه القرآن، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾. قال أنس: فقرأهنَّ عليَّ قَبْلَ النَّاس، فأنا أَحْدَثُ النَّاس بهنَّ عهدًا[(٧)].

وقد رواه مسلم والترمذي والنَّسائي جميعًا، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ وعَلَّقه البخاري في (كتاب النكاح) فقال: وقال إبراهيم بن طَهْمَان، عن الجَعْد أبي عثمان، عن أنس، فذكر نحوه. ورواه مسلمٌ أيضًا عن محمَّد بن رافع، عن عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن الجعد به. وقد روىٰ هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شَرِيك، عن بيان بن بشر، عن أنس بنحوه. [وروىٰ البخاري

---

(١) التَّور: إناء من نحاس أو حجارة. (٢) سقط من (ز).

(٣) الصُّفَّة: موضع مظلل في مسجد المدينة، وأهل الصُّفَّة: فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إليه.

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٢٧٠أ).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٥٩)، ومسلم (١٤٢٨)، والترمذي (٣٢١٨)، والنسائي (٦/ ١٣٦)، ورواه البخاري تعليقًا (٥١٦٣).

والترمذي من طريقين آخرين: عن بَيَان بن بشر الأَحْمَسِي الكوفي، عن أنس بنحوه] [١].

ورواه ابن أبي حاتم أيضًا، من حديث أبي نَضْرَة العبدي، عن أنس بن مالك، بنحوه ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهري، عن أنس بنحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا بَهْز وهاشم بن القاسم قالا: حدَّثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدَّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «**اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ**». قال: فانطلق زيدٌ حتىٰ أتاها، قال: وهي تُخَمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت في صدري... وذكر تمام الحديث، كما قدَّمناه عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، وزاد في آخره بعد قوله: وَوَعظ القوم بما وعظوا به: قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [٢].

وقد أخرجه مسلمٌ والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة [٣] به.

وقال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن عبد الرحمن -ابن أخي ابن وهب- حدَّثني عمي عبد الله بن وهب، حدَّثني يونس عن الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: إنَّ أزواج رسول الله ﷺ كُنَّ يخرجن باللَّيل إذا تبرزن إلىٰ المناصع [٤] -وهو صعيد أفيح- وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ [٥]: احجِبْ نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ، وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر بصوته الأعلىٰ: قد عرفناكِ يا سودة. حرْصًا أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب [٦].

هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور: أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم من حديث هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأةً جَسِيمَةً لا تخفَىٰ علىٰ مَنْ يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أمَا والله ما تَخْفَينَ علينا، فانظرِي كيف تخرجين؟ قالت: فانكفَأَتْ راجعةً، ورسولُ الله

---

(١) سقط من (ز).
(٢) مسلم (١٤٢٨)، والنسائي (٦/ ٧٩)، وأحمد (٣/ ١٩٥).
(٣) في (ز): (جعفر بن سليمان).
(٤) المَنَاصِع: المَواضع التي يُتَخَلَّىٰ فيها لِقضاء الحاجةِ، واحدُها: مَنْصَعٌ، لأنه يُبْرَزُ إليها ويُظْهر. قال الأزهري: أُراها مَواضِعَ مخصوصةً خارجَ المدينة. «النهاية». وأفيح: واسع.
(٥) لوحة (٢٧٠ ب).
(٦) رواه الطبري (٢٢/ ٢٨)، ورجاله ثقات عدا شيخ الطبري أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب: لا يحتج بتفرده، ولذلك فإن آخر هذه الرواية لا يصح، فالراجح أن قول عمر: «عرفناك يا سودة» كان بعد نزول آية الحجاب كما سيأتي بعده.

ﷺ في بيتي، وإنَّه ليتعشَّىٰ، وفي يده عَرْق[1]، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إنِّي خرجت لبَعْض حاجَتِي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحىٰ الله [إليه][2]، ثم رُفِعَ عنه، وإن العَرْق في يده ما وضعه. فقال: «إِنَّهُ [قَدْ][3] أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ». لفظ البخاري[4].

فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾: حَظَر علىٰ المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذنٍ كما كانوا قبل ذلك يَصْنَعُون في بيوتهم في الجاهليَّة وابتداء الإسلام، حتىٰ غار الله لهذه الأمَّة، فأمرهم بذلك، وذلك مِن إكرامه تعالىٰ هذه[5] الأمَّة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَىٰ النِّسَاءِ»[6].

ثم استثنىٰ من ذلك فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي: غير متحيِّنين نضجه واستواءه؛ أي: لا ترقبوا الطعام حتىٰ إذا قارب الاستواء تعرضَّتم للدُّخول، فإن هذا يكرهُهُ الله ويَذُمُّه. وهذا دليلٌ علىٰ تحريم التَّطفيل، وهو الذي تسميه العرب: الضيفن[7][8]، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتابًا «في ذمِّ الطُّفَيْلِيِّين» وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾. وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ[9]: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ، عُرْسًا كَانَ أَوْ نَحْوَهُ[10]»[11]. وأصله في «الصحيحين»، وفي «الصحيح» أيضًا عن رسول الله ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ[12] لَقَبِلْتُ، فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ فَخَفِّفُوا عَنْ أَهْلِ الْمَنْزِلِ، وَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ»[13]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: كما وقع لأولئك النَّفر الثَّلاثة الَّذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم، حتىٰ شَقَّ ذلك علىٰ رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾.

---

(١) العَرْق: العظم إذا أخذ عنه اللحم، وجمعه: عُراق، يقال: عرقت العظم، واعترقته، وتعرقته: إذا أخذت عنه اللحم بأسنانك.

(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في مصادر التخريج.

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في مصادر التخريج.

(٤) البخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠)، وأحمد (٦/ ٥٦).

(٥) في (ز): (علىٰ هذه).

(٦) البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

(٧) الضيفن: الذي يجيء مع الضيف.

(٨) في (ز): (الطيفن).

(٩) لوحة (٢٧١أ).

(١٠) في (ز): (أو غيره)، والمثبت كما في «صحيح مسلم».

(١١) مسلم (١٤٢٩)، ولفظه: «أو نحوه».

(١٢) الكُرَاع من الإنسان: ما دون الركبة إلىٰ الكعب، ومن البقر والغنم: مستدق الساق العاري من اللحم. يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ. وجَمْعه: أكرع وأكارع. «المعجم الوسيط».

(١٣) البخاري (٢٥٦٨) بشطره الأول، وأما شطره الأخير فلم أقف عليه لا في الصحيح ولا غيره.

وقيل: المراد: أنَّ دخولكم منزله بغير إذنِهِ كان يشقُّ عليه ويتأذَّىٰ به، لكن كان يكره أن ينهاهُم عن ذلك مِن شدَّة حيائه ﷺ حتىٰ أنزل الله عليه النَّهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجرَكم عنه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدُّخولِ عليهنَّ، كذلك لا تنظروا إليهنَّ بالكليَّة، ولو كان لأحدكُم حاجةٌ يُرِيد تناولها منهنَّ فلا ينظر إليهنَّ، ولا يسألهنَّ حاجةً إلا من وراء حجابٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن مِسْعَر، عن موسىٰ بن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت آكل مع النَّبيِّ ﷺ حَيْسًا[(١)] في قَعْب، فمر عمر فدعاه، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: حَسِّ[(٢)(٣)] -أو: أَوَّه- لو أُطاعُ فيكنَّ ما رأتْك عَيْنٌ. فنزل الحجاب[(٤)].

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أَمَرْتُكُمْ به وَشَرَعْتُهُ لكم من الحجاب أطهرُ وأطيبُ.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن [أبي][(٥)] حماد، حدَّثنا مهْرَان، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاسٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال: نزلت في رَجُلٍ هَمَّ أن يتزوَّج بعض نساء النَّبيِّ ﷺ. قال رجلٌ لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك[(٦)].

وكذا قال مقاتل بن حَيَّان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السُّدِّي: أن الذي عزم علىٰ ذلك[(٧)] طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه[(٨)] حتىٰ نزل التَّنبيه علىٰ تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة علىٰ أنَّ

---

(١) الحَيْس: طعامٌ مُتَّخَذٌ من تمرٍ ولبنٍ مجففٍ وسمن، وقد يجعل عوض اللبن الدقيق. والقَعْب: القدح الضخم.

(٢) حَسِّ: كلمة يقولُها الإنسان إذا أصابه ما مَضَّه وأَحْرَقَه غَفْلَة، كالجَمْرة والضَّرْبة ونحوهما. «النهاية».

(٣) في (ز): (خير)، وفي بعض النسخ: (حسن).

(٤) صحيح: رواه النسائي (١١٤١٩)، وابن أبي حاتم (١٧٧٥٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٦٢)، وفي «الصغير» (١/ ٢٤٩)، و «تاريخ أصبهان» (٣/ ٣٣)، وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢١٣)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢١): رجاله رجال الصحيح غير موسىٰ بن أبي كثير وهو ثقة، وقال الألباني في «الصحيحة» «إسناده جيد» (٣١٤٨).

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٦٢)، والبيهقي (٧/ ٦٩). وإسناده ضعيف جدًّا، فيه محمَّد بن أبي حماد: حافظ متهم بالكذب، ومهران بن أبي عمر: صدوق له أوهام.

(٧) لوحة (٢٧١ب).

(٨) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٦٥)، وإسناده ضعيف لإعضاله.

مَن توفِّي عنها رسول الله ﷺ مِن أزواجه أنه يحرم علىٰ غيره تزويجها من بعده؛ لأنهنَّ أزواجه في الدُّنيا والآخرة وأمَّهات المؤمنين، كما تقدَّم. واختلفوا فيمن دَخل بها ثم طلَّقها في حياته هل يحل لغيرِه أن يتزوَّجها؟ علىٰ قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأمَّا مَن تزوَّجها ثم طلَّقها قبل أن يدخل بها: فما نعلم في حلِّها لغيره -والحالة هذه- نزاعًا، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثني [محمَّد] (١) بن المثنىٰ، حدَّثنا عبد الوهاب، حدَّثنا داود، عن عامر؛ أنَّ نبيَّ الله ﷺ ماتَ وقد ملك قيلة بنت الأشعث -يعني: ابن قيس- فتزوَّجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشَقَّ ذلك علىٰ أبي بكر مشقَّةً شديدةً، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنَّها ليست مِن نسائِهِ، إنها لم يُخَيِّرها رسول الله ﷺ، ولم يَحْجُبْها، وقد برَّأها الله منه بالرِّدَّة الَّتي ارْتَدَّت مع قومها. قال: فاطْمَأَنَّ أبو بكر، ﷺ وسكن (٢).

وقد عظم الله تبارك وتعالىٰ ذلك، وشدَّد فيه وتوعَّد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، ثم قال: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي: مهما تُكِنُّه ضمائركم وتنطوي عليه سرائرُكُم، فإنَّ الله يعلمه؛ فإنَّه لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٥٥﴾

لما أمر تعالىٰ النِّساء بالحجاب من الأجانب، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في «سورة النور»، عند قوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ إلىٰ آخرها، [النور: ٣١]، وفيها زياداتٌ علىٰ هذه. وقد تقدَّم تفسيرها والكلام عليها بما أغنىٰ عن إعادته. وقد سأل بعض السَّلف (٣) فقال: لِمَ لَمْ يذكر العَم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشَّعبي: بأنَّهما لم يذكرا؛ لأنَّهما قد يصفان ذلك لبنيهما. قال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا حجاج بن منهال، حدَّثنا حماد، حدَّثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرَا؟ قالا: هما ينعتانها لأبنائهِمَا. وكرهَا أن تضع خمَارَها عند خالها وعمِّها.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢٢/ ٢٩)، وإسناده ضعيف لإعضاله.
(٣) لوحة (٢٧٢أ).

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾: يعني بذلك: عَدَم الاحتجاب من النِّساء المؤمنات.

وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعني به: أرقاءَهن من الذُّكور والإناث، كما تقدَّم التَّنبيه عليه وإيراد الحديث فيه[١].

قال سعيد بن المسيب: إنَّما يعني به الإماء فقط. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: وَاخْشَيْنَه في الخلوة والعلانية، فإنَّه شهيدٌ علىٰ كلِّ شيءٍ، لا تخفىٰ عليه خافيةٌ، فراقبن الرَّقيب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[٢]

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدُّعاء. وقال ابن عبَّاس: يصلُّون: يبرِّكون. هكذا علَّقه البخاري عنهما[٣].

وقد رواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية كذلك. وروي مثله عن الربيع أيضا. وروىٰ علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم.

وقال أبو عيسىٰ الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرَّحمة، وصلاة الملائكة: الاستِغْفَار.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمرو الأَوْدِيّ، حدَّثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، قال الأعمش عن عطاء بن أبي رباح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال: صلاته تبارك وتعالىٰ:

---

(١) انظر الآية (٣١) من سورة النور.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اشتهر عند كثيرٍ من أهل العلم أن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، وعلىٰ هذا يفسر ﴿يُصَلُّونَ﴾ باعتباره إلىٰ الله، بمعنىٰ الرحمة، وإلىٰ الملائكة الاستغفار، ولكن هذا التفسير خطأ، فإن الرحمة أعمُّ من الصلاة؛ لأن الرحمة يُدعىٰ بها لكل أحدٍ، والصلاة خاصة بالأنبياء فهي شعارهم، ولا تُقال لأحد سواهم إلا علىٰ سبيل لا يكون شعارًا، وأما الرحمة فهي عامة، حتىٰ إن بعض أهل العلم يقول: إنه لا يجوز أن تدعو للرسول ﷺ بالرحمة، أي: لا تقول: محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو قال رسول الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن هذا القول ضعيف؛ لأن النبي ﷺ نفسه كان يدعو لنفسه بالرحمة يقول: «رب اغفر لي وارحمني»، وفي قصة الأعرابي قال: «اللهم ارحمني ومحمدًا»، ولم ينكر عليه النبي ﷺ، لكنها عند السلف يُدعىٰ للرسول ﷺ بالصلاة، ولغيره بالرحمة والرضا وما أشبه ذلك.
والصواب: أن صلاة الله علىٰ رسوله معناها: ثناؤه عليه في الملأ الأعلىٰ، وليست رحمته إياه بدليل قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ قال: ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فدل هذا علىٰ أن الرحمة غير الصلاة وهو كذلك، أما صلاة الملائكة علىٰ الرسول – عليه الصلاة والسلام- فيحتمل أن تكون بمعنىٰ الدعاء أنهم يدعون له بالصلاة، ويحتمل أن المعنىٰ أنهم يُثنون عليه مع الله، وهذا أقرب حتىٰ لا يتوزع المعنىٰ في كلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٨/ ٥٣٢)، وابن أبي حاتم (١٧٧٦٨).

سُبُّوح قدُّوس، سبقت رحمتي غضبي[(١)].

والمقصود من هذه الآية: أنَّ الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيِّه عنده في الملإ الأعلىٰ، بأنَّه يُثْنِي عليه عند الملائكة[(٢)] المقرَّبين، وأنَّ الملائكة تصلِّي عليه. ثم أمر تعالىٰ أهل العالم السُّفلي بالصَّلاة والتَّسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمَيْن العلوي والسُّفلي جميعًا.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر -يعني: ابن المغيرة- عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: أنَّ بني إسرائيل قالوا لموسىٰ عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه: يا موسىٰ، سألوك: «هل يصلي ربك؟» فقل: نعم، إنما أصلِّي [أنا][(٣)] وملائكتي علىٰ أنبيائي ورسلي. فأنزل الله عز وجل علىٰ نبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[(٤)].

وقد أخبر أنَّه تبارك وتعالى يصلِّي علىٰ عباده المؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ مَيَامِنِ الصُّفُوفِ»[(٥)]. وفي الحديث الآخر: «اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ»[(٦)]. وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر -وقد سَأَلَتْهُ أن يصلِّي عليها وعلىٰ زوجها- «صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْكِ، وَعَلَىٰ زَوْجِكِ»[(٧)].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفيَّة الصلاة عليه، ونحن نذكر منها -إن شاء الله تعالىٰ- ما تيسر، والله المستعان:

قال البخاري -عند تفسير هذه الآية-: حدَّثنا سعيد بن يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا أبي، عن مِسْعَر، عن الحكم، عن ابن أبي ليلىٰ، عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسول الله، أمَّا السَّلام عليك فقد

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٧٠)، وإسناده صحيح موقوفًا علىٰ عطاء.
(٢) لوحة (٢٧٢ب).
(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في تفسير ابن أبي حاتم.
(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٧١)، ورواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير ضعيفة.
(٥) حسن: رواه أبو داود (٦٧٦)، وابن ماجة (١٠٠٥)، وابن حبان (٢١٦٠)، وحسنه الحافظ في «الفتح»، وخطَّأ الألباني الرواية بهذا اللفظ، وصوَّب لفظها: «إن الله وملائكته يُصَلُّونَ علىٰ الذين يَصِلُونَ الصفوف» انظر: «المشكاة» (١٠٩٦).
(٦) البخاري (١٤٩٨)، ومسلم (١٠٧٨).
(٧) صحيح: رواه أبو داود (١٥٣٣)، وأحمد (٣/ ٣٩٨).

عرفناه، فكيف الصَّلاة؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، [كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ][1] كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن الحكم قال: سمعت ابن أبي ليلىٰ قال: لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدي لك هديةً؟ خرج علينا رسول الله ﷺ[3] فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا -أو: عرفنا- كيف السَّلام عليك، فكيف الصلاة؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ [آلِ][4] إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ، بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[5].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرقٍ متعددةٍ، عن الحكم -وهو ابن[6] عتيبة- زاد البخاري: وعبد الله بن عيسىٰ، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، فذكره.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا هُشَيْم بن بشَير، عن يزيد بن أبي زياد، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن كعب بن عُجْرَة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا السَّلام فكيف الصَّلاة عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ [إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ][7] آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». وكان عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ يقول: وعلينا معهم[8]. ورواه الترمذي بهذه الزِّيادة.

ومعنىٰ قولهم: «أمَّا السَّلام عليك فقد عرفناه»: هو الذي في التَّشهُّد الذي كان يعلمهم إيَّاه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ».

حديث آخر: قال البخاري: حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا الليث، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام فكيف نصلِّي

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الصحيح».

(٢) البخاري (٣٣٧٠، ٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦)، وأبو داود (٧٩٦)، والترمذي (٤٨٣)، والنسائي (٣/ ٤٧)، وابن ماجة (٩٠٤)، وأحمد (٤/ ٢٤١).

(٣) لوحة (٢٧٣أ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) انظر التخريج السابق.

(٦) في (ز): (وهو ابن أبي عتيبة)، وهو خطأ.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٧٢) وإسناده صحيح، وفيه زيادة «وعلىٰ آل إبراهيم».

عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ». [وفي رواية: قال أبو صالح عن الليث: «عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ»][1]. حدَّثنا إبراهيم بن حمزة، حدَّثنا ابن أبي حازم والدَّراوَرْدي، عن يزيد -يعني: ابن الهاد[2]- قال: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ».

وأخرجه النَّسائي وابن ماجة، من حديث ابن الهاد به[3].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت علىٰ عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيم أنه قال: أخبرني[4] أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلِّي عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ [آلِ][5] إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[6].

وقد أخرجه بقيَّة الجماعة، سوىٰ الترمذي، من حديث مالك به.

حديث آخر: قال مسلم: حدَّثنا يحيىٰ التميمي قال: قرأت علىٰ مالك، عن نُعَيم بن عبد الله المُجْمِر، أخبرني محمَّد بن عبد الله بن زيد الأنصاري -قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أُرِيَ[7] النداء بالصَّلاة- أخبره عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ، ونحن في مجلس سعد بن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أنَّ نصلِّي عليك [يا رسول الله][8]، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتىٰ تمنَّينا أنَّه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا [قَدْ][9] عَلِمْتُمْ»[10].

وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث مالك به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خُزَيمة، وابن حبَّان، والحاكم في «مستدركه»، من حديث محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن إبراهيم التيمي، عن محمَّد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) في (ز): (ابن المنهال)، وهو خطأ.

(٣) البخاري (٤٧٩٨)، والنسائي (٣/ ٤٧)، وابن ماجة (٩٠٣).

(٤) لوحة (٢٧٣ب). (٥) سقط من (ز).

(٦) البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧)، وأبو داود (٩٧٩)، والنسائي (٣/ ٤٩)، وابن ماجة (٩٠٥)، وأحمد (٥/ ٤٢٤).

(٧) في (ز): (رأىٰ). (٨) سقط من (ز). (٩) سقط من (ز).

(١٠) مسلم (٤٠٥)، وأبو داود (٩٨٠)، والترمذي (٣٢٢٠)، والنسائي (٣/ ٤٥).

عن أبي مسعود البدري أنهم قالوا: يا رسول الله، أمَّا السَّلام فقد عرفناه، فكيف نصلِّي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ...». وذكره(١).

ورواه الشافعي: في «مسنده» عن أبي هريرة بمثله(٢). ومن هاهنا ذهب الشافعي: إلىٰ: أنه يجب علىٰ المصلِّي أن يصلي علىٰ رسول الله ﷺ في التَّشهُّد الأخير، فإن تركه لم تصحَّ صلاته. وقد شَرَع بعض المتأخِّرين من المالكيَّة وغيرهم يُشنِّع علىٰ الإمام الشَّافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنَّه قد تفرَّد بذلك، وحكىٰ الإجماع علىٰ خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي(٣) والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تَعَسَّف القائل في رده علىٰ الشافعي، وتكلَّف في دعواه الإجماع في ذلك، [وقال ما لم يحط به علمًا](٤)، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصَّلاة علىٰ رسول الله ﷺ في الصَّلاة كما هو ظاهر الآية، ومفسَّر بهذا الحديث عن جماعةٍ من الصَّحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البدري، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان. وإليه ذهب الشَّافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بَيْنَ أصحابه أيضًا، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيرًا فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقي(٥). وبه قال إسحاق بن راهويه والفقيه الإمام محمَّد بن إبراهيم المعروف بابن الموَّاز المالكي رحمهم الله، حتىٰ إن بعض أئمَّة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، وحتىٰ إن بعض أصحابنا أوجب الصَّلاة علىٰ الآل، ممن حكاه: البَنْدَنيجِيُّ، وسُلَيم الرازي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولًا عن الشَّافعي. والصحيح: أنه وجه، علىٰ أنَّ الجمهور علىٰ خلافه، وحكوا الإجماع علىٰ خلافه، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث(٦)، والله أعلم.

والغَرَض: أنَّ الشَّافعي لقوله بوجوب الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ في الصلاة سَلَفٌ وَخَلَفٌ كما تقدَّم، لله الحمد والمنَّة، فلا إجماع علىٰ خلافه في هذه المسألة لا قديمًا ولا حديثًا، والله أعلم.

ومما يؤيِّد ذلك: الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي -وصححه- والنَّسائي، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، من رواية حَيْوة بن شُرَيْح المصري، عن أبي هانئ حميد بن هانئ، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنْبي، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته لم يمجِّد الله ولم يصلِّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أبو داود (٩٨٠)، والترمذي (٣٢٢٠)، والنسائي (٣/ ٤٥)، وأحمد (٤/ ١١٩)، وانظر ما قبله.

(٢) «مسند الشافعي» (٢٦٨)، ورواه النسائي في «الكبرىٰ» (٩٨٧٥).

(٣) لوحة (٢٧٤أ).

(٤) ليست في (ز).

(٥) زاد في (ز) هنا: (به).

(٦) في (ز): (ظهور للحديث).

«عَجِلَ هَذَا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إِذَا[١] صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ[٢] اللهِ ﷻ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ ثُمَّ لِيَدْعُ [بَعْدُ][٣] بِمَا شَاءَ»[٤].

وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجة، من رواية عبد المهيمن بن عبَّاس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صَلاةَ لِمَنْ لا وُضُوءَ لَهُ، وَلا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، وَلا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ، وَلا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يُحِبَّ الأَنْصَارَ»[٥].

ولكن عبد المهيمن هذا متروكٌ. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أُبي بن عبَّاس»، ولكن في ذلك نظرٌ؛ وإنَّما يُعْرَف مِن رواية «عبد المهيمن»، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمىٰ، عن بُرَيدة قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلِّم عليك، فكيف نصلِّي عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا جَعَلْتَهَا عَلَىٰ [إِبْرَاهِيمَ وَ][٦] آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[٧]. «أبو داود الأعمىٰ» اسمه: نفيع بن الحارث: متروك.

حديث آخر موقوف: رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس: حدَّثنا سلامة الكندي: أنَّ عليًّا ﷺ كان يعلِّم النَّاس هذا الدعاء: اللهم داحي المدْحُوَّات[٨]، وبارئ المسموكات، وَجَبَّار[٩] القلوب علىٰ فطْرَتها شقيها وسعيدها. اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك[١٠]، علىٰ محمَّد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أغلق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل[١١]، كما حُمِّل فاضطلع

---

(١) لوحة (٢٧٤ب).

(٢) في (ز): (بتمجيد الله)، والمثبت هو الوارد عند أبي داود والنسائي والترمذي وأحمد وابن حبان، وأما ابن خزيمة فأورده بلفظ: (بتمجيد).

(٣) سقط من (ز).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٦٥)، والنسائي (٣/ ٤٤).

(٥) ضعيف جدًّا بهذا السياق: رواه ابن ماجة (٤٠٠)، وفيه عبد المهيمن: متروك. وانظر: «الضعيفة» للألباني (٢١٦٦).

(٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف جدًّا: رواه أحمد (٥/ ٣٥٣)، وفيه أبو داود الأعمىٰ نفيع بن الحارث: متروك.

(٨) الدحو: البسط، والمدحوات: الأرضون، والمسموكات: السموات السبع، وسمك الشئ يسمكه سمكًا: رفعه.

(٩) جبار: من جبر العظم المكسور.

(١٠) في (ز): (تحيتك)، و المثبت موافق لما في «تسمية ما رواه سعيد بن منصور» لأبي نعيم الأصبهاني، وفي «الصلاة علىٰ النَّبيّ» لابن أبي عاصم: (ورأفة محبتك)، وفي «الأوسط» للطبراني (ورافع تحيتك)، وفي «مجمع الزوائد»: (رأفة تحيتك).

(١١) أي مُهْلِكُها، يقال: دَمَغَهُ يَدْمَغُهُ دَمْغًا: إذا أصابَ دِمَاغَه فقَتَلَهُ، وجَيْشَات: جَمْع جَيْشَة، وهي المَرة، من جَاش: إذا ارْتَفَع. «النهاية».

بأمرك لطاعتك، مستوفزًا[١] إلىٰ مرضاتك، غير نكلٍ في قَدَم[٢]، ولا وَهِنٍ في عَزْمٍ، واعيًا لوحيك، حافظًا لعهدك، ماضيًا علىٰ نفاذ أمرك، حتىٰ أورىٰ[٣] قبسًا لقابسٍ، آلاء الله[٤] تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات[٥] الفتن والإثم، [وأقام][٦] مُوضحات[٧] الأعلام، ومُنيرات الإسلام ونائرات[٨] الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبَعيثُك[٩] نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللَّهمَّ، افسح له مُفسحَات[١٠] في عدلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك. مهنّآت له غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول[١١][١٢]، وجزيل عطائك المجمول. اللَّهمَّ أعلِ علىٰ بناء البانين[١٣] بنيانه، وأكرم مثواه لديك ونزله. وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مرضي المقالة، مقبول الشهادة، ذا منطق عدلٍ، وخُطَّة فصلٍ[١٤][١٥]، وحجةٍ وبرهانٍ عظيمٍ[١٦].

هذا مشهورٌ من كلام علي رضي الله عنه وقد تكلَّم عليه ابن قتيبة في «مشكل الحديث»، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جمعه في «فضل الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ»، إلا أن في إسناده نظرًا.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك عليًّا. كذا قال.

وقد روىٰ الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمَّد بن علي الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدَّثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندي قال: كان علي رضي الله عنه يعلمنا الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ فيقول: «اللهم، داحي المَدْحُوَّات» وذكره.

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجة: [حدَّثنا الحُسَين بن بَيَان][١٧]، حدَّثنا زياد بن عبد الله، حدَّثنا

---

(١) **المستوفز:** المسارع.
(٢) أي: بغير جبن وإحجام في الإقدام، ولا واهن في عزم: ولا ضعيف في رأي.
(٣) أي: أظهر نورًا من الحق لطالب الهدىٰ، يقال: ورىٰ الزند -كوعىٰ- يرىٰ: إذا خرجت ناره، والقابس: طالب النار، والقبس: الشعلة من النار.
(٤) آلاء الله: نِعَم الله.
(٥) **الخوض:** المشي في الماء وتحريكه، والأسلوب تمثيلي.
(٦) سقط من (ز).
(٧) **الموضحات:** جمع موضحة، وهي ما يبين الشيء، والأعلام: جمع علم، وهو ما يستدل به علىٰ الطريق، فهي تبينها للناس وتكشفها.
(٨) **النائرات:** الواضحات البينات.
(٩) لوحة (٢٧٥أ).
(١٠) أي: أوسع له سعةً في دار عدلك يوم القيامة.
(١١) **المَعْلُول:** يُريد أنَّ عَطاءَ اللَّه مُضاعَفٌ، يَعُلُّ به عِباده مَرَّةً بَعْد أخرىٰ. من العَلَل: الشُّربِ بعد الشُّرب. «النهاية».
(١٢) في (ز): (المعلون).
(١٣) في (ز): (المبنين).
(١٤) أي: أمر فصل.
(١٥) في (ز): (فضل).
(١٦) **ضعيف:** في إسناده سلامة الكندي: مجهول، كما نقل ابن كثير ذلك في آخر الحديث عن الحافظ المزي. والحديث رواه الطبراني في «الأوسط» (٩٠٨٩).
(١٧) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «ابن ماجة».

المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فَاخِتة، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إذا صلَّيتم علىٰ رسول الله ﷺ فَأَحْسِنُوا الصَّلاة عليه؛ فإنَّكم لا تدرون لعلَّ ذلك يُعْرَض عليه. قال: فقالوا له: فَعَلِّمنا. قال: قولوا: اللَّهمَّ اجْعَلْ صلواتك ورحمتك وبركاتك علىٰ سيِّد المرسلين، وإمام المتَّقِين، وخاتم النَّبيِّين، محمَّد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرَّحمة. اللَّهمَّ ابعثه مقامًا محمودًا يَغْبِطُه به الأوَّلون والآخرون، اللَّهمَّ صلِّ علىٰ محمَّد [وعلىٰ آلِ محمَّد][١] كما صلَّيت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارك علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ[٢].

وهذا موقوفٌ، وقد روىٰ إسماعيل القاضي عن عبد الله بن عمرو -أو: عمر- علىٰ الشَّكِّ من الرَّاوي قريبًا من هذا[٣].

حديث آخر: قال ابن جرير[٤]: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا مالك بن إسماعيل، حدَّثنا أبو إسرائيل، عن يونس بن خَبَّاب قال: خطبنا بـ«فارس» فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، فقال: أنبأني من سمع ابن عبَّاس يقول: هكذا أنزل. فقلنا -أو: قالوا- يا رسول الله، عَلِمْنا السَّلامَ عليك، فكيف الصَّلاة عليك؟ فقال: **«اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ، كَمَا رَحِمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، [وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[٥]][٦]**.

فيستدِلُّ[٧] بهذا الحديث مَن ذهب إلىٰ جواز التَّرحُّم علىٰ النَّبيِّ ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويعضده حديث الأعرابي الَّذِي قال: اللَّهمَّ ارحمني ومحمَّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: **«لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا»**[٨].

وحكىٰ القاضي عياض عن جمهور المالكيَّة منعه، قال: وأجازه أبو محمَّد بن أبي زيد.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه ابن ماجة (٩٠٦)، وفيه المسعودي اختلط، وزياد بن عبد الله لا ندري روىٰ عنه قبل الاختلاط أم لا، وعلىٰ هذا فالحديث ضعيف.

(٣) ضعيف: رواه إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ» (٦٢)، وضعفه الشيخ الألباني في تعليقه عليه.

(٤) لوحة (٢٧٥ب).

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (٢٢/ ٣١)، وفيه جهالة من سمع ابن عبَّاس.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٧) في (ز): (فدل).

(٨) البخاري (٦٠١٠)، وأبو داود (٣٨٠)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (٣/ ١٤)، وأحمد (٢/ ٢٣٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّىٰ عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ**»(١).

ورواه ابن ماجة، من حديث شعبة به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، ويونس -هو ابن محمَّد- قالا: حدَّثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي الحويرث، عن محمَّد ابن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتىٰ دخل نخلًا فسجد فأطال السُّجود، حتىٰ خِفْتُ -أو: خَشيتُ- أن يكون الله قد توفَّاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «**مَا لَكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟**» قال: فذكرت ذلك له فقال: «**إِنَّ جِبْرِيلَ** عليه السلام **قَالَ لِي: أَلَا أُبَشِّرُكَ؟ إِنَّ اللهَ** ﷻ **يَقُولُ: مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ**»(٢).

طريق أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا سليمان(٣) بن بلال، حدَّثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمَّد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج(٤) رسول الله ﷺ فتوجَّه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخرَّ ساجدًا، فأطال السُّجود، حتَّىٰ ظننت أنَّ الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: «**مَنْ هَذَا؟**» فقلت: عبد الرحمن. قال: «**مَا شَأْنُكَ؟**» قلت: يا رسول الله، سجدتَّ سجدةً خشيتُ أن [يكون](٥) الله ﷻ قبض نفسك فيها. فقال: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَبَشَّرَنِي أَنَّ اللهَ** ﷻ **يَقُولُ لَكَ: مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَسَجَدتُّ للهِ** ﷻ **شُكْرًا**»(٦).

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحيم بن بَحير بن عبد الله ابن معاوية بن بحير بن ريسان، حدَّثنا [عمرو بن الربيع بن طارق، حدَّثنا](٧) يحيىٰ بن أيوب، حدَّثنا

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٩٠٧)، وأحمد (٣/ ٤٤٥)، وفيه عاصم بن عبيد الله: ضعيف.

(٢) **حسن لغيره**: رواه أحمد (١/ ١٩١)، وفي الإسناد الأول ليث بن أبي سليم: اختلط ولم تتميز أحاديثه فترك، وفي الإسناد الثاني: عبد الواحد بن محمَّد: أورده البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا: ويشهد له ما بعده.

(٣) لوحة (٢٧٦أ).

(٤) في (ز): (قال: قال رسول الله).

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) رواه أحمد (١/ ٢٩١)، وفي الإسناد عبد الواحد بن محمَّد أورده البخاري في «التاريخ الكبير»، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، وانظر التعليق السابق.

ورواه القاضي إسماعيل في «فضل الصلاة علىٰ النَّبيّ ﷺ» (٧، ١٠) نحوه، وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح لطرقه وشواهده.

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الأوسط».

عبيد الله[١] بن عمر، عن الحكم بن عتيبة[٢]، عن إبراهيم النَّخَعي، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجةٍ فلم يجد أحدًا يتبعه، ففزع عمر، فأتاه بِمِطْهَرةٍ[٣] من خلفه، فوجد النَّبيَّ ﷺ ساجدًا في مَشربة[٤]، فتنحَّىٰ عنه من خلفه حتىٰ رفع النَّبيُّ ﷺ رأسه، فقال: «أَحْسَنْتَ[٥] يَا عُمَرُ حِينَ وَجَدتَّنِي سَاجِدًا فَتَنَحَّيْتَ عَنِّي، إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَقَالَ: مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ وَاحِدَةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ [صَلَوَاتٍ][٦] وَرَفَعَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ»[٧].

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج علىٰ الصحيحين».

وقد رواه إسماعيل القاضي، عن القعنبي، عن سلمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه.

ورواه أيضًا عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وَرْدان، عن مالك بن أوس ابن الحَدَثَان، عن عمر بن الخطاب بنحوه.

حديث آخر: قال أبو عيسىٰ الترمذي: حدَّثنا بُنْدَار، حدَّثنا محمَّد بن خالد بن عَثْمَةَ، حدَّثني موسىٰ بن يعقوب الزَّمْعِيّ، حدَّثني عبد الله بن كَيْسَان؛ أنَّ عبد الله بن شدادٍ أخبره، عن عبد الله بن مسعودٍ؛ أنَّ رسول الله ﷺ[٨] قال: «أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً» تفرَّد بروايته الترمذي:، ثم قال: [هذا][٩] حديثٌ حسنٌ غريبٌ[١٠].

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: [حدَّثنا علي بن عبد الله][١١]، حدَّثنا سفيان[١٢]، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ لِي: مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي عَلَيْكَ صَلَاةً إِلَّا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا». فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائي لَكَ؟ قال: «إِنْ شِئْتَ». قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: «إِنْ شِئْتَ». قال: ألا أجعل دعائي لك كله؟ قال: «إِذَنْ يَكْفِيكَ اللهُ هَمَّ الدُّنْيَا وَهَمَّ الآخِرَةِ». فقال شيخ -كان بـ«مكة» يقال له: مَنِيع[١٣]- لسفيان: عمَّن أسنده؟ قال: لا أدري[١٤].

---

(١) في (ز): (عبد الله)، وهو خطأ.
(٢) في (ز): (الحكم بن عيينة).
(٣) المِطْهرة: ما يتوضأ به ويتطهر.
(٤) المشربة: الغرفة المرتفعة.
(٥) في (ز): (أخشيت).
(٦) سقط من (ز).
(٧) رواه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٨٩)، وقال الألباني: ضعيف، لكن المرفوع من الحديث صحيحٌ له شواهد كثيرة.
(٨) لوحة (٢٧٦ ب).
(٩) سقط من (ز).
(١٠) ضعيف: رواه الترمذي (٤٥٤)، وحسنه، قلت: فيه عبد الله بن كيسان: لم يوثقه غير ابن حبان، ومحمَّد بن خالد: صدوق يخطئ، وموسىٰ بن يعقوب: صدوق سيئ الحفظ.
(١١) سقط من (ز).
(١٢) في (ز): (شقيق).
(١٣) في (ز): (نسيع).
(١٤) رواه القاضي إسماعيل (١٣)، وإسناده مرسل.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا سعيد بن سَلام العطار، حدَّثنا سفيان -يعني: الثوري- عن عبد الله بن محمَّد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف اللَّيل فيقول: «جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ». قال أُبَيٌّ: يا رسول الله، إنِّي أصلِّي من اللَّيل، أفأجعل[1] لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الشَّطْرُ». قال: أفأجعل[2] لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الثُّلُثَانِ». قال أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إِذَنْ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ كُلَّهُ»[3].

وقد رواه التِّرمذي بنحوه فقال: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا قَبِيصة، حدَّثنا سفيان، عن عبد الله بن محمَّد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، [اذْكُرُوا اللهَ][4]، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ[5] تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ». قال أُبيٌّ: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «مَا شِئْتَ». قلت: الربع؟ قال: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدتَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قلت: فالنصف؟ قال: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدتَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قلت: فالثُّلثين؟ قال: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدتَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قلت[6]: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إِذَنْ تُكْفَىٰ هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ». ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ[7].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، عن عبد الله بن محمَّد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أُبيٍّ، عن أبيه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أرأيت إن جعلتُ صلاتي كلها عليك؟ قال: «إِذَنْ يَكْفِيكَ اللهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ»[8].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو كامل، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن[9] سليمان مولىٰ الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه؛ أنَّ رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسُّرور يُرَىٰ في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا لنرىٰ السرور في وجهك؟ فقال: «إِنَّهُ أَتَانِي المَلَكُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ ﷻ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ[10] إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا،

---

(١) في (ز): (إنما جعل). (٢) في (ز): (إنما جعل).

(٣) رواه القاضي (١٤)، والترمذي (٢٤٥٧)، وقال الألباني: حديث جيد.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الترمذي».

(٥) الراجفةُ: النفخة الأولىٰ التي يَموت لها الخلائقُ، والرادِفة: النفخةُ الثانيةُ التي يَحْيَوْن لها يوم القيامة. وأصلُ الرَّجْف: الحركةُ والاضطراب. «النهاية».

(٦) لوحة (٢٧٧أ). (٧) انظر التعليق السابق.

(٨) رواه أحمد (٥/ ١٣٦)، وانظر التعليقين السابقين.

(٩) في (ز): (ثابت بن سليمان)، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند»، وسليمان: هو سليمان الهاشمي مولىٰ الحسن بن علي.

(١٠) في (ز): (أحد من أحد).

وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا؟» قال: «بَلَىٰ»(١).

ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة، به. وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عبيد الله بن عمر، عن ثابت عن أنس، عن أبي طلحة بنحوه.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيْج، حدَّثنا أبو مَعْشَر، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة، عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيِّبَ النَّفس يُرَىٰ في وجهه البِشْرُ، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيِّبَ النَّفْس، يُرَىٰ في وجهك البِشر؟ قال: «أَجَلْ، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي ﷻ فَقَالَ: مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ(٢) مِثْلَهَا». وهذا أيضًا إسنادٌ جيدٌ، ولم يخرِّجوه(٣).

حديث آخر: روىٰ مسلم وأبو داود والتِّرمذي والنَّسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه؛ عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ وَاحِدَةً، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»(٤).

قال التِّرمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمار(٥)، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن محمَّد، حدَّثنا شريك، عن ليث، عن كعب(٦)، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ، وَسَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي أَعْلَىٰ الجَنَّةِ، لا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»(٧). تفرَّد به أحمد، وقد رواه البزار من طريق مجاهد، عن أبي هريرة، بنحوه فقال: حدَّثنا محمَّد بن إسحاق البَكَّالي، حدَّثنا عثمان بن سعيد، حدَّثنا ذَوَّادُ بنُ عُلْبَة، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ، وَسَلُوا اللهَ لِيَ الدَّرَجَةَ الوَسِيلَةَ مِنَ الجَنَّةِ» فسألناه -أو: أخبرنا- فقال: «هِيَ دَرَجَةٌ فِي أَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَهِيَ لِرَجُلٍ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ»(٨).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٨٨٨)، وإسماعيل القاضي (١)، وقال الألباني: حديث صحيح بمجموع طرقه.

(٢) في (ز): (وردَّ له).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٩)، وفيه إسحاق بن كعب بن عجرة: مجهول الحال، لكن للحديث طرق أخرىٰ كما تقدَّم في التعليق السابق.

(٤) مسلم (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذي (٤٨٥)، والنسائي (٣/ ٥٠).

(٥) لوحة (٢٧٧ب).

(٦) في (ز): (عن ليث عن ثابت)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٧) صحيح من غير هذا الطريق: رواه أحمد (٢/ ٣٦٥)، والبزار (٣٦٣- كشف)، وفيه ليث بن أبي سليم: لم تتميز أحاديثه فترك، وشريك القاضي: سيئ الحفظ، وفقرة: «وسلوا الله لي الوسيلة ...» صحيح له شواهد بعضها في الصحيح، وقد تقدم بيانها انظر الآية (٣٥) من سورة المائدة. وأما الفقرة الأولىٰ من الحديث فإسنادها ضعيف، وإن كانت صحيحة المعنىٰ، وضعفها الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٤٨٦)، وفي تحقيق فضل الصلاة علىٰ النبي (٤٦)، لكنه أورد لها شاهدًا وأوردها في الصحيحة (٣٢٦٨).

(٨) انظر التعليق السابق.

في إسناده بعضُ مَن تُكلِّم فيه[١].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق، حدَّثنا ابن لَهِيعة، [عن عبد الله بن هبيرة][٢]، عن عبد الرحمن بن مُرَيْح[٣] الخولاني، سمعت أبا قيس -مولىٰ عمرو بن العاص- سمعت عبد الله بن عمرو يقول: مَنْ صلَّىٰ علىٰ رسول الله ﷺ صلاةً صلَّىٰ الله عليه وملائكته بها سبعين صلاةً، فَلْيُقِلَّ عبدٌ من ذلك أو ليكثر. وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا كالمودِّع فقال: «**أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ** -قاله ثلاث مرات- **وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الكَلَامِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ العَرْشِ، وَتُجُوِّزَ بِي، عُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ**»[٤].

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا أبو سَلَمة الخراساني، حدَّثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلْيُصَلِّ عَلَيَّ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا**»[٥].

ورواه النَّسائي في «اليوم والليلة» من حديث أبي داود الطَّيالسي، عن أبي سلمة -وهو: المغيرة بن مسلم الخراساني- عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبِيعي، عن أنس به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن فضيل، حدَّثنا يونس بن[٦] عمرو -يعني[٧]: يونس بن أبي إسحاق- عن بُرَيد[٨] بن أبي مريم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ**»[٩].

---

(١) في (ز): (تكلم به).
(٢) سقط من (ز)، والصواب إثباتها كما في «المسند».
(٣) في (ز): (عبد الرحمن بن شريح)، وسبق التعليق عليه.
(٤) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ١٧٢)، وفي إسناده: ابن لهيعة: اختلط: وعبد الرحمن بن مُرَيح، قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٥٨٩): مجهول وكذا قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٣/ ٤٣٥)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٩): وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
ولبعض ألفاظه شواهد. فقوله: «لا نبي بعدي»: رواه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص.
وقوله: «أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه» له شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم (٥٢٣)، ومن حديث ابن مسعود رواه ابن حبان (٦٤٠٢) وإسناده صحيح.
وقوله: «فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم...» له شاهد من حديث عوف بن مالك رواه الطبراني في «الكبير» (٢٨/ ٦٥) وقال الذهبي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٠) رجاله موثقون.
والحديث سبق بمتنه مع اختلاف في السند، وذلك عند تفسير الآية (٤٠).
(٥) صحيح: رواه النسائي في «اليوم والليلة» (٦١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٣). وتابع بريدُ بنُ أبي مريم أبا إسحاق. رواه أحمد (٣/ ١٠٢)، وهو الإسناد الآتي، ورواه النسائي (٣/ ٥٠)، وفي «اليوم والليلة» (٦٢)، ويشهد له حديث أبي هريرة. وحديث أبي طلحة السابقين.
(٦) لوحة (٢٧٨أ).
(٧) في (ز): (عن يونس)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٨) في (ز): (عن زيد بن أبي مريم)، وهو خطأ.
(٩) انظر التخريج السابق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيدٍ قالا: حدَّثنا سليمان بن بلال، عن عمارة بن[١] غَزِيَّة، عن عبد الله بن [علي بن الحسين، عن أبيه][٢] علي بن الحسين، عن أبيه؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**». وقال أبو سعيد: «**فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[٣].

ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

ومن الرواة مَنْ جعله من «مسند الحسين بن علي»، ومنهم مَنْ جعله من «مسند علي» نفسه.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا حجاج بن مِنْهال، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن معبد بن هلالٍ العَنَزي، حدَّثنا رجلٌ من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[٤].

حديث آخر مرسلٌ: قال إسماعيل: وحدَّثنا سليمان بن حَرب، حدَّثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الْبُخْلِ أَنْ أُذْكَرَ عِنْدَهُ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ**»، صلوات الله عليه[٥].

حديث آخر: قال الترمذي: حدَّثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدَّثنا رِبْعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، [وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ]**[٦]**، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ**». ثم قال: حسنٌ غريبٌ[٧].

قلتُ: وقد رواه البخاري في «الأدب» عن محمَّد بن عبيد الله، حدَّثنا ابن أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة مرفوعًا، [بنحوه[٨]، ورويناه من حديث محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة][٩] به. قال الترمذي: وفي الباب عن جابر وأنس.

قلتُ: وابن عبَّاس وكعب بن عُجْرَة، وقد ذكرتُ طرق هذا الحديث في أول (كتاب الصيام) وعند قوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣].

وهذا الحديث والذي قبله دليلٌ علىٰ: وجوب الصلاة[١٠] عليه ﷺ كلَّما ذُكر، وهو مذهب طائفةٍ

---

(١) في (ز): (عمارة عن غزية)، وهو خطأ.

(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند»، خلافًا لما ذكرت طبعة الشعب.

(٣) حسن: رواه أحمد (١/ ٢٠١)، وإسماعيل القاضي (٣١، ٣٦)، قال الشيخ الألباني: إسناده جيد.

(٤) ورواه القاضي (٣٧) من حديث أبي ذر، وفيه رجل لم يسم.

(٥) ورواه القاضي (٣٨) عن الحسن البصري مرسلًا بإسناد صحيح. وبالجملة: فروايات الحديث يقوي بعضها بعضًا.

(٦) سقط من (ز).

(٧) الترمذي (٣٥٤٥)، ورواه البخاري ومسلم بلفظ نحوه.

(٨) البخاري (١٨٩٨)، ومسلم (١٠٧٩).

(٩) سقط من (ز).

(١٠) لوحة (٢٧٨ب).

من العلماء [منهم الطحاوي والحليمي][1]، ويتقوَّىٰ بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجة:

حدَّثنا جُبارة بن المغلِّس، حدَّثنا حماد بن زيد، حدَّثنا عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيقَ الجَنَّةِ**»[2].

جُبَارة ضعيفٌ. ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه عن أبي جعفر محمَّد بن علي الباقر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيقَ الجَنَّةِ**». وهذا مرسلٌ يتقوَّىٰ بالَّذي قبله، والله أعلم.

وذهب آخرون إلىٰ أنَّه تَجِبُ الصَّلاة في المجلس مرَّةً واحدةً، ثم لا تجب في بقيَّة ذلك المجلس، بل تُسْتَحبُّ. نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيَّد بالحديث الذي رواه الترمذي:

حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن صالح -مولىٰ التَّوْءَمة- عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ**[3]**، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ**»[4].

تفرَّد به التِّرمذي من هذا الوجه. ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد[5] بن هارون، كلاهما عن ابن أبي ذئب، عن صالح -مولىٰ التوءمة- عن أبي هريرة، مرفوعًا مثله. ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ.

وقد رُوي عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ من غير وجهٍ، وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة، عن سليمان، عن ذَكْوَان، عن أبي سعيد قال: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَقْعُدُونَ ثُمَّ يَقُومُونَ وَلَا يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ وَإِنْ دَخَلُوا الجَنَّةَ؛ لِمَا يَرَوْنَ [مِنَ]**[6] **الثَّوَابِ**»[7].

وحُكِيَ عن بعضِهِم: أنَّه إنَّما تَجِب الصَّلاة عليه ﷺ في العمر مرَّةً واحدةً، امتثالًا لأمر الآية، ثم هي مستحبَّةٌ في كلِّ حالٍ، وهذا هو الَّذِي نصره القاضي عياض بعدما حكىٰ الإجماع علىٰ وجوب الصَّلاة عليه ﷺ في الجملة؛ قال: وقد حكىٰ الطَّبراني أن محمل الآية علىٰ النَّدب، وادَّعىٰ فيه الإجماع. قال: ولعلَّه فيما زاد علىٰ المرَّة، والواجب منه مرَّة كالشَّهادة له بالنُّبوَّة، وما[8] زاد علىٰ ذلك

---

(١) ليست في (ز).

(٢) حسن لغيره: رواه ابن ماجة (٩٠٥)، وفيه ضعف، ورواه إسماعيل القاضي (٤١، ٤٤) عن محمَّد بن علي بإسنادٍ صحيح مرسل وبه يتقوىٰ الحديث ويحسن، انظر: تعليق الشيخ الألباني علىٰ رواية إسماعيل القاضي.

(٣) التِّرَة: التبعة والمعاتبة، أو النقصان والحسرة.

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٣٣٨٠)، وأحمد (٤٤١)، وفيه صالح مولىٰ التوءمة: ضعيف بسبب اختلاطه، لكنه قد توبع. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧٣ - ٧٨)، وله شاهدٌ موقوفٌ عن أبي سعيدٍ الخدري نحوه. رواه إسماعيل القاضي (٥٥) بسندٍ صحيح وله حكم المرفوع.

(٥) في (ز): (زيد بن هارون)، وهو خطأ.

(٦) سقط من (ز).

(٧) صحيح الإسناد، وله حكم المرفوع. رواه إسماعيل القاضي (٥٥).

(٨) لوحة (٢٧٩أ).

فمندوبٌ مُرَغَّبٌ فيه من سُنَنِ الإسلام وشعار أهلِهِ.

قلتُ: وهذا قولٌ غريبٌ، فإنَّه قد وَرَدَ الأمر بالصَّلاة عليه في أوقاتٍ كثيرةٍ، فمنها واجبٌ، ومنها مستحبٌّ علىٰ ما نُبيِّنُه.

فمنه[1] : بعد النِّداء للصَّلاة؛ للحديث الَّذي رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا حيوة، حدَّثنا كعب بن علقمة، أنَّه سَمِع عبد الرحمن بن جبير يقول: إنَّه سَمِع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنَّه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ**»[2] .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي من حديث كعب بن علقمة.

طريق أخرىٰ: قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر، حدَّثنا عمرو بن علي، عن أبي بكر الجُشَمي، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، حَقَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»[3] .

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب -هو كعب الأحبار- عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ عَلَيَّ زَكَاةٌ لَكُمْ، وَسَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ**». قال: فإمَّا حدَّثنا وإمَّا سَألناهُ، فقال: «**الوَسِيلَةُ أَعْلَىٰ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ**»[4] . ثم رواه عن محمَّد بن أبي بكر، عن معتمر، عن ليث -وهو ابن أبي سليم- به. وكذا الحديث الآخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا بكر بن سوادة، عن زياد بن نعيم، عن وَفاء[5] الحضرمي، عن رُوَيْفع ابن ثابت الأنصاري؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّىٰ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَقَالَ: اللَّهُمَّ، أَنْزِلْهُ المَقْعَدَ المُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي**»[6] .

---

(١) في (ز): (عنه).

(٢) مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٤)، والنسائي (٢/ ٢٥).

(٣) رواه إسماعيل القاضي (٥٠)، وانظر الحديث السابق.

(٤) رواه إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة علىٰ النَّبيّ» (٤٦، ٤٧)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم أدخل في حديثه ما ليس منها ولم يتميز فترك.

(٥) في (ز): (عن ورقاء)، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) ضعيف بهذا اللفظ: رواه أحمد (٤/ ١٠٨)، وفيه ابن لهيعة وقد اختلط، والأولىٰ الصلاة عليه بالرواية من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

وهذا إسنادٌ لا بأس به، ولم يخرِّجوه.

أثر آخر: قال[١] إسماعيل القاضي: حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان، حدَّثني مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عبَّاسٍ يقول: اللَّهم تقبَّل شفاعة محمَّدٍ الكبرىٰ، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَه في الآخرة والأولىٰ، كما آتيت إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام. إسنادٌ جَيِّدٌ قويٌّ صحيحٌ[٢].

ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه: للحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته فاطمة[٣] بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلَّىٰ علىٰ محمَّدٍ وسلم وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**». وإذا خرج صلىٰ علىٰ محمَّدٍ وسلم، ثم قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ**»[٤].

وقال إسماعيل القاضي: حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الحميد، حدَّثنا [سيف][٥] بن عمر التميمي، عن سليمان الضَّبِّيِّ، عن علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب ﷺ: إذا مررتم بالمساجد فصلوا علىٰ النَّبيِّ ﷺ[٦].

وأما الصَّلاة عليه ﷺ في الصلاة: فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير، ومَنْ ذهب إلىٰ ذلك من العلماء مع الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما التَّشهُّد الأوَّل: فلا تجب فيه قولًا واحدًا، وهل تستحب؟ علىٰ قولين للشَّافعي.

ومِن ذلك: الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة؛ فإنَّ السُّنَّة أن يقرأ في التكبيرة الأولىٰ فاتحة الكتاب، وفي الثانية: أن يصلِّي علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وفي الثالثة: يدعو للميت، وفي الرابعة: يقول: اللَّهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

قال الشافعي: حدَّثنا مُطَرِّفُ بن مازن، عن مَعْمَر، عن الزهري: أخبرني أبو أمامة بن سهل بن

---

(١) لوحة (٢٧٩ ب).

(٢) رواه إسماعيل القاضي (٥٢) بإسناد صحيح.

(٣) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٤) حسن بشواهده: رواه الترمذي (٣١٤)، وابن ماجة (٧٧١)، وفيه ليث بن أبي سليم، لكنه توبع لأكثر من واحدٍ كما رواه إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة علىٰ النَّبيِّ» (٨٢-٨٤)، ولا يخلو كل منها من مقال لكن بمجموعها فالحديث حسن، كما أن للحديث شواهد من حديث أبي حميد وأبي هريرة رواهما ابن ماجة إلا أن في لفظها «السلام علىٰ النَّبيِّ»، والحديث سبق عند تفسير سورة النور الآية (٣٥-٣٨).

(٥) في (ز): (سفيان)، والمثبت هو الصواب.

(٦) ضعيف: رواه إسماعيل القاضي (٨٠)، وعلته: سيف بن عمر التميمي، قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال أبو داود: ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني: ضعيف، وقال ابن عدي: بعض أحاديثه مشهورة، وعامتها منكرة لم يتابع عليها، وهو إلىٰ الضعف أقرب منه إلىٰ الصدق، وقال أبو حاتم: يروي الموضوعات عن الأثبات. انظر: «تهذيب الكمال» (١٢/ ٣٢٧). وقال ابن حجر: ضعيف الحديث.

حُنَيف أنَّه أخبره رجلٌ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: أنَّ السُّنَّة في الصَّلاة علىٰ الجنازة أن يُكبِّر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التَّكبيرة الأولىٰ سرًّا في نفسه، ثم يصلِّي علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ويخلص الدُّعاء للجنازة، وفي التَّكبِيرَات لا يقرأ في شيءٍ منها، ثم يُسَلِّم سرًّا في نفسه(١).

ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسه أنه قال: من السُّنة.. فذكره(٢). وهذا من الصحابي في حكم المرفوع علىٰ الصَّحيح.

ورواه إسماعيل القاضي، عن محمَّد بن المثنىٰ، [عن](٣) عبد الأعلىٰ، عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة بن(٤) سهل، عن سعيد بن المسيب أنَّه قال: السُّنَّة في الصَّلاة علىٰ الجنازة... فذكره(٥).

وهكذا رُوي عن أبي هريرة، وابن عمر، والشعبي.

ومِن ذلك: في صلاة العيد: قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا هشام الدَّسْتَوائي، حدَّثنا حَمَّاد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة: أنَّ ابن مسعودٍ وأبا موسىٰ وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يومًا قبل العيد(٦)، فقال لهم: إنَّ هذا العيد قد دنا، فكيف التَّكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرةً تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربَّك وتصلِّي علىٰ النَّبيِّ ﷺ ثم تدعو، وتكبر وتفعل(٧) مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ، ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربَّك وتصلي علىٰ النَّبيِّ ﷺ ثم تدعو وتكبِّر، وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسىٰ: صدق أبو عبد الرحمن. إسنادٌ صحيحٌ(٨).

ومن ذلك: أنَّه يُستَحَبُّ ختم الدُّعاء بالصَّلاة عليه ﷺ، قال الترمذي:

حدَّثنا أبو داود، أخبرنا النضر بن شميل، عن أبي قُرَّة الأسدي، عن سعيد بن المسيَّب، عن عمر ابن الخطاب قال: الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيءٌ حتىٰ تصلِّي علىٰ نبيِّك، وهكذا رواه أيوب بن موسىٰ، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قوله. ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعًا(٩). وكذا رواه رَزِين بن معاوية في كتابه مرفوعًا عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لا يَصْعَدُ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ عَلَيَّ، فَلَا تَجْعَلُونِي كَغُمَرِ الرَّاكِبِ(١٠)، صَلُّوا عَلَيَّ أَوَّلَ الدُّعَاءِ وَأَوْسَطَهُ وَآخِرَهُ»**.

---

(١) لوحة (٢٨٠أ).
(٢) صحيح: النسائي (٤/ ٣٩)، والقاضي (٩٤)، وصححه الألباني.
(٣) سقط من (ز)، وحذفها خطأ.
(٤) في (ز): (عن أبي أمامة عن سهل).
(٥) رواه إسماعيل القاضي (٨٨).
(٦) في (ز): (بن عقبة صلىٰ العيد يومًا).
(٧) في (ز): (ثم تفعل).
(٨) حسن: رواه إسماعيل القاضي (٨٨)، (٨٩).
(٩) ضعيف مرفوعًا وموقوفًا من حديث عمر: لكن ثبت من حديث علي موقوفًا بلفظ: «كل دعاءٍ محجوبٌ حتىٰ يصلىٰ علىٰ محمَّد وآل محمَّد ﷺ» رواه الطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان» وهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالرأي، وحديث عمر رواه الترمذي (٤٨٦)، وفيه أبو قرة الأسدي قال في «الميزان»: مجهول، والإسناد منقطع بين سعيد بن المسيب وعمر.
(١٠) الغُمَر: القَدَح الصَّغير، أراد أنَّ الرَّاكب يَحْمِل رَحْلَه وأزواده علىٰ راحِلَته ويَتْرك قَعْبَه إلىٰ آخر تَرْحاله، ثم يُعَلِّقه علىٰ

وهذه الزِّيادة إنَّما تُرْوَىٰ من رواية جابر بن عبد الله في «مسند الإمام عبد بن حُميد الكَشي» حيث قال: حدَّثنا جعفر بن عون، أخبرنا موسىٰ بن عُبَيدة، عن إبراهيم[(١)] بن محمَّد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «**لا تَجْعَلُونِي كَقَدَحِ الرَّاكِبِ، إِذَا عَلَّقَ تَعَالِيقَهُ أَخَذَ قَدَحَهُ فَمَلَأَهُ مِنَ المَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الوُضُوءِ تَوَضَّأَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الشُّرْبِ شَرِبَ وَإِلَّا أَهْرَاقَ مَا فِيهِ، اجْعَلُونِي فِي أَوَّلِ الدُّعَاءِ، وَفِي وَسَطِ الدُّعَاءِ، وَفِي آخِرِ الدُّعَاءِ**»[(٢)]. فهذا حديثٌ غريبٌ، وموسىٰ بن عبيدة: ضعيفُ الحديثِ.

ومن [آكَدِ][(٣)] ذلك: دعاء القنوت: لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبَّان والحاكم: من حديث أبي الجوزاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علَّمَني رسول الله ﷺ كلماتٍ أقولهن في الوتر: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ [رَبَّنَا][(٤)] وَتَعَالَيْتَ**»[(٥)].

وزاد النَّسائي في «سننه» بعد هذا: «**وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ [مُحَمَّدٍ][(٦)]**».

ومن ذلك: أنَّه يستحب الإكثار من الصَّلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن عليٍّ الجُعْفِي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الثَّقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**». قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أَرِمْتَ[(٧)]؟ -يعني: وقد بليت- قال: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ**»[(٨)].

= رَحْله كالعِلاوَة -أي: الزيادة- فليس عنده بمُهِمٍّ، فنهاهُم أن يَجعلوا الصلاة عليه كالغُمَر الذي لا يُقدم في المهامّ ويُجْعَل تَبَعًا. «النهاية».

(١) لوحة (٢٨٠ب).

(٢) ضعيف: رواه البزار (٣١٥٦- كشف)، وفيه موسىٰ بن عبيدة الربذي: ضعيف.

(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) صحيح ما عدا الزيادة (وصلىٰ الله علىٰ النَّبيّ محمَّد): رواه أحمد (١/ ١٩٩)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (٣/ ٢٤٨)، وابن ماجة (١١٧٨).

وأما الزيادة (وصلىٰ الله علىٰ النَّبيّ محمَّد) فرواها النسائي، وفيه انقطاع واضطراب، وانظر: «التلخيص الحبير» (١/ ٩٤).

«تنبيه» ثبت الصلاة علىٰ النَّبي في قنوت الوتر عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب في إمامته في عهد عمر، رواه ابن خزيمة. وكذلك أبو حليمة معاذ الأنصاري الذي كان يؤمهم، رواه إسماعيل القاضي (١٠٧) وأسانيدها صحيحة.

(٦) سقط من (ز). (٧) أي: بليت، أو صرت رميمًا.

(٨) صحيح: رواه أبو داود (١٠٤٧)، (١٥٣١)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجة (١٦٣٦)، وأحمد (٤/ ٨).

ورواه أبو داود والنَّسائي وابن ماجة من حديث حسين بن علي الجُعْفِي. وقد صحَّح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، والنووي في «الأذكار».

حديث آخر: قال أبو عبد الله بن ماجة: حدَّثنا عمرو بن سَوَّاد المصري، حدَّثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد[١] بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبَادة بن نُسَيٍّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ**[٢] **يَوْمَ الجُمُعَةِ؛ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ المَلَائِكَةُ، وَإِنَّ أَحَدًا لا يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلَاتُهُ حَتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْهَا**». قال: قلتُ: وبعد الموت؟ قال: «**وَ[بَعْدَ المَوْتِ]**[٣]**، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ**»[٤] [فنبيُّ الله حيٌّ يُرزق][٥].

هذا حديثٌ [غريبٌ][٦] من هذا الوجه، وفيه انقطاعٌ بين عُبادة بن نُسي وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد روىٰ البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسنادهما ضعفٌ، والله أعلم[٧].

وروي مرسلًا عن الحسن البصري، فقال إسماعيل القاضي: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن -هو البصري- يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَأْكُلُ الأَرْضُ جَسَدَ مَنْ كَلَّمَهُ رُوحُ القُدُسِ**». مرسل حسن[٨].

وقال الشَّافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمَّد، أخبرنا صفوان بن سليم أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ وَلَيْلَةُ الجُمُعَةِ فَأَكْثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ**». هذا مرسلٌ[٩].

وهكذا يجب علىٰ الخطيب أن يصلي علىٰ النَّبيِّ ﷺ يوم الجمعة علىٰ المنبر في الخطبتين، ولا تصحُّ الخطبتان إلا بذلك؛ لأنَّها عبادةٌ وذكر الله فيها شرطٌ، فوجب ذكر الرَّسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة؛ هذا مذهب الشَّافعي وأحمد رحمهما الله.

ومن ذلك: أنَّه يُسْتَحَبُّ الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره صلوات الله وسلامه عليه: قال أبو داود: حدَّثنا ابن عوف -هو: محمَّد- حدَّثنا المقري، حدَّثنا حَيْوَة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن

---

(١) في (ز): (شعيب بن أبي هلال)، والمثبت هو الصواب.
(٢) لوحة (٢٨١أ). (٣) سقط من (ز).
(٤) رواه ابن ماجة (١٦٣٧)، وفيه انقطاع، لكن يكفي في الاستدلال بالحديث السابق فإنه بمعناه.
(٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).
(٧) انظر: «سنن البيهقي» (٣/ ٢٤٩). (٨) مرسل: رواه إسماعيل القاضي (٢٣).
(٩) إسناده مرسل.

يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»(١).

تفرَّد به أبو داود، وصححه النووي في «الأذكار». ثم قال أبو داود:

حدَّثنا أحمد بن صالح قال: قرأت علىٰ عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيدٍ المَقْبُرِي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ**»(٢). تفرد به أبو(٣) داود أيضًا.

وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَيْج، عن عبد الله بن نافع -وهو الصائغ- به. وصححه النووي أيضًا. وقد روي من وجهٍ آخر عن عليٍّ ﷺ، قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه «فضل الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ»:

حدَّثنا إسماعيل بن أبي أُوَيْس، حدَّثنا جعفر بن إبراهيم بن محمَّد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب [عمَّن أخبره](٤) من أهل بيته، عن علي بن الحسين بن(٥) علي: أن رجلًا كان يأتي [كل](٦) غداةٍ فيزور قبر النَّبيِّ ﷺ ويصلِّي عليه، ويصنع مِن ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي ابن الحسين: ما يحملك علىٰ هذا؟ قال: أحبُّ السَّلام علىٰ النَّبيِّ ﷺ. فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدِّثك حديثًا عن أَبِي؟ قال: نَعَم. فقال له علي بن الحسين: أخبرني أبي عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَتَبْلُغُنِي صَلَاتُكُمْ وَسَلَامُكُمْ**»(٧).

في إسناده رجلٌ مبهمٌ(٨) لم يُسَمَّ، وقد رُوي من وجهٍ آخر مرسلًا، قال عبد الرزَّاق في «مصنفه» عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجلٍ -يقال له: سهيل- عن الحسن بن الحسن بن علي: أنه رأىٰ قومًا عند القبر فنهاهم، وقال: إن النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**». فلعلَّه رآهم يسيئون الأدبَ برفع أصواتهم [فوق الحاجة](٩) فنهاهم(١٠).

وقد روي: أنَّه رأىٰ رجلًا ينتاب القبرَ فقال: يا هذا، ما أنت ورجلٌ بالأندلس منه إلا سواء. أي:

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٢٠٤١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٠٤٢).

(٣) لوحة (٢٨١ ب).

(٤) في (ز): (عن أخيه).

(٥) في (ز): (عن علي).

(٦) سقط من (ز).

(٧) رواه إسماعيل القاضي (٢٠). قال الشيخ الألباني: حديث صحيح بطرقه وشواهده.

(٨) في (ز): (رجل متهم).

(٩) ليست في (ز).

(١٠) رواه عبد الرزاق (٦٧٢٦) مرسلًا.

الجميع يبلغه -صلوات الله وسلامه عليه- دائمًا إلىٰ يوم الدِّين.

وقال الطبراني في «معجمه الكبير»: حدَّثنا أحمد بن رِشْدين[١] المصري، حدَّثنا سعيد بن أبي مريم، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ﷺ عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «صَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[٢].

ثم قال الطبراني: حدَّثنا العبَّاس بن حمدان الأصبهاني، حدَّثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون [أنا][٣] شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن[٤] خطاف[٥]، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟» فقال: «إِنَّ هَذَا مِنَ المَكْتُومِ، وَلَوْلَا أَنَّكُمْ سَأَلْتُمُونِي عَنْهُ لَمَا أَخْبَرْتُكُمْ، إِنَّ اللهَ وَكَلَ بِي مَلَكَيْنِ لَا أُذْكَرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا قَالَ ذَانِكَ المَلَكَانِ: غَفَرَ اللهُ لَكَ. وَقَالَ اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ جَوَابًا لِذَيْنِكَ المَلَكَيْنِ: آمِينَ. وَلَا يُصَلِّي أَحَدٌ إِلَّا قَالَ ذَانِكَ المَلَكَانِ: غَفَرَ اللهُ لَكَ[٦]. وَيَقُولُ اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ جَوَابًا لِذَيْنِكَ المَلَكَيْنِ: آمِينَ»[٧].

غريبٌ جدًّا، وإسناده فيه ضعفٌ شديدٌ.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله ابن مسعود ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»[٨].

وهكذا رواه النَّسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مِهْران الأعمش، كلاهما عن عبد الله ابن السائب به.

فأمَّا الحديث الآخر: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مِنْ بَعِيدٍ بُلِّغْتُهُ»[٩] -ففي إسناده نظرٌ، تفرَّد به محمَّد بن مروان السُّدِّي الصغير، وهو متروك، عن الأعمش، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرة مرفوعًا.

---

(١) في (ز): (أحمد بن رشد).

(٢) الطبراني (٣/ ٨٩). قال الهيثمي (١٠/ ١٦٢): «فيه حميد بن أبي زينب لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح»، قلت: يشهد له الروايات السابقة.

(٣) في (ز): (يزيد بن هارون بن أبي شيبان)، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «المعجم الكبير».

(٤) لوحة (٢٨٢أ). (٥) في (ز): (الحكم بن عبد الله بن خطاب)، وهو خطأ.

(٦) في (ز): (لا غفر الله لك).

(٧) موضوع: رواه الطبراني (٣/ ٨٩)، وفيه الحكم بن عبد الله بن خُطَّاف: كذاب.

(٨) صحيح: رواه النسائي (٣/ ٤٣)، وأحمد (١/ ٤٤١)، والقاضي في «فضل الصلاة» (٢١).

(٩) ضعيف جدًّا: رواه الخطيب في «تاريخه» (٣/ ٢٩٢)، وفيه محمَّد بن مروان السُّدِّي: متروك.

قال أصحابنا: ويستحب للمحرم إذا لبىٰ وفرغ من تلبيتِهِ أن يصلِّي علىٰ النَّبيِّ ﷺ: لما روي عن الشَّافعي والدَّارقطني من رواية صالح بن محمَّد بن زائدة، عن القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق قال: كان يُؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي علىٰ النَّبيِّ ﷺ علىٰ كل حال(١).

وقال إسماعيل القاضي: حدَّثنا عارم بن الفضل، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، حدَّثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعًا، وصلُّوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصَّفا فقوموا عليه مِن حيث ترون البيت، فكبِّروا سبع تكبيراتٍ، تكبيرًا بين حمدٍ لله وثناءٍ عليه وصلاةٍ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ومسألةٍ لنفسك، وعلىٰ المروةِ مثل ذلك(٢).

إسنادٌ جيدٌ حسنٌ قويٌّ.

وقالوا: ويستحب الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ مع ذكر الله عند الذَّبح: واستأنسوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(٣) [الشرح: ٤]، قال بعض المفسرين: يقول الله تعالىٰ: «لا أُذْكَر إلا ذُكِرْتَ معي». وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الرَّبِّ تعالىٰ، كما عند الأكل، والدخول، والوقاع وغير ذلك، مما لم ترد فيه السُّنة بالصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ.

حديث آخر: قال القاضي إسماعيل: حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر المقدمي، حدَّثنا عمر بن هارون، عن موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن ثابت، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**صَلُّوا عَلَىٰ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ بَعَثَهُمْ كَمَا بَعَثَنِي**»(٤).

في إسناده ضعيفان، وهما عمر بن هارون وشيخه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن موسىٰ بن عبيدة الربذي به.

ومن ذلك: أنَّه يستحب الصَّلاة عليه عند طنين الأُذن إن صحَّ الخبر في ذلك، علىٰ أنَّ الإمام أبا بكرٍ محمَّد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في «صحيحه»: فقال: حدَّثنا زياد بن يحيىٰ، حدَّثنا مَعْمَرٌ بن محمَّد بن عبيد الله، [عن أبيه محمَّد، عن أبيه](٥) أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا طَنَّتْ أُذُنُ أَحَدِكُمْ فَلْيَذْكُرْنِي**

(١) رواه الشافعي في «الأم» (٢/ ١٣٤)، والدارقطني (٣/ ٢٥٨)، والبيهقي (٥/ ٤٦) وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة علىٰ النَّبيِّ» (٧٩)، وضعفه الألباني.

(٢) صحيح: رواه إسماعيل القاضي (٨١)، وصححه الألباني.

(٣) لوحة (٢٨٢ب).

(٤) ضعيف جدًّا: رواه إسماعيل القاضي (٤٥)، وفيه عمر بن هارون: متروك الحديث، وموسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

(٥) ما بين المعقوفتين ورد في (ز) هكذا: (بن علي بن أبي رافع عن أبيه عن)، والمثبت هو الصواب كما عند الطبراني والبزار، وإن ورد في «مسند البزار»: معمر بن عبيد الله بن محمَّد بن عبد الله.

وَلْيُصَلِّ عَلَيَّ وَلْيَقُلْ: ذَكَرَ اللهُ مَنْ ذَكَرَنِي بِخَيْرٍ»[١] . إسناده غريبٌ، وفي ثبوته نظرٌ؛ والله أعلم.

- وهاهنا مسألة:

وقد استحبَّ أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ كلما كتبه، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة، عن نَهْشَل، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي كِتَابٍ، لَمْ تَزَلِ الصَّلَاةُ جَارِيَةً لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الكِتَابِ»[٢] .

وليس هذا الحديث بصحيحٍ من وجوهٍ كثيرةٍ، وقد رُوي من حديث أبي هريرة، ولا يصح أيضًا، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخُنا: أحسبه موضوعًا. وقد رُوي نَحوُه عن أبي بكر وابن عبَّاس. ولا يصح من ذلك شيءٌ، والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه: «الجامع لآداب الراوي والسامع[٣] » قال: رأيت بخطِّ الإمام أحمد بن حنبل: كثيرًا ما يكتب اسم النَّبيِّ ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: وبلغني أنَّه كان يصلِّي عليه لفظًا.

فصل

وأما الصَّلاة علىٰ غير الأنبياء: فإن كانت[٤] علىٰ سبيل التَّبعيَّة كما تقدم في الحديث: «اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ»، فهذا جائزٌ بالإجماع، وإنَّما وقع النِّزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصَّلاة عليهم:

فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، وبقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧]، وبقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ»، وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ»، أخرجاه في «الصَّحيحين»[٥] . وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صلِّ عَلَيَّ وعلىٰ زوجي. فقال: «صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ زَوْجِكِ»[٦] .

وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصَّلاة؛ لأنَّ هذا قد صار شعارًا للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صلَّىٰ الله عليه». أو: «قال عليٌّ صلىٰ الله عليه». وإن كان المعنىٰ صحيحًا، كما لا يقال: «قال محمَّد عزَّ وجل»، وإن كان عزيزًا جليلًا؛ لأنَّ هذا

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن عدي (٦/ ٤٥١)، وفيه معمر بن محمَّد بن عبيد الله بن أبي رافع: منكر الحديث.

(٢) لا يصح.. انظر تعليق الحافظ ابن كثير بعده.

(٣) في (ز): (والسائل).

(٤) لوحة (٢٨٣ أ).

(٥) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٦) تقدم تخريجه قريبًا.

مِن شعار ذكر الله ﷻ. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسُّنَّة علىٰ الدُّعاء لهم؛ ولهذا لم يثبت شعارًا لآل أبي أوفىٰ، ولا لجابر وامرأته؛ وهذا مَسلكٌ حسنٌ.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الصَّلاة علىٰ غير الأنبياء قد صارت مِن شعار أهل الأهواء، يصلُّون علىٰ مَن يعتقدون فيهم، فلا يقتدَىٰ بهم في ذلك، والله أعلم.

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التَّحريم، أو الكراهة التَّنزيهيَّة، أو خلاف الأولىٰ؟ علىٰ ثلاثة أقوال، حكاه الشيخ أبو زكريا النَّووي في كتاب «الأذكار». ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنَّه مكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ؛ لأنَّه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهيٌ مقصودٌ. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أنَّ الصلاة صارت مخصوصةً في اللِّسان بالأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- كما أن قولنا: «عز وجل» مخصوص بالله[1] ﷻ، فكما لا يقال: «محمَّد عز وجل» وإن كان عزيزًا جليلًا لا يقال: «أبو بكر -أو: علي- صلَّىٰ الله عليه». هذا لفظه بحروفه. قال: وأما السَّلام: فقال الشيخ أبو محمَّد الجُوَيني -من أصحابنا-: هو في معنىٰ الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: «عليٌّ عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر: فيخاطَب به، فيقال: سلام عليكم، أو: سلام عليك، أو: السلام عليك -أو: عليكم؛ وهذا مجمعٌ عليه. انتهىٰ ما ذكَره.

قلتُ: وقد غلب هذا في عبارة كثيرٍ من النُّسَّاخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال: «عليه السلام»، مِن دون سائر الصحابة، أو: «كرَّم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحًا لكن ينبغي أن يُسَاوىٰ بين الصَّحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التَّعظيم والتَّكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان ابن عفان أَولىٰ بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين.

قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا عبد الله بن عبد الوهاب، [حدَّثنا عبد الواحد][2] بن زياد، حدَّثني عثمان بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس أنه قال: لا تصلح الصلاة علىٰ أحدٍ إلا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ولكن يدعىٰ للمسلِمينَ والمسلمات بالمغفرة[3][4].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا حسين بن علي، عن جعفر بن بَرْقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: أمَّا بعد، فإنَّ أناسًا من النَّاس قد التمسوا الدُّنيا بعملِ الآخرة، وإن ناسًا من القُصَّاص قد أحدثوا في الصلاة علىٰ خلفائهم وأمرائهم عدْلَ الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمُرْهم أن تكون

---

(١) لوحة (٢٨٣ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) صحيح: رواه إسماعيل القاضي (٧٥) بإسناد صحيح، وصححه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤).

(٤) في (ز): (بالاستغفار).

صلاتهم علىٰ النَّبيِّين ودعاؤهم للمسلمين عامَّة، ويَدَعُوا ما سوىٰ ذلك. أثر حسن(١).

قال إسماعيل القاضي: حدَّثنا معاذ بن أسد، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثني خالد بن يَزيد(٢)، عن سعيد بن أبي هلال، عن نُبيه بن وهب؛ أن كعبًا دخل علىٰ عائشة رضي الله عنها فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب: ما مِن فجرٍ يطلع إلا نزل سبعون ألفًا من الملائكة حتىٰ يحفُّوا بالقبر؛ يضربون بأجنحتهم ويصلون علىٰ النَّبيِّ ﷺ(٣)، سبعون ألفًا بالليل، وسبعون ألفًا بالنَّهار، حتىٰ إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفًا من الملائكة يزفونه(٤).

فرع:

قال النَّووي: إذا صلىٰ علىٰ النَّبيِّ ﷺ فليجمع بين الصَّلاة والتَّسليم، فلا يقتصر علىٰ أحدهما؛ فلا يقول: «صلىٰ الله عليه» فقط، ولا «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزعٌ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، فالأولىٰ أن يقال: «صلَّىٰ الله عليه وسلَّم تسليمًا».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالىٰ متهددًا ومتوعِّدًا مَنْ آذاه بمخالفة أوامِرِه وارتكاب زواجره وإصراره علىٰ ذلك، وأذىٰ رسوله بعيبٍ أو تنقصٍ، عياذًا بالله من ذلك.

قال عِكْرِمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: نزلت في المصوِّرين.

وفي «الصحيحين» من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ**»(٥).

ومعنىٰ هذا: أنَّ الجاهليَّة كانوا يقولون: يا خيبة الدَّهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالىٰ إلىٰ الدَّهر ويسبُّونه، وإنَّما الفاعل لذلك هو الله ﷻ، فنهىٰ عن ذلك. هكذا قرره(٦) الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: نزلت في الذين طعنوا [علىٰ النَّبيِّ ﷺ](٧) في تزويجه صفية بنت حُيَي بن أخطب(٨).

---

(١) رواه إسماعيل القاضي (١٦)، وحسنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٣٤).

(٢) في (ز): (خالد بن زيد). (٣) لوحة (٢٨٤أ).

(٤) صحيح: رواه إسماعيل القاضي (٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٧٣) بإسنادٍ صحيحٍ، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ كتاب إسماعيل القاضي.

(٥) البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦). (٦) في (ز): (هكذا رواه). (٧) ليست في (ز).

(٨) رواه الطبري (٢٢/ ٣٢)، وابن أبي حاتم (١٧٧٧٣)، وسنده مسلسل بالضعفاء.

والظَّاهر: أنَّ الآية عامَّةٌ في كلِّ مَن آذاه بشيءٍ، ومَن آذاه فقد آذىٰ الله، ومَن أطاعه فقد أطاع الله، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، عن عَبيدة بن أبي رائطة الحذاء التميمي، عن عبد الرحمن [بن زياد](١)، عن عبد الله بن المغفل المزني قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ(٢) أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَىٰ اللهَ، وَمَنْ آذَىٰ اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ»(٣). وقد رواه الترمذي من حديث عَبيدة بن أبي رائطة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل به. ثم قال: وهذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهذا هو البهت البيِّن أن يحكىٰ أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه(٤) علىٰ سبيل العيب والتَّنقُّص لهم، ومِنْ أكثر مَنْ يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله، ثمَّ الرَّافضة الَّذِين يتنقصون الصَّحابة ويَعِيبُونَهُم بما قد بَرَّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله ﷻ قد أخبر أنَّه قد رَضِيَ عن المهاجرين والأنصار ومدحَهُم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبُّونَهُم ويتنقَّصُونَهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقةِ منكوسو القلوب يذمُّون الممدوحين ويمدحون المذمُومِين.

وقال أبو داود: حدَّثنا القَعْنَبِيُّ، حدَّثنا عبد العزيز -يعني: ابن محمَّد- عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ(٥)»(٦). وهكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدراوردي به. ثم قال: حسنٌ صحيحٌ.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سلمة، حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مُلَيكَة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَيُّ الرِّبَا أَرْبَىٰ عِنْدَ اللهِ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أَرْبَىٰ الرِّبَا عِنْدَ اللهِ اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ»، ثم قرأ:

---

(١) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «المسند». (٢) لوحة (٢٨٤ب).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٨٧)، وفي «فضائل الصحابة» (١/ ٤٨، ٤٩)، وابن حبان (٢٢٨٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٨٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ١٠)، وفي «التفسير» (٧/ ٢٣٨)، والترمذي (٣٨٦٢) وحسنه، وفيه عبد الرحمن بن زياد وهو غير ابن أنعم، قال الذهبي: لا يعرف، وقال ابن معين: لا أعرفه.

(٤) في (ز): (ما لم ينقلوه). (٥) أي: كذَبت وافتَرَيْت عليه. -من البُهْتَان-.

(٦) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ [٢] ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله -صلَّى الله عليه وسلم تسليمًا- أن يأمر النِّساء المؤمنات -خاصَّة أزواجه وبناته لشرفهنَّ- بأن يُدنينَ عليهنَّ مِن جلابيبهن؛ ليتميَّزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء. والجلباب هو: الرِّداء فوق الخمار. قاله[٣] ابن مسعود[٤]، وعبيدة، [وقتادة][٥]، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحدٍ. وهو بمنزلة الإزار اليوم.

قاله الجوهري: الجلباب: الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلًا لها:

تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهْيَ لَاهِيَةٌ مَشْيَ الْعَذَارَىٰ عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجةٍ أن يُغطِّين وجوههن مِن فوق رءوسهنَّ بالجلابيب، ويُبدين عينًا واحدةً[٦].

وقال محمَّد بن سيرين: سألت عَبيدةَ السَّلماني عن قول الله تعالىٰ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، فغطىٰ رأسَه ووجهه وأبرز عينه اليسرىٰ.

وقال عكرمة: تغطي ثُغْرَة نحرها بجلبابها تدنيه عليها.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الظِّهراني فيما كتب إليَّ، حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن ابن خُثَيم، عن صفية بنت شيبة، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، خرج نساء الأنصار كأن علىٰ رءوسهنَّ الغربان من السكينة، وعليهن أكسيةٌ سودٌ يلبسنها[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو صالح، حدَّثني الليث، حدَّثنا يونس بن يزيد قال:

---

(١) **صحيح**: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧١٦)، وله شاهدٌ بدون قراءة الآية، رواه أبو داود (٤٨٧٦)، وابن ماجة (٢٢٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٧) وصححه من حديث ابن مسعود، وله شواهد أخرىٰ، انظر: «الصحيحة» للألباني (١٤٣٣).

(٢) لوحة (٢٨٥أ).

(٣) في (ز): (قال ابن مسعود).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٥٦٣٦، ١٥٦٣٧).

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (٢٢/ ٤٦)، وابن أبي حاتم (١٧٧٨٣)، وعلي بن أبي طلحة لم يسمع ابن عبَّاس، والله أعلم.

(٧) **صحيح**: رجاله ثقات عدا ابن خثيم: صدوق، رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٨٤)، ورواه البخاري في حديث عائشة (٤٧٥٩)، دون قوله: (كأن علىٰ رءوسهن الغربان) وهذه الزيادة أيضًا صحيحة عنها، رواه أبو داود (٤١٠٦) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

وسألناه -يعني: الزهري-: هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجةً، وتنهى عن الجلباب؛ لأنه يكره لهن أن يتشبهنَّ بالحرائر [إلا محصنات](١)؛ وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ (٢) ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساءِ أهل الذِّمَّة، إنَّما ينهى عن ذلك لخوف الفِتْنَة؛ لا لحرمتهنَّ، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهنَّ حرائر لَسْن بإماء ولا عواهرَ، قال السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ قال: كان ناسٌ مِن فُساق أهل «المدينة» يخرجون باللَّيل حين يختلط الظَّلام إلى طرق «المدينة» يتعرَّضون للنِّساء، وكانت مساكن أهل «المدينة» ضَيِّقةً، فإذا كان اللَّيل خرج النِّساء إلى الطُّرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفسَّاق يبتغون ذلك منهنَّ، فإذا رأوا امرأةً عليها جلبابٌ قالوا: هذه حُرَّةٌ. كفُّوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلبابٌ قالوا: هذه أَمَةٌ. فوثبوا إليها.

وقال مجاهد: يتجَلْبَبْن فيعلم أنهنَّ حرائر، فلا يتعرَّض لهن فاسقٌ بأذًى ولا ريبةٍ.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لما سلف في أيَّام الجاهليَّة حيث لم يكن عندهن علم بذلك.

ثم قال تعالى متوعِّدًا للمنافقين، وهم الذين يُظْهِرُونَ الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يقولون: «جاء الأعداء» و«جاءت الحروب»، وهو كذبٌ وافتراءٌ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: أي: لنسلطنَّك عليهم. وقال قتادة: لنحرِّشَنَّك(٣) بهم. وقال السُّدِّي: لَنُعْلِمنَّك بهم.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في «المدينة» ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في «المدينة» مدة قريبة مطرودين مبعدين، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وجدوا، ﴿أُخِذُوا۟﴾ لذلتهم وقلَّتهم، ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنَّته في المنافقين إذا تمرَّدوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عمَّا هم فيه، أن أهل الإيمان يسلِّطون عليهم ويقهرونهم، ﴿وَلَن تَجِدَ(٤) لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدَّل ولا تغيَّر.

---

(١) في (ز): (إلا محصنات).
(٢) لوحة (٢٨٥ب).
(٣) التحريش: أن يحمل على حربهم.
(٤) لوحة (٢٨٦أ).

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا لرسوله ﷺ: أنَّه لا علم له بالسَّاعة، وإن سأله النَّاس عن ذلك، وأرشده أن يرد علمها إلىٰ الله ﷻ، كما قال له في سورة «الأعراف»، وهي مكيَّةٌ وهذه مدنيَّةٌ، فاستمر الحال في ردِّ علمها إلىٰ الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبةٌ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كَمَا قَالَ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: أبعدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: في الدَّار الآخرة. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوالَ لهم عنها، ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهُم مغيثٌ ولا معينٌ ينقذُهُم مما هم فيه.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي: يُسْحَبُون في النَّار علىٰ وجوههم، وتلوىٰ وجوههم علىٰ جهنَّم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدَّار الدُّنيا ممن أطاع الله وأطاع الرَّسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾: وقال طاوس: «سادتنا»(١): يعني: الأشراف، و«كبراءنا»: يعني: العلماء. رواه ابن أبي حاتم.

أي: اتبعنا السادةَ وهُم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرُّسُل واعتقدنا أنَّ عندهم شيئًا، وأنَّهم علىٰ شيءٍ [فإذا هم لَيْسُوا علىٰ شيءٍ](٢).

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بكفرِهم وإغوائِهم إيَّانا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة(٣)، وهما قريبَا المعنىٰ، كما في حديث عبد الله بن

---

(١) لوحة (٢٧٦ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) متواترة: قَرَأَ (كَبِيرًا) عَاصِمٌ وَهِشَامٌ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (كَثِيرًا) وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي لِهِشَامٍ.

عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ». أخرجاه في «الصحيحين»، يُروىٰ «كَبِيرًا» و«كَثِيرًا»، وكلاهما بمعنًىٰ صحيح(١).

واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللَّفظين في دعائه، وفي ذلك نظرٌ، بل الأَولىٰ أن يقول هذا تارةً وهذا تارةً، كما أن القارئ مخيَّرٌ بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَنٌ، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا ضِرَار بن صُرَد، حدَّثنا علي بن هاشم، عن [محمَّد بن](٢) عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، في تسمية مَنْ شهد مع عليٍّ رضي الله عنه: الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللِّقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربِّنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾﴾

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا روح بن عبادة، حدَّثنا عوف، عن الحسن [ومحمَّد](٣) وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾»(٤).

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصرًا جدًّا، وقد رواه في (أحاديث الأنبياء) بهذا السَّند بعينه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ عليه السلام(٥) كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَىٰ مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَتَسَتَّرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ(٦) وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ عز وجل أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ عليه السلام فَخَلا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَىٰ حَجَرٍ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَىٰ ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ(٧)، فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَصَاهُ

---

(١) البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) سقط من (ز)، والصواب إثباتها، ووقع في نسخ «المعجم الكبير»: محمَّد بن عبد الله بن أبي رافع، وصوابه: ابن عبيد الله.

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «البخاري»، و(الحسن) هو البصري، و(محمَّد): هو ابن سيرين، و(خِلَاس): هو ابن عمرو الهجري.

(٤) البخاري (٤٧٩٩، ٣٤٠٤)، ومسلم (الفضائل/ ١٥٥)، وأحمد (٢/ ١٥٤) من حديث أبي هريرة.

(٥) لوحة (٢٨٧أ).

(٦) الأُدْرة: نفخة في الخصية. ويقال للرجل: آدر.

(٧) عدا: مشىٰ مُسرعًا.

وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ(١)، ثَوْبِي حَجَرُ. حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ ﷻ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ(٢)، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا -قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾»(٣).

وهذا سياقٌ حسنٌ مطولٌ، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا روح، حدَّثنا عوف، عن الحسن، عن النَّبيِّ ﷺ -وخلاس، ومحمَّد، عن أبي هريرة- عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يَكَادُ يُرَىٰ مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ»(٥).

ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مطولًا ورواه في (تفسيره) عن روح، عن عوف به.

ورواه ابن جرير من حديث الثَّوري، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحو هذا(٦). وهكذا رواه من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن المنْهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر وعبد الله بن الحارث، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ قال: قال قومه له: إنك آدرٌ. فخرج ذات يومٍ يغتسِل، فوضع ثيابه علىٰ صخرةٍ، فخرجت الصَّخرة تشتدُّ بثيابه(٧)، وخرج يتبعها عريانًا حتىٰ انتهت به مجالس بني(٨) إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدرٍ، فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾(٩).

وهكذا رواه العوفي عن ابن عبَّاس سواء.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلىٰ الآدميّ قالا: حدَّثنا يحيىٰ بن حماد، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كَانَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا حَيِيًّا، وَإِنَّهُ أَتَىٰ -أحسبه قال: المَاءَ- لِيَغْتَسِلَ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَىٰ صَخْرَةٍ، وَكَانَ لا يَكَادُ تَبْدُو عَوْرَتُهُ، فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّ مُوسَىٰ آدَرُ أَوْ بِهِ آفَةٌ -يعنون: أنَّه لا يَضَع ثيابه- فَاحْتَمَلَتِ الصَّخْرَةُ ثِيَابَهُ حَتَّىٰ صَارَتْ بِحِذَاءِ مَجَالِسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَظَرُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ كَأَحْسَنِ الرِّجَالِ -أو كما قال- فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَبَرَّأَهُ

(١) أي: ثوبي يا حجر. (٢) أي: وقف وثبت.
(٣) انظر التخريج السابق. (٤) رواه أحمد (٢/ ١٥٤) مرسلًا، ويشهد له الرواية السابقة.
(٥) بل رواه مسلم في (الفضائل/ ١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.
(٦) رواه الطبري (٢٢/ ٥١)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف، لكن يشهد له الروايات السابقة.
(٧) أي: تسرع وتجري. (٨) لوحة (٢٨٧ب).
(٩) الطبري (٢٢/ ٥١) موقوفًا علىٰ ابن عبَّاس، وإسناده صحيح.

اللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾»[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدَّثنا الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ قال: صعد موسىٰ وهارون الجبل، فمات هارون ﷺ، فقال بنو إسرائيل لموسىٰ ﷺ: أنت قتلته، كان ألين لَنَا منك وأشدَّ حياءً. فآذوه مِن ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمرُّوا به علىٰ مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وإن الله جعله أصم أبكم[٢].

وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسىٰ الطوسي، عن عباد بن العوام به.

ثم قال: وجائزٌ أن يكون هذا هو المراد بالأذىٰ، وجائزٌ أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولىٰ من قول الله ﷻ.

قلتُ: يحتمل أن يكون الكل مرادًا، وأن يكون معه غيره، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن شَقيق، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يومٍ قسمًا، فقال رجلٌ من الأنصار: إنَّ هذه القِسْمَة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلتُ: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلتَ. قال: فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فاحمرَّ وجهه، ثم قال: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوذِيَ[٣] بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[٤].

أخرجاه في «الصَّحيحين» من حديث سليمان بن مهران الأعمش به.

طريق أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم -مولىٰ الهمداني- عن زيد بن [زائدة][٥]، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا [سَلِيمُ

---

(١) رواه البزار (٢٢٥٢- كشف) من حديث أنس، ورجاله ثقات غير أن علي بن زيد سيئ الحفظ، ويشهد له الروايات السابقة.

(٢) **رجاله ثقات**: رواه ابن أبي حاتم (١٧٨٠١)، والطبري (٢٢/ ٣٧) في «تفسيره» ورجاله ثقات، لكنه عند الطبري من رواية ابن عبَّاسٍ موقوفًا ومثله لا يقال بالرأي، وشرطه أن يكون الراوي لم يأخذ من كتب أهل الكتاب، ولكن ابن عبَّاسٍ قرأ في كتب أهل الكتاب، لذلك فالصحيح ما تقدم في معنىٰ الآية من حديث أبي هريرة في الحديث السابق.

(٣) لوحة (٢٨٨أ).

(٤) البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢)، وأحمد (١/ ٣٨٠).

(٥) في (ز): (زيد بن زائد)، وفي ط: الرسالة للمسند: (زيد بن أبي زائد)، وهو في «التهذيب»: زيد بن زائدة أو ابن زائد، وعند المزي في «تحفة الأشراف»: زيد بن زائدة ـ ويقال: ابن زائد ـ وعلىٰ كلٍّ فلم يذكروا فيه جرحًا ولا تعديلًا، فهو في عِداد المجاهيل.

الصَّدْرِ][(١)]». فأتىٰ رسول الله ﷺ مالٌ فقسمه، قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمَّدٌ بقسمته وجه الله ولا الدَّار الآخرة. قال: فَتَثَبَّتُّ حتىٰ سمعتُ ما قالا، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، إنك قلتَ لنا: «لا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئًا»، وإني مررت بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا. فاحمرَّ وجهُ رسولِ الله ﷺ وشَقَّ عليه، ثم قال: «دَعْنَا مِنْكَ، لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَىٰ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[(٢)].

وقد رواه أبو داود في (الأدب) عن محمَّد [بن يحيىٰ الذُّهْلي، عن محمَّد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل عن الوليد][(٣)] بن أبي هاشم به مختصرًا: «لا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ [مِنْ أَصْحَابِي][(٤)] عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[(٥)].

وكذا رواه الترمذي في (المناقب) عن الذهلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة». ورواه أيضًا عن محمَّد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمَّد، عن عبيد الله بن موسىٰ وحسين بن محمَّد كلاهما عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن الوليد بن أبي هاشم، به مختصرًا أيضًا، فزاد في إسناده السُّدِّي، ثم قال: غريبٌ من هذا الوجه[(٦)].

وقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: له وجاهةٌ وجاهٌ عند ربه ﷻ.

قال الحسن البصري: كان مستجابَ الدعوة عند الله. وقال غيره من السَّلف: لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه. ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ﷻ.

وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة [عند الله][(٧)]: أنَّه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض في (ز)، وهي مثبتة في «المسند»، وفي هامش المخطوطة ورد هاهنا سقط لعله ورقتين فإنه في نصف الكراس والنَّصُّ مستقيم، وهو متن حديث، فيبعد أن يكون السقط ورقتين بل هو الكلمتان اللتان زدناهما.

(٢) أحمد (١/ ٣٩٥).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «أبي داود».

(٥) أبو داود (٤٨٦٠)، والحديث ضعفه الألباني، وسبق في تفسير سورة المائدة الآية (١٠٠-١٠٢).

(٦) الترمذي (٣٨٩٦).

(٧) ليست في (ز).

يقول تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وأنَّ يعبدوه عبادة مَنْ كأنَّه يراه، وأن[1] يقولوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحرافَ، ووعدهم أنَّهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يُصْلِحَ لهم أعمالهم؛ أي: يوفِّقهم للأعمالِ الصَّالحة، وأن يغفرَ لهم الذُّنوبَ الماضية وما قد يَقَع منهم[2] في المستقبل يلهمهم التَّوبة منها[3].

ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: وذلك أنَّه يُجَار من النَّار، ويصير إلىٰ النَّعيم المقيم.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن عَوْن، حدَّثنا خالد، عن لَيْث، عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسىٰ الأشعري قال: صلىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاةَ الظُّهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا، فقال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللهَ وَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا». ثم أتىٰ النِّساء فقال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُنَّ أَنْ تَتَّقِينَ اللهَ وَتَقُلْنَ قَوْلًا سَدِيدًا»[4].

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوىٰ»: حدَّثنا محمَّد بن عباد بن موسىٰ، حدَّثنا عبد العزيز بن عمران الزهري، حدَّثنا عيسىٰ بن سَمُرة، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: ما قام رسول الله ﷺ علىٰ المنبر إلا سمعته يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الآية. غريبٌ جدًّا[5].

وروىٰ من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّي، عن أبيه، عن محمَّد بن كعب، عن ابن عبَّاسٍ موقوفًا: مَن سرَّه أن يكون أكرم النَّاس فليتَّقِ الله[6].

قال عكرمة: «القولُ السَّدِيدُ»: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وقال غيره: «السَّدِيدُ»: الصِّدقُ. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حقٌّ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[7]

---

(١) لوحة (٢٨٨ب). (٢) في (ز): (يقع لهم). (٣) في (ز): (فيها).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٩١)، وفيه ليث بن أبي سليم اختلط ولم تتميز أحاديثه فترك.

(٥) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي الدنيا في «التقوىٰ»، ومن طريقه رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩٧٠)، وفي إسناده عبد العزيز بن عمران الزهري: منكر الحديث، كما قال البخاري وابن أبي حاتم، وقال الحافظ: متروك.

(٦) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي الدنيا في «التقوىٰ»، وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد العمي: متروك الحديث، وأبوه زيد بن الحواري: ضعيف الحديث، والإسناد أيضًا منقطع.

(٧) قال الشيخ القاسمي ﵀: في ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع «رد العجز علىٰ الصدر» ذلك أن طليعة هذه السورة كانت في ذم المنافقين وقص مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه في غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق، أبَان الحق تعالىٰ أثر ما ذكر من الأمر بالتقوىٰ وعدم إطاعة المنافقين... فلما خانوا أماناتهم... بيَّن الله تعالىٰ في خاتمة السورة شأنَ الأمانةِ وعظم خطرها.

قال العوفي عن ابن عبَّاسٍ: يعني بـ«الأمانة»: الطَّاعة، وعَرَضَهَا عليهم قبل أن يعرضها علىٰ آدم، فلم يَطِقْنَهَا، فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانة علىٰ السموات والأرض والجبال فلم يَطِقْنَهَا، فهل أنت آخذٌ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت[1]. فأخذها آدم فتحمَّلها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ: «الأمانة»: الفرائض، عرضها الله علىٰ السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذَّبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصيةٍ، ولكن تعظيمًا لِدِين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها علىٰ آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني: غرًّا بأمر الله[3].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال: عرضت علىٰ آدم فقال: خُذْهَا بما فيها، فإن أطعتَ غَفَرتُ لك، وإن عَصَيتَ عذَّبتُكَ. قال: قبلتُ، فما كان إلا قدر ما بين العَصْر إلىٰ اللَّيل من ذلك اليوم حتىٰ أصاب الخطيئة[4].

وقد روىٰ الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاسٍ قريبًا من هذا. وفيه نظرٌ وانقطاعٌ بين الضَّحَّاك وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك، والحسن البصري، وغير واحدٍ: ألا إن «الأمانة» هي الفَرَائِض.

وقال آخرون: هي الطَّاعة.

وقال الأعمش، عن أبي الضحىٰ، عن مسروق قال: قال أبي بن كعب: من الأمانة: [أن المرأة][5] اؤْتُمِنَت علىٰ فرجها[6].

وقال قتادة: «الأمانة»: الدين والفرائض والحدود.

وقال بعضهم: الغُسل مِن الجنابة.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: «الأمانة» ثلاثة: الصَّلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقةٌ وراجعةٌ إلىٰ أنَّها التكليف وقبول الأوامر والنَّواهي

---

(١) لوحة (٢٨٩أ).

(٢) رواه الطبري (٢١/ ٥٤)، وإسناده مسلسل بالضعفاء، ورواه نحوه من طريق الضَّحَّاك بن مزاحم وهو صدوق كثير الإرسال، ولم يلقَ ابن عبَّاس.
ورواه من طريق سعيد بن جبير وإسناده صحيح وهو الرواية بعد الآتية.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٢٥) إلىٰ ابن جرير (٩/ ١٩٧)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري (ص٣٨٩).

(٤) رواه الطبري (٢١/ ٥٤)، وإسناده صحيح.

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (٢١/ ٥٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ١٧٨)، ورجاله ثقات.

بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان علىٰ ضعفه وجهله وظلمه، إلا مَنْ وفق الله، وبالله المستعان.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري، حدَّثنا حماد بن واقد -يعني: أبا عمر الصفار- سمعت أبا معمر -يعني: عون بن معمر- يحدث عن الحسن -يعني: البصري- أنَّه تلا هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ قال: عرضها علىٰ السَّبع الطِّباق الطَّرائق التي زُيِّنَت [١] بالنُّجوم، وحملة العرش العظيم، فقيل لها: هل تَحْمِلِين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنتِ جُزِيتِ، وإن أسأتِ عوقبتِ. قالت: لا. ثم عرضها علىٰ الأرضين السَّبع الشِّداد، التي شدَّت بالأوتاد، وذلِّلت بالمهاد، قال: فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنتِ جزيتِ، وإن أسأتِ عوقبتِ. قالت: لا. ثم عرضها علىٰ الجبال الشُّمِّ الشَّوامخ الصِّعاب الصِّلاب، قال: قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنتِ جزيتِ، وإن أسأتِ عوقبتِ. قالت: لا [٢].

وقال مقاتل بن حيان: إن الله حين خلق خلقه، جمع بين الإنس والجن، والسموات والأرض والجبال، فبدأ بالسَّموات فعرض عليهنَّ الأمانة وهي الطَّاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكن علىٰ الفضل والكرامة والثَّواب في الجنَّة...؟ فقلن: يا رب، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة، ولكنَّا لك مطيعين. ثم عرض الأمانة علىٰ الأرضين، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني، وأعطيكنَّ الفضل والكرامة؟ فقلن: لا صبر لنا علىٰ هذا يا رب ولا نطيق، ولكنَّا لك سامعين مطيعين، لا نعصِيكَ في شيءٍ تأمرنا به. ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: ما لِي عندكَ؟ قال: يا آدم، إن أحسنتَ وأطعتَ ورعيتَ الأمانة، فلكَ عندي الكرامة والفضل وحسن الثَّواب في الجنَّة. وإن عصيتَ ولم ترْعَها حق رعايتها وأسأت، فإنِّي معذِّبك ومعاقبك وأنزلك النَّار. قال: رضيت يا رب. وتحمَّلها، فقال الله ﷻ: قد حَمَّلْتُكَهَا. فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. رواه ابن أبي حاتم [٣].

وعن مجاهد أنه قال: عرضها علىٰ السموات فقالت: يا ربِّ، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر، وما أُرِيد ثوابًا ولا أحمل فريضةً. قال: وعرضها علىٰ الأرض فقالت: يا رب، غرست فيَّ الأشجار، وأجريت فيَّ الأنهار وسكَّان الأرض وما ذكر، وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في عاقبة أمره. وهكذا قال [٤] ابن جُرَيْج.

---

(١) لوحة (٢٨٩ ب).

(٢) عزاه لابن أبي حاتم مقطوعًا من كلام الحسن البصري، ولم أجده في «تفسيره»، ويكفي في هذا ما تقدم من كلام ابن عبَّاس.

(٣) هذا من كلام الحسن البصري ومقاتل بن حيان ولم أجده في ابن أبي حاتم فلعله في بعض النسخ، ويكفي في هذا ما تقدَّم عن ابن عبَّاس.

(٤) لوحة (٢٩٠ أ).

وعن ابن أشوع أنه قال: لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ضَجَجْنَ إلىٰ الله ثلاثة أيامٍ ولياليهن وقلن: رَبَّنا لا طاقة لنا بالعمل، ولا نريد الثواب.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ الآية، فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي. فقال الله تعالىٰ: إني مُعينك عليها. أي: معينك علىٰ عَيْنَيْك بطبقتين، فإذا نازعاك[1] إلىٰ ما أكره فأطْبِق، ومعينك علىٰ لسانك بطبقتينِ، فإذا نازعك إلىٰ ما أَكْرَه فأطبق، ومعينك علىٰ فرجك بلباسٍ، فلا تكشفه إلىٰ ما أكره.

ثم روي عن أبي حازم نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس، حدَّثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال: إنَّ الله عرض عليهن الأمانة أن يفترِضَ عليهنَّ الدِّين، ويجعل لهن ثوابًا وعقابًا، ويستأمنهن علىٰ الدِّين. فقلن: لا؛ نحن مسخَّراتٌ لأمرك، لا [نريد][2] ثوابًا ولا عقابًا. قال: وعرضها الله علىٰ آدم فقال: بين أذني وعاتقي. قال ابن زيد: فقال الله تعالىٰ له: أما إِذْ تحملتَ هذا فسأعينك، أجعل لبصرك حجابًا، فإذا خشيت أن تنظر إلىٰ ما لا يحل لك فأرخِ عليه حجابه، وأَجْعلُ للسانك بابًا وغلقًا، فإذا خشيتَ فأغلق، وأجعل لفرجك لباسًا فلا تكشفه إلا علىٰ ما أحللت لك.

وقال ابن جرير: حدَّثني سعيد بن عمرو السَّكُوني، حدَّثنا بقيَّة، حدَّثنا عيسىٰ بن إبراهيم، عن موسىٰ بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير -وكان من أصحاب النَّبيِّ ﷺ- قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الأَمَانَةَ وَالوَفَاءَ نَزَلَا عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، فَأُرْسِلُوا بِهِ، فَمِنْهُمْ رَسُولُ [اللهِ، وَمِنْهُم نَبِيٌّ]**[3]**، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَنَزَلَ القُرْآنُ وَهُوَ كَلَامُ اللهِ، وَنَزَلَتِ العَرَبِيَّةُ وَالعَجَمِيَّةُ، فَعَلِمُوا أَمْرَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا أَمْرَ السُّنَنِ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَدَعِ اللهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ مِمَّا يَأْتُونَ وِمَا يَجْتَنِبُونَ وَهِيَ الحُجَجُ عَلَيْهِمْ، إِلَّا بَيَّنَهُ لَهُمْ. فَلَيْسَ أَهْلُ لِسَانٍ إِلَّا وَهُمْ يَعْرِفُونَ الحَسَنَ وَالقَبِيحَ، ثُمَّ الأَمَانَةُ أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ وَيَبْقَىٰ أَثَرُهَا فِي جُذُورِ**[4] **قُلُوبِ النَّاسِ، ثُمَّ يُرْفَعُ الوَفَاءُ وَالعَهْدُ وَالذِّمَمُ وَتَبْقَىٰ الكُتُبُ، فَعَالِمٌ يَعْمَلُ، وَجَاهِلٌ يَعْرِفُهَا وَيُنْكِرُهَا وَلَا يَحْمِلُهَا، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَيَّ وَإِلَىٰ أُمَّتِي، وَلَا يَهْلِكُ عَلَىٰ اللهِ إِلَّا هَالِكٌ، وَلَا يَغْفُلُهُ إِلَّا تَارِكٌ؛**

---

(١) في (ز): (فإذا نازعا).

(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٤) لوحة (٢٩٠ب).

فَالحَذَرَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَإِيَّاكُمْ وَالوَسْوَاسَ الخَنَّاسَ، فَإِنَّمَا يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»[١].

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وله شواهد من وجوهٍ أخرىٰ:

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن خلف العسقلاني، حدَّثنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، أخبرنا أبو العوام القطان، حدَّثنا قتادة، وأبان بن أبي عياش، عن خُليد العَصَري، عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الجَنَّةَ: مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ عَلَىٰ وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ، وَأَعْطَىٰ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِهِ طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا -وَكَانَ يَقُولُ: وَايْمُ اللهِ لا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ- [وَصَامَ رَمَضَانَ، وَحَجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَاعَ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلًا][٢]، وَأَدَّىٰ الأَمَانَةَ». قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة، فإنَّ الله لم يأمن ابن آدم علىٰ شيءٍ من دينه غيره[٣].

وهكذا رواه أبو داود عن محمَّد بن عبد الرحمن العنبري، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن أبي العوام عمران بن دَاوَر[٤] القطان به.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق، عن شريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «القَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا -أو قال: يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ- إِلَّا الأَمَانَةَ، يُؤْتَىٰ بِصَاحِبِ الأَمَانَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ. فَيَقُولُ: أَنَّىٰ يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ. فَيَقُولُ: أَنَّىٰ يَا رَبِّ، وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ. فَيَقُولُ: أَنَّىٰ يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ أُمِّهِ الهَاوِيَةِ. فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَىٰ الهَاوِيَةِ، فَيَهْوِي فِيهَا حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ إِلَىٰ قَعْرِهَا، فَيَجِدُها هنالِكَ كَهَيْئَتِهَا، فَيَحْمِلُهَا فَيَضَعُهَا عَلَىٰ عَاتِقِهِ، فَيَصْعَدُ بِهَا إِلَىٰ شَفِيرِ جَهَنَّمَ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ فَهَوَىٰ فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِينَ». وقال: والأمانة في الصلاة (والأمانة[٥] في الصوم، والأمانة في الوضوء)[٦] والأمانة في الحديث، وأشدُّ ذلك الودائع. فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع إلىٰ ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق.

---

(١) إسناده ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢٢/ ٣٩) وفيه عيسىٰ بن إبراهيم القرشي: متروك، وموسىٰ بن أبي حبيب: ضعفه أبو حاتم، وخبره ساقط، انظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» ولكن انظر حديث حذيفة الآتي.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٢٩)، والطبري (٢٢/ ٣٩).

(٤) في (ز): (داود)، وهو خطأ.

(٥) لوحة (٢٩١ أ).

(٦) ما بين القوسين تكرر في (ز).

قال شريك: وحدَّثنا عياش العامري، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه. ولم يذكر: «الأمانة في الصلاة وفي كل شيءٍ». إسناده جيد، ولم يخرِّجوه[(١)].

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدَّثنا: «**إِنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ**». ثم حدَّثنا عن رفع الأمانة، فقال: «**يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ [الوَكْتِ[(٢)]، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ][(٣)] المَجْلِ[(٤)] كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَىٰ [رِجْلِكَ، تَرَاهُ مُنْتَبِرًا[(٥)] وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ**». قال: ثم أخذ حصىً فدحرجه علىٰ][(٦)] رجله، قال: «**فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، حَتَّىٰ يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّىٰ يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ وَأَظْرَفَهُ وَأَعْقَلَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَىٰ عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ[(٧)]، إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا**

---

(١) المرفوع ضعيف وثبت موقوفًا بإسنادٍ حسنٍ: رواه الطبري (٢٢/ ٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٧٠/ ١٠٥٢٧)، وفيه شريك بن عبد الله القاضي: سيئ الحفظ، ورواه البيهقي في «الشعب» (٥٢٦٦) موقوفًا، وهو أصح، انظر: «الضعيفة» للألباني (٤٠٧١).

قلت: وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي.

(٢) الوَكْت: واحده وَكْتة، وهي الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه.

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٤) مجلت يده: إذا ثخن جلدها وتعجر، وظهر فيها ما يشبه البثر، من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة.

(٥) الانتبار: التورم والانتفاخ والارتفاع. ينظر: «شرح مسلم» للنووي: (٢/ ١٦٩).

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٧) معنىٰ المبايعة هنا: البيع والشراء المعروفان، ومراده: أني كنت أعلم أن الأمانة لم ترتفع، وأن فى الناس وفاءً بالعهود، فكنت أُقْدِمُ علىٰ مبايعة من اتفق غير باحثٍ عن حاله وثوقًا بالناس وأمانتهم، فإنه إن كان مسلمًا فدينه وأمانته تمنعه من الخيانة وتحمله علىٰ أداء الأمانة، وإن كان كافرًا فساعيه -وهو الوالىٰ عليه- كان أيضًا يقوم بالأمانة في ولايته، فيستخرج حقي منه، وأما اليوم فقد ذهبت الأمانة فما بقي لي وثوقٌ بمن أبايعه ولا بالساعي فى أدائه الأمانة، فما أبايع إلا فلانًا وفلانًا؛ يعني: أفرادًا من الناس أعرفهم وأثق بهم. قال صاحب «التحرير» والقاضي عياض رحمهما الله: وحمل بعض العلماء المبايعة هنا علىٰ بيعة الخلافة وغيرها من المعاقدة والتحالف في أمور الدين، قالا: وهذا خطأٌ من قائله؛ وفي هذا الحديث مواضع تبطل قوله، منها قوله: «ولئن كان نصرانيًّا أو يهوديًّا»، ومعلوم أن النصراني واليهودي لا يعاقد علىٰ شيءٍ من أمور الدين. والله أعلم. «شرح مسلم» للنووي: (٢/ ١٧٠).

وَفُلَانًا»[١]. وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عبد الله ابن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ**»[٢].

هكذا رواه الإمام أحمد في «مسند عبد الله بن عمرو بن العاص».

وقد قال الطبراني في (مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب): حدَّثني يحيىٰ بن أيوب العلاف المصري، حدَّثنا سعيد بن أبي مريم، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ابن حُجَيرة، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ**». فزاد في الإسناد: «ابن حُجَيرة»، وجعله من مسند ابن عمر[٣] [٤].

وقد ورد النَّهي عن الحَلِف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب «الزهد»: حدَّثنا شريك، عن أبي إسحاق الشيباني، عن خُنَاس بن سُحَيم -أو قال: جَبَلَة بن سُحَيم- قال: أقبلت مع زياد بن حُدَيْر من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة. فجعل زياد يَبْكِي ويَبْكِي، فظننت أني أتيتُ أمرًا عظيمًا، فقلت له: أكان يُكْرَهُ هذا؟ قال: نعم. كان عمر بن الخطاب ينهىٰ عن الحلف بالأمانة أشدَّ النَّهي[٥].

وقد ورد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ، قال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدَّثنا زهير، حدَّثنا الوليد بن ثعلبة الطائي، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ**

---

(١) البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)، والترمذي (٢١٧٩)، وابن ماجة (٤٠٥٣)، وأحمد (٥/ ٣٨٣).

(٢) حسن لغيره: رواه أحمد (٢/ ١٧٧)، وفيه ابن لهيعة وقد اختلط، وقد أخرجه ابن وهب في «جامعه» (١/ ٨٤)، ورواية ابن وهب عن ابن لهيعة صحيحة، لكن في الإسناد علةٌ أخرىٰ وهي الانقطاع بين الحارث بن يزيد وعبد الله بن عمرو، وقد ثبت الحديث موقوفًا من طريقٍ أخرىٰ صحيحةٍ. رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٠٤) ومثله لا يقال بالرأي فالحديث حسن.

(٣) ضعيف كسابقه: رواه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ٣٣٣/ ١٤١٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٠١)، وفيه ابن لهيعة كما تقدم.

(٤) لوحة (٢٩١ب).

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢١٣)، وفي إسناده شريك: سيئ الحفظ، لكن معنىٰ الأثر صحيحٌ، وهو موافقٌ لقوله ﷺ «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»، رواه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فَلَيْسَ مِنَّا»، تفرَّد به أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

وقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: إنَّما حمل ابنُ آدَمَ الأمانَة وهي التَّكاليف ليعذب الله المُنَافِقِين منهم والمنافقات، وهم الَّذين يُظْهِرُون الإيمان خوفًا مِن أهله ويُبْطِنُون الكفر متابعةً لأهله، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وهم الَّذِين ظاهرهُم وباطنُهُم علىٰ الشِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ ومخالفة رسله، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: وليرحم المؤمنين من الخلق [الذين آمنوا][٢] بالله [وملائكته][٣] وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

[آخر تفسير سورة «الأحزاب»][٤].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٥٣).

(٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز).

سُورَةُ سَبَإٍ

تفسيرُ سُورة سَبأ وهي مكيةٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ عَن نفسه الكريمة أنَّ له الحمد المطلق في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّه المنعم المتفضِّل علىٰ أهل الدُّنيا والآخرة، المالِكُ لجميع ذلك، الحاكم في جميعِ ذلكَ، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكُهُ و[عبيده][1]، وتحت قهرِهِ وتصرفِهِ، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣].

ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فهو المعبود أبدًا، المحمودُ علىٰ طول المدىٰ. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ -أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره- ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، الَّذي لا تخفىٰ عليه خافيةٌ، ولا يغيب عنه شيءٌ.

وقال مالك، [عن][2] الزهري: خبيرٌ بخلقه، حكيمٌ بأمرِهِ. ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم عدد القَطْر النَّازل في أجزاء الأرض، والحبِّ المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج مِن ذلك؛ عدده وكيفيته وصفاته، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من قَطْرٍ ورزقٍ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: مِن الأعمال الصَّالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعبادِهِ فلا يُعاجِل عُصاتَهُم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب [عباده][3] التَّائبين إليه، المتوكِّلين عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

---

(١) لوحة (٢٩٢/ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) ليست في (ز).

هذه إحدىٰ الآيات الثَّلاث الَّتِي لا رابع لهنَّ، ممَّا أمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يُقسم بربِّه العظيم علىٰ وقوع المَعاد[1] لَمَّا أنكره مَنْ أنكره مِن أهل الكفر والعِناد، فإحداهنَّ: في «سورة يونس»: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، والثَّانية: هذه؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثَّالثة: في «التَّغابن»؛ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]. فقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وَصَفَهُ بما يُؤكِّد ذلك ويُقرِّره: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يغيب عنه؛ أي[2]: الجميع مندرجٌ تحت علمِهِ، فلا يخفىٰ عليه منه شيءٌ، فالعِظَام وإن تلاشَتْ وتفرَّقت وتمزَّقت، فهو عالمٌ أينَ ذهبتْ وأين تفرَّقتْ، ثم يعيدها كما بدأها أوَّل مرَّةٍ، فإنَّه بكلِّ شيءٍ عليم.

ثم بيَّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام السَّاعة بقوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: سعوا في الصَّدِّ عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أي: لِيُنعِّم السُّعداء من المؤمنينَ، ويُعذِّب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾. هذه حكمةٌ أخرىٰ معطوفةٌ علىٰ الَّتِي قبلها: وهي: أنَّ المؤمنين بما أنزل علىٰ الرُّسل إذا شاهَدُوا قيام السَّاعة ومجازاة الأبرار والفجَّار بالَّذي كانوا قد عَلِمُوه مِن كتب الله في الدُّنيا -رأوهُ حينئذٍ عينَ اليَقين، ويقولون يومئذٍ أيضًا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويقال أيضًا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. العزيز: هو المنيع الجناب[3]، الَّذي لا يُغالَب ولا يُمانع، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ، الحميد في جميع أقواله وأفعالِهِ، وشرعِهِ وقدرِهِ، وهو المحمود في ذلك كله.

---

(١) ولإمام أهل السنة أحمد بن حنبل مسائل حلف عليها، جمعها ابن أبي يعلىٰ -رحم الله الجميع- في جزء مطبوع بدار العاصمة بالرياض.

(٢) لوحة (٢٩٢/ ب).

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «النونية»:

وهو العزيزُ فلا يُرام جَنابه ... أنَّىٰ يُرام جَناب ذي السلطانِ

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله عَن استبْعَادِ الكفرةِ المُلحدِين[(١)] قيامَ السَّاعة، واستهزائهم بالرَّسول ﷺ في[(٢)] إخباره بذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾، أي: تفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت فيها كل مذهب، وتمزَّقت كل ممزَّقٍ؛ ﴿إِنَّكُمْ﴾ -أي: بعد هذا الحال- ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: تعودون أحياء تُرْزَقُون بعد ذلك، وهو في هَذَا الإخبار لا يخلُو أمرُهُ مِن قسمين: إمَّا أن يكون قد تعمَّد الافتراء علىٰ الله أنَّه قد أوحىٰ إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس علىٰ المعتوهِ والمجنونِ؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ؟ قال الله تعالىٰ رادًّا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمَّد ﷺ هو الصادق البارُّ الرَّاشد الذي جاء بالحقِّ، وهم الكذبَةُ الجهلة الأغبياء، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ -أي: في الكفر المفضِي بهم إلىٰ عذاب الله- ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحقِّ في الدُّنيا.

ثم قال مُنبِّهًا لهم علىٰ قدرتِهِ في خلق السَّموات والأرض؛ فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: حيثما توجَّهوا وذهبوا فالسَّماء مِظَلَّةٌ مُظلَّلَةٌ عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨].

قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، قال: إنَّك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو مِن بين يديك أو مِن خلفك، رأيت السَّماء والأرض.

وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لو شِئْنَا لفعلنا بهم ذلك لظُلْمِهم وقُدْرَتِنَا عليهم، ولكن نؤخِّر ذلك لحِلْمِنا وعفونا.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ قال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿مُّنِيبٍ﴾: تائبٌ.

وقال سفيان، عن قتادة: «المنيب»: المقبل إلىٰ الله ﷻ.

أي: إنَّ في النَّظر إلىٰ خلق السَّماء والأرض لدلالةً لكلِّ عبدٍ فَطِنٍ لبيبٍ رَجَّاعٍ إلىٰ الله، علىٰ قدرةِ الله علىٰ بعث الأجسادِ ووقوع المَعادِ[(٣)]؛ لأن مَنْ قدر علىٰ خلق هذه السَّموات في[(٤)] ارتفاعها واتِّساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنَّه لقادرٌ علىٰ إعادة الأجسام، ونشر الرَّميم من العظام،

---

(١) لوحة (٢٩٣/ أ).
(٢) في (ز): (وإخباره).
(٣) لوحة (٢٩٣/ ب).
(٤) في (ز): (وارتفاعها).

كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالىٰ عما أنعم به علىٰ عبده ورسوله داود -صلوات الله وسلامه عليه- مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النُّبوَّة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَدِ والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصَّوت العظيم، الَّذِي كان إذا سبح به تسبِّح معه الجبال الرَّاسيات، الصُّم الشَّامخات، وتقف له الطُّيور السَّارحات، والغاديات والرَّائحات، وتجاوبه بأنواعِ اللُّغات. وفي «الصَّحيح» أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسىٰ الأشعري يقرأ من اللَّيل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»(١).

وقال أبو عثمان النَّهْدي: ما سمعتُ صوت صَنْجٍ(٢)، ولا بَرْبَطٍ، ولا وَتَرٍ، أحسن من صوت أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

ومعنىٰ قوله: ﴿أَوِّبِي﴾، أي: سبِّحي. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وغير واحدٍ.

وزعم أبو مَيْسَرة أنَّه بمعنىٰ: «سَبِّحي» بلسان الحبشة، وفي هذا نظرٌ، فإن «التَّأويب» في اللُّغة هو: التَّرجيع، فأمرت الجبال والطَّير أن ترجع معه بأصواتها.

وقال أبو القاسم -عبد الرحمن بن إسحاق- الزجَّاجي في كتابه «الجُمل»، في (باب النداء) منه: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي: سِيري معه بالنَّهار كله، و«التَّأويب»: سير النَّهار كله(٣)، و«الإِسْآد»: سير اللَّيل. وهذا لفظه، وهو غريبٌ جدًّا، لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدةٌ من [حيث](٤) اللفظ في اللُّغة، لكنَّه بعيدٌ في معنىٰ الآية هاهنا، والصَّواب: أنَّ المعنىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي: رَجِّعي معه مُسَبِّحة معه، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش(٥) وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمِطْرقةٍ، بل كان يفتِلُه بيدِهِ مثل الخيوط؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾، وهي: الدُّروع. قال قتادة: وهو أول مَن عملها من الخَلْق(٦)، وإنَّما كانت قبل ذلك صفائح.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٢٣٦) من حديث أبي موسىٰ الأشعري، ورواه النسائي (٢/ ٨٠)، من حديث عائشة، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عن الجميع.

(٢) الصَّنْج: آلة تُتخذ من نحاسٍ كالطبقين يضرب أحدهما بالآخر، والبَرْبَط: -بوزن: جعفر- آلة تشبه العود، فارسيٌّ مُعرَّب. «فتح الباري»: (٩/ ٩٣).

(٣) يُنْظر «تاج العروس» للزبيدي: (٢/ ٣٧-أوب)، و(٨/ ١٦٦-سأد). ط الكويت.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٢٩٤/ أ).

(٦) للشيخ الفاضل/ عبد العزيز القاسم النجدي -حفظه الله ووفقه- مشروع علمي عن «الأوائل»، أعانه الله علىٰ إتمامه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا ابن سَمَاعة، حدَّثنا ابن ضَمْرَة، عن ابن شَوْذَب قال: كان داود عليه السلام يرفع في كلِّ يومٍ درعًا فيَبيعها بستَّة آلاف درهمٍ؛ ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بَنِي إسرائيل خبزَ الحُوَّاري(١).

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، هذا إرشادٌ من الله لنبيِّه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: لا تُدِقَّ المسمار(٢) فيقلَق(٣) في الحلقة، ولا تُغَلِّظه فيفصمها(٤)، واجعله بقدرٍ.

وقال الحَكَم بن عُتيبة: لا تُغَلِّظه فيفصم، ولا تُدِقّه فيقلَق. وهكذا روي عن قتادة وغير واحدٍ.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: «السرد»: حَلَقُ الحديد. وقال بعضهم: يقال: «درع مسرودة»؛ إذا كانت مسمورة الحَلق، واستشهد بقول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاودُ، أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ (٥)

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام، مِن طريق إسحاق بن بشر -وفيه كلام-، عن أبي إلياس، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه: أن داود عليه السلام كان يخرج متنكِّرًا، فيسأل الرُّكبان عنه وعَن سيرتِهِ، فلا يسأل أحدًا إلا أَثْنَىٰ عليه خيرًا في عِبادَته وسيرتِهِ ومعدلتِهِ، صلوات الله وسلامُهُ عليه. قال وهب: حتىٰ بعث الله مَلَكًا في صورةِ رجل، فلَقِيَه داود فسألَهُ كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير النَّاس لنفسِهِ ولأُمَّتِهِ، إلا أنَّ فيه خصلةً لو لَمْ تكن فيه كان كاملًا. [قال: ما هِيَ؟](٦)، قال: يأكل ويطعم عياله مِن مال المسلمين. يعني: بيت المال، فعند ذلك نَصِبَ داود عليه السلام إلىٰ ربِّه في الدُّعاء أن يعلمه عملًا بيده يستغني به ويغني به عياله، فألَانَ له الحديدَ، وعلَّمه صنعة الدُّروع، فعمل الدِّرع -وهو أول مَنْ عملها- فقال الله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، يعني: مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدِّرع، فإذا ارتفع مِن عمله درعٌ باعها، فتصدَّق بثلثها(٧)، واشترىٰ بثلثها ما يَكْفِيه وعياله، وأمسك الثُّلث يتصدَّق به يومًا بيومٍ إلىٰ أن يعمل غيرها.

وقال: إنَّ الله أعطىٰ داود شيئًا لم يعطه غيره مِن حسن الصَّوت؛ إنَّه كان إذا قرأ الزَّبور تسمع الوحش حتىٰ يؤخذ بأعناقها وما تنفِرُ، وما صنعت الشَّياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا علىٰ أصناف صوته. وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزَّبور بالقراءة كأنَّما ينفخ في المزامير، وكأن قد أعطي سبعين مزمارًا في حلقه(٨).

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم، موقوفًا علىٰ ابن شوذب، وهذا مما يحتاج لثبوته صحة النقل عن رسول الله ﷺ. والخبز الحُوَّاري: الذي نخل مرة بعد أخرىٰ.

(٢) أي: لا تجعله دقيقًا رقيقًا، ويقلق: يتقلقل ويتحرك ويكون غير ثابت.

(٣) في (ز): (تقتلني).

(٤) أي: يكسرها.

(٥) قضاهما: فرغ منهما، والصَّنَعُ: الحاذق بالعمل، وتُبَّع: ملك من ملوك حِمْيَر تنسب إليه الدروع التُّبَّعِية.

(٦) سقط من (ز).

(٧) لوحة (٢٩٤/ ب).

(٨) هذا أيضًا من كلام وهب بن منبه، وهو يروي من كتب بني إسرائيل، فمثلها لا يصدَّق ولا يكذَّب كما ورد في ذلك الحديث.

وقوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: مراقبٌ لكم، بصيرٌ بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفىٰ عليَّ من ذلك شيءٌ.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾

لما ذكر تعالىٰ ما أنعم به علىٰ داود عليه السلام عطف بذكر ما أعطىٰ سليمان بن داود؛ من تسخيرِ الرِّيح له تحمل بساطَهُ، غدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ.

قال الحسن البصري: كان يغدُو علىٰ بساطِهِ من دمشق فينزل بإِصْطَخَر[(١)] يتغدَّىٰ بها، ويذهب [رائحًا][(٢)] من (إصطخر) فيبيت بـ«كَابُل»، وبين «دمشق» و«إصطخر» شهرٌ كاملٌ للمسرع، وبين «إصطخر» و«كابل» شهرٌ كاملٌ للمسرع.[(٣)]

وقوله: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾، قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخُراساني، وقتادة، والسُّدِّي، ومالكٌ، عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحدٍ: «القِطْر»: النُّحاس. قال قتادة: وكانت بـ«اليمن»، فكل ما يصنع النَّاس مما أخرج الله تعالىٰ لسليمان عليه السلام.

قال السُّدِّي: وإنما أُسيلت له ثلاثة أيام.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: وسخَّرنا له الجنَّ يعملون بين يديه بإذن الله؛ أي: بقدره[(٤)] وتسخيرِهِ لهم بمشيئتِهِ ما يشاء من البنايات وغير ذلك. ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، أي: ومَنْ يعدل ويخرج منهم عن الطَّاعة؛ ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وهو: الحريق.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا غريبًا فقال: حدَّثنا [أبي، حدَّثنا أبو][(٥)] صالح، حدَّثنا معاوية

---

(١) إِصْطَخر: بلدة من أقدم مدن فارس، وكَابُل: عاصمة أفغانستان.

(٢) سقط من (ز).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الريح سخرها الله له إذا صارت به من الصباح إلىٰ الزوال فهي مسيرة شهرٍ بسير الإبل، وعلىٰ هذا فإنها تكون سرعة رواحها شهر، فيستطيع أن يذهب إلىٰ مكان مسيرته شهر ويرجع إلىٰ بلده في نفس اليوم؛ لأن غدوها شهر ورواحها شهر، ومع ذلك فقد وصفها الله تعالىٰ بأنها عاصفةٌ، ولكنها غير مؤثرةٍ، ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء:٨١]، وأيضًا: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾، فهي سريعةٌ لكنها غير مزعجةٍ، لكن كيف يطير بالريح؟ قال العلماء: أنه يضع بساطًا معتدًا عاديًا ويجلس هو وحاشيته عليه، ثم يأمر الريح تطير بهم بهذا البساط، والله علىٰ كل شيءٍ قديرٌ، ولا عادة أن يكون الإنسان مع حاشيته علىٰ بساط ويرتفع، العادة: أنه يُسْقِطُ، هذه العادة، ولكن الله ﷻ علىٰ كل شيءٍ قديرٌ، هل يمكن أن نقول: إن قانون الطيران بالطائرات الحديثة مبنيٌّ علىٰ هذا أو لا يمكن؟ إنَّ قانون الطيران مبنيٌّ علىٰ هذا، علىٰ الهواء الذي تولده هذه المولدات.

(٤) في (ز): (أي: القدري).

(٥) لوحة (٢٩٥/ أ).

ابن صالح، عن أبي الزَّاهِرِيةِ[(١)]، عن جُبير بن نُفَير، عن أبي ثعلبة الخُشَنيِّ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**الجِنُّ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ؛ صِنف لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ فِي الهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلَابٌ، وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ**». رفعه غريبٌ جدًّا[(٢)].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حَرْمَلة، حدَّثنا ابن وهبٍ، أخبرني بكر بن مُضَرَ، عن محمَّد، عن ابن أنْعُم أنَّه قال: الجنُّ ثلاثةٌ: صنفٌ لهم الثَّواب وعليهم العقاب، وصنفٌ طيَّارون فيما بين السَّماء والأرض، وصنفٌ حيَّاتٌ وكلابٌ.

قال بَكْرُ بن مُضَر: ولا أعلم إلا أنَّه قال: حدَّثني أنَّ الإنس ثلاثةٌ؛ صِنفٌ يُظِلُّهم الله بظلِّ عرشه يوم القيامة، وصنفٌ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلًا، وصنفٌ في صُوَرِ النَّاس علىٰ قلوب الشَّياطين.

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدَّثنا سلمة -يعني: ابن الفضل-، عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجنُّ وَلَدُ إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثَّواب والعقاب، ومَنْ كان مِن هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو وليُّ الله، ومَنْ كان مِن هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطانٌ.

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾[(٣)]، أمَّا المحاريب: فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيءٍ في المسكن وصدره.

وقال مجاهد: «المحاريب»: بنيان دون القصور. وقال الضَّحَّاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي المساجد والقصور، وقال ابن زيد: هي المساكن. وأمَّا التَّماثيل: فقال عطية العَوْفي، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: «التَّماثيل»: الصور. قال مجاهد: وكانت مِن نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج.

وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، «الجوابِ»: جمع «جابِيَة»، وهي: الحوض الذي

---

(١) حسن لغيره: رواه الطبراني (٢٢/ ٥٧٣)، والحاكم (٢/ ٤٥٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٨٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٥٦)، ووافقه الذهبي. قلت: في إسناده أبو صالح كاتب الليث: وهو صدوق سيئ الحفظ، وله شاهدٌ من حديث أبي الدرداء، رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ١٢/ ٢٣)، وفيه يزيد بن سِنان: ضعيف، وأبو المسيب: صدوق يخطئ، وبمجموع الروايتين فالحديث حسن إن شاء الله، وصححه الألباني في «مِشكاة المصابيح» (٤١٤٨).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يلزم، أن يكون المراد بالتماثيل هي صور الحيوان، فمن الجائز أن ينحِتُوا له مما ذكر من النحاس والزجاج والرخام، أن ينحتوا له أشياء علىٰ صورة شجرٍ، ويُقالُ: إن هذا تمثالٌ، يوجد الآن مجسماتٌ يجعلونها علىٰ صورة نخلةٍ، علىٰ صورة سيفٍ، علىٰ صورة قصرٍ، وما أشبه ذلك، نقول: هذا تمثال أو لا؟ تمثال، ويوجد أيضًا مجسماتٌ علىٰ صورة حيوانٍ، أسدٍ، أو جملٍ، أو بقرٍ أو ما أشبه ذلك، هذا أيضًا تمثالٌ، فنحن الآن نقول: إن كان قوله: ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عامٌّ لتِمثال الحيوان والأشجار وغيرها فنحتاج حينئذٍ أن نجيب بما أجاب به المؤلف؛ وهو أن الصور في شريعتهم ليست حرامًا، ولكن ما دام الأمر غير لازمٍ؛ إذ من الممكن أن تكون التماثيل التي يأمرهم بعملها تماثيل أشياء يجوز تصويرها، فلا حاجة إلىٰ هذا الجواب.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: الجِفان ما هي؟ الصحفة التي يُوضَعُ بها الطعام.

يُجْبَىٰ فيه الماء، كما قال الأعشىٰ ميمون بن قيس:

تَــرُوحُ عَلَــىٰ آلِ المُحَلَّــقِ جَفْنَــةٌ كَجَابِيَــةِ الــشَّيْخِ العِرَاقِــيِّ تَفْهَــقُ [1]

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: كالجَوْبَة [2] من الأرض.

وقال العَوْفي، عنه: كالحِيَاض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك وغيرهم.

والقدور الرَّاسيات: أي الثَّابتات في أماكنها، لا تتحوَّل ولا تتحرَّك عن أماكنها لعِظَمِهَا. كذا قال مجاهد، والضَّحَّاك، وغيرهما.

وقال عكرمة: أَثَافِيهَا [3] منها.

وقوله [4]: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أي: وقلنا لهم: اعملوا شكرًا علىٰ ما أنعم به عليكم في الدُّنيا والدِّين.

وشكرًا: مصدر من غير الفعل، أو أنَّه مفعولٌ لَهُ، وعلىٰ التَّقديرَيْن فيه دلالةٌ علىٰ أن الشُّكر يكونُ بالفعل كما يكون بالقَوْل وبالنيَّة، كما قال:

أَفَــادَتْكُمُ النَّعْمَــاءُ مِنِّــي ثَلَاثَــةً يَــدِي، وَلِــسَانِي، وَالــضَّمِيرَ المُحَجَّبَــا

قال أبو عبد الرحمن الحُبُلِيُّ [5]: الصَّلاة شُكْر، والصِّيام شُكْر، وكُلُّ خَيرٍ تعمله لله شُكْرٌ، وأفضل الشُّكر الحَمْدُ. رواه ابن جرير.

وروىٰ هو وابن أبي حاتم، عن محمَّد بن كعب القُرَظي قال: الشُّكر: تقوىٰ الله والعمل الصَّالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود ﷺ كذلك قائمين بشكر الله قولًا وعملًا.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن أبي بكر، حدَّثنا جعفر -يعني: ابن سليمان-، عن ثابتٍ البُنَاني قال: كان داود ﷺ قد جزَّأ علىٰ أهلِهِ وولدِهِ ونسائِهِ الصَّلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعةٌ من اللَّيل والنَّهار إلا وإنسانٌ من آل داودَ قائمٌ يصلِّي، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [6].

وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَىٰ اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَىٰ اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا،**

---

(١) الشيخ العراقي: قيل أراد به كسرىٰ، وتَفْهَق: تفيض.

(٢) الجَوْبَة: الحُفرة المستديرة الواسعة.

(٣) الأَثَافِي: جمع أُثْفِيَّة، وهي الحجارة التي تُنصب وتُجعل القِدْرُ عليها. «النهاية».

(٤) لوحة (٢٩٥/ ب).

(٥) في (ز): (السلمي)، والمثبت من «الطبري» (١٩/ ٢٣٦) ط هجر.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٧٨٨١) عن ثابتٍ البُنَاني، ولم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، ويكفي في ذلك الحديث الآتي.

وَلا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى»(١).

وقد روىٰ أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود، حدَّثنا يوسف بن محمَّد بن المُنْكَدِر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ لِسُلَيْمَانَ: يَا بُنَيَّ، لا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢).

وروىٰ ابن أبي حاتم عن داود عليه السلام هاهنا أثرًا غريبًا مطوَّلًا جدًّا، وقال أيضًا:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمران بن موسىٰ، حدَّثنا أبو يزيد(٣) فَيْض بن إسحاق الرَّقِّي قال: قال فُضَيْلٌ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾: فقال داود: يا رَبِّ، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: «الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ(٤) أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي»(٥).

وقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إخبارٌ عن الواقع(٦).

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾

يذكر تعالىٰ كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عَمَّىٰ الله موته علىٰ الجانِّ المسخَّرين له في الأعمال الشَّاقة؛ فإنَّه مكث متوكئًا علىٰ عصاه -وهي مِنْسَأته؛ كما قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد- مدَّةً طويلةً نحوًا من سَنةٍ، فلما أكلتها دابةُ الأرض -وهي الأَرَضَةُ- ضعفت وسقط إلىٰ الأرض، وعلم أنَّه قد مات قبل ذلك بمدةٍ طويلةٍ، تبيَّنَت الجن -والإنس أيضًا- أنَّ الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك.

قد ورد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ غريبٌ، وفي صحته نظر، قال ابن جرير:

حدَّثنا أحمد بن منصور، حدَّثنا موسىٰ بن مسعود أبو حذيفة، حدَّثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن عطاء ابن(٧) السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كَانَ سُلَيْمَانُ نَبِيُّ اللهِ عليه السلام إِذَا

---

(١) البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) ضعيف: رواه ابن ماجه (١٣٣٢)، وفيه سُنَيد بن داود: ضعيف؛ ولذا قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ١٥٧): هذا إسنادٌ ضعيفٌ، وقال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٦٨): لا يصح.

(٣) في (ز): (أبو زيد).

(٤) في (ز): (حين قلت).

(٥) مرسل: رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤١٥)، ولم يسنده إلىٰ النبي ﷺ.

(٦) لوحة (٢٩٦/ أ).

(٧) هذا هو المثبت في (ز)، وهو الوارد في «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٤٠) ط هجر، وهو الصواب، وورد في بعض الطبعات: (عطاء عن السائب)، وإنما حملهم علىٰ هذا التصرف الخاطئ قول الحافظ ابن كثير بعده: (وعطاء بن أبي مسلم الخُراساني له غرابات)، فتعين علىٰ ذلك أن يكون عطاء المذكور في السند هو غير (عطاء بن السائب)، وهذا خطأ، فـ(عطاء بن السائب) هو الذي يروي عن سعيد بن جبير، وليس في الرواة عن ابن جبير من يُسمىٰ بـ(السائب)، والصواب هنا أن يقال: (عطاء بن السائب)، وهو سبق قلم من الحافظ أصلًا، وأما إبراهيم بن طَهْمَان فيروي عن =

صَلَّىٰ رَأَىٰ شَجَرَةً نَابِتَةً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ لَهَا: مَا اسْمُكِ؟ فَتَقُولُ: كَذَا. فَيَقُولُ: لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتِ؟ فَإِنْ كَانَتْ لِغَرْسٍ غُرِسَتْ، وَإِنْ كَانَتْ لِدَوَاءٍ كُتِبَتْ[(١)] . فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ رَأَىٰ شَجَرَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا اسْمُكِ؟ قَالَتْ: الخَرُّوبُ. قَالَ: لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتِ؟ قَالَتْ: لِخَرَابِ هَذَا البَيْتِ!! فَقَالَ سُلَيْمَانُ: اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَىٰ الجِنِّ مَوْتَتِي؛ حَتَّىٰ يَعْلَمَ الإِنْسُ أَنَّ الجِنَّ لا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ. فَنَحَتَهَا عَصًا، فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا حَوْلًا مَيِّتًا، وَالجِنُّ تَعْمَلُ. فَأَكَلَتْهَا الأَرَضَةُ، فَتَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ الجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا [حَوْلًا][(٢)] فِي العَذَابِ المُهِينِ». قال: وكان ابن عبَّاسٍ يقرؤها كذلك، قال: «فَشَكَرَتِ الجِنُّ الأَرَضَةَ، فَكَانَتْ تَأْتِيهَا بِالمَاءِ»[(٣)] .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طَهْمان، به. وفي رَفْعه غرابةٌ ونكارةٌ، والأقرب أن يكون موقوفًا، وعطاء بن أبي مسلم[(٤)] الخراساني له غراباتٌ، وفي بعض حديثه نكارةٌ.

وقال السُّدِّي في حديثٍ ذكره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس. وعن مُرَّة الهَمْداني، عن ابن مسعودٍ[(٥)] ، وعن ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: كان سليمان يتحرَّدُ[(٦)] في بيت المقدس السَّنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يُدْخِلُ طعامه وشرابه، فأدخله في المرَّة التي توفي فيها، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يومٌ يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرةٌ، فيأتيها فيسألها فيقول: ما اسمك؟ فتقول: اسْمِي كذا وكذا. فإن كانت لغرسٍ غرسها، وإن كانت نبْتَ دواءٍ قالت: نَبَتُّ دواءً لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حتىٰ نبتت شجرةٌ يقال لها: الخرُّوبة، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخرُّوبة. قال: ولأي شيءٍ نَبَتِّ؟ قالت: نبتُّ لخرابِ هذا المسجد، قال سليمان: ما كان الله ليُخَرِّبه وأنا حيٌّ!! أنتِ الَّتِي علىٰ وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها[(٧)] في حائطٍ له، ثم دخل المحراب فقام[(٨)] يصلِّي متكئًا علىٰ عصاه، فمات، ولم تعلم به الشَّياطين، وهُم في ذلك يعملون له، يخافون أن يخرج فيُعَاقِبهم، وكانت الشَّياطين تجتمع حول

= الاثنين: (عطاء بن السائب) و(عطاء بن أبي مسلم الخُراساني)، وإن كان لـ (عطاء بن أبي مسلم الخراساني) أوهامٌ، فكذلك (عطاء بن السائب) اختلط، فالأقرب والأصوب في ذلك أن يقال: إن قول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها: (عطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات) وَهْمٌ منه، وتبارك من جلَّ عن السهو والخطإ.

(١) أي: تُقطع وتُصَرُّ، ويُكتب علىٰ الصُّرَّة اسمها ودواؤها.

(٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف مرفوعًا، والموقوف صحيح: رواه ابن جرير (٢٢/ ٧٤)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٥٢)، والحاكم (٤/ ٤٤٦) وصححه، والضياء في «المختارة» (٣٠٨١)، والبزار (٥٠٦٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٠): وفيه عطاء وقد اختلط، وبقية رجاله رجال الصحيح قلت: وقد توبع عطاء، فقد تابعه سلمة بن كهيل عن سعيد، رواه الحاكم (٤/ ١٩٨) وسنده صحيح، ومثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع، وموسىٰ بن مسعود: صدوق سيء الحفظ، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط، وانظر: تعليق ابن كثير بعد إيراده الحديث.

(٤) في (ز): (عطاء بن أبي سليم).

(٥) لوحة (٢٩٦/ ب).

(٦) أي: يتنحىٰ ويتحول عن قومه. ووقع في «الطبري» (١٩/ ٢٤١): «يتجرد».

(٧) في (ز): (فتزوجها وغربها)، والمثبت من الطبري.

(٨) في (ز): (فدخل يصلي).

المحراب، وكان المحراب له كُوًى بين يديه وخلفه، فكان الشَّيطان الَّذِي يريد أن يخلع يقول: ألستُ جَلْدًا إنَ دخلتُ فخرجتُ من ذلك الجانب؟ فيدخل حتىٰ يخرج من الجانب الآخرِ، فدخل شيطانٌ مِن أولئك فمَرَّ، ولم يكن شيطانٌ ينظر إلىٰ سليمان في المحراب إلا احترق، فمَرَّ ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق، ونظر إلىٰ سليمان عليه السلام قد سقط ميتًا، فخرج فأخبر النَّاس أن سليمان قد مات، ففتحوا[1] عنه فأخرجوه، وَوَجدوا منسأته -وهي: العصا بلسان الحبشة- قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضة علىٰ العصا، فأكلت منها يومًا وليلةً، ثم حسبوا علىٰ ذلك النَّحو، فوجدوه قد مات منذ سنةٍ. وهي في قراءة ابن مسعود: «فمكثوا يَدْأَبُونَ له مِن بعد موته حولًا كاملًا»، فأيقن النَّاس عند ذلك أن الجن كانوا يَكْذِبُونهم، ولو أنَّهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سَنة، وذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ[2] تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. يقول: تبيَّن أمرهم للنَّاس أنَّهم كانوا يكذِبونهم، ثم إنَّ الشَّياطين قالوا للأَرَضَةِ: لو كنتِ تأكلينَ الطَّعام أتيناكِ بأطيبِ الطَّعام، ولو كنتِ تشرَبين[3] الشَّراب سقيناكِ أطيب الشَّراب، ولكنَّا سننقل إليك الماء والطِّين، قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت، قال: ألم ترَ إلىٰ الطِّين الَّذِي يكون في جوف الخَشَب؟ فهو ما تأتيها به الشياطين، شكرًا لها[4].

وهذا الأثر -والله أعلم- إنَّما هو مما تُلُقِّي مِن علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ، لا يُصَدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يُكَذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب[5].

وقال ابن وَهْب وأَصْبَغ بن الفرج، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾، قال: قال سليمانُ عليه السلام لمَلَكِ الموت: إذا أُمِرْتَ بي فأعلمْنِي، فأتاه فقال: يا سليمان، قد أُمِرْتُ بكَ، قد بَقِيَت لك سُويعةٌ، فدعا الشياطين فبَنَوا عليه صَرْحًا مِن قواريرَ، وليس له باب، فقام يصلِّي، فاتَّكأ علىٰ عصاه، قال: فدخل عليه مَلَكُ الموت، فقبض روحه وهو مُتَّكِئٌ علىٰ عصاه، ولم يصنع ذلك فرارًا مِن ملك الموت. قال: والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه، يحسبون أنَّه حيٌّ. قال: فبعثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دابَّة الأرض. قال: والدَّابَّة تأكل العيدان -يقال لها: القادح- فدخلت فيها فأكلَتْها، حتَّىٰ إذا أكلت جوف العصا ضعفت، وثقل عليهَا فخرَّ ميتًا، فلمَّا رأت ذلك الجن انفضُّوا[6] وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾. قال أَصْبَغ: بلغني عن غيرِهِ أنَّها قامت سنةً تأكل منها قبل أن يَخِرَّ. وقد ذكر غير واحدٍ من السَّلف نحوًا

---

(١) في (ز): (فتنحوا عنه). (٢) لوحة (٢٩٧/ أ). (٣) في (ز): (تشتهين).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٢/ ٧٥)، من طريق أسباط بن نصر: وهو ضعيف، عن السُّدِّي؛ محمَّد بن مروان: متروك.

(٥) تقدم الكلام علىٰ الإسرائيليات في «مقدمة التفسير» فضائل القرآن، فليراجع ما ذُكِرَ هناك.

(٦) في (ز): (انفضت).

مِن هذا[١]، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

كانت «سبأ»[٢] ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت «التَّبابِعَة» منهم، و«بلقيس» -صاحبة سليمان- منهم، وكانوا في نَعمةٍ وغبطةٍ، في بلادِهِم وعيشهم واتِّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرُّسل تأمرهم أن يأكلوا مِن رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثمَّ أعرضوا عما أمروا به، فعُوقِبُوا بإرسال السَّيل، والتَّفرُّق في البلاد أيديَ سبإٍ، شَذَرَ مَذَرَ[٣]، كما يأتي تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء الله تعالىٰ وبه الثِّقة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا ابن لَهيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرة، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال: سمعتُ ابن عبَّاس يقول: إن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن «سبأ»؛ ما هو؟ رجل، أم امرأة، أم أرض؟ قال: «بَلْ هُوَ رَجُلٌ، وَلَدَ عَشَرَةً، فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَبِالشَّام مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ: فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةُ، وَالأَزْدُ، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَحِمْيَرٌ. وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ: فَلَخْمٌ، وَجُذَامُ، وَعَامِلَةُ، وَغَسَّانُ»[٤].

ورواه عَبد [بن حميد][٥]، عن الحسن بن موسىٰ، عن [ابن لَهيعة][٦] به، وهذا إسنادٌ حسنٌ، ولم يخرجوه، [وقد روي من طرق متعددة][٧]. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القَصْد والأَمَم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم»، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وَعْلة، عن ابن عبَّاسٍ، فذكر نحوه. وقد روي نحوه منْ وجهٍ آخرَ.

وقال الإمام [أحمد][٨] أيضًا وعبد بن حميد: حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا أبو جَناب يحيىٰ بن أبي [حيَّة][٩] الكلبي، عن يحيىٰ بن هانئ بن عُرْوَة، عن فروة بن مُسَيك قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ

---

(١) كل هذه الآثار من الإسرائيليات يصدق منها ما وافق الحق، ويكذب منها ما خالف الحق، ويروىٰ ما لا يوافق ولا يخالف، فلا يصدق ولا يكذب.

(٢) لوحة (٢٩٧/ ب).

(٣) مَثَل تضربه العرب لكل متفرقين بعد اجتماع، وسيذكر ذلك ابن كثير في تفسير الآية (١٩). وانظر: «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل الدمشقي (١٦/ ٣٩-٤٠). ط دار الكتب العلمية.

(٤) حسن: رواه أحمد (١/ ٣١٦)، وفيه ابن لهيعة، لكن الراوي عنه أبو عبد الرحمن المُقرئ، وروايته عنه قبل الاختلاط، فالإسناد حسن.

(٥) ليست في (ز). (٦) سقط من (ز). (٧) ليست في (ز).

(٨) ليست في (ز)، وقال محققو ط «الشعب»: (والحديث ليس في المسند)!!. قلت: بل هو فيه (٣٩/ ٥٢٨) من ط: الرسالة، وفي «إطراف المسند» لابن حجر (٥/ ١٧٨) برقم (٦٨٩١).

(٩) بياض في (ز)، والمثبت من «المسند».

فقلتُ: يا رسول الله، أُقَاتِلُ بمُقْبِل قومي مُدْبِرَهم؟ قال: «نَعَمْ، فَقَاتِلْ بِمُقْبِلِ قَوْمِكَ مُدْبِرَهُمْ». فلمَّا ولَّيت دعاني فقال: «لا تُقَاتِلْهُمْ حَتَّىٰ تَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ». فقلتُ: يا رسول الله، أرأيت سبأً؛ أوادٍ هو، أو رجلٌ، أو ما هو؟ قال: «[لا][1]، بَلْ رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ، وُلِدَ لَهُ عَشَرَةٌ فَتَيَامَنَ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ، تَيَامَنَ: الأَزْدُ، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَحِمْيَرٌ، وَكِنْدَةُ، وَمَذْحِجٌ، وَأَنْمَارٌ -الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ: بَجِيلَةُ وَخَثْعَمٌ-. وَتَشَاءَمَ: لَخْمٌ، وَجُذَامُ، وَعَامِلَةُ، وَغَسَّانُ»[2].

وهذا أيضًا إسنادٌ جيِّدٌ، وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبي، وقد تكلَّموا فيه. لكن[3] رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن العَنْقَزِي، عن أسباط بن نصر، عن يحيىٰ بن هانئ المرَادي، عن عمه، أو عن أبيه - يشك أسباط- قال: قدم فروة بن مُسَيك علىٰ رسول الله ﷺ، فذكره.

طريق أخرىٰ لهذا الحديث: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثني ابن لهيعة، عن توبة بن نَمِر، عن عبد العزيز بن يحيىٰ أنه أخبره قال: كنَّا عند عبيدة بن عبد الرحمن بإفريقيَّةَ فقال يومًا: ما أظن قومًا بأرض إلا وَهم مِن أهلها. فقال علي بن رباح: كلَّا؛ قد حدَّثني فلانٌ أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفي قدِمَ علىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن سبأً قومٌ كان لهم عِزٌّ في الجاهليَّة، وإنِّي أخشىٰ أن يرتدُّوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: «مَا أُمِرْتُ فِيهِمْ بِشَيْءٍ بَعْدُ». فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ[4] ءَايَةٌ﴾ الآيات، فقال له رجلٌ: يا رسول الله، ما سبأٌ؟[5]، فذكر مثل [هذا الحديث الذي][6] قبله؛ أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو؟ أبلدٌ، أم رجلٌ، أم امرأةٌ؟ قال: «بَلْ رَجُلٌ، وُلِدَ [لَهُ][7] عَشَرَةٌ فَسَكَنَ اليَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَالشَّامَ أَرْبَعَةٌ، أَمَّا اليَمَانِيُّونَ: فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةُ، وَالأَزْدُ، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَحِمْيَرٌ غَيْرَ مَا حَلَّهَا. وَأَمَّا الشَّامُ: فَلَخْمٌ، وَجُذَامُ، وَغَسَّانُ، وَعَامِلَةُ».

فيه غرابة من حيث[8] ذكر [نزول][9] الآية بـ«المدينة»، والسُّورة مكيَّةٌ كلها، والله أعلم.

طريق أخرىٰ: قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثني الحسن بن الحكم، حدَّثنا أبو سَبْرَة النَّخَعِي، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفي قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أَخْبِرني عن سبإٍ: ما هو؟ أرضٌ،

---

(١) ليست في (ز)، وأثبتناها من «المسند».

(٢) حسن: فيه يحيىٰ بن أبي حية الكلبي، قال الحافظ: ضعفوه لكثرة تدليسه، وأورد ابن كثير له طرقًا مما يدل علىٰ أن للحديث أصلًا، ويشهد له حديث ابن عبَّاس السابق والله أعلم، والحديث حسنه الترمذي (٣٢٢٢)؛ ورواه الطبري (٢٢/ ٧٧) من طريقٍ أخرىٰ نحوه، وفيه أسباط بن نصر: ضعيف، ويشهد له الأحاديث المذكورة قبله وبعده.

(٣) لوحة (٢٩٨/ أ).

(٤) متواترة: قَرَأَ (مَسْكَنِهِمْ) حَمْزَةُ وَحَفْصٌ، وَقَرَأَ (مَسْكِنِهِمْ) الْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَوَافَقَهُمَا الأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَسَاكِنِهِمْ).

(٥) ضعيف: عزاه لابن أبي حاتم، وفيه توبة بن نمر، أورده في «الجرح والتعديل» (٢/ ٤٤٧)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وعبد العزيز بن يحيىٰ وعبيدة بن عبد الرحمن لم أعرفهما، ولكن يشهد للحديث ما تقدم، دون ذكر سبب النزول.

(٦) في (ز): (حديث قبله).

(٧) ليست في (ز).

(٨) في (ز): (من حديث).

(٩) ليست في (ز).

أم امرأةٌ؟ قال: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةٌ مِنَ الوَلَدِ، فَتَيَامَنَ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا: فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ، وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَامَنُوا: فَكِنْدَةُ، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَالأَزْدُ، وَمَذْحِجٌ، وَحِمْيَرٌ، وَأَنْمَارٌ». فقال رجلٌ: ما أنمار؟ قال: «الَّذِينَ مِنْهُمْ خَثْعَمٌ وَبَجِيلَةُ»(١).

ورواه التِّرمذي في «جامعه»، عن أبي كُرَيْب وعبد بن حميد قالا: حدَّثنا أبو أسامة، فذكره أبسط من هذا، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

وقال أبو عمر بن(٢) عبد البر(٣): حدَّثنا عبد الوارث بن سفيان، حدَّثنا قاسم بن أصبغ، حدَّثنا أحمد بن زهير، حدَّثنا عبد الوهاب بن نجدة الحَوْطي، حدَّثنا ابن كثير -هو عثمان بن كثير-، عن اللَّيث بن سعد، عن موسىٰ بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري: أن رجلًا أتىٰ رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ، فذكر مثله(٤)، فقَوِيَ هذا الحديث وحسُنَ.

قال علماء النَّسب -منهم محمَّد بن إسحاق-: اسم «سبأ»: عبد شمس بن يَشْجب بن يَعْرب بن قَحْطَان.

وإنَّما سُمِّي «سبأ»؛ لأنَّه أول مَنْ سبأ في العَرَب، وكان يُقَال له: الرَّائش؛ لأنَّه أول مَن غَنِم في الغزو فأعطىٰ قومه، فسمِّي الرائش، والعرب تسمِّي المال: ريشًا ورياشًا. وذكروا أنه بشَّر برسول الله ﷺ في زمانِهِ المتقدِّم، وقال في ذلك شعرًا:

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا ... نَبِيٌّ لَا يُرَخِّصُ فِي الحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ ... يَدِينُونَ العِبَادَ بِغَيْرِ ذَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنَّا مُلُوكٌ ... يَصِيرُ المُلْكُ فِينَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانٍ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ خَبْتَةٌ(٥) خَيْرُ الأَنَامِ
وَسُمِّيَ أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي ... أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَأَعْضُدُهُ وَأَحْبُوهُ بِنَصْرِي ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَىٰ يَظْهَرْ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغُهُ سَلَامِي

ذكر ذلك الهَمْداني في كتاب «الإكليل».

---

(١) حسن: رواه الطبري (٢٢/ ٧٧)، والترمذي (٣٢٢٢) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.
(٢) لوحة (٢٩٨/ ب). (٣) «القصد والأمم» (ص/ ٢٠- ط القدسي).
(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٢٤٥)، وقال الهيثمي في «مَجْمَع الزوائد» (٧/ ٣٢٣): رجاله رجال الصحيح، غيرَ شيخ الطبراني علي بن الحسن بن صالح الصائغ: لم أعرفه. قلت: له ذِكر في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٧٦)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وهو شاهد لما تقدم.
(٥) يقال: هذا الرجل فيه خَبْتَة؛ أي: تواضع.

- واختلفوا في قحطان علىٰ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّه من سلالة إِرَم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفيَّة اتِّصال نسبه به علىٰ ثلاث طرائق.

والثَّاني: أنَّه مِن سلالة عَابَر، وهو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلفوا في كيفيَّة اتِّصال نسبه به علىٰ ثلاث طرائق أيضًا.

والثالث: أنَّه مِن سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليهما السلام- واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به علىٰ ثلاث طرائق أيضًا. وقد ذكر ذلك مستقصًىٰ الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمَري: في كتابه المسمىٰ: «الإنباه علىٰ ذكر أصول القبائل الرواة»(١).

ومعنىٰ(٢) قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَانَ رَجُلًا مِنَ العَرَبِ»، يعني: العرب العاربة الَّذِين كانوا قبل الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ من سلالة سام بن نوح.

وعلىٰ القول الثَّالث: كان مِن سلالة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. ولكن في «صحيح البخاري»: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بنفرٍ من «أَسْلَمَ» يَنْتَضِلُون(٣)، فقال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»(٤).

فـ«أَسْلَم» قبيلة من الأنصار، [والأنصار](٥) -أَوْسُها وخَزْرَجُها- من غَسَّان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بـ«يثرب» لما تفرَّقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفةٌ منهم بالشَّام، وإنَّما قيل لهم: «غَسَّان» بماء نزلوا عليه قيلَ: بـ«اليمن». وقيل: إنه قريبٌ من «المُشَلَّل»(٦)، كما قال حسان بن ثابت:

إِمَّا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ   الأَزْدُ نِسْبَتُنَا، وَالمَاءُ غَسَّانُ

ومعنىٰ قوله: «وُلِدَ لَهُ عَشَرَةٌ مِنَ العَرَبِ»؛ أي: كان مِن نسلِهِ هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائلِ مِن عرب اليمن، لا أنَّهم ولدوا مِن صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرَّرٌ مبيَّنٌ في مواضعه مِن كتب النَّسب.

ومعنىٰ قوله: «فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ»؛ أي: بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم مَنْ أقام ببِلَادِهِم، ومنهم مَنْ نزح عنها إلىٰ غيرها، وكان مِن أمر السَّدِّ أنَّه كان الماء يأتيهم مِن بين جبلَيْنِ وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم، فبَنَوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا حتىٰ ارتفع الماء، وحُكِمَ علىٰ حافات ذَيْنِكَ الجَبَلَيْن، فغرسوا الأشجار واستغلُّوا الثِّمار في غاية ما يكون من الكَثْرَة والحسن، كما ذكر غير واحدٍ من السَّلف، منهم قتادة: أنَّ المرأة كانت تمشي

(١) مطبوع في سفر واحد مع «القصد والأمَم» في مكتبة حسام الدين القدسي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) لوحة (٢٩٩/ أ).

(٣) أي: يترامون بالسهام للسبق.

(٤) البخاري (٣٥٠٧).

(٥) سقط من (ز).

(٦) في (ز): (المسلك). والمُشَلَّل: جبل قريب من المدينة.

تحت الأشجار وعلىٰ رأسِهَا مِكْتَلٌ أو زَنْبِيلٌ -وهو الَّذِي تُخْتَرَف[(١)] فيه الثِّمار- فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه مِن غير أن يحتاج إلىٰ كُلْفَةٍ ولا قُطَّاف؛ لكثرته ونضجِهِ واستوائه، وكان هذا[(٢)] السَّد بمأرب؛ بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل[(٣)]، ويعرف بـ«سَدِّ مأرب».

وذكر آخرون: أنه لم يكن ببلدهم شيءٌ من الذُّباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيءٌ من الهوامِّ؛ وذلك لاعتدال الهواء وصحَّة المِزاج وعناية الله بهم؛ ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، ثم فسَّرها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم[(٤)] علىٰ التَّوحيد.

وقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن توحيد الله وعبادتِهِ وشكرِهِ علىٰ ما أنعم بِهِ عليهِمْ، وعدلوا إلىٰ عبادة الشَّمس، كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٢- ٢٤].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن وهب بن مُنَبِّه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيًّا.

وقال السُّدِّي: أرسل الله إليهِمُ اثنَيْ عشر ألفَ نبيٍّ، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾؛ قيل: المراد بالعَرِمِ المياه. وقيل: الوادي. وقيل: الجُرَذ[(٥)]. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلىٰ صفته، مثل: «مسجد الجامع». و«سعيد كُرْز»[(٦)]، حكىٰ ذلك السُّهيلي.

وذكر غير واحدٍ -منهم ابن عبَّاس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضَّحَّاك: أنَّ الله ﷻ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث علىٰ السد دابةً من الأرض، يقال لها: «الجُرَذ» نَقَبَتْه. قال وهب ابن منبِّه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السَّد هو الجُرَذ، فكانوا يرصدون عنده السَّنانير[(٧)] برهةً من الزمان، فلما جاء القَدَرُ غلبت الفَأْرُ السَّنانير، وولَجت إلىٰ السَّدِّ فنقبته، فانْهارَ عليهم.

وقال قتادة وغيره: الجُرَذ: هو الخُلْد[(٨)]، نقبت أسافله حتىٰ إذا ضَعف ووَهَىٰ، وجاءت أيَّام

---

(١) أي: تُجْنَىٰ.
(٢) لوحة (٢٩٩/ ب).
(٣) المَرْحَلَة: مسيرة نهار بِسَيْر الإبل المحمَّلة، وقدرها: أربعة وعشرون ميلًا، أو: ثمانية فراسخ، والفرسخ: ثلاثة أميال=١٢٠٠ ذراع= ٥٥٤٤ متر.
(٤) في (ز): (إن استمريتم).
(٥) الجُرذ: الذكر من الفئران.
(٦) في (ز): (ومعبد كرز). والكُرْز: الخرج، والجوالق الصغير، وكرز هنا لقب لسعيد، فليست الإضافة إلىٰ الصفة، وإنما إلىٰ اللقب.
(٧) السَّنَانِير: جمع سِنَّوْر، وهو القط.
(٨) الخُلْد: نوع من الفئران، وقيل: هي الفأرة العمياء، أو التي خلقت ولم تخلق لها عيون.

السُّيول، صَدمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرَّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونَضَبَ الماء عن الأشجار التي في الجبَلَيْن عن يمينٍ وشمالٍ، فيَبسَت وتحطَّمَت، وتبدَّلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النَّضِرَة، كما قال الله وتعالىٰ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾.

قال[1] ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء الخُراساني، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي: وهو الأراك[2]، وأكله البَرير.

﴿وَأَثْلٍ﴾؛ قال العوفي، عن ابن عبَّاس: هو الطَّرْفاء.

وقال غيره: هو شجر يُشْبِه الطَّرفاء. وقيل: هو السَّمُر. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾؛ لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنِكَ الجنَّتَيْن إليه بعد الثِّمار النَّضيجة، والمناظر الحسنة، والظِّلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدَّلت إلىٰ شجر الأراك والطَّرْفاء، والسِّدْر ذي الشَّوك الكثير، والثَّمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلىٰ الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: عاقبناهم بكفرهم.

قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور.

وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم؛ لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور.

وقال طاوس: لا يناقش[3] إلا الكفور.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدَّثنا حجاج بن محمَّد، حدَّثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التَّغْلِبي، عن ابن خَيْرة -وكان من أصحاب علي رضي الله عنه- قال: جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضِّيق في المعيشة، والتَّعسُّر في اللَّذَّة. قيل: وما التَّعسُّر في اللَّذَّة؟ قال: لا يصادف لذَّةً حلالًا إلا جاءه مَنْ يُنَغِّصه إيَّاها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

يذكر تعالىٰ ما كانوا فيه من الغِبْطة والنِّعمة، والعيش الهنيِّ الرَّغيد، والبلاد الرَّخِيَّة، والأماكن الآمنة، والقرىٰ المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث

---

(١) لوحة (٣٠٠/ أ).

(٢) الأراك: شجر معروف له حَمْلٌ كعناقيد العنب، واسمه: الكَباث، وإذا نَضِج يسمىٰ المَرْد. والبَرير: ثمر الأراك إذا اسود.

(٣) المناقشة: الاستقصاء في المحاسبة.

إن مسافرهم لا يحتاج إلىٰ حَمل زادٍ ولا ماءٍ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويَقيل في قريةٍ ويبيت في أخرىٰ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، قال وهب بن منبه: هي قرىٰ بـ«صنعاء». وكذا قال أبو مالك.

وقال مجاهد، والحسن، وسعيد[١] بن جبير، ومالك، عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وابن زيد وغيرهم: يعني قرىٰ الشام. يعنون: أنَّهم كانوا يسيرون من[٢] اليمن إلىٰ الشَّام في قرًىٰ ظاهرةٍ [متواصلةٍ][٣].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: القرىٰ التي باركنا فيه: «بيت المقدس».

وقال العوفي عنه أيضًا: هي قرًىٰ عربيةٌ بين «المدينة» والشَّام.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: بيِّنةً واضحةً، يعرفها المسافرون، يَقِيلون في واحدةٍ، ويبيتون في أخرىٰ؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافِرُون إليه، ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصلٌ لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، وقرأ آخرون: «بَعِّدْ بين أسفارنا»[٤]، وذلك أنهم بَطِروا هذه النعمة -كما قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، والحسن، وغير واحدٍ- وأحبوا مفاوز ومَهَامِه[٥] يحتاجون في قطعها إلىٰ الزَّاد والرَّواحل والسَّير في الحَرُور[٦] والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسىٰ أن يُخرِجَ الله لهم مما تنبت الأرض؛ من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيشٍ رغيدٍ في مَنٍّ وسلوىٰ، وما يشتهون من [مآكل ومشارب][٧] وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وقال في حق هؤلاء: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ -أي: بكفرهم- ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثًا للنَّاس، وسَمَرًا يتحدَّثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا

---

(١) لوحة (٣٠٠/ ب). (٢) في (ز): (بين اليمن). (٣) سقط من (ز).

(٤) متواترة: قَرَأَ (رَبُّنَا بَاعَدَ) يَعْقُوبُ، وَقَرَأَ (رَبَّنَا بَعِّدْ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَهِشَامٌ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (رَبَّنَا بَاعِدْ).

(٥) المفازة البعيدة والصحراء الشاسعة. (٦) الحَرُور: حر الشمس. (٧) سقط من (ز).

تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: «تفرقوا أيديَ سبأً»، و«أيادي سبأً»[(١)]، و«تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ».

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد بن يحيىٰ بن سعيد القطَّان، حدَّثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سمعت عكرمة يحدث بحديث أهلِ سبأ[(٢)]، قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾؛ وكانت فيهم كهنةٌ، وكانت الشَّياطين يسترقُون السَّمع، فأخبروا الكهنة بشيءٍ مِن أخبار السَّماء، فكان فيهم رجلٌ كاهنٌ شريفٌ كثير المال، وإنَّه خُبِّر أنَّ زوالَ أمرِهم قد دنَا، وأنَّ العذاب قد أظلَّهم. فلم يدرِ كيف يصنع؛ لأنَّه كان له مالٌ كثيرٌ من عقار، فقال لرجل من بنيه -وهو أعزهم أخوالًا-: إذا كان غدًا وأمرتك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتك فانتهِرْني، فإذا تناولتك فالطُمْني. فقال: يا أبت، لا تفعل، إن هذا أمرٌ عظيمٌ، وأمرٌ شديدٌ، قال: يا بني، قد حدث أمرٌ لا بد منه، فلم يزل به حتىٰ وافاه علىٰ ذلك، فلما أصبحوا واجتمع النَّاس، قال: يا بني، افعل كذا وكذا. فأبىٰ، فانتهره أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتىٰ تناوله أبوه، فوثب علىٰ أبيه فلطمه، فقال: ابني يلطمني؟! عَلَيَّ بالشَّفرة، قالوا: وما تصنع بالشَّفرة؟ قال: أذبحه. قالوا: تذبح ابنك؟! الطمه، أو اصنعْ ما بدا لك، قال: فأبىٰ، قال: فأرسلوا إلىٰ أخوالِهِ فأعلموهم[(٣)] ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خذ منَّا ما بدا لك. فأبىٰ إلا أن يذبحه، قالوا: فَلْتَمُوتن قبل أن تذبحه، قال: فإذا كان الحديث هكذا فإنِّي لا أرىٰ أن أقيم ببلدٍ يحال بيني وبين ولدي فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي، فلم يزل حتىٰ باع دُورَه وأراضيَه وعقاره، فلما صار الثمن في يده [وأحرزه][(٤)]، قال: أيْ قومِ، إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم دارًا جديدًا، وجملًا شديدًا، وسفرًا بعيدًا، فليلحق بـ«عمان». ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير -وكلمة، قال إبراهيم: لم أحفظها- فليلحق بـ«بُصْرَىٰ»، ومن أراد الراسخات في الوحل، المطعمات في المَحْل[(٥)]، المقيمات في [الضَّحْل][(٦)]، فليلحق بيثرب ذات نخلٍ، فأطاعه قومه؛ فخرج أهل عمان إلىٰ عمان، وخرجت غسان إلىٰ بصرىٰ، وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلىٰ يثرب ذات النخل، قال: فأتوا علىٰ بطن مَرٍّ[(٧)]، فقال بنو عثمان: هذا مكانٌ صالحٌ، لا نبغي به بدلًا، فأقاموا به، فسموا لذلك «خزاعة»؛ لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتىٰ نزلوا «المدينة»، وتوجه أهل «عمان» إلىٰ «عمان»، وتوجهت «غسان» إلىٰ «بصرىٰ».

---

(١) أي: فرقتهم طرقهم التي سلكوها، كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتىٰ، واليد في اللغة: الطريق، يقال: أخذ القوم يد بحر؛ أي: طريق بحر. و(تفرقوا شذر مذر)؛ أي: ذهبوا في كل وجه، ولا يقال ذلك في الإقبال.

(٢) لوحة (٣٠١/ أ). (٣) في (ز): (فأعلموه). (٤) سقط من (ز).

(٥) المَحْل: الجدب، والضحل: القليل من الماء، وقيل: هو الماء القريب المكان.

(٦) في (ز): (الفحل). (٧) بطن مر: من نواحي مكة.

هذا أثرٌ غريبٌ عجيبٌ، وهذا الكاهن هو: عمرو بن عامر أحد رؤساء «اليمن» وكبراء «سبأ»(١) وكهانهم.

وقد ذكر محمَّد بن إسحاق بن يسار في أول «السيرة» ما كان من أمر [عمرو بن](٢) عامر الذي كان أول من خرج مِن بلاد اليمن، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن -فيما حدَّثني أبو زيد الأنصاري-: أنَّه رأىٰ جُرَذًا(٣) يَحفِر في سد مأرب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم. فعلم أنه لا بقاء للسد علىٰ ذلك، فاعتزم علىٰ النَّقْلَةِ عن اليمن فكاد قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلدٍ لَطَم وجهي فيها أصغر ولدي، وعرض أمواله، فقال أشرافٌ من أشراف اليمن: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو، فاشتروا منه أمواله، وانتقل هو في ولده وولد ولده، وقالت الأزد(٤): لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم، وخرجوا [معه، فساروا](٥) حتىٰ نزلوا بلاد «عَكٍّ»(٦)، مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم «عك»، وكانت حربهم سِجَالًا(٧). ففي ذلك يقول عبَّاس بن مِرْداس السُّلَمي:

وَعَكُّ بْنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَغَلَّبُوا ... بِغَسَّانَ، حَتَّىٰ طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وهذا البيت من قصيدةٍ له.

قال: ثمَّ ارتحلوا عنهم فتفرَّقوا في البلاد، فنزل آل جَفْنَةَ بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مَرًّا. ونزلت أزد السُّراة [السراة](٨)، ونزلت أزد عمان عمان، ثم أرسل الله علىٰ السَّد السَّيل فهدمَه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات.

وقد ذكر السُّدِّي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمَّد بن إسحاق، إلا أنَّه قال: «فأمَرَ ابنَ أخِيهِ»، مكان «ابنه»، إلىٰ قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن(٩) حميد، أخبرنا [سلمة](١٠)، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر -وهو عم القوم- كان كاهنًا، فرأىٰ في كِهانته أنَّ قومه سَيُمَزَّقون ويباعَدُ بين أسفارهم، فقال لهم: إني قد علمت أنكم ستمزقون، فمَن كان منكم ذا هَمٍّ بعيدٍ وجملٍ شديدٍ، ومَزَادٍ جَديدٍ(١١) -فليلحق بكاس أو كرود، قال: فكانت وادعة بن عمرو، ومَنْ كان منكم ذا هَمٍّ مُدْنٍ، وأمرٍ دَعْنٍ، فليلحق بأرض شَنٍّ، فكانت عوف بن عمرو، وهم(١٢) الذين يقال لهم: بارق، ومَنْ كان منكم يريد عيشًا آنيًا(١٣)، وحرمًا آمنًا، فليلحق

---

(١) لوحة (٣٠١/ ب). (٢) سقط من (ز). (٣) الجُرَذ: الذكر من الفئران.
(٤) في (ز): (وقالت الأسد). (٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): (بلاد محل).
(٧) السِّجَال: أن يغلب هؤلاء مرةً، وهؤلاء مرةً. (٨) سقط من (ز).
(٩) في (ز): (أبو حميد)، وهو خطأ. (١٠) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.
(١١) المَزاد: واحدها مَزادة، وهو ما يحمل فيها الماء، وتسمىٰ: الراوية.
(١٢) لوحة (٣٠٢/ أ). (١٣) أي: حاضرًا.

بالأرزين، فكانت خزاعة، ومَنْ كان منكم يريد الرَّاسيات في الوحل، المطعمات في المَحْل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فكانت الأوس والخزرج، وهما هذان الحيَّان من الأنصار، ومَنْ كان منكم يريد خمرًا وخَميرًا، وذهبًا وحريرًا، وملكًا وتأميرًا، فليلحق بكُوثَىٰ وبُصرىٰ، فكانت غسَّانُ بنو جَفنة ملوكَ الشام، ومَنْ كان منهم بالعِرَاق، قال ابن إسحاق: وقد سمعتُ بعضَ أهلِ العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنةً، فرأت في كهانتها ذلك، فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غسان فلَحِقُوا بالشَّام، وأمَّا الأنصار فلَحِقُوا بيثرب، وأمَّا خزاعة فلَحِقُوا بِتِهامة، وأمَّا الأزد فلَحِقُوا بعُمَان، فمزَّقهم اللهُ كلَّ ممزَّقٍ. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني أبو عبيدة قال: قال الأعشىٰ -أعشىٰ بني قيس بن ثعلبة، واسمه: ميمون بن قيس-:

وَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَفَّىٰ[1] عَلَيْهَا العَرِمْ
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرٌ ... إِذَا جَاءَ مَوَّارُهُ لَمْ يَرِمْ[2]
فَأَرْوَىٰ الزُّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا ... عَلَىٰ سَعَةٍ مَاؤهُمْ إِذْ قُسِمْ
فَصَارُوا أَيَادِيَ مَا يَقْدِرُو ... نَ مِنْهُ عَلَىٰ شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إنَّ في هذا الَّذي حلَّ بهؤلاء -من النِّقمة والعذاب، وتبديلِ النِّعمة وتحويل العافية، عقوبةً علىٰ ما ارتكبوه من الكُفْر والآثام -لعبرةً وَدَلالةً لكل عبدٍ صبَّارٍ علَىٰ المصائب، شكورٍ علىٰ النِّعم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن وعبد الرزَّاق -المعني- قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العَيْزَار بن حُرَيث، عن عمر بن سعد، عن أبيه -هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه -قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ**[3]**، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ، يُؤْجَرُ المُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ فِي امْرَأَتِهِ**»[4].

وقد رواه النَّسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي إسحاق السَّبِيعي، به[5]. وهو حديثٌ عزيزٌ من رواية عمر بن سعد، عن أبيه. ولكن له شاهد في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة[6]: «**عَجَبًا**

---

(١) أي: طمسها وأذهب معالمها.
(٢) الرخام: الحجارة المعروفة، والموار: الشديد المَوْر، يقال: مار الشيء يمور مورًا، إذا جعل يذهب ويجيء ويتردد.
(٣) لوحة (٣٠٢/ ب).
(٤) إسناده حسن: رواه أحمد (١/ ١٧٣)، ورجاله ثقات عدا عمر بن سعد: صدوق، ولا يضر أن أبا إسحاق يرسل، فللحديث شاهدٌ، وهو الحديث الآتي.
(٥) رواه أحمد (١/ ١٧٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٩٠٦).
(٦) الحديث من أفراد مسلم (٢٩٩٩)، فالبخاري لم يخرجه، ثم هو من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

لِلْمُؤْمِنِ لا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ».

قال عَبْدٌ: حدَّثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، قال: كان مطرِّفٌ يقول: نِعْمَ العبد الصَّبَّار الشَّكور، الذي إذا أُعْطِي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ قصَّة سبأ وما كانَ مِن أمرهم في اتِّباعهم الهوىٰ والشَّيطانَ، أخبر عنهم وعَن أمثالهم ممَّن اتَّبع إبليس والهوىٰ، وخالف الرَّشاد والهُدَىٰ، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾.

قال ابن عبَّاسٍ وغيره: هذه الآية كقوله تعالىٰ إخبارًا عن إبليسَ حين امتنع من السُّجود لآدم، ثم قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ثم قال: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم من الجنَّة ومعه حوَّاء، هبط إبليس فَرِحًا بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت مِن الأبوين ما أصبت، فالذُّرِّيَّة أضعف وأضعف. وكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فقال عند ذلك إبليس: «لَا أُفارق ابنَ آدم ما دام فيه الرُّوح، أَعِدُهُ وأُمَنِّيه وأخدعه». فقال الله: «**وَعِزَّتِي لا أَحْجُبُ عَنْهُ التَّوْبَةَ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ بِالمَوْتِ، وَلا يَدْعُونِي إِلَّا أَجَبْتُهُ، وَلا يَسْأَلُنِي إِلَّا أَعْطَيْتُهُ**[1]**، وَلا يَسْتَغْفِرُنِي إِلَّا غَفَرْتُ لَهُ**». رواه ابن أبي حاتم[2].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، قال ابن عبَّاس: أي: مِن حُجَّةٍ.

وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصًا، ولا أكرههم علىٰ شيءٍ، وما كان إلا غرورًا وأمانيَّ دعاهم إليها فأجابوه.

وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: إنَّما سلَّطناه عليهم ليظهرَ أمر مَنْ هو مؤمنٌ بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شكٍّ.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضَلَّ من ضَلَّ من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم مَنْ سَلِم من المُؤْمِنِين أتباع الرُّسل.

---

(١) لوحة (٣٠٣/ أ).

(٢) عزاه للحسن البصري، ويحتاج لثبوته رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

بَيَّن تعالىٰ أنَّه الإله الواحد الأحدُ، الفرد الصَّمد، الَّذي لا نظير له ولا شَريكَ له، بل هو المستقلُّ بالأمر وحده، مِن غير مشاركٍ ولا منازعٍ ولا معارضٍ، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن الآلهة التي عبدت من دونه [﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ]^(١) مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون [شيئًا]^(٢) استقلالًا ولا علىٰ سبيل الشَّركة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد مِن ظهيرٍ يُسْتظَهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيدٌ لديه.

قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: من عونٍ يعينه بشيءٍ.

وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظمتِه وجلالِه وكبريائِه لا يجترئ أحدٌ أن يشفع عنده تعالىٰ في شيءٍ إلَّا بعد إذنه له في الشَّفاعة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ولهذا ثبت في «الصحيحين» من غير وجهٍ عن رسول الله ﷺ^(٣) -وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله-: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلِّهم أن يأتي ربَّهم لفصل القضاء، قال: «**فَأَسْجُدُ للهِ فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لا أُحْصِيهَا الآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**». الحديث بتمامه^(٤).

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾. وهذا أيضًا مقامٌ رفيعٌ في العظمة، وهو أنَّه تعالىٰ إذا تكلَّم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه، أُرْعدوا من الهيبة حتىٰ يلحقهم مثل الغَشْي. قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ^(٥) عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها. قال ابن عبَّاس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، والشعبي، وإبراهيم النَّخعيُّ، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٣٠٣/ ب).
(٤) البخاري (٤٤٧٦) و(٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣)، وابن ماجه (٤٣١٢).
(٥) في (ز): (فإذا فزع)، وهو خطأ.

قُلُوبِهِمۡ﴾ يقول: جُلِّيَ عن قلوبهم، وقرأ بعض السلف -وجاء مرفوعًا-: «حَتَّىٰ إِذَا فُرِّغ» بالغين المعجمة[١]، ويرجع إلىٰ الأول.

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضًا: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حَمَلَةُ العرش للذين يلونهم، ثم الذين يَلُونهم لمن تحتهم، حتىٰ ينتهي الخبر إلىٰ أهل السَّماء الدُّنيا؛ ولهذا قال: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: أخبروا بما قَالَ مِن غير زيادةٍ ولا نقصان، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

وقال آخرون: بل معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ يعني: المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدُّنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربُّكُم؟ فقيل لهم: الحق، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهِينَ في الدنيا.

قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾: كُشِفَ عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ يعني: ما فيها من الشَّكِّ والتَّكذيب، وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ يعني: ما فيها من الشَّكِّ، قال: فزع الشَّيطان عن قلوبهم وفارقهم[٢] وأمانيَّهُم وما كان يضلهم، ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت[٣]، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار.

وقد اختار ابن جرير القول الأوَّل: أن الضَّمير عائدٌ علىٰ الملائكة. هذا هو الحقُّ الَّذي لا مِرْيَةَ فيه؛ لصحَّة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفًا يدل علىٰ غيره:

قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في «صحيحه»: حدَّثنا الحميدي، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عمرو، سمعت عِكْرِمة، سمعت أبا هُرَيرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «**إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لِلَّذِي قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ** -ووصف سُفيان بيده- **فَحَرَّفَهَا**[٤] **وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**»[٥].

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من

---

(١) شاذة: قَرَأَ (فُرِّغَ) الْحَسَنُ، وَفِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَرَأَ (فَزَّعَ) ابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فُزِّعَ).

(٢) في (ز): (ومآربهم). (٣) لوحة (٣٠٤/ أ).

(٤) حرفها: أمالها، وبدد بين أصابعه: فرق بينها.

(٥) البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠)، وأبو داود (٣٩٨٩)، والترمذي (٣٢٢١)، وابن ماجه (١٩٤).

حديث سفيان بن عيينة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر(١) وعبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، أخبرنا الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عبَّاسٍ قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في نفرٍ من أصحابه - قال عبد الرزَّاق: «من الأنصار»- فَرُمِيَ بنجمٍ فاستنار، قال: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الجَاهِلِيَّةِ؟»، قالوا: كنَّا نقول: يُولَد عظيم، أو يموت عظيم -قلت للزُّهري: أكان يُرْمىٰ بها في الجاهليَّة؟ قال: نعم، ولكن غُلِّظت حين بُعِث النَّبيُّ ﷺ- قال: فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَىٰ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ العَرْشِ، [ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ هَذِهِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ العَرْشِ](٢)، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ العَرْشِ لِحَمَلَةِ العَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، وَيُخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً؛ حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ الخَبَرُ إِلَىٰ هَذِهِ السَّمَاءِ، وَتَخْطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فَيَرْمُونَ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ»(٣).

هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في «صحيحه»(٤)، من حديث صالح بن كَيْسَان، والأوزاعي، ويونس، ومَعْقِل بن عبيد الله، أربعتهم عن الزُّهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عبَّاسٍ، عن رجلٍ من الأنصار به. ورواه، وقال يونس عن رجال من الأنصار، وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزبيدي، عن الزهري به. ورواه الترمذي فيه عن الحُسَين بن حريث؛ عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاسٍ، عن رجلٍ من الأنصار ﵁، والله أعلم.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي(٥) - والسياق لمحمَّد بن عوف- قالا: حدَّثنا نُعَيم بن حماد، حدَّثنا الوليد -هو ابن مسلم- عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حَيْوَة، عن النوَّاس بن سَمْعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أو قال: رَعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ مِنْ خَوْفِ اللهِ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَمْضِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ،

---

(١) في (ز): (حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا معمر وعبد الرزاق)، والمثبت موافق لما في «المسند»، وفي نسخة للمسند: [ثنا محمَّد بن جعفر، ثنا معمر وعبد الرزاق قال: أنا معمر]، وهو موافقٌ لما أثبتناه كذلك من أن عبد الرزاق هو شيخ أحمد.

(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٣٠٤/ ب).

(٤) مسلم (٢٢٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٧٢).

(٥) في (ز): (الزيادي).

فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[١].

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزيمة، عن زكريا بن أبان المصري، عن نعيم بن حماد، به.

قال ابن أبي حاتم: سمعتُ أبي يقول: ليس هذا الحَدِيث بالشَّام عن الوليد بن مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم من حديث العَوفي، عن ابن عبَّاس، وعن قتادة: أنَّهما فسَّرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانَه إلىٰ محمَّدٍ ﷺ بعد الفترة التي كانت بَيْنَه وبين عيسىٰ، ولا شكَّ أن هذا أولىٰ ما دخل في هذه الآية.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ[٢] لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ[٣] ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مقرِّرًا تفرُّدَه بالخلق والرِّزق، وانفراده بالإلهيَّة أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنَّه لا يرزقهم من السَّماء والأرض -أي: بما ينزل من المَطَر وينبت من الزَّرع- إلا الله، فكذلك فليعلموا أنَّه لا إله غيره.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ هذا مِن باب اللَّفِّ والنَّشر؛ أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلىٰ أن تكونوا أنتم ونحن علىٰ الهدىٰ أو علىٰ الضَّلال، بل واحدٌ مِنَّا مُصِيبٌ، ونحن قد أقمنا البُرهان علىٰ التَّوحيد، فدلَّ علىٰ بطلان ما أنتم عليه من الشِّرك بالله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمَّدٍ ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم علىٰ أمرٍ واحدٍ، إن أحد الفريقين لمهتدٍ.

---

(١) رواه الطبري (٢٢/ ٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥)، و«التوحيد» لابن خزيمة (٩٥)، والآجُرِّي في «الشريعة» (١/ ٢٣٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٢)، والطبراني في «الشاميين» (٥٩١)، ومداره علىٰ نُعَيم بن حماد، وهو كثير الأوهام والمناكير، وأيضًا ففي الإسناد الوليد بن مسلم وهو مدلس، وتدليسه من شر أنواع التدليس، ولكن الحديث ثابتٌ صحيحٌ، فله شاهد من حديث ابن مسعود رواه البخاري (١٣/ ٤٥٢-٤٥٣) تعليقًا، ووصله أبو داود (٤٧٣٨)، والطبري (٢٢/ ٩٠)، وله شاهدٌ من حديث أبي هريرة تقدم. انظر التعليق قبل السابق.

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: «وإياكم» معطوف علىٰ محل اسم «إن» المنصوب، والجملة معطوفة علىٰ الاستفهام «قل من يرزقكم... الخ»، وهذا يقال له: أسلوب المنصف، وهو أن لا يذكر المجادل لمن يجادله ما يَغِيظه أو يثير حَفِيظته رجاء هدايته إلىٰ الحق.

(٣) لوحة (٣٠٥/ أ).

وقال عِكْرِمة وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلىٰ هدًىٰ، وإنَّكم لفي ضلالٍ مبينٍ.

وقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ معناه التَّبرِّي منهم؛ أي: لستم منَّا ولا نحن منكم، بَلْ ندعوكم إلىٰ الله وإلىٰ توحيدِهِ وإفراد العبادةِ له، فإن أجبتم فأَنْتُم منَّا ونحن منكم، وإن كذَّبتم فنحن بُرآءُ منكم وأنتم بُرآءُ منَّا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون:١-٦].

وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة، يجمع بَيْن الخلائق في صعيدٍ واحدٍ، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يحكم بيننَا بالعدل، فيجزي كلَّ عاملٍ بعمله، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. وستعلمونَ يومئذٍ لمن العِزَّة والنُّصْرَة والسَّعادة الأبديَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم [العادل][1] العالم بحقائقِ الأمور.

وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أروني هذه[2] الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا وصيَّرتموها له عِدْلًا. ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس له نظيرٌ ولا نديدٌ، ولا شريكٌ ولا عديلٌ، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾:أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة التي قد قهر بها كلَّ شيءٍ، وغَلَبت كل شيءٍ، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالىٰ وتقدَّس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالىٰ لعبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، أي: إلا إلىٰ جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تُبَشِّر مَنْ[3] أطاعك بالجنَّة، وتنذر مَنْ عصاك بالنَّار.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣٠٥/ ب). (٣) في (ز): (أي بشيرًا لمن).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦][(١)].

قال محمَّد بن كعب في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: إلىٰ الناس عامة.

وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمَّدًا ﷺ إلىٰ العرب والعجم، فأكرمُهم علىٰ الله أطْوعُهم لله ﷻ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبد الله الطِّهْراني، حدَّثنا حفص بن عمر العَدَني، حدَّثنا الحكم - يعني: ابن أبان- عن عِكْرِمة قال: سمعتُ ابنَ عبَّاسٍ يقول: إنَّ الله فضَّل محمَّدًا ﷺ علىٰ أهل السَّماء وعلىٰ الأنبياءِ. قالوا: يا ابن عبَّاس، فيمَ فضَّله الله علىٰ الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، وقال للنَّبيِّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله إلىٰ الجن والإنس[(٢)].

وهذا الذي قاله ابن عبَّاسٍ قد ثبت في «الصحيحين» رَفْعهُ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ[(٣)] لِيَ الغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»[(٤)].

وفي «الصحيح» أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ إِلَىٰ الأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ»[(٥)]. قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني: العرب والعجم. والكل صحيح.

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ الآية [الشورىٰ: ١٨].

---

(١) فالكثرة غالبًا مذمومة، والقلة غالبًا محمودة، وفي الحديث المرفوع: «يأتي النبيُّ ومعه الرجل والرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد!!». أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) حسن لغيره: رواه ابن أبي حاتم (١٣٢٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٩)، وفي إسناده حفص بن عمر العدني: ضعيف، وتابعه يزيد بن أبي حكيم: رواه الدارمي (٢٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٠) وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في «المعجم» (١١/ ٢٣٩/ ١١٦١٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٨- ٢٥٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غيرَ الحكم بن أبان وهو ثقة.

(٣) لوحة (٣٠٦/ أ).

(٤) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٠٩).

(٥) مسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله.

ثم قال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لكم ميعادٌ مؤجلٌ معدودٌ محرَّرٌ، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدَّم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤]، وقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٤، ١٠٥].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن تمادي الكفَّار في طغيانهم وعنادهم، وإصرارهم علىٰ عدم الإيمان بالقُرآن وما أخبر بِهِ مِن أمرِ المَعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
قال الله تعالىٰ متهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذَّليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجِّهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم قادتهم[1] وسادتهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدُّونا، لكنَّا اتَّبعنا الرُّسل وآمنَّا بما جاءُونا به. فقَال لهم القادة والسَّادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم[2] أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا مِن غير دليلٍ ولا برهانٍ، وخالفتم الأدلَّة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء؛ لشهوتِكُم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتَغرُّونا وتُمَنُّونا، وتخبرونا أنَّا علىٰ هدًىٰ وأنَّا علىٰ شيءٍ، فإذا جميع ذلك باطلٌ وكَذِبٌ ومَيْنٌ.

قال قتادة، وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكرهم باللَّيل والنَّهار. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكرهم باللَّيل والنَّهار.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: نظراءَ وآلهة معه، وتُقِيمُوا لنا شُبهًا وأشياءَ من المحال تضلُّونا بها، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السَّادة والأتباع، كُلٌّ نَدم علىٰ ما سَلَف منه.

---

(١) لوحة (٣٠٦ب).
(٢) في (ز): (بكم ذلك أكثر).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهي السَّلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما نجازيكم بأعْمالِكم، كُلٌّ بحسبه، للقادة عذابٌ بحسبهم؛ وللأتباع بحسبهم؛ ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا فَرْوَة بن أبي المَغْراء، حدَّثنا محمَّد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان -ضرار بن صُرَد- عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَبُهَا، ثُمَّ لَفَحَتْهُمْ[1] لَفْحَةً، فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَىٰ العُرْقُوبِ»[2].

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحَوَاري، حدَّثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيىٰ الخُشَني قال: ما في جهنَّم دار ولا مَغَار ولا غُلٌّ ولا سلسلة ولا قَيْد، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال: فحدثته أبا سليمان -يعني: الداراني رحمة الله عليه- فبكىٰ، ثم قال[3]: ويحك!! فكيف به لو جُمِع هذا كله عليه، فجُعِل القيد في رجليه، والغُلُّ في يديه، والسلسلة في عنقه، ثم أدخل النَّار، وأدخل المغار؟![4]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مسلّيًا لنبيِّه، وآمرًا له بالتَّأسِّي بمن قبله من الرُّسل، ومخبره بأنَّه ما بعث نبيًّا في قريةٍ إلا كذَّبه مترفوها، واتَّبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟

(١) في (ز): (ثم لحفتهم).
(٢) ضعيف: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨)، وفيه محمَّد بن سليمان: ضعيف.
(٣) لوحة (٣٠٧/ أ). (٤) في (ز): (ثم أدخل الدار وأدخل الغار).

فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال هاهنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ -أي: نبيٍّ أو رسولٍ- ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، وهم: أولو النِّعمة والحشمة والثَّروة والرِّياسة.

قال قتادة: هم جَبابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشَّرِّ. ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نؤمنُ به ولا نَتَّبِعه.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا هارون بن إسحاق، حدَّثنا محمَّد بن عبد الوهاب، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رَزِين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلىٰ الساحل وبقي الآخر، فلما بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ كتب إلىٰ صاحبه يسأله: ما فعل؟[1] فكتب إليه أنَّه لم يتبعه أحدٌ من قريش، إنَّما اتَّبعه أراذل النَّاس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتىٰ صاحبه فقال: دُلَّني عليه -قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب- قال: فأتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: إلامَ تدعو؟ قال: «إِلَىٰ كَذَا وَكَذَا». قال: أشهد أنَّك رسول الله. قال: «وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟»، قال: إنَّه لم يبعث نبيٌّ إلَّا اتَّبعه رُذَالة النَّاس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، قال: فأرسل إليه النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيقَ مَا قُلْتَ»[2].

وهكذا قال هِرَقْل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وَسَأَلْتُكَ: أضعفاء[3] النَّاس اتَّبعه أم أشرافهم؟ فزعمتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أَتْبَاعُ الرُّسل[4].

وقوله تعالىٰ إخبارًا عن المُتْرَفين المكذِّبين: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليلٌ علىٰ محبَّة الله لهم واعتنائه بهم، وأنَّه ما كان ليعطيهم هذا في الدُّنيا، ثم يعذبهم في الآخرة!! وهيهات لهم ذلك. قال الله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٧].

وقد أخبر الله عن صاحب تَيْنِكَ الجنتين: أنَّه كان ذا مالٍ وولدٍ وثَمَرٍ، ثم لم تُغنِ عنه شيئًا، بل سُلب ذلك كلَّه في الدُّنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يعطي المال لمن يُحب ومَنْ لا يُحب، فيفقر مَنْ يشاء ويغني مَنْ يشاء، وله الحكمة التَّامَّة البالغة،

---

(١) لوحة (٣٠٧/ ب).

(٢) مرسل: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٤) إلىٰ ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(٣) في (ز): (عن ضعفاء).

(٤) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

والحجّة الدّامغة القاطعة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليست هذه دليلًا على محبّتنا لكم، ولا[1] اعتنائنا بكم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا كَثير، حدَّثنا جعفر، حدَّثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رواه مسلم وابن ماجه[2]، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر بن بُرْقان[3]، به.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى: الإيمانُ والعمل الصالح، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: تضاعف [لهم الحسنة][4] بعشرة أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كلِّ بأسٍ وخوفٍ وأذًى، ومن كلِّ شرٍّ يُحْذَرُ منه.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا فَرْوَة بن أبي المَغْراء الكِنْدِي، حدَّثنا القاسم وعلي بن مُسْهِرٍ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَىٰ ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا». فقال أعرابيٌّ: لمن هي؟ قال: «لِمَنْ طَيَّبَ الكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، [وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[5]][6].

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: يسعون في الصَّدِّ عن سبيل الله واتِّباع الرُّسل، والتَّصديق بآياته، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: جميعهم مَجْزِيُّون بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط علىٰ هذا من المال كثيرًا، ويضيق علىٰ هذا ويُقَتِّرُ عليه رزقه جدًّا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، أي: كما هم متفاوتُون في الدُّنيا؛ هذا فقيرٌ مُدْقِعٌ، وهذا غنيٌّ مُوَسَّعٌ عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغُرفات في أعْلَىٰ الدَّرجات، وهذا في الغَمَرات في أسفل الدَّركات. وأطيب النَّاس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ

(١) لوحة (٣٠٨/ أ).
(٢) مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٥٣٩).
(٣) في (ز): (رمان)، وهو خطأ.
(٤) سقط من (ز).
(٥) صحيح لغيره: رواه الترمذي (٢٥٣٧)، وأحمد (١/ ١٥٦) من حديث علي رضي الله عنه، وفيه النعمان بن سعد: ضعيف، لكن للحديث شواهد، فقد رواه أحمد (٥/ ٣٤٣) من حديث أبي مالك الأشعري وإسناده لا بأس به، ورواه أحمد (٢/ ١٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو وإسناده حسن.
(٦) ليست في (ز).

بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم[(١)] من حديث ابن عَمْرو[(٢)].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيءٍ فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدُّنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثَّواب، كما ثبت في الحديث: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ**[(٣)]: **أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**»[(٤)]. وفي الحديث: أنَّ مَلَكَين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «**اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا**»[(٥)]. وقال رسول الله ﷺ: «**أَنْفِقْ بِلَالًا؛ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا**»[(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن يزيد بن عبد العزيز الطلَّاس[(٧)]، حدَّثنا هُشَيْمٌ، عن الكوثر[(٨)] بن حكيمٍ، عن مكحولٍ قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ بَعْدَكُمْ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ الْمُوسِرُ عَلَىٰ مَا فِي يَدِهِ حَذَارِ الإِنْفَاقِ**». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٩)].

وقال الحافظ أبو يَعْلَىٰ المَوْصِلي: حدَّثنا رَوْح بن حاتم، حدَّثنا هُشَيم، عن الكوثر[(١٠)] بن حكيم، عن مَكْحُول قال: بلغني عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ بَعْدَ زَمَانِكُمْ هَذَا زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ الْمُوسِرُ عَلَىٰ مَا فِي يَدَيْهِ حَذَارِ الإِنْفَاقِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وَيَنْهَلُ شِرَارُ الخَلْقِ يُبَايِعُونَ كُلَّ مُضْطَرٍّ، [أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمُضْطَرِّينَ حَرَامٌ]**[(١١)]، **أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمُضْطَرِّينَ حَرَامٌ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَعْرُوفٌ، فَعُدْ بِهِ عَلَىٰ أَخِيكَ، وَإِلَّا فَلَا تَزِدْهُ هَلَاكًا إِلَىٰ هَلَاكِهِ**»[(١٢)]. هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأوَّلَنَّ أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، إذا كان عند أحدكم ما يُقيمه فليقصد فيه، فإنَّ الرِّزق مقسومٌ.

---

(١) مسلم (١٠٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٨).
(٢) في (ز): (ابن عمر)، والتصويب من «مسلم».
(٣) لوحة (٣٠٨/ ب).
(٤) البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٩٩٢).
(٥) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة.
(٦) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ٣٤٢/ ١٠٢٥) وإسناده حسن، وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب».
(٧) في (ز): (الفلاس)، والمثبت هو الصواب.
(٨) في (ز): (المكوثر).
(٩) ضعيف جدًّا: فيه انقطاع بين مكحول وحذيفة، وفيه هشيم: كثير التدليس وقد عنعن، والكوثر بن حكيم: ضعيف، قال أحمد: أحاديثه بواطيل ليس بشيءٍ، وقال الدارقطني وغيره: متروك. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٤١٦).
(١٠) في (ز): (المكوثر).
(١١) سقط من (ز).
(١٢) ضعيف جدًّا: أورده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (١٤٢٢)، من طريق أبي يعلى، وقال: الكوثر: متروك، ومكحول عن حذيفة: منقطع.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه يقرِّع المشركين يوم القيامة علىٰ رءوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنَّهم يعبدون الأنداد التي هي علىٰ صور الملائكة ليُقرِّبُوهم إلىٰ الله زلفىٰ، فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؟[١] أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟! كما قال في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وكما يقول لعيسىٰ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليتَ وتقدَّستَ عن أن يكون معك إله. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعنون: الشياطين؛ [لأنَّهم هم][٢] الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويُضِلُّونَهم، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يَقعُ لكم نفعٌ ممَّن كنتم ترجون نفعه اليوم مِن الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشَدَائِدِكُم وكُرَبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًّا، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ -وهم المشركون- ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ[٣] مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الكفَّار أنَّهم يستحقُّون منه العقوبة والأليم من العذاب[٤]؛ لأنَّهم كانوا إذا تتلىٰ عليهم آياته بيِّناتٍ يسمعونها غَضَّةً[٥] طريَّةً مِن لسان رسوله ﷺ، ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن

(١) لوحة (٣٠٩/ أ). (٢) في (ز): (ثم).

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: قال القرطبي: قيل: «المعشار» هو عشر العَشِير، والعَشِير هو عشر العشر، فيكون جزءًا من ألف جزء، قال الماوَرْدي: وهو أظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، وما فسرت به الآية في التفسير أرجح وأوضح، وإن أريد به ما أتىٰ الله هذه الأمة من العلم والبيان فهذا المعنىٰ صحيحٌ، غير أنه لا يتلاءم مع سياق الآيات.

(٤) في (ز): (وأليم العذاب). (٥) في (ز): (محضة طرية).

﴿يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، يعنون: أن دين آبائهم هو الحق، وأنَّ ما جاءهم به الرَّسول -عندهم- باطلٌ، عليهم وعلىٰ آبائهم لعائن الله، ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون: القرآن، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: ما أنزل الله علىٰ العرب من كتابٍ قبل القرآن، وما أرسل(١) إليهم نبيًّا قبل محمَّدٍ ﷺ، وقد كانوا يَوَدُّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذيرٌ أو أنزل علينا كتابٌ، لَكُنَّا أهدىٰ مِن غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذَّبوه وعاندوه وجحدُوه. ثم قال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم، ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، قال ابن عبَّاس: أي من القوَّة في الدُّنيا. وكذلك قال قتادة، والسُّدِّي، وابن زيدٍ. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر:٨٢]؛ أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا ردَّه، بل دمَّر الله عليهم لما كذَّبوا رسله؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسُلِي؟!

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد لهؤلاء الكافرين الزَّاعمين أنَّك مجنونٌ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: إنَّما آمرُكم بواحدةٍ، وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قيامًا خالصًا لله، من غير هوًىٰ ولا عصبيةٍ، فيسأل بعضكم بعضًا: هل بمحمَّدٍ مِن جنونٍ؟ فينصح بعضكم بعضًا، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمَّدٍ ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

هذا معنىٰ ما ذكره مجاهد، ومحمَّد بن كعب، والسُّدِّي، وقتادة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية.

فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا صَدَقَة بن خالدٍ، حدَّثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ

---

(١) لوحة (٣٠٩/ ب).

كان يقول: «أُعْطِيتُ ثَلَاثًا لَمْ يُعْطَهُنَّ مَنْ قَبْلِي وَلَا فَخْرَ: أُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَلَمْ (١) تَحِلَّ لِمَنْ قَبْلِي، كَانُوا قَبْلِي يَجْمَعُونَ غَنَائِمَهُمْ فَيُحْرِقُونَهَا. وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَكَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، أَتَيَمَّمُ بِالصَّعِيدِ، وَأُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ، قَالَ اللهُ: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، وَأُعِنْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَيْنَ يَدَيَّ» (٢). -فهو حديثٌ ضعيفُ الإسنادِ، وتفسيرُ الآيةِ بالقيام في الصلاة في جماعةٍ وفرادىٰ بعيدٌ، ولعله مقحَمٌ في الحديث من بعض الرواة، فإن أصله ثابتٌ في الصِّحاح وغيرها، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ قال البخاري عندها:

حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا محمَّد بن خَازم، حدَّثنا الأعمش، عن عمرو بن مرَّة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاسٍ قال: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفا ذات يومٍ فقال: «يَا صَبَاحَاهُ». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ (٣) أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟»، قالوا: بلىٰ. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقال أبو لهب: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد] (٤).

وقد تقدَّم عند قوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا بشير بن المهاجر، حدَّثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادىٰ ثلاث مراتٍ، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ، فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَىٰ لَهُمْ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ أَبْصَرَ العَدُوَّ، فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ العَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ، فَأَهْوَىٰ بِثَوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ، أُوتِيتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، أُوتِيتُمْ -ثلاث مرات-» (٥).

وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ جَمِيعًا، إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي». تفرَّد به الإمام أحمد في «مسنده» (٦).

---

(١) لوحة (٣١٠/ أ).

(٢) ضعيف بهذا السياق: في إسناده علي بن زيد: ضعيف، وأصل الحديث صحيح من حديث جابر وغيره، دون ذكر الآية. انظر: «صحيح البخاري» (٣٢٥)، ومسلم (٥٢١).

(٣) في (ز): (إن أخبرتكم)، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٤) البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣).

(٥) صحيح لغيره: رواه أحمد (٥/ ٣٤٨)، وفيه بشير بن المهاجر: صدوق لين الحديث، وللحديث شاهد من حديث قَبيصة بن المخارق، رواه مسلم (٢٠١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٨١٥) و(١٠٨١٦).

(٦) رواه أحمد (٥/ ٣٤٨)، لكن الحديث ثابت في «الصحيحين»، فقد رواه البخاري (٢٩٥١، ٦٥٠٤) من حديث أنس، ورواه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهيل، ورواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ (١)

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جُعلًا ولا عَطاءً علىٰ أداءِ رسالة الله إليكم ونصحي إيَّاكم وأمركم بعبادة الله، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنَّما أطلب ثواب ذلك من عند الله، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالمٌ بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إيَّاي إليكم، وما أنتم عليه.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. أي: يرسل المَلَكَ إلىٰ (٢) مَنْ يشاءُ مِن عباده مِن أهل الأرض، وهو علَّام الغيوب، فلا تخفىٰ عليه خافيةٌ في السَّموات ولا في الأرض.

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: جاء الحَقُّ مِن الله والشَّرع العظيم، وذهبَ الباطل وزَهَقَ واضْمَحَلَّ، كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجدَ الحرامَ يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبةً حول الكعبة، جعل يَطعنُ الصَّنم بسِيَةِ قَوْسِه (٣)، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾. رواه البخاري ومسلم والترمذي، والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث الثوري، عن ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَرٍ عبد الله بن سَخبَرَةَ، عن ابن مسعود (٤) به.

أي: لم يبقَ للباطل مقالةٌ ولا رياسةٌ ولا كلمةٌ. وزعم قتادة والسُّدِّي: أنَّ المراد بالباطل هاهنا: إبليس؛ أي: إنَّه لا يخلق أحدًا ولا يعيده، ولا يقدر علىٰ ذلك وهذا وإن كان حقًّا ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله الله ﷻ من الوحي والحق المبين، فيه الهدىٰ والبَيان والرَّشاد، ومَنْ ضلَّ فإنَّما يضلُّ مِن تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ لما سُئِلَ عن تلك المسألة في المُفَوَّضة (٥): أقول فيها

---

(١) لوحة (٣١٠/ ب). (٢) في (ز): (علىٰ من يشاء).

(٣) سِيَة القوس: ما عطف من طرفها، ولها سِيَتان.

(٤) البخاري (٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١)، والترمذي (٣١٨٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٩٧).

(٥) المفوَّضة: هي التي زوجها وليها من غير تسمية مهر، ثم مات زوجها، فأجاب ابن مسعود ﷺ بقوله: فإني أقضي لها مثل صدقة امرأة من نسائها.. ولها الميراث وعليها العدة. ثم ذكر الحديث أعلاه، وانظر تخريجه.

برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطًا فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله[(١)] بريئان منه[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميعٌ لأقوال عباده، قريبٌ مجيبٌ دعوة الداعي إذا دعاه. وقد روىٰ النَّسائي هاهنا حديث أبي موسىٰ الذي في «الصحيحين»: [أن رسول الله ﷺ قال][(٣)]: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا»[(٤)].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولو ترىٰ -يا محمَّد- إذ فزِع هؤلاء المكذِّبون يوم القيامة، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا مفرَّ لهم، ولا وَزَرَ ولا ملجأ، ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يُمكَّنوا أن يُمعِنُوا[(٥)] في الهرب، بل أُخِذُوا من أوَّل وهلةٍ.

قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد، وعطية العَوْفي، وقتادة: من تحت أقدامهم. وعن ابن عبَّاسٍ والضَّحَّاك: يعني: عذابهم في الدُّنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر. والصَّحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامَّة العظمىٰ، وإن كان ما ذكر متصلًا بذلك.

وحكىٰ ابن جريرٍ عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش خُسِفَ بهم بين «مكة» و«المدينة» في أيام بني العبَّاس، ثم أورد في ذلك حديثًا موضوعًا بالكلِّيَّة، ثم لم ينبه علىٰ ذلك، وهذا أمرٌ عجيبٌ غريبٌ. ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنَّا بالله وبكتبه ورسله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف لهم[(٦)] تعاطِي الإيمان وقد بَعُدُوا عن محل قبولِهِ منهم وصاروا إلىٰ الدَّار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلىٰ الدَّار الآخرة لا سبيل لهم إلىٰ قبول الإيمان، كما لا سبيل إلىٰ حصول الشيء لمن يتناوله من بعيدٍ.

---

(١) لوحة (٣١١/ أ).
(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١/ ٤٧٧).
(٣) ليست في (ز).
(٤) النسائي في «السنن الكبرىٰ»، كتاب التفسير (١١٤٢٧)، والحديث كما ذكر المصنف عند البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وكذلك عند أحمد (٤/ ٤٠٢).
(٥) في (ز): (يمنعوا).
(٦) في (ز): (كيف لهم عن تعاطي).

قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ قال: التناول لذلك.

وقال الزهري: التَّناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا.

وقال الحسن[1] البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا يُنَال، تعاطَوُا الإيمان من مكان بعيدٍ.

وقال ابن عبَّاسٍ: طلبوا الرَّجعة إلىٰ الدُّنيا والتَّوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة، وكذا قال محمَّد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾، أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحقِّ في الدُّنيا وكذَّبوا بالرُّسل؟!

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالىٰ: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارةً يقولون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: كاهنٌ، وتارة يقولون: ساحرٌ، وتارة يقولون: مجنونٌ، إلىٰ غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنُّشور والمَعاد، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

قال قتادة: يرجمون بالظَّنِّ، لا بعث ولا جنَّة ولا نار.

وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، قال الحسن البصري والضَّحَّاك وغيرهما: يعني الإيمان

وقال السُّدِّي: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، وهي: التوبة. وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال مجاهد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مالٍ وزهرةٍ وأهلٍ، وروي ذلك عن ابن عبَّاسٍ، وابن عمر، والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعةٍ، **والصحيح**: أنه لا مُنافاة بين القولين؛ فإنَّه قد حِيلَ بينهم وبين شهواتهم في الدُّنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمُنِعوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتمٍ هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا جدًّا، فلنذكره بطوله؛ فإنه قال:

حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ، حدَّثنا بشر بن حجر السامي، حدَّثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَّرقيِّ بن قُطَامي، عن سعد بن طريف، عن عِكرِمة، عن ابن عبَّاسٍ في قول الله ﷻ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ إلىٰ آخر الآية، قال: كان رجلٌ من بني إسرائيل فاتحًا -أي: فتح[2] الله له مالًا- فمات، فورثه ابنٌ له تافهٌ -أي: فاسدٌ- فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله، فلما رأىٰ ذلك إخوان

(١) لوحة (٣١١/ ب). (٢) في (ز): (إن فتح).

أبيه أتوا الفتىٰ فعذَلُوه ولاموه، فضجِرَ الفتىٰ فباع عقاره بصامتٍ[١]، ثم رحل فأتىٰ عينًا ثجَّاجَة[٢] فسرَح فيها ماله، وابْتَنَىٰ قصرًا، فبينما هو ذات يومٍ جالسٌ[٣] إذ شمَلت عليه [ريح][٤] بامرأةٍ من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا -أي: ريحًا- فقالت: مَن أنتَ يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل، قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجةٍ؟ قال: لا، قالت: فكيف يَهْنيك[٥] العيش ولا زوجة لك؟ قال: قد كان ذلك، فهل لَكِ من بَعلٍ؟ قالت: لا، قال: فهل لكِ إلىٰ أن أتزوجك؟ قالت: إنِّي امرأةٌ منكَ علىٰ مسيرة ميل، فإذا كان غد فتزوَّد زاد يومٍ وأتني، وإن رأيتَ في طريقك [هولًا][٦] فلا يَهُولنَّكَ، فلما كان من الغد تزوَّد زادَ يومٍ، وانطلق فانتهىٰ إلىٰ قصر، فقرع رِتاجَه[٧]، فخَرَجَ إليه شابٌّ من أحسن النَّاس وجهًا وأطيبهم أرَجًا -أي: ريحًا- فقال: من أنتَ يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي، قال: فما حاجتك؟ قال: دَعَتْنِي صاحبة هذا القصر إلىٰ نفسها، قال: صدقت، قال: فهل رأيتَ في طريقك هولًا؟ قال: نَعَمْ، ولولا أنَّها أخبرتني أن لا بأس عليَّ، لهَالَنِي الَّذِي رأيتُ؛ أقبلتُ حتىٰ إذا انفرج بي السَّبِيل، إذا أنا بكلبةٍ فاتحةٍ فاها، ففزعتُ، فَوَثَبْتُ فإذا أنا مِن ورائها، وإذا جِرَاؤُها[٨] ينبحن في بطنها، فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزَّمان، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويَبْتَزُّهم حديثهم.

قال: ثم أقبلتُ حتىٰ [إذا][٩] انفرج بي السَّبِيل، إذا أنا بمائةِ عَنْزٍ حُفَّلٍ[١٠]، وإذا فيها جَدْيٌ يمصُّها، فإذا أتىٰ عليها وظنَّ أنه لم يترك شيئًا، فتح فاه يلتمس الزِّيادة، فقال: لستَ تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزَّمان، مَلِكٌ يجمع صامت الناس كلِّهم، حتىٰ إذا ظنَّ أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزِّيادة.

قال: ثم أقبلت حتىٰ إذا انفرج بي السَّبيل إذا [أنا][١١] بشجرٍ، فأعجبني غُصْنٌ من شجرةٍ منها ناضر، فأردتُ قطعه، فنادتني شجرةٌ أخرىٰ: «يَا عبدَ الله، مِنِّي فَخُذْ». حتىٰ ناداني الشجر أجمع: «يا عبد الله، مِنَّا فَخُذْ». قال: لستَ تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزَّمان، يَقِلُّ الرجال ويكثر النساء، حتىٰ إن الرجل لَيَخطبُ المرأة فتدعوه العشرُ والعشرون إلىٰ أنفسهنَّ.

---

(١) الصَّامت: الذهب والفضة، خلاف الناطق، وهو الحيوان.

(٢) أي: يسيل عنها الماء سيلًا.

(٣) لوحة (٣١٢/ أ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) أي: كيف تهنأ به؟

(٦) سقط من (ز).

(٧) الرِّتاج: الباب العظيم.

(٨) الجِراء: جمع جِرْو، وهو ولد الكلب.

(٩) سقط من (ز).

(١٠) أي: كثيرة اللبن، جمع حافل.

(١١) سقط من (ز).

قال: ثم أقبلت حتىٰ إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجلٍ قائمٍ علىٰ عينٍ، يغرف لكل إنسانٍ من الماء، فإذا تَصَدَّعوا[١] عنه صَبَّ في جَرَّته، فلم تَعلَق[٢] جَرته من الماء بشيءٍ. قال: لستَ تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاصُّ يُعَلِّم النَّاسَ العِلْمَ ثم يخالفهم إلىٰ معاصي الله.

قال: ثم أقبلتُ حتىٰ إذا انفرج بيَ السَّبيل إذا أنا بعَنْزٍ وإذا بقومٍ قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجلٌ قد أخذ بقرنيها، وإذا رجلٌ قد أخذ بذَنَبها، وإذا رجلٌ قد ركبها، وإذا رجلٌ يحلبها، فقال: أما العنز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه، وأما الذي ركبها فقد تركها، وأما الذي يحلبها فَبَخٍ بخٍ[٣]، ذهبَ ذلك بها!!.

قال: ثم أقبلتُ حتىٰ إذا انفرج بي السبيل، وإذا أنا برجل يمْتَحُ[٤] علىٰ قَليبٍ، كلما أخرج دَلْوَهُ صبَّه في الحوض، فانساب الماء راجعًا إلىٰ القليب. قال: هذا رجلٌ رَدَّ الله عليه صالح عمله، فلم يقبله.

قال: ثم أقبلتُ حتىٰ إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجلٍ يبذُر بذرًا فيستحصد[٥]، فإذا حِنْطَةٌ طيبةٌ. قال: هذا رجلٌ قبل الله صالحَ عمله، وأزكاه له.

قال: ثم أقبلتُ حتَّىٰ إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجلٍ مستلقٍ علىٰ قفاه، قال: يا عبد الله، ادْنُ مِنِّي فخُذْ بيدي وأَقعِدْني، فوالله ما قعدتُ منذ خلقني الله ﷻ، فأخذت بيده، فقام يسعىٰ حتىٰ ما أراه، فقال له الفتىٰ: هذا عُمْر الأبعد نَفِد، أنا مَلَكُ الموتِ، [وأنا المرأة التي أتتك][٦]، أمرني الله بقبض روح الأبعد في هذا المكان، ثم أُصَيِّره إلىٰ نار جهنم، قال: ففيه نزلت هذه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ الآية[٧].

هذا أثرٌ غريبٌ، وفي صحَّته نظرٌ، وتنزيل هذه الآية عليه وفي حقِّه بمعنىٰ أنَّ الكفَّار كلَّهم يُتَوَفَّون وأرواحهم متعلِّقةٌ بالحياة الدنيا، كما جرىٰ لهذا المغرور المفتون، ذهبَ يطلب مراده فجاءه الموتُ فجأةً بغتةً، وحيل بينه وبين ما يشتهي.

وقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما جرىٰ للأمم الماضية المكذِّبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أنْ لَوْ آمَنُوا فلم يقبل منهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ

---

(١) أي: ذهبوا وتفرقوا. (٢) لوحة (٣١٢/ ب).

(٣) بخٍ بخٍ: كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء.

(٤) يمتح: يستقي، والقَلِيب: البئر. (٥) أي: يحين حصاده.

(٦) سقط من (ز). (٧) ضعيف جدًّا: في إسناده سعد بن طريف: متروك.

مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى[1] شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدُّنيا في شكٍّ وريبةٍ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينةِ العذاب.

قال قتادة: إيَّاكم والشَّكَّ والرِّيبةَ؛ فإن من مات على شكٍّ بُعِثَ عليه، ومَن مات على يقينٍ بُعِثَ عليه.

آخر تفسير سورة «سبأ»، ولله الحمد والمنة.

---

(١) لوحة (٣١٣/ أ).

سُورَةُ فَاطِرٍ

تفسير سورة فاطر، وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قال سفيان الثَّوري، عن إبراهيم بن مُهَاجر، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: كنت لا أدري ما فاطر السَّموات والأرض، حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئرٍ، فقال أحدهما [لصاحبِهِ][1]: أنا فَطَرْتُها، أنا بَدَأْتُها. وقال ابن عبَّاس أيضًا: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بديع السموات والأرض[2].

وقال الضَّحَّاك: كلُّ شيءٍ في القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض.

وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه[3]، ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا، ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: منهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة، ومنهم مَنْ له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأىٰ جبريل ليلة الإسراء وله ستُّمِائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[4]. ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال السُّدِّي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء.

وقال الزهري، وابن جُرَيْج في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: حُسْنَ الصوت. رواه عن الزهري[5] البخاريُّ في «الأدب»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

وقُرِئ في الشَّاذِّ: «يَزِيدُ في الحلق»، بالحاء المهملة، والله أعلم.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٨٢)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٣٤٥)، ورجاله ثقات عدا إبراهيم بن مهاجر البَجَلي فإنه صدوق لين الحديث. انظر «تقريب التهذيب» (٢٥٤)، و«تهذيب الكمال» (٢/ ١١١).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾؛ أي: جمع رسول، والأصح أنه يطلق علىٰ الأنبياء وغيرهم، فيُقال رسل علىٰ الأنبياء وعلىٰ غيرهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام]، أي أرسل الله رسلًا إلىٰ هذا المُحْتَضَر؛ ليقبضوا روحه، فتخصيص الآية بالأنبياء يعتبر قصورًا في التفسير.

(٤) البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤).

(٥) في (ز): (السُّدِّي)، وهو خطأ.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع. قال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن عاصم، حدَّثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن ورَّاد [١] -مولىٰ المغيرة بن شعبة- قال: كتب معاوية إلىٰ المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعتَ من [٢] رسول الله ﷺ. فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، وسمعته ينهىٰ عن قيلَ وقالَ، وكثرةِ السؤال، وإضاعةِ المال، وعن وَأْدِ البنات، وعقوق الأمهات، ومَنْعٍ وهَات.

وأخرجاه [٣] من طرق عن ورَّاد به.

وثبت في «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري ﵁، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ. اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [٤].

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. ولهذا نظائرُ كثيرةٌ.

وقال الإمام مالك: كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول: مُطِرنا بنَوْء الفتح [٥]، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ورواه ابن أبي حاتم عن يونس، عن ابن وهب، عنه [٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)﴾

يُنَبِّه تعالىٰ عبادَه ويرشدهم إلىٰ الاستدلال علىٰ توحيده في إفراد العبادة له، كما أنَّه المستقلُّ

---

(١) في (ز): (وارد). (٢) لوحة (٣١٣/ ب).

(٣) البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، وأحمد (٤/ ٢٥٤). (٤) مسلم (٤٧٧).

(٥) النَّوْء: واحد أنواء القَمَر، وهي منازله. قال الشيخ العثيمين ﵀ نسبة المطر إلىٰ النوء تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:
١ - نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر. ٢ - نسبة سبب، وهذه شرك أصغر. ٣ - نسبة وقت، وهذه جائزة؛ بأن يريد بقوله: مُطِرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء؛ أي: وقته؛ ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز: مطرنا في نوء كذا. «فتاوىٰ العثيمين»: (١٠/ ٦١٠-القول المفيد).

(٦) رواه مالك في «الموطأ» (١/ ١٩٢) مرسلًا، وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٧٩٢٦).

بالخلق والرِّزق فكذلك فَلْيُفْرَدْ بالعبادة، ولا يُشْرَكْ بِهِ غيره مِن الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيف تُؤْفَكُون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنْتُم بعد هذا تعبُدُونَ الأنداد والأوثان؟!

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ(١) عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

يقول: وإن يكذبوك -يا محمَّد- هؤلاء المشركون بالله ويُخَالِفُوك فيما جئتهم به من التَّوحيد، فلَكَ فيمَن سلف قبلك من الرُّسل أسوةٌ، فإنَّهم كذلك جاءوا قومَهُم بالبيِّنات وأمروهم بالتَّوحيد فكذَّبوهم وخالفوهم، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: وسَنَجْزِيهم على ذلك أوفَرَ الجزاءِ.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: المَعاد كائنٌ لا محالة، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدَّنيئة بالنِّسبة إلى ما أعد الله لأوليائِهِ وأتباع رسلِهِ مِن الخير العظيم فلا تَتَلَهَّوا(٢) عن ذلك الباقي بهذه الزَّهرة الفانية، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشَّيطان. قاله ابن عبَّاس. أي: لا يَفْتِنَنَّكم الشيطان ويصرفنَّكم عن اتِّباع رسلِ الله وتصديق كلماتِهِ؛ فإنَّه غرَّار كذَّاب أفَّاك. وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشَّيطان؛ كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حِينَ يُضْرَب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

ثم بيَّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادُوهُ أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذِّبوه فيما يغركم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: إنَّما يقصد أن يُضِلَّكم حتى تدخُلُوا معه إلى عذابِ السَّعير، فهذا هو العدوُّ المبين؛ فنسْأَل الله القويَّ العزيز أن يجعلنا أعداء الشَّيطان، وأن يرزقنا اتِّباع كتابه، والاقتفاء بطريقِ رسوله، إنَّه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾(٣) [الكهف: ٥٠].

[وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العِتاب؛ كأنَّه يقول: إنَّما عاديتُ إبليس

---

(١) لوحة (٣١٤/ أ).   (٢) في (ز): (فلا تلتهوا).   (٣) لوحة (٣١٤/ ب).

مِن أجلِ أبيكم ومِن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن تُوالُوه؟! بل اللَّائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه][١].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

لما ذكر الله تعالىٰ أن أتباع إبليس مصيرهم إلىٰ عذاب السَّعير، ذكر بعد ذلك أنَّ الَّذِين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ؛ لأنَّهم أطاعوا الشَّيطان وعصَوُا الرَّحمن، وأنَّ الَّذِين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ علىٰ ما عملوه من خير.

ثم قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفَّار والفجَّار، يعملون أعمالًا سيِّئة، وهم في ذلك يَعْتَقِدُون ويحسبون أنَّهم يُحْسِنُون صُنعًا؛ أي: أفمَن كان هكذا قد أضلَّه الله، أَلَكَ فيه حيلةٌ؟ لا حيلةَ لك فيه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: بقَدَرِه كان ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: لا تأسف علىٰ ذلك فإنَّ الله حكيمٌ في قَدَرِه، إنَّما يُضِلُّ مَن يضلُّ ويَهْدِي مَن يهدِي؛ لما له في ذلك من الحجَّة البالغة، والعلم التَّام؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن عوف الحِمْصي، حدَّثنا محمَّد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيىٰ بن [أبي][٢] عمرو السَّيباني[٣]، -أو: ربيعة- عن عبد الله بن الدَّيْلَمِي قال: أتيت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطَّائف يقال له: الوَهْطُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدِ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ مِنْهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَىٰ مَا عَلِمَ اللهُ ﷻ»[٤].

ثم قال: حدَّثنا يحيىٰ بن عبدك القَزْوِيني، حدَّثنا حسان بن حسان البصري، حدَّثنا إبراهيم بن بشر حدَّثنا يحيىٰ بن مَعْن[٥]، حدَّثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بن شُرَحْبِيل، عن زيد بن أبي أوفىٰ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي يَهْدِي مِنَ الضَّلَالَةِ، وَيَلْبِسُ الضَّلَالَةَ عَلَىٰ مَنْ أَحَبَّ»[٦]. وهذا أيضًا حديث غريب جدًّا.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٣) في (ز): (الشيباني)، وهو خطأ.

(٤) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٧٩٣٢)، وأحمد (٢/ ١٧٦)، وإسناده صحيح؛ ورواه الترمذي (٢٦٤٤) بنحوه وحسنه.

(٥) كذا في (ز)، وهو الصواب، وحرفها البعض: (معين)، وهو خطأ.

(٦) في إسناده إبراهيم بن بشر: مجهول، ويحيىٰ بن معن كذلك مجهول، ورواه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٢٢٠) وفيه رجل من قريش لم يسمه. فالإسناد ضعيف علىٰ كل وجه.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن (١) كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (٢) إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

كثيرًا ما يستدل تعالىٰ علىٰ المَعاد بإحيائه الأرض بعد موتها -كما في [أوّل](٣) «سورة الحج»- يُنبِّه عباده أن يعتبروا بهذا علىٰ ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السَّحاب تحمَّلَ الماء وأنزله عليها، ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد(٤)، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطرًا يعمُّ الأرض جميعًا، فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض؛ ولهذا جاء في «الصحيح»: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَىٰ إِلَّا عَجْبَ(٥) الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ(٦) يُرَكَّبُ»(٧)؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾.

وتقدَّم في «الحج» حديث أبي رَزِين: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتىٰ؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «يَا أَبَا رَزِينٍ، أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ مُمْحِلًا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟»، قلت: بلىٰ؛ قال: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَىٰ»(٨).

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: مَنْ كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة، فليلزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدُّنيا والآخرة، وله العزة جميعها، [كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].](٩).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١٠) [المنافقون: ٨].

قال مجاهد: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(١١).

---

(١) لوحة (٣١٥/ أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: أحسن احتمال في هذه الآية أن المراد (من عمره)؛ أي: من معمر، وأن الإنسان قد يزاد في عمره لسبب من الأسباب، وقد ينقص من عمره لسبب آخر.

(٣) ليست في (ز).

(٤) في (ز): (الأجسام).

(٥) في (ز): (عجم)، والصواب هو المثبت.

(٦) في (ز): (وفيه يركب).

(٧) البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٨) حسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: رواه أحمد (٤/ ١١)، وأبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجة (١٨٠).

(٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(١٠) في (ز): (لا يفقهون)، وهو خطأ.

(١١) في (ز): (فإن العزة لله جميعًا)، وهو موضع آخر.

وقال قتادة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[١] أي: فليتعزَّزْ بطاعة الله ﷻ.

وقيل: مَنْ كان يريد عِلْم العزَّة، لمن هي؟ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٢]، حكاه ابن جرير.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٣] يعني: الذِّكر والتِّلاوة والدُّعاء. قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن إسماعيل الأَحْمَسِيّ، أخبرني جعفر بن عَوْن، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي[٤]، عن عبد الله بن المخارِق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله -هو ابن مسعود-: إذا حدَّثناكم حديثًا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله: إن العبد المسلم إذا قال: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، تَبَارَكَ اللهُ»، أخذهنَّ ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صَعِد بهنَّ إلىٰ السَّماء، فلا يمُرُّ بهنَّ علىٰ جمْع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتىٰ يجيء بهنَّ وجه الرَّحمن ﷻ، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٥].

وحدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا سعيد[٦] الجُرَيْرِي، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قال كعب الأحبار: إن لـ«سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ» لدَوِيًّا حول العَرْش كدَوِيِّ النَّحل، يُذَكِّرْنَ بصاحبهنَّ، والعمل الصَّالح في الخزائن.

وهذا إسناد صحيح إلىٰ كعب الأحبار رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد رُوِيَ مرفوعًا.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن نُمَيْر، حدَّثنا موسىٰ -يعني: ابن مسلم الطحان-، عن عون بن عبد الله، عن أبيه -أو: عن أخيه- عن النُّعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ جَلَالِ اللهِ، مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ، يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ العَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، [يُذَكِّرْنَ][٧] بِصَاحِبِهِنَّ، أَلَا يُحِبُّ[٨] أَحَدُكُمْ أَلَّا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ؟»[٩].

وهكذا رواه ابن ماجة، عن أبي بشر بكر بن خلف، عن يحيىٰ بن سعيد القطان، عن موسىٰ بن أبي [عيسىٰ][١٠] الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه -أو: عن أخيه- عن النعمان بن بشير، به.

وقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: الكلم الطيب: ذكر الله،

---

(١) في (ز): (فإن العزة لله جميعًا)، وهو موضع آخر. (٢) في (ز): (فإن العزة لله جميعًا)، وهو موضع آخر.

(٣) هذه الآية وغيرها من أدلة علو الله تعالىٰ، وأنه في السماء، وقد تقدم ذكر شيء من ذلك في الكلام علىٰ آية الاستواء من «سورة الأعراف»، وفي «سورة النمل».

(٤) لوحة (٣١٥/ ب).

(٥) رواه الطبري (٢٢/ ١٢٠)، والحاكم (٢/ ٤٢٥) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٤)، ورجاله ثقات عدا عبد الله بن المخارق، أورده ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقال ابن معين: مستور.

(٦) في (ز): (سعيد بن الجريري)، والصواب ما أثبتناه.

(٧) في (ز): (يذكرون) وكذا في نسخ خطية للمسند، والمثبت موافق لما في «المسند» ط: الرسالة، وهو الأصح.

(٨) في (ز): (يحبن)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٩) صحيح: أحمد (٤/ ٢٦٨)، وابن ماجة (٣٨٠٩)، والحاكم (١/ ٥٠٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

(١٠) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

يصعد به إلىٰ الله ﷻ، [والعمل الصالح: أداء فرائضِهِ][(١)]. ومَن ذكرَ الله ولم يؤدِّ فرائضه، رُدَّ كلامُهُ علىٰ عمله، فكان أولىٰ به.

وكذا قال مجاهد: العمل الصَّالح يرفع الكلَام الطَّيِّب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم النَّخعِيُّ، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وشَهْر بن حَوْشَب، وغير واحد من السلف.

وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل [الصَّالح][(٢)] لم يرفع الكلام.

وقال الحسن، وقتادة: لا يقبل قولٌ إلا بعمل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، قال مجاهد، وسعيد بن[(٣)] جُبَيْر، وشَهْر بن حَوْشَب: هم المراءون بأعمالهم؛ يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنَّهم في طاعة الله، وهم بُغَضَاء إلىٰ الله ﷻ يراءون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون. والصَّحيح: أنَّها عامَّة، والمشركون داخلون بطَرِيقِ الأولىٰ، ولهذا قال: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يفسد ويبطل ويظهر زَيْفُهُم عَن قريبٍ لأُولِي البَصَائِر والنُّهَىٰ، فإنَّه ما أسرَّ عبدٌ سريرةً إلا أبداهَا الله علىٰ صفحات وجهِهِ وفلتات لسانِهِ. وما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا كساه الله رداءَهَا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر[(٤)]. فالمُرَائِي لا يَرُوج أمره ويستمر إلا علىٰ غبيٍّ، أمَّا المؤمنون المتفرِّسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَف لهم عن قريب، وعالمُ الغيب لا تخفىٰ عليه خافية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: ابتدأ خَلق أبيكم آدم مِن تراب، ثم جعل نسله مِن سلالةٍ مِن ماءٍ مهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: ذكرًا وأنثىٰ، لطفًا منه ورحمةً أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم؛ لتسكنوا إليها.

وقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: هو عالم بذلِك، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء، بل: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد تقدَّم الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ -إلىٰ قوله-: ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩].

وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: ما يعطىٰ بعض النُّطَف من العمر الطَّويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائد علىٰ الجنس، لا عَلَىٰ العين؛ لأنَّ العين الطويل العمر في الكِتَاب وفي علم الله لا ينقص مِن عُمُرِه، وإنَّما عاد الضَّمير علىٰ الجنس.

قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه»، أي: ونصف آخر.

وروي من طريق العَوْفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٣١٦/ أ).

(٤) هذا لفظ حديث رواه الطبراني، وقال عنه الألباني: «ضعيف جدًّا». «الضعيفة» (٢٣٧).

كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمُرٍ وحياةٍ إلا وهو بالغ ما قدرت له من العُمُر وقد قضيت ذلك له، فإنَّما ينتهي إلىٰ الكتاب[1] الذي قدَّرت لا يزاد عليه، وليس أحد قَضَيْتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلىٰ الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: كل ذلك في كتاب عنده[2].

وهكذا قال الضَّحَّاك بن مزاحم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ قال: ما لَفظت الأرحامُ مِن الأولاد من غير تمام.

وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترىٰ الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد! فهذا هذا.

وقال قتادة: والذي ينقص من عمره: فالذي يموت قبل ستين سنة.

وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: في بطن أُمِّه يكتب له ذلك، لم يخلق الخَلْق علىٰ عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هُو أنقص مِن عمره، وكل ذلك مكتوبٌ لصاحبِهِ، بالغ ما بلغ.

وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكتب من الأجل، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾، وهو ذهابه قليلًا قليلًا، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهرًا بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويومًا بعد يوم، وساعةً بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب.

نقله ابن جرير عن أبي مالك، وإليه ذهب السُّدِّي، وعطاء الخُراساني. واختار ابن جرير القول الأول، وهو كما قال.

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة:

حدَّثنا أحمد بن يحيىٰ بن أبي زيد بن سليمان، سمعتُ ابن وهب يقول: حدَّثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[3]. وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيلي، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين[4]، حدَّثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدَّثنا سليمان بن عطاء[5]، عن مسلمة[6] بن عبد الله، عن عمِّه أبي مَشْجَعَة بن رِبْعِيٍّ، عن أبي الدرداء ﷺ

---

(١) لوحة (٣١٦/ ب). (٢) «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٢).

(٣) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأبو داود (١٦٩٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٢٩).

(٤) في (ز): (علي بن الحسين بن الوليد)، وزيادة الوليد خطأ.

(٥) في (ز): (عثمان بن عطاء)، وهو خطأ، والصواب: ما أثبتناه، قال الشيخ الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (١٥٤٣): (ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم من طريق سليمان به، ولكنه وقع فيه «عثمان» مكان «سليمان» وهو خطأ مطبعي، فقد ذكر ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ٢/ ١٠) من شيوخه سليمان بن عطاء هذا). اهـ [«الضعيفة» (٤/ ٥١)].

قلت: «ليس خطأ مطبعيًا فحسب، بل هو هكذا في المخطوط».

(٦) في (ز): (عن سلمة)، وهو خطأ.

قال: ذَكَرْنَا عند رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ اللهَ لا يُؤَخِّرُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ العُمْرِ بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ يُرْزَقُهَا العَبْدُ، فَيَدْعُونَ[1] لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَلْحَقُهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ، فَذَلِكَ زِيَادَةُ العُمْرِ»[2].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفىٰ منه عليه شيءٌ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالىٰ منبهًا علىٰ قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، وخلق البحرين العَذْب الزُّلال، وهو هذه الأنهار السَّارحة بين النَّاس، من كبارٍ وصغارٍ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهو البَحْر السَّاكن الَّذي تسير فيه السُّفن الكبار، وإنَّما تكون مالحة زُعَاقًا مُرَّة، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: مُرٌّ، ثم قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السَّمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٢، ٢٣].

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخُرُه وتشقه بحَيْزُومِها، وهو مقدَّمها المُسَنَّم الذي يشبه جُؤْجُؤَ الطير، وهو: صدره. وقال مجاهد: تَمْخَرُ الرِّيح السُّفن، ولا يمخر الرِّيح من السفن إلا العظام.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتِّجارة، مِن قُطْر إلىٰ قُطْر، وإقليم إلىٰ إقليم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم علىٰ تسخيرِهِ لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرَّفون فيه كيف شِئْتُم، وتذهبون أين أَرَدتُّم، ولا يَمْتَنِع عليكم شيءٌ مِنْه، بل بقدرته قد سخَّر لكم ما في السَّموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

وهذا أيضًا من قدرته التَّامَّة وسلطانه العظيم، في تسخيرِهِ اللَّيل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ مِن[3]

---

(١) لوحة (٣١٧/ أ).

(٢) منكر: رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٣٤)، وابن عدي (٣/ ١١٣٤)، وفيه سليمان بن عطاء، قال ابن حبان: يروي أشياء موضوعة تشبه أحاديث الثقات، فلست أدري التخليط منه أو من مسلمة بن عبد الله؟ والحديث قال عنه الألباني في «الضعيفة» (١٥٤٣): منكر.

(٣) لوحة (٣١٧/ ب).

طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاءً، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثَّوابت الثَّاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدارٍ معيَّن، وعلىٰ منهاجٍ مقنَّنٍ محرَّرٍ، تقديرًا من عزيزٍ عليمٍ.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلىٰ يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرَّبُّ العظيم، الَّذي لا إله غيره، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: مِن الأنداد والأصنام الَّتي هي علىٰ صورةِ مَن تزعمون من الملائكة المقرَّبين، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ .

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمَة، وعطاء، وعطية[1] العَوْفي، والحسن، وقتادة وغيرهم: القِطْمير: هو اللُّفافة الَّتي تكون علىٰ نواةِ التَّمرة، أي: لا يملكون من السَّموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير.

ثم قال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها مِن دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنَّها جماد لا أرواح فيها، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون علىٰ ما تطلبون منها، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ، أي: يتبرَّءون منكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلِها وما تصير إليه، مثلُ خبير بها.

قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالىٰ، فإنَّه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ[2] ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾

يخبر تعالىٰ بغنائِه عمَّا سواه، وبافتقار المخلوقات كلِّها إليه، وتذلُّلِها بين يديه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون[3] إليه في جميع الحركات والسَّكنات، وهو الغنيُّ

---

(١) في (ز): (عطاء العوفي)، وهو خطأ.

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: من هداية هذه الآية الإشارة الواضحة إلىٰ وجود اختلاف بشري جِبلّيّ فطري كما هو في سائر الكائنات الأرضية، وفي النباتات والحيوانات، وحتىٰ الجبال والمعادن، ومن عرف هذا هان عليه اختلاف الناس، ولم يحزن له ولم يهتم ويكرب.

(٣) لوحة (٣١٨/ أ).

عنهم بالذَّات؛ ولهذا قال:﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغِنَىٰ وحده لا شريكَ له، وهو الحميدُ في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدِّرُه ويشرَعُهُ.

وقوله:﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيُّها النَّاس وأتىٰ بقوم غيركم، وما هَذَا عليه بصعب ولا ممتنع؛ ولهذا قال:﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

وقوله:﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: يوم القيامة،﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلىٰ أن تُساعَد علىٰ حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه،﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ، أي: ولو كان قريبًا إليها، حتىٰ ولو كان أباها أو ابنها[1] ، كل مشغول بنفسه وحاله، [كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].][2] .

قال عكرمة في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلَّق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رَبِّ، سلْ هذا: لِمَ كان يغلق بابه دوني، وإنَّ الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إن لي عندك يدًا، قد عرفت كيف كنتُ لك في الدنيا؟ وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له إلىٰ ربه حتىٰ يردَّه إلىٰ [منزل دون][3] منزله، وهو في النَّار، وإنَّ الوالد ليتعلَّق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بُني، أيُّ والد كنتُ لك؟ فيثني خيرًا، فيقول له: يا بُني إنِّي قد احتجت إلىٰ مثقال ذرَّة مِن حسناتك أنجو بها مما ترىٰ، فيقول له ولده: يا أَبَتِ، ما أيسرَ ما طلبتَ، ولكني أتخوَّف مثل ما تتخوَّف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، ثم يتعلَّق بزوجته فيقول: يا فلانة -أو: يا هذه- أيُّ زوجٍ كنتُ لكِ؟ فتثني خيرًا، فيقول لها: إنِّي أطلب إليكِ حسنةً واحدةً تَهَبينَها لي، لعلِّي أنجو بها مما تَرَيْن. قال: فتقول: ما أيسرَ ما طلبتَ! ولكنِّي لا أُطيق أن أعطيك شيئًا، إني أتخوَّف مثل الذي تتخوَّف، يقول الله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآية، ويقول الله: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، ويقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[4] [النازعات: ٣٤-٣٧]. رواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله الطَّهْراني، عن حفص بن عمر، عن الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، به.

ثم قال:﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟[5] ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البَصَائر والنُّهىٰ، الخائفون من ربِّهم، الفاعلون ما أمرهم به،﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: ومَنْ عمل صالحًا فإنَّما يعود نفعُهُ علىٰ نفسه،﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كلَّ عاملٍ بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: قال الفضيل بن عياض: هي المرأة تَلْقَىٰ ولدها فتقول: يا ولدي ألم يكن بطني لك وعاء، ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن حِجْري لك وِطاءً؟ فيقول: بلىٰ يا أماه، فتقول: يا بني قد أثقلتني ذنوبي، فاحمل عني منها ذنبًا واحدًا، فيقول: إليك عني يا أماه، فإني بذنبي عنك مشغولٌ.

(٢) ليست في (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٧٩٦٩) مقطوعًا علىٰ عكرمة، ولم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٥) لوحة (٣١٨/ ب).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: كمَا لا تستوِي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأَعْمَىٰ والبصير لا يستوِيَان، بل بينهما فرق وبَوْن كثير، وكما لا تستوي الظُّلمات ولا النُّور ولا الظِّل ولا الحرور، كذلك لا تستوِي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله للمُؤْمنين، وهم الأحياء، وللكافرين، وهم الأموات، كقوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، فالمؤمن سميعٌ بصيرٌ في نورٍ يمشي علىٰ صراطٍ مستقيم في الدُّنيا والآخرة، حتىٰ يستقرَّ به الحال في الجنَّات ذات الظِّلال والعيون، والكافر أعمىٰ أصمُّ، في ظلماتٍ يمشي، لا خروج له منها، بل هو يَتِيهُ في غَيِّه وضلالِهِ في الدُّنيا والآخرة، حتىٰ يُفْضِي به ذلك إلىٰ الحرور والسَّمُوم والحَميم، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلىٰ سماع الحجَّة وقبولها والانقياد لها، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا [يسمع و][1] ينتفع الأموات بعد مَوْتِهم وصيرورَتِهم إلىٰ قبورهم وهم كفَّار بالهداية والدَّعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الَّذين كُتِب عليهم الشَّقاوة، لا حيلةَ لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم[2].

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد الآية الكريمة: أن رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يسمع من في القبور؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، فلو أن الرسول ﷺ ذهب إلىٰ أهل مقبرة ودعاهم، وقال: يا أهل القبور، آمنوا بالله ورسوله، يا أهل القبور، اعملوا صالحًا، فإنهم لا يسمعون.

فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في «الصحيح» من أن الرسول ﷺ وقف علىٰ قتلىٰ المشركين في قليب بدر وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعد ربي حقًّا»، فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم به من أناس جَيَّفُوا -أو كلامًا هذا معناه- فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، يعني: أنهم يسمعون، فما هو الجواب؟

الجواب: قول قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله أحياهم فأسمعهم كلام النبي ﷺ تنكيلًا لهم لما أماتهم، وتقول عائشة: إن أهل القليب لا يسمعون الرسول ﷺ ولكن يخاطبهم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم لما يجدون من العذاب في القبر.

فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في الحديث الصحيح أيضًا من أن الميت إذا دُفن وتولىٰ عنه أصحابه حتىٰ إنه ليسمع قرع نعالهم وهم منصرفون عنه؟

الجواب: هذا عند الدفن، وأيضًا لا يلزم من سماع قرع النعال أن يسمع الكلام والدعوة.

=

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[(1)] أي: إنَّما عليك البلاغ والإنذار، والله يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِي من يشاء.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت مِن بَنِي آدم إلَّا وقد بعث الله إليهم النُّذُر، وأزاح عنهم العِلَل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ الآية [النحل:٣٦]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي: المعجزات الباهرات، والأدلَّة القاطعات، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح البيِّن.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ومع هذا كله كَذَّب أولئك رُسُلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم، أي: بالعقاب والنَّكال، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالىٰ منبهًا علىٰ كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشَّيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السَّماء، يُخْرِج به ثمرات مختلفًا ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلىٰ غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوِّع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالىٰ في

= فإن قلت: ما الجواب عما رواه أبو داود وغيره وصححه ابن عبد البر ووافقه أولم يخالفه ابن القيم، من أنه ما من مسلم يسلِّم علىٰ قبر كان يعرفه في الدنيا إلا رد الله عليه روحه فرد عليه السلام؟

فالجواب: أن يقال هذا في حال مخصوصة دلَّ عليها الحديث، ولا يلزم من هذا أنه ﷺ إذا رد السلام عليك وهو دعاء له أن يرد السلام علىٰ من سلم عليه وأن يسمع كل من تكلم عنده.

فإن قلت: ما الجواب علىٰ قول الفقهاء من أن الميت يتأذىٰ بقول المنكر عند قبره أو فعل المنكر عند قبره؟

فالجواب: أن قول الواحد من الناس غير الرسول عليه الصلاة والسلام فليس بحجة، وإنما يحتج له لا به، ثم علىٰ رأيهم -رحمهم الله- يحملون معنىٰ قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: مسمع من تدعوهم إلىٰ الإيمان والعمل الصالح، فإنك لا تسمعهم سماعًا يستجيبون له، وهذا هو الجواب الأخير عن قول من يقول: إن الموتىٰ لا يسمعون ما يقال عندهم وما يخاطبون به لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: سماعًا ينتفعون به ويستجيبون له، والله أعلم.

والواجب علىٰ المؤمن نحو هذه الأمور الغيبية أن يؤمن بما جاء به النص فقط، يجب عليه أن يقول: العلم عند الله، فلا يجزم بالنفي ولا يجزم بالإثبات، نعم له أن يجزم بالنفي ويجعل ما ثبت به الحديث من السماع مخصصًا؛ لأنه قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾: وفي الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠]. اهـ. وراجع: «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» للألُوسِي بتحقيق الألباني -رحم الله الجميع-.

(١) لوحة (٣١٩/ أ).

الآية الأخرىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق -وهي: الجُدَد، جمع جُدَّة- مختلفة الألوان أيضًا.

قال ابن عبَّاس ﷺ: «الجُدَد»: الطرائق. وكذا قال أبو مالك[1]، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي.

ومنها: ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾، قال عكرمة: «الغرابيب»: الجبال الطُّوال السُّود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخُرَاساني وقتادة.

وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السَّواد قالوا: أسودُ غِرْبيبٌ.

ولهذا قال بعض المفسِّرين في هذه الآية: هذا من المقدَّم والمؤخَّر في قوله تعالىٰ: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: سُودٌ غرابيب. وفيما قاله نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي: وكذلك الحيوانات من الأَنَاسِيِّ والدواب -وهو: كل ما دب علىٰ قوائم- والأنعام، من باب عطف الخاص علىٰ العام، كذلك هي مختلفة أيضًا، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم[2] في غاية السواد، وصَقَالِبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وكذلك الدَّوابُّ والأنعام مختلفة الألوان، حتىٰ في الجنس الواحد، [بل النَّوع الواحد منهنَّ مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد][3] يكون أَبْلَقَ[4]؛ فيه مِن هذا اللَّون وهذا اللَّون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدَّثنا الفضل بن سهل، حدَّثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح، حدَّثنا زياد بن عبد الله، عن عطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: أيصبغ ربك؟ قال: «**نَعَمْ؛ صَبْغًا لا يُنْفَضُ**[5]**، أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَأَبْيَضَ**». ورُوي مرسلًا وموقوفًا[6]، والله أعلم.

---

(١) لوحة (٣١٩/ ب).

(٢) الطُّماطم: الأعجم الذي لا يفصح.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) الأبلق: ما جمع بين البياض والسواد.

(٥) أي: لا يزول لونه.

(٦) ضعيف: رواه البزار (١١٨٤ - كشف)، وفي إسناده عطاء بن السائب: وقد اختلط، وقد تقدم نحوه بسند ضعيف جدًّا أيضًا. انظر: تفسير الآية (١٣٧) من «سورة البقرة».

ولهذا قال تعالىٰ بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: إنَّما يخشاه حقَّ خشيتِهِ العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنىٰ -كلَّما كانت المعرفة به أتمَّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين يعلمون أنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ قدير[١].

وقال ابن لَهِيعَة، عن ابن أبي عمرة، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: العالم بالرحمن مَنْ لم يشرك به شيئًا، وأحلَّ[٢] حلالَهُ، وحرَّم حرامَهُ، وحَفِظَ وصيَّتَه، وأيقن أنَّه ملاقيه ومحاسَبٌ بعمله[٣].

وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ.

وقال الحسن البصري: العَالِم[٤] مَن خَشِيَ الرَّحمن بالغيب، ورَغِبَ فيما رَغَّبَ الله فيه، وزَهِدَ فيما سخَّطَ الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وعن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشيةِ[٥].

وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب، عن مالك قال: إنَّ العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نورٌ يجعلُهُ اللهُ في القلب.

قال أحمد بن صالح المصري: معناه: أنَّ الخشية لا تُدْرَك بكثرةِ الرِّوَايةِ، وأمَّا العِلْم الَّذِي فرض الله ﷻ أن يتبع فإنَّما هو الكتاب والسُّنَّة، وما جاء عن الصحابة ﷺ، ومَن بعدهم مِن أئمَّة المسلمين، فهذا لا يُدْرَك إلا بالرواية، ويكون تأويل قوله: «نور» يريد به: فهم العلم ومعرفة معانيه.

وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان [التميمي][٦]، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة؛ عالمٌ بالله عالم بأمرِ الله، وعالمٌ بالله ليس بعالم بأمرِ الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الَّذِي يخشىٰ الله ويعلم الحدود والفرائض، والعَالِم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشىٰ الله ولا يعلم الحُدُود ولا الفرائض، والعالم بأَمْرِ الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشىٰ الله ﷻ.

---

(١) رواه الطبري (٢٢/ ١٣٢)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٧/ ٢٠) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٧٩٧٧).

(٢) لوحة (٣٢٠/ أ).

(٣) لم أقف علىٰ إسناده، وهو كلام حسن في وصف العالم.

(٤) في (ز): (الإيمان).

(٥) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٤٠٠)، ورواه أحمد في «الزهد» (ص١٨٥)، وفي «الورع» (ص٨٠)، وأبو نُعَيم في «الحلية» (١/ ١٣١)، والطبراني (٩/ ١٠٥/ ٨٥٣٤)، وفيه انقطاع بين عون بن عبد الله وبين عبد الله بن مسعود، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢١) إلىٰ أحمد في «الزهد».

(٦) ليست في (ز).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً[(١)] يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن عباده المؤمنين الَّذِين يتلُون كتابه ويُؤْمِنُون به ويعملُون بما فيه، مِن إقام الصَّلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا، سرًّا وعلانيةً، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصولِه، كما قدمنا في أول «التفسير» عند (فضائل القرآن): أنه يقول لصاحبه: «إِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ»[(٢)(٣)]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: ليوفيهم ثوابَ ما فعلوه، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطِر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل مِن أعمالهم.

قال قتادة: كان مُطَرِّف إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا حَيْوة، حدَّثنا سالم بن غَيْلان؛ أنه سمع دَرَّاجًا أبا السمح يحدث عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﵁؛ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا رَضِيَ عَنِ العَبْدِ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ سَبْعَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الخَيْرِ لَمْ يَعْمَلْهُ، وَإِذَا سَخِطَ عَلَىٰ العَبْدِ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ سَبْعَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الشَّرِّ لَمْ يَعْمَلْهُ». غريب جدًّا[(٤)].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: من فوائد الآية الكريمة أيضًا: أن الإنفاق لا نقول: إن الإسرار فيه أفضل ولا إن الإعلان فيه أفضل، بل هو بحسب الحال، فتارة يكون الإنفاق سرًّا أفضل، وتارة يكون الإنفاق علنًا أفضل، حسب ما تقتضيه الحال، بخلاف الصدقة فالأصل فيها السر، قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن الصدقة فيها نوع مِنة علىٰ المعطىٰ، فربما ينكسر أمام الناس إذا أُعلنت الصدقة له، فصار إخفاؤه أفضل، وفي الحديث الصحيح في الذين يظلهم الله في ظله: «رجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها»، أما الأشياء العامة والمعلنة، كما لو أردنا أن ننفق في مشروع خيري عام لا يظهر فيه المنة علىٰ شخص معين، فهنا قد يكون الإعلان فيه أفضل، وكذلك لو أن شخصًا جاء إلينا وقال: أرجو أن تجمعوا لي من الناس، فهنا ربما يكون الإعلان أفضل من أجل أن يقتدي بك غيرك، وهذا الرجل الذي طلب منا أن نجمع له لا يهمه أن يعلم الناس بأنه يتصدق عليه أو لا يتصدق.

المهم أن نقول: إن السر والإعلان في الإنفاق كله خير، لكن الصدقة الأفضل فيها السر؛ لما في إظهارها من كسر قلب المعطىٰ، وأما الأشياء العامة أو الصدقة علىٰ شخص معين الذي طلب منا أن نجمع له مثلًا قد يكون الإعلان فيه أفضل.

(٢) لوحة (٣٢٠/ ب).

(٣) حديث حسن: رواه أحمد (٥/ ٣٤٨)، وابن ماجة (٢٧٨١)، وابن أبي شيبة (٣٠٠٤٥)، والدارمي (٣٢٩١)، وحسنه الألباني بشواهده.

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٨)، من رواية دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، وروايته عنه ضعيفة.

يقول تعالىٰ: ﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ -يا محمَّد- ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ -وهو القرآن- ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكُتُب المتقدِّمة يصدقها، كما شَهِدَت له بالتَّنويهِ[1]، وأنَّه منزَّل مِن ربِّ العَالَمِين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: هو خبير بهم، بَصِيرٌ بمَن يستحقُّ ما يفضله به علىٰ مَنْ سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرُّسل علىٰ جميع البَشَر، وفضَّل النَّبيِّين بعضهم علىٰ بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمَّد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ[2] ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم -المصدِّق لما بين يديه من الكتب- الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلىٰ ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾، وهو: المفرِّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرَّمات. ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾، وهو: المؤدِّي للواجِبَات، التَّارك للمحرَّمات، وقد يترك بعض المُسْتَحبَّات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، وهو: الفاعل للوَاجِبَات والمستحبَّات، التَّارك للمحرَّمات والمكروهات وبعض المبَاحَات.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾[3]، قال: هم أمَّة محمَّد ﷺ، وَرَّثهم الله كلَّ كتاب أنزله، فظالمهم يُغْفَر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب[4].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا يحيىٰ بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبِيُّ قالا: حدَّثنا أبو الطاهر بن السَّرْح، حدَّثنا موسىٰ بن عبد الرحمن الصنعاني، حدَّثني ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[5]. قال ابن

---

(١) في (ز): (بالنبوة).

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: حاول كثير من المفسرين البعد عن الحقيقة التي تضمنتها هذه الآية، وهي أن الآية في أمة محمد ﷺ؛ إذ هي التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ والاجتباء كالاصطفاء، والظالم لنفسه لا يكون الكافر ولا المنافق، وإنما هو المؤمن يَغْشَىٰ بعض الكبائر، وما في التفسير هو الحق فتأمله.

(٣) لوحة (٣٢١/ أ).

(٤) رواه الطبري (٢٢/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٣) إلىٰ ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «البعث والنشور» (١٧٩٨٥)، وسيأتي نحوه مرفوعًا.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٣٦)، وابن ماجة (٤٣١٠) من حديث جابر، ورواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس، وقال: حسن صحيح، وأما رواية ابن عبَّاس المذكورة هنا، فقد رواها الطبراني (١٠/ ٣٧٨) بإسناد ضعيف جدًّا، بل موضوع، وانظر ما بعده.

عبَّاس: السَّابق بالخيرات يدخل الجنَّة بغيرِ حسابٍ، والمقتصد يدخل الجنَّة برحمةِ الله، والظَّالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنَّة بشفاعة محمَّد ﷺ[١].

وهكذا رُوي عن غير واحد مِن السَّلف: أنَّ الظَّالم لنفسه مِن هذه الأمَّة من المُصْطَفَيْنَ، علىٰ ما فيه من عوجٍ وتقصيرٍ.

وقال آخرون: بل الظَّالم لنفسِهِ ليس مِن هذه الأمَّة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب.

قال ابن أبي حاتم، حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدَّثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: هو الكافر[٢]. وكذا رَوىٰ عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضًا فيما رواه ابن جرير، وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عبَّاس، والحسن، وقتادة: وهذه الأقسام الثَّلاثة كالأقسام[٣] الثلاثة المذكورة في أول سورة «الواقعة» وآخرها.

والصحيح: أنَّ الظَّالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشدُّ بعضها بعضًا، ونحن نورد منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن[٤] جعفر، حدَّثنا شعبة، عن الوليد بن العَيْزار، أنَّه سمع رجلًا من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كِنانة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، قال: «**هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الجَنَّةِ**»[٥]. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسمَّ، وقد رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه.

ومعنىٰ قوله: «بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ»، أي: في أنهم مِن هذه الأمَّة، وأنَّهم مِن أهل الجنَّة، وإن كان بينهم فَرْقٌ في المنازل في الجنَّة.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ، حدَّثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضَمْرة، عن موسىٰ بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأَزْدي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ**: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ «**فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا: فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا: فَأُولَئِكَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ: فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحْبَسُونَ فِي طُولِ**

---

(١) رواه الطبراني (١٠/ ٣٧٨)، وفيه موسىٰ بن عبد الرحمن الصنعاني: وضَّاع، لكن أصل الحديث صحيح، كما تقدَّم في الحديث السابق دون ذكر الموقوف.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٧٩٨٦).

(٣) في (ز): (في الأقسام).

(٤) لوحة (٣٢١/ ب).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٨)، والترمذي (٣٢٢٣)، وفيه من لم يسمَّ.

المَحْشَر، ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلافَاهُمْ برحْمَتِهِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾»[١].

[طريق][٢] أخرىٰ: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أسيد بن عاصم، حدَّثنا الحسين بن حفص، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، قال: «فَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ، فَيُحْبَسُ حَتَّىٰ يُصِيبَهُ الهَمُّ وَالحَزَنُ، ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ»[٣].

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس[٤] إلىٰ جنب أبي الدرداء ﷺ، فقال: اللَّهمَّ آنِسْ وحشتي، وارْحَمْ غُرْبَتِي، ويَسِّر لي جليسًا صالحًا، قال أبو الدرداء: لئن كنتَ صادقًا لأنا أسعدُ به[٥] منك، سأحدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدِّث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ «فَأَمَّا السَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ فَيَدْخُلُهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا المُقْتَصِدُ: فَيُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: فَيُصِيبُهُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ مِنَ الغَمِّ وَالحَزَنِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾»[٦].

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن العبَّاس، حدَّثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدَّثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلىٰ، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ

---

(١) **حسن بشواهده**: رواه أحمد (٥/ ١٩٨)، وابن أبي حاتم (١٧٩٨٩)، ورجاله ثقات، غير أن علي بن عبد الله الأزدي: صدوق ربما أخطأ.

قلت: يشهد لحديثه الروايات الأخرىٰ في الباب؛ فرواه الطبري (٢٢/ ١٢٧) من طريق أخرىٰ، وفيه رجل لم يسمَّ، وبقية رجاله ثقات.

ويشهد لحديثه:

١- حديث أبي سعيد السابق.

٢- حديث أسامة بن زيد: رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٦٧)، وفيه محمَّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ جدًّا.

٣- حديث عوف بن مالك: رواه الطبراني (١٨/ ٨٠)، وفيه سلامة بن نوح: مختلف فيه.

٤- الآثار التي أوردها ابن كثير: عن ابن مسعود، وعائشة، وابن عبَّاس، مما يدل علىٰ أن للحديث أصلًا، والله أعلم.

(٢) بياض في (ز).

(٣) عزاه لابن أبي حاتم، والطبري (٢٢/ ١٢٧)، وفيه رجل لم يسمَّ. وانظر التعليق السابق.

(٤) لوحة (٣٢٢/ أ).

(٥) هكذا في (ز)، وفي بعض النسخ «بك منك»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٦) رواه الطبري (٢٢/ ١٢٧)، وانظر ما قبله.

بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ»(١).

الحديث الرابع: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عَزيز، حدَّثنا سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عَوْف بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أُمَّتِي ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ: فَثُلُثٌ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وَثُلُثٌ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ثُمَّ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَثُلُثٌ يُمَحَّصُونَ وَيُكْشَفُونَ، ثُمَّ تَأْتِي المَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ: وَجَدْنَاهُمْ يَقُولُونَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ. يَقُولُ اللهُ ﷻ: صَدَقُوا، لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، أَدْخِلُوهُمُ الجَنَّةَ بِقَوْلِهِمْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، وَاحْمِلُوا خَطَايَاهُمْ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وَتَصْدِيقُهَا فِي الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ المَلَائِكَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فَجَعَلَهُمْ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، وَهُمْ أَصْنَافٌ كُلُّهُمْ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، فَهَذَا الَّذِي يُكْشَفُ وَيُمَحَّصُ». غريب جدًّا(٢).

أثر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدَّثني ابن حميد، حدَّثنا الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس، عن عبد الله بن عيسىٰ، عن(٣) يزيد بن الحارث، عن شَقِيقٍ أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلثٌ يدخلُون الجنَّة بغير حساب، وثلثٌ يحَاسَبُون حسابًا يسيرًا، وثلث يَجِيئُون بذنوبٍ عظَامٍ حتىٰ يقول: ما هؤلاء؟ -وهو أعلم، تبارك وتعالىٰ- فتقول الملائكة: هؤلاءِ جاءوا بذنوبٍ عِظَامٍ، إلَّا أنَّهم لم يشركوا بك، فيقول الرب ﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة(٤) رَحْمَتِي، وتلا عبد الله هذه الآيةَ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية(٥).

أثر آخر: قال أبو داود الطيالسي، عن الصَّلْتِ بن دينار أبو شُعيب(٦)، عن عقبة بن صُهْبَان الهُنَائي قال: سألت عائشة ﷺ عن قول الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾؟ الآية، فقالت لي: يا بُني، هؤلاء في الجنَّة؛ أمَّا السَّابق بالخيرات: فمن مضىٰ علىٰ عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرِّزق، وأما المقتصد: فمَن اتَّبع أثرَهُ مِن أصحابِهِ حتَّىٰ لَحِق به، وأمَّا الظَّالم لنفسه: فمثلي ومثلكم! قال: فجعلت نفسها معنا(٧)!! وهذا منها ﷺ مِن باب الهَضْم والتَّواضع، وإلَّا فهِيَ من أكبر السابقين بالخيرات(٨)؛ لأن فضلها علىٰ النِّساء كفضل الثَّريد علىٰ

---

(١) رواه الطبراني (١/ ١٦٧)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠)، وفيه ابن أبي ليلىٰ: سيئ الحفظ.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٧٩٨٨)، والطبراني (١٨/ ٨٠)، وفيه سلامة بن نوح: مُخْتَلَف فيه، وله شاهد من حديث ابن مسعود موقوفًا، وهو في حكم المرفوع.

(٣) لوحة (٣٢٢/ ب).

(٤) في (ز): (في جنة رحمتي)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٥) رواه الطبري (٢٢/ ١٣٤) هكذا موقوفًا، وهو في حكم المرفوع، وفيه محمَّد بن حميد: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه.

(٦) في (ز): (دينار بن الأشعث)، وهو خطأ.

(٧) ضعيف جدًا: رواه الطيالسي (١٤٨٩)، وفي إسناده الصلت بن دينار، قال الحافظ: متروك.

(٨) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الضعيفة» (٣٢٣٥):

سائر الطعام[١].

وقال عبد الله بن المبارك: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: هِيَ لأهلِ بَدْوِنا، ومقتصدنا: أهل حَضَرِنا، وسابقنا: أهلُ الجِهَاد. رواه ابن أبي حاتم[٢].

وقال عَوْف الأعرابي: حدَّثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدَّثنا كعب الأحبار قال: إن الظَّالم لنفسِهِ مِن هذه الأمَّة، والمقتصد والسَّابق بالخيرات كلُّهم في الجنَّة، ألم تر أن الله تعالىٰ قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، قال: فهؤلاء أهل النَّار.

ورواه ابن جرير من طرق، عن عوف، به. ثم قال: حدَّثني يعقوب[٣] بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه، أنَّ ابن عبَّاس سأل كعبًا عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، إلىٰ قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؟ قال: تماسَّت مناكبهم ورَبِّ كَعْب، ثم أُعْطُوا الفضل بأعمالهم.

= (... أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١٤٨٩): حدثنا الصلت بن دينار أبو شعيب قال: حدثنا عقبة بن صُهْبان الهُنائي قال: سألت عائشة عن قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا...﴾ الآية. قلت: وهذا إسناد ضعيف جدًّا؛ فإن الصلت بن دينار متفق علىٰ ضعفه، بل قال أحمد وغيره: «متروك الحديث». وقال الحافظ في «التقريب»: «متروك ناصبي». ومن العجيب أن الحاكم لما أخرجه (٢/ ٤٢٦) من طريقه قال: «صحيح الإسناد»! فتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: الصلت؛ قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٧): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه الصلت بن دينار، وهو متروك». والحديث رواه أيضًا عبد بن حميد وابن أبي حاتم، وابن مردويه؛ كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥١) وسكت عنه كما هي عادته! بل سكت عنه أيضًا الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٥٦) بعد أن عزاه للطيالسي بإسناده المذكور، فأوهم القراء بسكوته أنه ثابت؛ فإن أكثرهم لا يعلمون أنه غير مؤاخذ بسكوته علىٰ الحديث إذا ساق إسناده؛ كما ذكرنا ذلك في غير موضع، ولكنه زاد في الإيهام بتعليقه علىٰ قولها في آخر الحديث: «كمثلي ومثلكم»، فقال ابن كثير: «وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام». قلت: ولا شك أنها كذلك رضي الله عنها، ولكن البحث: هل قالت ذلك؟! ولذلك اغتر بصنيع ابن كثير هذا مختصره الشيخ الصابوني فأورده في «مختصر تفسير ابن كثير» وقد زعم في مقدمته أنه لم يورد فيه ما لم يثبت من الحديث! وقد سبق ذكر أمثلة كثيرة من الأحاديث الضعيفة مما وقع في «مختصره»، وكذلك في مختصر -ابن بلده- الشيخ الرفاعي رحمه الله. والحديث مع كونه موقوفًا واهيًا فهو باطل عندي؛ لمخالفته لمجموعة من الأحاديث -ذكر ابن كثير من طرق قال: يشد بعضها بعضًا- تشهد أن الآية علىٰ عمومها، بل قد جاء ما هو أصرح من ذلك في الدلالة وهو قوله ﷺ:«في كل قرن من أمتي سابقون»، وهو مخرج في «الصحيحة» (٢٠٠١)، فهو يبطل ما رواه ذاك المتروك عن عائشة رضي الله عنها).

(١) هذا نص حديث مرفوع في «الصحيحين»، قال ابن الأثير: قيل: لم يُرِدْ عين الثريد، وإنما أراد الطعام المتخذ من اللحم والثريد معًا؛ لأن الثريد لا يكون إلا من لحم غالبًا، والعرب قلما تجد طبيخًا، ولا سيما بلحم. ويقال: الثريد أحد اللحمين، بل اللذة والقوة إذا كان اللحم نضيجًا في المرق أكثر مما يكون في نفس اللحم. «النهاية».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٧٩٩١).

(٣) لوحة (٣٢٣/ أ).

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا الحكم بن بشير، حدَّثنا عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السَّبيعي في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، قال أبو إسحاق: أمَّا مَا سمعت منذ ستِّين سنة فكلُّهم ناج.

ثم قال: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا الحكم، حدَّثنا عمرو، عن[1] محمَّد ابن الحنفية قال: إنَّها أمَّة مرحومة، الظَّالم مغفورٌ له، والمقتصد في الجنان عندَ الله، والسَّابق بالخيرات في الدَّرجات عند الله.

ورواه الثوري، عن إسماعيل بن سُمَيع، عن رجل، عن محمَّد ابن الحنفيَّة، بنحوه.

وقال أبو الجارود: سألت محمَّد بن علي -يعني: الباقر- عن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؟ فقال: هو الَّذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

فهذا ما تيسر مِن إيراد الأحاديث والآثار المتعلِّقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثَّلاثة مِن هذه الأمَّة، فالعلماء أغبط النَّاس بهذه النِّعمة، وأولىٰ النَّاس بهذه الرَّحمة، فإنَّهم كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدَّثنا محمَّد بن يزيد، حدَّثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة، عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل «المدينة» إلىٰ أبي الدرداء -وهو بدمشق- فقال: ما أقدمك أَيْ أُخَي؟ قال: حديث بلغني أنَّك تحدِّث به عن رسول الله ﷺ. قال: أما قدمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا. قال: أما قدمتَ لحاجةٍ؟ قال: لا. قال: أما قدمتَ إلا في طلب هذا الحديث؟! قال: نعم؛ قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ[2] . إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا[3] العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**[4]» .

وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من حديث كثير بن قيس -ومنهم من يقول: قيس بن كثير- عن أبي الدرداء. وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح (كتاب العلم)[5] من «صحيح

---

(١) في (ز): (عمرو بن محمَّد)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) فطلب العلم لا يَعْدِلُه شيء لمن صحت نيته -كما قال الإمام أحمد- قالوا: كيف ذلك؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، وقد احتفىٰ العلماء بشأن العلم وطلابه وآدابه وغير ذلك؛ فألف الخطيب البغدادي: «الجامع في آداب الشيخ والسامع»، ولعصريه حافظ المغرب ابن عبد البر: «جابع بيان العلم وفضله» طبع بتحقيق الشيخ/ أبي الأشبال الزهير حَفِظَهُ ٱللَّهُ، للزرنوجي «تعليم المتعلم»، ولبكر أبو زيد: «حلية طالب العلم» وقد شرحها العثيمين، وجميعها مطبوع، ولله الحمد. رحم الله أصحابها ورضي عنهم.

(٣) لوحة (٣٢٣/ ب).

(٤) صححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رواه أبو داود (٣١٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجة (٢٢٣).

(٥) في (ز): (في كتاب شرح العلم).

البخاري»، ولله الحمد والمنَّة.

وقد تقدَّم في أوَّل «سورة طه» حديث ثعلبة بن الحكم، عن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ [لِلْعُلَمَاءِ](١): إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي وَحُكْمِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْكُمْ، وَلا أُبَالِي»(٢).

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا(٣) يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾

يخبر تعالىٰ أن مأوىٰ هؤلاء المُصْطَفَيْنَ من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزَّل من رب العالمين يوم القيامة: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: جنات الإقامة، يدخلونها يوم مَعَادهم وقدومهم علىٰ ربهم ﷻ؛ ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾، كما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»(٤).

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدَّار الآخرة، وثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ»(٥). وقال: «[لا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ](٦)؛ هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ»(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمرو بن سواد السَّرحي، أخبرنا ابن وهب، عن ابن لَهِيعَة، عن عُقَيْل ابن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة ﷺ: أن أبا أُمامة حدَّث: أن رسول الله ﷺ حدَّثهم، وذكر حُلِيَّ [أهل الجنَّة](٨) فقال: «مُسَوَّرُونَ بِالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، مُكَلَّلَةٌ بِالدُّرِّ، وَعَلَيْهِمْ أَكَالِيلُ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ مُتَوَاصِلَة، وَعَلَيْهِمْ تَاجٌ كَتَاجِ المُلُوكِ، شَبَابٌ جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُونَ»(٩).

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ(١٠) أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾، وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنَّا، وأراحنا مما

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف جدًا: رواه الطبراني (٣/ ٨٤/ ١٣٨١) وفيه العلاء بن مسلمة، قال الحافظ في «التقريب»: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع، وفي إسناده أيضًا: سِمَاك بن حرب: تغير بآخره.

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري ﷺ: لما دخلوا جنات عدن حمدوا الله تعالىٰ وأثنوا عليه، وإن قيل: كيف دخل الظالم لنفسه الجنة وهو ظالم؟ قلنا: هذا الظلم هو ليس ظلمًا لربه بأن عبد غير الله، ولا هو ظلم لغيره، وإنما هو ظلم لنفسه بارتكاب بعض الذنوب، وهذا غير مانع من دخول الجنة، إذ هو وارث بوصفه مؤمنًا، والجنة تورث، والورثة يستوي فيهم البارّ مع العاقّ، فلا يمنع من الإرث العاقّ، بل يرث كالبارّ سواء بسواء.

(٤) مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١/ ٢٣).

(٥) رواه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) في حديث أنس ﷺ مرفوعًا به.

(٦) ليست في (ز). (٧) البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣). (٨) سقط من (ز).

(٩) رجاله ثقات: غير أن الحسن البصري مدلس. والحديث رواه أيضًا أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٦٧).

(١٠) لوحة (٣٢٤/ أ).

كنَّا نتخوَّفه ونحذرُهُ مِن هموم الدُّنيا والآخرة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ عَلَىٰ أَهْلِ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلا فِي مَنْشَرِهِمْ، وَكَأَنِّي بِأَهْلِ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُءُوسِهِمْ، وَيَقُولُونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾». رواه ابن أبي حاتم من حديثه(١).

وقال الطَّبراني: حدَّثنا جعفر بن محمَّد الفِرْيابي، حدَّثنا موسىٰ بن يحيىٰ(٢) المَرْوَزِي، حدَّثنا سليمان ابن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ عَلَىٰ أَهْلِ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَحْشَةٌ فِي المَوْتِ وَلا فِي قُبُورِهِمْ وَلا فِي النُّشُورِ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ يَنْفُضُونَ رُءُوسَهُمْ مِنَ التُّرَابِ، يَقُولُونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»(٣).

قال ابن عبَّاس ﵄ وغيره: غَفَر لهم الكثير من السَّيِّئات، وشكر لهم اليَسِيرَ مِن الحسنات.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، يقولون: الَّذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومَنِّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في «الصحيح»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(٤).

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يمسُّنا فيها عناء ولا إعياء.

والنَّصَب واللُّغوب: كلٌّ منهما يستعمل في التَّعب، وكأنَّ المراد بنَفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب علىٰ أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك أنَّهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التَّكليف بدخولها، وصاروا في راحةٍ دائمةٍ مستمرةٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا (٥) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الأوسط» (٩٤٧٨)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٧١)، وقال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٤١٦): في متنه نكارة، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد ضعفه غير واحد، ومنهم من تركه، وفيه أيضًا يحيىٰ الحِمَّاني: ضعيف، واتهموه بسرقة الحديث.

(٢) المثبت من (ز)، وهو المعتمد في أكثر الطبعات، وفي بعضها: (يحيىٰ بن موسىٰ)، ولم أقف علىٰ ترجمته، وقال الهيثمي عن رجال هذا الحديث: (وفيه جماعة لم أعرفهم).

(٣) ضعيف: قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣٣): رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم. ورواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٥)، والبيهقي في «البعث» (٨٨)، وقال البيهقي: هذا مرسل عن سلمة بن كُهَيل وابن عمر، وبُهْلُول تفرد به وليس بالقوي، قلت: قال محمَّد بن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٤٤٦٢): وبهلول هذا له مناكير.

(٤) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٥) لوحة (٣٢٤/ ب).

لما ذكر تعالىٰ حال السُّعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. وثبت في «صحيح مسلم»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ -الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا-: فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ»(١). قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل إلىٰ ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل مَن كَفَر بربِّه وكذَّب بالحق.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجأرون إلىٰ الله ﷻ بأصواتهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرَّجعة إلىٰ الدُّنيا؛ ليعْمَلُوا غير عملهم الأوَّل، وقد عَلِمَ الرَّبُّ -جلَّ جلاله- أنَّه لو ردَّهُم إلىٰ الدَّار الدُّنيا، لعَادُوا لما نُهُوا عنه، وإنَّهم لكَاذِبُون. فلهذا لا يُجِيبُهُم إلىٰ سؤالهم، كما قال تعالىٰ مخبرًا عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ(٢) مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، أي: لا يُجِيبُكُم إلىٰ ذلك؛ لأنَّكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلىٰ ما نُهِيتُم عنه؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أوَمَا عِشْتُم في الدُّنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحقِّ لَانْتَفعْتُم به في مدَّة عمركم؟

وقد اختلف المفسِّرون في مقدار العمر المراد هاهنا، فروي عن علي بن الحسين -زين العابدين- أنَّه قال: مقدار سبعَ عشْرَةَ سنة.

وقال قتادة: اعلموا أنَّ طول العمر [حجة، فنعوذ باللهِ أن نُعَيَّر بطول العمر](٣)، قد نزلت هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، وإن فيهم لابنَ ثمانيَ عشْرةَ سنة، وكذا قال أبو غالب الشيباني.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن رجل، عن وهب بن مُنَبِّه في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ(٤) فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قال: عشرين سنة.

وقال هُشَيم، عن منصور، عن زاذان، عن الحسن في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قال: أربعين سنة.

وقال هُشَيْم، عن مجالد(٥)، عن الشعبي، عن مسروق أنَّه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله ﷻ.

---

(١) مسلم (١٨٥).
(٢) في (ز): (مرد)، وهو خطأ.
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) لوحة (٣٢٥/ أ).
(٥) في بعض الطبعات: (مجاهد)، وهو خطأ، ومجالد: هو ابن سعيد الكوفي، يروي عن عامر الشعبي، وهشيم أحد تلاميذه.

وهذه رواية عن ابن عبَّاس، فيما قال ابن جرير: حدَّثنا ابن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا بشر بن المفضل، حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن مجاهد قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: العمر الذي أَعْذَرَ الله إلىٰ ابن آدم؛ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: أربعون سنة[1]. هكذا رواه من هذا الوجه، عن ابن عبَّاس، وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: ستون سنة[2].

فهذه الرِّواية أصح عن ابن عبَّاس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا، لما ثبت في ذلك من الحديث -كما سنورده- لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح؛ لأن في إسناده مَنْ يجب التَّثبُّت في أمره.

وقد روىٰ أصبغُ بن نُباتة، عن علي ﷺ، أنَّه قال: العُمر الَّذي عَيَّرهم الله به في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: ستون سنة[3].

وقال ابن أبي حاتم حدَّثنا أبي، حدَّثنا دُحَيْم، حدَّثنا ابن أبي فُدَيْك، حدَّثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حُسَين المكي؛ أنَّه حدَّثه عن عَطاء -هو ابن أبي رباح- عن ابن عبَّاس ﷺ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قِيلَ: أَيْنَ أَبْنَاءُ السِّتِّينَ؟ وَهُوَ العُمْرُ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾»[4].

وكذا رواه ابن جرير، عن علي بن شعيب، [عن محمَّد بن إسماعيل بن أبي فُدَيك، به. وكذا رواه][5] الطبراني من طريق ابن أبي فديك، به. وهذا الحديث فيه نظر؛ لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن رَجُل من بني غِفَار، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَىٰ عَبْدٍ أَحْيَاهُ حَتَّىٰ بَلَغَ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ[6]، لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ»[7].

وهكذا رواه الإمام البخاري في (كتاب الرقاق) من «صحيحه»: حدَّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر،

---

(١) رواه الطبري (٢٢/ ١٤١)، وإسناده حسن. (٢) رواه الطبري (٢٢/ ١٤١)، وإسناده حسن.

(٣) رواه الطبري (٢٢/ ١٤٢)، وفيه أصبغ بن نُباتة: متروك الحديث، فالإسناد ضعيف جدًّا.

(٤) **ضعيف بهذا السياق:** رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٠٦)، والطبري (٢٢/ ١٤١)، وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومي: متروك، لكن صح الحديث باللفظ الآتي.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٦) لوحة (٣٢٥/ ب).

(٧) **صحيح لغيره:** رواه أحمد (٢/ ٢٧٥)، وفي إسناده مجهول، لكن صح الحديث كما سيأتي بعده.

عن عُمَر بن علي، عن مَعْن بن محمَّد الغِفَاري، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [«أَعْذَرَ اللهُ ﷻ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ عُمُرَهُ حَتَّىٰ بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»(١). ثم قال البخاري: تابعه أبو حازم وابن عَجْلان، عن سعيد المَقْبرِيِّ](٢).

فأما أبو حازم؛ فقال ابن جرير: حدَّثنا أبو صالح الفَزَارِيُّ، حدَّثنا محمَّد بن سَوَّار، أخبرنا يعقوب ابن عبد الرحمن بن عبدٍ القاريِّ الإسكندريِّ، حدَّثنا أبو حازم، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إِذَا أَحْيَا اللهُ ابْنَ آدَمَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْذَرَ إِلَيْهِ فِي العُمُرِ»(٣).

وقد رواه الإمام أحمد، والنسائي في(الرِّقاق)، جميعًا عن قتيبة، [عن يعقوب بن عبد الرحمن، به. ورواه البزَّار قال: حدَّثنا هشام بن يونس، حدَّثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه](٤)، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «العُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ فِيهِ إِلَىٰ ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً». يعني: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾(٥).

وأمَّا متابعة «ابن عجلان»؛ فقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو السَّفر يحيىٰ بن محمَّد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء، حدَّثنا أبو عبد الرحمن المقري، حدَّثنا سعيد بن أبي أيوب، حدَّثني محمَّد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَتْ عَلَيْهِ سِتُّونَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ ﷻ إِلَيْهِ فِي العُمُرِ»(٦). وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقري، به، ورواه أحمد أيضًا عن خلف، عن أبي مَعْشَر، عن سعيد المَقْبُرِيِّ.

طريق أخرىٰ عن أبي هريرة: قال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن الفرج أبو عُتْبَة الحِمْصِي، حدَّثنا بَقِيَّة ابن الوليد، حدَّثنا المطرِّف بن مازن الكِنَاني، حدَّثني مَعْمَر بن راشد قال: سمعت محمَّد بن عبد الرحمن الغِفَاري يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ ﷻ فِي العُمُرِ إِلَىٰ صَاحِبِ السِّتِّينَ سَنَةً وَالسَّبْعِينَ»(٧).

فقد صحَّ هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطَّريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصِّناعة لكفت. وقول ابن جرير: «إن في رجاله بعضَ مَنْ يجب التثبت في أمره»، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، والله أعلم.

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة(٨) وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلىٰ

---

(١) **صحيح:** البخاري (٦٤١٩)، والطبري (٢٢/ ١٤٢)، وأحمد (٢/ ٤١٧)، والنسائي في «الكبرىٰ»، كما في «تحفة الأشراف» (٩/ ٤٧٢)، واستُدرك بأنه ليس في الرواية، ولم يذكره أبو القاسم، ولم نجده - بعد البحث- في المطبوع من «الكبرىٰ» للنسائي.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) **صحيح:** رواه أحمد (٢/ ٤١٧)، والطبري (٢٢/ ٩٣).

(٤) سقط من (ز).

(٥) **صحيح:** رواه البزار في «مسنده» (٢/ ٤٠٥).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٠٩)، وأحمد (٢/ ٣٢٠، ٤٠٥).

(٧) الطبري (٢٢/ ٩٣)، وقد صرح بقية بن الوليد بالتحديث في جميع طبقات السند، فانتفت شبهة تدليسه.

(٨) لوحة (٣٢٦/ أ).

إلىٰ كمال السِّتِّين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهَرَم، كما قال الشاعر:

إِذَا بَلَغَ الفَتَىٰ سِتِّينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ المَسَرَّةُ وَالفَتَاءُ[١][٢]

ولما[٣] كان هذا هو العمر الذي يُعْذِر الله إلىٰ عباده به، ويُزِيح به عنهم العلل، كان هو الغالب علىٰ أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث، قال الحسن بن عَرَفة رَحِمَهُ اللَّهُ:

حدَّثنا عبد الرحمن بن محمَّد المُحَاربي[٤]، حدَّثنا محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»[٥].

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة جميعًا في (كتاب الزهد)، عن الحسن بن عرفة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وهذا عَجَبٌ من الترمذي[٦]؛ فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا[٧] من وجه آخر وطريق أخرىٰ عن أبي هريرة، حيث قال: حدَّثنا سليمان بن عمر، عن محمَّد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»[٨]. وقد رواه الترمذي في (كتاب الزُّهد) أيضًا، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمَّد بن ربيعة، به. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي صالح، عن أبي هريرة، وقد روي من غير وجه عنه، هذا نصه بحروفه في الموضعين، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أبو موسىٰ الأنصاري، حدَّثنا ابن أبي فُدَيْك، حدَّثني إبراهيم بن الفضل -مولىٰ بني مخزوم- عن المَقْبُرِيّ[٩]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مُعْتَرَكُ المَنَايَا مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ»[١٠].

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَقَلُّ أُمَّتِي أَبْنَاءُ سَبْعِينَ». إسناده ضعيف[١١].

---

(١) الفَتَاء: الشباب. (٢) في (ز): (العناء).

(٣) في (ز): قبل هذه الكلمة: «حديث آخر قال»، ولا موضع لها.

(٤) في (ز): (البخاري)، وهو خطأ.

(٥) حسن صحيح: رواه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجة (٤١٣٦) وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو: صدوق، وللحديث طريق أخرىٰ عن أبي هريرة رواه أبو يعلىٰ (٦٦٥٦)، وعزاه ابن كثير لابن أبي الدنيا، ورواه الترمذي أيضًا (٢٣٣١)، وقال: حسن غريب. قلت: وبمجموع الطريقين فالحديث صحيح.

(٦) وجه التعجب من ابن كثير؛ أن الترمذي قال عن الحديث: حسن غريب، والغرابة: أن يرد الحديث من طريق واحد، وهذا غير متحقق هنا، فالحديث ورد من طريق أخرىٰ، والعجب أن الترمذي روىٰ الحديث من الطريق الأخرىٰ (٢٣٣١)، كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير، فكان ينبغي أن يقول: حسن فقط، بل كان يقول: حسن صحيح.

(٧) في (ز): (أبو بكر بن أبي الدرداء). (٨) حسن صحيح: انظر التعليق قبل السابق.

(٩) في (ز): (المقري). (١٠) ضعيف جدًّا: رواه أبو يعلىٰ (٦٥٤٣)، وفيه إبراهيم بن الفضل؛ وهو متروك.

(١١) إسناده كسابقه، رواه أبو يعلىٰ (٦٥٤١).

حديث آخر في معنىٰ ذلك: قال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»:

حدَّثنا إبراهيم بن هانئ، حدَّثنا إبراهيم بن مهدي، حدَّثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن رِبْعِي، عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله، أنبئنا بأعمار أمتك. قال: «مَا بَيْنَ الخَمْسِينَ إِلَىٰ السِّتِّينَ[1]»، قالوا: يا رسول الله، فأبناء السبعين؟ قال: «قَلَّ مَنْ يَبْلُغُهَا مِنْ أُمَّتِي، رَحِمَ اللهُ أَبْنَاءَ[2] السَّبْعِينَ، وَرَحِمَ اللهُ أَبْنَاءَ الثَّمَانِينَ»[3].

ثم قال البزار: لا يروىٰ بهذا اللَّفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي.

وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثًا وستين سنة. وقيل: ستين. وقيل: خمسًا وستين سنة. والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، روي عن ابن عبَّاس، وعِكْرِمَة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان ابن عُيَيْنَة أنهم قالوا: يعني: الشيب.

وقال السُّدِّي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ، وقرأ ابن زيد: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦]. وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل.

وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف]، أي: لقد بيَّنَّا لكم الحقَّ علىٰ ألسنةِ الرُّسل، فأبيتُم وخالفتُم، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك].

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذابَ النَّار جزاءً علىٰ مخالفتكم للأنبياء في مدَّة أعمارِكُم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتُم فيه مِن العذاب والنَّكال والأغلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ بعلمه غيبَ السَّموات والأرض، وأنَّه يعلم ما تُكِنُّه السَّرائر وتنطوي عليه الضَّمائر، وسيُجازِي كلَّ عاملٍ بعمله.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: فإنَّما يعود وبالُ

---

(١) لوحة (٣٢٦/ ب).
(٢) في (ز): (من أبناء).
(٣) ضعيف: رواه البزار (٣٥٨٦- كشف) وفيه عثمان بن مطر: ضعيف.

ذَلك علىٰ نفسه دون غيره، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ[1] كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: كلما استمروا علىٰ كُفْرِهِم أبغضهم الله، وكلَّما استمرُّوا فيه خَسِرُوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخِلَافِ المؤمنين؛ فإنَّهم كلَّما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنَّة، وزاد أجرُهُ وأحبه خالقه وبارئُهُ ربُّ العالمين، [فسُبْحَان المقدِّر المدبِّر رب العالمين][2].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ -أي: من الأَصْنَام والأنداد- ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون مِن قطمير.

وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنَّما اتَّبعوا في ذلك أهواءَهُم وآراءَهُم وأمانيِّهِم الَّتِي تمنَّوها لأنفسِهِم، وهي غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالىٰ عن قدرتِهِ العظيمة الَّتِي بها تقوم السَّماء والأرض عن أمرِهِ، وما جعل فيهما من القوَّة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: لا يقدر علىٰ دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يَرَىٰ عبادَهُ وهم يكفرون به ويَعْصُونَه، وهو يحلم فيُؤخِّر، وينظر ويؤجل ولا يَعْجَل، ويسترُ آخرين ويغفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا غريبًا -بل منكرًا- فقال: حدَّثنا علي بن الحسين بن الجُنَيْد، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثني هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل[3]، عن الحكم بن أبان، عن عِكْرِمَة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسىٰ عليه السلام[4] علىٰ المنبر قال: «**وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَىٰ عليه السلام: هَلْ يَنَامُ اللهُ ﷻ؟ فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَأَرَّقَهُ ثَلَاثًا، وَأَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ، [فِي كُلِّ يَدٍ قَارُورَةٌ]**[5]**، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا. قَالَ: فَجَعَلَ يَنَامُ وَتَكَادُ يَدَاهُ تَلْتَقِيَانِ، ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ، فَيَحْبِسُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَىٰ، حَتَّىٰ نَامَ نَوْمَةً، فَاصْطَفَقَتْ [يَدَاهُ]**[6]**، فَتَكَسَّرَتِ الْقَارُورَتَانِ، قَالَ: ضَرَبَ اللهُ لَهُ**

---

(١) لوحة (٣٢٧/ أ).
(٢) ليست في (ز).
(٣) في (ز): (أمية بن سنبل)، وهو تصحيف.
(٤) لوحة (٣٢٧/ ب).
(٥) سقط من (ز).
(٦) سقط من (ز).

مَثَلًا: إِنَّ اللهَ لَوْ كَانَ يَنَامُ لَمْ تَسْتَمْسِكِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ»[(١)].

والظَّاهر: أنَّ هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليَّات المنكرة[(٢)]؛ فإن موسىٰ عليه السلام أجَلُّ من أن يُجَوِّز علىٰ الله عز وجل النوم، وقد أخبر الله تعالىٰ في كتابه العزيز بأنه: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وثبت في «الصحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -أَوِ: النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ[(٣)] مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[(٤)].

وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن بَشَّار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلىٰ عبد الله -هو: ابن مسعود- فقال: من أين جئتَ؟ قال: من الشَّام. قال: مَنْ لَقِيتَ؟ قال: لقيتُ كعبًا. قال: ما حدَّثك كعب؟ قال: حدَّثني أن السَّموات تدور علىٰ مَنْكِب مَلَك، قال: أفصدقته أو كذبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته، قال: لوددتُ أنَّك افتديت مِن رِحْلَتِك إليه براحلتك ورَحْلِها، كَذَب كعب؛ إن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[(٥)].

وهذا إسناد صحيح إلىٰ كعب وإلىٰ ابن مسعود. ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: ذهب جُنْدب البَجَلي إلىٰ كعب بالشام، فذكر نحوه. وقد رأيت في مصنف الفقيه يحيىٰ بن إبراهيم بن مُزَين الطُّلَيْطِلِيِّ، سماه «سير الفقهاء»، أورد هذا الأثر عن محمَّد بن عيسىٰ بن الطَّبَّاع، عن وَكِيع، عن الأعمش به. ثم قال: وأخبرنا زونان -يعني: عبد الملك بن الحسن- عن ابن وهب، عن مالك أنَّه قال: السَّماء لا تدور، واحتج بهذه الآية، وبحديث: «إِنَّ[(٦)] بِالمَغْرِبِ بَابًا لِلتَّوْبَةِ، لا يَزَالُ مَفْتُوحًا حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ»[(٧)]. قلتُ: وهذا الحديث في «الصَّحيح»، والله أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) منكر: رواه ابن جرير (٣/ ٨)، وفي إسناده أمية بن شبل، قال الذهبي في ترجمته: له حديث منكر عن الحكم بن أبان، وساق الحديث، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٢٥٤) من «سورة البقرة».

(٢) تقدم الكلام علىٰ «الإسرائيليات» في أول التفسير -«فضائل القرآن»-.

(٣) «سُبُحَات وجهه» يعني: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره. «فتاوىٰ العثيمين»: (٨/ ٢٣٧-شرح الواسطية).

(٤) مسلم (١٧٩)، وأحمد (٤/ ٣٩٥).

(٥) صحيح: رواه الطبري (٢٢/ ١٤٤).

(٦) لوحة (٣٢٨/ أ).

(٧) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٣٠)، وأحمد (٤/ ٢٤٠)، وقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «في الصحيح» وهم.

يخبر تعالىٰ عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جَهْد أيمانهم، قبل إرسال الرَّسول إليهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي: من جميع الأمم الذين أُرْسِل إليهم الرسل. قاله الضَّحَّاك وغيره، كقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات].

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ -وهو: محمَّد ﷺ- بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين، ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلىٰ كُفْرهم، ثم بَيَّن ذلك بقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتِّباع آيات الله، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالنَّاس في صدِّهم إيَّاهم عن سبيل الله، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدَّثه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إيَّاكَ وَمَكْرَ السَّيِّءِ، فَإِنَّهُ لا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**][1]، وَلَهُمْ مِنَ اللهِ طَالِبٌ»[2]، وقد قال محمَّد بن كعب القُرَظي: ثلاث مَن فعلهنَّ لم ينجُ حتىٰ ينزل بِهِ مَنْ مكرَ أو بغىٰ أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: [﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].][3].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: عقوبة الله لهم علىٰ تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغيَّر ولا تبدَّل، بل هي جارِيَة كذلك في كل مكذِّب، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوِّلُهُ عنهم أحد.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[4] وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (٣)، وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٠٩٨) إلىٰ «مسند ابن أبي عمر» عن أبي زكريا الكوفي، عن رجل، وإسناده مرسل.

(٣) سقط من (ز).

(٤) (٣٢٨/ ب).

يقول تعالىٰ: قُل يا محمَّد لهؤلاء المكذِّبين بما جئتهم به من الرِّسالة: سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذَّبوا الرُّسل؟ كيف دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فَخُلِّيَتْ منهم منازلهم، وسُلِبُوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنىٰ ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب الله مِن شيءٍ لما جاء أمر ربك؛ لأنه تعالىٰ لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: عليم بجميع الكائنات، قدير علىٰ مجموعها.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لو آخذهم بجميع ذُنُوبهم لأهلك جميع أهل الأرض وما يملكونه مِن دوابَّ وأرزاقٍ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنان، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجُعَلُ(١) أن يعذب في جُحْره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾(٢).

وقال سعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّي في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدَّواب.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ولكن يُنْظرهُم إلىٰ يَوم القيامة، فيحاسبهم يومئذٍ، ويوفي كلَّ عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهلَ الطاعة، وبالعقاب أهل المعصِية؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

آخر تفسير سورة «فاطر» ولله الحمد والمنَّة(٣).

---

(١) **الجعل**: حشرة كالخنفساء، تكثر في المواضع الندية، ج: جعلان.

(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٨٠١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٧٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٠٨/ ٣٤٥٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢١٤/ ٩٠٤٠)، والحاكم (٢/ ٤٦٥) وصححه.

(٣) جاء بعد هذه الكلمة في (ز): «وهو آخر الجزء الخامس، يتلوه -إن شاء الله تعالىٰ- في أول السادس تفسير «سورة يس»، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمَّد وآله وصحبه، وسَلَّم تسليمًا كثيرًا، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين». لوحة (٣٢٩/ أ).

سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أعن على إتمامه

تفسير سورة ﴿يسٓ﴾ مكية

قال أبو عيسىٰ الترمذي: حدَّثنا قتيبة وسفيان بن وَكِيع، حدَّثنا حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسي، عن الحسن بن صالح، عن هارون أبي محمَّد، عن مقاتل بن حيان، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ ﴿يسٓ﴾ ؛ وَمَنْ قَرَأَ ﴿يسٓ﴾ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ**»(١) .

ثم قال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من حديث حُميد بن عبد الرحمن. وهارون أبو محمَّد: شيخ مجهول، وفي الباب(٢) عن أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه، ولا يصح لضعف إسناده، وعن أبي هريرة: منظور فيه.

أما حديث الصدِّيق: فرواه [الحكيم الترمذي في كتابه «نوادر الأصول»](٣) . وأما حديث أبي هريرة: فقال أبو بكر البزار: حدَّثنا عبد الرحمن بن الفضل، حدَّثنا زيد -هو ابن الحباب- حدَّثنا حُميد -هو المكي، مولىٰ آل علقمة، عن عطاء -هو ابن أبي رباح- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ ﴿يسٓ﴾**».

ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيد، عن حميد(٤) .

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدَّثنا حجاج بن محمَّد، عن هشام بن زياد، عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ ﴿يسٓ﴾ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ**

---

(١) **قال الألباني رحمه الله: موضوع؛** رواه الترمذي (٢٨٨٧)، والدارمي (٣٤١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٦٠)، والقُضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٣٥)، وفيه هارون أبو محمَّد: مجهول، ومقاتل المذكور: صرح أبو حاتم بأنه ابن سليمان، وكذا الذهبي، انظر تحقيق ذلك في كتاب «السلسلة الضعيفة» للألباني (١٦٩)، ولذا فالحديث جزم الألباني بأنه موضوع لحال مقاتل هذا، فإنه كذاب، وضعفه الذهبي في «ميزان الاعتدال»، والزَّيْلعي في «تخريج أحاديث الكشاف».

(٢) تتبع الشيخ/ حسن الوائلي رحمه الله تعالى كلام الترمذي في «جامعه» وقوله عقب الأحاديث: «وفي الباب...» وقام بعزو هذه الروايات وتخريجها، فقدم خدمة جليلة لطلبة العلم شكر الله له صنيعه، وقد طبع كتابه في ستة مجلدات بعنوان: «نزهة الألباب في قول الترمذي: وفي الباب». وقد كان الشيخ الدكتور/ سعد الحميد حفظه الله يشير إلىٰ هذا الكتاب ويرجع إليه لا سيما في شرحه لجامع الترمذي الذي كان يلقيه بجامع الراجحي بالرياض.

(٣) بياض في (ز).

(٤) **ضعيف:** رواه البزار (٢٣٠٤- كشف)، وفيه حميد المكي: مجهول.

مغفورًا له، ومَنْ قرأ: ﴿حمٓ﴾ التي يُذكر فيها الدخان أصبح مغفورًا له». إسنادٌ جيدٌ[(١)].

وقال ابن حبان في «صحيحه»: حدَّثنا محمَّد بن إسحاق بن إبراهيم -مولىٰ ثقيف-، حدَّثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السَّكوني، حدَّثنا أبي، حدَّثنا زياد بن خَيْثمة، حدَّثنا محمَّد بن جُحادة، عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ ﴿يسٓ﴾ في ليلةٍ ابتغاء وجهِ الله غُفِر له»[(٢)].

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عارمٌ، حدَّثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقِل بن يَسار ﷺ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «البقرةُ سنامُ القرآنِ وذروتُه، نزل مع كلِّ آيةٍ منها ثمانون ملكًا، واستُخرِجت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ من تحتِ العرشِ فوُصِلت بها -أو: فوُصِلت بسورةِ البقرةِ- و﴿يسٓ﴾[(٣)] قلبُ القرآنِ[(٤)]، لا يقرؤها رجلٌ يُريدُ اللهَ والدارَ الآخرة، إلا غُفِر له، واقرءوها على موتاكم»[(٥)].

وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمَّد بن عبد الأعلىٰ، عن معتمر بن سليمان، به.

ثم قال الإمام أحمد: حدَّثنا عارم، حدَّثنا ابن المبارك، حدَّثنا سليمان التَّيمي، عن أبي عثمان -وليس بالنَّهدي-، عن أبيه، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوها على موتاكم». -يعني: ﴿يسٓ﴾[(٦)]-.

ورواه أبو داود، والنسائي في «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به، إلا أن في رواية النسائي: «عن أبي عثمان، عن معقل بن يسار».

ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة؛ أنَّها لا تُقرأ عند أمرٍ عسيرٍ إلا يسَّره الله.

---

(١) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٦٢٢٤)، والدارمي (٣٤١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٠٩)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٥٧)، والطيالسي، والعُقَيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٠٣)، وابن عَدِيٍّ (١/ ٤١٦)، من طريق الحسن عن أبي هريرة، ورواية الحسن عن أبي هريرة مختلف فيها، ولم يصرح الحسن بالسماع إلا في هذه الرواية التي ذكرها المصنف، لكنها من طريقه، وقال الدارقطني: هذا الحديث قد ثبت مرفوعًا وموقوفًا، وليس فيه شيءٌ يثبت انظر: «الموضوعات» لابن الجوزي -(١/ ٢٤٧)، وفيه هشام بن زياد أبو المِقدام: ضعيف، وبعضهم يجرحه بأنه متروك الحديث، وأيضًا فالحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة.

(٢) ضعيف: رواه ابن حبان (٢٥٧٤)، وهذا أيضًا من طريق الحسن عن جندب، والحسن: مدلس، وقد عنعن، ومدار الحديث عليه، ولذا لا يصلح شاهدًا للرواية السابقة.

(٣) لوحة (٢/ أ).

(٤) تتبع فضيلة الشيخ العلامة/ محمد عمرو عبد اللطيف ﷿ طرق حديث: «قلب القرآن يس»، وانتهىٰ إلىٰ أنه لم يصح منها شيء، وكتابه مطبوع. وانظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للشيخ العلامة الألباني ﷀ: (٥٨٦١).

(٥) **ضعيف عدا الفِقْرة الأولىٰ وهي قوله:** «البقرة سنام القرآن» فلها شواهد، يحسَّن بها وقد تقدم بيان ذلك في أول سورة البقرة: ذكر ما ورد في فضلها، أما هذا النص فورد عند أحمد (٥/ ٢٦)، والنسائي في «اليوم والليلة» (١٠٧٥)، وفيه رجل لم يسمَّ، ولعله هو أبو عثمان المذكور في الرواية الآتية، وهو مجهول.

(٦) ضعيف: رواه أبو داود (٣١٢١)، وابن ماجه (١٤٤٨)، و«المسند» (٥/ ٢٦)، وإسناده ضعيف لجهالة أبي عثمان.

وكأنَّ قراءتها عند الميت لتنزل الرَّحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الرُّوح، والله أعلم[(١)].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: إذا قرئت -يعني: ﴿يسٓ﴾- عند الميت خُفِّفَ عنه بها.

وقال البزار: حدَّثنا سلمة بن شبيب، حدَّثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوَدِدتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي». -يعني: ﴿يسٓ﴾[(٢)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

قد تقدَّم الكلام على الحُرُوفِ المقطَّعة في أوَّل «سورة البقرة»، ورُوي عن ابن عبَّاسٍ، وعِكْرِمَة، والضَّحَّاك، والحسن، وسفيان بن عُيَيْنَة، أن ﴿يسٓ﴾ بمعنى: يا إِنْسَان، وقال سعيد بن جبير: هو كذلك في لغة الحبشة، وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسمٌ من أسماء الله تعالى[(٣)].

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يدَيْه ولا من خلفه[(٤)].

---

(١) قال الشيخ محمَّد المنجد: وهذا اجتهادٌ منهم ليس عليه دليلٌ من الكتاب والسنة أو أقوال الصحابة والتابعين، ومثل هذا الاجتهاد لا يجوز نسبته إلى الله تعالى ورسوله. «الإسلام سؤال وجواب».

(٢) ضعيف: البزار (٢٣٠٥- كشف)، وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان: ضعيف.

(٣) وهذا فيه نظر؛ ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» للعلامة/ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (٢٢/ ٣٤٥).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة للقرآن وهي بمعنى مُحكِم، أو بمعنى مُحكَم، أو بمعنى حاكم كما تحتمل، فالقرآن حاكم؛ لأنه يجب الرجوع إليه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، وقال أيضًا: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ... تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] على القول بأن القرآن مُحكِم؛ لأنه متقنٌ للأشياء، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وكذلك أيضًا مُحكَم؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقضٌ ولا تعارضٌ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء]، وهو أيضًا مشتملٌ على الحكمة؛ ففيه معنى الحكمة والحكم، وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه:

- أولًا: حكيمٌ في ترتيبه، فكل آيةٍ إلى جنب الأخرى، حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما، فإنما ذلك إما لقصورنا أو لتقصيرنا؛ فمثلًا لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، جاء في سياق آيات العِدَدِ فما هو الارتباط؟!

نقول: إنه لابد أن هناك حكمةً، لكنْ قصُرتْ أفهامنا عنها، أو قصَّرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.

ثانيًا: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدلٌ، موافقة للفطرة وللعقل الصريح؛ ولهذا لا تجد شيئًا من أحكام القرآن مُناقضًا للفطرة أبدًا، بل هو موافقٌ للفطرة، ولا تجد شيئًا في القرآن يكذِّبه العقل، أو يُحيله أبدًا، بل إن العقل يقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثًا: حكيمٌ في أسلوبه؛ يشتد في مواضع الشِّدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليبَ غريبةٍ ما كانت معروفةً في أساليب العرب، فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياقٍ إنشائي؛ من استفهام، أو نهي، أو أمرٍ، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من =

﴿إِنَّكَ﴾ -يا محمَّد- ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: علىٰ منهجٍ ودينٍ قويمٍ، وشرعٍ مستقيم.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: هذا الصراط والمنهج والدِّين الَّذي جئتَ به مُنَزَّلٌ مِن ربِّ العزَّة، الرَّحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ[1] إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني بهم: العَرَب؛ فإنَّه ما أتاهم من نذيرٍ مِن قبله، وذِكْرُهم وحدهم لا ينفي مَنْ عداهُم، [كما زعمه بعض النَّصارىٰ][2]، كما أنَّ ذِكر بعض الأفراد لا يَنْفِي العموم، وقد تقدَّم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه عند قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾، قال ابن جرير: لقد وجب العَذاب علىٰ أكثرهم؛ بأن [الله قد][3] حتم عليهم في أمِّ الكتاب أنَّهم لا يؤمنون، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون رُسُلَهُ.

قوله:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ هؤلاءِ المحتوم عليهم بالشَّقاء نسبتهم إلىٰ الوُصُول إلىٰ الهدىٰ كنسبة من جُعِل في عنقه غُل فجمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسُه فصار مُقْمَحًا؛ ولهذا قال: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، والمُقْمَح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرْع في كلامها: «وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ»[4]. أي: أشرب فأرْوَىٰ، وأرفع رأسي تَهَنِّيًا وتَروِّيًا. واكتفىٰ بذكر الغُل في العُنُق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ... أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

= الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلىٰ صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوبٍ إلىٰ آخر، وهو ما يُسمىٰ بالالتفات، وأنواع هذا كثيرةٌ في القرآن.

- فالقرآن حكيمٌ بكل معنىٰ الحكمة، وبكل معنىٰ الإحكام، وبكل معنىٰ الحكم.

(١) لوحة (٢/ ب). (٢) ليست في (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) من حديث عائشة ﵂.

ٱلْخَيْـــرُ الَّـــذِي أَنَـــا أَبْتَغِيـــهِ أَمِ الـــشَّرُّ الَّـــذِي لا يَـــأْتَلِينِي [(١)]

فاكتفىٰ بذكر الخَير عن ذكر الشَّرِّ لما دلَّ السِّياق والكلام عليه، وكذا هذا، لما كان الغُلُّ إنَّما يعرف فيما جَمَع اليدين مع العنق، اكتفىٰ بذكر العنق عن اليدين.

قال العَوْفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ [(٢)] فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال: هو كقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩]، يعني بذلك: أن أَيدِيهم موثقةٌ إلىٰ أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخيرٍ.

وقال مجاهد: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال: رافعو رءوسهم، وأيديهم مَوْضُوعةٌ علىٰ أفواههم، فهم مغلولون عن كلِّ خيرٍ.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾، قال مجاهد: عن الحق، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق، فهُم يتَردَّدُون. وقال قتادة: في الضَّلالات.

وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخيرٍ ولا يهتدُون إليه.

قال ابن جرير: وروي عن ابن عبَّاس أنه كان يقرأ: «فَأَعْشَيْنَاهُمْ» -بالعين المهملة[(٣)]- من العَشَا، وهو داء في العَيْنِ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السَّدَّ بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يَخْلُصُون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، ثم قال: من منعه الله لَا يَسْتَطِيع.

وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمَّدًا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾، إلىٰ قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمَّد. فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يُبْصِرُه. رواه ابن جرير[(٤)].

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني يزيد بن زياد، عن محمَّد بن كعب قال: قال أبو جهل -وهم جلوس-: إنَّ محمَّدًا يزعُم أنَّكم إن تابعتموه كُنْتُم ملوكًا، فإذا مُتُّم بُعِثْتُمْ بعد موتِكُم، وكانت لكم جِنَانٌ خيرٌ مِن جنان الأرْدُن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بُعِثتم بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تُعذَّبون بها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك، وفي يده حَفْنةٌ من ترابٍ، وقد أخذ الله علىٰ أعينهم دونه، فجعل يَذُرُّها علىٰ رءوسهم، ويقرأ: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ

---

(١) أي: الذي لا يقصر في طلبي. (٢) لوحة (٣/ أ).
(٣) شاذة: قَرَأَ (فَأَعْشَيْنَاهُمْ) الْحَسَنُ، وَلَيسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (فَأَغْشَيْنَاهُمْ).
(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٢/ ٩٩)، وإسناده مرسل.

قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته، وباتوا رُصَدَاءَ علىٰ بابه، حتىٰ خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمدًا. قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم مِن رجلٍ[1] إلا قد وضع علىٰ رأسه ترابًا، ثم ذهب لحاجته، فجعل كل رجل منهم ينفض ما علىٰ رَأْسِه من التراب، قال: وقد بلغ النَّبيَّ ﷺ قولُ أبي جهلٍ فقال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ: إِنَّ لَهُمْ مِنِّي لَذَبْحًا، وَإِنَّهُ أَحَدُهُمْ»[2].

وقوله: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: قد ختم الله عليهم بالضَّلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثَّرون به.

وقد تقدم نظيرها في أوَّل «سورة البقرة»، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الَّذين يتبعون الذِّكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: [حيث][3] لا يَرَاهُ أحدٌ إلَّا الله، يعلم أنَّ الله مطَّلعٌ عليه، وعالمٌ بما يفعله، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي: لذُنُوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي: كبيرٍ واسعٍ حسنٍ جميلٍ، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ يحيي قلبَ مَنْ يشاء من الكفَّار الَّذين قد ماتت قلوبهم بالضَّلالة، فيَهْدِيهم بعد ذلك إلىٰ الحقِّ، كما قال تعالىٰ بعد ذِكْرِ قسوة القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد:١٧].

وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أي: من الأعمال.

وفي قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم الَّتي باشروها بأنْفُسِهم، وآثارهم الَّتي أثَّرُوها من بعدهم، فنجزيهم علىٰ ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كقوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا**».

رواه مسلم[4] من رواية شعبة، عن عون بن أبي جُحَيْفَة، عن المنذر بن جرير، [عن أبيه جرير][5] ابن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه، وفيه قصة مُجْتَابِي [النِّمَار][6] المُضَرِيِّين. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيىٰ

(١) لوحة (٣/ ب). (٢) رواه ابن هشام (٢/ ٩٥)، وإسناده مرسل.
(٣) سقط من (ز). (٤) مسلم (١٠١٧)، وأحمد (٢/ ٣١٦)، وابن حبان (٣٠١٦).
(٥) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.
(٦) سقط من (ز). والنِّمَار: جمع نَمِرَة، وهي كل شَمْلَةٍ مخططةٍ من مآزر الأعراب، كأنها أخذت من لون النمر؛ لما فيها من السواد والبياض، ومجتابو النمار: لابسوها خارقون أوساطها، يقال: اجتبت القميص: دخلت فيه.

ابن سليمان الجُعْفي، عن[1] أبي المُحَيَّاة يحيىٰ بن يَعْلَىٰ، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير بن عبد الله، فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[2].

وقد رواه مسلم من رواية أبي عَوَانة، عن عبد الملك بن عمير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه، فذكره[3].

وهكذا الحديث الآخر الذي في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ[4] انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ»[5].

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد قال: سمعت مجاهدًا يقول في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ قال: ما أورثوا من الضَّلالة.

وقال ابن لَهِيعَة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ يعني: ما أثروا. يقول: ما سنوا من سنةٍ، فعمل بها قومٌ من بعد موتهم[6]، فإن كان خيرًا فله مثل أجورهم، لا ينقص من أجر مَنْ عمله شيئًا، وإن كانت شرًّا فعليه مثل أوزارهم، ولا ينقص من أوزار مَن عمله شيئًا. ذكرهما ابن أبي حاتم، وهذا القول هو اختيار البَغَوِيّ[7].

والقول الثاني: أنَّ المراد بذلك آثار خطاهم إلىٰ الطَّاعة أو المعصية.

قال ابن أبي نَجِيح وغيره، عن مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾: أعمالهم. ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قال: خطاهم بأرجلهم، وكذا قال الحسن وقتادة: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ يعني: خطاهم، قال قتادة: لو كان الله تعالىٰ مُغْفِلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تعفي الرِّياح[8] من هذه الآثار، ولكن أحصىٰ علىٰ ابن آدم أثره وعمله كله، حتىٰ أحصىٰ هذا الأثر فيما هو مِن طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يُكْتَبَ أثرُهُ في طاعة الله فليفعل.

وقد وَرَدَت في هذا المعنىٰ أحاديثُ:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الجُرَيْري، عن أبي نَضْرَة، عن جابر بن عبد الله قال: خَلَت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسولُ الله ﷺ، فقال لهم: «إِنَّهُ[9] بَلَغَنِي أَنَّكُمْ[10] تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ

---

(١) لوحة (٤/ أ).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٤٤)، وفيه يحيىٰ بن سليمان: صدوق يخطئ، وبقية رجاله ثقات.

(٣) مسلم (١٠١٧). (٤) لفظ مسلم: «إذا مات الإنسان...». (٥) مسلم (١٦٣١).

(٦) في (ز): (من بعد موته). (٧) «معالم التنزيل» (٧/ ٩). (٨) أي: تمحوه وتُذْهِبه.

(٩) في (ز): (إني)، والمثبت موافق لما في «المسند». (١٠) لوحة (٤/ ب).

الْمَسْجِدِ». قالوا: [نعم][١] يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: «يَا بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»[٢].

وهكذا رواه مسلم، من حديث سعيد الجُرَيري وكَهْمس بن الحسن، كلاهما عن أبي نضرة - واسمه: المنذر بن مالك بن قُطَعَة العَبْدِي- عن جابر، به.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن الوزير الواسطي، حدَّثنا إسحاق الأزرق، عن سفيان الثوري، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: كانت بنو سَلِمَة في ناحيةٍ من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلىٰ قريبٍ من المسجد، فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ آثَارَكُمْ تُكْتَبُ». فلم ينتقلوا[٣].

انفرد بإخراجه التِّرمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة عن محمَّد بن الوزير، به. ثم قال: «حسن غريب من حديث الثوري».

ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عمر بن خالد الرَّقِّي، عن ابن المبارك، عن سفيان الثوري، عن طريف -وهو ابن شهاب؛ أبو[٤] سفيان السَّعْدي- عن أبي نضرة، به[٥].

وقد رُوِيَ من غير طريق الثوري، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا عباد بن زياد الساجي، حدَّثنا عثمان بن عمر، حدَّثنا شعبة، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: إنَّ بني سَلِمة شَكَوْا إلىٰ رسول الله ﷺ بُعْدَ مَنَازِلِهم من المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، فأقاموا في مكانهم.

وحدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثنا عبد الأعلىٰ، حدَّثنا الجُرَيري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه[٦]، وفيه غرابةٌ من حيث[٧] ذكْرُ نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكيةٌ، فالله أعلم[٨].

الحديث الثَّالث: قال ابن جرير: حدَّثنا نصر بن علي الجَهْضَمِي، حدَّثنا أبو أحمد الزبيري،

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٢) مسلم (٦٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٢).

(٣) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٣٧)، والترمذي (٣٢٢٦)، والحاكم (٢/ ٤٦٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وفيه أبو سفيان طريف بن شهاب السعدي: ضعيف كما في «التقريب» (٣٠١٣)، ولكنه توبع، كما أشار الحافظ ابن كثيرٍ إلىٰ رواية البزار، من طريق شعبة وعبد الأعلىٰ به، وهذا إسنادٌ صحيحٌ، وفي المتن غرابة بذكر نزول الآية؛ لأن السورة مكيةٌ.
وللحديث شاهد من حديث ابن عبَّاس؛ رواه ابن ماجه (٧٨٥)، والطبري (٢٢/ ١٥٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣١٠)، ورواية سماك عن عكرمة خاصة مضطربة.

(٤) في (ز): (ابن سفيان)، والمثبت هو الصواب.

(٥) الطبري (٢٢/ ١٠٠).

(٦) لم أقف علىٰ تخريجه.

(٧) في (ز): (من حديث).

(٨) قال الشيخ مقبل بن هادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن فيه غرابةً لأن السورة بكمالها مكية، فلم يظهر لي اتجاهه، فإذا ثبت أن هذه الآية نزلت بمكة فلا مانع من نزولها مرتين، وإن لم يثبت نزولها بمكة فقد تكون السورة مكية إلا آية كما هو معروف، والله أعلم». اهـ «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص١٧٤)، وانظر: «التحبير للأوهام والتنبيهات الواردة في تفسير ابن كثير» (ص٩٧).

حدَّثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: كانت منازل الأنصار متباعدةً من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلىٰ المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فقالوا: نثبت مكاننا، هكذا رواه، وليس[1] فيه شيءٌ مرفوعٌ[2].

ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمَّد بن سعيد بن أبي مريم، عن محمَّد بن يوسف الفِرْيابي، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كانت الأنصار بعيدةً منازلُهُم من المسجد، فأرادوا أن يتحوَّلوا إلىٰ المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فثبتوا في منازلهم[3].

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، حدَّثني حُيَيُّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: تُوُفِّي رجلٌ بالمدينة، فصلىٰ عليه النَّبيُّ ﷺ وقال: «**يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ**». فقال رجلٌ من النَّاس: ولِمَ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تُوُفِّيَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَىٰ مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الجَنَّةِ**»[4].

ورواه النَّسائي عن يونس بن عبد الأعلىٰ، وابن ماجه عن حَرْمَلة، كلاهما عن ابن وهب، عن حُيَيِّ بن عبد الله، به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا أبو تُمَيْلَةَ، حدَّثنا الحسين، عن ثابت قال: مشَيتُ مع أنسٍ فأسرعتُ المشيَ، فأخذ بِيَدِي فمَشَيْنا رُوَيدًا، فلمَّا قضينا الصَّلاة قال أنسٌ: مشيتُ مع زيد بن ثابتٍ فأسرعتُ المشي، فقال: يا أنس، أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكْتَب؟ أما شَعَرْتَ أن الآثار تكتب؟![5].

وهذا القول لا تنافِيَ بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيهٌ ودلالةٌ علىٰ ذلك بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، فإنَّه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فَلَأَنْ تُكْتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خيرٍ أو شرٍّ بطريق الأولىٰ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوحٍ محفوظٍ، والإمام المبين هاهنا: هو أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي: بكتاب أعمالهم الشَّاهد عليهم بما عملوه من خيرٍ و شرٍّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا[6] وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) لوحة (٥/ أ).

(٢) رواه الطبري (٢٢/ ١٥٤)، ورواية سِمَاك عن عكرمة خاصة مضطربة.

(٣) رواه الطبراني (١٢٣١٠)، وفيه عبد الله بن محمَّد بن سعيد بن أبي مريم: ضعيف.

(٤) **حسن**: رواه أحمد (٢/ ١٧٧)، والنسائي (٤/ ٧)، وابن ماجه (١٦١٤).

(٥) رواه الطبري (٢٢/ ١٥٤).

(٦) لوحة (٥/ ب).

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١)(١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَاضْرِبْ﴾ -يا محمَّد- لقومك الذين كذَّبوك ﴿مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عبَّاس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبِّه-: إنها مدينة أَنْطاكِيَّة، وكان بها مَلِكٌ يقال له: أنطيخس بن أنطيخس بن أنطيخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم: صادق وصدوق وشلوم، فكذَّبهم.

وهكذا رُوي عن بُريدة بن الحُصَيب، وعِكْرِمَة، وقتادة، والزُّهري: أنها أنطاكية.

وقد استشكل بعض الأئمة [كونَها](٢) أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالتَّكذيب، ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما وشددنا أزرَهُمَا برسولٍ ثالثٍ.

قال ابن جُرَيْج، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجُبَّائي قال: كان اسم الرسولين الأولين: شمعون ويوحنا، واسم الثالث: بولص، والقرية: أنطاكية.

﴿فَقَالُوا﴾ -أي: لأهل تلك القرية-: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العالية.

وزعم قتادة بن دِعَامة: أنهم كانوا رسل المسيح ﷺ إلىٰ أهل أنطاكية. ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم بشرٌ ونحن بشرٌ، فلِمَ لا أوحيَ إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكةً، وهذه شُبَه كثير من الأمم المكذِّبة، كما أخبر الله تعالىٰ عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكايةً عنهم في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]،

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ -في سياق سرده لفوائد الآية-: فكان منها: جواز التأكيد بما يشبه القسم؛ لقولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، وهل هذا أقوىٰ من التأكيد بالقسم، أو التوكيد بالقسم أقوىٰ؟ الظاهر: أن هذا أقوىٰ من التوكيد بالقسم؛ لأنهم إذا قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ولم يكونوا مُرسَلين، استلزم قولُهم هذا وَصْفَ اللهِ بالجهل والعجز والقصور؛ لأنهم إذا قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، ولم يكونوا مُرسَلين، معناه: أن الله علم الحال علىٰ خلاف ما كانت عليه.

(٢) سقط من (ز).

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء[1]: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي: أجابتهم رسلهم الثَّلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسلُهُ إليكم، ولو كنَّا كَذَبَةً عليه لانتقم منَّا أشدَّ الانتقام، ولكنَّه سيُعِزُّنا وينصُرُنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبةُ الدَّار، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يقولون: إنَّما علينا أن نبلِّغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، وإن لم تُجيبُوا فستعلمون غِبَّ ذلك[2].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نَرَ علىٰ وجوهِكُم خيرًا في عَيْشِنا.

وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شرٌّ فإنَّما هو مِن أجلِكُم.

وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلُكُم إلىٰ قريةٍ إلا عُذِّب أهلها.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشَّتم.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: عقوبةٌ شديدةٌ. فقالت لهم رسلهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: مردودٌ عليكم، كقوله تعالىٰ في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال قوم صالح[3]: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]. وقال قتادة، ووهب بن منبِّه: أي أعمالكم معكم. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: مِن أجل أنَّا ذكَّرناكم وأمرناكم بتوحيدِ اللهِ وإخلاص العبادةِ له، قابلتمونا بهذا الكَلام، وتوعَّدتُمُونا وتهددتمونا؟! بل أنتم قومٌ مُسْرِفون.

وقال قتادة: أي إن ذكَّرناكم بالله تطيَّرتم بنا، بل أنتم قومٌ مسرفون.

---

(١) لوحة (٦/ أ).

(٢) غِبَّ ذلك: عاقبته.

(٣) في (ز): (قوم لوط)، وهو خطأ.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (١) ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢) ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عبَّاس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه-: إن أهل القرية هَمُّوا بقتلِ رسلِهم، فجاءهم(٣) رجلٌ من أقصىٰ المدينة يسعىٰ؛ أي: لينصرهم من قومه -قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجَرِير؛ وهو الحبال- وكان رجلًا سقيمًا قد أسرع فيه الجُذَام، وكان كثيرَ الصَّدقة، يتصدَّق بنصفِ كسبِهِ، مستقيمَ النَّظرَة.

وقال ابن إسحاق، عن رجلٍ سماه، عن الحَكَم، عن مِقْسَم -أو: عن مجاهد- عن ابن عبَّاس قال: كان اسم صاحب «يس»: حبِيب، وكان الجذام قد أسرعَ فيه.

وقال الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجْلَز: كان اسمه: حبيب بن مُرَىٰ.

وقال شبيب بن بشر، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: اسم صاحب «يس»؛ حبيب النَّجَّار، فقتله قومه.

وقال السُّدِّي: كان قَصَّارًا(٤). وقال عمر بن الحكم: كان إِسْكافًا(٥). وقال قتادة: كان يتعبَّد في غارٍ هناك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، يحض قومه علىٰ اتِّباع الرُّسُل الَّذين أتَوهم، ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: علىٰ إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني مِن إخلاص العِبَادة للَّذي خلقني وحده لا شَريكَ له، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم المَعَاد، فيجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾؟ استفهام إنكارٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ، ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها مِن دونه لا يملكون من الأمر شيئًا، فإنَّ الله لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]، وهذه الأصنام لا تملك دَفْع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني ممَّا أنا فيه، ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن اتَّخذتها آلهةً مِن دون الله.

---

(١) لوحة (٦/ ب).

(٢) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا تلطُّف في الإرشاد؛ بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه. والمراد تقريعهم علىٰ ترك عبادة خالقهم إلىٰ عبادة غيره.

(٣) في (ز): (فجاء رجل).

(٤) القَصَّار: المبيض للثياب، وكان يهيأ النسيج بعد نسجه ببله ودقه بالقَصَرة -وهي خشبة-. «المعجم الوسيط».

(٥) الإسكاف: الخَرَّاز، وصانع الأحذية ومصلحها. ج: أَسَاكِفَة.

وقوله: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ ، قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عبَّاس، وكعب، ووهب- يقول لقومه: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الَّذِي كفرتم به، ﴿فَاسْمَعُونِ ﴾[1] أي: فاسمعوا قولي.

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: الذي أرسلكم، ﴿فَاسْمَعُونِ ﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربِّي، إني آمنت بربِّكم واتَّبعتُكُم، وهذا الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنىٰ، والله أعلم.

قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عبَّاس، وكعب، ووهب-: فلما قال ذلك وَثَبُوا عليه وَثْبَةَ رجلٍ واحدٍ فقتلوه، ولَمْ يكن له أحدٌ يمنع عنه.

قال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: «اللَّهمَّ اهْدِ قومِي، فإنَّهم لا يَعْلَمُون». فلم يزالوا به حتىٰ أَقْعَصُوه[2] وهو يقول كذلك، فقتلوه رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾

قال محمَّد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: إنَّهم وَطِئُوه بأرجلهم حتىٰ خرج قُصْبُهُ[3] من دُبُرِهِ، وقال الله له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ، فدخلها، فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقْم الدُّنيا وحُزْنَها ونَصَبَهَا.

وقال مجاهد: قيل لـ«حبيب النجار»: ادخل الجنة، وذلك أنه قُتِل فوجبت له، فلما رأىٰ الثواب ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة: لا تلقىٰ المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًّا؛ لَمَّا عَايَن مَا عَايَن من كرامة الله ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ؛ تمنَّىٰ [علىٰ الله][4] أن يعلم قومه ما عَايَن مِن كرامة الله له، وما هجم عليه.

وقال ابن عبَّاس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجْلَزٍ: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾: بإيماني بربِّي وتصديقي المرسلين.

---

(١) لوحة (٧/ أ).

(٢) القَعْصُ والقَعَصُ: القتل المُعْجِل؛ وضربه فأقعصه، أي: قتله في مكانه، وقعصته وأقعصته: قتلته قتلًا سريعًا. «اللسان»: قعص.

(٣) أي: أمعاءه.

(٤) في (ز): (تمنىٰ والله).

ومقصوده: أنَّهم لو اطَّلعُوا علىٰ ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنَّعيم المقيم لقادهم ذلك إلىٰ اتِّباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصًا علىٰ هِدَايَةِ قومه (١).

[قال] (٢) ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عبيد الله، حدَّثنا ابن جابر -وهو محمَّد (٣)- عن عبد الملك -يعني: ابن عمير- قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنَّبيِّ ﷺ: ابعثني إلىٰ قومي أدعوهم إلىٰ الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ». فقال: لو وجدوني نائمًا [ما] (٤) أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ: «انْطَلِقْ». فانطلق فمرَّ علىٰ اللَّاتِ والعُزَّىٰ، فقال: لَأُصَبِّحَنَّكِ غدًا بما يسوءك. فغضبت ثَقِيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللَّات لا لات، وإنَّ العُزىٰ لا عُزىٰ، أَسْلِمُوا تَسْلَموا، يا مَعْشَرَ الأحلافِ، إن العزَّىٰ لا عزَّىٰ، وإنَّ اللَّات لا لات، أسلموا تسلموا، قال ذلك ثلاث مراتٍ، فرماه رجلٌ فأصاب أَكْحَلَه (٥) فقتله، فبلغ رسولَ الله ﷺ فقال: «هَذَا مَثَلُهُ كَمَثَلِ صَاحِبِ ﴿يسٓ﴾، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾» (٦).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزْم؛ أنه حدَّث عن كعب الأحبار: أنه ذُكِرَ له حبيب بن زيد بن عاصم -أخو بني مازن بن النجار- الذي كان مُسَيْلِمَة الكذاب قَطَّعه باليَمَامَة (٧)، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول: أتشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أنِّي رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فيقول له مسيلمة: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟! فيقول: نعم، فجعل يُقَطِّعه عضوًا عضوًا، كلَّما سأله لم يزده علىٰ ذلك، [حتىٰ مات في يديه] (٨). فقال كعبٌ -حين قيل له: اسمه «حبيب»-: وكان والله صاحب ﴿يسٓ﴾ اسمه: حبيب (٩).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ يخبر تعالىٰ أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إيَّاه، غضبًا منه تعالىٰ عليهم؛ لأنَّهم كذَّبوا رسله، وقتلوا وَلِيَّه، ويذكر تعالىٰ: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في (١٠) إهلاكه إيَّاهم إلىٰ إنزال جندٍ مِن الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك، قاله ابن مسعود، فيما رواه ابن إسحاق، عن بعض أصحابه عنه، أنه قال في قوله: ﴿وَمَآ

---

(١) لوحة (٧/ ب).
(٢) بياض في (ز).
(٣) في (ز): (حدَّثنا جابر وهو ابن محمَّد)، والمثبت هو الصواب.
(٤) بياض في (ز).
(٥) الأكحل: عِرْق في وسط الذراع، قال الخليل: هو عرق الحياة. ويقال: إن في كل عضو منه شعبة؛ فهو في اليد: الأَكْحَل، وفي الظهر: الأَبْهَر، وفي الفَخِذ: النَّسَا، إذا قطع لم يرقأ الدم. «فتح الباري» -أي: أنه قاتل-.
(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٤٧)، وفيه محمَّد بن جابر. قال الحافظ: صدوق ذهبت كتبه فساء حفظه وخلط كثيرًا، وعمي فصار يُلَقَّن، وأما هشام بن عبيد الله فقد قال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن حبان: كان يَهِمُ ويخطئ علىٰ الأثبات.
(٧) اليمامة: معدودة من نَجْد -الرياض الآن-. ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ٤٤٢)، و«الموسوعة العربية العالمية».
(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٩) محمَّد بن إسحاق: مدلس، وقد عنعن، والإسناد منقطع، ثم هو من كلام كعب الأحبار، وهو يروي الإسرائيليات.
(١٠) في (ز): (إلىٰ إهلاكه).

أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾[١]، أي: ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾، قال: فأهلك الله ذلك المَلِك، وأَهْلَك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبقَ منهم باقيةٌ.

وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إِذَا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذابًا[٢] يدمرهم.

وقيل: المعنىٰ في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من رسالة أخرىٰ إليهم. قاله مجاهد وقتادة، قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

قال ابن جرير: والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّ الرِّسالة لا تسمَّىٰ جندًا.

قال المفسِّرون: بعث الله إليهم جبريل ﷺ فأخذ بعِضَادَتَي باب[٣] بَلَدِهِم، ثمَّ صاح بهم صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبقَ فيهم روح تتردد في جَسَدٍ.

وقد تقدَّم عن كثيرٍ من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأنَّ هؤلاء الثلاثة كانوا رسلًا من عند المسيح ﷺ، كما نصَّ عليه قتادة وغيره، وهو الَّذي لم يُذْكَر عَن واحدٍ مِن مُتَأَخِّري المفسِّرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدُهَا: أنَّ ظاهر القصَّة يدلُّ علىٰ أنَّ هؤلاء كانوا رسل الله ﷻ لا مِن جهة المسيح، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، إلىٰ أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٤-١٧]. ولو كان هؤلاء من الحَوَارِيِّين لقالُوا عبارَةً تُنَاسِب أنَّهم مِن عند المسيح ﷺ، والله أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:١٥].

الثاني: أنَّ أهل أنطاكية آمنوا برُسُل المسيح إليهم، وكانوا أَوَّل مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النَّصارىٰ إحدىٰ المدائن الأربعة اللَّاتي فيهن بَتَارِكَةٌ، وهنَّ: القدس؛ لأنَّها بلد المسيح، وأنطاكية؛ لأنَّها أوَّل بلدةٍ آمَنَتْ بالمسيح عن آخر أهلِهَا، والإسكندرية؛ لأنَّ فيها اصطلحوا علىٰ اتِّخاذ البَتَارِكة والمَطَارِنَة والأساقِفَة والقَسَاوِسَة والشَّمَامِسَة والرَّهَابين[٤]. ثم رُوميَّة؛ لأنها مدينة الملك قُسْطَنْطِين الَّذي نصر دينهم وأطَّدَهُ[٥]، ولما ابْتَنَىٰ القسطنطينيَّة نقلوا البَتْرَكَ مِن رُوميَّة إليها، كما ذكره غير واحدٍ ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بَطْرِيق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا

---

(١) لوحة (٨/ أ). (٢) في (ز): (عقابًا). (٣) عِضَادتا الباب: ناحيتاه.

(٤) لوحة (٨/ ب)، وهذه المذكورة كلها ألقاب ودركات ومسميات لرجال دين النصارىٰ ووظائفهم.

(٥) أي: وطده وثبته.

تقرَّر أنَّ أنطاكيَّة أوَّل مدينة آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالىٰ أنَّهم كذَّبوا رسلهم، وأنَّه أهلكهم بصَيْحَةٍ واحدةٍ أخمدتهم[1]، فالله أعلم.

الثَّالث: أنَّ قصَّة أنطاكية مع الحواريِّين أصحاب المسيح بعد نزول التَّوراة، وقد ذكر أبو سعيدٍ الخدريِّ وغيرُ واحدٍ من السَّلف: أنَّ الله تعالىٰ بعد إنزالِهِ التَّوراةَ لَمْ يُهْلِك أُمَّةً مِن الأمم عَن آخِرِهِم بعذابٍ يبعثه عليهم، بل أمر المُؤمِنِين بعد ذلك بِقِتَال المشركين[2]، ذكروه عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. فعلىٰ هذا يتعيَّن أنَّ هذه[3] القرية المذكورة في القُرآن العَظِيم قرية أُخرَىٰ غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحدٍ مِن السَّلف أيضًا، أو تكون أنطاكية -إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصَّة- مدينة أخرىٰ غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنَّها أُهْلِكَت لا في الملَّة النصرانيَّة ولا قبل ذلك، والله ﷻ أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِي، حدَّثنا الحسين بن أبي السَّري العَسْقَلاني، حدَّثنا حُسَين الأشقر، حدَّثنا ابن عُيَيْنَة، عن ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**السُّبَّقُ ثَلَاثَةٌ؛ فَالسَّابِقُ إِلَىٰ مُوسَىٰ: يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَالسَّابِقُ إِلَىٰ عِيسَىٰ: صَاحِبُ ﴿يسٓ﴾، وَالسَّابِقُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ**»[4]، فإنه حديثٌ منكرٌ، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر، وهو شيعيٌّ متروكٌ.

---

(١) في (ز): (أخذتهم).

(٢) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: وما ذكره ابن كثير من وقوع عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلىٰ قاطع، وإلا فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها، والصيحة أعم من أن تكون صيحةً سماويةً، أو صيحةً أرضيةً، وهي صيحة من سُلِّط عليهم للانتقام منهم، حتىٰ أباد ملكهم وقهر صَوْلَتهم ومحا من الوجود سلطانهم، وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول، وبالجملة فنحن يكفينا من النبإ الاعتبار به وفهمه مجملًا، وأما تعيينه بوقتٍ ما، وفئة ما، فهو الذي ينشأ منه ما ينشأ، وما بنا من حاجةٍ إلىٰ الزيادة عن الاعتبار، وتخصيصِ ما لا قاطعَ عليه.

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: ما جاء في التفسير من كون الرسل هم رسل عيسىٰ عليه السلام، وأن القرية هي أنطاكية -هو ما عليه أكثر المفسرين مثل قتادة وابن جرير وغيرهما، إلا أن ابن كثير رحمه الله تعالىٰ رجَّح أن الرسل رسل من الله تعالىٰ، وأن القرية ليست أنطاكية، وحجته فيما رآه أن الله تعالىٰ لم يهلك أمَّة بعد نزول التوراة، وهذه القرية أهلك أهلها، وهذه غفلة منه -رحمه الله تعالىٰ- إذ أهلك الله أهل قرية كانت حاضرة البحر، ومسخ أهلها قردةً وخنازير علىٰ عهد داود بعد نزول التوراة بقرن، وإنما رفع هلاك العامَّة بعد بعثة النبي محمد نبي الرحمة ﷺ.

(٣) في (ز): (أن أهل القرية).

(٤) منكر: رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١١١٥٢)، وفيه حسين الأشقر: قال البخاري: فيه نظر، وفي موضع آخر: عنده مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بالندي «تهذيب الكمال» (٦/ ٣٦٦)، وقال الحافظ: صدوق يهم ويغلو في التشيع (تقريب - ترجمة ١٣١٨). قلت: وإنما اعتمد الحافظ على قول ابن معين وقد سئل عنه: صدوق؟ قال: نعم، كتبت عنه. وهذا عندي فيه نظر، فقد اتفق النقاد علىٰ تجريحه، وجرحهم مفصل، أو يحمل كلام ابن معين علىٰ أنه صدوق في نفسه، لكنه لا يصح حديثه، والراجح أنه منكر الحديث.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ[(١)] مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي: يا ويل العباد.

وقال قتادة: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[(٢)]، أي: يا حسرة العباد علىٰ أنفسهم، [علىٰ][(٣)] ما ضيعت من أمر الله، فَرَّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءة: «يا حسرةَ العبادِ علىٰ أنفسها».

ومعنىٰ هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العَذَاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنَّهم كانوا في الدَّار الدُّنيا المكذبون منهم.

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: يكذِّبونه ويستهزئون به، ويجحَدُون ما أُرسِلَ به من الحقِّ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: أَلَمْ يتَّعِظُوا بمَن أهلك الله قَبْلَهُم من المكذِّبين للرُّسل، كيف لم تكن لهم إلىٰ هَٰذِه الدُّنيا كَرَّةٌ ولا رجعةٌ، ولم يكن الأمرُ كما زعم كثيرٌ مِن جَهَلَتِهِمْ وفَجَرتهم مِن قولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدَّور مِن الدَّهريَّة، وهم الَّذين يعتقدون جهلًا منهم أنهم يعودون إلىٰ الدُّنيا كما كانوا فيها، فرَدَّ الله تعالىٰ عليهم باطلهم، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي: وإن جميع الأُمَمِ الماضِيَة والآتية ستحضر[(٤)] للحساب يوم القيامة بين يَدَي الله ﷻ، فيجازيهم بأَعْمَالِهم كلِّها خيرها وشرها، ومعنىٰ هذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [هود: ١١١].

وقد اختلف القرَّاء في أداء هذا الحرف؛ فمنهم مَنْ قرأ: «وَإِنْ كُلٌّ لَمَا» -بالتَّخفيف-، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم مَنْ شدَّد «لَمَّا»[(٥)] وجعل «إنْ» نافية، و«لمَّا» بمعنىٰ «إلَّا» تقديره: وما كلٌّ إلا جميعٌ لدينا محضرون، ومعنىٰ القراءتين واحدٌ، والله أعلم.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وقيل: إن التحسر من الله ﷻ، لكن ليس معناه أنه يتصف به، بل المعنىٰ أنه يبين حسرة العباد علىٰ أنفسهم، يقول: يا حسرة، واقعة علىٰ العباد، فتكون ﴿عَلَى﴾ قريبة من معنىٰ ﴿مِنَ﴾؛ يعني أن الله تعالىٰ يبين أن هؤلاء العباد المُكذبين سوف يتحسرون علىٰ تكذيبهم، وهذا أقرب إلىٰ السياق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾، فالكلام كلام الله ﷻ، لكن لمَّا كان التحسُّر ندمًا وألمًا صار الله تعالىٰ مُنزهًا عنه، فوجب أن يكون المُراد: يا حسرةً واقعةً عليهم؛ أي: ما أشدَّ تحسُّرَ العبادِ علىٰ ما فعلوا من التكذيب للرسل!

(٢) لوحة (٩/ أ). (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (تستحضر).

(٥) متواترة: قَرَأَ (لَمَّا) ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَابْنُ جَمَّازٍ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لَمَا).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: دلالةٌ لهم علىٰ وجود الصَّانع وقدرته التَّامَّة وإحيائه الموتىٰ؛ ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: إذا كانت ميْتةً هامدةً لا شيءَ[1] فيها من النَّبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزَّت وربَت، وأنْبَتَتْ مِن كلِّ زوجٍ بهيجٍ؛ ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جعلناه رزقًا لهم ولأنعامهم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: جعلنا فيها أنهارًا سارحةً في أمكنةٍ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره؛ لمَّا امتنَّ علىٰ خلقه بإيجادِ الزُّرُوع لهم عَطَف بذكر الثِّمار وتنوُّعِها وأصنافها.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا مِن رحمةِ الله بهم، لا بِسَعْيِهم ولا كَدِّهِم، ولا بحولهم ولا قوتهم. قاله ابن عبَّاسٍ وقتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي: فهلَّا يشكرونه علىٰ ما أنعم به عليهم من هذه النِّعم الَّتي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ؟! واختار ابن جرير -بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالًا- أن «مَا» في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنىٰ: «الذي»، تقديره: ليأكلوا مِن ثمره ومما عملته أيديهم؛ أي: غرَسُوه ونَصَبُوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[2].

ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: مِن زروعٍ وثمارٍ ونباتٍ. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكرًا وأنثىٰ، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقاتٍ شتَّىٰ لا يعرفونها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: ومن الدَّلالة لهم علىٰ قدرتِه تعالىٰ العظيمةِ خلق اللَّيل والنَّهار، هذا بظلامه وهذا بِضِيَائِه، وجعلهما يتعاقَبان، يجيءُ هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ

---

(١) لوحة (٩/ ب).

(٢) قراءة: قَرَأَ (وَمِمَّا عَمِلَتْهُ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَفِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَرَأَ (وَمَا عَمِلَتْ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَشُعْبَةُ وَوَافَقَهُمُ الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَمَا عَمِلَتْهُ).

﴿حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نَصْرِمُه[1] منه فيذهب، فيقبل اللَّيل؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، كما جاء في الحديث: «**إِذَا أَقْبَلَ[2] اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[3]. هذا هو الظَّاهر من الآية.

وزعم قتادةُ أنَّها كقوله تعالىٰ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] وقد ضَعَّف ابن جريرٍ قولَ قتادة هاهنا، وقال: إنما معنىٰ «الإيلاج»: الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مرادًا في هَذِه الآية، وهذا الذي قاله ابن جريرٍ حقٌّ.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، في معنىٰ قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان:

أحدهما: أنَّ المراد: مستقرُّها المكاني، وهو تحت العرش ممَّا يَلِي الأرض في ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنَّه سقفها، وليس بكُرَةٍ كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبَّةٌ ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رءوس النَّاس، فالشمس إذا كانت في قبة الفَلَك وقت الظَّهيرة تكون أقرب ما تكون من العَرْش، فإذا استدارتْ في فَلَكِها الرَّابع إلىٰ مقابلة هذا المقام، وهو وَقْت نصفِ اللَّيل، صارت أبعد ما تكون من العَرْش، فحينئذٍ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث.

قال البخاري: حدَّثنا أبو نُعَيْم، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم [التَّيمي][4]، عن أبيه، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النَّبيِّ ﷺ في المسجدِ عند غروب الشمس، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟**» قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾».

حدَّثنا عبد الله بن الزبير الحُميديُّ، حدَّثنا وَكِيعٌ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؟ قال: «**مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ**»[5].

كذا أورده هاهنا. وقد أخرجه في أماكن متعددة، ورواه بقيَّة الجماعة إلا ابنَ ماجه، من طرق، عن الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن عبيد، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه[6]، عن أبي ذرٍّ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وَجَبَت الشمس[7]، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ؟**»، قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا** عز وجل،

---

(١) نصرمه: نقطعه ونأخذه. (٢) لوحة (١٠/ أ).
(٣) البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠)، وأبو داود (٢٣٥١)، والترمذي (٦٩٨)، والنسائي.
(٤) ليست في (ز). (٥) البخاري (٣٣٩٩) و(٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩)، والترمذي (١٨٦).
(٦) لوحة (١٠/ ب). (٧) أي: سقطت للمغيب.

فَتَسْتَأْذِنُ فِي الرُّجُوعِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ إِلَىٰ مَطْلِعِهَا، وَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾»[١] .

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ حين غربت الشمس: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ [تَحتَ][٢] العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، وَيُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾»[٣] .

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو قال في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: إنَّ الشَّمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم، حتىٰ إذا غربت [سلَّمت وسجدت واستأذنت][٤] ، فيُؤْذَن لها، حتىٰ إذا كان يومٌ غَرَبَتْ فسلَّمت وسجدت، واستأذنت فلا يُؤْذَن لها، فتقول: إنَّ المسيرَ بعيدٌ، وإنِّي إلَّا يؤذنْ لي لا أبلغْ، فتُحبَسُ ما شاء الله أن تُحبَسَ، ثم يقال لها: «اطْلُعِي من حيث غَرَبْتِ». قال: «فمِن يومئذٍ إلىٰ يوم القيامة لا ينفع نفسًا إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا»[٥] .

وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؛ هو [انتهاء سيرها، وهو][٦] غاية ارتفاعها في السَّماء في الصَّيف، وهو أَوْجُها، ثم غاية انخفاضها في الشِّتاء وهو الحَضِيض.

والقول الثَّاني: أنَّ المراد بمستقرِّها: هو منتهىٰ سيرها، وهو يوم القيامة، يَبْطُل سيرها وتسكُنُ حركتها وتكوَّر، وينتهي هذا العالم إلىٰ غايته، وهذا هو مستقرها الزَّماني.

قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه.

وقيل: المراد: أنَّها[٧] لا تَزَال تنتقل في مطالِعِهَا الصَّيفيَّة إلىٰ مدَّةٍ لا تزيد عليها، ثم تنتقلُ في مطالع الشِّتاء إلىٰ مدَّةٍ لا تزيد عليها، يُرْوَىٰ هذا عن عبد الله بن عمرو.

وقرأ ابن مسعود، وابن عبَّاس: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا»[٨] ، أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرةٌ ليلًا ونهارًا، لا تفترُ ولا تقفُ. كما قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، أي: لا يَفْتُران ولا يَقِفَان إلىٰ يوم القِيَامَة.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الَّذي لا يخالَفُ ولا يُمانَع، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات،

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٥٢)، وانظر ما قبله.
(٢) سقط من (ز).
(٣) رواه البخاري (٣١٩٩).
(٤) هذه الجملة تكررت في (ز).
(٥) ضعيف: رواه عبد الرزاق (٢/ ١٤٢)، وفيه وهب بن جابر: مقبول؛ أي: إذا توبع، ولم يتابعه أحدٌ. فالإسناد ضعيف.
(٦) سقط من (ز).
(٧) لوحة (١١/ أ).
(٨) قراءة: قَرَأَ (لا مُسْتَقَرَّ) ابنُ مَسْعُودٍ وَابنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي المُتَوَاتِرِ إِلَّا (لِمُسْتَقَرٍّ).

وقد قدر ذلك وقنَّنه علىٰ مِنْوَالٍ لا اختلاف فيه ولا تَعَاكُس، كما قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ (١) ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية «حم السجدة» بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]. ثم قال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعلناه يَسِير سيرًا آخر يستدل به علىٰ مُضِيِّ الشهور، كما أنَّ الشَّمس يعرف بها اللَّيل والنَّهار، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ الآية [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، فجعل الشمس لها ضوءٌ يخصُّها، والقمر له نورٌ يخصُّه، وفاوتَ بين سيرِ هذه وهذا، فالشَّمس تطلع كلَّ يوم وتغرب في آخره علىٰ ضوءٍ واحدٍ، ولكن تنتقلُ في مطالعها ومغارِبها صيفًا وشتاءً، يطول بسبب ذلك النَّهار ويقصر اللَّيل، ثمَّ يطولُ اللَّيل ويقصر النَّهار، وجعل سلطانها بالنَّهار، فهي كوكبٌ نهاريٌّ، وأمَّا القمر فقدَّره منازل، يطلع في أوَّل ليلةٍ مِن الشَّهر ضئيلًا قليلَ النُّور، ثم يزداد نورًا في اللَّيلة الثَّانية، ويرتفع منزلة، ثم كلَّما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبسًا من الشَّمس، حتىٰ(٢) يتكامل نورُهُ في اللَّيلة الرَّابعة عشرة، ثم يشرع في النَّقص إلىٰ آخر الشَّهر، حتىٰ يصيرَ ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قال ابن عبَّاس: وهو أصل العِذْق. وقال مجاهد: العُرجُون(٣) القَدِيم: أي العِذْق اليَابِس.

يعني ابن عبَّاس: أصلَ العنقودِ مِن الرُّطب إذا عَتُقَ(٤) ويَبُس وانحنىٰ، وكذا قال غيرهما، ثم بعد هذا يُبْدِيه الله جديدًا في أوَّل الشَّهر الآخر، والعرب تسمِّي كلَّ ثلاث ليالٍ من الشهر باسم باعتبار القمرِ، فيسمون الثلاث الأول «غُرَر»، واللَّواتي بعدها «نُفَل»، واللواتي بعدها «تُسَع»؛ لأنَّ أخراهن التَّاسعة، واللَّواتي بعدها «عُشَر»؛ لأنَّ أولاهن العاشرة، واللَّواتي بعدها «البيض»؛ لأنَّ ضوءَ القَمَرِ فيهنَّ إلىٰ آخرهن، واللَّواتي بعدهن «دُرَع» جمع «دَرْعاء»؛ لأن أولهن سُود لتأخر القَمَرِ في أولهن، ومنه: «الشَّاة الدَّرعاء»، وهي التي رأسها أسود، وبعدهن ثلاث «ظُلَم»، ثم ثلاث «حَنَادس»، وثلاث [دآدئ](٥)، وثلاث «مُحَاق»؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن، وكان أبو عُبيد ينكر «التُّسَع» و«العُشَر». كذا قال في كتاب «غريب المصنف».

وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، قال مجاهد: لكلٍّ منهما حدٌّ لا يعدُوهُ ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطانُ هذا جاء سلطانُ هذا.

---

(١) متواترة: قَرَأَ (وَجَعَلَ اللَّيْلَ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الأَعْمَشُ، وَقَرَأَ البَاقُونَ (وَجَاعِلِ اللَّيْلِ).

(٢) لوحة (١١/ ب).

(٣) العُرْجُون: ما يحمل التمر والعِذْق، وهو من النخل كالعنقود من العنب، ج: عراجين.

(٤) أي: قدم ومضت عليه فترة جف فيها. (٥) في (ز): (داري).

وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الحسن في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ قال: ذلك ليلة الهلال.

وروىٰ ابن أبي حاتم هاهنا، عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إنَّ للرِّيح جناحًا، وإنَّ القمر يأوِي إلىٰ غلافٍ مِن الماء.

وقال الثَّوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالحٍ: لا يدرك هذا ضوء هذا، ولا هذا ضوء هذا.

وقال عكرمة في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ يعني: أنَّ لكلٍّ منهما سلطانًا، فلا يَنْبَغِي للشَّمسِ أَن تطلع باللَّيل.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، يقول: لا ينبغي إذا كان الليلُ أن يكون ليلٌ آخر حتىٰ يكون النَّهار، فسلطانُ الشَّمس بالنَّهار، وسلطان القَمَر باللَّيل.

وقال الضَّحَّاك: لا يذهب اللَّيل مِن هاهنا حتىٰ يجيءَ النَّهار مِن هاهنا، وأومَأَ بيَدِهِ إلىٰ المشرق.

وقال مجاهد: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾: يطلبان(١) حثيثين، يَنْسَلِخ أحدهما من الآخر.

والمعنىٰ في هذا: أنَّه لا فترة بين اللَّيل والنَّهار، بل كلٌّ منهما يعقب الآخر بلا مهلةٍ ولا تراخٍ؛ لأنَّهما مسخَّران دائبين يتطالبان طلبًا حثيثًا.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾، [يعني: اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، كلهم يَسْبَحُونَ](٢)، أي: يَدُورُون في فلكِ السماء، قاله ابن عبَّاس، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، وعطاء الخُرَاساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في فَلَكٍ بينَ السَّماء والأرض، رواه ابن أبي حاتم، وهو غريبٌ جدًّا، بل منكر. قال ابن عبَّاسٍ وغير واحدٍ من السَّلف: في فَلْكَةٍ كفَلْكَة المِغْزَل، وقال مجاهد: الفَلَك كحديدة الرَّحَىٰ، أو كفلكة المغزل، لا يَدُور المغزل إلا بها، ولا تدور إلَّا به.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ودلالة لهم أيضًا علىٰ قُدْرَته تعالىٰ؛ تسخيرُه البحرَ ليحمل السُّفن، فمن ذلك -بل أوله- سفينة نوح عليه السلام، الَّتي أنجاه الله تعالىٰ فيها بمَن معه من المؤمنين، الَّذين لم يبقَ علىٰ وجهِ الأرض مِن ذرِّيَّة آدم غيرُهُم؛ ولهذا قال: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي: آباءهم، ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها مِن كلٍّ زوجينِ اثنيْن، قال ابن عبَّاسٍ: المشحون: المُوقَر(٣). وكذا قال سعيد بن جبير، والشَّعْبي، وقتادة،

---

(١) لوحة (١٢/ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) أي: المحمَّل حملًا ثقيلًا.

[والضَّحَّاك][1]، والسُّدِّي.

وقال الضَّحَّاك، وقتادة، وابن زيد: وهي سفينة نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ: يعني بذلك: الإبل، فإنَّها سفن البرِّ يحملون عليها ويركبونها، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة -في رواية- وعبد الله بن شَداد، وغيرهم.

وقال السُّدِّي -في رواية-: هي الأنعام.

وقال ابن جرير: حدَّثنا الفضل بن الصبَّاح، حدَّثنا محمَّد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس قال: تدرون ما ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ؟ [قلنا: لا][2]. قال: هي السُّفن، جعلت مِن بعد سفينة نوح علىٰ مثلها.

وكذا قال أبو مالك، والضَّحَّاك، وقتادة، وأبو صالح، والسُّدِّي أيضًا:﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ أي: السفن.

ويُقَوِّي هذا المذهب في المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا [3] لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني: الذين في السُّفن، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: ممَّا أصابهم. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهذا استثناءٌ منقطعٌ، تقديره: ولكن برَحْمَتِنَا نسيِّرُكم في البرِّ والبحر، ونُسلِّمكم إلىٰ أجلٍ مسمًّى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلىٰ وقتٍ معلوم عند الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن تمادي المشركين في غَيِّهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يَسْتَقْبِلُون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذُّنوب، وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعلَّ الله باتِّقائكم ذلك يرحمكم ويُؤَمِّنُكم مِن عَذَابه، وتقدير الكلام: أنَّهم لا يجيبون إلىٰ ذلك ويعرضون عنه، واكتفىٰ عن ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: علىٰ التَّوحيد وصدقِ الرُّسل؛ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا ينتفعونَ بها.

---

(١) ليست في (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (١٢/ ب).

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وإذا أُمِرُوا بالإنفاق مما رزقهم الله علىٰ الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: عن الَّذِين آمَنُوا من الفُقَرَاء؛ أي: قالوا لِمَن أمرهم مِن المؤمنين بالإنفاق محاجِّين لهم فيما أمروهم به: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي: هؤلاء الَّذِين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاءَ الله لأغناهم ولأَطْعَمَهُم مِن رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك.

قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول الله للكفَّار حين ناظَرُوا المسلمين ورَدُّوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وفي هذا نظر(١).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً(٢) تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن استبعاد الكفرة لقيام السَّاعة في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورىٰ: ١٨]، قال الله تعالىٰ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحةً واحدةً، وهذه -والله أعلم- نفخة الفزع؛ ينفخ في الصُّور نفخة الفزع، والنَّاس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون علىٰ عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالىٰ إسرافيل فنفخ في الصُّور نفخةً يُطَوِّلُها ويَمُدُّها، فلا يبقىٰ أحدٌ علىٰ وجه الأرض إلا أصغىٰ لِيتًا، ورفع لِيتًا -وهي: صفحة العنق- يتسمَّع الصَّوت من قِبَلِ السَّماء، ثم يساق الموجودون(٣) من النَّاس إلىٰ محشر القِيامَة بالنَّار، تحيط بهم من جوانبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: علىٰ ما يَمْلِكُونَه، الأمر أهم من ذلك، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم يكون بعد هذا نَفْخَة الصَّعْق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحَيِّ القيُّومَ، ثم بعد ذلك نفخة البَعْثِ(٤).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: اختلف في مَنْ هذه قولتُهُ؟ وما في التفسير وأنها قولة أبي جهل لأبي بكر أرجحها وأقربها إلىٰ واقع الحال وألصق بالسياق، ولا مانع أن يقولها الزنادقة والملاحدة والمستهزؤن في كل زمانٍ ومكانٍ.

(٢) لوحة (١٣/ أ). (٣) في (ز): (الموحدون).

(٤) وهذا علىٰ اختيار المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من أن النفخات في الصور ثلاث، وذهب فريق من العلماء إلىٰ أنهما نفختان فقط؛ نفخة الصعق، والثانية: نفخة البعث، كما هو اختيار العثيمين رَحِمَهُ اللهُ وغيره، وسيأتي المزيد عند التعليق علىٰ تفسير آية «سورة الزمر» (٦٨).

هذه هي النَّفخة الثَّالثة، وهي نفخة البعث والنُّشور للقيام مِن الأجداث والقبور؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنَّسلان هو: المشي السَّريع، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ يعنون: من قبورهم الَّتي كانوا يعتقدون في الدَّار الدُّنيا أنَّهم لا يُبْعثُون منها، فلمَّا عاينوا ما كذَّبوه في محشرهم ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وهذا لا ينفي عذابَهُم في قبورهم[1]؛ لأنَّه بالنِّسبة إلىٰ ما بعده في الشِّدَّة كالرُّقاد.

وقال أُبَيٌّ بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: ينامون نومةً قبل البعث.

قال قتادة: وذلك بيْنَ النَّفختيْن.

فلذلك يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن[2] مَّرْقَدِنَا﴾، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون -قاله غير واحد من السَّلف-: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[3].

وقال الحسن: إنَّما يُجيبُهُم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذِ الجمعُ ممكنٌ، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع مِن قولِ الكفَّار؛ ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح، وذلك كقوله تعالىٰ في «الصافات»: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

أي: إنَّما نأمرُهُم أمرًا واحدًا فإذا الجميع مُحضرُونَ، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: من عملها، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) سيأتي الكلام علىٰ عذاب القبر في «سورة غافر» -المؤمن- الآية [٤٦].

(٢) لوحة (١٣/ ب).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الآية مُحتملة؛ يُحتمل أنهم يقولون ذلك، ويحتمل أنه يُقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات]، فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء، وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تُكذبون، فآية الصافات أظهر من هذه الآية من سورة يس.

لو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادرًا منهم وإليهم؟

فالجواب: أن هذا ليس ببعيدٍ، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن أهل الجنَّة: أنَّهم يوم القِيَامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في روضات الجنَّات أنهم ﴿فِى شُغُلٍ[فَٰكِهُونَ﴾ أي: في شغل] [1] عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العَظِيم.

قال الحسن البصري، وإسماعيل بن أبي خالد: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عمَّا فيه أهل النَّار من العذَابِ.

وقال مجاهد: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي: في نعيمٍ معجبُون؛ أي: به، وكذا قال قتادة.

وقال ابن عبَّاسٍ: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: فرحون.

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عبَّاس، وسعيد بن المُسَيَّب، وعِكْرِمَة، والحسن، وقتادة، والأعمش، وسليمان التَّيمي، والأوزاعي في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبْكَار [2].

وقال ابن عبَّاسٍ -في رواية عنه-: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي: بسماع الأوتار.

وقال أبو حاتم: لعلَّه غلطٌ من المستمع، وإنما هو افتضاض الأبكار.

وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾، قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، ومحمَّد بن كعب، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وخُصَيْف: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هي السرر تحت الحِجَال [3].

قلت: نظيره في الدُّنيا هذه التُّخُوت تحت البَشَاخِين، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: من جميع أنواعها، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا مِن جميع أصناف الملاذِّ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عوف الحِمْصِي، حدَّثنا عثمان بن سعيدِ بن كثير بن دينار، حدَّثنا محمَّد بن مهاجر، عن الضَّحَّاك المَعَافِري، عن سليمان بن موسىٰ، حدَّثني كُرَيْبٌ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «أَلا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الجَنَّةَ لا خَطَرَ لَهَا [4]؛ هِيَ -وَرَبِّ الكَعْبَةِ- نُورٌ كُلُّهَا يَتَلأْلأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ [5]، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلامَةٍ، وَفَاكِهَةٍ خَضِرَةٍ، وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ، وَمَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ». قال القوم: إن شاء الله [6].

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٤/ أ).

(٣) **الحجال**: جمع حَجَلة، وهي بيت كالقبة يستر بالثياب، وتكون له أزرار كبار.

(٤) **لا خَطَر لها**: لا مثل لها. (٥) أي: جار.

(٦) ضعيف: رواه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وأبو نُعَيم في «صفة الجنة» (٢٤)، وفيه الضَّحَّاك المَعَافِري: لم يوثقه غير ابن حبان، =

وكذا رواه ابن ماجه في (كتاب الزهد) من «سننه»، من حديث الوليد بن مسلم، عن محمَّد بن مُهَاجر، به.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ قال ابن جُرَيج: قال ابن عبَّاس في قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾: فإنَّ الله نفسه سلام علىٰ أهلِ الجنَّة.

وهذا الَّذي قاله ابن عبَّاسٍ كقوله تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقد روىٰ ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا في إسناده نظر؛ فإنه قال: حدَّثنا موسىٰ بن يوسف، حدَّثنا محمَّد بن عبد الملك بن أبي الشَّوَارب، حدَّثنا أبو عاصم العَبَّاداني، حدَّثنا الفضل الرَّقاشيّ، عن محمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ تَعَالَىٰ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ**[1]**: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ**». فذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾. قال: «**فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَىٰ نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَفِي دِيَارِهِمْ**»[2].

ورواه ابن ماجه في (كتاب السنة) من «سننه»، عن محمَّد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، حدَّثنا حَرْمَلة، عن سليمان بن حُمَيد قال: سمعت محمَّد بن كعب القُرَظِي يحدِّث عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنَّة والنَّار، أقبل في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة، قال: فيسلم علىٰ أهل الجنَّة، فيردُّون عليه السَّلامَ. قال القرظي: وهذا في كتاب الله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾. فيقول: سلوني. فيقولُون: ماذا نسألك -أيْ- ربِّ؟ قال: بلىٰ سَلُوني. قالوا: نسألك -أيْ ربِّ- رضاك. قال: رضائِي أَحَلَّكُمْ دار كرامتي، قالوا: يا رب، فما الذي نسألك؟! فوَعِزَّتِك وجلالك وارتفاعِ مكانِكَ، لو قسمت علينا رِزْق الثَّقَلَيْن لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم، لا ينقصنَا ذلك شيئًا، قال: إن لديَّ مزيدًا، قال: فيفعل ذلك بهم في دَرَجِهِم، حتىٰ يستوي في مجلسه، قال: ثم تأتيهم التُّحف من الله ﷻ تحملها إليهم الملائكة، ثم ذكر نحوه[3].

وهذا أثرٌ غريبٌ، أورده ابن جريرٍ من طرقٍ.

= وسليمان بن موسىٰ مُخْتَلَفٌ فيه، قال الحافظ: صدوق في حديثه بعض اللين وخولط قبل موته.

(١) لوحة (١٤/ ب).

(٢) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجه (١٨٤)، وفيه الفضل بن عيسىٰ بن أبان الرَّقَاشي: قال الحافظ: منكر الحديث.

(٣) رواه الطبري (٢٣/ ٢١ - ٢٢)، من طرق عن عمر بن عبد العزيز، وهذا مقطوع علىٰ عمر بن عبد العزيز.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا يئول إليه حال الكفار يوم القِيَامَة مِن أمرِهِ لهُم أن يمتازوا، بمعنىٰ: يتميَّزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، أي: يصيرون صدْعَين فرقتين، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ (١) أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ هذا تقريعٌ من الله للكفرَةِ مِن بني آدم، الَّذين أطاعوا الشَّيطان وهو عدوٌّ لهم مبينٌ، وعَصَوُا الرحمن -وهو الذي خلقهم ورزقهم-؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدُّنيا بعصيانِ الشَّيْطَان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصِّراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشَّيطان فيما أمركم به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، يقال: «جِبِلًّا» -بكسر الجِيم، وتشديد اللَّام-. ويقال: «جُبُلًا» -بضم الجيم والباء وتخفيف اللَّام-، ومنهم من يسكن الباء(٢)، والمراد بذلك: الخلق الكثير. قاله مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي: أفما كان لكم عقلٌ في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته(٣) وحده لا شريك له، وعُدُولكم إلىٰ اتِّباع الشَّيطان؟!

قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ، حدَّثنا عبد الرحمن بن محمَّد المُحَاربي، عن إسماعيل بن رافع، عمَّن حدَّثه، عن محمَّد بن كعبٍ القُرظي، عن أبي هريرة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَمَرَ اللهُ جَهَنَّمَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ سَاطِعٌ مُظْلِمٌ، ثُمَّ يَقُولُ:** ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، **امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ؛ فَيَتَمَيَّزُ النَّاسُ وَيَجْثُونَ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨](٤)».

---

(١) لوحة (١٥/ أ).

(٢) متواترة: قَرَأَ (جِبِلًّا) نَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ المُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ (جُبْلًا) أَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَوَافَقَهُمَا اليَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (جُبُلًّا) رَوْحٌ، وَقَرَأَ البَاقُونَ (جُبُلًا).

(٣) في (ز): (من عبادة الله).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ٢٢)، وفيه من لم يُسمَّ.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١) ۝٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ۝٦٧﴾

يقال للكفرة من بني آدم يومَ القِيامَة -وقد برزَت الجَحِيمُ لهم- تقريعًا وتوبيخًا: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذه التي حَذَّرَتكم الرُّسل فكذَّبتموهم(٢)، ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ هذا حال الكفَّار والمنافقين يوم القيامة، حين يُنْكِرُون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيَخْتِمُ الله علىٰ أفواههم، ويستنطق جوارِحَهُم بما عملت.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أَبِي شيبة، حدَّثنا مِنْجَاب بن الحارث التميمي، حدَّثنا أبو عامر الأَسَدي، حدَّثنا سفيان، عن عُبَيْدٍ المُكْتِب، عن الفُضَيْل بن عمرو، عن الشَّعْبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النَّبيِّ ﷺ، فضَحِكَ حتَّىٰ بدت نواجِذُه، ثم قال: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنْ مُجَادَلَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: لا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»(٣).

وقد رواه مسلم والنَّسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النَّضر، عن أبي النَّضر، عن عُبيد الله ابن عبد الرحمن الأشجعي، عن سفيان -هو الثوري- به.

ثم قال النَّسائي: [لا أعلم أحدًا روىٰ هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي، وهو حديثٌ غريبٌ، والله تعالىٰ أعلم.

كذا قال، وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي -وهو العَقَدِيُّ- عن سفيان.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد الآية الكريمة: أن العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ لأن مجرد العمل قد لا يكون كسبًا، كما لو صدر من جاهلٍ، أو صدر من ساهٍ، أو نائمٍ، أو ما أشبه ذلك.

(٢) لوحة (١٥/ ب).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٥٤) من طريق أبي عامر الأسدي، ورواه مسلم (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٥٣) من طريق عبيد الله الأشجعي، كلاهما عن الثوري، به.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جدِّه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّكُمْ تُدْعَونَ مُفَدَّمَةً[١] أَفْوَاهُكُمْ بِالفِدَامِ، فَأَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ وَكَتِفُهُ»[٢]. رواه النسائي[٣] عن محمَّد بن رافع، عن عبد الرزَّاق، به.

وقال سفيان بن عيينة، عن سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّالِثَ فَيَقُولُ: مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَبْدُكَ، آمَنْتُ بِكَ وَبِنَبِيِّكَ وَبِكِتَابِكَ، وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ وَتَصَدَّقْتُ -وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ- قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: أَلَا نَبْعَثُ عَلَيْكَ شَاهِدَنَا؟ قَالَ: فَيُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ، مَنِ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، وَذَلِكَ المُنَافِقُ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ. وَذَلِكَ الَّذِي سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ»[٤].

ورواه [مسلم و][٥] أبو داود، من حديث سفيان[٦] بن عيينة، به بطوله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، حدَّثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن عقبة بن عامر؛ أنَّه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ -يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَىٰ الأَفْوَاهِ- فَخِذُهُ مِنَ الرِّجْلِ اليُسْرَىٰ»[٧].

ورواه ابن جرير عن محمَّد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عياش، به مثله.

وقد جَوَّد إسنادَه الإمامُ أحمد: فقال: حدَّثنا الحكم بن نافع، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم ابن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عُبَيد الحَضرمي، عمَّن حَدَّثه، عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ -يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَىٰ الأَفْوَاهِ- فَخِذُهُ مِنَ الرِّجْلِ الشِّمَالِ»[٨].

وقال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، حدَّثنا يونس بن عُبَيد، عن حُمَيد ابن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسىٰ -هو الأشعري رضي الله عنه-: يُدعىٰ المؤمن للحسابِ يوم القيامة، فَيَعْرِضُ عليه رَبُّه عملَه فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم، أَيْ ربِّ، عملتُ عملتُ عملتُ، قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها، قال: فما علىٰ الأرض خَليقةٌ ترىٰ مِن تلك الذُّنوب شيئًا، وتبدو حسناتُهُ، فَوَدَّ أن النَّاس كلهم يرونها، ويُدعىٰ الكافر والمنافق للحساب، فَيَعرِضُ رَبُّه عليه عمله، فيجحده فيقول: أَيْ رَبِّ، وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أَعْمَل، فيقول له

---

(١) الفِدَام: ما يُشَدُّ علىٰ فم الإِبْرِيق والكوز من خِرْقة لتصفية الشراب الذي فيه؛ أي: أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتىٰ تتكلم جوارحهم.
(٢) حسن: رواه عبد الرزاق (١١/ ١٣٠/ ٢٠١١٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٣١)، وأحمد (٥/ ٣).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) مسلم (٢٩٦٨)، وأبو داود مختصرًا.
(٥) سقط من (ز).
(٦) لوحة (١٦/ أ).
(٧) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٠٩٦)، وأحمد (٤/ ١٥١)، والطبري (٢٧/ ٢٤)، وفيه رجل لم يسم. وفي طريق أحمد انقطاع.
(٨) انظر التعليق السابق.

الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أيْ رَبِّ ما عملتُه، فإذا فعل ذلك خُتِم علىٰ فِيهِ. قال أبو موسىٰ الأشعري: فإنِّي أحسب أوَّل ما ينطق منه الفَخِذ اليُمْنَىٰ، ثم تلا ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عَن الهُدَىٰ، فكيف يهتدُون؟! وقال مَرَّة: أعميناهم.

وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس علىٰ أعينهم، فجعَلَهُم عُميًا يترددون (٢).

وقال السُّدِّي: لو شِئْنا أعمينا أبصارهم.

وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسُّدِّي: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يعني: الطريق.

وقال ابن زيد: يعني بالصراط هاهنا: الحق، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾، وقد طمسنا علىٰ أعينهم؟!

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: لا يُبْصِرون الحقَّ.

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾، قال العوفي، عن ابن عبَّاس: أهلكناهُم.

وقال السُّدِّي: يعني: لَغَيَّرْنا خَلْقهم.

وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارةً.

وقال الحسن البصري، وقتادة: لأقعدهم علىٰ (٣) أرجلِهم.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي: إلىٰ أمامٍ، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلىٰ وراءٍ، بل يلزمون حالًا واحدًا، لا يتقدَّمون ولا يتأخَّرون.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عن ابن (٤) آدم أنَّه كلَّما طال عمره رُدَّ إلىٰ الضَّعف بعد القوَّة، والعجز بعد النَّشاط، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. وقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

والمراد من هذا -والله أعلم- الإخبارُ عن هذه الدَّار بأنَّها دار زوالٍ وانتقالٍ، لا دارَ دوامٍ واستقرارٍ؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: يتفكَّرون بعقولِهم في ابتداء خلقهِمْ ثمَّ صيرُورتهم إلىٰ

(١) رواه الطبري (٢٣/ ٢٤)، وابن أبي حاتم (١٨٠٩٨)، وإسناده صحيح، ومثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع.
(٢) لوحة (١٦/ ب). (٣) في (ز): (بني). (٤) في (ز): (بني آدم).

الشَّبِيبَة، ثم إلىٰ الشَّيخوخة؛ ليعلمُوا أنَّهم خُلِقوا لدارٍ أخرىٰ، لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا محيدَ عنها، وهي الدَّار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، يقول تعالىٰ مخبرًا عن نبيِّه محمَّد ﷺ: أنَّه ما علمه الشِّعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يُحْسِنُه ولا يُحِبُّه، ولا تقتضيه جِبِلَّته؛ ولهذا وَرَدَ أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتًا علىٰ وزنٍ منتظمٍ، بل إن أنشده زَحَّفه[١]، أو لم يتمه.

وقال أبو زُرْعة الرَّازي: حُدِّثت عن إسماعيل[٢] بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما وَلَد عبد المطلب ذكرًا ولا أنثىٰ إلا يقول الشِّعر، إلا رسولَ الله ﷺ. ذكره ابن عساكر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب» الذي أكله السَّبُع بالزرقاء[٣].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي [ابن زيد][٤]، عن الحسن -هو البصري- قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثَّل بهذا البيت:

«كَفَىٰ بِالإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا». فقال أبو بكر: يا رسول الله: «كَفَىٰ الشيب والإسلام للمرء ناهيًا»، قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنَّك رسول الله، يقول الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[٥].

وهكذا روىٰ البيهقي في «الدلائل»؛ أن رسول الله ﷺ قال للعبَّاس بن مِرْداس السُّلَمي: «أَنْتَ القَائِلُ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ العبيْـ ... ـدِ بَيْنَ الأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ»

فقال: إنَّما هو: «بين عُيينة والأقرع»، فقال: الكل سواء[٦]. يعني: في المعنىٰ، صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر السُّهَيلي في «الروض الأُنُف» لهذا التَّقديم والتأخير الذي وقع في كلامه ﵇ في هذا البيت مناسبة أغرب فيها، حاصلها: شَرَفُ الأقرع بن حابس علىٰ عُيَيْنَة بن بدر الفَزَاري؛ لأنَّه ارتدَّ أيَّام الصدِّيق بخلاف ذاك، والله أعلم.

وهكذا روىٰ الأموي في «مغازيه»؛ أن رسول الله ﷺ جعل يَمْشِي بين القتلىٰ يوم بدر، وهو يقول: «نُفَلِّقُ هَامًا»، فيقول الصِّدِّيق ﵁ مُتممًا للبيت:

.... مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا[٧]

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدةٍ له، وهي في «الحَمَاسَة».

---

(١) أي: كسره. (٢) لوحة (١٧/ أ).

(٣) مرسل: عزاه المتَّقي الهندي في «كنز العمال» (٣٥٤٩٨) إلىٰ ابن عساكر، ولم أقف عليه، والإسناد الذي ذكره ابن كثير مرسل، وفيه انقطاع.

(٤) سقط من (ز).

(٥) مرسل: وفيه علي بن زيد: ضعيف، رواه ابن أبي حاتم (١٨١١٢).

(٦) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ١٨١).

(٧) ولم يذكر له المصنف إسنادًا، ويغلب في ذكر المغازي الضعف، وسبق ذكره في سورة «الأنفال» عند تفسير الآية (١٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيم، حدَّثنا مُغيرة، عن الشَّعْبي، عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراثَ(١)(٢) الخبر تمثل فيه ببيت طَرَفَة: «وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ»(٣)(٤).

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي، عنها، ورواه الترمذي والنسائي أيضًا من حديث المِقْدام بن شُرَيْح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة ﵂ كذلك. ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا يوسف بن موسى، حدَّثنا أسامة، عن زائدة، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ يتمثَّل من الأشعار:

«وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ»(٥)

ثم قال: رواه غير زائدة، عن سِمَاك، عن عِكرمة، عن عائشة.

وهذا في شعر طَرَفَة بن العبد، في مُعَلَّقته المشهورة، وهذا المذكور [هو عَجُزُ بيتٍ](٦) منها، أوله:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدَّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم -وكيل المتقي ببغداد- حدَّثنا أبو محمَّد عبد الله بن هلال النَّحْوي الضرير، حدَّثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ﵂ قالت: ما جمع رسول الله ﷺ بيت شِعرٍ قطُّ، إلَّا بيتًا واحدًا:

تَفَاءَلْ بِمَا تَهْوَىٰ يَكُنْ، فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لِشَيْءٍ: كَانَ، إِلَّا تَحَقَّقَا(٧)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّي عن هذا الحديث؟ فقال: هو منكر، ولم يعرف شيخ الحَاكِم، ولا الضَّرير.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من

---

(١) أي: استبطأه، يقال: راث علينا خبر فلان، إذا أبطأ.

(٢) في (ز): «استراب»، والمثبت من «المسند» (٤٠/ ٢٤) ط الرسالة.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ٣١)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٩٩٥)، والترمذي (٢٨٤٨) وله شاهد من حديث ابن عبَّاس؛ وهو ما أورده ابن كثير من رواية البزار.

(٤) لوحة (١٧/ ب).

(٥) **ضعيف من هذا الطريق**: رواه الطبراني في «الكبير» (١١٧٦٢)، وعبد بن حميد (٦١٤ - منتخب)، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة، لكن الحديث صحيح من حديث عائشة، كما تقدَّم في الرواية السابقة.

(٦) ليست في (ز).

(٧) رواه البيهقي (٧/ ٤٣)، واستنكره الحافظ المِزِّي.

الشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت [أخي][(١)] بني قَيْس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي وَاللهِ مَا أَنَا بِشَاعِرٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِي**»[(٢)]. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذا لفظه[(٣)].

وقال معمر، عن قتادة: بلغني أن عائشة سُئلت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثَّل بشيءٍ مِن الشِّعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طَرَفَة:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فجعل يقول: «مَن لم تُزَوِّد بالأخبار». فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا. فقال: «**إِنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِي**».

وثبت في «الصَّحيحين» أنَّه ﷺ تمثَّل يوم حفر الخندقِ بأبيات عبد الله بن رَوَاحة، ولكن تبعًا لقول أصحابه، فإنَّهم كانوا يرتجزون وهم يحفِرُون، فيقولون:

والله[(٤)] لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفع صوته بقوله: «أَبَيْنَا» ويمدُّها[(٥)]. وقد روي هذا بزِحَافٍ في «الصحيح» أيضًا، وكذلك ثبت أنه قال يوم حُنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو:

«**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ**»[(٦)].

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقًا من غير قصدٍ لوزنِ شِعرٍ، بل جرىٰ علىٰ اللِّسان من غيرِ قصدٍ إليه.

وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن جُنْدَب بن عبد الله قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في غارٍ؛ فَنَكِبت أصبعه[(٧)]، فقال:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ[(٨)]

وسيأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا [اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، إنشاد][(٩)]:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

---

(١) سقط من (ز).

(٢) إسناده ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (١٨١١١)، وقتادة لم يدرك عائشة، فالإسناد منقطع.

(٣) لوحة (١٨/ أ).

(٤) في (ز): «لا هم»، والمثبت من البخاري.

(٥) البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).

(٦) البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

(٧) أي: نالتها الحجارة.

(٨) البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

(٩) سقط من (ز).

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما عُلِّم شِعرًا ولا ينبغي له؛ فإنَّ الله تعالىٰ إنَّما علَّمه القرآن العظيم الَّذِي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وليس هو بشعرٍ، كما زعمه طائفةٌ مِن جهلة كفَّار قريشٍ، ولا كِهانةٍ، ولا مفتعل، ولا سحرٍ يُؤثر، كما تنوَّعت فيه أقوال الضُّلَّالِ وآراء الجُهَّالِ[(١)]. وقد كانت سجيَّته ﷺ تأبىٰ صناعة الشِّعر طبعًا وشرعًا[(٢)]، كما رواه أبو داود قال:

حدَّثنا عبيد الله بن عُمَر [بن ميسرة][(٣)]، حدَّثنا عبد الله بن يزيد[(٤)]، حدَّثنا سعيد بن أبي أيوب، حدَّثنا شُرَحْبيل بن يزيد المَعَافِري، عن عبد الرحمن[(٥)] بن رافع التَّنُوخِي [قال][(٦)]: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: [سمعت رسول الله ﷺ يقول][(٧)]: «**مَا أُبَالِي مَا أُوتِيتُ إِنْ أَنَا شَرِبْت تِرْيَاقًا**[(٨)]**، أَوْ تَعَلَّقْتُ تَمِيمَةً، أَوْ قُلْتُ الشِّعْرَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي**». تفرَّد به أبو داود[(٩)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نوفلٍ قال: سألتُ عائشة: أكَان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغضَ الحديثِ إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدُّعاء، ويدع ما بين ذلك[(١٠)].

وقال أبو داود: حدَّثنا أبو الوليد الطيالسي، حدَّثنا شُعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»[(١١)]. تفرَّد به من هذا الوجه، وإسناده علىٰ شرط الشَّيخين، ولم يخرجاه[(١٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد [بن هارون][(١٣)]، حدَّثنا قَزَعةُ بن سُوَيْد الباهلي، عن عاصم بن مَخْلَدٍ، عن أبي الأشعث، الصنعاني (ح). وحدَّثنا الأشيب فقال: عن أبي عاصم [الأحول][(١٤)]، عن [أبي][(١٥)] الأشعث عن شَدَّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَضَ بَيْتَ شِعْرٍ بَعْدَ العِشَاءِ الآخِرَةِ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ**»[(١٦)].

---

(١) لوحة (١٨/ ب).
(٢) في (ز): (طبعًا وشعرًا).
(٣) ليست في (ز)، وأثبتناها من «سنن أبي داود».
(٤) في (ز): (عبد الله بن سويد)، والمثبت هو الصواب.
(٥) في (ز): (عبد الله بن رافع)، وهو خطأ.
(٦) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «سنن أبي داود».
(٧) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «سنن أبي داود».
(٨) التِّرْيَاق: ما يستعمل لدفع السم من الأدوية.
(٩) ضعيف: رواه أبو داود (٣٨٦٩)، وأحمد (٢/ ١٦٧)، وفي إسناده عبد الرحمن بن رافع التَّنُوخي: ضعيف، كما في «التقريب»، وضعفه الشيخ الألباني.
(١٠) حسن: رواه أحمد (٦/ ١٤٨)، وروىٰ أبو داود (١٤٨٢) الطرف الأخير منه.
(١١) رواه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧)، ورواه أبو داود (٥٠٠٩)، من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم (٢٢٥٨)، من حديث أبي سعيد.
(١٢) هذا القول وهمٌ من الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ كما هو مبين في تخريج الحديث.
(١٣) ليست في (ز)، وأثبتناها من «المسند».
(١٤) ليست في (ز)، وأثبتناها من «المسند».
(١٥) سقط من (ز).
(١٦) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، وفي إسناده عاصم بن مَخْلَد: قال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف.

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولم يخرِّجه أحدٌ من أصحاب الكتب السِّتَّة. والمراد بذلك: نظمه لا إنشاده، والله أعلم، علىٰ أن الشِّعر فيه ما هو مشروعٌ، وهو هجاء المشركين الَّذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كـ:حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحة، وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حِكَمٌ ومواعظُ وآدابٌ، كما يوجد في شعر جماعةٍ مِن الجاهليَّة، ومنهم أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: «آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ»(١). وقد أنشد بعض الصَّحابة(٢) منه للنَّبيِّ ﷺ مائة بيتٍ، يقول عقب كل بيتٍ: «هِيهِ». يعني: يستطعمه(٣)، فيزيده من ذلك(٤).

وقد روىٰ أبو داود من حديث أُبي بن كعب، وبُريدة بن الحُصَيْب، وعبد الله بن عبَّاس، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا»(٥).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، يعني: محمَّدًا ﷺ ما علَّمه الله شِعرًا، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي: وما يصلح لَهُ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: [ما هذا الَّذي عَلَّمْناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي](٦): بَيِّنٌ واضحٌ جليٌّ لمن تأمَّله وتدبَّره، ولهذا قال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لِيُنْذِرَ هذا القرآن البيِّن كلَّ حيٍّ علىٰ وجه الأرضِ، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وإنَّما يَنْتَفِع بِنِذارته من هو حَيُّ القلب، مستنيرُ البصيرة، كما قال قتادة: حيُّ القلبِ؛ حيُّ البصر، وقال الضَّحَّاك: يعني: عاقلًا، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هو رحمةٌ للمؤمنِ، وحجَّةٌ علىٰ الكافر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا (٧) فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يذكر تعالىٰ ما أنعم به علىٰ خلقِهِ مِن هذه الأنعامِ الَّتِي سخَّرها لهم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، قال

(١) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩٧٣) مرسلًا، ورواه الحسن بن سفيان مسندًا «تهذيب سنن أبي داود» (٢/ ٤٠٤)، ورواه ابن عساكر (٩/ ٣٧٣)، وضعفه المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥٢٤١).

(٢) لوحة (١٩/ أ). (٣) أي: يطلب منه أن يذيقه المزيد من طعم هذا الحديث.

(٤) مسلم (٢٢٥٥).

(٥) رواه البخاري (٦١٤٥)، وأبو داود (٥٠١٠)، من حديث أبي بن كعب، وانظر: «سنن أبي داود» (٥٠١١)، (٥٠١٢) لحديث ابن عبَّاس وبريدة.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: مما عملنا، وليس المعنىٰ أن الله ﷻ خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك ﷻ، وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا)، كما قال تعالىٰ في آدم يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فهنا أضاف الخلق إلىٰ نفسه وجعل المخلوق به اليد، أما هنا فأضاف العمل إلىٰ اليد فقال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وما أشبهها مما يُضاف فيه الفعل إلىٰ اليد، والمُراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالىٰ العمل إلىٰ يديه والمُراد نفسه؛ أي: مما عملنا.

قتادة: مطيقون؛ أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغيرٌ إلىٰ بعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليلٌ منقادٌ معه. وكذا لو كان القِطَارُ[1] مائةَ بعيرٍ أو أكثر، لسار الجميع بسيرِ صغيرٍ.

وقوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلىٰ سائر الجهات والأقطار. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلىٰ حين، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوىٰ، ونحو ذلك. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟! أي: أفلا يُوَحِّدُون خالق ذلك ومسخره، ولا يُشْرِكُون به غيرَهُ؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ[2] ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ[3] إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين في اتِّخاذِهم الأنداد آلهةً مع الله، يبتغونَ بذلك أن تنصرَهُم تلك الآلهةُ وترزقَهم وتُقَرِّبَهم إلىٰ الله زلفىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة علىٰ نصر عابِدِيهَا، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقرُ وأدحَرُ، بل لا تقدر علىٰ الانتصارِ لأنفسها، ولا الانتقامِ ممَّن أرادها بسوءٍ؛ لأنَّها جمادٌ لا تسمع ولا تعقل، وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، قال مجاهد: يعني: عند الحساب، يريد: أن هذه الأصنام محشورةٌ مجموعةٌ يوم القيامة، محضَرَةٌ عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خِزْيهم، وأدلَّ عليهم في إقامةِ الحجَّة عليهم.

وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، والمشركون يغضبون للآلهة في الدُّنيا وهي لا تَسُوق إليهم خيرًا، ولا تدفع عنهم سوءًا، إنَّما هي أصنام.

وهكذا قال الحسن البصري. وهذا القول حَسَن، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي:

---

(١) القطار من الإبل: عَدَدٌ منها بعضه خلف بعض علىٰ نسق واحد.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء العابدين جندٌ مُحضَرُون لأصنامهم، يُدافعون عن الأصنام وينتصرون لها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، وفي هذا من المناداة بسفههم ما هو ظاهرٌ، حيث يستنصرون بمن لا يستطيعون نصرهم، وهم ينصرونها، وهذا من السفه كيف تنصر شيئًا لا يستطيع نصرك ولا تستفيد منه؟! ولهذا يعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كالدليل علىٰ سفه هؤلاء؛ أي: أنهم ينتصرون لهذه الآلهة وينصرونها مع أنها لا تنصرهم، وهذا الذي قررته بناء علىٰ ما اخترناه من أن معنىٰ الآية: (وهؤلاء العابدون للمعبودين جندٌ محضرون)، [أما من قال]: أن هذه الأصنام جندٌ لهؤلاء، لكنهم مُحضرون في النار جميعًا، فسبق بيان ضعف هذا القول. اهـ بتصرف يسير.

(٣) لوحة (١٩/ ب).

نحن نعلم جميع ما هم عليه، وسنَجْزيهم وصْفَهم ونعاملهم علىٰ ذلك، يوم لا يفقدونَ مِن أعمالهم جليلًا ولا حقيرًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾

قال مجاهد، وعِكْرِمَة، وعروة بن الزبير، والسُّدِّي. وقتادة: جاء أُبَيُّ بن خلف [لعنه الله][1] إلىٰ رسول الله ﷺ وفي يده عظمٌ رميمٌ وهو يُفتّته ويُذرّيه في الهواء، وهو يقول: يا محمَّد، أتزعم أنَّ الله يبعث هذا؟! فقال: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَىٰ ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَىٰ النَّارِ».

ونزلت هذه الآيات من آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلىٰ آخرهن.

وقال ابن أبي حاتم[2]: حدَّثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدَّثنا محمَّد بن العلاء، حدَّثنا عثمان بن سعيد الزيات، عن هُشَيْم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس؛ أن العاصي بن وائل أخذ عَظْمًا من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله تعالىٰ هذا بعد ما أرىٰ؟! فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ [اللهُ][3] ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ». قال: ونزلت الآيات من آخر يس[4].

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن هُشَيْم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، فذكره، ولم يذكر «ابن عبَّاس»[5]. وروىٰ من طريق العَوْفي، عن ابن عبَّاسٍ قال: جاء عبد الله بن أُبيٍّ بعظم ففتَّه[6]، وذكر نحو ما تقدَّم.

وهذا منكرٌ؛ لأن السورة مكيةٌ، وعبد الله بن أبي بن سلول إنَّما كان بـ«المدينة»، وعلىٰ كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أُبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل مَنْ أنكر البعث، والألف واللام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ للجنس، يعمُّ كل مُنْكِرٍ للبعث.

﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أولم يستدلَّ مَنْ أنكر البعث بالبدء علىٰ الإعادة؟! فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ، فخلقه مِن شيءٍ حقيرٍ ضعيفٍ مهينٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: مِن نطفةٍ مِن أخلاطٍ

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٢٠/ أ). (٣) سقط من (ز).

(٤) صحيح: رواه الطبري (٢٣/ ٣٠)، والحاكم (٢/ ٤٢٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وقد صرح هشيم بالتحديث في رواية الحاكم فانتفت شبهة التدليس.

(٥) رواه الطبري (٢٣/ ٢١) هكذا مرسلًا، والرواية السابقة أصح، فالموصول مقدم علىٰ المرسل؛ لأن الوصل زيادة، وهي مقبولة من الثقة.

(٦) هذه الطريق ضعيفةٌ جدًّا؛ لأنها مسلسلةٌ بالضعفاء، وقد رواها الطبري (٢٣/ ٢١)، وفي المتن نكارة كما ذكر ابن كثير.

متفرِّقةٍ، فالَّذي خلقه مِن هذه النُّطفة الضَّعيفة أليس بقادرٍ علىٰ إعادته بعد موته؟ كما قال الإمام أحمد في «مسنده»:

حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا حَريز[١]، حدَّثني عبد الرحمن بن مَيْسَرة، عن جُبَيْر بن نفير، عن بُسْر بن جَحَّاش: أنَّ رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفِّه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ابْنَ آدَمَ، أَنَّىٰ تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّىٰ إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ[٢]، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّىٰ أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟!»[٣].

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن حَرِيز بن عثمان، به. ولهذا قال[٤]: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟ أي: استبعد إعادة الله تعالىٰ - ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض- للأجساد والعظام الرَّميمة، ونَسِيَ نفسَهُ، وأنَّ الله خلقه من العَدَم، فعَلِمَ مِن نفسِهِ ما هو أعظم ممَّا استبعده وأنْكَره وجحَدَه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلم العظام في سائرِ أقطار الأرض وأرجائِهَا، أين ذهبت، وأين تفرَّقت وتمزَّقت.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن عبد الملك بن عمير، عن رِبْعيٍّ[٥] قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدِّثُنا ما سمعتَ من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا أَيِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَىٰ أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلًا[٦]، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّىٰ إِذَا [أَكَلَتْ][٧] لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَىٰ عَظْمِي فَامْتُحِشْتُ[٨]، فَخُذُوهَا فَأَذْرُوهَا فِي الْيَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ». فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نبَّاشًا[٩].

وقد أخرجاه في «الصحيحين» من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظٍ كثيرةٍ؛ منها: «أَنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يُحْرِقُوهُ ثُمَّ يَسْحَقُوهُ، ثُمَّ يَذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فِي يَوْمٍ رَائِحٍ؛ أي: كَثِيرِ الْهَوَاءِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ.

---

(١) في (ز): (جرير)، وهو خطأ، وحريز هو ابن عثمان الرَّحَبي.
(٢) الوئيد: صوت شدة الوطء علىٰ الأرض يسمع كالدَّوِيِّ من بعد.
(٣) حسن: رواه أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وقال البوصيري: إسناده صحيح. وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).
(٤) لوحة (٢٠/ ب).
(٥) في (ز): (عمير بن ربعي)، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «المسند».
(٦) أي: غليظًا قويًّا. (٧) بياض في (ز)، والمثبت من «المسند».
(٨) الامتحاش: احتراق الجلد وظهور العظم.
(٩) البخاري (٣٤٥٢)، (٣٤٧٩)، (٦٤٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٩٥).

فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: مَخَافَتُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَمَا تَلَافَاهُ(١) **أَنْ غَفَرَ لَهُ»**(٢).

وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: الذي بدأ خلق هذا الشَّجر مِن ماءٍ حتىٰ صار خَضرًا نَضرًا ذا ثمرٍ ويَنْع(٣)، ثم أعادهُ إلىٰ أن صار حطبًا يابسًا، توقد به النَّار، كذلك [هو فعَّال](٤) لما يشاء، قادرٌ علىٰ ما يريد لا يمنعه شيءٌ.

قال قتادة في قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يقول: الذي أخرج هذه النَّار مِن هذا الشَّجر قادرٌ أن يبعثه(٥).

وقيل: المراد بذلك سَرْح(٦) المَرْخ والعَفَار، ينبت في أرض الحجاز فيأْتِي مَن أراد قَدْحَ نارٍ وليس معه زنادٌ، فيأخذ منهُ عودين أخضرين، [ويقدح](٧) أحدهما بالآخر، فتَتَوَلَّدُ النَّارُ مِن بينهما، كالزِّناد سواء، روي هذا عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما. [وفي المثل](٨): «**لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخُ وَالعَفَارُ**»(٩). وقال الحكماء: في كلِّ شجرٍ نارٌ إلَّا الغاب.

﴿**أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾**﴾

يقول تعالىٰ مُنبِّهًا علىٰ قدرتِهِ العظيمة في خلق السَّموات السَّبع، بما فِيهَا مِن الكواكب السَّيَّارة والثَّوابت، والأرضِين السَّبع وما فيها مِن جبالٍ ورمالٍ، وبحارٍ وقِفارٍ، وما بين ذلك، ومرشدًا إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إعادة الأجساد بخلقِ هذه الأشياء العَظِيمَةِ، كقوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال هاهنا: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: مثل البشر، فيُعيدُهُم كما بدأهم. قاله ابن جرير.

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال هاهنا: ﴿**بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾** إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يأمر بالشَّيءِ أمرًا واحدًا، لا يحتاج إلىٰ تكرار:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» قَوْلَةً فَيَكُونُ

---

(١) التلافي: تدارك الشيء بعد أن فات.
(٢) انظر التخريج السابق.
(٣) أي: ونَضِجَ.
(٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (٢١/ أ).
(٦) السرح: شجر كبير، واحده سَرْحة.
(٧) سقط من (ز).
(٨) في (ز): (قال الراجز).
(٩) (استمجد المرخ والعَفَار) أي: استكثرا وأخذا من النار ما هو حَسْبهما، شبهًا بمن يكثر العطاء طالبًا للمَجْد؛ لأنهما يسرعان الوَرْيَ. والزَّندُ الأعلىٰ يكون من العفَار والأسفل من المَرْخِ. يضرب في تفضيل بعض الشيء علىٰ بعض. «مجمع الأمثال»: (٢/ ٧٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن نُمَيْر، حدَّثنا موسىٰ بن المسيَّب، عن شَهْرٍ، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي ذرٍّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يَقُولُ: يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ، إِنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِذَا أَرَدتُّ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: (كُنْ) فَيَكُونُ**»(١).

وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تنزيهٌ وتقديسٌ وتبرئةٌ مِن السُّوء(٢) الحيِّ القيُّوم، الَّذِي بِيَدِه مقاليد السَّموات والأرض، وإليه يُرْجَعُ الأمر كلُّه، وله الخَلْق والأمر، وإليه ترجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بعملِهِ، وهو العادل المنعم المتفضل.

ومعنىٰ قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، كقوله [ﷻ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالىٰ](٣): ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحدٌ في المعنىٰ، كرحمةٍ ورَحَمُوت، ورَهْبَةٍ ورَهَبُوت(٤)، وجَبْرٍ وجَبَرُوت، ومن النَّاس من زعم أنَّ المُلْك هو عالَم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والأوَّل هو الصَّحيح، وهو الَّذي عليه الجمهور من المفسِّرين وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا شريح بن النعمان، حدَّثنا حماد، عن عبد الملك بن عمير، حدَّثني ابن عمٍّ لحذيفة، عن حذيفة -وهو ابن اليمان ﷺ- قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ، فقرأ السَّبع الطُّوَل في سبعِ ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**». ثم قال: «**الحَمْدُ للهِ ذِي المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فأنصرف وقد كادت تنكسر رِجْلاي(٥).

وقد روىٰ أبو داود، والتِّرمذي في «الشمائل»، والنسائي، من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرة، عن أبي حَمْزة -مولىٰ الأنصار- عن رجلٍ من بني عَبْس(٦)، عن حذيفة؛ أنَّه رأىٰ رسول الله ﷺ يصلِّي مِن اللَّيل، وكان يقول: «**اللهُ أَكْبَرُ -ثَلَاثًا- ذُو المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحوًا من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ**». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحوًا من [ركوعه، يقول: «**لِرَبِّيَ الحَمْدُ**». ثم سجد، فكان سجوده نحوًا من](٧) قيامه، وكان يقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ**»، ثم رفع رأسه من

(١) رواه أحمد (٥/ ١٧٧)، والترمذي (٢٢٩٥)، (٤٤٥٧)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام.
(٢) لوحة (٢١/ ب). (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (وهبة وهبوت).
(٥) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٨٨)، وفيه رجل لم يسمَّ.
(٦) في (ز): (بني عيش)، وهو خطأ. (٧) سقط من (ز).

السُّجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوًا من سجوده، وكان يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي». فصلىٰ أربع ركعاتٍ، فقرأ[1] فيهن «البقرة»، و«آل عمران»، و«النساء»، و«المائدة»، أو: «الأنعام» -شكَّ شعبةُ-. هذا لفْظُ أبي داود[2].

وقال النَّسائي: «أبو حمزة عندنا: طلحة بن يزيد، وهذا الرجل يشبه أن يكون صِلَةَ». كذا قال[3]. والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة، كما تقدم في رواية الإمام أحمد[4]، والله أعلم. فأمَّا رواية صِلَةَ بنِ زُفَر عن حذيفة فإنَّها في «صحيح مسلم»، ولكن ليس فيها ذكْر «المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ».

وقال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن صالح، حدَّثنا ابن وهب، حدَّثني معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حُمَيْد، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلةً، فقام فقرأ «سورة البقرة»، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذابٍ إلا وقف فتعوَّذ. قال: ثم ركع بقَدْر قيامه، يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بـ«آل عمران»، ثم قرأ سورةً سورةً[5]. ورواه الترمذي في «الشمائل»، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به.

آخر تفسير «سورة يس».

---

(١) في (ز): (فصلىٰ فيهن).

(٢) صححه الألباني: رواه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (٢/ ١٩٩)، والترمذي في «الشمائل» (٢٧٥)، وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (٧٧٢) بدون ذكر الجبروت والملكوت، وانظر ما أورده ابن كثير بعد الحديث.

(٣) لوحة (٢١/ أ - مكرر).

(٤) ما قاله النسائي هو الأقرب إلىٰ الصواب، فإن صلةَ هو ابن زُفَر العَبْسي، وقد قال في الرواية: رجل من بني عبس.

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (٢/ ١٩١)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٣)، وصححه الشيخ الألباني.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

تَفْسِيرُ سُورة الصَّافَّات، مكية

قال النَّسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدَّثنا خالد – يعني: ابن الحارث- عن ابن أبي ذئب قال: أخبرني الحارثُ بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كَان رسولُ الله ﷺ يأمرنا بالتَّخفيف[1]، ويَؤُمُّنا بالصَّافَّات». تفرَّد به النَّسائي[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾

قال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحَىٰ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾؛ وهي: الملائكة، [﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾؛ وهي: الملائكة][3]، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾؛ هي: الملائكة[4]؛ وكذا قال ابن عبَّاس[5]، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السَّماء.

وقال مسلم: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، حدَّثنا محمَّد بن فُضَيْل، عن أبي مالك الأشجعي، عن رِبْعِيٍّ،

---

(١) قَالَ ابنُ القَيِّم رحمه الله: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «أَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ»، وَقَوْلُ أَنَسٍ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَخَفَّ النَّاسِ صَلَاةً فِي تَمَامٍ. فَالتَّخْفِيفُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ؛ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَوَاظَبَ عَلَيْهِ لَا إِلَىٰ شَهْوَةِ الْمَأْمُومِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَأْمُرُهُمْ بِأَمْرٍ ثُمَّ يُخَالِفُهُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ، فَالَّذِي فَعَلَهُ هُوَ التَّخْفِيفُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُ أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، فَهِيَ خَفِيفَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَطْوَلَ مِنْهَا، وَهَدْيُهُ الَّذِي كَانَ وَاظَبَ عَلَيْهِ هُوَ الْحَاكِمُ عَلَىٰ كُلِّ مَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُتَنَازِعُونَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِالتَّخْفِيفِ وَيَؤُمُّنَا بِـ«الصَّافَّاتِ». فَالْقِرَاءَةُ بِـ«الصَّافَّاتِ» مِنَ التَّخْفِيفِ الَّذِي كَانَ يَأْمُرُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. «زاد المعاد»: (١/ ٢٠٦- ٢٠٧).

(٢) حسن: رواه النَّسائي (٢/ ٩٥). (٣) سقط من (ز).

(٤) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٤٢٩)، والطبراني (١٢/ ٩٠٤١)، والطبري (٢٣/ ٣٣)، من طرق عن الأعمش به، وقال الحاكم: صحيحٌ علىٰ شرط الشَّيخَيْن، ووافقه الذَّهبي.

(٥) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٥١١)، وفي إسناده خُصَيف بن عبد الرحمن الجزري: قال أحمد: ليس بحجة ولا قوي في الحديث، وفي موضع آخر: ضعيف الحديث، وقال ابن معين: صالح، وفي موضع آخر: ليس به بأس، وفي موضع ثالث: ثقة. وقال أبو زرعة والعجلي: ثقة، وقال أبو حاتم: صالح يخلط، وقال ابن عدي: إذا حدث عن خصيف ثقة فلا بأس بحديثه ولا بروايته إلا أن يروي عنه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي فإن روايته عنه بواطل «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٥٧) وقال الحافظ: صدوقٌ سيِّئُ الحفظِ خلط بآخره (تقريب-ترجمة ١٧١٨)؛ فالإسناد ضعيف.

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَىٰ النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ[(١)] صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا[(٢)] طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»[(٣)].

وقد روىٰ مسلم أيضًا، وأبو داود، والنَّسائي، وابن ماجة، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن [تميم][(٤)] بن طَرَفة، عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟»، قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[(٥)].

وقال السُّدِّي وغيره: معنىٰ قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾؛ أنها تزجر السَّحاب.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾: ما زجر الله عنه في القُرْآن. وكذا رَوَىٰ مالك، عن زيد بن أسلم.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ قال السُّدِّي: الملائكة يَجِيئُون بالكتاب والقرآن مِن عند الله إلىٰ النَّاس. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ هذا هو المُقْسَم عليه، أنَّه تعالىٰ لا إله إلا هو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرِّف في الخلق، بتسخيرِهِ بمَا فيه [مِن][(٦)] كواكبَ ثوابتَ وسيَّارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفىٰ بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليها. وقد صرَّح بذلك في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج:٤٠]. وقال في الآيةِ الأخرىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧]، يعني: في الشِّتاء والصَّيف، للشَّمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه زَيَّن السَّماء الدُّنيا للنَّاظرين إليها مِن أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، قُرِئ بالإضافة وبالبدل[(٧)]، وكلاهما بمعنىٰ واحدٍ، فالكواكب السَّيَّارة والثَّوابت يثقب ضوءها جرم السَّماء الشَّفاف، فتُضِيء لأهل الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ

---

(١) لوحة (٢١ ب).

(٢) في بعض النسخ: «لَنَا تُرْبَتُهَا»، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».

(٣) رواه مسلم (٥٢٢). (٤) بياض في (ز).

(٥) مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، والنَّسائي (٢/ ٩٢)، وابن ماجة (٩٩٢).

(٦) سقط من (ز).

(٧) متواترة: قَرَأَ (بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) حَفْصٌ وَحَمْزَةُ وَوَافَقَهُمَا الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ (بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبَ) شُعْبَةُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ).

عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا(١) مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٦-١٨].

وقوله هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾؛ تقديره: وحَفِظْنَاها حفظًا، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرِّد العاتي إذا أراد أن يَسْترِق السَّمع، أتاه شهابٌ ثاقبٌ فأحْرَقه، ولهذا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلَّا يَصِلُوا إلىٰ الملإِ الأعلىٰ، وهي السموات ومَن فيها مِن الملائكة، إذا تكلَّموا بما يُوحِيهِ الله مما(٢) يقوله مِن شرعِهِ وقدرِهِ، كما تقدَّم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يُرْمَوْن، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهةٍ يقصدون السَّماء منها، [﴿دُحُورًا﴾](٣) أي: رجمًا يُدْحَرُون به ويُزْجَرُون(٤)، ويُمْنَعُون من الوُصُول إلىٰ ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدَّار الآخرَة لهم عذابٌ دائمٌ موجعٌ مستمرٌّ، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف مِن الشَّياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمَعُهَا من السَّماء فيُلْقِيهَا إلىٰ الَّذي تحته، ويُلْقِيها الآخر إلىٰ الَّذي تحته، فربَّما أدركه الشِّهاب قبل أن يُلْقِيها، وربَّما ألقاها -بقدَرِ الله- قبل أن يأتيَه الشِّهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلىٰ الكاهن، كما تقدَّم في الحديث، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مُسْتَنِيرٌ.

قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا وَكِيعٌ، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس قال: «كانت للشَّياطين مقاعدُ في السَّماء فكانوا يستمِعُون الوحي. قال: وكانت النُّجوم لا تجري، وكانت الشَّياطين لا تُرْمىٰ، قال: فإذا سَمِعوا الوحيَ نزلوا إلىٰ الأرض، فزادوا في [الكلمة](٥) تسعًا. قال: فلمَّا بُعِثَ رسول الله ﷺ، جعل الشَّيطان إذا قعد مقعدَهُ جاء شهابٌ فلم يُخْطِئْه حتىٰ يُحرقَه. قال: فشكَوْا ذلك إلىٰ إبليس، فقال: ما هو إلا مِن أمْرٍ حَدَثَ. قال: فَبَثَّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلِّي بين جبلي نخلة -قال وكيع: يعني بطن نخلة(٦)-، قال: فرجعوا إلىٰ إبليس فأخبروه، فقال: هذا الَّذي حَدَثَ»(٧).

وستأتي الأحاديث(٨) الواردة مع الآثار في هذا المعنىٰ عند قوله تعالىٰ إخبارًا عن الجنِّ أنَّهم قالوا:

---

(١) لوحة (٢٢ أ). (٢) في (ز): «بما».

(٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): «ويرجمون».

(٥) في (ز): «في الآية»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٦) **بطن نخلة**: قرية قريبة من المدينة علىٰ طريق البصرة.

(٧) **صحيح**: رواه الطبري (٢٣/ ٣٦)، والترمذي (٣٣٢٤)، وأحمد (١/ ٢٧٤)، ورجاله ثقات، ورواه أحمد (١/ ٣٢٣) من طريق آخر عن سماك، وهو صدوقٌ كثير الأوهام، عن سعيد بن جبير، وبمجموعها فالحديثُ صحيحٌ، ومثله لا يُقال بالرَّأي، فهو في حكم المرفوع.

(٨) لوحة (٢٢ ب).

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨-١٠].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ[1] وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: فَسَلْ هؤلاء المنكرين للبعث: أيُّما أشدُّ خلقًا هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشَّياطين والمخلوقات العظيمة؟ -وقرأ ابن مسعود: «أم من عَددنا»[2] - فإنَّهم يُقرُّون أنَّ هذه المخلوقات أشدُّ خلقًا منهم، وإذا كان الأمرُ كذلك فَلِمَ يُنْكِرُون البعث؟ وهم يُشَاهِدُون ما هو أعظم ممَّا أنكروا. كما قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ثم بيَّن أنَّهم خُلِقُوا مِن شيءٍ ضعيفٍ، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك: هو الجيِّدُ الَّذي يلتزِقُ بعضُهُ ببعضٍ.

وقال ابن عبَّاسٍ، وعكرمة: هو اللَّزِجُ.

وقال قتادة: هو الَّذي يَلْزَقُ باليدِ.

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: بل عجبتَ -يا محمَّد- مِن تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقنٌ مصدِّقٌ بما أخبر الله بِهِ مِن الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أَمْرِك -مِن شدَّة تكذيبِهِم- يسخرون ممَّا تقولُ لهم مِن ذلك.

قال قتادة: عَجِبَ محمَّدٌ ﷺ، وسَخِر ضُلَّال بني آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: دلالةً واضحةً علىٰ ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يَسْتهزِئُون.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنَّ هذا الَّذي جئتَ بِهِ إلا سحرٌ مبينٌ، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾: في هذه الآية قراءتان بفتح التاء، فيعود الضمير علىٰ رسول الله ﷺ، وبالضم فيعود علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، هذا هو القول الصحيح، وإذا كان عائدًا إلىٰ الله ﷻ فهل هو عجب حقيقي أو مجازي؟ الصحيح أنه حقيقي وأنه كسائر الصفات.

فإذا قال قائل: إن العجب هو حالة تطرأ علىٰ الإنسان لفعل ما لا يخطر له علىٰ بال، أو لحصول ما لا يخطر له علىٰ بال، فكيف يمكن أن يوصف الله به؟

فالجواب: أن نقول: إن أنواع العجب ثلاثة أقسام: عجب استحسان، وعجب إنكار، وعجب استفهام، والعجب الذي بمعنىٰ الاستفهام لا يكون في حق الله؛ لأنه يكون لخفاء الأسباب علىٰ هذا المُستَغرِب للشيء المتعجب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل علىٰ الله تعالىٰ؛ لأن الله تعالىٰ بكل شيء عليم. ومثال للعجب الذي يحمل عليه الاستحسان: «يعجب ربك من الشاب ليس له صبوة»، ومثال عجب الإنكار من الله ﴿عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾: فهذا عجب إنكار.

[قراءة (بل عجبتُ): متواترة: قَرَأَ (عَجِبْتُ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَجِبْتَ)].

(٢) قراءة: قَرَأَ (عَدَدْنَا) ابْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (خَلَقْنَا).

لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ يستبعدون ذلك ويكذِّبون به[١]، ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: قل لهم يا محمَّد: نعم تُبْعَثُون يوم القيامة بعدما تَصِيرُون ترابًا وعظامًا، ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنَّما هو أمرٌ واحدٌ من الله ﷻ، يدعوهُم دعوةً [واحدةً][٢] أن يخرجوا من الأرضِ، فإذا هم [قيامٌ][٣] بين يَدَيْه، ينظرُونَ إلىٰ أهوال يوم القِيَامَةِ.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن قِيلِ الكفَّار يوم القِيَامة؛ أنَّهم يرجعون علىٰ أنفسهم بالمَلَامَةِ، ويعترفون بأنَّهم كانوا ظالمين لأنفُسِهِم فِي الدَّار الدُّنيا، فإذا عَايَنُوا أهوالَ القيامة نَدِمُوا كلَّ النَّدم حيث لا ينفعهم النَّدم، ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾. فتقولُ لهم الملائكةُ والمؤمنون: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يُقَال لهم علىٰ وجه التَّقريع والتَّوبيخ، ويأمر الله الملائكةَ أن تُميِّز الكفَّار من المؤمِنِين في الموقِفِ في محشَرِهِم ومنشَرِهِم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾.

قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: يعني بأزواجِهم أشباهَهم وأمثالَهم.

وكذا قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال سفيان الثَّوري، عن سِمَاك، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ قال: إخوانهم.

وقال شَرِيك، عن [سماك][٤]، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، قال: أشباهُهُم، قال: يجيء صاحب الرِّبا مع أصحاب الرِّبا، وصاحب الزِّنا مع أصحاب الزِّنا، وصاحب الخَمْر مع أصحاب الخَمْر. وقال خُصَيْفٌ، عن مِقْسَم، عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾: نساؤُهُم.

وهذا غريبٌ، والمعروف عنه الأوَّل، كما رواه مجاهد، وسعيد بن جبير عنه: ﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾: قُرَناءهم.

﴿وَمَا كَانُواْ[٥] يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم في أماكِنِهم. وقوله:

---

(١) لوحة (٢٣ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) ليست في (ز).

(٤) في (ز): «وقال شريك عن شريك»، وهو خطأ.

(٥) لوحة (٢٣ ب).

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أرشدُوهُم إلىٰ طريق جهنَّم، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ أي: قِفُوهُم حتىٰ يُسأَلُوا عن أعمالهم وأقوالِهم الَّتي صدرت عنهم في الدَّار الدُّنيا، كما قال الضَّحَّاكُ، عن ابن عبَّاس: يعني احْبِسُوهُم إنَّهم مُحَاسَبُون.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا النُّفَيلي، حدَّثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثًا يُحدِّث عن بشر، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَىٰ شَيْءٍ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، لا يُغَادِرُهُ وَلا يُفَارِقُهُ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا»، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾(١). ورواه التِّرمذي، من حديث ليث بن أبي سليم. ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعًا.

وقال عبد الله بن المبارك: سمعتُ عثمان بن زَائدَة يقول: إنَّ أوَّل ما يُسأل عنه الرَّجل جلساؤه، ثم يقال لهم علىٰ سبيل التَّقريع والتَّوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؟ أي: كما زَعَمْتُم أنَّكم جميعٌ منتصرٌ، ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي: مُنقَادون لأمر الله، لا يُخَالِفُونه ولا يَحِيدُون عنه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يذكر تعالىٰ: أنَّ الكفَّار يتلاومُون في عرصَاتِ القيامَة، كما يتخاصمُون في دَركات النَّار، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ (٢) لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ]. وهكذا قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، قال

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (٢٣/ ٤٨)، والترمذي (٣٢٢٨)، ومدارُهُ علىٰ ليث بن أبي سليم: صدوقٌ، ولكن أُدخِلَ في حديثه ما ليس منه، ولم يتميَّز حديثه فتُرِك.

(٢) لوحة (٢٤ أ).

الضَّحَّاكُ، عن ابن عبَّاس: يقولون: كنتم تقهرونَنَا بالقُدرَة منكم علينا؛ لأنَّا كنَّا أذلَّاء وكنتم أعزَّاء.

وقال مجاهد: يعني: عن الحقِّ، الكفَّار تقوله للشَّياطين.

وقال قتادة: قالت الإنس للجنِّ: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال: مِن قِبَل الخير، فتَنْهَوْنَا عنه وتُبَطِّئُونا عنه.

وقال السُّدِّي: تأتوننا [عن اليمين][1] من قبل الحق، تُزَيِّنُون لنا الباطل، وتصدُّونا عن الحق.

وقال الحسن في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ إِيْ والله، يأتِيهِ عند كلِّ خيرٍ يُرِيدُه فيَصُدُّه عنه. وقال ابن زيد: معناه تحُولُون بَيْنَنَا وبين الخَيْر، ورَدَدْتُمونا عن الإسلام والإيمان والعَمَل بالخيرِ الَّذي أُمرنا [به][2] . وقال يزيد الرِّشْك: مِن قِبَل لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وقال خُصيف: يعنُون مِن قِبَل ميامنهم. وقال عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، قال: مِن حيث نَأْمَنُكُم.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ ، تقول القادة من الجنِّ والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم مُنْكِرَة للإيمان، قابلة للكفرِ [والعصيان][3] ، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ﴾ أي: مِن حجَّة علىٰ صحَّة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحقِّ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحقَّ الَّذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحُجَج علىٰ صحَّة ما جاءوكم به فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾ ، يقول الكبراء للمستضعفين: حقَّت علينا كلمةُ الله: إنَّا من الأشقياء الذَّائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلىٰ الضَّلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾ أي: دَعَوْناكُم إلىٰ ما نحنُ فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: الجميع في[4] النَّار، كلٌّ بحسبِهِ، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟﴾ -أي: في الدَّار الدُّنيا- ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يَسْتَكْبِرُون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وَهْب، حدَّثنا عمي، حدَّثنا الليث، عن ابن مُسافر -يعني: عبد الرحمن بن خالد- عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ»**. وأنزل الله في كتابه -وذكر قومًا استكبروا- فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[5] .

---

(١) ليست في (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٤ ب).

(٥) البخاري (١٥٠)، ومسلم (٢٢)، بدون ذكر الزيادة وهي قوله: «وَأَنْزَلَ اللهُ... إلخ»، ولكنَّ الحديث بتمامه رواه ابن أبي حاتم (١٨١٧١)، وهذه الزِّيادة الظَّاهر أنَّها مدرجةٌ مِن كلام الزُّهري، وقد ثبت مرفوعًا عند البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٥)، لكنَّها روايةٌ شاذَّةٌ خالَفَ فيها راويها (إسحاق بن يحيىٰ) الثِّقات الَّذين رَوَوُا الحديث بدونها، كما في البخاري ومسلم.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمة موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حمَّاد، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي العلاء قال: «يُؤتَىٰ باليهود يوم القيامة فيُقال لهم: ما كنتُم تعبدون؟ فيقولون: اللهُ وعُزَيرًا. فيقال لهم: خذُوا ذات الشِّمال، ثم يُؤْتَىٰ بالنَّصارىٰ فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيُقَال لهم: خذُوا ذات الشِّمال. ثم يُؤتَىٰ بالمشركين فيقال لهم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشِّمال، قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطَّير، قال أبو العلاء: ثم يؤتىٰ بالمُسْلِمِين فيُقَال لهم: ما كنتم تعبدُون؟ فيقولون: كنَّا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رَأَيْتُمُوه؟ فيقولون: نعم. فيُقال لهم: فكيف تَعْرِفُونَه ولم تَرَوْهُ؟ قالوا: نعلم أنَّه لا عِدْلَ له[(١)]. قال: فيتعرَّف لهم تبارك وتعالىٰ، وينجِّي الله المؤمنين»[(٢)].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أي: أنحن نترُكُ عبادة آلهتِنا وآلهة آبائِنا عن قول [هذا][(٣)] الشَّاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ!! قال الله تعالىٰ تكذيبًا لهم، وردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: رسول الله ﷺ؛ جاء بالحقِّ في جميع شِرْعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدَّقهم فيما [أخبرو][(٤)] عنه من الصِّفات الحميدة، والمناهج السَّدِيدة، وأخبر عن الله في شرعِهِ [وقَدَرِه][(٥)] وأَمْرِهِ كما أخبروا، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ[(٦)] مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت:٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا للنَّاس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنىٰ من ذلك عبادَهِ المخلَصِين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١-٣].

وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١، ٧٢]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين:٤-٦]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨، ٣٩]؛

---

(١) أي: لا مثل له ولا نظير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٨١٧٢)، وإسناده صحيح، لكنه مقطوعٌ علىٰ أبي العلاء، وهو يزيد بن عبد الله بن الشخير.

(٣) ليست في (ز).

(٤) في (ز): (أخبروه).

(٥) ليست في (ز).

(٦) لوحة (٢٥ أ).

ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: ليسوا يذوقون العَذابَ الأليمَ، ولا يُنَاقَشُونَ في الحساب، بل يتجَاوَزُ عن سيِّئاتهم، إن كان لهم سيِّئات، ويُجْزَوْنَ الحسنة بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعفٍ، إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ، إلىٰ ما يشاء الله تعالىٰ من التَّضعيف.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، قال قتادة، والسُّدِّي: يعني الجنَّة. ثم فسَّره بقوله تعالىٰ: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ - أي: متنوِّعة - ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: يُخْدَمُون [ويُرْزَقُون][1] ويُرَفَّهون ويُنَعَّمُون، ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، قال مجاهد: لا ينظُرُ بعضُهم في قفا بعضٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يحيىٰ بن عبدك القزويني، حدَّثنا حسان بن حسان، حدَّثنا إبراهيم بن بشر، حدَّثنا يحيىٰ بن معين، حدَّثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفىٰ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ ينظُر بعضُهم إلىٰ بعضٍ. حديثٌ غريبٌ[2].

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[3] ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٧-١٩]، فنزَّه الله خمرَ الآخرةِ عن الآفات التي في خمرِ الدُّنيا، من صُداع الرَّأس، ووجع البطن -وهو الغول-، وذهابها بالعقل جملةً، فقال تعالىٰ هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: بخمرٍ مِن أنهار جاريةٍ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمرٌ جاريةٌ بيضاءُ؛ أي: لونها مشرقٌ حسنٌ بهيٌّ لا كخمر الدُّنيا في منظرِهَا البشع الرَّديء، من حمرةٍ أو سوادٍ أو اصفرارٍ أو كدورةٍ[4]، إلىٰ غير ذلك مما يُنَفِّر الطَّبع السَّليم.

وقوله ﷻ: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي: طعمها طيب كلَوْنها، وطِيبُ الطَّعم دليلٌ علىٰ طِيبِ الرِّيح، بخلافِ خمر الدُّنيا في جميع ذلك. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تُؤَثِّر فيهم غولًا؛ وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد -كما تفعله خمر الدُّنيا من القُولَنْج[5] ونحوه، لكثرة مائيَّتِها.

وقيل: المراد بالغَول هاهنا: صُدَاعُ الرَّأسِ. ورُوِيَ هكذا عن ابن عبَّاسٍ.

[وقال][6] قتادة: هو صدَاعُ الرَّأس، ووَجَعُ البطنِ. وعنه، وعن السُّدِّي: لا تغتَال عقولهم، كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتِ الكَأْسُ تَغْتَالُنَا ... وَتَذْهَبُ بِالأَوَّلِ الأَوَّلِ

---

(١) ليست في (ز).

(٢) ضعيف: رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٣٨٦)، وقال: هذا إسنادٌ مجهولٌ لا يتابع عليه، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض.

(٣) لوحة (٢٥ ب).

(٤) الكُدُورة: نقيض الصفاء.

(٥) القُولَنْج: مرض معوي مؤلم، يصعب معه خروج البراز والريح، -وهي كلمة أعجميَّة-، وسببه: التهاب القولون، وهو: المَعِيُّ الغليظُ الضَّيق الذي يتصل بالمستقيم. «المعجم الوسيط»: (ص٧٦٧).

(٦) بياض في (ز).

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذىٰ.

والصَّحيح قول مجاهد: إنَّه وجع البَطْن[١].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهَبُ عقولُهُم.

وكذا قال ابن عبَّاس، ومحمَّد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقال الضَّحَّاكُ، عن ابن عبَّاس: في الخمر أربع خصال: السُّكر، والصُّدَاع، والقَيْء، والبَوْل. فذكر الله خمر الجنَّة فنزَّهَهَا عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة «الصافات»[٢].

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: عفيفات لا ينظرن إلىٰ غير أزواجهنَّ. كذا قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقوله ﴿عِينٌ﴾ أي: حِسَان الأعيُنِ. وقيل: ضخَام الأعيُن. وهو يرجع إلىٰ الأوَّل، وهي النَّجلاء العَيْنَاء، فوصف عيونُهنَّ بالحُسْنِ والعفَّةِ، كقول «زليخا» في «يوسف» حين جمَّلَتْه وأخرجته علىٰ تلك النِّسوة، فأعظمْنَهُ[٣] وأكبرنه، وظننَّ أنَّه مَلَكٌ من الملائكة لحسنِهِ وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]، أي: هو مع هذا الجمال عفيفٌ تقيٌّ نقيٌّ، [فَأَرَتْهُنَّ جماله الظَّاهر، وأخبرتهنَّ بجمَالِهِ الباطن][٤]. وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]؛ ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، [وصفهن بترافةِ الأبدانِ بأحسن الألوانِ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾][٥] يقول: اللؤلؤ المكنون[٦].

وينشد هاهنا بيت أبي دَهْبَل الشاعر في قصيدة له:

وَهْـــيَ زَهْـــرَاءُ مِثْـــلُ لُؤْلُـــؤَةِ الغَـــوَّ ... اصِ مُيِّـــزَتْ مِـــنْ جَـــوْهَرٍ مَكْنُـــونِ

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعني: محصونٌ لم تمسَّه الأيدي.

وقال السُّدِّي: البيض في عشِّه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، يعني: بطن البيض.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فالقول الراجح في هذه الآية أن المراد بالغول ما يغتال أبدانهم من صداع في الرأس ووجع في البطن فخمر الآخرة لا غول فيها بخلاف خمر الدنيا، فإنه يكون فيها صداع ويكون فيها وجع للبطن.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٨١٧٧). (٣) لوحة (٢٦ أ).

(٤) ليست في (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (٢٣/ ٥٦)، وابن أبي حاتم (١٨١٨٠).

وقال عطاء الخراساني: هو السِّحاء الَّذِي يكون بين قشرته العليا ولباب البَيْضَةِ.

وقال السُّدِّي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيضِ حينَ يُنْزَع قشرُهُ. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العُلْيَا يمسها جناح الطَّيرِ والعش، وتنالها الأيدِي بخلافِ داخِلِهَا، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدَّثنا محمَّد بن الفرج الصَّدَفي الدمياطي، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة رضي الله عنها قلتُ: يا رسول الله، أخبِرْني عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾؟ قال: «رِقَّتُهُنَّ كَرِقَّةِ الجِلْدَةِ الَّتِي رَأَيْتِهَا فِي دَاخِلِ البَيْضَةِ الَّتِي تَلِي القِشْرَ، وَهِيَ الغِرْقِيُّ»(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي: حدَّثنا أبو غسان النهدي، حدَّثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا حَزِنُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا، لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَىٰ رَبِّي ﷻ وَلَا فَخْرَ، يَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ كَأَنَّهُنَّ البَيْضُ المَكْنُونُ -أَوِ: اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ-»(٢).

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ(٣) أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن أهلِ الجنَّة أنَّه أقبل بعضُهم علىٰ بعضٍ يتساءَلُون؛ أي: عن أحوالِهم، وكيفَ كانُوا في الدُّنيا، وماذا كانوا يُعَانُون فيها؟ وذلك مِن حديثِهم علىٰ شرابِهم، واجتماعهم في تنادُمِهم وعشرتِهم في مجالسهم، وهم جلوس علىٰ السُّرُر، والخدَم بين أيديهم، يسعَوْن ويجيئُون بكلِّ خيرٍ عظيمٍ، من مآكلَ ومشاربَ وملابسَ، وغير ذلك مما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطر علىٰ قلبِ بشرٍ. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعني شيطانًا.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحبٌ مِن أهل الإيمان في الدُّنيا.

ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عبَّاس؛ فإن الشَّيطان يكون من الجنِّ فيوسوس في النَّفس، ويكون من الإنس فيقول كلامًا تسمعه الأذنان، وكلاهما متعادِيَان، قال الله تعالىٰ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

---

(١) منكر: رواه الطبري (٢٣/ ٥٨) وفيه سليمان بن أبي كريمة. قال العقيلي (٢/ ١٣٨): يُحدِّث بمناكير ولا يُتَابَعُ علىٰ كثيرٍ مِن حديثه، ولا يُتَابَعُ علىٰ هذا الحديث ولا يُعْرَفُ إلَّا به.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨١٨٩)، والتِّرمذي (٣٦١٠)، وفيه ليث بن أبي سليم: صدوقٌ لكن، أُدْخِل في حديثه ما ليس مِنه، ولم يتميَّز حديثه فتُرِك.

(٣) لوحة (٢٦ ب).

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، وكل منهما يُوَسْوِسُ، كما قال تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس: ٤-٦].

ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: أأَنْتَ تُصدِّق بالبعث والنُّشور والحساب والجَزاء؟! يعني: يقول ذلك علىٰ وَجه التَّعجُّب والتَّكذِيبِ والاستبْعَادِ والكفر والعناد؛ ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، قال مجاهد والسُّدِّي: لَمُحَاسَبُون؟ وقال ابن عبَّاس ومحمَّد بن كعب القرظي: لمجزيُّون بأعمالِنا؟ وكلاهما صحيح.

قال: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي: مُشْرِفُون. يقول المؤمنُ لأصحابِهِ، وجلسائِهِ مِن أهل الجنَّة.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وخُلَيْد العَصَري وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني؛ يعني: في وَسَطِ الجحيمِ.

وقال الحسن البصري: في وَسَط الجَحِيم، كأنَّه شهابٌ يتَّقدُ.

وقال قتادة: ذُكِر لنا أنَّه اطلع فرأىٰ جماجم القَوْم[1] تَغْلِي. وذُكِر لنا أنَّ كَعْب الأحبار قال: في الجنَّة كُوًى إذا أراد أحدٌ من أهلها أن ينظرَ إلىٰ عدوِّه في النَّار اطَّلع فيها، فازداد شكرًا.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يقول المؤمنُ مخاطبًا للكافر: والله إن كدت لتُهْلِكُني لو أَطَعْتُك. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: ولولا فضل الله عليَّ لكنتُ مثلك في سواء الجَحِيم حيثُ أنت، محضَرٌ معكَ في العذاب، ولكنَّه تفضَّل عليَّ ورَحِمَني فهداني للإيمَان، وأرشدني إلىٰ توحيدِهِ، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾!! هذا من كلام المؤمن مغبطًا نفسه بما أعطاه الله من الخُلْد في الجنَّة والإقامة في دارِ الكَرَامة، لا موتَ فيها ولا عذابَ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبد الله الظهراني، حدَّثنا حفص بن عمر العَدَني، حدَّثنا الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عبَّاس [ﷺ في قول الله تبارك وتعالىٰ لأهل الجنَّة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٩]، قال ابن عبَّاس:][2]: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾؛ أي: لا يموتون فيها. فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3].

[وقال الحسن البصري: عَلِمُوا أنَّ كلَّ نعيم فإنَّ الموت يقطعُهُ، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟![4]، قيل [لهم][5]: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾، [قال قتادة][6]: هذا مِن كلامِ أهلِ الجنَّة.

---

(١) لوحة (٢٧ أ). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨١٩٢)، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعيف. وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال، وفيه - أيضًا- الحكم بن أبان: صدوق له أوهام.

(٤) سقط من (ز). (٥) ليست في (ز). (٦) بياض في (ز).

وقال ابن جرير: هو مِن كلَام الله تعالىٰ، ومعناه: لمثلِ هذا النَّعيم وهذا الفَوْزِ فلْيَعْمَلِ العَاملُون في الدُّنيا؛ ليَصِيرُوا إليه فِي الآخرة.

وقد ذكروا قصَّة رجلَيْنِ كانا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدَّثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشَّهيد، حدَّثنا عتَّابُ بنُ بشير، عن[(١)] خُصَيف، عن فُرات بن ثعلبة البهراني في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال: إن رجلينِ كانَا شريكَيْن، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينارٍ، وكان أحدهما له حِرْفَةٌ، والآخر ليس له حرفةٌ، فقال الذي له حرفةٌ للآخر: ليس عندَكَ حرفةٌ، ما أراني إلا مُفَارِقُك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إنَّ الرَّجل اشترىٰ دارًا بألف دينار كانت لملكٍ مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترىٰ هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللَّهمَّ إنَّ صاحبي ابتاع هذه الدَّار بألف دينار، وإني أسألك دارًا من دور الجنَّة، فتصدَّق بألف دينار، ثم مكث[(٢)] ما شاء الله أن يمكُثَ، ثم إنه تزوَّج بامرأةٍ بألفِ دينارٍ، فدعاه وصنع له طعامًا. فلمَّا أتاه قال: إنِّي تزوَّجت امرأةً بألفِ دينارٍ. [قال: ما أحسن هذا! فلمَّا انصرف قال: يا رب، إن صاحبِي تزوَّج امرأةً بألفِ دينار][(٣)]، وإنِّي أسأَلُك امرأةً مِن الحور العِين. فتصدَّق بألف دينارٍ، ثم إنَّه مكث ما شاء الله أن يمكثَ. ثم اشترىٰ بُسْتَانَيْن بألفَيْ دينارٍ، ثم دعاه فأراه فقال: إنِّي ابتعت هَذَيْن البُسْتَانَيْن. فقال: ما أحسن هذا! فلمَّا خرج قال: يا رَبِّ، إنَّ صَاحِبِي قد اشترَىٰ بُسْتَانَيْنِ بألفَيْ دِينَارٍ، وأنا أسألك بُسْتَانَيْن في الجنَّة. فتصدَّق بألفيْ دينارٍ، ثمَّ إن المَلَك أتاهُمَا فتوَفَّاهُما، ثم انطلق بهذا المتصدِّق، فأدخله دارًا تُعجِبُه، وإذا امرأةٌ تطلع يُضِيءُ ما تحتها من حسنِهَا، ثم أدخله بُسْتَانَيْن وشيئًا الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمرِهِ كذا وكذا. قال: فإنَّه ذاك، ولك هذَا المنزل والبستانَان والمرأة. قال: فإنَّه كان لي صاحبٌ يقول: «أئنَّك لمن المصدِّقين»، قيل له: فإنَّه في الجحيم. قال: هل أنتم مطَّلِعُون؟ فاطَّلع فرآه في سواءِ الجَحِيم. فقال عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ الآيات[(٤)].

قال ابن جرير: وهذا يقويِّ قراءة من قرأ: «أئنك لمن المُصَّدِّقِينَ»[(٥)] -بالتشديد-.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا عمر بن عبد الرحمن الأَبَّار أبو حفص؛ قال: سألت إسماعيل السُّدِّي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ؟ قال: فقال لي: ما ذَكَّرَك هذا؟ قلت: قرأته آنفًا، فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أمَا فاحفظ، كان شريكَان في بني إسرائيل، أحدُهما مؤمنٌ والآخر كافرٌ، فافترقا علىٰ ستَّة آلافِ دينارٍ، كل واحدٍ منهما ثلاثة آلاف دينارٍ،

---

(١) في (ز): «بن خصيف»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) لوحة (٢٧ ب). (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «تفسير الطبري».

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ٥٩)، وخصيف: صدوق سيِّئ الحفظ، ثم إنَّ بينه وبين فرات بن ثعلبة انقطاع. انظر: «الجرح والتعديل» (٧/ ٧٩).

(٥) لَمْ نَجِدْ -بَعْدَ طُولِ بَحْثٍ- نِسْبَةَ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ إِلَىٰ أَحَدٍ؛ فَاللهُ أَعْلَمُ.

فمكثَا ما شاء الله أن يمكُثَا، ثم التقيَا فقال الكافر للمُؤمنِ: ما صنعتَ في مالك؟ أضربت به شيئًا؟[١] أتَّجرتَ به في شيءٍ؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعتَ أنت؟ فقال: اشتريتُ به أرضًا ونخلًا وثمارًا وأنهارًا، قال: فقال له المؤمنُ: أو فعلتَ؟ قال: نعم. فرَجَعَ المؤمنُ حتىٰ إذا كان اللَّيل صَلَّىٰ ما شاء الله أن يصلِّي، فلمَّا انصرفَ أخذ ألف دينارٍ فوضعها بين يديه، ثم قال: اللَّهمَّ إنَّ فلانًا -يعني: شريكه الكافر- اشترىٰ أرضًا ونخلًا وثمارًا وأنهارًا بألفِ دينار[٢]، ثم يموت غدًا ويتركها، اللَّهمَّ إنِّي اشتريتُ منك بهذه الألف دينار أرضًا ونخلًا وثمارًا وأنهارًا في الجنَّة. قال: ثم أصبح فقَسَّمَها في المساكين.

قال: ثمَّ مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم الْتقَيَا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك، أضربت به في شيءٍ؟ أتَّجرت به في شيءٍ؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟. قال: كانت ضيعتي قد اشتدَّ عليَّ مؤنتها، فاشتريت رقيقًا بألف دينار، يقومون بي فِيها، ويعملون لي فيها. فقال له المؤمن: أوفعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتىٰ إذا كان اللَّيل صلَّىٰ ما شاء الله أن يصلِّي، فلمَّا انصرف أخذ ألف دينارٍ فوضعها بين يديه، ثم قال: اللَّهمَّ إنَّ فلانًا -يعني: شريكه الكافر- اشترىٰ رقيقًا من رقيق الدُّنيا بألفِ دينار، يموت غدًا ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللَّهمَّ وإني أشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقًا في الجنة. ثم أصبحَ فقسَّمها في المساكين.

قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالىٰ أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعتَ في مالكَ؟ أضربتَ به في شيءٍ؟ أتَّجرت به في شيءٍ؟ قال: لا، فما صنعتَ أنت؟ قال: أمري كلُّه قد تمَّ إلا شيئًا واحدًا، فلانةٌ قد ماتَ عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينارٍ، فجاءتني بها ومثلها مَعَهَا. فقال له المؤمن: أوفعلتَ؟ قال: نعم. فرجع المؤمنُ حتىٰ إذا كان اللَّيل صلَّىٰ ما شاء الله أن يصلِّي، فلمَّا انصرف أخذ الألف الدِّينار الباقِيَة، فوضعها بين يديه، وقال: اللَّهمَّ إنَّ فلانًا -يعني: شريكه الكافر- تزوَّج زوجة من أزواجِ الدُّنيا فيموت غدًا فيتركها، أو تموتُ فتتركه، اللَّهمَّ وإنِّي أخطبُ إليك بهذه الألف الدِّينار حوراءَ عيناء في الجنَّة. ثم أصبح فقَسَّمها بين المساكين. قال: فبَقِيَ المؤمنُ ليس عنده شيءٌ.

قال: فَلَبِسَ قميصًا من قطنٍ، وكساءً مِن صوفٍ، ثم أخذ مرًّا[٣] فجعله علىٰ رقبتِهِ، يعمل الشَّيء ويحفر الشَّيءَ بقوَّته. قال: فجاءه رجلٌ فقال: يا عبدَ الله، أتُؤَاجِرُني نفسَكَ مشاهرةً، شهرًا بشهرٍ، تقوم علىٰ دوابَّ لي تعلفُها وتكنس سَرْقِينَها؟ قال: نعم. قال: فوَاجَرَهُ نفسه مشاهرةً، شهرًا بشهر، يقوم علىٰ دوابِّه. قال: فكان صاحب الدَّوابِّ يغدو كلَّ يوم ينظرُ إلىٰ دوابِّه، فإذا رأىٰ منها دابَّةً[٤] ضامرةً، أخذ برأسِهِ فوَجَأَ عنقَهُ، ثم يقول له: سَرَقْتَ شعيرَ هذِهِ البارحة؟ فلمَّا رأىٰ المؤمنُ هذه الشِّدَّة قال: لآتِيَنَّ شريكي الكافر، فلأعملنَّ في أرضِهِ فيُطْعِمُنِي هذه الكِسْرة يومًا بيومٍ، ويكسوني هذين الثَّوبين إذا بليا.

---

(١) أي: أكسبت به شيئًا؟

(٢) لوحة (٢٨ أ).

(٣) المَرّ: الحَبْل.

(٤) لوحة (٢٨ ب).

قال: فانطلق يريده، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ بابه وهو مُمْسٍ، فإذا قصرٌ مشيدٌ في السَّماء، وإذا حوله البوَّابون فقال لهم: استأذِنُوا لي صاحب هذا القصر، فإنَّكم إذا فعلتم سرَّه ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقًا فنَمْ في ناحيةٍ، فإذا أصبَحْتَ فتعرَّضْ له.

قال: فانطلق المؤمنُ، فألقىٰ نصفَ كِسَائِه تحته، ونصفه فوقَهُ، ثم نام. فلمَّا أصبح أتىٰ شريكَهُ فتعرَّضَ له، فخرج شريكُهُ الكافرُ وهو راكبٌ، فلمَّا رآه عرَفَهُ فوقفَ عليه وسلَّم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ مِن المال مثل ما أخذتَ؟ قال: بلىٰ، وهذه حالي وهذه حالك. قال: أخبرني ما صنعتَ في مالك؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاءَ بك؟ قال: جئتُ أعملُ في أرضِكَ هذه، فتُطْعِمُني هذه الكسرة يومًا بيوم، وتكسوني هذين الثَّوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترىٰ منِّي خيرًا حتىٰ تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: [أقرضته. قال][1]: من؟ قال: المليءُ[2] الوَفِيُّ. قال: من؟ قال: اللهُ ربِّي. قال: وهو مصافحه، فانتزع يده مِن يده، [ثم][3] قال: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟! -قال السُّدِّي: محاسبون- قال: فانطلق الكافرُ وتركه.

قال: فلمَّا رآه المؤمنُ ليس يلوِي عليه، رجع وتركه، يعيشُ المؤمنُ في شدَّةٍ من الزَّمان، ويعيشُ الكافر في رخاءٍ مِن الزَّمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل اللهُ المؤمنَ الجنَّةَ، يمر فإذَا هو بأرضٍ ونخلٍ وثمارٍ وأنهارٍ، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أوَ بلغ من فضل عملِي أن أثاب بمثلِ هذا؟!

قال: ثم يمرُّ [فإذا هو][4] برقيقٍ لا تُحْصَىٰ عدَّتُهم، فيقول: لمَنْ هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحان الله![5] أوَبَلَغَ مِن فضل عملِي أن أُثاب بمثل هذا؟!

قال: ثم يمرُّ فإذا هو بقبَّةٍ [من ياقوتةٍ][6] حمراءَ مجوَّفةٍ، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحانَ الله! أوبلغ من فضل عملي أن أُثاب بمثل هذا؟!

قال: ثم يذكر المؤمن شريكَهُ الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾! قال: فالجنَّة عاليةٌ، والنَّار هاويةٌ.

قال: فيُريه الله شريكه في وسط الجحيم، مِن بين أهل النَّار، فإذا رآه المؤمن عرَفَهُ، فيقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾؛ بمثل ما مُنَّ عليه.

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٢) المَلِيء: الغني.

(٣، ٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٥) لوحة (٢٩ أ). (٦) سقط من (ز).

قال: فيتذكَّر المؤمنُ ما مرَّ[١] عليه في [الدُّنيا من الشِّدَّة][٢]، فلا يذكر مما مرَّ عليه في الدُّنيا من الشِّدَّة أشدَّ عليه من الموت[٣].

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ٧٠﴾

يقول الله تعالىٰ: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنَّة وما فيها مِن مآكَلَ ومشارِبَ ومناكِحَ وغير ذلك مِن الملاذِّ خير -ضيافة وعطاء- ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ أي: الَّتِي في جهنَّم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدةً معيَّنةً، كما قال بعضهم من أنَّها شجرة تمتدُّ فروعُهَا إلىٰ جميع محالِّ جهنَّم، كما أنَّ شجرة طوبىٰ ما مِن دارٍ في الجنَّة إلا وفيها منها غُصْنٌ.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجرٍ يقال له: الزَّقُّوم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني: الزَّيتونة. ويؤيِّد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن[٤] زَقُّومٖ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ قال قتادة: ذُكِرَت شجرة الزَّقُّوم، فافتُتِن بها أهل الضَّلالة، وقالوا: صاحبُكُم يُنبِّئكُم أنَّ في النَّار شجرةً، والنَّار تأكل الشَّجر!! فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، غُذِّيَتْ من النَّار، ومنها خُلِقَتْ.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، قال أبو جهل -لعنه الله-: إنَّما الزَّقُّوم التَّمر والزُّبد أتزقمه.

قلت: ومعنىٰ الآية: إنما أخبرناك يا محمَّد بشجرة الزَّقُّوم اختبارًا تختبر به النَّاس، من يصدِّق منهم ممن يكذِّب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: أصل منبتها في قرارِ النَّار، ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ

---

(١) في (ز): «ما مُن». (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨١٩١)، وإسماعيل السُّدِّي: قال يحيىٰ بن سعيد: لا بأس به، وقال أحمد: ثقة، وضعفه ابن معين، وأنكر الشعبي علىٰ السُّدي تفسيره للقرآن، وكذلك إبراهيم النخعي، وقال أبو زرعة: لين، وقال أبو حاتم: يُكتب حديثه ولا يُحتج به، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن عدي: هو عندي مستقيم الحديث، صدوق لا بأس به. انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ١٢٤). وقال الحافظ: صدوق يهم ورمي بالتشيع (تقريب ترجمة ٤٦٣). وهو لم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، ولعلَّه من الإسرائيليَّات التي تروىٰ عن بني إسرائيل.

(٤) لوحة (٢٩ ب).

﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ تَبْشِيعٌ لها[(١)] وتكريهٌ لذِكْرِها. قال وهب بن منبِّه: شعور الشَّياطين قائمة إلىٰ السَّماء.

وإنَّما شبَّهَهَا برءوسِ الشَّياطين وإن لم تكن معروفةً عند المخاطَبين؛ لأنَّه قد استقرَّ في النُّفوس أنَّ الشَّياطين قبيحةُ المنظر[(٢)]. وقيل: المراد بذلك ضربٌ مِن الحيَّات رءُوسُها بشعة المنظر. وقيل: جنسٌ من النَّبات طلعه في غاية الفحَاشَة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرَهُمَا ابن جريرٍ، والأوَّل أقوىٰ وأولىٰ، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، ذكر تعالىٰ أنَّهم يأكلونَ مِن هذه الشَّجرة التي لا أبشعَ منها، ولا أقبحَ مِن منظرِها، مع ما هي عليهِ مِن سوءِ الطَّعم والرِّيح والطَّبع، فإنَّهم ليضطرُّون إلىٰ الأكل مِنها؛ لأنَّهم لا يجدون إلَّا إيَّاها، وما في معناها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٦، ٧]. وقال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن مرزوق، حدَّثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، فَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا، لَأَفْسَدَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ؟**»[(٣)].

ورواه التِّرمذي، والنَّسائي، وابن ماجة[(٤)]، من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، قال ابن عبَّاسٍ: يعني شرب الحَمِيمِ علىٰ الزَّقُّومِ.

وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مزجًا من حميمٍ.

وقال غيره: يعني يمزج لهم الحَمِيم بصديدٍ وغسَّاق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:** وإنما شبهت برءوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها؛ لأن كل أحد يعرف أن ما ينسب إلىٰ الشيطان قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يتخيل فكرًا، لا بما يعلم حسًّا، وعلىٰ هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه في القبح.

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٣٩١٢)، والترمذي (٢٥٨٥)، وابن ماجة (٤٣٢٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح. والنَّسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٧٠)، وأحمد (١/ ٣٠٠، ٣٣٨)، والضياء في «المختارة» (١٠٦)، والبيهقي في «البعث» (٥٤٣)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٦٨/ ١١٠٦٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٩٤)، ووافقه الذهبي. وحسَّنه السُّيوطي في «الجامع الصغير» (٧٤١٦)، ونقل في «الدر المنثور» (٢/ ١٠٦) عن أحمد تصحيحه، وحسَّنه البغوي في «شرح السنة» (٤٤٠٨)، وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «المسند» (٢٧٣٥)، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٥٨٣)، ولكنه ضعفه في «السلسلة الضعيفة» (٦٧٨٢) معللًا ذلك بأنَّ الأعمش دلَّس فيه؛ لأنَّ شعبة يَرْويه عن الأعمش، عن مجاهد، وقد خالَفَهُ كلٌّ مِن: فضيل بن عياضٍ، عن الأعمش، عن أبي يحيىٰ، رواه أحمد (١/ ٣٨٨)، ويحيىٰ بن عيسىٰ الرَّملي، عن الأعمش، عن أبي يحيىٰ موقوفًا، رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ١٦١/ ٥٩٩١)، فجعلَا السَّند عن الأعمش، عن أبي يحيىٰ، عن مجاهد، وأبو يحيىٰ عبد الرحمن بن دينار القتَّات: ليِّن الحديث.

قلت: ثَبَتَ عن شعبة أنَّه قال: كَفَيْتُكُم تدليس ثلاثةٍ: الأعمش، وأبي إسحاق، وقتادة، وعلىٰ هذا فاحتمال نفي التدليس هو الأقوىٰ، وعليه فالحديث صحيح، والله أعلم، وقد تقدم عند الآية (٩٨) من سورة آل عمران.

(٤) لوحة (٣٠ أ).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حَيْوَةُ بن شُرَيح الحضرمي، حدَّثنا بَقيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد بن بسر[(١)]، عن أبي أمامة البَاهلي ﵁، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يُقَرَّبُ -يعني إلىٰ أهل النار- مَاءٌ فَيَتَكَرَّهُهُ[(٢)]، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَىٰ وَجْهَهُ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فِيهِ. فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ»[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن رافع، حدَّثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر، وهارون ابن عنترة، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النَّار استغاثوا بشجرة الزَّقُّوم، فأكلوا منها، فاخْتَلَسَتْ جُلودَ وجوهِهم [فيها][(٤)]. فلو أن مارًّا يمرُّ بهم يعرفهم لعَرَفَ وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيَسْتَغِيثُون فيُغَاثُون بماءٍ كالمهل -وهو الذي قد انتهىٰ حرُّه-، فإذا أدنوه من أفْوَاهِهم اشتوىٰ من حرِّه لحوم وجوههم التي قد سَقَطَت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونِهم، فيمشون [تَسِيلُ][(٥)] أمعاؤُهم وتتساقط جلودُهُم، ثم يضربون بمَقَامِعَ مِن حديدٍ، فيسقط كلُّ عضوٍ علىٰ حِيَالِهِ، يدعون بالثُّبور[(٦)].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾، أي: ثم إنَّ مردَّهَمْ بعد هذا الفصل لإلَىٰ نارٍ تَتَأَجَّجُ، وجحيمٌ تَتَوَقَّدُ، وسعيرٌ تَتَوَهَّجُ، فتارةً في هذا وتارةً في هذا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسنٌ قويٌّ.

وقال السُّدِّي في قراءة عبد الله: «ثم إن مَقِيلَهُم لإلَىٰ الجحيم»[(٧)]، وكان عبد الله يقول: والَّذِي نفسي بيده لا ينتصفُ النَّهار يوم القِيَامَة حتىٰ يَقِيلَ أهل الجنَّة في الجنَّة، وأهل النَّار في النَّار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

وروىٰ الثوري، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النَّهار يوم[(٨)] القِيَامَة حتَّىٰ يَقِيل هؤلاء ويَقِيل هؤلاءِ. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ثم إن مقيلهم لإلَىٰ الجَحِيم[(٩)].

قلت: علىٰ هذا التفسير تكون: ﴿ثُمَّ﴾ عاطفةٌ لخبرٍ علىٰ خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي: إنَّما جازيناهُم بذلك؛ لأنَّهم وجدوا آباءَهُم علىٰ الضَّلالة

---

(١) في (ز): «عبيد بن بشير»، وهو خطأ، وفي «تفسير ابن أبي حاتم»: «عبيد الله بن يسار»، وهو خطأ كذلك، فالرَّاوي عن أبي أمامة الباهلي هو: (عبيد الله بن بُسر الحبراني).

(٢) في (ز): (فتتكرهه).

(٣) **ضعيف**: رواه أحمد (٥/ ٣٦٥)، والطبري (١٣/ ١٩٥)، والترمذي (٢٥٨٦)، وفيه عبيد الله بن بسر: مجهول.

(٤) ليست في (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٢٠٢)، وإسناده حسنٌ إلىٰ سعيد بن جبير، لكنَّه لم يرفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فغاية ما يُقالُ فيه أنَّه مرسل.

(٧) **قراءة**: قَرَأَ (مَقِيلَهُمْ) ابْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مَرْجِعَهُمْ).

(٨) لوحة (٣٠ ب).

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٥٠٧٩)، والحاكم (٢/ ٤٠٢) وصحَّحه علىٰ شرطِ مسلمٍ، ووافقه الذَّهبي، قلت: أبو عبيدة لم يسمع مِن أبيه ابن مسعود، فالإسناد منقطع.

فاتَّبعوهم فيها بمجرَّد ذلك مِن غير دليلٍ ولا برهانٍ؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾، قال [مجاهد][(١)]: شبيهةٌ بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يُسَفَّهُونَ.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الأمم الماضية أنَّ أكثرهم كانوا ضالِّين؛ يجعلون مع الله آلهةً أخرىٰ. وذكر تعالىٰ أنَّه أرسل فيهم مُنْذِرِينَ يُنْذِرُونَ بأسَ الله، ويُحَذِّرُونَهُم سطوتَهُ ونقمتَهُ ممَّن كفر به وعَبَدَ غيرَهُ، وأنَّهم تمادَوْا علىٰ مخالفة رسُلِهِم وتكذيبِهِم. فأهلك المكذِّبين ودمَّرهم، ونجَّىٰ المؤمنين ونصَرَهُم وظفَّرَهُم، ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ عن أكثر الأوَّلين أنَّهم ضلُّوا عن سبيل النَّجاة، شرع يبيِّن ذلك مفصلًا؛ فذكر نوحًا عليه السلام وما لَقِيَ من قومه من التَّكذيب، وأنَّه لم يؤمِنْ منهم إلا القَلِيلُ مع طول المدَّة، [فإنَّه][(٢)] لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين عامًا، فلمَّا طال عليهِ ذلك واشتدَّ عليه تكذيبُهُم، وكلَّما دعاهم ازدادُوا نفرةً، فدعىٰ ربَّه أنِّي مغلوبٌ فَانْتَصِرْ، فغضب اللهُ لغضبِهِ عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له. ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وهو التَّكذيب والأذىٰ، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس يقول: لم تبقَ إلا ذرية نوحٍ عليه السلام.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا[(٣)] ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام.

وقد روىٰ التِّرمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، قال: «سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثُ»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبي الله ﷺ قال: «سَامٌ أَبُو العَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو الحَبَشِ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ»[(٥)].

(١) سقط من (ز). (٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٣١ أ).

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٣٢٣١)، وابن أبي حاتم (١٨٢٠٨)، والطبري (٢٣/ ٤٣)، وفيه انقطاع بين الحسن وسمرة، وسعيد بن بشير، قال الحافظ: ضعيف. (تقريب، تر: ٢٢٧٦)، ويُلَاحظ أنَّ التِّرمذي رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة.

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٩)، والترمذي (٣٢٣١) وقال: حسنٌ غريبٌ. وإسناده ضعيفٌ كسابقه.

=

ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد -وهو ابن أبي [عروبة- عن قتادة، به.

قال الحافظ أبو عمر بن عبد][1] البرّ: وقد روي عن عمران[2] بن حُصين، عن النَّبيِّ ﷺ مثله[3].

والمراد بالرُّوم هاهنا: هم الرُّوم الأُوَل، وهم اليُونَان المنتسِبُون إلىٰ روميّ بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. ثم روىٰ من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثةً: سَامٌ، وحَامٌ، ويَافِثٌ، ووَلَدَ كلُّ واحدٍ مِن هذه الثَّلاثة ثلاثةً، فولد سامٌ: العربَ، وفارسَ، والرُّومَ، وولد يَافِثُ: التُّركَ والصَّقالبةَ ويأجوجَ ومأجوجَ، وولد حامٌ: القبطَ والسُّودانَ والبربرَ[4]. وروي عن وهب بن منبه نحو هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، قال ابن عبَّاس: يُذْكَر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسُّدِّي: أبقىٰ الله عليه [الثَّناء الحسن في الآخرين. قال الضَّحَّاك: السَّلام والثَّناء الحسن.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾؛ مفسِّر لما أبقىٰ عليه][5] من الذِّكر الجميل والثَّناء الحَسن؛ أنَّه يسلَّم عليه في جميع الطَّوائف والأمم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْقٍ يُذْكَر بِهِ بعده بحسبِ مَرْتَبَتِهِ في ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين الموحِّدين الموقنين. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم، فلم تَبْقَ منهم عينٌ تَطْرِف، ولا ذِكْرَ لهم ولا عَيْن ولا أَثَر، ولا يُعْرَفُون إلا بهذه الصِّفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة[6]، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه.

وقال مجاهد: علىٰ منهاجه وسنته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عبَّاس: يعني شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدَّثنا أبو أسامة، عن عوْف: قلت لمحمَّد بن سِيرين: ما

= وله شاهدٌ من حديث عمران بن الحصين. رواه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٣٠٩)، والحاكم (٢/ ٥٤٦)، وإسناده منقطعٌ أيضًا بين الحسن وعمران.

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «عمر بن حصين». (٣) انظر التخريج السابق.

(٤) ضعيف: رواه الحاكم (٤/ ٤٦٣)، وفيه إسماعيل بن عياش: ضعيفٌ في روايته عن غير أهل بلده، وهذا منها، ثمَّ إنَّ الخبر مِن قول سعيد بن المسيب، ومثل هذا يحتاج إلىٰ إسناده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٣١ ب).

القَلْب السليم؟ قال: يعلم أن الله حقٌّ، وأنَّ السَّاعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعثُ مَن في القُبُورِ.

وقال الحسن: سليمٌ من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعَّانًا.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ قال قتادة: [يعني][1]: ما ظنُّكم به أنَّه فاعلٌ بكم إذا لَقِيتُمُوه وقد عبدتُم غيره؟!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ[2] ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

إنما قال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه ذلك؛ ليُقيم في البَلَد إذا ذهبوا إلىٰ عِيدِهم، فإنَّه كان قد أَزِفَ خروجُهم إلىٰ عيدٍ لهم، فأحبَّ أن يختلي بآلِهتِهم ليَكْسِرَهَا، فقال لهم كلامًا هو حقٌّ في نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم علىٰ مقتضىٰ ما يعتقدونه، ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنَّه نظر في السماء متفكِّرًا فيما يُلْهِيهم به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضَعِيفٌ.

فأمَّا الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثني هشام، عن محمَّد، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثِ كَذِبَاتٍ؛ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٢]، وَقَوْلُهُ فِي سَارَةَ: هِيَ أُخْتِي»[3] فهو حديثٌ مخرَّجٌ في الصِّحاح والسُّنن من طرقٍ، ولكن ليس هذا من بابِ الكذب الحقيقي الذي يُذَمُّ فاعلُه، حاشا وكلَّا[4]، وإنَّما أطلق[5] الكَذِب علىٰ هذا تجوُّزًا، وإنَّما هو من المَعَارِيض في الكلام لمقصدٍ شرعيٍّ دينيٍّ، كما جاء في الحديث: «إِنَّ فِي المَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الكَذِبِ»[6].

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنما فعل ذلك؛ لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، نفعها أو ضرها، فنظر في هذه النجوم فلما نظر قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: وإنما نظر فيها وهو لا يعتقد -عليه الصلاة والسلام- من باب التورية، وهذه تورية بالفعل، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل.

(٣) البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١)، والطبري (٢٣/ ٧١)، وأبو داود (٢٢١٢) والنَّسائي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٩).

(٤) في (ز): «حاشا وكلا ولما». (٥) لوحة (٣٢ أ).

(٦) حسن مرفوعًا، صحيح موقوفًا: رواه البيهقي في «السنن» (١٠/ ١٩٩)، وابن عدي (٣/ ٩٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠١١)، والأصبهاني في «الأمثال» (٢٣٠)، و«الغرائب الملتقطة» لابن حجر (٨٨٨)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١/ ٩٧)، وفي إسناده داود بن الزبرقان، وهو ضعيف، بل رماه بعضهم بالكذب، وله طريق أخرىٰ عند الطَّبري، ورواه ابن السني (٣٢٢) وإسناده حسن، وقال العراقي: سنده جَيِّدٌ، كما نقل عنه ذلك السخاوي في «المقاصد الحسنة»، ورواه عن حصينٍ موقوفًا: البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار»
=

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ -في كلمات إبراهيم الثَّلاث الَّتِي قال-: «مَا مِنْهَا كَلِمَةٌ إِلَّا مَا حَلَّ بِهَا عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وَقَالَ لِلْمَلِكِ حِينَ أَرَادَ الْمَرْأَةَ: هِيَ أُخْتِي»[1].

قال سفيان في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ يعني: طَعِين. وكانُوا يفِرُّون من المَطْعُونِ، فأراد أن يخلو بآلهتِهِم. وكذا قال العوفي عن ابن عبَّاس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو في بيتِ آلهتِهِم: اخرج. فقال: إنِّي مطعونٌ، فتركوه مخافة الطَّاعون.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأىٰ نجمًا طَلَعَ فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ كابد نبي الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنِّسبة إلَىٰ ما يُسْتَقْبَل؛ يعني: مرضَ الموت.

وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض القلب مِن عبادتِكُم الأوثان من دون الله ﷻ.

وقال الحسنُ البصريُّ: خرج قومُ إبراهيم إلىٰ عيدِهِم، فأرادوه علىٰ الخروج، فاضطجع علىٰ ظهرِهِ وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظُرُ في السَّماء فلمَّا خَرَجُوا أقبل إِلَىٰ آلهتِهِم فكسَّرها.

رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، أي: إلىٰ عيدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها بعد أن خَرَجُوا في سرعةٍ واختفاءٍ، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ؟! وذلك أنَّهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعامًا قربانًا لتُبرِّك لهم فيه.

قال السُّدِّي: دخل إبراهيم ﷺ إلىٰ بيت الآلهة، فإذَا هم في بَهْوٍ عظيمٍ، وإذا مستقبل باب البهوِ صنمٌ عظيمٌ، إلىٰ جنبه [صنمٌ آخر][2] أصغر منه، بعضها إلىٰ جنبِ بعض، كل صنم يليهِ أصغر منه، حتىٰ بلغوا بابَ البَهْوِ، وإذا هم قد جعلوا طعامًا وضعوه بينَ أيدِي الآلهة، وقالوا: إذَا كان حين نرجع وقد بَرَّكَتِ الآلهةُ في طعامِنَا أكلناه، فلمَّا نظرَ إبراهيمُ ﷺ إلىٰ ما بين أيديهم من الطَّعام[3] قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟!.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾، قال الفراء: معناه مالَ عليهم ضربًا باليمين.

وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضربًا باليمين.

= (٧/ ١١٦)، وابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦)، والبيهقي (١٠/ ١٩٩)، وصحح البيهقي الموقوف، وهو كما قال، وقد ثبت موقوفًا أيضًا عن عمر بن الخطاب ﷺ؛ رواه البيهقي (١٠/ ١٩٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٣٥٣).

(١) ضعيف: في إسناده علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، رواه الترمذي (٣١٤٨).

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٣٢ ب).

وإنَّما ضربَهُم باليمين؛ لأنَّها أشدُّ وأنكىٰ، ولهذا تركهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلَّهم إليه يَرْجِعُون، كما تقدَّم في «سورة الأنبياء» تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قال مجاهد وغير واحدٍ: أي يُسْرِعُون.

وهذه القصَّة هاهنا مختصرةٌ، وفي «سورة الأنبياء» مبسوطةٌ؛ فإنَّهم لما رجعوا ما عَرَفُوا من أوَّل وهلةٍ مَن فعل ذلك حتىٰ كشفوا واستعلموا، فعرفوا أنَّ إبراهيم عليه السلام هو الَّذي فعل ذلك. فلمَّا جاءوا ليُعَاتِبُوه أخذ في تأنيبِهم وعيبِهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟! أي: أتعبدُونَ مِن دون الله مِن الأصنام ما أنتم تَنْحِتُونَها وتجعلونها بأيْدِيكُم؟! ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون: «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم [وعملَكُم. ويحتمل أن تكون بمعنىٰ: «الَّذي»، تقديره: والله خلقَكُم] (١) والَّذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأوَّل أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب: «أفعال العباد» عن علي بن المديني، عن مروان (٢) بن معاوية، عن أبي مالك، عن رِبْعِيّ بن حِرَاش، عن حذيفة مرفوعًا قال: «إِنَّ اللهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ» (٣).

وقرأ بعضهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٤).

فعِنْدَ ذلك لما قامت عليهم الحجَّة عدلوا إلىٰ أخذه باليَدِ والقَهْر، فقالوا: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، وكان مِن أمرِهم ما تقدَّم بيانه في «سورة الأنبياء»، ونجَّاه الله من النَّار وأظهره عليهم، وأعلىٰ حجَّته ونصرها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (٥) قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ (٦) بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) في (ز): «عن هارون بن معاوية»، وهو خطأ.

(٣) صحيح: البخاري في «خلق أفعال العباد» (١١٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٥٧، ٣٥٨)، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ «السُّنَّة» وفي «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٧).

(٤) لَمْ يَظْهَرْ لَنَا -بَعْدَ طُولِ بَحْثٍ- مَا قَصَدَ إِلَيْهِ الحَافِظُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾»؛ فَهِيَ قِرَاءَةُ حَفْصٍ الْمَشْهُورَةُ، وَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ شَيْءٌ بِخِلَافِ هَذَا؛ فَاللهُ أَعْلَمُ.

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: من فوائدها: أنه يجوز امتحان الشخص بما لا يؤخذ رأيه فيه، ولكن للاستعلام؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ - فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام- لا يريد أن ينظر إلىٰ ابنه إن قال: لا تذبحني، ترك الذبح، بل يريد أن يعرف مدىٰ قبوله واستعداده، فيكون في هذا تورية، والتورية لا شك أنها جائزة للاستعلام والاستخبار.

(٦) لوحة (٣٣ أ).

يقول تعالىٰ مخبرًا عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّه بعد ما نصَرَهُ الله علىٰ قومه وأَيِسَ مِن إيمانهم بعدمَا شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجَرَ مِن بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولادًا مُطيعِينَ، عِوَضًا مِن قومِهِ وعشيرَتِه الَّذين فارقهم. قال الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وهذا الغلام هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّه أوَّلُ وَلَدٍ بُشِّر به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أكبر مِن إسحاق باتِّفاق المسلمين وأهل الكِتَاب، بل في نصِّ كِتَابِهِم أنَّ إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ستٌّ وثمانون سنةً، ووُلِد إسحاق وعُمْر إبراهيم تسعٌ وتسعون سنةً. وعندهم أن الله تعالىٰ أمر إبراهيم أن يذبَح ابنَهُ وحيدَهُ، وفي نسخةٍ: «بِكْرَهُ»، فأقحموا هاهنا كذبًا وبهتانًا: «إسحاق»، ولا يجوز هذا؛ لأنَّه مخالفٌ لنصِّ كتابِهِم، وإنَّما أقحموا: «إسحاق» لأنَّه أَبُوهُم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدُوهُم، فزادوا ذلك وحَرَّفوا وحيدَكَ بمعنىٰ: الذي ليس عندك غيره، فإنَّ إسماعيل كان ذَهَب به وبأُمِّهِ إلىٰ جنب مكَّة، وهذا تأويلٌ وتحريفٌ باطل، فإنَّه لا يُقال: «وحيد» إلا لمن لَيْسَ له غيره، وأيضًا فإنَّ أوَّل وَلَدٍ [له معزَّة](١) ما لَيْس لمن بعده من الأَوْلَاد، فالأمرُ بذَبْحِه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعةٌ مِن أهل العلم إلىٰ أنَّ الذَّبِيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السَّلَف، حتىٰ نُقِل عن بعض الصَّحابة أيضًا، وليس ذلك في كتابٍ ولا سُنَّة، وما أظن ذلك تُلُقِّيَ إلَّا عن أحبار أهل الكتاب، وأُخِذَ ذلك مُسَلَّمًا من غير حجَّة(٢). وهذا كتاب الله شاهدٌ ومرشدٌ إلىٰ أنَّه إسماعيل، ذكر البشارة بالغُلَام الحليم، وذكر أنَّه الذَّبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بَشَّرَت الملائكةُ إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا(٣) نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣]. وقال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]؛ أي: يُولَد له في حياتِهما ولَدٌ يسمَّىٰ يعقوب، فيكون مِن ذرِّيَّته عقبٌ ونسلٌ. وقد قدَّمنا هناك أنَّه لا يجوز بعد هذا أن يُؤْمَر بذبحه وهو صغير؛ لأنَّ الله تعالىٰ قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرًا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم؛ لأنَّه مناسب لهذا المقام.

---

(١) في (ز): «يعتبره».

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: اختلف في أيهما الذبيح أهو إسماعيل أم إسحق والراجح أنه إسماعيل؛ لأن الذبح كان في مكة ولم يكن في الشام؛ لأن إسماعيل عاش بمكة ولم يعش بالشام ولأن هاجر كانت في مكة وسارة كانت بالشام وبلغ الخلاف حتىٰ قال بعضهم نفوض فكان التفويض مذهبًا ثالثًا، والذي أثار هذا الخلاف هم أهل الكتاب يريدون سلب هذا الفضل عن النبي محمد ﷺ وفي الأبيات الآتية إشارة إلىٰ ذلك:

إن الـذبيح هُـديت إسـماعيلُ ... نطـق الكتـابُ بـذاك والتنزيـلُ
شَـرَفٌ بـه خَـصَّ الإلـهُ نبيَّنـا ... وأتـىٰ بـه التفسير والتأويـلُ
إن كُنـتَ أُمَّتَـهُ فـلا تنكـر لـه ... شـرفًا بـه قـد خَـصَّهُ التفـضيلُ

* قلت: وسيشير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ ما في هذه الفائدة قريبًا.

(٣) لوحة (٣٣ ب).

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: كبر وترعرع وصَارَ يذهب مع أَبيهِ ويمشي معه. وقد كان إبراهيم عليه السلام يذهب في كلِّ وقتٍ يتفقد ولدَهُ وأمَّ ولده ببلاد: «فاران»[1] وينظر في أَمْرِهِمَا، وقد ذُكِرَ أَنَّه كان يركب علىٰ البُرَاق سريعًا إلىٰ هناك[2]، فالله أعلم.

وعن ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ بمعنىٰ: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السَّعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، [قال عبيد بن عمير: رُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[3].][4]

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين بن الجنيد، [حدَّثنا][5] أبو عبد الملك الكرندي، حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ فِي المَنَامِ وَحْيٌ»[6]. ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

وإنَّما أعلم ابنَه بذلك ليكونَ أهونَ عليهِ، وليختبر صبْرَهُ وجَلَدَهُ وعَزْمَهُ مِن صغرِهِ علىٰ طاعةِ الله تعالىٰ وطاعةِ أبيه.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذَبْحِي، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: سَأَصْبِر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ. وصَدَقَ -صلوات الله وسلامه عليه- فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: فلما تشهَّدا وذكرَا الله تعالىٰ -إبراهيم علىٰ الذَّبح، والولد علىٰ شهادةِ الموت-. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، [يعني][7]: استسلمَا وانقادَا؛ إبراهيم امتثل أَمْرَ الله، وإسماعيل طاعةَ الله[8] وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة، والسُّدِّي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنىٰ: ﴿تَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صَرَعَه علىٰ وجهه لِيَذْبَحَه مِن قفاهُ، ولا يشاهد وجهَهُ عند ذبحه؛ ليكون أهون عَلَيْه، قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أكبَّه علىٰ وَجْهِهِ.

---

(١) فَاران: كلمة عِبرانية معربة، وهي من أسماء مكة، قيل: هو اسم لجبال مكة.

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٠٥)، و(٧/ ٢٠٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٨)، (٨٠٩) موقوفًا علىٰ عبيد بن عمير، ويشهد له الحديث الآتي، وفي «صحيح مسلم» نحوه (٧٣٨).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) **صحيحٌ موقوفًا، وأمَّا المرفوع فضعيفٌ**: في إسناده سماكٌ عن عكرمة، وروايته عنه مضطربة. لكن رواه الحاكم (٢/ ٤٣١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٤٦٣)، موقوفًا علىٰ ابن عبَّاسٍ، وإسناده صحيحٌ، وهو في حكم المرفوع، وحسَّنه الألباني في «ظلال الجنة».

(٧) ليست في (ز). (٨) لوحة (٣٤أ).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيْج ويونس قالا: حدَّثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم الغَنَوِيِّ، عن أبي الطفيل، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: لما أُمِرَ إبراهيم بالمناسك عَرَض له الشَّيطان عند السَّعي، فسَابَقَهُ فسَبَقَهُ إبراهيم، ثم ذهب به جِبْرِيل إلىٰ جمرةِ العقبةِ، فعرض له الشَّيطان، فرماه بسبع حصيَاتٍ حتىٰ ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطىٰ فرَمَاهُ بسبع حصيات، وثَمَّ تَلَّه للجبين، وعلىٰ إسماعيل قميصٌ أبيض، فقال له: يا أبت، إنَّه ليس لي ثوب تُكَفِّنُنِي فيه غيره، فاخلعه حتىٰ تُكَفِّنَنِي فيه. فعالجه ليَخْلَعَهُ، فنُودِيَ من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾، فالتفت إبراهيم فإذَا بكبشٍ أبيض أقرَنَ أعينَ. قال ابن عبَّاس: لقد رأيتنا نَتَبَّع ذلك الضَّرب من الكِبَاش(١).

وذكر تمام الحديث في: «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن(٢) السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، فذكر نحوه، إلا أنه [قال](٣): «إسحاق». فعن ابن عبَّاس في تسمية الذَّبيح روايتان، والأظهر عنه: إسماعيل، لما سيأتي بيانه.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنَّة. قد رعىٰ قبل ذلك أربعين خريفًا، فأرسل إبراهيم ابنه واتَّبع الكبش، فأخرجه إلىٰ الجمرة الأولىٰ، فرماه بسبع حصياتٍ، فأفلتَه عندها، فجاء الجمرةَ الوسطىٰ فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرىٰ، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثمَّ أخذه فأتىٰ به المنحر من مِنًىٰ فذبحه، فوَّالذي نفسُ ابن عبَّاس بيده لقد كان أوَّل الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلَّقٌ بقرنيه في ميزاب الكعبة قد [حَشَّ](٤)، يعني: يبس(٥).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل(٦) أبو هريرة يحدِّث عن النَّبيِّ ﷺ، وجعل كعبٌ يحدِّث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً، وَإِنِّي قَدْ خَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فقال له كعب: أنتَ سَمِعْتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فِدَاكَ أبي وأمِّي -أو: فداه أبي وأمي- أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنَّه لما أُرِيَ ذبح ابنه إسحاق قال الشَّيطان: إن لم أَفْتِن هؤلاء عند هذه لم

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٩٧)، وأبو داود (١٨٨٥)، ورجاله ثقات، علىٰ خلافٍ في أبي عاصم الغنوي، فقد قال الحافظ عنه: مقبول، علمًا بأنَّ ابن معين وَثَّقه، ووثَّقَهُ الهيثمي فقد قال في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٤): رواه أحمد ورجاله رجال الصَّحيح، غير أبي عاصم الغنوي وهو ثقة. ولبعض ألفاظه شواهد أخرج الجزء الأول والثاني: مسلم (١٢٦٤)، وأبو داود (١٨٨٥)، وأمَّا القطعة الثالثة فأخرجها الطَّبري (٢٣/ ٨٠).

(٢) في (ز): «عن»، وهو خطأ. (٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (٢٧/ ٨٧)، وفيه الحسن بن دينار: قال أبو حاتم: متروك كذاب، وقال النسائي: متروك، وقال ابن عدي: أجمع من تكلم في الرجال علىٰ ضعفه، وهو إلىٰ الضعف أقرب، وقال ابن حبان: تركه وكيع وابن المبارك، وأما أحمد وابن معين فكانا يكذبانه، انظر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٦).

(٦) لوحة (٣٤ ب).

أفتنهم أبدًا. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشَّيطان فدخل علىٰ سارَّة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدَا بِهِ لبعض حاجتِهِ. قال: لم يغدُ به لحاجة، وإنَّما ذهب به ليذبحه. قالت: وَلِمَ يَذْبَحُه؟ قال: زعم أنَّ ربَّه أمرَهُ بذلك. قالت: فقد أحسن أَن يُطِيعَ ربَّه. فذهب الشَّيطان في أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبُوكَ؟ قال: لبعضِ حَاجَتِه. قال: إنَّه لا يذهب بك لحاجةٍ، ولكنَّه يذهب بك لِيَذْبَحَكَ. قال: ولِمَ يَذْبَحُنِي؟ قال: زعم أنَّ ربَّه أمره بذلك. قال: فوالله لَئِن كان الله أمَرَهُ بذلكَ ليَفْعَلَنَّ. قال: فيَئِسَ منه، فلحق بإبراهيم، فقال: أين غدوتَ [بابنك][1]؟ قال: لحاجةٍ. قال: فإنك لم تغدُ به لحاجة، وإنَّما غدوتَ به لِتَذْبَحَهُ قال: وَلِمَ أذْبَحُه؟ قال: تزعم أنَّ ربَّك أمرك بذلك. قال: فوالله لَئِن كان الله أمرني بذلك لأفعلنَّ. قال: فتركَهُ ويَئِس أن يُطَاع[2].

وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، [أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جَارِيَةَ][3] الثَّقَفِي أخبره، أنَّ كعبًا قال لأبي هريرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحىٰ الله إلَىٰ إسحاقَ أنِّي أَعْطَيْتُك دعوةً أستجيب لك فيهَا. قال إسحاق: اللَّهـمَّ إنِّي أدعو أن تستجيب لي: أيُّما عَبْدٍ لَقِيَكَ مِن الأوَّلين والآخرين، لا يُشْرِكُ بك شيئًا، فأَدْخِلْه الجَنَّةَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن الوزير الدمشقي، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ خَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَغفِرَ لِنِصفِ أُمَّتِي، وَبَيْنَ أَنْ أَختَبِئَ شَفَاعَتِي، فَاخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي[4]، وَرَجَوْتُ أَنْ تُكَفِّرَ الجَمَّ لِأُمَّتِي، وَلَوْلَا الَّذِي سَبَقَنِي إِلَيْهِ العَبْدُ الصَّالِحُ لَتَعَجَّلْتُ فِيهَا دَعْوَتِي، إِنَّ اللهَ لَمَّا فَرَّجَ عَنْ إِسْحَاقَ كَرْبَ الذَّبْحِ قِيلَ لَهُ: يَا إِسْحَاقُ، سَلْ تُعْطَهُ. فَقَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَتَعَجَّلَنَّهَا قَبْلَ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، اللَّهُمَّ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا فَاغْفِرْ لَهُ وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ»**[5].

هذا حديث غريب منكر. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعيف الحديث، وأخشىٰ أن يكون في الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهي قوله: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمَّا فَرَّجَ عَنْ إِسْحَاقَ...**» إلىٰ آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظًا فالأشبه أن السِّياق إنَّما هو عن: «إسماعيل»، وإنَّما حرَّفوه بإسحاق؛ حَسَدًا منهم كما

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٢٨)، و«الفوائد المنتقاة» للخلعي (٦٠٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٤٧٨)، والسند صحيح، لكن يلاحظ أن كلام كعب الأحبار مردود؛ لأنَّه مِن كتب أهل الكتاب، وهو مخالفٌ للآيات القرآنيَّة والأحاديث الصحيحة بأن الذَّبيح هو إسماعيل عليه السلام.

(٣) في (ز): «ابن شهاب عن عمرو بن أبي سفيان عن أبي أسيد بن حارثة»، والمثبت موافق لما في «الطبري»، وهو الصواب.

(٤) لوحة (٣٥أ).

(٥) منكر: رواه ابن أبي حاتم (١٨٢٣٥)، وعِلَّته: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعيف ومنهم من تركه، والوليد بن مسلم الراوي عنه مدلِّسٌ تدليس تسوية، فلابد أن يصرح في كل طبقات الإسناد، وقد عنعن في بعضها، واعلم أنَّ الصَّحيح أنَّ الذَّبيح إسماعيل وليس إسحاق، وهذا مما يدلُّ علىٰ نكارة الحديث، بخلاف الفقرة الأولىٰ منه فهي صحيحةٌ تقدَّم تخريجها في سورة الإسراء.

تقدَّم، وإلا فالمناسك والذَّبائح إنَّما محلها بمِنَىٰ مِن أرض مكَّة، حيث كان إسماعيل، لا إسحاق عليهما السلام، فإنَّه إنَّما كان ببلاد كَنْعَان من أرض الشَّام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي: قد حَصَل المقصودُ من رؤياك بإِضْجَاعِك ولدك للذَّبح، وذكر السُّدِّي وغيره أنَّه أمَرَّ السِّكِّين علىٰ رقبته فلم تقطع شيئًا، بل حالَ بينَها وبينه صفيحة مِن نُحَاسٍ، ونُودِيَ إبراهيم ﷺ عند ذلك: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمَّن أطاعنا المكارِهَ والشَّدَائِد، ونجعل لهم مِن أمرِهِم فرجًا ومخرجًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق:٢، ٣].

وقد استدلَّ بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول علىٰ صحَّة النَّسخ قبل التَّمكُّن من الفِعْل، خلافًا لطائفةٍ مِن المعتزلة[(١)]، والدَّلالة مِن هذه ظاهرة؛ لأنَّ الله تعالىٰ شَرَعَ لإبراهيم ذَبْحَ ولدِهِ، ثمَّ نسَخَهُ عنه وصَرَفَه إلىٰ الفداء، وإنَّما كان المقصود مِن شرعِهِ أولًا إثابة الخليل علىٰ الصَّبر علىٰ ذَبْح ولدِهِ وعزمِهِ علىٰ ذلك؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: الاختبار الواضح الجليُّ؛ حيث أُمِرَ بذبح ولده، فسارع إلىٰ ذلك مستسلمًا لأمر الله، منقادًا لطاعتِهِ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧].

وقوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾، قال سفيان الثوري، عن جابر الجُعْفي، عن[(٢)] أبي الطفيل، عن علي ﷺ: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة، قال أبو الطفيل: وجدوه مربوطًا بسُمَرة في ثَبِير[(٣)(٤)].

وقال الثوري أيضًا، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كبش قد رَعَىٰ في الجنَّة أربعين خريفًا[(٥)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدَّثنا داود العطار، عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: الصَّخْرَة التي بمِنًىٰ بأصل ثَبِير هي الصَّخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابْنِه، هبط عليه مِن ثَبِير كبش أَعْيَن أَقْرَن له ثُغَاء، فذبحه، وهو الكبش الَّذِي قرَّبه ابن آدم فتقبَّل منه، فكان مخزونًا حتىٰ فدي به إسحاق[(٦)].

---

(١) ينظر: «المستصفىٰ» للغزالي (١/ ٢١٥)، و«البحر المحيط» للزركشي (٤/ ٨٥).

(٢) لوحة (٣٥ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (٢٣/ ٨٦)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف.

(٤) ثبير: جبل معروف بمكة، علىٰ يسار الذاهب إلىٰ مني من عرفة. «هدي الساري»: (ص٩٤).

(٥) حسن: الطبري (٢٣/ ٨٧)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٨) مطولًا.

(٦) إسناده حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٨٢٤٣)، لكنَّه من الأمور الغيبية التي تحتاج إلىٰ صحة ذلك عن المعصوم ﷺ، لكن مثل ذلك لا يُصدَّق ولا يُكذَّب.

وروي أيضًا عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنَّة حتىٰ تشقَّق عنه ثَبِير، وكان عليه عِهْنٌ أحمر(١).

وعن الحسن البصري أنه قال: كان [اسم](٢) كبشِ إبراهيم: جرير. وقال ابن جريج: قال عبيد بن عمير: ذَبَحَهُ بالمقام. وقال مجاهد: ذَبَحَه بمنًىٰ عند المنحر. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن عكرمة؛ أنَّ ابن عبَّاس كان أفتىٰ الذي جعل عليه [نذرًا](٣) أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: [لو كنتُ أفتيته](٤) بكبشٍ لأجزأَهُ أن يذبح كبشًا، فإن الله تعالىٰ قال في كتابه: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(٥). والصَّحيح الذي عليه الأكثرون أنَّه فُدِيَ بكبش. وقال الثَّوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: وَعِلٌ(٦)(٧).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنَّه كان يقول: ما فُدِيَ إسماعيل إلَّا بتَيْسٍ من الأَرْوَىٰ(٨)، أُهْبِطَ عليه مِن ثَبِير.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، حدَّثنا منصور، عن خاله مُسافع، عن صفيَّة بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم -وَلدت عامَّة أهل دارنا- أرسل رسول الله ﷺ إلىٰ عثمان بن طلحة، وقال(٩) مرة: إنها سألت عثمان: لِمَ دعاك النَّبيُّ ﷺ؟ قال: قال: «**إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنَي الكَبْشِ، حِينَ دَخَلْتُ البَيْتَ، فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تُخَمِّرَهُمَا**(١٠)**، فَخَمِّرْهُمَا، فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي**(١١) **أَنْ يَكُونَ فِي البَيْتِ [شَيْءٌ]**(١٢) **يَشْغَلُ المُصَلِّي**». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين(١٣) في البيت حتىٰ احترق البيت، فاحترقا(١٤).

وهذا دليلٌ مستقلٌّ علىٰ أنَّه إسماعيل عليه السلام؛ فإنَّ قريشًا توارثوا قَرْنَي الكبش الَّذي فَدَىٰ به إبراهيم خلفًا عن سلفٍ وجيلًا بعد جيلٍ، إلىٰ أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السَّلف في أنَّ الذَّبيح من هو؟

❏ ذِكْر من قال: هو إسحاق عليه السلام:

قال حمزة الزَّيَّات، عن أبي ميسرة رحمه الله قال: قال يوسف عليه السلام للمَلِك في وَجْهِه: ترغب أن تأكل

---

(١) العِهْن: الصوف.

(٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز).

(٥) **حسن**: رواه الطبري (٢٣/ ٨٦).

(٦) **ضعيف**: وعلتُه جهالة الرَّاوي عن أبي صالح عن ابن عبَّاس.

(٧) الوَعِل: التيس الجبلي.

(٨) الأروىٰ: جمع أُرْوِيَّة، وهي الشاة الواحدة من شياه الجبل، وقيل: هي أنثىٰ الوعول، وهي تيوس الجبل.

(٩) في (ز): «وقالت». والمثبت موافق لما في «المسند».

(١٠) التخمير: التغطية.

(١١) لوحة (٣٦أ).

(١٢) سقط من (ز).

(١٣) في (ز): «معلقة».

(١٤) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٦٨)، وأبو داود (٢٠٣٠)، وصفيَّة بنت شيبة لها رواية واختلف في صحتها.

معي، وأنا -والله- يوسف بن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق ذَبِيح الله، ابن إبراهيم خليل الله[١]. وقال الثوري، عن أبي سِنان، عن ابن أبي الهُذَيل: إنَّ يوسف عليه السلام قال للمَلِك كذلك أيضًا[٢].

وقال سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قَالَ موسىٰ: يا رَبِّ، يقولون: يا إِلَه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبِمَ قالوا ذلك؟ قال: إنَّ إبراهيم لَمْ يعدِل بي شيءٌ قط إلا اختارني عليه. وإن إسحاقَ جَادَ لِي بالذَّبح، وهو بِغَيْر ذَلِك أجود. وإنَّ يعقوب كلَّما زِدْتُه بلاءً زادَنِي حُسْنَ ظَنٍّ»[٣].

وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص قال: افتخَرَ رجلٌ عندَ ابن مسعودٍ فقال: أنا فلان بن فلانٍ، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذَاكَ يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاق ذَبِيح الله، ابنُ إبراهيم خليل الله، [صلوات الله وسلامه عليهم[٤].][٥]

وهذا صحيحٌ إلىٰ ابن مسعود، وكذا روىٰ عكرمة، عن ابن عبَّاس: أنه إسحاق[٦]. وعن أبيه العبَّاس[٧]، وعلي بن أبي طالب مثل ذلك[٨].

وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد ابن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهري، والقاسم بن أبي بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنَّه إسحاق.

وهكذا روىٰ ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهري، عن أبي سفيان بن العلاء بن جارية، عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق[٩].

وهذه الأقوال -والله أعلم[١٠]- كلها مأخوذةٌ عن كعب الأحبار؛ فإنه لما أسلم في الدولة العُمَرية

---

(١) رواه الطبري (٢٣/ ٨٣)، موقوفًا علىٰ أبي ميسرة، وهو عمرو بن شرحبيل، ومثل هذا لا يعتمد عليه؛ لأنه لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٢) رواه الطبري (٢٣/ ٨٣) موقوفًا علىٰ ابن أبي الهذيل، ولا يعتمد عليه كسابقه.

(٣) رواه الطبري (٢٣/ ٨٣) موقوفًا علىٰ عبيد بن عمير، ولا يعتمد عليه كسابقه.

(٤) رواه الطبري (٢٣/ ٨١)، والحاكم (٢/ ٥٥٩)، وهو صحيح موقوف علىٰ ابن مسعود، إلَّا أن في الإسناد أبا إسحاق السبيعي وهو مدلس وقد عنعن.

(٥) ليست في (ز).

(٦) رواه الطبري (٢٣/ ٨١) من طرق عن داود بن أبي هند، وإسناده صحيح، لكن ابن عبَّاس ممن يروي من كتب أهل الكتاب، فلا يُقْبَلُ ما يصحُّ عنه من هذه الأخبار.

(٧) قال البزار (١٣٠٨) رواه جماعة عن المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العبَّاس موقوفًا. اهـ. قلت: والمبارك بن فضالة هذا قال فيه الحافظ: صدوق يدلِّس، وهو يدلس تدليس التسوية.

(٨) ضعيف: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٥٢)، وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف، وشيخ المصنف: مجهول.

(٩) رواه الطبري (١٣/ ٨١) وابن إسحاق مدلس، وقد عنعن. وروايات كعب الأحبار لا يعتمد عليها؛ لأنه يروي من كتب أهل الكتاب.

(١٠) لوحة (٣٦ ب).

جعل يحدِّث عمر رضي الله عنه عن كتبه، فرُبَّما استمع له عمر رضي الله عنه فترخَّص النَّاسُ في استماع ما عِنْدَه، ونقلوا عنه غثَّها وسَمِينَهَا، وليس لهذه الأمة -والله أعلم- حاجةٌ إلىٰ حرفٍ واحدٍ مما عنده. وقد حكىٰ البغوي هذا القول بأنَّه -إسحاق- عن عُمَر، وعلي، وابن مسعود، والعبَّاس، ومن التَّابعين: عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزُّهري، والسُّدِّي. قال: وهو إحدىٰ الروايتين عن ابن عبَّاس. وقد ورد في ذلك حديث- لو ثَبَتَ لَقُلْنا به علىٰ الرَّأس والعَيْنِ، ولكن لم يصح سنده -قال ابن جرير:

حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا زيد بن حُبَاب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جُدْعَان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العبَّاس بن عبد المطلب، عن النَّبيِّ ﷺ في حديثٍ ذكره قال: «هو إسحاق»[(١)].

ففي إسناده ضعيفان، وهما؛ الحسن بن دينار البصري: متروك، وعلي بن زيد بن جدعان: منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، به مرفوعًا. ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأَحْنَف، عن العبَّاس قوله، وهذا أشبه وأصح-.

❏ ذِكْرُ الآثار الوَارِدَةِ بأنه إسماعيل عليه السلام، وهو الصحيحُ المقطوعُ به[(٢)]:

قد تقدَّمت الرِّواية عن ابن عبَّاسٍ أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحدٍ، عن ابن عبَّاس: هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: المفدىٰ إسماعيل عليه السلام، وزَعَمَتِ اليَهودُ أنَّه إسحاق، وكَذَبَتِ اليهودُ[(٣)].

وقال إسرائيل، عن ثوير[(٤)]، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذَّبيح إسماعيل[(٥)].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مِهْرَان.

وقال الشَّعبي: هو إسماعيل عليه السلام، وقد رأيتُ قَرْنَيِ الكبش في الكعبة.

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢٣/ ٨١)، وفي إسناده الحسن بن دينار: قال أبو حاتم: متروك كذاب، وقال النسائي: متروك، وقال ابن عدي: أجمع من تكلم في الرجال علىٰ ضعفه، وهو إلىٰ الضعف أقرب، وقال ابن حبان: تركه وكيع وابن المبارك، وأما أحمد وابن معين فكانا يكذبانه. انظر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٦)، وعلي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٢) هذا هو الصحيح كما قال المؤلف رحمه الله، وهو -أيضًا- اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والأمين الشنقيطي، والعثيمين، وغيرهم -رحم الله الجميع- ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٣١)، و«زاد المعاد» (١/ ٧١)، و«البداية والنهاية» (١/ ٣٦٢)، و(٣/ ٨٣ و١٧٩) ط: هجر، و«فتح الباري» (١٢/ ٣٧٨)، و«الحاوي» للسيوطي (١/ ٣١٨)، و«أضواء البيان» (٦/ ٧٥٤).

(٣) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢٣/ ٨٤)، والحاكم (٢/ ٥٥٤)، وفيه عمرو بن قيس؛ قال الحافظ في «التقريب»: متروك.

(٤) في (ز): (ثور)، والتصويب من الطبري (١٩/ ٥٩٣) ط: «هجر».

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ٨٢)، والحاكم (٢/ ٢٥٤)، وفيه ثوير بن أبي فاختة: ضعيف.

وقال محمَّد بن إسحاق[١]، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: أنه كان لا [يَشكُّ][٢] في ذلك؛ أنَّ الَّذِي أُمِرَ بِذَبْحِه مِن ابني إبراهيم: إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعتُ محمَّد بن كعب القُرظي وهو يقول: إنَّ الَّذِي أمر اللهُ إبراهيمَ بذبحه من ابنَيْه: إِسْمَاعِيل. وإنَّا لنجد ذلك في كتاب اللهِ؛ وذلك أنَّ الله حين فرغ مِن قصَّة المَذْبُوح مِن ابنَيْ إبراهيم قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. يقول الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، يقول: بابنٍ وابنِ ابن، فلم يكن لِيَأْمُرَه بذَبْح إسحاق وله فيه من [الله][٣] موعودٌ[٤] بما وعده، وما الَّذي أمر بذَبْحِه إلَّا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن[٥] سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمَّد بن كعبٍ القرظي؛ أنَّه حدَّثهم أنَّه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز -وهو خليفة- إذ كان مَعَه بالشَّام، فقال له عمر: إنَّ هذا لشيءٌ مَا كُنْتُ أنظر فيه، وإنِّي لأراه كما قلت. ثمَّ أرسل إلىٰ رَجُلٍ [كان][٦] عنده بالشَّام، كان يهوديًّا فأسلم وحَسُنَ إسلامه، وكان يرىٰ أنَّه مِن علمائهم، فسأله عمر بن عَبد العزيز عن ذلك -قال محمَّد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز- فقال له عمر: أيُّ ابنَيْ إبراهيم أُمِر بذَبْحِه؟ فقال: إسماعيل -والله- يا أمير المؤمنين، وإنَّ يهود لتَعْلَم بذلك، ولكنَّهم يحسدُونكُم معشرَ العرب، علىٰ أن يكون أباكم الَّذِي كان مِن أمرِ اللهِ فِيهِ، والفضل الَّذِي ذكره الله منه لصَبْرِه لما أمر به، فهُم يَجْحَدُون ذلك، ويَزْعُمُون أنَّه إسحاق، بكَوْنِ إسحاق أبوهم، والله أعلم أيُّهما كان، وكلٌّ قد كان طاهرًا طيِّبًا مطيعًا لله عَجَّلَ.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: سألت أَبِي عن الذَّبِيح، مَن هو؟ إِسْمَاعِيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب «الزهد».

وقال ابن أبي حاتم: وسَمِعْتُ أبي يقول: الصَّحيح أنَّ الذَّبيح إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمَّد بن كعبٍ القرظي، وأبي جعفر محمَّد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذَّبيحُ إسماعيلُ.

وقال البغوي في «تفسيره»: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسُّدِّي، والحسن[٧] البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمَّد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عبَّاس، وحكاه أيضًا عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد روىٰ ابن جرير في ذلك حديثًا غريبًا فقال: حدَّثني محمَّد بن عمار الرازي، حدَّثنا إسماعيل بن

(١) لوحة (٣٧ أ).
(٢) سقط من (ز).
(٣) ليست في (ز)، وهي في «المستدرك» للحاكم.
(٤) في (ز): «الموعود»، والمثبت موافق لما في «المستدرك».
(٥) في (ز): «عن بريدة عن سفيان»، وهو خطأ.
(٦) سقط من (ز).
(٧) لوحة (٣٧ ب).

عبيد بن أبي كريمة، حدَّثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمَّد العُتْبي -من ولد عتبة ابن أبي سفيان- عن أبيه: حدَّثني عبد الله بن سعيد، عن الصُّنَابِحِي قال: كنَّا عند معاويةَ بْن أبي سفيان، فذكروا الذَّبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال على الخبير سقطتم؛ كنَّا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ عَلَيَّ ممَّا أفاء الله عليكَ يا ابن الذَّبِيحَيْن. فضَحِك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، وما الذَّبِيحان؟ فقال: إنَّ عبد المطَّلِب لما أُمِر بحَفْر زمزمَ نَذَرَ للهِ إن سهَّل الله أَمْرَها [عليه](1)، ليَذْبَحَنَّ أحدَ وَلَدِهِ، قال: فخرج السَّهم علىٰ عبدِ اللهِ، فمَنَعَهُ أخواله وقالوا: افدِ ابنك بمائةٍ مِن الإبل. ففَدَاهُ بمائةٍ من الإبل، وإسماعيل الثَّاني(2).

وهذا حديث غريب جدًّا. وقد رواه الأموي في «مغازيه»: حدَّثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل ابن عبيد بن أبي كريمة، حدَّثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدَّثنا عبيد الله بن محمَّد العتبي -من ولد عتبة بن أبي سفيان- حدَّثنا عبد الله بن سعيد، حدَّثنا الصُّنَابِحِيُّ قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره(3). كذا كتبته من نسخة [مغلوطة](4).

وإنَّما عوَّل ابن جرير في اختياره أنَّ الذَّبِيح إسحاق علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، فجعل هذه البِشَارَة هي البِشَارَة بإسحاق في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨]. وأجاب عن البِشَارَةِ بيعقوبَ بأنَّه قد كان بلغ معه السَّعْيَ؛ أي: العمل. ومن الممكن أنَّه قد كان وُلِدَ له أولاد مَعَ يعقوب أيضًا. قال: وأما القَرْنَان اللَّذانِ كانا مُعَلَّقَيْنِ بالكعبة فمِنَ الجَائِزِ أنَّهما نُقِلا مِن بلاد الشَّام. [قال](5): وقد تقدم أنَّ مِن النَّاس مَن ذَهَبَ إلىٰ أنَّه [ذبح](6) إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في «تفسيره»، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيدٌ جدًّا، والَّذِي(7) استدلَّ به محمَّد بن كعب القرظي علىٰ أنَّه إسماعيل أَثْبَتُ وأصحُّ وأقوىٰ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، لما تقدَّمت البشارة بالذَّبيح -وهو إسماعيل- عطف بذِكْر البشارة بأخِيهِ إسحاق، وقد ذكرت في سورتي «هود» و«الحجر».

وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة(8)، أي: سيصير منه نبيٌّ من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَة، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الذَّبيح إسحاق(9). قال: وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال: بشّر بنبوَّتِهِ. قال: وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا

---

(١) سقط من (ز).
(٢) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ٨٥)، والحاكم (٢/ ٥٥٤) وسكت عنه، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.
(٣) انظر التعليق السابق.
(٤) بياض في (ز)، والمثبت من ط: «الشعب».
(٥) سقط من (ز).
(٦) في (ز): «ذهب».
(٧) لوحة (٣٨ أ).
(٨) في (ز): «حال تقرره»، وهو خطأ.
(٩) رواه الطبري (٢٣/ ٨١) وإسناده صحيح.

لَهُۥ [مِن رَّحۡمَتِنَآ] (١) أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣]، قال: كان هارونُ أكبر مِن موسىٰ، ولكن أرادَ: وهب له نبوته.

وحدَّثنا ابن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدِّث، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال: إنَّما بُشِّرَ به نبيًّا حين فداهُ الله مِن الذَّبح، ولم تكن البشارة بالنُّبوَّة عند مولدِهِ(٢).

وقال [ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان](٣) الثوري، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال: بُشِّرَ به حين وُلِدَ، وحين نُبِّئَ(٤).

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال: بعد ما كانَ مِن أمرِهِ، لما جاد لله بنَفْسِه، وقال الله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾.

وقوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود:٤٨].

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٢٢)﴾

يذكر تعالىٰ ما أنْعَم به علىٰ موسىٰ وهارون من النُّبوَّة والنَّجاة بمَن آمن معهما مِن قهرِ فرعون وقومِهِ، وما كان يعتمدُهُ في حقِّهم من الإساءَة العَظيمَةِ، مِن قتلِ الأبناء، واستحياء النِّساء، واستعمالِهم في(٥) أخسِّ الأشياء. ثم بعدَ هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلَبُوهم وأخذوا أرضَهُم وأموالهم، وما كانوا جمعوه طولَ حياتهم. ثمَّ أنزل الله علىٰ موسىٰ الكتاب العَظيم الوَاضِح الجَلِيَّ المُسْتَبِين، وهو التَّوراة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾ [الأنبياء:٤٨].

وقال هاهنا: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: في الأقوال والأفعال.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: أبقينا لهما مِن بعدهما ذكرًا جميلًا وثناءً حسنًا، ثم فسَّره بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) سقطت من (ز).

(٢) **صحيح**: رواه الطبري (٢٣/ ٨٩)، وقد تقدَّم أنَّ ابن عبَّاسٍ أخذَ مِن كتب أهل الكتاب فلا يُقْبَلُ ما صح عنه مِن هذه الأخبار، وقد تقدَّم أنَّ الذَّبيح إسماعيل وليس إسحاق.

(٣) سقط من (ز).

(٤) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم (١٨٢٤٥)، والحاكم (٢/ ٥٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر التخريج السابق.

(٥) لوحة (٣٨ ب).

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١) (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (٢) (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

قال قتادة، ومحمَّد بن إسحاق: يقال: إلياس هو إدريس. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عَبِيدة بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضَّحَّاك(٣).

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: هو إلياسُ بن تسبي بن فِنْحَاص بن العَيْزار بن هارون بن عمران، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حِزْقِيل -عليهما السلام-، وكانُوا قد عَبَدُوا صنمًا يُقَال له: «بَعْل»، فدَعَاهُم إلىٰ الله، ونَهَاهُم عن عبادة ما سوَاهُ. وكان قد آمَن به مَلِكُهُم ثمَّ ارتدَّ، واستمرُّوا علىٰ ضلالَتِهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحُبِس عنهم القطرُ ثلاث سنين، ثم سألوه أن يَكْشِف ذلك عنهم، ووَعَدُوهُ الإيمان به إن هم أَصَابَهُم المطر. فدَعَا الله لهم، فجاءَهُم الغَيْثُ، فاستمرُّوا علىٰ أخبث ما كانوا عليه من الكُفْر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ علىٰ يديه: اليَسَع بن أخطوب ﵇، فأمر إلياس أن يذهب إلىٰ [مكانِ](٤) كذا وكذا، فمهما جاءه فَلْيَرْكَبْهُ ولا يَهَبْهُ، فجاءته فرس مِن نارٍ فَرَكِبَ، وألبسه الله النُّور(٥) وكساه الرِّيش، وكان يطير مع الملائكة ملكًا إنسيًّا سماويًّا أرضيًّا. هكذا حكاه وَهْبٌ عن أهل الكِتَاب، والله أعلم بصحَّتِهِ.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: هنا قال: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ولم يقل: تذرون الله، بل قال: أحسن الخالقين، فلابد أن يكون هناك نكتة، فالعدول عن اسم الله الذي يختص به -وهو الله- لابد أن يكون لسبب، والنكتة هنا هي: إقامة الحجة عليهم بعد صلاحية معبودهم للعبادة؛ لأنه لا يستطيع الخلق، والله وحده هو الذي يقدر علىٰ الخلق وعلىٰ أحسن الخلق، فالله تعالىٰ أحسن الخالقين، وكل من خلق شيئًا فالله تعالىٰ أحسن منه خلقًا حتىٰ الذين يضاهئون بخلق الله لا يمكن أن يخلقوا مثل خلق الله، بل هم يقلدون علىٰ خلق الله، ولا يمكن أن يأتوا بمثله، ولا أحسن منه، فالله سبحانه وتعالىٰ أحسن الخالقين.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: علىٰ قراءة (إلياسين)، فيكون فيها معنيان:
المعنىٰ الأول: إنه إلياس نفسه، وهذا التصرف في اللفظ بناء علىٰ أنه اسم أعجمي، والعرب تتصرف بالأسماء الأعجمية عند تعريبها.
المعنىٰ الثاني: أن المراد قومه وأنهم جمعوا باعتبار قومه.
أما علىٰ القراءة الثانية (آل ياسين) فهي أيضًا في كلمة ياسين تصرف تعريبي؛ لأن ياسين هو إلياس، وعلىٰ هذا فيكون المراد بآل ياسين، إلياس وقومه، فآل الشخص يدخل فيهم الشخص إلا إن ذكر معهم لم يدخل فيهم، كما تقول: اللهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، أما إذا لم يذكر معهم فإنه يدخل فيهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، ومنهم فرعون، بل هو أولهم: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٧٥٥٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٩/ ٢٠٧)، وعلقه البخاري في «صحيحه» كتاب الأنبياء، (باب ٤) بصيغة التمريض، قال الحافظ في «الفتح»: وصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسنادٍ حسنٍ عنه.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٣٩ أ).

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادَتِكُم غيره؟.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسُّدِّي: ﴿بَعْلًا﴾ يعني: رَبًّا.

قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن. وفي رواية عن قتادة قال: هي لغة أَزْدِ شَنُوءة.

وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأةً اسمها: «بَعْل».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسمُ صنمٍ كان يعبُدُه أهل مدينة يقال لها: «بَعْلَبَكّ»، غربي دمشق.

وقال الضَّحَّاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدون صنمًا؟! ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريكَ له.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: للعذابِ يوم الحساب.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الموحِّدِين منهم. وهذا استثناءٌ منقطع من مثبت.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: ثناءً جميلًا.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾، كما يقال[(١)] في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة بني أسد. وأنشد بعض بني نُمير[(٢)] في ضَبٍّ[(٣)] صَادَه:

يَقُــولُ رَبُّ الــسُّوقِ لَمَّــا جِئنَــا: هَــذَا وَرَبِّ البَيْــتِ إِسْــرَائِينَا[(٤)]

ويقال: ميكال وميكائيل وميكائين، وإبراهيم، وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ.

وقرأ آخرون: «سلام علىٰ الْ ياسِين»، وفي قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: «سَلَامٌ عَلَىٰ آل يَاسِينَ»[(٥)] يعني: آل محمَّد ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قد تقدَّم تفسيره.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

---

(١) في (ز): «قال كما قال». (٢) في (ز): «بني تميم»، والتصويب من الطبري (١٩/ ٦١٩) ط: «هجر».

(٣) الضَّبُّ: دُويبة تشبه فرخ التمساح الصغير. (٤) في (ز): «هذا وربِّ أنس أبينا».

(٥) قراءة: قَرَأَ (إِدْرَاسِينَ) ابْنُ مَسْعُودٍ، وَفِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَرَأَ (آلِ يَاسِينَ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (إِلْ يَاسِينَ).

يخبر تعالىٰ عن عبدِهِ ورسوله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه بعثه إلَىٰ قومِهِ فكذَّبوه، فنجَّاه الله مِن بينِ[1] أظهرِهِمْ هو وأهله، إلا امرأَتَهُ؛ فإنَّها هلكت مع مَن هَلَكَ مِن قَوْمِهَا، فإنَّ الله تَعَالَىٰ أَهْلَكَهُم بأنواع مِنَ العُقُوبَات، وجعل محلَّتَهُم من الأرض بحيرةً منتنةً، قبيحةَ المنظرِ والطَّعم والرِّيح، وجعلها بسبيلِ مقيمٍ يمرُّ بها المسافرون ليلًا ونهارًا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون بهم، كيف دَمَّر الله عليهم، وتعلمون أنَّ للكافرين أمثالها؟!

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[2] ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

قد تقدَّمت قصَّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في «سورة الأنبياء». وفي «الصَّحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ»[3]. ونَسَبَه إلىٰ أمه، وفي رواية قيل: «إلىٰ أبيه».

---

(١) لوحة (٣٩ ب).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: معنىٰ (مليم): آت بما يلام عليه، كما يقال: (منجد) لمن دخل نجدًا مثلًا، فمفعل قد تأتي بمعنىٰ التلبس بالشيء، فالمليم هو الذي فعل ما يلام عليه، والذي يلام عليه أنه خرج من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم].

- ومن فوائد الآيات: أن مقام النبوة لا يمنع من فعل بعض ما لا يكون محبوبًا إلىٰ الله، أي: أن الرسول قد يفعل بعض المعاصي، أو يقوم بشيء لم يؤمر به، دليل ذلك قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ والإباق هرب العبد من سيده، والعبد إذا أبق من سيده فقد هرب منه تمردًا عليه، ولكن لا شك أن هذا الوصف إنما ينطبق علىٰ العبد المملوك للبشر لا علىٰ يونس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لكن الله عبر عن خروجه بالإباق؛ لأنه خروج لم يؤمر به، وهذه المسألة - أعني مسألة عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام- محل خلاف طويل عريض بين العلماء - وقد سبق لنا في غير هذا الموضوع بيان ذلك علىٰ وجه التفصيل- فذكرنا أنهم معصومون من كل ما يخدش الرسالة وينافي الرسالة مثل الكذب والخيانة والشرك وما أشبه هذا، فهذا النوع الأنبياءُ معصومون منه قطعًا، لأنهم إنما جاءوا لهدم الشرك، فلا يمكن أن يصدر منهم الكذب والخيانة؛ لأن هذا يؤدي إلىٰ الشك فيما جاءوا به.

وثانيًا: هم معصومون أيضًا من كل ما يخل بالشرف، كالسرقة وشبهها مما يعد دناءة وخسة، وذلك لأن النبوة أعلىٰ مقامات البشر، فلا ينبغي أن يتخلق من اتصفوا بها بأرذل أخلاق البشر.

ثالثًا: أنهم معصومون من الاستمرار في المعصية، ولا يمكن أن يقروا عليها، بل لا بد أن ينبهوا عليها ويحصل منهم التوبة بخلاف غيرهم من الناس فإنهم قد يفعلون المعصية، ويقرون عليها ولا يوفقون للتوبة منها.

وأما القول بأنه لا ذنوب لهم مطلقًا، فهذا قول يخالف الكتاب والسنة، فإن الله تعالىٰ قال في كتابه لأشرف الرسل - عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وقال له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح]، وكان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» [مسلم (٤٨٣)] وكل هذا صريح في أن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم قد يقع منه الذنب، ولكن الشأن كل الشأن أنه لا يقر عليه.

(٣) البخاري (٤٣١٣)، ومسلم (٢٣٧٧)، وأبو داود (٤٦٦٩).

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عبَّاس: هو المُوقَّر، أي: المملوءُ بالأَمْتِعَة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قَارَعَ، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين. وذَلِك أنَّ السَّفِينَة تَلَعَّبَت بها الأمواج مِن كلِّ جَانبٍ، وأشرفوا علىٰ الغرق، فسَاهَمُوا علىٰ مَن تقع عليه القرعة يُلْقَىٰ في البحر، لتَخِفَّ بهم السَّفينة، فوقعت القُرعَةُ علىٰ نبيِّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثَ مرَّات، وهم يضنُّون به أَن يُلْقَىٰ مِن بينهم، فتجرَّد مِن ثيابِهِ ليُلْقِي نفسَه وهم يأبون عليه ذلك.

وأمر الله تعالىٰ حوتًا من البحر الأخضر أن يشقَّ البحارَ، وأن يلتقم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ فلا يَهْشِمُ له لحمًا، ولا يكسر له عظمًا. فجاءَ ذلك الحوت، وألقىٰ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسَهُ فالتقمه الحوتُ وذَهَب به فطَاف به البحَار كلِّها. ولما استقرَّ يونُس في بطنِ الحُوتِ حسب أنَّه قد مات، ثم حرَّك رأسه ورجلَيْه وأطرافه فإذا هو حيٌّ، فقام يصلِّي في بطنِ الحوتِ، وكان مِن جملةِ دعائِهِ: «يَا ربِّ، اتَّخذتُ لك مسجدًا في موضعٍ لم يبلُغْهُ أحدٌ مِن النَّاس». واختلفوا في[1] مقدارِ ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيَّام، قاله قتادة. وقيل: جُمُعَة، قاله جعفر الصَّادق. وقيل: أربعين يومًا، قاله أبو مالك[2].

وقال مُجَالد، عن الشَّعبي: التقمَهُ ضحًىٰ، وقذفَهُ عشيَّة. والله أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

وَأَنْــتَ بِفَــضْلٍ مِنْــكَ نَجَّيْــتَ يُونُــسَا ... وَقَــدْ بَــاتَ فِــي أَضْــعَافِ حُــوتٍ لَيَالِيَــا

وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا مَا تقدَّم له مِن العَمَلِ في الرَّخاء. قاله الضَّحَّاك بن قيس، وأبو العالية، ووهَب بن مُنبِّه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد في الحديث الذي سنُورِدُهُ ما يدلُّ علىٰ ذلك -إن صحَّ الخبر-. وفي حديث عن ابن عبَّاس: «**تعرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[3].

وقال ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَيْر، والضَّحَّاك، وعطاء بن السائب، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يعني: المُصَلِّينَ.

وصرح بعضهم بأنَّه كان مِن المصلِّين قبل ذلك. وقال بعضُهُم: كان من المسبِّحين في جوفِ أبويه. وقيل المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدَّثنا عمي، حدَّثنا أبو صخر: أن يزيد الرَّقاشي حَدَّثه: أنَّه سَمِع أنس بن مالك -ولا أعلم إلا أنَّ أنسًا يرفع الحديث إلىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَنَّ

---

(١) لوحة (٤٠ أ). (٢) لا دليل علىٰ أيِّ قولٍ مِن هذه الأقوال، والأولىٰ عدم الخوض في ذلك.

(٣) صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وانظر: «ظلال الجنة» (٣١٦).

يُونُسَ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ بَدَا لَهُ أَنْ يَدْعُو بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَقْبَلَتِ الدَّعْوَةُ تَحُفُّ بِالعَرْشِ، قَالَتِ المَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، هَذَا صَوْتٌ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ بِلَادٍ [بَعِيدَةٍ](١) غَرِيبَةٍ! فَقَالَ: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ، وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: عَبْدِي يُونُسَ. [قَالُوا: عَبْدُكَ يُونُسُ](٢) الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ، وَدَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؟! قَالُوا: يَا رَبِّ، أَوَلَا تَرْحَمُ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّخَاءِ(٣) فَتُنَجِّيَهُ مِنَ البَلَاءِ؟! قَالَ: بَلَىٰ. فَأَمَرَ الحُوتَ فَطَرَحَهُ بِالعَرَاءِ»(٤).

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به. زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر -حُمَيد بن زياد-: فأخبرني ابن قُسيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنَّه سمع أبا هريرة يقول: طُرِح بالعَرَاء، وأَنْبَتَ اللهُ عليه اليَقْطِينَة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليَقْطِينَة؟ قال: شجرة الدُّبَّاء. قال أبو هريرة: وَهَيَّأَ الله له [أُرْوِيَّة](٥)(٦) وحْشِيَّة تأكل مِن خشاش الأرض -أو قال: هشاش الأرض- قال: فتَتَفشَّحُ(٧) عليه فتَرْوِيهِ مِن لبنها كل عَشيَّة وبُكرةٍ حتىٰ نبت(٨). وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلت في ذلك بيتًا من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللهِ، لَوْلا اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيًا

وقد تقدَّم حديث أبي هريرة مسندًا مرفوعًا في تفسير سورة: «الأنبياء»(٩).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أي: ألقيناه، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾، قال ابن عبَّاس وغيره: وهي الأرض التي ليس بِهَا نبتٌ ولا بناءَ. قيل: علىٰ جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيفُ البَدَنِ. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئةِ الفَرْخِ ليس عليهِ رِيشٌ. وقال السُّدِّي: كهيئة الصَّبي؛ يعني: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عبَّاس، وابن زيد أيضًا.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسُّدِّي، وقتادة، والضَّحَّاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد، قالوا كلهم: اليَقْطِين هو القَرْع. وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير: كل شجرة لا ساقَ لهَا فَهِيَ من اليَقْطِين.

وفي روايةٍ عنه: كل شجرةٍ تَهْلِك مِن عَامِها فهي من اليَقْطِين.

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في تفسير «ابن أبي حاتم».

(٢) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في تفسير «ابن أبي حاتم».

(٣) لوحة (٤٠ ب).

(٤) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٨٢٨١)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٣٢) وفي إسناده يزيد الرقاشي: ضعيف.

(٥) ليست في (ز).

(٦) **الأُرْوِيَّة**: الشاة الجبلية، وخشاش الأرض: هوامها وحشراتها.

(٧) أي: تفرج ما بين رجليها، ويقال بالجيم والحاء المهملة.

(٨) رواه الطبري (٢٣/ ١٠٣) وإسناده صحيح.

(٩) **ضعيف**: رواه الطبري (١٧/ ٨١)، والبزار (٢٢٥٤)، وفيه محمَّد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفيه رجلٌ مجهولٌ.

وذكر بعضهم في القَرْعِ فوائد، منها: سرعَةُ نباتِهِ، وتظليلُ ورقِهِ لكِبَرِهِ ونعومته، وأنَّه لا يقربُها الذُّباب، وجودةُ أغذِيَة ثمرِهِ، وأنَّه يؤكل نيئًا ومطبوخًا بلُبِّه وقشرِهِ أيضًا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ «كَانَ يُحِبُّ الدُّبَّاءَ، وَيَتَتَبَّعُهُ مِنْ حَوَاشِي الصَّحْفَةِ»[١].

وقوله تعالى[٢]: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، روىٰ شَهْرُ بن حَوْشَب، عن ابن عبَّاس أنه قال: إنَّما كانت رسالة يونس بعد ما نبذَهُ الحوت[٣]. رواه ابن جرير: حدَّثني [الحارث قال: حدَّثنا الحسن قال: حدَّثنا][٤] أبو هلال، عن شهر، به.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: أُرسل إليهم قبل أن يلتقِمَه الحوتُ.

قلت: ولا مَانِع أن يكون الَّذِين أرسل إليهم أولًا أمر بالعودِ إليهم بعد خُرُوجِهِ مِن الحُوتِ، فصدَّقُوه كلُّهم وآمَنُوا به. وحكىٰ البغويُّ أنَّه أرسَلَ إلىٰ أُمَّة أخرىٰ بعد خروجه مِن الحوت، كانُوا مائة ألفٍ أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال ابن عبَّاس -في رواية عنه-: بل يزيدون، وكانوا مائةً وثلاثين ألفًا.

وعنه: مائة ألفٍ وبضعةً وثلاثين ألفًا. وعنه: مائة ألفٍ وبضعةً وأربعين ألفًا.

وقال سعيد بن جبير: يَزِيدُون سَبْعِين ألفًا.

وقال مَكْحُول: كانوا مائةَ ألفٍ وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحيم البَرْقي، حدَّثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعتُ زُهَيرًا عمن سمع أبا العالية قال: حدَّثني أبي بن كعب[٥]: أنَّه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾؟ قال: «يَزِيدُونَ عِشْرِينَ أَلْفًا»[٦].

ورواه التِّرمذي عن علي بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير، به.

قال ابن جرير: وكان بعضُ أهل العربيَّة مِن أهل البصرة يقولُ في ذلك: معناه إلىٰ المائة الألف، أو كانوا يَزِيدُون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهلَّا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩]؛ أنَّ المراد: ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أُرْسِل إليهم يونس ﷺ جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ

(١) البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).
(٢) لوحة (٤١ أ).
(٣) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ١٠٥)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام.
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٥) في (ز): «حدَّثني محمَّد بن أبي بن كعب»، وهو خطأ.
(٦) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ١٠٤)، والترمذي (٣٢٢٩)، وفيه جهالة الراوي عن أبي العالية.

حِينٍ ﴾[(١)] أي: إلىٰ وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ[(٢)] كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس:٩٨].

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ[(٣)] ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ هؤلاءِ المشركِينَ في جَعْلِهِم للهِ البنات سبحَانه، ولهم ما يشتهُون؛ أي: من الذُّكور؛ أي: يودُّون لأنفسِهم الجيِّد. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨] أي: يسوءُهُ ذَلِك، ولا يختار لِنَفْسِهِ إلا البَنِين. يقول تعالىٰ: فكَيْف نسبُوا إلىٰ الله تعالىٰ القسم الَّذِي لا يختارُونَه لأنفسهم؟ ولهذَا قال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، أي: سَلْهُم علىٰ سبيلِ الإنكارِ عليهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾، كقوله: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم:٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ أي: كيف حَكَمُوا علىٰ المَلائِكَة أنَّهم إناثٌ وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]، أي: يسألون عَن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ أي: مِن كَذِبهم، ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي: صَدَرَ منه الولدُ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، فذَكَر اللهُ عنهُم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكُفْر والكذب، فأولًا: جعلوهُم بنات الله، فجعلوا لله ولدًا. وجعلوا ذلك الوَلَد أُنثىٰ، ثُمَّ عبدُوهُم مِن دون الله. وكل منها كافٍ في التَّخليد في نار جهنَّم.

ثم قال منكرًا عليهم: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ أي: أيُّ شيءٍ يحمله علىٰ أن يختار البنات دون البَنِين؟ كقوله: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:٤٠]؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي: ما لكم عقولٌ تتدبَّرون بها ما تقولون؟.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إذا قال قائل: ما الحكمة أن يخص قوم يونس بأنه تقبل منهم التوبة بعد نزول العذاب؟

فالجواب: أن الحكمة من هذا أن نبيهم لم يصبر حتىٰ تتم إقامة الحجة عليهم، بل خرج منهم مغاضبًا قبل أن يؤذن له، فلم تتم إقامة الحجة، فكان لهم شبه عذر في تأخر العذاب عنهم.

(٢) لوحة (٤١ ب).

(٣) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الراغب: الجن يقال علىٰ وجهين: أحدهما للروحانيين المستترة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس. فعلىٰ هذا تدخل فيه الملائكة. وقيل: بل الجن بعض الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة. وأشرار وهم الشياطين. وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]. انتهىٰ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجَّة علىٰ ما تقولُونَهُ.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[1]﴾ أي: هاتوا برهانًا علىٰ ذلك؛ يكون مستندًا إلىٰ [كتاب مُنزَّل][2] من السَّماء عن الله أنَّه اتَّخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلىٰ عقل، بل لا يُجوِّزُه العقل بالكليَّة.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. [فسأل][3] أبو بكر ﷺ: فمن أمهاتهنَّ؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن[4].

وكذا قال قتادة، وابن زيد، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الَّذين نسبوا إليهم ذلك؛ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إنَّ الَّذين قالُوا ذَلِك لمحضرونَ في العذاب يوم الحِسَاب؛ لِكَذِبِهم في ذَلِكَ وافترائِهم وقولهم البَاطِل بلا علمٍ.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، قال: زعم أعداء الله أنَّه تبارك وتعالىٰ هوَ وإبليس أخوان. حكاه ابن جرير[5].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن أن يكونَ له ولد، وعمَّا يصفه به الظَّالمون الملحِدُون علوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع[6]، وهو مِن مثبتٍ، إلَّا أن يكون الضَّمير في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائدًا إلىٰ جميع النَّاس، ثم استثنىٰ منهم المخلصين، وهم: المُتَّبعون للحقِّ المنزَّل علىٰ كلِّ نبيٍّ ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء مِن قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وفِي هَذَا الَّذِي قاله نظر.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾،

---

(١) لوحة (٤٢ أ). (٢) في (ز): «من نزل».

(٣) في (ز): «قال». والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ١٠٨)، ومجاهد لم يسمع من أبي بكر، فالإسناد منقطع.

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٢٣/ ١٠٨)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: ذهب بعض العلماء إلىٰ أن الاستثناء هنا متصل، فهو مستثنىٰ من الواو في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويكون المعنىٰ: سبحان الله عما يصفه الناس كلهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: إلا ما يصفه به عباد الله المخلصون، فإنه متصف به، وهذا احتمال، لكن ظاهر السياق ما ذهب إليه المؤلف، وأن قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلىٰ المشركين الذين وصفوه بأن له بنات، وهؤلاء لا يدخل فيهم المؤمنون، فالمؤمنون ليسوا من جنس المستثنىٰ منه، وحينئذٍ يكون الاستثناء منقطعًا، ويكون فائدة هذا الاستثناء المنقطع الثناء علىٰ عباد الله المخلصين، حيث لم يصفوه بما وصفه به هؤلاء.

أي: [ما ينقاد](١) لمقَالِكُم وما أنتم عليه من الضَّلالة والعِبَادة الباطلة إلا مَن هو أضلُّ منكم ممن ذُرِئ(٢) للنَّار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. فهذا الضَّرب من النَّاس هو الَّذي ينقاد لِدِينِ الشِّرك والكفر والضَّلالة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٨، ٩]، [أي](٣): إنَّما يضلُّ به [مَن هو](٤) مأفوك ومبطلٌ.

ثم قال تعالىٰ(٥) - مُنزِّهًا للملائكةِ مما نَسَبوا إليهم من الكُفْر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله-: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: له موضعٌ مخصوصٌ في السموات ومقامات العِبَادة لَا يتجاوزُهُ ولا يتعدَّاه.

وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمَّد بن خالد بسنده إلىٰ عبد الرحمن بن العلاء بن سعد(٦)، [عن أبيه](٧) -وكان ممن بايع يوم الفتح-؛ أن رسول الله ﷺ قال يومًا لجلسائه: «أَطَّتِ(٨) السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ». ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾(٩).

وقال الضَّحَّاك في «تفسيره»: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، قال: كان مسروق يَرْوي عن عائشة ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا مَوْضِعٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ». فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(١٠).

وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن مسروق، عن ابن مسعود ﵁ [قال](١١): إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جَبْهَة مَلَكٍ أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(١٢). وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّون الرِّجال والنِّساء جميعًا، حتىٰ نزلت: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. فتقدَّم الرِّجال وتأخَّر النِّساء(١٣).

---

(١) في (ز): «منقاد». (٢) أي: خُلِقَ. (٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٤٢ ب). (٦) في (ز): «سعيد». (٧) سقط من (ز).

(٨) **الأطيطُ**: صوتُ المَحَامِلِ والرِّحَال إذا ثقل عليها الرُّكبان، وكذلك كلُّ شيء أشبه صوت الرحل الجديد، والأطيط أيضًا: صوت النِّسْع الجديد، وصوت الرَّحْل، وصوت الباب. «اللسان»: أطط.

(٩) **حسن لغيره**: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٩)، وهو بهذا السياق ضعيفٌ جدًّا، فيه محمَّد بن خالد: كذَّبه أبو حاتم، لكن للحديث شواهد؛ منها: عن عائشة، وهو الذي أورده ابن كثير بعده، رواه ابن جرير (٢٣/ ١١٢) وغيره.

ومنها: عن حكيم بن حزام: رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٤٣)، ورجاله ثقات علىٰ كلام في عبد الوهاب بن عطاء أحد رواته، وله شواهد أخرىٰ، انظر: تفسير سورة المدثر (١٨-٢٠).

وبالجملة: فالحديث حسن لشواهده، وانظر: «الصحيحة» للألباني (٨٥٢) و(١٠٥٩).

(١٠) **حسن لغيره**: انظر التعليق السابق. (١١) ليست في (ز).

(١٢) رواه الطبري (٢٣/ ١٣)، والطبراني (٩/ ٩٠٤٢)، وإسناده صحيح، ومثله لا يقال بالرأي، فهو في حكم المرفوع.

(١٣) **ضعيف**: عزاه السيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٧/ ١٣٦) لابن أبي حاتم، وإسناده مرسل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ أي: نقف صفوفًا في الطَّاعة، كما تقدَّم عند قوله: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾. قال ابن جُرَيْج، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال: كانوا لا يصفُّون في الصَّلاة حتىٰ نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾، فصفُّوا(1). وقال أبو نَضْرَة: كان عُمر إذا أُقيمت الصَّلاة استقبلَ النَّاس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، اسْتَوُوا قيامًا، يُريدُ الله بكم هَدْيَ الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾، تأخَّر يا فلان، تقدَّم يا فلانُ، ثم يتقدَّم فيكبر ﷺ. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(2).

وفي «صحيح مسلم» عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلْنَا عَلَىٰ النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ(3) مَسْجِدًا، وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا...**». الحديث(4).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: نصطف فنسبِّح الرَّبَّ ونمجِّده ونقدِّسه، ونُنَزِّهُه عن النَّقائص، فنحنُ عبيدٌ له، فقراءُ إليه، خاضِعُون لَدَيْه. وقال ابن عبَّاس، ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة، يسبحون الله ﷻ.

وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، يعني: المصلُّون، يَثْبُتُون(5) بمكَانِهم من العبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

وقوله: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، أي: قد كانوا يتمنَّون قبل أن تأْتِيَهم يا محمَّد لو كان عندهم مَن يُذَكِّرُهم بأمرِ الله، وما كان مِن أمرِ القرون الأولىٰ، ويأْتِيهم بكِتَاب الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر:٤٢]، وقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيدٌ أكيدٌ وتهديدٌ شديدٌ، علىٰ كفرهم بربِّهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(6) ﴿١٧٩﴾﴾

---

(1) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٣١٢)، وإسناده مرسل.

(2) رواه الطبري (٢٣/ ١١٢)، وابن أبي حاتم (١٨٣١٣)، ورجاله ثقات، إلا أن إسناده منقطع؛ لأن أبا نضرة لم يَرْوِ عن عمر.

(3) لوحة (٤٣ أ). (4) مسلم (٥٢٢). (5) في (ز): «ينبيون». يعني: ينبئون. (6) لوحة (٤٣ ب).

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدَّم في الكتاب الأوَّل أنَّ العاقبة للرُّسل وأتباعِهم في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة. كما تقدَّم بيان نصرتهم علىٰ قومهم ممن كذَّبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجَّىٰ عباده المؤمنين.

﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [أي: تكون لهم العاقبة.

وقوله جل وعلا][(١)]: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اصبر علىٰ أذاهم لك، وانتظر إلىٰ وقت مؤجَّل، فإنَّا سنَجْعَلُ لك العاقبة والنُّصرة والظَّفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيًا[(٢)] ذلك إلىٰ يوم بدر. وما بعدها أيضًا في معناها.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي: أَنْظِرْهُم وارتقب ماذا يَحِلُّ بهم مِن العذاب والنَّكال علىٰ مخالَفَتِك وتكذيبك؛ ولهذا قال علىٰ وجه التَّهديد والوَعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ عَجَّلَ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: هم إنَّما يستعجلون العذاب لتكْذِيبِهم وكفرهم، فإنَّ الله يغضب عليهم بذلك، ويعجِّل[(٣)] لهم العقوبة، ومع هذا أيضًا كانوا مِن كفرهم وعِنادِهم يستعجلون العذاب والعُقُوبة.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: فإذا نزل العذاب بمَحِلَّتِهم، فبِئْسَ ذلك اليوم يومُهُم، بإهلاكهم ودمارِهم[(٤)].

قال السُّدِّي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: فبِئْسَ ما يُصْبِحُون؛ أي: بئس الصَّباح صباحهم؛ ولهذا ثبت في «الصَّحيحين» من حديث إسماعيل بن عُلَيَّة، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس رضي الله عنه قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبرَ، فلمَّا خرجوا بفُؤُوسِهم ومَسَاحِيهم ورأوا الجيش[(٥)]، رجعوا وهم يقولون: محمَّدٌ واللهِ، محمَّدٌ والخَمِيسُ[(٦)]. فقال[(٧)] النَّبيُّ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**»[(٨)]. ورواه البخاري من حديث مالك، عن حُميد، عن أنس.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا رَوْح، حدَّثنا سعيدُ بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: لمَّا صبَّحَ رسولُ الله ﷺ خيبرَ، وقد أخذُوا مَسَاحِيهم وغَدَوْا إلىٰ حُرُوثِهم وأَرْضِيهم، فلمَّا رأوا النَّبيَّ ﷺ ولَّوْا مُدْبِرين، فقال نبيُّ الله ﷺ: «[**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّا**][(٩)] **إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**»[(١٠)]. لم يخرِّجوه من هذا الوجه، وهو صحيح علىٰ شرط الشيخين.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) أي: جعل يوم بدر غاية لذلك. (٣) في (ز): «ويجعل».
(٤) في (ز): «وبإدمارهم». (٥) في (ز): «فلمَّا رأوا الجيش».
(٦) **الخميس**: هو الجيش؛ سمي بذلك لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب. وقيل: لأنه تخمس فيه الغنائم. «النهاية» لابن الأثير.
(٧) لوحة (٤٤ أ). (٨) البخاري (١٧١) و(٢٩٤٥)، ومسلم (١٣٦٥)، وأحمد (٤/ ٢٨).
(٩) سقط من (ز). (١٠) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٨)، ويشهد له الحديث السَّابق.

وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾؛ تأكيد لما تقدَّم مِن الأمر بذلك.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

يُنزِّه تعالىٰ نفسَه الكريمة ويقدِّسُها ويبرِّئُها عمَّا يقوله الظَّالمون المكذِّبون المعتَدُون -تعالىٰ وتقدَّس عن قولهم علوًّا كبيرًا- ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾- أي: ذِي العزَّة الَّتي لا تُرَام[(١)]- ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قولِ هؤلاء المعتدِينَ المفترِينَ.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدُّنيا والآخرة؛ لسلامَةِ ما قالوه في ربِّهم، وصحَّتِه وحقيقته.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولىٰ والآخرة في كلِّ حالٍ. ولما كان التَّسبيح يتضمَّن التَّنزيه والتَّبرئة مِن النَّقص بدلالة المطابَقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أنَّ الحمد يدلُّ علىٰ إثبات صفاتِ الكمال مطابقة، ويستلزم التَّنزيه من النَّقص -قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَسَلِّمُوا عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**»[(٢)].

هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك. وقد أسنده ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)] فقال: حدَّثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدَّثنا أبو بكر الأعين، ومحمَّد بن عبد الرحيم صاعقة قالا: حدَّثنا حسين بن محمَّد، حدَّثنا شيبان[(٤)]، عن قتادة قال: حَدَّثَ أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَسَلِّمُوا عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ**»[(٥)].

وقال الحافظ أبو يَعْلَىٰ: حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر، حدَّثنا نوح[(٦)]، حدَّثنا أبو هارون، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنَّه كان إذا سَلَّم قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ثم يُسَلِّم. إسناده ضعيف[(٧)].

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

وهـو العزيزُ فلا يُرام جنابه   أنَّىٰ يُرامُ جَناب ذي السُّلْطَان؟!

(٢) رجاله ثقات: غير أنَّ قتادة مدلِّس، والإسناد مرسل، رواه الطبري (٢٣/ ١١٦)، وابن أبي حاتم (١٨٣٢٣).

(٣) لوحة: (٤٤ ب).

(٤) في (ز): «شيبة»، والصواب ما أثبتناه وهو موافق لما في «ابن أبي حاتم».

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٢٥)، ورجاله ثقات، إلَّا أنَّ قتادة مدلس.

(٦) في (ز): «فرج»، وهو خطأ.

(٧) ضعيف جدًّا: فيه أبو هارون العبدي؛ متروك، ولم نقف عليه عند أبي يعلىٰ بهذا الإسناد، وإنما رواه (١١١٨) ثنا إسحاق، ثنا حماد عن أبي هارون به، ورواه الطيالسي (٢١٩٨) من طريق أبي هارون أيضًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمار بن خالد الواسطي، حدَّثنا شبابة، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالمِكْيَالِ الأَوْفَىٰ مِنَ الأَجْرِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلْيَقُلْ آخِرَ مَجْلِسِهِ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»(١). ورُوِيَ من وجه آخر متصل موقوف علىٰ عليٍّ رضي الله عنه.

قال أبو محمَّد البغوي في «تفسيره»: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن منجويه، حدَّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدَّثنا إبراهيم بن سهلويه، حدَّثنا علي بن محمَّد الطنافسي، حدَّثنا وكيع، عن ثابت بن أبي صفية، عن الأصبغ بن نباتة(٢)، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: مَن أحبَّ أَن يكتَالَ بالمِكْيَالِ الأوْفَىٰ من الأجر يوم القِيَامَة فليكُن آخر كلامه في مَجْلِسِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

وروىٰ الطبراني من طريق عبد الله بن صخر [بن أنس، عن](٤) عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَدْ اكْتَالَ بِالجَرِيبِ(٥) الأَوْفَىٰ مِنَ الأَجْرِ»(٦).

وقد وردت أحاديث في كفَّارة المجلس: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(٧). وقد أفردت(٨) لها جزءًا علىٰ حِدَةٍ، فليكتب هاهنا إن شاء الله تعالىٰ(٩).

آخر تفسير «سورة الصافات».

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٢٤)، ورجاله ثقات، لكنه مرسلٌ. وروي متصلًا موقوفًا كما سيأتي بعده.

(٢) قال الشيخ ابن باز رحمه الله: الأصبغ المذكور متروك الحديث، كما في «التقريب».

(٣) ضعيف جدًّا: فيه ثابت بن أبي صفية: ضعيفٌ رافضيٌّ، والأصبغ بن نباته: متروكٌ رُمِي بالرَّفض.

(٤) في (ز): «عبد الله بن صخر الأنسي عبد الله بن زيد»، والذي عند الطبراني: «عبد الله بن محمَّد الأنسي من ولد أنس»، وهو ابن صخر.

(٥) الجَرِيب: مكيال.

(٦) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (٥/ ٥١٢٤). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٠٥): فيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيفٌ جدًّا.

(٧) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٥٧)، ورواه الترمذي (٣٤٣٣)، والحاكم (١/ ٥٣٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. من حديث أبي هريرة. ورواه أبو داود (٤٨٥٩) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٨) لوحة (٤٥ أ).

(٩) لم نقف عليه في النسخ الخطية للكتاب، وقد جاء عن جمع من الصحابة، ومن ذلك:
- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا عند الترمذي (٣٤٣٣) وغيره.
- وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه مرفوعًا عند أبي داود (٤٨٥٩) وغيره.
- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا عند أبي داود (٤٨٥٧) وغيره.
- وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه مرفوعًا عند أحمد (٣/ ٤٥٠) وغيره.
- وفي الباب عن: ابن مسعود، وعائشة، وأنس وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

سُورَةُ صٓ

تفسيرُ سُورةِ ﴿ص﴾، وهي مكِّيَّةٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾

أمَّا الكلامُ علىٰ الحروف المُقطَّعة فقد تقدَّمَ في أول سُورة «البقرة»، بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: والقُرآن المُشْتَمِل علىٰ ما فيه ذِكْرٌ للعِبَاد ونفعٌ لهم في المعاش والمَعَاد.

قالَ الضَّحَّاكُ في قوله: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ كقوله: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾، [الأنبياء: ١٠]، أي: تذكيرُكُم. وكذا قال قتادةُ، واختارهُ ابنُ جَرير.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بن جُبير، وإسماعيلُ بنُ أبي خَالد، وابنُ عُيَيْنة، وأبو حُصَين، وأبو صالح، والسُّدِّي: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾: ذي الشَّرف؛ أي: ذي الشَّأن والمكانة.

ولا مُنافاة بين القَوْلَيْن؛ فإنَّه كِتَابٌ شَريفٌ مُشتملٌ علىٰ التَّذكير، والإعذار، والإنذار.

واختلفوا في جَوابِ هذا القسم، فقال بعضُهم: هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]. وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤]. حكاهما ابن جرير، [وهذا الثاني فيه بُعدٌ كبيرٌ، وضعَّفه ابنُ جَرير](١).

وقال قتادةُ: جوابه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾. [واختارهُ ابن جَرير](٢).

وقيل: جوابه ما تضمَّنه سِيَاقُ السُّورة بِكمالها، والله أعلم.

ثم حَكَىٰ ابنُ جريرٍ عن بعضِ أهل العربية(٣) أنه قال: جوابه: ﴿صٓ﴾ [بمعنىٰ](٤): صدقٌ حقٌّ والقرآن ذي الذكر.

وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، أي: إن في هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكَّر، وعِبرةً لمن يعتبر.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) سقط من (ز).

(٣) في بعض النسخ: «العلم».

(٤) سقط من (ز).

وإنَّما لم ينتفع به الكافرون؛ لأنَّهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾، أي: استكبارٍ عنه وحميَّةٍ، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: مخالفةٍ له ومعاندةٍ ومفارقةٍ.

ثم خوَّفهُم مَا أهلكَ به الأُمَمَ المُكَذِّبة قَبلهم بسببِ مُخالَفتِهم للرُّسل وتكذيبهم الكُتب المُنزَّلة من السَّماء فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا[١] مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، أي: من أُمَّةٍ مكذِّبةٍ، ﴿فَنَادَوا﴾ أي: حين جاءهم العذابُ استغاثوا وجَأَرُوا إلى الله، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢]، أي: يهربون، ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء: ١٣].

قال أبو داود الطَّيالِسيُّ: حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التَّميميِّ قال: سألتُ ابنَ عبَّاسٍ عن قول الله: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؟ قال: ليسَ بحِين [نِداء][٢]، ولا نَزْوَ، ولا فرار.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ليسَ بحِين مُغَاث.

وقال شَبِيبُ بن بِشْرٍ، عن عِكْرمة، عنِ ابنِ عبَّاسٍ: نَادوا النِّداءَ حين لا ينفعهم، وأنشدَ:

تَذَكَّرَ لَيْلَىٰ لاتَ حِينَ تذكُّرِ

وقالَ مُحمَّدُ بنُ كَعْبٍ في قوله: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يقولُ: نادوا بالتَّوحيد حين تولَّتِ الدُّنيا عنهم، واسْتَنَاصُوا[٣] [للتَّوبة][٤] حين تولَّتِ الدُّنيا عنهم.

وقال قتادةُ: لما رَأَوُا العذابَ أرادُوا التَّوبةَ في غير حينِ النِّداء.

وقالَ مُجاهد: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: ليسَ بحِينِ فِرَارٍ ولا إجابةٍ.

وقد رُوِيَ نحو هذا عن عِكْرِمة، وسعيد بن جُبير، وأبي مَالك، والضَّحَّاك، وزيد بن أَسْلَم، والحَسَن، وقَتَادَة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: ولا نداء في غيرِ حين النداء.

وهذه الكلمة -وهي: «لات»- هي: «لا» الَّتي للنَّفيِّ، زيدت معها «التاء»، [كما تُزاد][٥] في «ثَمَّ»، فيقولون: «ثَمَّتَ»، و«رُبَّ» فيقولون: «رُبَّتَ». وهي مفصولةٌ والوقف عليها. ومنهم من حكىٰ عن المُصْحَف الإمام -فيما ذكره [ابنُ جرير][٦]- أنها متَّصلةٌ بـ«حِين»: «ولا تحين مناص». والمشهور الأوَّل.

ثم قرأ الجمهور بنصب: «حين»، تقديره: وليسَ الحِينُ حِينَ مَنَاص. ومنهم من جَوَّزَ النَّصبَ بها، وأنشدَ:

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَىٰ لاتَ حِينَا وَأَضْحَىٰ الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ القَرِينَا

---

(١) لوحة (٤٥/ ب). (٢) سقط من (ز). (٣) في نسخة: «واستباصوا».
(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) بياض في (ز)!!.

ومنهم مَنْ جَوَّزَ الجرَّ بها، وأنشدَ:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أَوَانٍ   فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ [1]

وأنشدَ بعضُهم أيضًا:

وَلاتَ سَاعَةِ مَنْدَمِ

بخَفْض السَّاعة، وأهلُ اللُّغة يقولون: النَّوْص: التَّأَخُّر، والبَوْص: التَّقدُّم. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، أي: ليس الحِينُ حينَ فِرَارٍ ولا ذَهَابٍ.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ [2] ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركينَ في تعجُّبهم من بعثَةِ الرَّسول بشرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: بشرٌ مثلُهم، ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾، أي: أَزَعَمَ أنَّ المعبودَ واحدٌ لا إله إلَّا هو؟! أنكرَ المُشركون ذلك -قَبَّحَهُمُ اللهُ تعالىٰ- وتعجَّبُوا مِن تَرْكِ الشِّرْكِ بالله؛ فإنَّهم كانوا قد تلقَّوْا عن آبائهم عِبادة الأوثان وأُشْرِبَتْهُ قلوبُهُم، فلمَّا دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ خَلْعِ ذلك مِن قُلوبهم وإفراد الله بالوحدانيَّة أعظموا ذلك وتعجَّبُوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ وهم:

---

(١) لوحة (٤٦/ أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: قوله ﴿عَذَابِ﴾: قد يشكل علىٰ طالب العلم، وهو أن الفعل واقع عليه، وهو من ذلك لم ينصب، أي لم يقل: بل لما يذقوا عذابًا: فكيف توجيه ذلك؟ كيف لم ينصب ﴿عَذَابِ﴾ مع أن الفعل واقع عليها؟ والجواب عن ذلك أن نقول: إن ﴿عَذَابِ﴾ أصلها: عذابي بالياء، والمضاف إلىٰ ياء المتكلم تقدر عليه الحركات، ولذلك لابد أنه يكسر من أجل مناسبة الياء، فتكون الحركات مقدرة عليه، وعلىٰ هذا فنقول: (عذابِ) مفعول يذوق، منصوب بفتحة مقدرة علىٰ ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفًا، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والياء هنا حذفت للتخفيف وهذا كثير في القرآن واللغة العربية أن تحذف ياء المتكلم للتخفيف، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩] ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] والتقدير: المتعالي، ومن والي.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ يعني: إذن فارتقوا إلىٰ السماء، وأنزلوا الوحي، وخصوا به من شئتم.

سادتهم، وقادتهم، ورؤساؤهم، وكبراؤهم قائلين: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ أي: استمروا علىٰ دينكم ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ ولا تَسْتَجِيبُوا لما يدعوكم إليه مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوحيد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾، قالَ ابنُ جرير: إنَّ هذا الَّذِي يدعونا إليه مُحَمَّدٌ ﷺ من التَّوحيد لشيءٌ يُرِيد به الشَّرف عليكم والاستعلاء، وأن يكونَ له منكم[1] أَتْبَاعٌ، ولَسْنَا مُجِيبيه إليه.

ذِكْرُ سَبب نُزول هذه الآيات:

قال السُّدِّيُّ: «إنَّ أُناسًا مِن قُرِيشٍ اجتَمعُوا، فيهم: أبو جهل بنُ هِشَام، والعَاصُ بن وَائِل، والأَسْوَدُ بن المُطلب، والأَسْوَدُ بن عبد يَغُوث، في نفرٍ من مَشْيخَةِ قُرِيش، فقال بعضُهم لبعضٍ: انطلقوا بِنَا إلىٰ أبي طالبٍ فلْنُكَلِّمْه فيه، فلْيُنْصِفْنا منه فليَكُفَّ عن شَتمِ آلهتنا ونَدَعَهُ وإلهَه الَّذِي يعبدُهُ؛ فإنَّا نخافُ أن يموتَ هذا الشيخُ فيكون منَّا إليه شيءٌ، فتُعَيِّرُنا [به][2] العربُ، يقولون: تَرَكُوهُ حتىٰ إذا ماتَ عنه تناولوه، فبعثوا رجُلًا منهم يُقال له: المُطَّلب، فاستأذنَ لهم عَلَىٰ أبي طَالبٍ فقال: هَؤلاء مَشْيَخَةُ قَوْمِكَ وسَرَاتُهم يستأذنون عَليك، قال: أَدْخِلْهُم، فلمَّا دَخلُوا عليه قالوا: يا أبَا طَالبٍ، أنتَ كبيرُنا وسيِّدُنا، فَأَنْصِفْنَا مِن ابن أخِيكَ، فمُرْهُ فليَكُفَّ عن شَتْمِ آلهتنا وندَعَهُ وإلهه. قال: فبعثَ إليه أبو طالبٍ، فلمَّا دخلَ عليه رسُولُ الله ﷺ قال: يا ابنَ أخي، هؤلاءِ مَشْيَخةُ قَومِكَ وسَرَاتهم، وقد سَأَلُوكَ أن تَكُفَّ عن شَتم آلهتهم ويَدَعُوكَ وإلهك. قال: «**يا عَمِّ، أَفَلا أَدْعُوهُمْ إِلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ**؟» قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «**أَدْعُوهُمْ [إِلَىٰ]**[3] **أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِكَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمْ [بِهَا]**[4] **العَرَبُ، وَيَمْلِكُونَ بِهَا العَجَمَ**». فقال أبو جَهْلٍ مِنْ بين القَوْم: مَا هِيَ وأبيك؟ لَنُعْطِيَنَّكَهَا وعَشرة أمثالها. قال: تقولون: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فنَفَرَ وقال: سلْنَا غيرَ هذا، قال: «**لَوْ جِئْتُمُونِي بِالشَّمْسِ حَتَّىٰ تَضَعُوهَا فِي يَدِي مَا سَأَلْتُكُمْ غَيْرَهَا**»، فقاموا من عنده غِضَابًا، وقالوا: والله لنشتمنَّك وإلهك الَّذِي أمرَكَ بهذا. ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾»[5].

رواهُ ابنُ أبي حاتم، وابنُ جريرٍ وزاد: فلما خرجُوا دعا رسولُ الله ﷺ عمَّه إلىٰ قول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» فأبىٰ، وقال: بل علىٰ دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦][6].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ وابن وكيع قالا: حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثنا الأعْمَش، حدَّثنا

---

(١) لوحة (٤٦/ ب). (٢) ليست في (ز).
(٣) ليست في (ز). (٤) سقط من (ز).
(٥) **ضعيف**: رواه الطبري (٢٣/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم كما أشار إليه المصنِّف، وعزاه إليه السيوطي في «الدُّرِّ المنثُور» (٧/ ١٤٢). وفيه أسباط بن نصر: ضعيفٌ، وأيضًا الإسناد معضل.
(٦) انظر التعليق السابق.

عبَّاد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: «لمَّا مَرِضَ أبو طالب دخل عليه رهْطٌ[١] من قريش فيهم[٢]: أبو جهل فقالوا: إنَّ ابن أخيك يشتُمُ آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثتَ إليه فنهَيْتَه؟ فبعث إليه، فجاء النَّبيُّ ﷺ فدخل البيتَ، وبينهم وبين أبي طالبٍ قدرُ مجْلس رجُلٍ قال: فخَشِي أبو جهل إن جلس إلىٰ جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ له عليه، فوثَبَ فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسولُ الله ﷺ مجلسًا قرب عمِّه فجلس عند البَابِ، فقال له أبو طالب: أي ابنَ أخي، ما بالُ قومِك يَشْكونَكَ، يزعمون أنَّك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه مِنَ القَوْل، وتكلَّم رَسُول الله ﷺ فقال: «**يَا عَمِّ إنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ! يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا العَجَمُ الجِزْيَةَ**». ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرًا، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأيُّ كلمةٍ هي يا ابن أخي؟ فقال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فقاموا فَزِعِينَ ينفضون ثيابَهُم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. قال: ونزلت من هذا الموضع إلىٰ قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾. لفظ أبي كُرَيْب[٣].

وهكذا رواه الإمام أحمدُ، والنسائيُّ من حديث محمَّد بن عبد الله بن نُمَير، كلاهما عن أبي أسامة، عن الأعْمَش، عن عبَّاد غير منسوب به نحوه، ورواه الترمذيُّ، والنسائيُّ، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضًا، كلهم في تفاسيرهم من حديث سُفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيىٰ بن عمارة الكوفي، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس فذكر نحوه. وقال الترمذيُّ: حسنٌ.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الَّذي يدعونا إليه محمَّد من التَّوحيد في المِلَّة الآخرة.

قال مجاهد وقتادة وابن زيد: يَعْنون دين قريش.

وقال غيرهم: يعنون النَّصرانيَّة، قاله محمَّد بن كَعْب والسُّدِّي.

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: النَّصرانيَّة، قالوا: لو كان هذا القرآن حقًّا أَخْبَرَتْنا به النَّصارىٰ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[٤] قال مجاهد، وقتادة: كَذِبٌ، وقال ابن عبَّاسٍ: تَخرُّصٌ.

وقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، يعني: أنَّهم يَسْتَبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كُلِّهم كما قالوا في الآية الأخرىٰ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال الله تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

---

(١) لوحة (٤٧/ أ). (٢) في (ز): «منهم».

(٣) رجاله ثقات عدا عبَّاد، وقيل: ابن عباد، وقيل: يحيىٰ بن عمارة؛ لم يوثِّقه غير ابن حبان. رواه الطبري (٢٣/ ١٢٥)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٣٦)، وابن أبي حاتم (١٨٣٢٦)، والحاكم (٢/ ٤٣٢)، وحسَّنه التِّرمذي، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذَّهبي، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٣٦).

(٤) لوحة (٤٧/ ب).

دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف:٣٢]. ولهذا لما قالوا هذا الذي دلَّ علىٰ جهلهم وقلَّة عقلهم في استبعادهم إنزالَ القرآنِ علىٰ الرَّسول مِن بينهم، قال الله تعالىٰ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: إنَّما يقولون هذا؛ لأنَّهم ما ذاقوا إلىٰ حينِ قولهم ذلك عذابَ الله ونقمتَهُ، سيعلمون غِبَّ[1] ما قالوا وما كذبوا به يوم يُدَعُّون إلىٰ نار جهنم دَعًّا.

ثم قال مُبينًا أنَّه المتصرِّف في ملكه الفعَّال لما يشاءُ الَّذي يعطِي مَن يشاء ما يشاء، [ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء، ويهدي من يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء][2] ويُنَزِّل الروح مِن أمره علىٰ مَن يشاء مِن عباده، ويختم علىٰ قلب مَن يشاء، فلا يَهْدِيه أحدٌ مِن بعد الله وإنَّ العباد لا يملكون شيئًا من الأمر، ولَيْسَ إليهم من التَّصرُّف [في المُلْكِ][3] ولا مثقال ذرَّةٍ وما يملكون من قِطْمِيرٍ؛ ولهذا قال تعالىٰ مُنكرًا عليهم: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾، أي: العزيز الذي لا يُرام جَنابُه[4]، الوهاب الَّذي يُعْطِي ما يريد لمن يريدُ.

وهذه الآية شبيهةٌ بقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ۝٥٤ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣ - ٥٥]، وقوله: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفَّار أنَّهم أنكروا بعثة الرَّسول البَشري، وكما أخبر تعالىٰ عن قَوْم صالح ﵇ حين قالوا: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ۝٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

وقوله: ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾، أي: إن كان لهم ذلك فليصعدُوا[5] في الأسباب.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وغيرهم: يعني طرق السَّماء.

وقال الضَّحَّاكُ: فليصعدُوا إلىٰ السَّماء السَّابعة.

---

(١) أي: عاقبته.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) قال ابن القيم ﵀ في «النونية»:

وهو العزيز فلن يُرام جنابُه ... أنىٰ يُرام جَنَابُ ذي السلطانِ

وهو العزيز القاهر الغلَّاب لم ... يَغْلِبْهُ شيء هذه صفتانِ

وهو العزيز بقوة هي وَصْفُهُ ... فالعز حينئذ ثلاث مَعَانِ

وهي التي كَمُلَتْ له سُبحانه ... من كل وَجْهٍ عادم النقصانِ

(٥) لوحة (٤٨/ أ).

ثم قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، أي: هؤلاء الجُند المكذِّبون -الَّذين هم في عزةٍ وشقاقٍ- سيُهزَمُون ويُغلَبُونَ ويُكبَتُونَ كما كُبِتَ الَّذين مِن قبلهم من الأحزاب المكذِّبين، وهذه كقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ -وكان ذلك يوم بدر- ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤ - ٤٦].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ(١) ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

يقولُ تعالىٰ مخبرًا عن هؤلاء القرون الماضية، وما حلَّ بهم من العَذاب والنَّكال والنِّقمات في مخالفة الرُّسل وتكذيب الأنبياءِ، وقد تقدَّمت قصصهم مبسوطةً في أماكنَ متعدِّدةٍ.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكُم وأشدَّ قوَّةً وأكثر أموالًا وأولادًا، فما دافع ذلك عنهم مِن عذاب الله مِن شيءٍ لَمَّا جاء أمر ربِّك، ولهذا قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾، فجعل علَّة هلاكهم هو تكذيبهم بالرُّسُل، فليحذَرِ المخاطبون مِن ذلك أشدَّ الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مَثْنَوِيَّةٌ[٢]، أي: ما ينظرون إلا السَّاعة أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطُهَا؛ أي: فقد اقتربتْ ودَنَتْ وأَزِفَت، وهذه الصَّيحة هي نفخة الفزع التي يأمر اللهُ إسرافيلَ أن يُطَوِّلها، فلا يبقىٰ أحدٌ مِن أهل السَّماوات والأرض إلَّا فَزِعَ، إلَّا مَن استثنىٰ الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾، هذا إنكارٌ من الله علىٰ المشركين في دعائِهم علىٰ أنفسهم بتعجيلِ العذاب، فإنَّ القِطَّ هو الكِتاب[٣]، وقيل: هو الحظُّ والنَّصيب.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك[٤] والحَسَن، وغير واحدٍ: سألوا تعجيل العذاب، زاد

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَواق وفُواق، ومعناه الرجوع وقيل: معناه الإمهال، يعني إنها لا تمهلهم بل تأخذهم بسرعة، وقيل: إنها إن كانت فواق فهي بمعنىٰ الرجوع؛ لأنها من أفاق يُفيق إذا رجع إلىٰ عقله، وإذا كانت فُواق فهي بمعنىٰ الإمهال مأخوذ من قولهم: فُواق الناقة، وفُواق الناقة: هو ما بين الحَلْبتين، أو ما بين الرضعتين: ما بين الحلبتين قليلة، وكذلك بين الرضعتين، الطفل الرضيع إذا كان يرضع ثدي الأم، يمص ثم يمص، وهم يطلقون هذا علىٰ سرعة الشيء، وعدم إمهاله، ويمكن أن نقول: إن القراءتين تجمعان المعنيين، فيكون معنىٰ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾؛ أي: ما لها من رجوع ولا إمهال.

(٢) أي: ليس لها استثناء ولا رد.

(٣) اعترضَ ابن خُزَيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تفسير القِطِّ بالكتاب ورده بقوَّة، فقال: «...فأمَّا دعواهم: أن (قط) أنها: الكتاب، فعلماء التَّفسير قد اختلفوا في تأويل هذه اللَّفظة. ولسنا نحفظ عن أحدٍ منهم أنهم تأولوا (قط): الكتاب». اهـ «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٢٧).

(٤) لوحة (٤٨/ ب).

قتادة: كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنَّة إن كانت موجودةً أن يلقوا ذاك في الدنيا، وإنَّما خرج هذا منهم مَخْرَج الاستبعاد والتَّكذيب.

وقال ابن جَرير: سألوا تعجيلَ ما يستحقُّونه من الخير أو الشَّرِّ في الدُّنيا، وهذا الذي قاله جيِّدٌ، وعليه يدور كلام الضَّحَّاك وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهُم علىٰ وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ آمرًا له بالصَّبر علىٰ أذاهم، ومُبشرًا له علىٰ صَبْره بالعَاقِبَة والنَّصر والظَّفَر.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يذكر تعالىٰ عن عبده ورسوله داود ﷺ: أنَّه كان ذا أيدٍ، والأيْد: القوَّة في العلم والعمل.

قال [ابن عبَّاس، و][١] ابن زيد، والسُّدِّي: الأيْد: القوَّة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال مجاهد: الأيد: القوَّة في الطَّاعة.

وقال قتادة: أُعطي داود عليه السلام قوَّةً في العبادة وفِقْهًا في الإسلام، وقد ذُكِر لنا أنَّه عليه السلام كان يقومُ ثُلث اللَّيل، ويصوم نصفَ الدَّهر.

وهذا ثابتٌ في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَىٰ اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَىٰ اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَىٰ، وَإِنَّهُ كَانَ أَوَّابًا**»[٢]. -وهو الرَّجَّاعُ إلىٰ الله عز وجل في جميع أمورِهِ وشئونِهِ-.

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: إنَّه تعالىٰ سَخَّر الجبال تُسبِّح معه عند إشراق الشمس وآخر النَّهار، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، وكذلك كانت الطَّير تُسَبِّح بتسبيحِهِ، وتُرجِّع بترجيعِهِ، إذا مرَّ به الطَّير وهو سابحٌ في الهواءِ فسَمِعَهُ وهو يترنَّم بقراءة الزَّبور لا تستطيع[٣] الذَّهاب، بل تقفُ في الهواء وتُسبِّح معه، وتُجيبُه الجبال الشَّامخات تُرجِّعُ معه وتُسبِّح تبعًا له.

قال ابن جريرٍ: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ، حدَّثنا محمَّد بن بِشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن مُوسىٰ بن أبي

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) لوحة (٤٩/ أ).

كثيرٍ، عن ابن عبَّاسٍ أنه بلغه: أن أمَّ هانئ ذكرت: «أنَّ رسول الله ﷺ يوم فتح مكَّة صلَّىٰ الضُّحىٰ ثمانِ ركعاتٍ. قال ابن عبَّاسٍ: قد ظننت أنَّ لهذه السَّاعة صلاةً، يقول الله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾».

ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عَرُوبةَ، عن أبي المتوكل، عن أيوب بن صَفْوان، عن مَوْلاه عبد الله ابن الحارث بن نَوْفلٍ؛ أنَّ ابن عبَّاسٍ كان لا يُصَلِّي الضُّحىٰ، قال: فأدخلتهُ علىٰ أمِّ هانئ فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني به. فقالت أُمُّ هانئ: دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوم الفتح في بَيْتِي، ثم أمر بماءٍ صُبَّ في قَصْعةٍ، ثمَّ أمر بثوبٍ فأخذ بيني وبينه فاغتسل ثم رشَّ ناحيةَ البيت فصلَّىٰ ثمانِ ركعاتٍ، وذلك من الضُّحىٰ قيامُهنَّ وركوعهنَّ وسجودهنَّ وجلوسُهنَّ سواءٌ، قريبٌ بعضهنَّ مِن بعضٍ، فخرج ابن عبَّاس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللَّوحين ما عرفت صلاة الضُّحىٰ إلا الآن؛ ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، وكنتُ أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعد يقول: صلاة الإشراق(1).

ولهذا قال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾، أي: مَحْبُوسَةً في الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مُطيعٌ يُسبح تبعًا له.

قال سعيد بن جُبَير، وقتادة، ومالك، عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مُطيعٌ.

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: جعلنا له ملكًا كاملًا مِن جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبي نَجِيح عن مُجاهد: كان أشد أهل الدنيا سُلطانًا.

وقال السُّدِّي: كان يحرسه في كلِّ يوم أربعة آلاف.

وقال بعضُ السَّلف: بلغَنِي أنَّه كان حَرَسُه في كلِّ ليلةٍ ثلاثة وثلاثين ألفًا، لا تدور عليهم النَّوبة إلىٰ مثلها من العام القَابل.

وقال غيره: أربعون ألفًا مُشتكُّون بالسِّلاح. وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم من رواية عِلْباءَ بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: أن نفرين مِن بني إسرائيل اسْتَعْدَىٰ أحدُهما علىٰ الآخر إلىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنَّه اغتصبه بقرًا فأنكرَ الآخر، ولم يكن للمدَّعِي بيِّنةٌ فأرجأ أمرهما، فلما كان اللَّيل أمر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في المنام(2) بقَتْلِ المدَّعِي، فلمَّا كان النَّهار طلبهما وأمر بقتل المُدعي، فقال: يا نَبِيَّ الله عَلَامَ تقتُلُنِي وقد اغتصبني هذا بقَري؟ فقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ أمرني بقتلك، فأنا قَاتِلُكَ لا محالة، فقال: يالله، يا نبيَّ الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الَّذي ادَّعيْت عليه، وإنِّي لصادقٌ فيما ادَّعيتُ، ولكنِّي كنتُ قد اغتلتُ أباه وقتلتُه، ولم يشعر بذلك أحدٌ [فأمر به داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقتل](3).

قال ابن عبَّاس: فاشتدَّت هَيبته في بني إسرائيلَ، وهو الَّذي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾(4).

---

(١) رواه الطبري (٢٣/ ١٣٧)، وفي الإسناد الأول: عبد الكريم: لم أعرفه، وأمَّا الإسناد الثَّاني ففيه أيُّوب بن صفوان. أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

واعلم أنَّ أصل صلاة الضُّحىٰ يوم الفَتْح صحيحٌ، رواه البخاري (٢٨٠)، ومسلم (٣٣٦)، من غير تفسير الآية.

(٢) لوحة (٤٩/ ب). (٣) في (ز): «فأمر داود بقتله فقتل».

(٤) رواه الطبري (٢٣/ ١٣٨) وإسناده حسن، وله حكم المرفوع، لكن ذلك بشرط أن يكون الرَّاوي ممَّن لم يقرأ في كُتُبِ أهل الكِتَابِ، وهو شرطٌ غير مُتحقِّقٍ هنا، لذا فلا يُصَدَّقُ ولا يُكَذَّبُ.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾، قال مُجاهد: يعني الفَهم والعَقل والفِطْنة. وقال مرَّةً: الحِكْمة والعدل. وقال مَرَّةً: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتِّباع ما فيه. وقال السُّدِّي: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: النُّبوَّة.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، قال شُريح القاضي، والشَّعْبي: فصل الخطاب: الشُّهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المُدعي، أو يمين المُدَّعَىٰ عليه، هو فَصْلُ الخِطَاب الَّذِي فصل به الأنبياء والرُّسل، أو قال: المؤمنون والصَّالحون، وهو قضاء هذِهِ الأمَّة إلىٰ يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي. وقال مُجاهد، والسُّدِّي: هو إصابة القضاء وفهمه، وقال مجاهد أيضًا: هو الفصل في الكلام وفي الحكم[(١)].

وهذا يَشْمَل هذا كُلَّه وهو المُراد، واختاره ابنُ جرير.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا عُمر بن شَبَّة النُّمَيْري، حدَّثنا إبراهيم بن المُنْذر، حدَّثني عبدُ العزيز بن أبي ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن بلال بن أبي بُرْدة، عن أبيه، عن أبي مُوسىٰ ﷺ قال: أول مَن قال: «أَمَّا بَعْدُ» داود عليه السلام، وهو فصل الخطاب[(٢)].

وكذا قال الشَّعْبيُّ: فَصْل الخطاب: «أَمَّا بَعْدُ».

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ[(٣)] فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ[(٤)] ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فصل الخطاب، يعني: فصل الخطاب الحاصل من غيره، أي: يفصل في خطاب الناس، أو فصل الخطاب يعني خطابه هو، يعني أن خطابه، كان فصلًا، أي: ذا بيان وفصاحة، نقول: المعنيان محتملان، فالآية تحتمل هذا وهذا، وهما لا يتنافيان، فيجب أن تكون الآية محمولة عليهما، حتىٰ إن بعضهم قال: إن فصل الخطاب هو قوله: أما بعد؛ لأن «أما بعد» تفصل ما قبلها عما بعدها، ولكن هذا ليس بصحيح، «أما بعد» لا شك أنها تعطي الكلام رونقًا وجمالًا وتفصيلًا، لكن كوننا نجعلها هي فصل الخطاب فيه نظر، والله أعلم.

(٢) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٣٩)، وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت: متروك الحديث، كما في «التقريب».

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الركوع الذي هو الانحناء لا يمكن أن يكون فيه خرور؛ لأن الراكع يبقىٰ ثابتًا، ولا يتصور الخرور إلا بالسجود ولكن التعبير بالركوع عن السجود من باب التعبير بالمعنىٰ العام عن المعنىٰ الخاص؛ لأن أصل الركوع في اللغة العربية هو الذل، كما قال الشاعر:

لا تُهينَ الفقيرَ علَّك أنْ ... تركَعَ يومًا والدهرُ قد رَفَعهْ

يعني أن تذل، والدهر قد رفعه، أي قد رفع هذا الفقير، إذن فالذي عين أن يكون الركوع هنا بمعنىٰ السجود هو قوله: ﴿وَخَرَّ﴾ ولكنه عبر بالركوع عن السجود لإظهار أن هذا الركوع ركوع ذل لله ﷻ.

(٤) لوحة (٥٠/ أ).

قد ذكرَ المفسِّرون هاهنا قصَّةً أكثرها مأخوذٌ من الإسرائيليَّات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديثٌ يجب اتِّباعه، ولكن روىٰ ابن أبي حاتمٍ هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنَّه مِن رواية يزيد الرَّقَاشِي، عن أنسٍ -ويزيدُ، وإن كان من الصالحين، لكنَّه ضعيفُ الحديث عند الأئمَّة، فالأولىٰ أن يُقتصر علىٰ مُجرَّد تِلاوة هذه القصَّة وأن يُردَّ عِلمُها إلىٰ الله ﷻ؛ فإنَّ القرآن حَقٌّ، وما تَضمَّن فهو حقٌّ أيضًا.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنَّه كان في محرابه -وهو أشرف مكانٍ في دارِه- وكان قد أمر ألَّا يدخل عليه أحدٌ ذلك اليوم، فلم يَشعرْ إلَّا بشخصين قد تَسوَّرا عليه المحراب؛ أي: احتاطَا به يسألانه عَن شأنِهمَا.

وقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غَلَبَنِي، يقال: عزَّ يَعِزُّ: إذا قَهَرَ وغَلَبَ.

وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، قال عَلِيُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أي اختبرناه[1].

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدًا ﴿وَأَنَابَ﴾، ويحتمل أنَّه ركع أولًا ثم سجد بعد ذلك، وقد ذُكِر أنَّه استمرَّ ساجدًا أربعين صباحًا، ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إنَّ حسناتِ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين.

وقد اختلف الأئمة ﭫ في سجدة «ص»؛ هل هيَ مِن عزائم السُّجود؟ علىٰ قولين: الجديد من مذهب الشافعي ﵀ أنَّها ليست من عزائم السُّجود بل هي سجدَةُ شكرٍ، والدَّليل علىٰ ذلك: ما رواه الإمام أحمد؛ حيث قال: حدَّثنا إسماعيل -وهو ابن عُلَيَّةَ- عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ[2] أنه قال في السُّجود في «ص»: ليست من عزائم السُّجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[3].

ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في «تفسيره»، من حديث أيوب به، وقال الترمذي: حسن صحيحٌ.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الصحيح أنما اختبرناه، ولكن بأي شيء اختبرناه، لننظر:
أولًا: داود ﵇ مأمور بأن يحكم بين الناس، فإنما وظيفته عامة، واختصاصه في وقت دخوله المحراب، وإغلاق الباب عليه، هذا يخالف مقتضىٰ وظيفته، إذ مقتضىٰ وظيفته أن يتفرغ للناس حتىٰ يقابل الخصوم ويحكم بينهم، هذه واحدة، ولهذا سيأتينا -إن شاء الله- في الفوائد، أنه لا يجوز للحاكم بين الناس، ولمن كان في وظيفة عامة أن يشتغل بشيء خاص لنفسه.
ثانيًا: أن داود عليه السلام سمع كلام الخَصْمِ الأول ولم يستمع إلىٰ كلام الخصم الآخر؛ لأن القرآن ليس فيه أنه سمع إلىٰ كلام الخصم الآخر.
ثالثًا: أنه حكم وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ والحكم قبل سماع جواب الخصم الآخر فيه شيء من التسرع ما دام الخصم حاضرًا، ولهذا علم داود -عليه الصلاة والسلام- أن الله تعالىٰ ابتلاه بهذه الخصومة التي جاءت وهو يتعبد في محرابه وتسوروا عليه المحراب، فاستغفر ربه وخرَّ راكعًا وأناب.

(٢) كذا في (ز)، وهو موافق لما في «المسند»، وفي بعض الطبعات بإسقاط: «عن عكرمة».

(٣) البخاري (١٠٦٩)، وأحمد (١/ ٣٦٠)، وأبو داود (١٤٠٩)، والترمذي (٥٧٧)، والنسائي في «الكبرىٰ».

وقال النسائيُّ أيضًا عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن -هو المِقْسَمِي- حدَّثنا حَجَّاج بن محمَّد عن عمر[1] بن ذَرٍّ، عن أبيه عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس ﵄، أن النَّبيَّ ﷺ سجد في: «ص»، وقال: «سَجَدَهَا دَاوُدُ ﵇ تَوْبَةً، وَنَسْجُدُهَا[2] شُكْرًا»[3].

تفرَّد بروايته النَّسائي، [ورجال إسناده][4] كلُّهم ثقاتٌ، وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجَّاج المِزِّي -قراءةً عليه وأنا أسمع-: أخبرنا أبو إسحاق [ابن الدَّرَجِيِّ][5]، أخبرنا زاهر بن أبي طاهرٍ الثَّقَفِي، أخبرنا زاهر بن طاهر الشَّحامي، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُودي[6]، أخبرنا الحاكم أبو أحمد [محمَّد][7] بن محمَّد الحافظ، أخبرنا أبو العبَّاس السَّرَّاج، حدَّثنا هارون بن عبد الله، حدَّثنا محمَّد بن يزيد بن خُنَيْس، عن الحسن بن محمَّد بن عُبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جُرَيج: يا حسن حدَّثني جدُّك عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عبَّاسٍ قال: «جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي رأيت فيما يرىٰ النَّائم كأنِّي أُصلِّي خلف شجرةٍ، فقرأت السَّجدة فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشَّجرة لِسُجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللَّهمَّ اكْتُب لِي بها عندَكَ أجرًا، واجعلْها لي عندك ذُخرًا، وَضَعْ عني بها وِزْرًا، واقبلها مني كما قَبِلْتها من عبدِكَ داودَ».

قال ابن عبَّاس: «فرأيت النَّبيَّ ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجدٌ كما حكىٰ الرَّجل من كلام الشجرة»[8].

رواه التِّرمذي عن قتيبة، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلَّاد، كلاهما عن محمَّد بن يزيد بن خُنيس نحوه، وقال الترمذي: غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال البخاري عند تفسيرها أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله. حدَّثنا محمَّد بن عبيد الطَّنافِسي، عن العوَّام قال: سألت مجاهدًا عن سجدة «ص»؟ فقال: سألت ابن عبَّاس: مِنْ أينَ سَجَدْتَ؟ فقال: أَوَ مَا تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ [الأنعام:٨٤]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، فكان داود ﵇ مِمَّن أُمِرَ نبيكُم ﷺ أن يَقْتَدِي به، فسجدها داودُ ﵇، فسجدها رسول الله ﷺ[9].

---

(١) كذا في (ز)، وهو الصواب، ووقع في بعض النسخ: «عمرو بن ذر».
(٢) لوحة (٥٠/ ب).
(٣) صحيح: رواه النسائي (٢/ ١٥٩). (٤) في (ز): «وإسناده رجالهم».
(٥) في (ز) وأكثر المطبوعات: «المدرجي»، والمثبت هو الصواب موافقًا لما في «تهذيب الكمال» (٦/ ٣١٤)، وراجع شيوخ الحافظ المِزِّي في ترجمته بمقدمة «تهذيب الكمال» وغيره من المصارد.
(٦) في (ز): (الكنجروذي). (٧) سقط من (ز).
(٨) حسن: رواه التِّرمذي (٥٧٩) (٣٤٢٤)، وابن ماجه (١٠٥٣)، وفيه محمَّد بن يزيد، وشيخه الحسن بن محمَّد كلاهما مقبول، والحديث حسَّنه الشَّيخ الألبانيُّ لطرُقِهِ وشواهده. انظر: «الصحيحة» (٢٧١٠).
(٩) البخاري (٤٨٠٧)، وأحمد (١/ ٣٦٠).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا يزيد بن زُرَيْع، حدَّثنا حميد، حدَّثنا بَكْرٌ -هو ابن عبد الله المُزَني- أنَّه أخبره أنَّ أبا سعيدٍ الخُدْري رأىٰ رُؤيا أنَّه يكتب «ص»، فلمَّا بلغ إلىٰ التي يُسجد بها رأىٰ الدَّواةَ والقَلَمَ وكلَّ شيءٍ بحضرته انقلب ساجدًا، قال: فقَصَّهَا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرَّد به الإمام أحمد(١).

وقال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن(٢) صالح، حدَّثنا ابْنُ وَهْبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عِيَاض بن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، عن أبي سعيد الخُدري ﷺ قال: «قرأ رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر «ص»، فلمَّا بلغ السجدة نزل فسَجَدَ وسجد النَّاس معه، فلمَّا كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السَّجدة تَشَزَّنَ(٣) النَّاس للسُّجود، فقال: «**إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ**(٤)». فنزل وسجد [وسجدوا](٥)». تفرَّد به أبو داود، وإسناده علىٰ شرط الصَّحيح(٦).

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقُربةً يقرِّبه اللهُ ﷻ بها وحُسنَ مرجع، وهو: الدَّرجات العاليات في الجنَّة؛ لتوبتِهِ وعدله التَّامِّ في ملكه، كما جاءَ في «الصَّحيح»: «**المُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ -وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ- الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(٧).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، حدَّثنا فُضيل، عن عَطِية، عن أبي سعيدٍ الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا: إِمَامٌ جَائِرٌ**»(٨). ورواه التِّرمذي من حديث فضيل -وهو ابن مرزوق الأغرُّ- عن عطيَّة به، وقال: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا عبد الله بن أبي زياد، حدَّثنا سَيَّار، حدَّثنا جعفر بن سليمان: سمعتُ مالكَ بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾، قال: يُقَام داود يوم القيامة عند ساق العَرْشِ، ثم يقولُ: يا داودُ مَجِّدْني اليوم بذلك الصَّوت الحَسَن الرَّخيم الَّذِي كُنتَ تُمجِّدُني به في الدُّنيا، فيقول: وكيف وقد سُلِبْتُهُ؟ فيقول: إنِّي أَرُدُّه عليك اليوم، قال: فيرفعُ داود بصوتٍ يَسْتَفرغُ نَعِيم أهل الجنان(٩).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٧٨).   (٢) لوحة (٥١/ أ).

(٣) التَّشَزُّن: التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له.

(٤) في (ز): «نشرتم»، والمثبت موافق لما في «سنن أبي داود»، والتشزُّن: التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له.

(٥) سقط من (ز)، وهو المثبت عند «أبي داود».   (٦) **صحيح**: رواه أبو داود (١٤١٠).

(٧) رواه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٨/ ٢٢١)، وأحمد (٢/ ١٦٠).

(٨) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٢٢)، والتِّرمذي (١٣٢٩)، وفيه عطيَّة العَوْفي، وهو شيعيٌّ مدلِّس.

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٤٨) موقوفًا علىٰ مالك بن دينار، ولا يَصِحُّ مثل هذه الأخبار إلَّا بسندها الصَّحيح إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ (١) فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

هذه وصيةٌ من الله ﷻ لولاة الأمور، أن يحكموا بين النَّاس(٢) [بالحقِّ](٣) المُنَزَّل من عنده تبارك وتعالىٰ، ولا يَعْدِلُوا عنه فيضلوا عن سبيلِهِ، وقد توعَّدَ اللهُ تعالىٰ مَنْ ضَلَّ عن سبيله، وتناسَىٰ يوم الحساب، بالوَعِيد الأكيد والعذاب الشَّديد.

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هِشَام بن خالد، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا مَرْوان بن جناح، حدَّثني إبراهيم أبو زرعة -وكان قد قرأ الكتاب- أنَّ الوليد بن عبد الملك قال له: أَيُحَاسَبُ الخَلِيفَةُ؛ فإنَّك قد قرأتَ الكتابَ الأوَّلَ، وقرأتَ القرآنَ وَفَقُهْتَ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمانٍ. قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم علىٰ الله أو داود؟ إن الله ﷻ جمع له النبوَّة والخلافة ثم تَوَعَّده في كتابه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾، هذا مِنَ المُقدَّم والمُؤخَّر، لهم عذابٌ شديدٌ يوم الحساب بما نسوا.

وقال السُّدِّي: لهم عذابٌ شديدٌ بما تَركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أَمْشَىٰ علىٰ ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه ما خلق الخلق عبثًا، وإنَّما خلقهم ليعبدوه ويُوَحِّدُوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيبُ المُطِيعَ ويعذِّبُ الكافر، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الَّذِين لا يرون بعثًا ولا مَعَادًا، وإنَّما يعتقدون هذه الدَّار فقط، ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ويلٌ لهم يومَ مَعَادِهِم ونُشُورِهِم مِنَ النَّار المُعدَّة لهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّه مِن عدلِهِ وحِكمتِهِ لا يُساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري ﷾: لا يقال: يا خليفة الله إلا لرسوله، أما من عدا الرسول فإن الخليفة منهم هو خليفة لمن قبله وليس خليفة لله تعالىٰ، والصحابة قالوا لأبي بكر: خليفة رسول الله ﷺ.

(٢) لوحة (٥١/ ب). (٣) سقط من (ز).

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، أي: لا نفعلُ ذلك ولا يَسْتَوُون(١) عند الله، وإذا كان الأمرُ كذلك فلابدَّ مِن دَارٍ أُخرىٰ يُثَاب فيها هذا المطيع ويعاقَبُ فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدلُّ العُقول السَّليمة والفِطَرَ المُستقيمة علىٰ أنَّه لابدَّ مِن مَعَادٍ وجزاءٍ؛ فإنَّا نرىٰ الظَّالم الباغي يزداد مالُهُ وولدُهُ ونعيمُهُ ويموت كذلك، ونرىٰ المُطيعَ المظلومَ يموت بكمدِهِ، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الَّذي لا يظلم مثقال ذرَّةٍ من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدَّار، فتعيَّن [أنَّ هناك](٢) دارًا أخرىٰ لهذا الجزاء والمواساة، ولما كان القرآن يُرشد إلىٰ المقاصد الصَّحيحة والمآخذ العَقْليَّة الصَّريحة، قال:﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: ذَوُو العُقول، وهي: الألباب، جمع لُبٍّ، وهو العقل.

قال الحسنُ البصري: والله ما تَدَبُّرُهُ بحفظِ حروفِهِ وإضاعَةِ حدودِهِ، حتىٰ إنَّ أحدهم ليقول: قرأتُ القرآن [كلَّه](٣)، ما يُرَىٰ له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عَمَلٍ. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ(٤) ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا أنَّه وهب لداود سليمان؛ أي: نبيًّا؛ كما قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، أي: في النُّبوَّة، وإلا فقد كان له بَنُونَ غيره؛ فإنَّه قد كان عنده مائةُ امرأةٍ حرائرُ.

وقوله﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثناء علىٰ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنَّه كثير الطَّاعة والعبادة والإنابة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمود بن خالد، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا ابن جابر، حدَّثنا مَكْحُول قال: «لما وَهَبَ اللهُ لداود سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قال له: يا بُنَيَّ ما أَحْسَنُ؟ قال: سَكِينةُ الله وإيمان. قال: فما أَقْبَحُ؟ قال: كُفْرٌ بعد إيمانٍ. قال: فما أَحْلَىٰ؟ قال: رَوْحُ الله بين عِبَاده. قال: فما أَبْرَدُ؟ قال:

---

(١) لوحة (٥٢/ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) ليست في (ز).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: إثبات أن الشمس هي التي تدور علىٰ الأرض في طلوعها وغروبها؛ لأنه أضاف الفعل إليها فقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ولو كان الأمر كما يقول أهل الجغرافيا اليوم: إن الأرض هي التي تدور وتحتجب الشمس بسبب دورانها لقال: حتىٰ توارينا بحجاب، أو حتىٰ توارىٰ بالحجاب؛ لأنه إذا كنت أنت الذي تدور، ومقابلك ثابت، فالذي يتوارىٰ هو الدائر.

فإذا كان الله تعالىٰ أثبت أن التواري للشمس، دل هذا علىٰ أنها هي التي تدور، وهذا كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، وهذه أربعة أفعال أضيفت كلها إلىٰ الشمس.

وفي الصحيح عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان مع النبي ﷺ حين غربت الشمس، قال له: «**أتدري أين تذهب؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تسجد تحت العرش، فتستأذن، فإن أذن لها وإلا قيل: فارجعي من حيث جئت، فتخرج من مغربها**» هذا هو ظاهر القرآن.

عَفْو الله عَنِ النَّاس، وعفو النَّاسِ بعضِهِم عن بعض. قال داود عليه السلام: فأنتَ نبيٌّ»[١].

وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، أي: إذ عُرِضَ علىٰ سُليمان في حَال مَمْلكته وسُلطانه الخيل[٢] الصَّافنات.

قال مجاهد: وهي التي تَقِفُ علىٰ ثلاث وطَرَفِ حَافِرِ الرَّابعة، والجياد: السِّراع، وكذا قال غير واحدٍ من السَّلف.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا مُؤمَّلٌ، حدَّثنا سُفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التَّيْمي في قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، قال: كانت عشرين فرسًا ذاتَ أجنحةٍ. كذا رواه ابن جرير[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زرعة، حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، حدَّثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شَغَلَتْ سُليمان عليه السلام عشرين ألف فرسٍ، فعقَرَها. وهذا أشبه، والله أعلم[٤].

وقال أبو داود: حدَّثنا مُحمَّد بن عَوْف، حدَّثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيىٰ بن أيوب، حدَّثني عُمَارة ابن غَزِيَّة: أن محمَّد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ من غزوة تبوك -أو خَيْبر- وفي سَهْوَتِها[٥] سِتْر، فهبت الرِّيحُ فكشفت ناحية السِّتر عن بنات لعائشة - لُعَب- فقال: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» قالت: بناتي، ورأىٰ بينهنَّ فرسًا له جناحان، مِن رقاع[٦] فقال: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَىٰ وَسْطَهُنَّ؟» قالت: فَرَس، قال: «وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قالت: جناحان، قال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟!»، [قالت:][٧] أما سمعت أنَّ لسليمانَ خيلًا[٨] لها أجنحةٌ؟ قالت: فضحك حتىٰ رأيتُ نواجذه ﷺ[٩].

وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، ذكر غيرُ واحدٍ مِن السَّلف والمفسِّرين أنَّه اشتغل بعرضها حتىٰ فات وقت صلاةِ العصر، والَّذِي يُقْطَعُ به أنه لم يَتركها عَمْدًا، بل نسيانًا، كما شُغِلَ النَّبيُّ ﷺ يومَ الخَنْدق عن صلاة العصر حتَّىٰ صلَّاها بعد الغُروب، وذلك ثابت في «الصحيحين» من غير وجهٍ، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشَّمسُ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٤٩) موقوفًا علىٰ مكحول، ومثل ذلك لا يصح إلا بسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٢) لوحة (٥٢/ ب).

(٣) رواه الطبري (٢٣/ ١٥٤) موقوفًا علىٰ إبراهيم التيمي.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٥٣) موقوفًا علىٰ إبراهيم التيمي، ولم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فلا يعتمد عليه في ثبوت الأخبار.

(٥) السَّهْوَة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلًا، شبيه بالمخدع والخزانة، وقيل: هو كالصفة تكون بين يدي البيت، وقيل: شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء.

(٦) أي: جلد.

(٧) سقط من (ز).

(٨) في (ز): (خيلٌ).

(٩) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٣٢).

فجعل يسب كفَّار قريشٍ، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدتُ أصلِّي العصر حتىٰ كادت الشمسُ تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ مَا صَلَّيْتُهَا»، فقال: فَقُمْنَا إلىٰ بُطْحَانَ(١)، فتوضَّأ للصَّلاة وتوضَّأنا لها(٢)، فصلىٰ العصرَ بعد ما غربت الشَّمسُ، ثم صلىٰ بعدها المغرب(٣).

ويحتمل أنَّه كان سَائغًا في مِلَّتِهِم تأخيرُ الصَّلاة لعُذرِ الغَزْوِ والقتال، والخيل تُراد للقِتَال، وقد ادَّعىٰ طائفةٌ(٤) من العُلَمَاء أنَّ هذا كان مشروعًا فنُسِخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلىٰ ذَٰلِكَ في حال المُسايَفَةِ والمُضَايقَةِ، حيث لا يمكن صلاةٌ ولا ركوعٌ ولا سجودٌ، كما فعل الصَّحابة ﷺ في فتح تُسْتَر، وهو منقولٌ عن مكحول، والأوزاعي وغيرهما، والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قال الحسن البصري: قال: لَا والله لا تشغليني عَن عِبَادة ربِّي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعُقِرَت. وكذا قال قتادة.

وقال السُّدِّي: ضرب أعنَاقَها وعراقيبها بالسُّيوف(٥).

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: جعل يمسح أَعْرافَ الخيل، وعراقيبها حُبًّا لها، وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنَّه لم يكن ليُعَذِّبَ حيوانًا بالعَرْقَبَة ويهلكَ مالًا مِن ماله بلا سببٍ سوىٰ أنَّه اشتغل عن صلاته بالنَّظر إليها ولا ذَنْبَ لها، وهذا الَّذِي رَجَّح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنَّه قد يكون في شَرْعهم جواز مثل هذا، ولا سِيَّما إذا كان غضبًا لله ﷻ بسبب أنَّه اشتغل بها حتَّىٰ خرج وقت الصَّلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالىٰ عوَّضه الله تعالىٰ ما هو خَيْرٌ منها، وهي: الرِّيح التي تجري بأمره رخاءً حيثُ أصاب، غدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ، فهذا أسرعُ وخيرٌ من الخيل.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال عن أبي قتادة، وأبي الدَّهْمَاء -وكانا يُكْثِرَان السَّفَر نحو البيت- قالا: أتينا علىٰ رجُلٍ من أهل البادية، فقال البَدَويُّ: أخذ بيدي رسولُ اللهِ ﷺ فجعلَ يُعلمني مِمَّا علَّمه الله تعالىٰ، وقال: «إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ ﷻ إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ»(٦).

---

(١) بُطْحَان: وَادٍ بالمدينة. (٢) لوحة (٥٣/ أ).

(٣) البخاري (٢٩٦)، ومسلم (٦٣١). (٤) في (ز): «ادَّعىٰ هذا طائفة».

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: قد يقول قائل: أليس في هذا تعذيب للحيوان إذا جعل يضرب سُوقَهُ بالسيف؟! فيقال: بلىٰ، ولكن الظاهر أنه يعقِرُها أولًا، ثم يقطع عنها ثانيًا، وهذا لا بأس به؛ لأن الألم لا يدوم.
وإنما خص السُّوقَ بالضرب؛ لأنها صافِنَاتٌ، والصافنة إذا رفعت حافرها بعض الشيء صار لسوقها منظر جميل، فهو متعلَّق الرغبة، ولهذا جعل يضرب السوق، وأما الأعناق فظاهر من أجل إتلافها نهائيًا.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٧٨، ٧٩) من طُرق عن سُليمان بن المغيرة به، ورجاله ثقات.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً(١) حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اختبرناهُ بأَنْ سَلَبْناه المُلْكَ مرَّة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغيرهم: يعني شيطانًا. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي: رَجَع إلىٰ مُلْكِه وسُلطانِهِ وأُبَّهتِهِ.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صَخْرًا، قاله ابن عبَّاس، وقتادة، وقيل: آصَفُ، قاله مجاهد، وقيل: آصروا، قاله مجاهد أيضًا، وقيل: حبقيق، قاله السُّدِّي، وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومُختصرة.

وقد قال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: [قال](٢): أُمِرَ سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ببناء بيت المَقْدِس، فقيل له: ابْنِهِ ولا يُسمَعُ فيه صوت حديد، فقال: فطلبَ ذلك فلم يَقْدِرْ عليه، فقيل له: إنَّ شيطانًا في البحر يقال له: «صَخْرٌ» شَبَهُ المَارِد. قال: فطلبه، وكانت عينٌ في البحر يَرِدُها في كُلِّ سَبعةِ أيَّام مرَّةً، فنزحَ ماؤها وجُعِلَ فيها خمرٌ، فجاء يوم وِرْدِه فإذا هو بالخَمْرِ فقال: إنَّكَ لشرابٌ طيِّبٌ إلا أنك تُصْبِين الحليم(٣)، وتَزِيدِين الجاهل جهلًا، قال: ثم رجع حتىٰ عطش عطشًا شديدًا ثم أتاها فقال: إنَّكِ لشرابٌ طيِّبٌ إلا أنك تُصْبِين الحليم، وتَزِيدِين الجاهل جهلًا، ثم شربها حتىٰ غَلَبت علىٰ عقله، قال: فأُرِيَ الخاتمَ أو خُتِمَ به بين كَتِفَيْهِ، فَذَلَّ، [قال:](٤) وكان مُلْكه في خاتمه، فأُتِيَ به سليمان، فقال: إنَّا قد أُمِرْنا ببناءِ هذا البيت، وقيل لنا: لا يُسمَعَنَّ فيه صَوت حديد، قال: فأتىٰ ببيضِ الهُدْهُدِ فجعلَ عليه زُجاجةً، فجاء الهدهد فدار حولها، فجَعَلَ يَرىٰ بيضَهُ ولا يقدِرُ عليه، فذهبَ فجاء بالمَاسِ فوضعه عليه فقطعها به حتىٰ أفضىٰ إلىٰ بيضه، فأخذ الماسَ فجعلوا يقطعون به الحجارة، وكان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا أراد أن يدخل الخَلاء -أو: الحمام- لم يدخل بخاتمه، فانطلق يومًا إلىٰ الحمام، وذلك الشَّيطان صَخْر معه، وذلك عند مقارَفَةٍ قارف فيه بعض نسائِهِ، قال: فدخل الحمام وأعطىٰ الشَّيطان خاتمه فألقاه في البحر، فالتقمته سمكةٌ، ونُزِعَ مُلْكُ سليمان منه، وأُلْقِيَ علىٰ الشَّيطان شَبَهُ سليمان، قال: فجاء فقعدَ علىٰ كُرسيِّه وسريره(٥)، وسُلِّط علىٰ مُلك سليمان كُلِّه غير نسائه، قال: فجعل يقضِي بينهم، وجعلوا يُنكرون منه أشياء، [حتىٰ قالوا: لقد فُتِنَ نبيُّ الله](٦)، وكان فيهم رجلٌ يشبهونه بعُمر بن الخطاب في

---

(١) لوحة (٥٣/ ب). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) أي: تجعلينه يفعل فعل أهل اللهو والجهل.
(٥) لوحة (٥٤/ أ). (٦) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

القوة، فقال: والله لأُجرِّبَنَّه، قال: فقال: يا نبيَّ الله -وهو لا يَرىٰ إلا أنَّه نبيُّ الله- أحدُنا تُصِيبه الجَنَابة في اللَّيلة الباردة، فيدعُ الغُسْلَ عمدًا حتىٰ تَطْلُع الشَّمس، أترىٰ عليه بأسًا؟ فقال: لا، قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلةً حتىٰ وجد نبيُّ الله خاتمه في بَطْنِ سَمَكةٍ، فأقبل فجعل لا يَسْتقبله جِنِّيٌّ ولا طيرٌ إلا سجد له، حتىٰ انتهىٰ إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال: هو الشَّيطان صَخْرٌ[١] .

وقال السُّدِّي: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال: [جَلَس الشَّيطانُ][٢] علىٰ كُرسيِّه أربعين يومًا. قال: وكان لسليمان عليه السلام مائةُ امرأةٍ، وكانت امرأةٌ منهن يقال لها: «جرادة»، وهي آثَرُ نسائِهِ وآمَنهنَّ عنده، وكان إذا أجنب أو أتىٰ حاجةً نزع خاتمه ولم يَأْتَمِنْ عليه أحدًا من النَّاس غيرها، فأعطاها يومًا خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورتِهِ فقال: هاتِي الخاتم، فأعطته، فجاء حتىٰ جلس علىٰ مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد [ذلك][٣] فسألها أن تُعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قَبْلُ؟ قال: لا، وخرج مكانه تائهًا، قال: ومكثَ الشَّيطانُ يحكم بين النَّاس أربعين يومًا، قال: فأنكر النَّاس أحكامه، فاجتمع قُرَّاءُ بني إسرائيل وعلماؤهم، فجاءوا حتىٰ دخلوا علىٰ نسائِهِ، فقالوا: إنَّا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عَقْلُهُ وأنكرنا أحكامه، قال: فبكىٰ النِّساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتىٰ أَتَوْا فأحدَقُوا به ثم نشروا فقرءُوا التَّوراة، قال: فطار مِن بين أيديهم حتىٰ وقع علىٰ شُرفَةٍ والخاتم معه، ثمَّ طار حتىٰ ذهب إلىٰ البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حُوتٌ مِن حيتان البحر، قال: وأقبلَ سليمان في حاله التي كان فيها، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ صيَّادٍ من صيادي البحر وهو جائعٌ وقد اشتدَّ جوعه، فاستطعمهم[٤] من صيدهم، وقال: إنِّي أنا سليمان، فقام إليه بعضهم بعصًا فضربَهُ فشجَّه، فجعل يغسل دمه وهو علىٰ شاطئ البحر، فلَامَ الصَّيَّادون صاحبهم الذي ضربه، فقالوا: بئس ما صنعت حيث ضربته، قال: إنَّه زعم أنَّه سليمان، قال: فأعطَوْه سمكتين مما قد مَذِرَ[٥] عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضَّرْب حتىٰ قام[٦] إلىٰ شطِّ البحر، فشقَّ بطونهما فجعل يغسل [دمَه][٧] ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما فأخذَهُ فلَبِسَهُ، فردَّ الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطَّير حتىٰ حامت عليه، فعرف القوم أنَّه سليمان عليه السلام، فقام القوم يعتذِرُونَ مما صنعوا [به][٨] ، فقال: ما أَحْمَدُكُم علىٰ عُذْرِكُم، ولا أَلُومُكُم علىٰ مَا كَانَ مِنكم، كان هذا الأمرُ لا بُدَّ مِنه، قال: فجاءَ حتىٰ [أتىٰ][٩] ملكه، وأرسل إلىٰ الشَّيطان، فجيء به، فأمر به فَجُعِلَ في صُندوقٍ من حديدٍ، ثم أطبق عليه وقفل عليه بقُفْلٍ وخَتَم عليه بخاتمه، ثم أَمَرَ به فأُلْقِيَ في البحر، فهو فيه حتىٰ تقومَ

---

(١) رواه الطبري (٢٣/ ١٥٧) وإسناده ضعيف، وعلَّته الإعضال، والأشبه أنَّه من الإسرائيليَّات.

(٢) في (ز): «الشيطان جلس». (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): «فاستطعمه».

(٥) أي: فسد وتلف. (٦) لوحة (٥٤/ ب). (٧) ليست في (ز).

(٨) ليست في (ز). (٩) سقط من (ز).

السَّاعة، وكان اسمُهُ: حبقيق، قال: وسخر له الرِّيح، ولم تكن سُخِّرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [(١)].

وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مُجاهد قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال: شيطانًا يقال له: آصَفُ. فقال له سُليمان: كيف تفتنون النَّاس؟ قال: أرِني خاتَمَكَ أُخبرك، فلمَّا أعطاهُ إيَّاه[(٢)] نبذه آصَفُ في البحر، فسَاحَ سليمان وذهب ملكه، وقعد آصفُ علىٰ كرسيِّه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربْهنَّ ولم يقربْنَه وأنكرنه، قال: فكان سليمان يستطعم فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني أنا سليمان، فيُكذِّبُونه، حتىٰ أعطتْهُ امرأةٌ يومًا حُوتًا فجعلَ يطيب بطنه، فوجدَ خاتمه في بطنه، فرجع إليه مُلكه، وفَرَّ آصَفُ فدخل البحر فارًّا[(٣)].

وهذه كُلها من الإسرائيليات[(٤)(٥)]، ومِنْ أنْكَرِهَا ما قاله ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن العلاء، وعثمان بن أبي شيبة، وعلي بن محمَّد. قالوا: حدَّثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعْمَش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطىٰ الجَرَادَةَ [خاتمه][(٦)] -وكانت الجرادة امرأته، وكانت أحبَّ نسائه إليه- فجاء الشَّيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي، فأعطته [إيَّاه][(٧)]، فلما لَبِسَه دَانَتْ له الإنسُ والجنُّ والشَّياطين، فلمَّا خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتَمِي. قالت: [قد][(٨)] أعطيته سليمانَ. [قال: أنا سليمان. قالت:][(٩)] كَذَبْتَ، لستَ سليمان، فجعل لا يأتي أحدًا يقول له: «أنا سُليمان» إلا كذَّبه، حتي جعل الصِّبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأىٰ ذلك عَرَفَ أنَّه مِن أَمْر الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: وقام الشَّيطان يحكم بين النَّاس، فلمَّا[(١٠)] أراد الله أن يَرُدَّ علىٰ سليمان سلطانه ألقىٰ في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، قال: فأرسلوا إلىٰ نساءِ سليمان فقالوا لهن: أتُنكرن من سليمان شيئًا؟ قُلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّضٌ، وما كان يأتينا قبل ذلك، فلمَّا رأىٰ الشَّيطان أنَّه قد فُطِنَ له ظنَّ أن أمره قد انقطع، فكتبوا كُتبًا فيها سحرٌ وكفرٌ، فدفنوها تحت كُرسيِّ سليمان، ثم أثَارُوها وقرءوها علىٰ النَّاس. وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان علىٰ الناس [ويغلبهم][(١١)]، فأكفر النَّاسُ سليمانَ

---

(١) رواه الطبري (٢٣/ ١٥٨) وإسناده ضعيف كسابقه وهو كذلك من الإسرائيليات.

(٢) في (ز): «فلما أعطاه سليمان».

(٣) إسناده معضل كسابقه، وهو من الإسرائيليَّات كذلك.

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: أما ما ذكر في هذا الموضع من الإسرائيليات؛ فإنها إسرائيليات كاذبة لا تليق بمقام النبوة، ولكن الإسرائيليون أتوا بها لأنهم لا يعتقدون أن داود وسليمان رسولان، بل يعتقدون أنهما ملكان، والملك يجوز عليه كل شيء.

(٥) ينظر: كتاب «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للدكتور/ محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٢٦٢ وما بعدها).

(٦) في (ز): «فأعطىٰ الجرادة امرأته». (٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز).

(٩) سقط من (ز). (١٠) لوحة (٥٥/ أ). (١١) ليست في (ز).

عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يزالوا يُكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخَاتَمِ فطرحه في البحر، فتلَقَّتْهُ سمكةٌ فأخذته، وكان سليمان يحمل علىٰ شطِّ البحر بالأجرِ، فجاء رجلٌ فاشترىٰ سمكًا فيه تلك السَّمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سُليمانَ فقال: تَحْمِلُ لِي هذا السَّمك؟ فقال: نعم. قال: بِكَم؟ قال: بسمَكَةٍ مِن هذا السمك، قال: فحمل سُليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّمك، ثم انطلق به إلىٰ منزلِهِ فلمَّا انتهىٰ الرَّجُل إلىٰ بابه أعطاه تلكَ السَّمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشقَّ بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلَبِسَه. قال: فلما لبسه دَانَت له الجنُّ والإنس والشياطين، وعاد إلىٰ حالِهِ، وَهَرب الشَّيطانُ حتىٰ دخل جزيرةً من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطانًا مَرِيدًا، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتىٰ وجدوه يومًا نائمًا، فجاءوا فبنوا عليه بُنيانًا من رصاصٍ، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثب في مكانٍ من البيت إلا انماط[(١)] معه من الرصاص، قال: فأخذوه فأَوْثَقُوه وجاءوا به إلىٰ سليمان، فأمر به فنقر له تَخْتٌ مِن رُخام، ثم أُدْخِلَ في جوفِهِ، ثم سُدَّ بالنحاس، ثم أمر به فَطُرِحَ في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: يعني الشيطان الذي كان سُلِّطَ عليه[(٢)].

إسناده إلىٰ ابن عبَّاسٍ قويٌّ، ولكن الظاهر أنه مما تلقاه ابن عبَّاس -إن صحَّ عنه- من أهل الكتاب، وفيهم طائفةٌ لا يعتقدون نبوَّة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالظَّاهر أنهم يَكْذِبُون عليه؛ ولهذا كان في هذا السِّياق مُنكراتٌ من أشدِّها ذِكْرُ النِّساء؛ فإنَّ المشهور أنَّ ذلك الجِنِّيَّ لم يُسلَّطْ علىٰ نساء سليمان، بل عَصَمَهُنَّ اللهُ منه تشريفًا وتكريمًا لنبيِّه ﷺ[(٣)]، وقد رُوِيَت هذه القِصَّة مُطوَّلة عن جماعةٍ من[(٤)] السَّلف، كسعيد بن المُسَيّب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقَّاة من قصص أهل الكِتَاب،

---

(١) أي: تنحىٰ وبعد.

(٢) رواه ابن أبي حاتمٍ (١٨٣٥٥)، وهو مرويٌّ عن ابن عبَّاس، ومن المعلوم أنَّه أُخِذَ من كُتُبِ بني إسرائيل؛ لذا لا يَصِحُّ الخبرُ، خاصَّة وأنَّ فيه منكراتٍ لا تتناسب مع مقام النُّبوَّة، وانظر ما قاله ابن كثيرٍ تعليقًا عليه.

(٣) ذكر العلامة المفسر محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ أن فتنة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت في تركه قولَ: «إن شاء الله»، حين أراد الطواف علىٰ زوجاته، كما في «الصحيحين»، ثم قال: «فإذا علمتَ هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بَيَّنَ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا...﴾ الآية. أن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول: «إن شاء الله»، وأنه لم يَلِدْ من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان، وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي أُلْقِيَ علىٰ كرسيه بعد موته في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا...﴾ الآية. فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ...﴾ الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس علىٰ كرسي سليمان، وطرد سليمان عن ملكه، حتىٰ وجد في بطن السمكة... لا يخفىٰ أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهو من الإسرائيليات التي لا يخفىٰ أنها باطلة». «أضواء البيان»: (٤/ ١٠١) ط عالم الفوائد، وقال أيضًا عن تلك الروايات: «يوضح بطلانه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر]، واعتراف الشيطان بذلك في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]. «أضواء البيان» (٧/ ٣٧)، وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للدكتور/ محمد أبو شُهْبة (ص٢٦٢-٢٦٧)، و«التفسير الثمين».

(٤) لوحة (٥٥/ ب).

والله أعلم بالصواب.

وقال يحيىٰ بن أبي [عمرو السَّيْبَاني:][(١)] وَجَد سليمان خاتمه في عَسْقَلَان، فمشىٰ في خِرْقَةٍ إلىٰ بيت المَقْدِس تَواضُعًا لله ﷻ، رواه ابن أبي حاتم.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم، عن كَعْبِ الأَحْبَار [في صِفَة كُرسي سُليمان ﷺ خَبَرًا عجيبًا، فقال: حدَّثنا أبي رَحِمَهُ اللهُ، حدَّثنا أبو صالح كاتب اللَّيث، أخبرني أبو إسحاق المصري، عن كَعْب الأحبار][(٢)]، أنه لما فرغ من حديث إِرَم ذات العماد، قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أَخْبِرْني عن كرسي سليمانَ بن داود وما كان عليه؛ ومِن أيِّ شيءٍ هو؟ فقال: كان كرسيُّ سليمان من أنياب الفِيلَةِ مُفَصَّصًا بالدُّرِّ والياقوت، والزَّبرجد، واللُّؤلؤ. وقد جُعِلَ [له][(٣)] درجة منها مُفَصَّصة بالدُّرِّ والياقوت والزَّبرجد، ثم أمر بالكرسي فحُفَّ مِن جانبيه بالنَّخل، نخل من ذهب، شَمَارِيخُهَا من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ، وجُعِل علىٰ رءوس النَّخل [التي عن يمين الكرسي طَوَاوِيسٌ مِن ذهب، ثم جعل علىٰ رءُوسِ النَّخل التي علىٰ يسار الكرسي نسورٌ من ذهبٍ مقابلة الطَّواويس، وجعل علىٰ يمين الدَّرجة الأولىٰ شجرتا صَنَوْبَرٍ من ذهب، وعن يسارها أَسَدَانِ مِن ذهب، وعلىٰ رءوس الأسدين عمودان من زبرجد][(٤)]، وجعل من جانبي الكرسي شجرتا كَرْمٍ مِن ذهبٍ، قد أظلَّتا الكرسي، وجعل عناقيدهما درًّا وياقوتًا أحمر، ثم جُعل فوق دَرَجِ الكرسي أَسَدَان عظيمان من ذهبٍ مجوَّفان محشوان مسكًا وعنبرًا، فإذا أراد سليمان أن يصعد علىٰ كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعَنْبرِ حول كرسي سليمان ﷺ، ثم يُوضع منبران مِن ذهبٍ، واحدٍ لخليفته والآخر لرئيس أحبار بني إسرائيل ذلك الزَّمان، ثم يوضع أمام كرسيِّه سبعون منبرًا من ذهب يقعد عليها سبعون قاضيًا من بني إسرائيل وعلمائهم وأهل الشَّرف منهم والطَّوْل، ومِن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرًا من ذهبٍ ليس عليها أحدٌ، فإذا أراد أن يصعد علىٰ كرسيه وضع قدميه علىٰ الدَّرجة السفلىٰ فاستدار الكرسي كله بما فِيهِ وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنىٰ وينشر النِّسر جناحه الأيسر ثم يصعد [سليمان][(٥)] علىٰ الدَّرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرىٰ وينشر النِّسر جناحه الأيمن، فإذا استوىٰ سليمان علىٰ الدَّرَجَةِ الثالثة وقعد علىٰ الكرسي، أخذ نسرٌ من تلك النسور عظيم تاج [سليمان][(٦)] فوضعه علىٰ رأسه، [فإذا وضعه علىٰ رأسه][(٧)] استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحىٰ

(١) في (ز): «وقال يحيىٰ بن أبي عروبة الشيباني» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، و«يحيىٰ بن أبي عمرو السيباني» بالسِّين المهملة، نسبةً إلىٰ «سيبان»، وهو بطن من حِمْيَر، وراجع «الأنساب» للسمعاني (٧/ ٢١٤).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) ليست في (ز).

(٦) سقط من (ز).

(٧) سقط من (ز).

المسرعة، فقال [معاوية ﵁:][1] وما الَّذي يديره يا أبا إسحاق[2]؟ قال: تِنِّينٌ مِن ذهب، ذلك الكرسي عليهِ وهو عظيمٌ ممَّا عمله صخر الجني، فإذا أحسَّت بدورانه تلك النُّسور والأُسْدُ والطَّواويس التي في أسفلِ الكرسي دُرْنَ إلىٰ أعلاه، فإذا وقف وقفن كلُّهن مُنكساتٍ رءوسهنَّ علىٰ رأس سليمان [بن داود][3] ﵇ وهو جالسٌ، ثم يَنْضحن جميعًا ما في أجوافهنَّ مِن المِسْك والعنبر علىٰ رأس سليمان ﷺ، ثم تتناول حمامةٌ من ذهبٍ واقفة علىٰ عمودٍ مِن جوهر التَّوراة فتجعلها في يده، فيقرؤها سليمان علىٰ النَّاس[4]. وذكر تمام الخبر وهو غريبٌ جدًّا.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحدٍ مِن بعدي؛ أي: لا يصلح لأحدٍ أن يسلُبَنِيه كما كان مِن قضيَّة الجسد الَّذي أُلقِي علىٰ كرسيِّه لا أنَّه يحجر علىٰ مَن بعده من النَّاس. والصَّحيح: أنَّه سأل من الله تعالىٰ ملكًا لا يكون لأحدٍ مِن بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السِّياق من الآية، وبِهِ وردت الأحاديث الصَّحيحة من طُرقٍ عن رسول الله ﷺ.

قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا رَوْحٌ ومحمَّد بن جعفر، عن شُعبة، عن محمَّد بن زياد، عن أبي هريرة ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ** -أو كلمة نحوها- **لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾**»[5].

قال رَوْح: فَرَدَّه خاسئًا.

وكذا رواه مسلم، والنَّسائي، من حديث شعبة به.

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا محمَّد بن سلمة المُرَادي، حدَّثنا عبد الله بن وَهْب، عن معاوية بن صالح، حدَّثني ربيعة بن يَزيد[6]، عن أبي إدريس الخَوْلاني، عن أبي الدَّرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلِّي فسمعناه يقول: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ**». ثم قال: «**أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ**» [-ثلاثًا-][7]، وبسط يَدَهُ كأنَّه يتناول شيئًا، فلما فَرَغَ مِن الصَّلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصَّلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال[8]: «**إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ** -ثلاث مرات- **ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ. فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ، لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ صِبْيَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ**»[9].

---

(١) في (ز): «فقال إسحق». (٢) لوحة (٥٦/ أ). (٣) ليست في (ز).

(٤) روايات كعب الأحبار أخبارٌ مِن كتب بني إسرائيل، وهذا مِنهَا، وفيه غرابةٌ شديدةٌ.

(٥) البخاري (٤٨٠٨)، ومسلم (٥٤١)، والنسائي. (٦) في (ز): «ربيعة بن زيد»، وهو خطأ.

(٧) سقط من (ز). (٨) لوحة (٥٦/ ب). (٩) مسلم (٥٤٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا مَسَرَّة بن مَعْبدٍ، حدَّثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائمًا يُصلي، فذهبت أَمُرُّ بين يديه فَرَدَّني، ثمَّ قال: حدَّثني أبو سعيدٍ الخُدْري، أن رسول الله ﷺ قام يُصلي صَلاة الصُّبح وهو خلفه، فقرأ فالتبستْ عليه القِرَاءة، فلمَّا فرغ مِن صلاته قال: «لَوْ رَأَيْتُمُونِي وَإِبْلِيسَ، فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ -الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا- وَلَوْلا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مَرْبُوطًا بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، يَتَلاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ المَدِينَةِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ»(١).

[وقد روىٰ أبو داود منه: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ»](٢).

عن أحمد بن أبي سُرَيج، عن أبي أحمد الزبيري به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا معاوية بن عمرو، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد الفَزَاري، حدَّثنا الأوزاعي، حدَّثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الدَّيْلَمي قال: دخلت علىٰ عبد الله بن عمرو، وهو في حائطٍ له بالطَّائف يقال له: «الوَهْطُ»، وهو مُخَاصر فتىً مِن قريشٍ يُزَنُّ(٣) بشُرْب الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه «مَنْ شَرِبَ شَرْبَةَ خَمْرٍ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ ﷻ لَهُ تَوْبَةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَإِنَّهُ مَنْ أَتَىٰ بَيْتَ المَقْدِسِ لا يَنْهَزُهُ(٤) إِلَّا الصَّلاةُ فِيهِ، خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، فلما سمع الفتىٰ ذكر الخَمْرِ اجتذب يدَهُ مِن يده ثم انطلق، فقال عبد الله بن عمرو: إنِّي لا أحل لأحدٍ أن يقول عَلَيَّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ شَرِبَ مِنَ الخَمْرِ شَرْبَةً لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ [فَإِنْ عَادَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ. فَإِنْ عَادَ](٥) -قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة- فَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدْغَةِ الخَبَالِ(٦) يَوْمَ القِيَامَةِ» قال: وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ(٧) فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَىٰ وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ ﷻ» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ سُلَيْمَانَ سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ ثَلاثًا فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا الثَّالِثَةُ: سَأَلَهُ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ مُلْكًا لا يَنْبَغِي

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٨٢)، ورجاله ثقات، عدا مسرة وهو صدوق.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). والحديث رواه أبو داود (٦٩٩) وإسناده حسن.

(٣) أي: يتهم، زَنَّه بكذا وأَزَنَّه: اتهمه وظنه فيه.

(٤) النَّهز: الدفع، يريد أنه لم ينو بخروجه غير الصلاة فيه.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط مِن (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) **ردغة الخبال:** عصارة أهل النار.

(٧) لوحة (٥٧/ أ).

لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ أَيُّمَا رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي هَذَا المَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَعْطَانَا إِيَّاهَا»(١).

وقد روىٰ هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي، وابن ماجه من طرقٍ، عن عبد الله بن فيروز الدَّيْلَمي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا بَنَىٰ بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ رَبَّهُ ﷻ خِلالًا ثَلاثًا...». وذكره(٢).

وقد رُوي من حديث رافع بن عمير رضي الله عنه بإسنادٍ وسياقٍ غريبين؛ فقال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن قُتَيْبَة العَسْقَلاني، حدَّثنا محمَّد بن أيوب بن سُوَيْد، حدَّثني أبي، حدَّثنا إبراهيم بن أبي عَبْلَة عن أبي الزَّاهِرِيَّة عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ ﷻ لِدَاوُدَ عليه السلام: ابْنِ لِي بَيْتًا فِي الأَرْضِ. فَبَنَىٰ دَاودُ بَيْتًا لِنَفْسِهِ قَبْلَ البَيْتِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: يَا دَاوُدُ نَصَبْتَ بَيْتَكَ قَبْلَ بَيْتِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ هَكَذَا قَضَيْتَ: مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، ثُمَّ أَخَذَ فِي بِنَاءِ المَسْجِدِ، فَلَمَّا تَمَّ السُّورُ سَقَطَ ثَلاثًا، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ فَقَالَ: يَا دَاوُدُ إِنَّكَ لا تَصْلُحُ أَنْ تَبْنِيَ لِي بَيْتًا قَالَ: وَلِمَ يَا رَبِّ؟ قَالَ: لِمَا جَرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْكَ مِنَ الدِّمَاءِ. قَالَ: يَا رَبِّ أَوَ مَا كَانَ ذَلِكَ فِي هَوَاكَ وَمَحَبَّتِكَ؟ قَالَ: بَلَىٰ وَلَكِنَّهُمْ عِبَادِي وَأَنَا أَرْحَمُهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: لا تَحْزَنْ فَإِنِّي سَأَقْضِي بِنَاءَهُ عَلَىٰ يَدَي ابْنِكَ سُلَيْمَانَ. فَلَمَّا مَاتَ دَاوُدُ أَخَذَ سُلَيْمَانُ فِي بِنَائِهِ فَلَمَّا تَمَّ قَرَّبَ القَرَابِينَ وَذَبَحَ الذَّبَائِحَ وَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: قَدْ أَرَىٰ سُرُورَكَ بِبُنْيَانِ بَيْتِي فَسَلْنِي أُعْطِكَ، قَالَ: أَسْأَلُكَ ثَلاثَ خِصَالٍ: حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَكَ، وَمُلْكًا لا يَنْبَغِي(٣) لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَمَنْ أَتَىٰ هَذَا البَيْتَ لا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا ثِنْتَانِ فَقَدْ أُعْطِيَهُمَا، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أُعْطِيَ الثَّالِثَةَ»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا عُمَر بن راشد اليمامي، حدَّثنا إياس بن سلمة بن الأَكْوَع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا [دعاءً](٥) إلا استفتحه بـ«سُبْحَانَ رَبِّيَ(٦) الأَعْلَىٰ العَلِيِّ الوَهَّابِ»(٧).

وقد قال أبو عبيد: حدَّثنا علي بن ثابتٍ، عن جعفر بن بُرْقان عن صالح بن مِسْمار قال: لما مات

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٧٦).

(٢) صحيح: رواه النَّسائي (٨/ ٣١٧)، وابن ماجه (٣٣٧٧) وأحمد (٢/ ١٧٦).

(٣) لوحة (٥٧/ ب).

(٤) موضوع: رواه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٢٤)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٣٠٠)، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٠٠)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٨): فيه محمَّد بن أيوب الرَّمْلي، وهو متهم بالوضع.

(٥) ليست في (ز)، والذي في «المسند»: «ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يستفتح دُعَاء إلا استفتحه...».

(٦) كذا في (ز)، وهو موافق للمسند، وفي بعض النُّسخ: «سُبْحَانَ اللهِ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ العَلِيِّ الوَهَّابِ».

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٥٤)، وفيه عمر بن راشد اليمامي: ضعيف.

نبيُّ الله داودُ أوحىٰ الله إلىٰ ابنه سليمان عليهما السَّلام: أن سَلْنِي حاجتك. قال: أسألك أن تجعلَ لي قلبًا يخشاك كما كان قلبُ أَبِي وأن تجعل قلبِي يُحبُّك كما كان قلب أبي، فقال الله: أرسلتُ إلىٰ عبدي وسألته[1] حاجته فكانت [حاجته][2]، أن أجعل قلبه يخشاني وأن أجعل قلبه يحبني لأَهَبَنَّ له ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ والتي بعدها، قال: فأعطاه الله ما أعطاهُ وفي الآخرة لا حساب عليه[3]. هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في «تاريخه».

ورُوِي عن بعض السَّلف أنَّه قال: بلغني عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: «إلهي كُن لسليمان كما كُنْتَ لي»، فأوحىٰ الله إليه: «أن قُل لسليمان: يكون لي كما كُنتَ لي، أكون له كما كنتُ لك».

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، قال الحَسَن البَصْري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما عقَرَ سُليمانُ الخيل غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ، عوَّضهُ اللهُ ما هو خير منها وأسرع؛ الرِّيح [التي][4] غُدُوُّها شَهْر ورَوَاحها شَهْر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيثُ أرادَ مِنَ البلاد.

وقوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: منهم مَن هو مُستعملٌ في الأبنية الهائلة من مَحَاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجَوَاب وقُدُورٍ راسياتٍ، إلىٰ غيرِ ذلك من الأعمال الشَّاقَّة التي لا يقدر عليها البشرُ، وطائفةٌ غوَّاصون في البحار يستخرجون ممَّا فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النَّفيسة التي لا تُوجَد إلا فيها[5] ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: مُوثَّقُون في الأغلال والأكبال ممن قد تَمَرَّد وعصىٰ وامتنَعَ من العمل وأبَىٰ، أو قد أساءَ في صنيعه واعتدىٰ.

وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: هذا الَّذِي أعطيناك من المُلْكِ التَّامِّ والسُّلطان الكامل كما سألتنا، فأعطِ مَن شئتَ واحْرِم مَن شئتَ، لا حساب عليك؛ أي: مهما فعلتَ فهو جائزٌ لك، احكم بما شئتَ فهو صوابٌ. وقد ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبدًا رسولًا -وهو الَّذِي يفعل ما يؤمر به، وإنَّما هو قاسمٌ يقسم بين الناس ما أمره الله به- وبين أن يكون ملكًا نبيًّا يعطِي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء بلا حسابٍ ولا جناحٍ، اختار المنزلة الأولىٰ بعد ما استشار جبريل فقال له: «تَوَاضَعْ»[6]، فاختار المنزلة الأولىٰ؛ لأنَّها أرفع قدرًا عند الله وأعلىٰ منزلةً في المَعَاد. وإن كانت المنزلة الثَّانية -وهي: النبوَّة مع المُلك- عظيمةً أيضًا في الدُّنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالىٰ ما

---

(١) في (ز): «أسأله». (٢) ليست في (ز).

(٣) رواه ابن عساكر (٢٢/ ٢٣٩)، والأثر موقوفٌ علىٰ صالح بن مسمار، ولا يعتمد عليه في صحَّة الخبر؛ لأنَّه لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٥٨/ أ).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٢٣١)، ونسبته إلىٰ الصحيحين وهمٌ.

أعطىٰ سليمان في الدنيا نبَّه علىٰ أنَّه ذو حظٍّ عظيمٍ عند الله يوم القيامة أيضًا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي: في الدار الآخرة[(١)].

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾

يذكر تعالىٰ عبده ورسوله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان ابتلاهُ تعالىٰ بِهِ مِن الضُّرِّ فِي جسده وماله وولدِهِ، حتَّىٰ لم يبقَ مِن جسدِهِ مَغْرِزُ إبرةٍ سليمًا سوىٰ قلبِهِ، ولم يبقَ له من حالِ الدُّنيا شيءٌ يستعينُ به علىٰ مرضِهِ وما هو فيه غير أن زوجَتَهُ حفظت ودَّه؛ لإيمانها بالله ورسوله فكانت تخدُمُ النَّاس بالأُجْرَةِ وتطعمُهُ وتخدمُهُ نحوًا من ثمانيَ عشْرَةَ سنةً، و قد كان قبل ذلك في مالٍ جزيلٍ وأولادٍ وسعةٍ طائلةٍ مِن الدُّنيا فَسُلِبَ جميعَ ذلك حتىٰ آل به الحال إلىٰ أن أُلقِيَ علىٰ مزبلةٍ من مزابل البلدة هذه المدةَ بكمالها ورفضه القريب والبعيد سوىٰ زوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(٢)]، فإنَّها كانت لا تفارِقُه صباحًا [ولا][(٣)] مساءً إلا بسبب

---

(١) **قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:** فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام... منها: أن من أكبر نعم الله علىٰ عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحُكم والفَصْل بين الناس، كما امتن الله به علىٰ عبده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ...
ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول علىٰ الحكام وغيرهم، فإن الخَصْمين لما دخلا علىٰ داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فَزِع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.
ومنها: أنه لا يَمنع الحاكم من الحكم بالحق سوءُ أدبِ الخَصْم وفعلُهُ ما لا ينبغي.
ومنها: كمال حلم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.
ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو باغ علي ... ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم علىٰ بعض، وأنه لا يردُّ عن ذلك إلا استعمالُ تقوىٰ الله، والصبرُ علىٰ الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس... ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوىٰ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

(٢) سبق التعليق علىٰ مثل هذه الإسرائيليات عند الآية (٨٣) من سورة الأنبياء، وبيان أن غاية ما دلَّ عليه القرآن والروايات الصحيحة أن الله تعالىٰ ابتلىٰ نبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بمرض لم يذكر نوعه، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكرم من أن يتركهم يُرموا علىٰ المزابل، ويتقزز الناس منهم، والأنبياء إنما يبعثون من خيار أقوامهم وعشائرهم، فأين كانت عشيرته فتواريه وتطعمه، بدل أن تخدم امرأته الناس، بل وتبيع ضفائرها لتطعمه، وأين كان أتباعه الذين آمنوا به؟! فإن هذه الأمور مما تنفر الناس ممن ابتلي بذلك، فكيف يؤمنون به ويتبعونه وهو كذلك؟! اهـ باختصار وتصرف من «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للدكتور محمد أبو شهبة. فانظره من (ص٢٦٧-٢٧٤)، و«أضواء البيان» للشنقيطي: (٤/ ٨٥٢).

(٣) ليست في (ز).

خدمة النَّاس ثم تعود إليه قريبًا(١). فلما طال المطال واشتد الحال وانتهىٰ القَدَرُ المقدور وتم الأجَلُ المقدَّر تضرَّع إلىٰ ربِّ العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وفي هذه الآية الكريمة قال: ربِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾، قيل: بنُصْب في بدني وعذابٍ في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقومَ مِن مقامِهِ وأن يركض الأرض برجله، ففعل فأنبع الله عينًا وأمره أن يَغتَسِلَ منها فأذهب جميعَ ما كان في بدنه من الأذىٰ، ثم أَمَرَهُ فضَرَبَ الأرض في مكانٍ آخر فأنبع له عينًا أخرىٰ وأمره أن يَشْرَب منها فأذهبت ما كان في باطنه من السُّوء، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾.

قال ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعًا: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ ﷺ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ -وَاللهِ- لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ، فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّىٰ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَىٰ الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ ﷻ فَأَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللهَ إِلَّا فِي حَقٍّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَىٰ حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا وَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَيُّوبَ ﷺ أَنِ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ، فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرُ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ البَلَاءِ، وَهُوَ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَىٰ؟ فَوَاللهِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ(٢)، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ(٣)، أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ، وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ أَنْدَرِ القَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّىٰ فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الأُخْرَىٰ فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّىٰ فَاضَ». هذا لفظ ابن جرير ﷺ(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَرٌ عن همام بن مُنَبِّهٍ قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْثُو فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَىٰ؟! قَالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ وَلَكِنْ لا غِنَىٰ بِي عَنْ بَرَكَتِكَ». انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرزاق به(٥).

---

(١) لوحة (٥٨/ ب). (٢) لوحة (٥٩/ أ).
(٣) الأَنْدَر: بيت كبير يجمع فيه الطعام ويكدس.
(٤) صحيح: رواه الطبري (٢٣/ ١٦٧).
(٥) البخاري (٢٧٨)، وأحمد (٢/ ٣١٤).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالىٰ له بأعيانهم وزادهُ مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به علىٰ صَبْرِهِ وثباته وإنابتِهِ وتواضعِهِ واستكانَتِهِ، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: لذوي العقول؛ ليعلموا أن عاقبةَ الصَّبر الفرجُ والمخرجُ والرَّاحةُ.

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب علىٰ زوجتِهِ ووجد عليها في أمرٍ فعلته، قيل: [إنَّها][1] باعت ضَفِيرَتَها بخُبز فأطعمته [إيَّاه][2]، فلامها علىٰ ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنَّها مائةَ جلدةٍ، وقيل: لغير ذلك من الأسبابِ، فلما شفاه الله وعافَاه ما كان جزاؤها، مع هذه الخدمة التَّامَّةِ، والرَّحمة، والشَّفقة، والإحسانِ، أن تقابل بالضَّرْبِ فأفتاه الله عز وجل أنْ يأخذ ضِغثًا -وهو: الشِّمراخ- فيه مائة قضيبٍ فيضرِبُها به ضربةً واحدةً، وقد برَّتْ يمينه وخرج من حِنْثِهِ ووفَّىٰ بنَذْرِهِ، وهذا من الفَرَجِ والمخْرَجِ لمن اتَّقىٰ الله وأناب إليه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أثنىٰ الله تعالىٰ عليه ومدحه بأنَّه ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: رَجَّاعٌ منيبٌ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدلَّ كثيرٌ مِن الفقهاء بهذه الآية الكريمة علىٰ مسائل في الأيمان وغيرها، وأخذوها بمقتضاها، [ومنعَتْ طائفةٌ أخرىٰ من الفُقهَاء من ذلك، وقالوا: لم يَثْبُتْ أنَّ الكفَّارة كانت مشروعةً في شَرْعِ أيوب عليه السلام، فلذلكَ رخَّص له في ذلك، وقد أغنىٰ اللهُ هذه الأمَّة بالكفَّارة][3].

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ[4] أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، يعني بذلك: العملَ الصَّالحَ والعلمَ النَّافعَ والقوَّةَ في العبادةِ والبصيرةَ النافذَةَ.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى﴾ يقول: أُولِي القوَّة والعبادة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يقول: الفِقْه في الدِّين.

وقال مُجاهد: ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى﴾ يعني: القوَّة في طاعةِ الله، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني: البَصَرَ في الحقِّ.

وقال قتادة والسُّدِّي: أُعطُوا قوَّةً في العبادة وبَصَرًا فِي الدِّين.

---

(١) ليست في (ز).
(٢) سقط من (ز).
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (٥٩/ ب).

وقوله: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي جعلْنَاهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌّ غيرَهَا، وكذا قال السُّدِّي: ذكرهم للآخِرَة وعملهم لها.

وقال مالكُ بنُ دِينَار: نزعَ اللهُ مِن قلوبهم حبَّ الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحُبِّ الآخرة وذِكْرِهَا. وكذا قال عطاء الخُرَاساني.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يعني بالدَّار: الجنَّة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال في رواية أُخرىٰ: ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ عُقبىٰ الدَّار.

وقال قتادة: كانوا يُذَكِّرُونَ النَّاسَ الدَّارَ الآخرةَ والعملَ لها.

وقال ابن زيد: جعل لهم خاصَّة أفضلَ شيءٍ في الدَّار الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي: لمن المخْتارِين المجْتَبَيْنَ الأخيار، فهم أخيار مختارُونَ.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، قد تقدَّم الكلام علىٰ قصصهم وأخبارهم مستقصاةً في سورة «الأنبياء» بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾، أي: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، وقال السُّدِّي: يعني القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٤٩) جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ (٥١) ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾

يخبر تعالىٰ عن عباده المؤمنين السُّعَدَاء، أنَّ لهم في [الدَّار][1] الآخرة ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾، وهو: المَرْجع والمُنقلب، ثم فسَّره بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي: جنَّات[2] إقامةٍ ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾.

والألف واللام هنا بمعنىٰ الإضافة، كأنَّه يقول: «مُفتَّحة لهم أبوابها»، أي: إذا جاءوها فُتِحَتْ لهم أبوابها.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن [ثواب][3] الهَبَّاري، حدَّثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدَّثنا عبد الله بن مسلم -يعني: ابن هُرْمُز- عن ابن سَابط، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ قَصْرًا يُقَالُ لَهُ: عَدْنٌ، حَوْلَهُ البُرُوجُ وَالمُرُوجُ، لَهُ خَمْسَةُ آلافِ بَابٍ، عِنْدَ كُلِّ بَابٍ خَمْسَةُ آلافِ حِبَرَةٍ[4]، لَا يَدْخُلُهُ[5] -أو: لَا يَسْكُنُهُ- إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ أَوْ إِمَامٌ عَدْلٌ**».

وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوهٍ عديدةٍ[6].

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٦٠/ أ).

(٣) بياض في (ز)!!. (٤) في (ز): «خمسة آلا حبرة».

(٥) **الحِبَرَة** - بزنة عنبة -: حلة يمنية.

(٦) **ضعيف**: فيه عبد الله بن هرمز: ضعيف، رواه البزار (١٥٩١-كشف)، وضعَّفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٦)
=

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، قيل: مُتربِّعين فيها علىٰ سررٍ تحت الحِجَال(١)، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾.

أي: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا، ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: مِن أيِّ أنواعِهِ شاءُوا أتتهم به الخدَّام، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: عن غير أزواجهنَّ، فلا يَلْتَفِتْنَ إلىٰ غير بُعولَتِهِنَّ، ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: متساويَاتٌ في السِّنِّ والعُمُرِ. هذا معنىٰ قول ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمَّد بن كعب، والسُّدِّي.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الَّذِي ذكرنا مِن صفة الجنة التي وعدها لعباده المتَّقِين، التي يَصِيرُون إليها بعد نُشورِهِم وقيامِهِم من قبورِهِم وسلامَتِهِم من النَّار.

ثم أخبر عن الجنَّة أنَّه لا فراغ لها ولا انقضاءَ، ولا زوالَ، ولا انتهاءَ، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]، أي: غير مقطوعٍ، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، والآيات في هذا كثيرةٌ جدًّا.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ مآلَ السُّعَدَاء ثَنَّىٰ بذكر حال(٢) الأشقياء ومرجِعِهِم ومآبِهِم في دار مَعَادِهِم وحسابهم، فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ -وهم: الخارجون عَن طاعةِ الله، المخالِفُون لرُسُلِ الله- ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: لسوءَ منقلبٍ ومرجعٍ، ثم فسَّره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها فتَغْمُرُهُم

= بسبب عبد الله بن هرمز.

ورواه الطبري (١٦/ ٤٢٤-شاكر) موقوفًا، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر، قال: لولا ما فيه مِن جهالة عليِّ بن جريرٍ.

قلت: ولا يضر ذلك فقد تُوبِعَ؛ تابعه أسد بن موسىٰ، رواه عبد الملك بن حبيب في «وصف الفردوس» (٢٦) وعلىٰ هذا فالصحيح هو الموقوف، وعبد الله بن عمرو ممَّن أخذ من كتب أهل الكتاب فلا يقبل ما صح من روايته، والله أعلم.

(١) **الحِجَال**: جمع حَجَلة، وهي بيت كالقبة يستر بالثياب والستور للعروس، وتكون له أزرار كبار.

(٢) لوحة (٦٠/ ب).

مِن جميع جوانبهم، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، أمَّا الحَميمُ فهو: الحارُّ الَّذي قد انتهىٰ حرُّهُ، وأمَّا الغَسَّاقُ فهو ضِدُّه، وهو: البَارِدُ الَّذي لا يُستطَاع مِن شِدَّةِ بردِهِ المؤلِم، ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾، أي: وأشياء مِن هذا القبيل، الشَّيء وضِدُّه يعاقبون بها.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهيعةَ، حدَّثنا دَرّاجٌ، عن [أبي][1] الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنْيَا**»[2].

ورواه الترمذي، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج به، ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين»، كذا قال، وقد تقدَّم من غير حديثه، ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث به.

وقال كَعْب الأَحْبار: غَسَّاق: عَيْن في جهنم يَسِيل إليها حُمَةُ[3] كل ذات حُمَةٍ مِن حيَّةٍ وعَقْربٍ وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتىٰ بالآدمي فيغمس فيها غَمْسةً واحدةً، فيخرج وقد سَقَطَ جِلْدُهُ ولحمُهُ عن العظام، ويتعلَّق جلدُهُ ولحمُهُ في كعبيهِ وعقبيهِ، ويُجَرُّ لحمُهُ كما يَجُرُّ الرجل ثوبه، رواه ابن أبي حاتم[4].

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾: ألوانٌ مِن العَذَابِ.

وقال غيره: كالزَّمْهرِير، والسَّموم، وشرب الحميمِ، وأكل الزَّقُّوم، والصُّعود والهُوِيِّ، إلىٰ غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة، والجميع مما يُعذبون به، ويُهَانُون بسببه.

وقوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾، هذا إخبارٌ عن قِيلِ أهل النَّار بعضِهم لبعضٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعني: بدل السَّلام يتلاعَنُون، ويتكاذَبُون، ويَكفُرُ بعضهم ببعض، فتقول الطَّائفةُ الَّتي تدخل قبل الأخرىٰ -إذا أقبلت الَّتي بعدها مع الخزَنَة من الزَّبانِيَة-: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾، أي: داخلٌ معكم، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾، أي: لأنَّهم مِن أهل جهنم، ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي: فيقول لهم الدَّاخلون[5]: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتُمونا إلىٰ ما أفضىٰ بنا إلىٰ هذا المصير ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، أي: فبئسَ المنزل والمستقرُّ والمصير. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾، [كما قال ﷻ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ][6] قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: لكل

---

(١) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «المسند».

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٨)، والترمذي (٢٥٨٤)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، ورواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة، وضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «ضعيف الترغيب» (٢١٥٦).

(٣) **الحُمَة** -بالتخفيف-: السُّمُّ، وقد يُشدَّد. «النهاية».

(٤) عزاه لابن أبي حاتم، موقوفًا علىٰ كعب الأحبار، وهو يروي من كتب بني إسرائيل.

(٥) لوحة (٦١/ أ).

(٦) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

منكم عذابٌ بحسَبِهِ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾، هذا إخبارٌ عن الكفَّار في النَّار أنَّهم يفقدون رجالًا كانوا يعتقِدُون أنَّهم علىٰ الضَّلالة وهم المؤمِنُون في زَعْمِهِم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النَّار؟!

قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: ما لي لا أرىٰ بلالًا، وعمَّارًا، وصُهيبًا، وفلانًا، وفلانًا، وهذا مثلٌ ضُرِبَ، وإلَّا فكلُّ الكفَّار هذا حالهم؛ يعتقدُونَ أنَّ المؤمنين يدخلونَ النَّار، فلمَّا دخل الكفَّار [النَّار](١) افتقدُوهُم فلم يَجِدُوهم، فقالوا: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: في الدُّنيا، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾، يُسلُّونَ أنفسَهُم بالمُحَالِ، يقولون: أو لعلَّهم معنا في جهنَّم ولكن لم يقع بصَرُنَا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنَّهم في الدَّرجَات العَاليَات، وهو قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾، أي: إن هذا الذي أخبرْنَاك بِهِ يا محمَّد، من تخاصُم أهل النَّار بعضهم في بعضٍ، ولَعْنِ بعضهم لبعضٍ، لحقٌّ لا مِرْيَة فيهِ ولا شكَّ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله ﷺ أن يقولَ للكفَّار بالله المشركين به المكذِّبين لرسوله: إنَّما أنا منذرٌ لستُ كما تزعُمُون. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، أي: هو وحده قد قَهَر كلَّ شيءٍ وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرِّفٌ فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾، أي: غفارٌ(٢) مع عزَّتِهِ وعظمتِهِ.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: خبرٌ عظيمٌ وشأنٌ بليغٌ وهو إرسال الله إيَّايَ إليكم ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون.

قال مجاهد، وشُرَيْح القاضي، والسُّدِّي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي مِن أينَ كنتُ أدرِي باختلاف الملأ الأعلىٰ؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السُّجود له، ومُحاجته ربَّه في تفضيلِهِ عليه.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (٦١/ ب).

فأمَّا الحديثُ الذي رواهُ الإمامُ أحمدُ حيث قال: حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا جَهْضَم اليمامي، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سلام عن أبي سلام عن عبد الرحمن بن عائش عن مالك بن يَخامِر عن معاذ رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذاتَ غداةٍ عَن صلاة الصبح حتىٰ كدنا نَتَراءَىٰ قرن الشمس، فخرج [رسول الله ﷺ][1] سريعًا، فَثَوَّبَ[2] بالصَّلاة فصلَّىٰ وتَجَوَّزَ في صلاته[3]، فلما سلم قال: «كَمَا أَنْتُمْ [عَلَىٰ مَصَافِّكُمْ][4]»، ثم أقبل إلينا فقال: [«إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَدَاةَ،][5] إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّىٰ اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ -أعادها ثلاثًا- فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّىٰ لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ[6]: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: فِي الكَفَّارَاتِ، قَالَ: وَمَا الكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَىٰ الجُمُعَاتِ، وَالجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ عِنْدَ الكَرِيهَاتِ. قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً بِقَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ». وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا»[7]. فهو حديث المنام المشهور، ومَنْ جعله يَقظةً فقد غَلِطَ، وهو في السُّنَنِ مِن طُرق.

وهذا الحديث بعينه قد رواهُ الترمذيُّ، من حديث: جَهْضَم بن عبد الله اليمامي به[8]. وقال: «حسنٌ صحيح». وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور [في القرآن؛ فإن هذا][9] قد فُسِّر، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فُسِّر بعد هذا، وهو قوله تعالىٰ:

---

(١) سقط من (ز). (٢) التثويب: إقامة الصلاة.

(٣) أي: خففها وأسرع بها. (٤) سقط من (ز).

(٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): «فتلك».

(٧) رواه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، والحديث صحيح، له شواهد؛ عن ابن عبَّاس: رواه الترمذي (٣٢٣٤)، وابن أبي عاصم (٤٦٩)، وإسناده لا بأس به.
وعن عبد الرحمن بن عائش: رواه الآجُرِّي (٤٩٧)، وابن مَنْدَه في «الرَّدِّ علىٰ الجهمية» (٧٥).
وبالجملة: فالحديث صحيح، وللحافظ ابن رجب رسالة بعنوان: «اختيار الأَوْلَىٰ شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ» شرح فيه هذا الحديث، وهو جديرٌ بأن يُقْتَنَىٰ.

(٨) لوحة (٦٢/ أ).

(٩) سقط من (ز).

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

هذه القصة ذكرها الله تعالىٰ في سورة «البقرة»، وفي أول «الأعراف»، وفي سورة «الحجر»، وفي «سبحان» و«الكهف»، وهاهنا، وهي: أن الله سبحانه أَعْلَمَ الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنّه سيخلق بشرًا مِن صلصالٍ مِن حمإٍ مسنونٍ، وتقدَّم إليهم بالأمر متىٰ فَرَغَ مِن خلقه وتسويته فليسجدوا له إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وامتثالًا لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلُّهُمْ ذلك سوىٰ إبليس، ولم يكن منهم جنسًا، كان من الجنِّ فخانه طبعه وجبلَّته أحوجَ ما كانَ إليه، فاستنكف[1] عن السُّجود لآدم، وخاصم ربَّه عز وجل فيه، وادَّعىٰ أنَّه خيرٌ مِن آدم؛ فإنَّه مخلوقٌ مِن نارٍ وآدم خُلِقَ مِن طينٍ، [والنَّار خير من الطِّين][2] في زعمه!! وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله، وكفرَ بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه وطرده عن بابِ رحمتِهِ ومحلِّ أُنسِهِ وحضرةِ قُدْسِهِ، وسمَّاه: «إبليس»، إعلامًا له بأنَّه قد أَبْلَسَ[3] من الرَّحمة، وأنزله من السَّماء مذمومًا مدحورًا إلىٰ الأرض، فسأل [الله][4] النظرة إلىٰ يوم البعث، فأنظره الحَلِيمُ الذي لا يَعْجَلُ علىٰ من عصاه، فلمَّا أَمِنَ الهلاكَ إلىٰ يوم القيامة تمرَّد وطغىٰ وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنَونَ في الآية الأخرىٰ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ[5] وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قرأ ذلك جماعةٌ، منهم: مجاهد برفع «الحقُّ» الأولىٰ، وفسَّره مجاهد بأن معناه: أَنَا الحقُّ، والحقَّ أقول، وفي رواية عنه: الحقُّ منِّي، وأقول الحقَّ. وقرأ آخرون بنصبهما[6].

---

(١) في (ز): «فاستأنف». (٢) سقط من (ز). (٣) أي: يئس.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٦٢/ ب).

(٦) **متواترة**: قَرَأَ (فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَخَلَفٌ، وَقَرَأَ (فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ) الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ).

قال السُّدِّي: هو قَسَمٌ أقسمَ اللهُ به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم علىٰ هَذَا البلاغ وهذا النُّصح أجرًا تُعطُونيهِ مِن عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيد علىٰ ما أَرسَلَنِي الله به، ولا أبتغي زيادةً عليه، بل ما أُمِرْتُ به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنَّما أبتغي بذلك وجهَ اللهِ ﷻ والدار الآخرة.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضُّحىٰ، عن مَسْرُوق قال: أتينا عبد الله ابن مسعود قال: يا أَيُّها النَّاسُ، مَن عَلِم شيئًا فليقلْ بِهِ، ومَن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العِلْمِ أن يقولَ الرَّجل لما لا يعلم: اللهُ أعلم؛ فإنَّ الله قال لنَبِيِّكُمْ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه من حديث الأعمش به(١).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: القرآن ذكرٌ لجَميعِ المكلَّفِينَ من الإِنْسِ والجِنِّ، قاله ابن عبَّاس، ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي غسَّان مالك بن إسماعيل: حدَّثنا قَيْسٌ، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: الجنُّ والإنسُ.

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾، أي: خبرَه وصدقَه، ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي: عن قريبٍ، قال قتادةُ: بعد الموت، وقال عِكْرِمة: يعنِي يوم القِيامَةِ، ولا مُنافاةَ بين القَوْلَيْن؛ فإنَّ مَنْ مات فقد دخل في حُكم القِيامَةِ، وقال قتادةُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾: قال [الحَسَنُ](٢): يا ابنَ آدمَ(٣)، عند الموت يأتيك الخَبرُ اليقينُ.

آخرُ تفسير سُورة ص، ولله الحمد والمنة.

---

(١) البخاري (٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (٦٣/ أ).

سورة الزمر

تفسير سورة الزمر وهي مكية

قال النسائي: حدَّثنا محمَّد بن النضر بن مُسَاور، حدَّثنا حماد، عن مروان أبي لُبَابة، عن عائشة ﵂ قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يصوم حتىٰ نقولَ: ما يُريدُ أن يفطر، ويُفْطِر حتَّىٰ نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كلِّ ليلةٍ: بني إسرائيل والزُّمر»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4)﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّ تنزيل هذا الكتاب -وهو القرآن العظيم- مِن عنده تبارك وتعالىٰ، فهو الحقُّ الَّذِي لا مِرْيَةَ فيه ولا شَكَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾، أي: المنيعِ الجَنابِ، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعالِه، وشرعِه وقدرِه.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، أي: فاعبد الله وحدَهُ لا شريك له، وادْعُ الخلق إلىٰ ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده][2]، وأنَّه ليس له شريكٌ، ولا

---

(١) صحيح: رواه النَّسائي في «السنن» (٤/ ١٩٩)، وفي «الكبرى» (٣٦٥٦) و(١٤٤٤)، و«عمل اليوم والليلة» (٧١٢)، وروى الترمذي (٢٩٢٠) الفقرة الأخيرة منه وقال: حديث حسن غريب، وهو محل الشاهد، ورواه الحاكم (٢/ ٤٣٤) وسكت عنه، ووافقه الذَّهبي، وتوقَّف ابن خزيمة (١١٦٣) في تصحيحه بسبب أبو لبابة مروان مولى عائشة، ويقال: مولى هند بنت المُهلَّب بن أبي صُفْرة، والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٦٤)، والفقرة الأولى من الحديث ثابتة في «صحيح مسلم» (١٢٧).

(٢) ليست في (ز).

عديلٌ، ولا نديدٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أَخْلَصَ فيه العامل لله وحدَهُ لا شريك له.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. ثم أخبر تعالىٰ عن عُبَّاد الأصنام من المشركين أنَّهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أي: إنَّما يحملهم علىٰ عبادتهم لهم أنَّهم عَمَدُوا إلىٰ أصنامٍ اتَّخذوها علىٰ صورِ الملائكةِ المقرَّبين في زعمهم، فعبدوا تلك الصُّور تنزيلًا لذلك منزلة[1] عبادتهم الملائكة؛ ليَشْفَعُوا لهم عندَ الله في نصرِهم ورزقهم، وما ينوبُهُم مِن أمر الدُّنيا، فأمَّا المَعَاد فكانُوا جاحِدِينَ له كافرين به.

قال قتادة، والسُّدِّي، ومالك، عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: ليشفعوا لنا، ويُقَرِّبُونا عنده منزلةً.

ولهذا كانوا يقولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِم إذا حجُّوا في جاهليتهم: «لبَّيك لا شريك لكَ، إلَّا شريكًا هو لك، تملكُهُ ومَا مَلَكَ». وهذه الشُّبهة هي التي اعتمدها المشركون في قَدِيم الدَّهر وحديثِهِ، وجاءتهم الرُّسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- بردها والنَّهي عنها، والدَّعوة إلىٰ إفراد العبادة لله وَحْدَهُ لا شريك له، وأنَّ هذا شيءٌ اخترعه المشركون مِن عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رَضِيَ به، بل أَبْغَضَهُ ونَهىٰ عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وأخبر أنَّ الملائكة الَّتِي في السَّموات من المقرَّبين وغيرهم، كلُّهم عبيدٌ خاضِعُون لله، لا يشفعون عنده إلَّا بإذنه لمن ارْتَضَىٰ، وليسوا عنده كالأُمَرَاءِ عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إِذْنِهِم فيما أحبَّه الملوك وأَبَوْهُ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، تعالىٰ الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: سيفصل بين الخلائق يوم مَعَادهم، ويجزي كلَّ عاملٍ بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يُرْشِدُ إلىٰ الهداية مَن قَصْدُهُ الكَذِبُ والافتراءُ علىٰ الله، وقلبُهُ كَفَّارٌ يجحد بآياتِهِ [وحُجَجِه][2] وبراهينه.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّه لا ولد له كما يزعُمُه جَهَلَةُ المُشْرِكين في المَلَائِكَةِ، والمُعاندون من اليَهُودِ والنَّصارىٰ في العُزَير وعيسىٰ، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أي:

---

(١) لوحة (٦٣/ ب).
(٢) ليست في (ز).

لكانَ الأمرُ علىٰ خلافِ ما يزعُمُونَ، وهذا شرطٌ لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو مُحَالٌ، وإنَّما قُصِدَ تجهيلُهُم فيما ادَّعَوْه[1] وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، كل هذا من باب الشَّرط، ويجوز تعليقُ الشَّرط علىٰ المستحيل لقصد المتكلِّم.

وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: تعالىٰ وتنزَّه وتقدَّس عن أن يكون لَهُ ولدٌ، فإنَّه الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَّمدُ، الَّذي كل شيءٍ عبدٌ لَدَيْهِ، فقيرٌ إليه، وهو الغَنِيُّ عمَّا سواه الَّذي قد قهر الأشياء، فدَانَتْ له وذَلَّتْ وَخَضَعَتْ.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ[2] ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

يُخبر تعالىٰ أنَّه الخالق لما في السَّموات والأرض وما بين ذلك مِن الأشياء، وأنَّه مَالِك المُلْكِ المتصرِّف فيه، يُقلِّب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، أي: سَخَّرهما يجريان مُتَعَاقِبَين لا يَقِرَّان، كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، كقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤]، هذا معنىٰ ما رُوِي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلىٰ مُدَّةٍ معلومةٍ عند الله، ثم تَنْقَضِي يوم القيامة. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ أي: مع عزَّته وعظمته وكبريائِهِ هو غفَّارٌ لمن عصاه ثم تابَ وأنابَ إليه.

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: خلقكم مع اختلَافِ أجناسكم وأصنافكم وأَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ مِن نفسٍ واحدةٍ، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهي حواء عليهما السلام، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: وخلق لكم مِن ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣]، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤].

---

(١) لوحة (٦٤/ أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد هذه الآية: أن أصل البشرية من آدم، وليس كما يقال: إن أصلها قرد ثم تطور، لقوله ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقد بيَّن سبحانه وتعالىٰ كيف خلق هذه النفس في مواضع من القرآن.

وقوله(١): ﴿يَخْلُقُكُمْ(٢) فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: [قدركم](٣) في بطون أُمهاتكم، ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: يكون أحدكم أولًا نطفةً، ثم يكون علقةً، ثم يكون مضغةً، ثم يُخْلَقُ فيكون لحمًا وعظمًا وعصبًا وعروقًا، ويُنْفَخُ فيه الروح فيصير خَلقًا آخر، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المَشِيمة -التي هي كالغِشَاوة والوقاية علىٰ الولد- وظلمة البطن، كذا قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي، وابن(٤) زيد، [وغيرهم](٥).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾أي: هذا الذي خلق السَّموات والأرض وما بينهما [وخلقكم](٦) وخلق آباءكم، هو الرَّبُّ له المُلْكُ والتَّصرُّفُ في جميع ذلك، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيفَ تعبدُونَ معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولِكُم؟!.

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نفسه تعالىٰ: أنَّه الغني عمَّا سواه من المخلوقات، كما قال موسىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

وفي «صحيح مسلم»: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»(٧).

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، أي: لا يحبه ولا يأمُرُ به، ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكُم ويزدْكُم مِن فَضْلِهِ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفسٌ عَن نفسٍ [شيئًا](٨)، بل كلُّ مطالَبٌ بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: فلا تخفىٰ عليه خافيةٌ.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: عندَ الحاجة يضرعُ ويستغيثُ(٩) بالله وحده

---

(١) لوحة (٦٤/ ب). (٢) في (ز): «يذرؤكم». وهو خطأ.
(٣) في (ز): «أي: يخلقكم». (٤) في (ز): «وأبو زيد». وهو خطأ.
(٥) ليست في (ز). (٦) سقط من (ز).
(٧) مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجة (٤٢٥٧).
(٨) سقط من (ز). (٩) لوحة (٦٥/ أ).

لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرَّفاهية ينسىٰ ذلك الدعاء والتَّضرُّع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس:١٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: في حال العافية يُشْرِكُ بالله ويَجْعَلُ له أندادًا. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، أي: قل لمن هذه حالُهُ وطَرِيقَتُه ومسلكه: تمتَّع بِكُفْرِكَ قليلًا، وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا[(١)] يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: أمَّن هذه صفته، كمَن أشرك بالله وجعَلَ له أندادًا؟ لا يستَوُون عند الله، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال هاهنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾، أي: في حالِ سجودِهِ وفي حالِ قيامِهِ؛ ولهذا استدلَّ بهذه الآية مَن ذهب إلىٰ أنَّ القنوت هو الخشوع في الصَّلاة، ليس هو القِيَام وحدَهُ، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثَّوْريُّ، عن فِراس، عن الشَّعْبي، عن مَسْروق، عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: القَانِتُ: المطيعُ لله ولرسُولِهِ[(٢)].

وقال ابن عبَّاس، والحسن، والسُّدِّي، وابن زيد: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف اللَّيل.

وقال الثوري، عن منصور: بَلَغَنَا أنَّ ذلك بين المَغْرِبِ والعِشَاءِ.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: في حال عبادتِهِ خائفٌ راجٍ، ولا بدَّ في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مُدَّة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ[(٣)]﴾، فإذا

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: نص علىٰ السجود والقيام دون القعود والركوع؛ لأن السجود شريف بهيئته، والقيام شريف بذكره. فأفضل هيئة للمصلي أن يكون ساجدًا، ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، والقيام شريف بذكره، وما هو ذكره؟ القرآن كلام الله، وكلام الله تعالىٰ أشرف كلام.

(٢) صحيح: رواه الطبري (١٧/ ٣١٧)، وابن أبي حاتم (٢٣٧٨)، والحاكم (٣/ ٣٠٥)، والطبراني في «معجمه» (١٠/ ٦٠/ ٩٩٤٨)، ورواه الحاكم كذلك (٢/ ٣٩٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) لوحة (٦٥/ ب).

كان عند الاحتضار فليكن الرَّجَاءُ هو الغالب [عليه][(١)]، كما قال الإمام عبد بن حُميد في «مسنده»:

حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الحميد، حدَّثنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ علىٰ رجل وهو في الموت، فقال له: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ ﷻ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ الَّذِي يَخَافُهُ»[(٢)].

ورواه التِّرمذي، والنسائي في «اليوم والليلة»، وابن ماجة، من حديث سَيَّارِ بن حاتم، عن جعفر بن سُليمان به، وقال الترمذيُّ: «غريبٌ[(٣)]، وقد رواهُ بعضُهم عن ثابت، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ مرسلًا».

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا عمر بن شَبَّة، عن عبيدة النُّمَيْري، حدَّثنا أبو خَلَف عبد الله[(٤)] بن عيسىٰ الخزَّاز[(٥)]، حدَّثنا يحيىٰ البَكَّاء، أنَّه سَمِعَ ابن عمر قرأ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان ﵁[(٦)].

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان باللَّيل وقراءته، حتىٰ إنَّه ربَّما قرأ القُرْآن في ركعةٍ، كما روىٰ[(٧)] ذلك أبو عبيدة عنه ﵁، وقال الشاعر:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وقُرْآنًا[(٨)]

وقال الإمامُ أحمدُ: كتب إليَّ الربيعُ بن نافع: حدَّثنا الهيثمُ بن حُميد، عن زَيد بن وَاقد، عن سليمان بن موسىٰ، عن كثير بن مرَّة، عن تميم الدَّاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ»[(٩)].

وكذا رواه النَّسائي في «اليوم والليلة»، عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف، والرَّبيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد به.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٩٨٣)، والنسائي في «اليوم والليلة» (١٠٦٢)، وابن ماجة (٤٢٦١)، وقال الترمذي: حسن غريب، وكل من سيار بن حاتم وجعفر بن سليمان: صدوق.

(٣) هكذا ذكره ابن كثير، وهو موافق لطبعة إحياء التراث، وورد في طبعة دار الغرب الإسلامي بتحقيق بشار عواد: «حسن غريب».

(٤) في (ز): «حدَّثنا أبو خلف بن عبد الله»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٥) في (ز): «الخراز»، وهو خطأ.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٧٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلى ابن المنذر وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٦) وابن عساكر، وفيه يحيى البكاء، وعبد الله بن عيسى كلاهما ضعيف كما في «التقريب».

(٧) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٤٥٣) وإسناده صحيح.

(٨) **الأشمط**: الأبيض، يعني: ذبحوا رجلًا أشيب كما تذبح الضحية، **عنوان السجود**: أي: في وجهه علامة الصلاة، **وقرآنًا**: أي قراءة.

(٩) **إسناده لا بأس به**: رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٧١٧) ورجاله ثقات عدا سليمان بن موسى ففيه كلامٌ يسيرٌ وهو لا ينزل حديثه عن التَّحسين، قال الحافظ: صدوق فقيه في حديثه بعض لين وخولط قبل موته بقليل. والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: هل يستوي هذا، والَّذي قبله ممَّن جعل لله أندادًا ليُضِلَّ عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنَّما يعلمُ الفرقَ بيْنَ هذا وهذا مَنْ له لُبٌّ، وهو العقل.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ[1] رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار علىٰ طاعتِهِ وتقواهُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞ﴾، أي: لمن أحسنَ العملَ في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجِرُوا فيها، وجَاهِدُوا، واعتزِلُوا الأوثَان.

وقال شَريك، عن منصور، عن عطاء في قوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، قال: إذَا دُعِيتُم إلىٰ المعصِيَةِ فاهْرُبُوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ قال الأوْزَاعِي: ليسَ يُوزَنُ لهُم ولا يُكَالُ، إنَّما يُغْرَفُ لهم غَرْفًا.

وقال ابن جريج: بلغني أنَّه لا يُحْسَبُ عليهم ثوابُ عملهم قطُّ، ولكن يُزَادُون علىٰ ذلك.

وقال السُّدِّي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ يعني: في الجنَّة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: [إنما][2] أُمِرْتُ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال السُّدِّي: يعني مِن أمَّته ﷺ.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ[3] ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد، وأنت رسول الله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ﴾، وهو يوم القيامَةِ، وهذا شَرْطٌ، ومعناه: التَّعريض بغيره بطريق الأولىٰ والأَحْرىٰ، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصٗا لَّهُۥ دِينِي

---

(١) لوحة (٦٦/ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله: ذهب بعضهم إلى أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] ولا معنى لهذا النسخ إذ النسخ لا يكون في الأخبار. وإنما الآية من باب الفرض والتقدير إذ الرسول معصوم ولا يعصي وإذًا لا خوف عليه وإنما من باب طلب الهداية للآخرين قال له قل هذا.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، وهذا أيضًا تهديدٌ وتبرٌّ منهم، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: إنَّما الخاسرون كل الخُسْرَان[1] ﴿الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التِقَاءَ لهم أبدًا، سواءٌ ذَهَبَ أهلُوهُم إلىٰ الجنَّة وقد[2] ذهبوا هُمْ إلىٰ النَّار، أو أنَّ الجميعَ أُسكنوا النَّار، ولكن لا اجتمَاع لهم ولا سُرُورَ، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو الخَسَار البَيِّن الظَّاهر الواضح.

ثم وصف حالهم في النَّار فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١]، وقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي: إنما يَقُصُّ خبر هذا الكائن لا محالَة ليخوف به عبادَهُ، لِيَنْزَجِرُوا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي: اخْشَوْا بَأْسِي وسَطْوَتِي، وعذابي ونِقْمَتِي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ[3] أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

قال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذر، وسلمانَ الفارسيِّ[4].

والصَّحيحُ أنَّها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأَوْثَان، وأنَابَ إلىٰ عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الَّذِين لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: يفهمونه ويَعْمَلُون بما فيه، كقوله تعالىٰ لموسىٰ حين آتاه التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥].

﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المُتَّصِفُون بهذه الصِّفة هم الَّذِين هداهم الله في الدُّنيا والآخرة،

---

(١) في (ز): «إنما الخاسرون كل الخاسرون». (٢) لوحة (٦٦/ ب).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ما المراد بالقول هنا؟ القول الحسن، أما اللغو والسيئ، فإن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]، فإذا كانوا يعرضون عن اللغو؛ لأنه لا فائدة فيه، فالمحرم من باب أولىٰ، إذن هؤلاء القوم عندهم حزم عندهم شح في الوقت، لا يستمعون إلا إلىٰ القول الحسن، لكنا نعلم أن الحسن فيه ما هو أحسن وما هو حسن، فما الذي يتبعون؟ يقول الله تعالىٰ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]، فمثلًا إذا سمعوا الترغيب في صلاة الليل، وأن أكثرها -مثلًا- إحدىٰ عشرة ركعة، وأدناها ركعة واحدة ما الذي يتبعون؟ الإحدىٰ عشرة؛ لأنها أحسن، إذا سمعوا الإنفاق في طلب العلم، والإنفاق علىٰ فقير دون وجود ضرورة ماذا يتبعون؟ علىٰ طلب العلم؛ لأنهم يتبعون الأحسن، إذن لم يفرطوا في الوقت، ولم يفرطوا في الأفضل، بل كانوا يستمعون كل قول حسن، ويتبعون الأحسن منه.

(٤) ضعيف جدًا: رواه الطبري (٢٣/ ١٣٢)، وإسناده مرسل، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعيف، ومنهم من تركه.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ذوُو العقول الصَّحيحة، والفِطَر المستقيمة.

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

يقول تعالىٰ: أفمَنْ كتب الله أنَّه شَقِيٌّ تَقْدِر تُنقذُه مما هو فيه من الضَّلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحدٌ من بعد الله؛ لأنَّه مَن يُضْلِل الله(١) فلا هَادِيَ له، ومَن يَهْدِهِ فلا مُضلَّ له.

ثم أخبر عن عباده السُّعداء أنَّهم لهم غُرَفٌ في الجنَّة، وهي القصور الشَّاهقة ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾؛ أي: طباقٌ فوق طباقٍ، مَبْنيَّاتٌ محكَمَاتٌ مزَخْرَفَاتٌ عاليَاتٌ.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا عبَّاد بن يعقوب الأسدي، حدَّثنا محمَّد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في الجنَّةِ لَغُرَفًا يُرَىٰ بُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، وَظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا**»، فقال أعرابيٌّ: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «**لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّىٰ [للهِ بِاللَّيْلِ](٢) وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(٣).

ورواه التِّرمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقال: «حسنٌ غريبٌ، وقد تكلَّم بعض أهل العلم فيه مِن قِبَلِ حفظِهِ».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن ابن مُعانق -أو: أبي مُعَانق- عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في الجنَّةِ لَغُرْفَةً يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّىٰ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**». تفرَّد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعري، عن أبي مالك به(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قُتَيْبَة بن سعيد، حدَّثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، عن سَهْل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أَهْلَ الجنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرْفَةَ فِي الجنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ**». قال: فحدَّثتُ بذلك النعمان بن أبي عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: «**كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ**(٥) **فِي الأُفُقِ الشَّرْقِيِّ أَوِ الغَرْبِيِّ**»(٦).

---

(١) لوحة (٦٧/ أ). (٢) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) صحيح لغيره: رواه الترمذي (٢٥٢٧)، وأحمد (١/ ١٥٦) وفيه النعمان بن سعد: لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول: يعني إذا توبع وإلا فضعيف، انظر: «تقريب التهذيب» ترجمة (٥٥٣٥)، لكن للحديث شواهد يتقوَّى بها، وهي الروايات الآتية، وتقدم الحديث والتعليق عليه في سورة التوبة عند الآية (٧٢).

(٤) حسن صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٤٣)، وعبد الرزاق (٢٠٨٨٣)، وإسناده لا بأس به، ويتقوَّى بالرِّوايات المذكورة قبلَهُ وبعده، وله شاهدٌ مِن حديث عبد الله بن عمرو بإسنادٍ حسن؛ رواه أحمد (٢/ ١٧٣).

(٥) في (ز): «الكوكب الذي»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) البخاري (٦٥٥٥) و(٦٥٥٦)، ومسلم (٢٨٣٠)، وأحمد (٥/ ٣٤٠).

أخرجاه في «الصَّحيحين»، من حديث أبي حازم، وأخرجاه أيضًا في «الصَّحيحين» من حديث مالك، عن صَفْوان بن سليم، عن عَطَاء بن يسار، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا فزارة، أخبرني فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ(٢) فِي الجَنَّةِ أَهْلَ الغُرَفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَارِبَ فِي الأُفُقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النَّبيُّون؟ فقال: «بَلَىٰ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الرُّسُلَ»(٣).

ورواه الترمذي عن سُويد، عن ابن المبارك عن فُلَيح به، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النضر وأبو كامل(٤) قالا: حدَّثنا زهير، حدَّثنا سَعْد الطائي، حدَّثنا أبو المُدِلَّة -مولىٰ أم المؤمنين- أنَّه سَمِعَ أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنَّا إذا رأيناك رقَّت قلوبنا، وكنَّا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبَتْنا الدُّنيا وشَمِمْنَا النِّساء والأولاد، قال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ عَلَىٰ الحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ بِأَكُفِّهِمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ» قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنَّة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ. ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّىٰ يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَىٰ الغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»(٥).

وروىٰ التِّرمذي، وابنُ ماجة بعضَه، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي -وكان ثقة- عن أبي المُدِلِّه -وكان ثقة- به.

---

(١) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١). (٢) لوحة (٦٧/ ب).

(٣) الترمذي (٢٢٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٩) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) في (ز): «وأبو عامر»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٥) **حسن لغيره:** رواه أحمد (٢/ ٣٠٤)، وابن حبان (٧٣٨٧)، وفيه أبو المُدِلَّة لم يرو عنه غيرُ سعدٍ الطائي وقال ابن المديني: مجهول، وقال الذهبي في «الميزان»: لا يكاد يعرف، وقال الحافظ في «التقريب»: مقبول ولكن للحديث شواهد: **فالفِقْرة الأولى:** يشهَدُ لها حديث حَنْظَلة عند «مسلم» (٢٧٥٠).

وقوله: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ...» له شاهد عند «مسلم» (٢٧٤٩).

والفقرة الثانية: في وصف الجنَّة تقدَّم، له شاهد من حديث ابن عمر، رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٩٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٩٥) وفي سنده ضعف، وله شواهد أخرى عند أبي نعيم في «صفة الجنة» (١٣٨-١٤٠).

وقوله: «مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ» له شاهد عند «مسلم» (٢٨٣٦).

والفقرة الثالثة: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ» لها شواهد تدل على صحَّتها، (الإمام العادل): رواه الطبراني (١٣١٦) بإسنادٍ حسنٍ من حديث أبي هريرة، وأمَّا (دعوة المظلوم) فله شاهد عند أحمد (٧٥١٠)، و(دعوة الصائم) فله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، رواه ابن ماجة (١٧٥٣) والطيالسي (٢٢٦٢).

وقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، أي: تسلك[1] الأنهار بين خلال ذلك، كما [شاءوا][2] وأين أرادوا، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الَّذِي ذكرناه وَعْدٌ وَعَدَهُ اللهُ عِبادَهُ المؤمنين، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن[3] ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّ أصل الماء في الأرض من السَّماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَ في الأرض، ثم يَصْرِفُه تعالىٰ في أجزاء الأرض كما يشاء[4]، ويُنبِعه عيونًا ما بين صغارٍ وكبارٍ بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا أبو قُتيبة عُتبة بن يَقْظان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ ﴾، [قال: ليس في الأرض ماءٌ إلا نزل من السَّماء، ولكن عروق في الأرض تُغيِّره، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ][5] فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فمن سَرَّه أن يعودَ المِلْحُ عذبًا فليصعده[6].

وكذا قال سعيد بن جُبير، وعامر الشعبي: أن كل ماءٍ في الأرض فأصله من السَّماء.

وقال سعيد بن جُبير: أصله من الثَّلج، يعني: أنَّ الثَّلج يتراكَمُ علىٰ الجِبَال، فيسكن في قرارها، فتَنْبُعُ العُيُونُ مِن أَسَافِلِهَا.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي: ثم يخرج بالماء النَّازل من السَّماء والنَّابع من الأرض زرعًا ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: أشكاله وطُعومه وروائِحُه ومنافِعُهُ، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي: بعد نضارتِهِ وشبابِهِ يكتهل ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، قد خالَطَهُ اليُبْسُ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: ثم يعودُ يابسًا يتحطم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي: الَّذِين يتذكَّرون بهذا فيعتبرون إلىٰ أنَّ الدُّنيا هكذا تكون خَضِرةً نَضِرَةً حسناءَ، ثم تعود عَجُوزًا شَوْهاء، والشَّابُّ يعودُ شيخًا هَرِمًا كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كلِّه الموتُ، فالسَّعيد مَن كان حالُهُ بعده إلىٰ خير، وكثيرًا ما يضرب الله تعالىٰ مثل الحياة الدُّنيا

---

(١) في (ز): «تلك». (٢) في (ز): «يشاءوا».

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من للسببية، أي تقسو قلوبهم بسبب ذكر الله، وأن المراد بذكر الله ما هو أعم من القرآن، ويكون المعنىٰ أن هؤلاء كلما ذكر الله قست قلوبهم، ووجه ذلك: أنهم لا يريدون ذكر الله، فإذا كرهوا ذكر الله قسا القلبُ عقوبةً لهم، ويدل لهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

(٤) لوحة (٦٨/ أ). (٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٨٢).

بِمَا ينزِلُ الله من السَّماء من ماءٍ، ويُنبت به زروعًا وثمارًا، ثم يكون بعد ذلك حُطامًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: هل يستوي هذا ومن هوَ قاسي القلْبِ بعيدٌ من الحق؟! كقوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلا تَلِينُ عند ذكره، ولا تخشع ولا تَعِي ولا تفهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

هذا مَدْحٌ من الله عَجَّلَ[1] لكتابه القرآن العَظِيم المنزَّل علىٰ رسوله الكريم، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، قال مجاهد: يعني: القرآن كلُّه متشابه مثاني.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف، وقال الضَّحَّاكُ: ﴿مَّثَانِىَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عَجَّلَ، وقال عكرمة، والحسن: ثنَّىٰ الله فيه القضاء، زاد الحسن: تكون السُّورة فيها آية، وفي السُّورة الأخرىٰ آيةٌ تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِىَ﴾: مُرَدَّد، رُدِّد موسىٰ في القرآن، وصالح وهود والأنبياء -عليهم السلام- في أمكنةٍ كثيرةٍ.

وقال سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس: ﴿مَّثَانِىَ﴾ قال: القرآن يُشْبِه بعضُهُ بعضًا، ويُرَدُّ بعضُهُ علىٰ بعضٍ.

وقال بعض العُلَماء: -ويُرْوىٰ عن سفيان بن عيينة- معنىٰ قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾: أنَّ سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنًىٰ واحدٍ، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذِكْرِ الشيء وضدِّه، كذِكْر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنَّة ثم صفة النَّار، وما أشبه هذا، فهذا من المَثَانِي، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، إلىٰ أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٤٩]، إلىٰ أن قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٥٥]، ونحو هذا من السِّياقات، فهذا كلُّه من المثاني؛ أي: في معنيين [اثنين][2]، وأمَّا إذا كان السياق كله في معنًىٰ واحدٍ يشبه بعضه بعضًا، فهو المتشابه، وليس هذا من المُتَشَابِه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

---

(١) لوحة (٦٨/ ب). (٢) سقط من (ز).

ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، ذاك معنىً آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبَّار، [المهيمن العزيز الغفار](١)، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتَّخويف والتَّهديد، تقشَعِرُّ منه جلودهم من الخشيةِ والخوفِ، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لِغَيْرِهم من الكفَّار من وجوه:

أحدها: أنَّ سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أُولَئِكَ نَغَماتٌ [الأبيات](٢) من أصوات القَيْنات(٣).

الثاني: أنَّهم إذا تُلِيَتْ(٤) عليهم آياتُ الرَّحمن خرُّوا سجدًا وبكيًّا بأدبٍ وخشيةٍ، ورجاءٍ ومحبةٍ، وفهمٍ وعلمٍ، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣]، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لَاهِين عنها، بل مُصْغِينَ إليها، فاهِمِينَ بَصِيرِينَ بمعَانيها؛ فلهذا إنَّما يعملون بها، ويَسْجُدُون عندها عن بصيرةٍ لا عن جهلٍ ومتابعةٍ لغيرهم، [أي: يَرَوْنَ غيرَهُم قد سجد فيَسْجُدُون تبعًا له](٥).

الثالث: أنَّهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة ﵃ عند سماعهم كلامَ اللهِ من تلاوةِ رسول الله ﷺ تَقْشَعِرُّ جلودهم، ثم تَلِينُ مع قُلُوبِهم إلىٰ ذكر الله، لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلَّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثَّبات والسُّكون، والأدب، والخشية ما لا يَلْحَقُهُم أحدٌ في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلَّىٰ في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدَّثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة ﵀: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، قال: هذا نعتُ أولياءِ الله، نعتهم الله بأن تقشعرَّ جلودهم، وتبكيَ أعينهم، وتَطْمَئِنَّ قلوبُهُم إلىٰ ذكر الله، ولم يَنْعَتْهُم بذَهَابِ عقولهم والغَشَيَانِ عليهم، إنَّما هذا في أهلِ البِدَعِ، وهذا من الشَّيطان.

وقال السُّدِّي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ [جُلُودُهُمْ](٦) وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: إلىٰ وَعْدِ الله. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: هذه صفةُ مَن هداه الله، ومَن كان علىٰ خلاف ذلك فهو ممَّن أضلَّه الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): (الآيات).
(٣) القَيْنَات: المغنيات.
(٤) ليست في (ز).
(٥) ليست في (ز).
(٦) سقطت من (ز).

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ ويُقرَّعُ فيُقال له ولأمثاله من الظالمين[١]: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، كمن يأتي آمنًا يوم القيامة؟! كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢]، وقال: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت:٤٠]، واكتفىٰ في هذه الآية بأحد القِسْمَيْنِ عن الآخر، كقول الشاعر:

فَمَـــا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْـــتُ أَرْضًـــا ... أُرِيـــدُ الخَيْـــرَ: أَيُّهُمَـــا يَلِينِـــي؟

[يعني: الخير أو الشر][٢].

وقوله: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾، يعني: القرون الماضية المكذبة للرُّسل، أهلكَهُمُ الله بذُنُوبِهم، وما كان لهم مِن الله مِن وَاقٍ.

وقوله: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ أي: بما أنزل بهم مِن العذاب والنَّكال وتَشفِّي المُؤْمِنِين بِهِم، فلْيَحْذَرِ المخاطبون مِن ذلك، فإنَّهم قد كذَّبُوا أشرفَ الرُّسل، وخاتمَ الأنبياء، والذي أعدَّه الله لهم في الآخرة من العذاب الشَّديد أعظمُ مما أصابَهُم في الدُّنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾، أي: بيَّنَّا للنَّاس فيه بضربِ الأمثال، ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، فإنَّ المثل يُقرِّب المعنىٰ إلىٰ الأذهان، كما قال تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الروم:٢٨]، أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقوله: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ ﴾ أي: هو قرآنٌ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف،

---

(١) لوحة (٦٩/ ب).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

ولا لبسَ، بل هو بيانٌ ووضوحٌ وبرهانٌ، وإنَّما جعله الله ﷻ كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يَحْذَرُون ما فيه من الوَعِيدِ، ويعمَلُون بما فِيهِ مِن الوَعْدِ.

ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: يتنَازَعُون في ذلك العبدَ المشترك[1] بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا[2] لِّرَجُلٍ﴾، أي: خالصًا لرجل، لا يملكه أحدٌ غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟! أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المُشْرِكُ الَّذِي يعبد آلهةً مع الله، والمؤمن المخلص الَّذِي لا يعبد إلَّا الله وحده لا شريك له، فأَيْنَ هذا مِن هذا؟!

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وغير واحدٍ: هذه الآية ضُرِبت مثلًا للمُشْرِكِ والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرًا بيِّنًا جليًّا، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: علىٰ إقامة الحجَّة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا يُشْرِكُون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصِّدِّيقُ ﷺ عند موت الرسول ﷺ، حتىٰ تحقق النَّاس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

ومعنىٰ هذه الآية: ستُنْقَلُون مِن هذه الدَّار لا محالة، وستجتمعون عند الله في الدَّار الآخرة، وتَخْتَصِمُون فيما أنتم فيه في الدُّنيا من التَّوحيد والشِّرك بين يدي الله ﷻ فيَفْصِلُ بينكم، ويفتح بالحقِّ وهو الفتَّاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحِّدِينَ، ويعذِّب الكافرين الجاحدين المشركين المكذِّبين.

ثم إن هذه الآية -وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة- فإنَّها شاملةٌ لكلِّ متنازعين في الدُّنيا، فإنَّه تُعادُ عليهم الخصومة في الدَّار الآخرة.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدَّثنا سفيان، عن محمَّد ابن عمرو، عن ابن حاطب -يعني يحيىٰ بن عبد الرحمن- عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أَتُكَرَّرُ علينا الخصومة؟ قال: «نَعَمْ». قال: إن الأمر إذًا لشديد[3].

وكذا رواه الإمام أحمد [عن سفيان][4]، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

---

(١) لوحة (٧٠/ أ).

(٢) في (ز): «سَالِمًا»، وهي **متواترة:** قَرَأَ (سَالِمًا) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (سَلَمًا).

(٣) **حسن:** رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٨٥).

(٤) سقط من (ز).

ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، قال الزبير: أيْ رسولَ اللهِ، أيُّ نَعيمٍ نُسأل عنه؟ وإنَّما -يعني: هما الأسودان؛ التَّمر والماء- قال: «أَمَا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ»(١).

وقد روىٰ هذه الزِّيادة الترمذي، وابن ماجة، من حديث سفيان به. وقال الترمذي: حسن.

وقال الإمام أحمد(٢) أيضًا: حدَّثنا ابن نُمير، حدَّثنا محمَّد -يعني: ابن عمرو- عن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، [عن الزبير](٣) بن العَوَّام قال: لما نزلت هذه السورة علىٰ رسول اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قال الزبير: أيْ رسولَ اللهِ، أَيُكَرَّرُ علينا ما كان بيننا في الدُّنيا من خواصِّ الذُّنوب؟ قال: «نَعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ، حَتَّىٰ يُؤَدَّىٰ [إِلَىٰ](٤) كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ». قال الزبير: والله إنَّ الأمر لشديدٌ(٥).

ورواه التِّرمذي من حديث محمَّد بن عمرو به، وقال: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا ابن لَهيعة، عن أبي عُشَّانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ الخَصْمَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ جَارَانِ»(٦). تفرَّد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثنا درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَخْتَصِمُ، حَتَّىٰ الشَّاتَانِ فِيمَا انْتَطَحَتَا» تفرد به أحمد(٧).

وفي «المسند» عن أبي ذرٍّ ﷺ [أنه](٨) قال: رأىٰ رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟»، قلت: لا، قال: «لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا»(٩).

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا سهل بن بحر، حدَّثنا حيَّان بن أَغلب، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ثابت، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِالإِمَامِ الخَائِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَتُخَاصِمُهُ الرَّعِيَّةُ فَيُفْلِجُونَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: سُدَّ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ جَهَنَّمَ»(١٠).

---

(١) حسن: رواه أحمد (١/ ١٦٤)، والترمذي (٣٢٣٦) و(٣٣٥٦)، وابن ماجة (٤١٥٨)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه أحمد شاكر (المسند ١٤٣٤)، وصحَّحه الحاكم (٢/ ٤٣٥)، والضِّياء في «المختارة» (٨٥٢).

(٢) لوحة (٧٠/ ب). (٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) حسن: رواه أحمد (١/ ١٦٧) وهو نفس الحديث السابق.

(٦) حسن صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٥١)، وفيه ابن لَهيعَة: اختلط، ولكنَّه قد تُوبِع، فرواه عمرو بن الحارث عن أبي عُشَّانة به، أخرجه الطبراني (١٧/ ٨٥٢) وإسناده جيِّد، ويرتقي بهذه الرواية إلى الصِّحَّة.

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٩)، وفيه ابن لهيعة، ودرَّاج روايته عن أبي الهيثم ضعيفة، ولكن يشهد له قوله ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ لِأَصْحَابِهَا حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ» رواه مسلم (٢٣٢٠) (٢٥٨٢).

(٨) ليست في (ز).

(٩) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٥١)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٠٣)، وانظر «الصحيحة» للألباني (١٥٨٨).

(١٠) ضعيف: رواه ابن عدي (١/ ٤٠٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٠٥): رواه البزار، وفيه أغلب بن =

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، يقول: يخاصم الصَّادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدي الضَّالَّ، والضَّعيف المستكبر[١].

وقد روىٰ ابن مَنْدَه[٢] في كتاب: «الرُّوح»، عن ابن عبَّاس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتىٰ تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أَنْتَ فَعَلْتَ. ويقول الجسد للروح: أنتَ أَمَرْتَ، وأنت سوَّلْتَ، فيبعث الله مَلَكًا يفصل بينهما، فيقول [لهما][٣]: إن مَثَلَكُمَا[٤] كمثل رجل مُقْعَدٍ بصيرٍ والآخر ضرير، دخلَا بستانًا، فقال المُقعد للضَّرير: إني أرىٰ هاهنا ثمارًا، ولكن لا أصلُ إليها، فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فرَكِبَه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما، فيقول لهما المَلَك، فإنَّكما قد حكمتما علىٰ أنفسكما، يعني: أن الجسد للروح كالمطيَّة، وهو راكبه[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجة، حدَّثنا ضِرَار، حدَّثنا أبو سلمة الخُزاعي منصور بن سلمة، حدَّثنا القُمِّي -يعني: يعقوب بن عبد الله- عن جعفر بن المُغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيءٍ نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قال قلنا: من نخاصم؟ ليس بيْنَنَا وبين أهل الكتاب خصومةٌ، فمن نخاصم؟ حتىٰ وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه[٦]. ورواه النسائي عن محمَّد ابن عامر، عن منصور بن سلمة، به.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: يعني أهل القبلة. وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر، وقد قدَّمنا أنَّ الصَّحيح العموم، والله أعلم.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[٧]

= تميم: وهو ضعيف.

(١) رواه ابن جرير (٢٤/ ٢).

(٢) في (ز): «وقد روى ابن أمية»، وهو خطأ.

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٧١/ أ).

(٥) كذا عزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٧) إلى ابن مَنْده في «كتاب الروح»، ولم أقف على إسناده.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٣٩٠)، والنَّسائي في «الكبرى» (١١٤٤٧)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٣) إلى الطبراني وقال: رجاله ثقات. قلت: لكن جعفر بن المغيرة ليس بالقويّ في روايته عن سعيد بن جبير، وثبت نحوه عن أبي سعيدٍ الخدري، عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٧/ ٢٢٦) إلى سعيد بن منصور.

(٧) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ومن فوائدها: بيان أن ما يطلقه كثير من الناس اليوم إذا مات الإنسان قالوا: ذهب إلىٰ مثواه الأخير، فإن هذه الكلمة لو أخذناها بظاهرها، لكانت تتضمن إنكار البعث، إذا جعل القبر هو المثوىٰ الأخير فلا بعث، والمثوىٰ الأخير هو : إما الجنة ، وإما النار، وعلىٰ هذا فيجب التنبه والتنبيه لهذه العبارة، وأن يقال: إن هذه عبارة متلقاة ممن ينكرون البعث، ولكن كثيرًا من العامة عامة، يأخذون الكلمات لا يفكرون في معناها.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا للمشركين الذين افترَوْا علىٰ الله، وجعلوا معه آلهةً أخرىٰ، وادَّعَوْا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدًا -تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- ومع هذا كذَّبوا بالحق إذ جاءهم علىٰ ألسنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه][(١)] عليهم أجمعين. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أحد أظلم مِن هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كَذَبَ علىٰ الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردُّوا الحق؛ ولهذا قال متوعدًا لهم: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذِّبون.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[(٢)] قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: هو الرسول. وقال السُّدِّي: هو جبريل عليه السلام. ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يعني: محمَّدًا ﷺ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ قال: مَنْ جاء بـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يعني: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «والذين جَاءُوا بالصِّدْق»[(٣)]، يعني: الأنبياء، «وصَدَّقُوا به»، يعني: الأَتْبَاع.

وقال لَيْثُ بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القِيَامَةِ، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعَمِلْنَا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القولُ عن مجاهد يشملُ كلَّ المؤمنين، فإن المؤمنَ يقولُ الحقَّ ويعملُ به، والرسول ﷺ أولىٰ النَّاس بالدُّخول في هذه الآية علىٰ هذا التفسير، فإنَّه جاء بالصِّدق، وصدَّق المرسلين، وآمن بما أُنزِلَ إليه من رَبِّه والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: المسلمون.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، قال ابن عبَّاس: اتقَوْا الشرك.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ:

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٧١/ ب).

(٣) قراءة: قَرَأَ (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ) ابْنُ مَسْعُودٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ [(١)] وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ [(٢)] وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ -وقرأ بعضهم: «عِبَادَه» [(٣)] - يعني: أنَّه تعالىٰ يكفي مَن عَبَدَهُ وتوكَّل عليه.

وقال ابن أبي حاتم هاهنا: حدَّثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدَّثنا عمِّي، حدَّثنا أبو هانئ، عن أبي علي -عمرو بن مالك الجَنْبِيّ-، عن فَضَالة بن عُبيد الأنصاري؛ [أنه] [(٤)] سمع رسول الله ﷺ يقول: «أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَنِعَ بِهِ» [(٥)].

[ورواه الترمذي، والنَّسائي من حديث حَيْوة بن شُريح، عن أبي هَانئ الخَوْلاني به، وقال الترمذيُّ: صحيح] [(٦)].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني: المشركين يخوِّفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يعبدونها من دونه؛ جهلًا منهم وضلالًا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: قد يورد علينا مُورِد أن الله تعالىٰ ذكر أن من الناس من قتل الأنبياء؟ فكيف يجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت من قتل بعض الأنبياء؟ والجواب عنه: أن قتل الأنبياء لا يعني: قتل ما جاءوا به من الحق، والأنبياء إنما تكلموا من أجل إثبات الحق، لا من أجل إثبات شخصيتهم، ثم إنه إذا فاتهم الانتصار في الدنيا الانتصار الذي يشاهدونه، لن يفوتهم ذلك في الآخرة، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

(٢) لوحة (٧٢/ أ).

(٣) متواترة: قَرَأَ (عِبَادَهُ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَبْدَهُ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٤٩)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، ورواه أحمد (٦/ ١٩)، والحاكم (٤/ ١٢٢)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وأبو هانئ هو: حميد بن هانئ، قال الحافظ: لا بأس به، وللحَديث شاهد عند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾، أي: منيع الجناب لا يُضام(١)، من استندَ إلىٰ جنابه ولجأ إلىٰ بابه، فإنَّه العزيزُ الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقامًا منه، ممن كفر به وأشرك وعانَدَ رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، يعني: أنَّ المشركين كانوا يعترفون بأنَّ الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدُونَ معه غيره، ممَّا لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: لا تستطيع شيئًا من الأمر.

وذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث قَيْس بن الحَجَّاج، عن حَنَش الصَّنعاني، عن ابن عبَّاس مرفوعًا: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، جَفَّتِ الصُّحُفُ، وَرُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَاعْمَلْ للهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»(٢).

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ، عليه توكلت وعليه يتوكَّل المتوكلون، كما قال هود عليه السلام حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ(٣) قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٤-٥٦].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدَّثنا عبد الله بن بكر السَّهمي، حدَّثنا محمَّد بن حاتم، عن أبي المقدام -مولىٰ آل عثمان- عن محمَّد بن كَعْب القُرَظي، حدَّثنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما، رفع الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَىٰ النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَغْنَىٰ النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ [مِنْهُ](٤) بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ**»(٥).

وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: علىٰ طريقتكم، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ، ﴿إِنِّى

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وهو العزيز فلا يرامُ جنابه ... أنَّىٰ يُرام جنابُ ذي السلطانِ؟!

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وللحافظ ابن رجب شرحٌ وافٍ لهذا الحديث في كتابه «جامع العلوم والحكم» الحديث [١٩].

(٣) لوحة (٧٢/ ب). (٤) ليست في (ز).

(٥) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٩٦)، وفي إسناده هشام بن زياد أبو المِقْدَام، قال الحافظ في «التقريب»: متروك.

عَمِلٌ﴾ أي: علىٰ طريقتي ومنهجي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، أي: ستعلمون غبَّ ذلك ووَباله، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدُّنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائمٌ مستمرٌّ، لا مَحِيدَ له عنه؛ وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ (١) حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا رسوله محمَّدًا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، يعني: القرآن، ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتُنْذِرَهُم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنَّما يعود نفع ذلك إلىٰ نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: إنَّما يرجع وَبَالُ ذلك علىٰ نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٢)﴾، [أي: بموكل](٣) أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن نفسه الكريمة بأنَّه المتصرِّف في الوجود بما يَشاءُ، وأنَّه يتوفَّىٰ الأنفس الوفاةَ الكُبْرىٰ، بما يُرْسِلُ من الحَفَظَةِ الَّذين يقبضونها من الأَبْدانِ، والوفاة الصُّغرىٰ عند المنام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا (٤) كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦٠، ٦١]، فذكَرَ الوفاتين: الصُّغرىٰ ثم الكُبْرىٰ. وفي هذه الآية ذكر الكُبرىٰ ثم الصُّغرىٰ؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالةٌ علىٰ أنَّها تجتمع في الملإِ الأعلىٰ، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره، وفي

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله: المراد بالأنفس الناس الذين يموتون إذ لفظ النفس يطلق على الذات ويطلق على الروح قال ابن عباس وغيره من المفسرين إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها، قال علي رضي الله عنه: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها فلقيها الشياطين وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة.

(٢) وقع بهامش (ز): «وقيل: الوكيل من يُجعل إليه الشَّيء يعجِز موكِّله عنه بنفسه، يقول: لسنا بعاجزين عن حملهم علىٰ الإيمان فنكِلُ ذلك إليك، بل نحن قادرون على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقيل: نَسَخَتْ هذه الآيةَ آيةُ الأمر بالقتال. (نسَفي)».

(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٧٣/ أ).

«صحيحي البخاري ومسلم» من حديث [عُبيد الله] (١) بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ (٢) إِزَارِهِ؛ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» (٣).

وقال بعض السَّلف رحمهم الله: يقبض أرواح الأموات إذا مَاتُوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتَتَعَارَفُ ما شاء الله تعالىٰ أن تتعارَفَ، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، التي قد ماتت، ويُرْسِلُ الأخرىٰ إلىٰ أجلٍ مسمًّىٰ.

قال السُّدِّي: إلىٰ بقيَّة أجلها، وقال ابن عبَّاس: يُمْسِكُ أَنْفُس الأموات، ويُرْسِلُ أنفس الأحياء، ولا يغلط، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤).

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ ذامًّا للمشركين في اتِّخاذهم شفعاء من دُونِ الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتَّخذوها مِن تِلْقَاء أنفسهم بلا دليلٍ ولا برهان حَدَاهُم علىٰ ذلك، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقلٌ تعقلُ به، ولا سَمْع تَسْمَعُ به، ولا بَصَرَ تُبْصِرُ به، بل هي جماداتٌ أسوأ حالًا مِن الحيوانِ بكثيرٍ.

ثم قال: قُلْ -أَيْ: يا محمَّد- لهؤلاء الزَّاعمين أنَّ ما اتَّخذوه شُفعاء لهم عند الله، أخبرهم أنَّ (٥) الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأَذِنَ له، فمَرْجِعُهَا كلها إليه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المتصرِّف في جميع ذلك. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيَحْكُم بينكم بعَدْلِهِ، ويجزي كلًّا بعمله.

---

(١) في (ز): «عبد الله»، وهو خطأ.

(٢) المراد بالداخلة: طرف الإزار الذي يلي الجسد. قال القرطبي في (المفهم): حكمة هذا النفض قد ذُكِرَت في الحديث، وأما اختصاص النفض بداخلة الإزار فلم يظهر لنا، ويقع لي أن في ذلك خاصية طبية تمنع من قرب بعض الحيوانات، كما أمر بذلك العائن، ويؤيده ما وقع في بعض طرقه: فلينفض بها ثلاثًا، فحذا بها حذو الرُّقَىٰ في التكرير... «فتح الباري»: (١١/ ١٢٦).

(٣) البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤٤٢)، والطبراني في «الأوسط»، والضياء في «المختارة» (١٢٢)، و«الفوائد الحسان» للخِلَعِي (٣١-مخطوط) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٠): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح. قلت: ورجاله ثقات إلا أنَّه مِن طريق جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير، وروايته عنه خاصة ضعيفة.

(٥) لوحة (٧٣/ ب).

ثم قال تعالىٰ ذامًّا للمشركين أيضًا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: [﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾] (١) انقبضت. وقال السُّدِّي: نَفَرَتْ. وقال قتادة: كَفَرَتْ واستكبَرَتْ.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]؛ أي: عن المتابعة والانقياد لها، فقُلُوبُهُم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشَّرَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: مِن الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويُسَرُّون.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمَّة لهم في حبِّهم الشِّرك، ونفرتهم عن التَّوحيد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ادْعُ أنت الله وحدَهُ لا شريك له، الَّذي خلق السَّموات والأرض] (٢) وفطرها؛ أي: جعلها علىٰ غير مثالٍ سبقَ، ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السِّرَّ والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دُنْيَاهُم، ستفصل بينهم يوم مَعَادهم، ونشورهم، وقيامِهِم مِن قبورهم.

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا عبد بن حميد، حدَّثنا عمر بن يونس، حدَّثنا عكرمة بن عمار، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي كثير، حدَّثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة ﵂ بأيِّ شيءٍ كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من اللَّيل؟ قالت: كان إذا قام من اللَّيل افتتح صلاته: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ (٣) صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، وأخبرنا سُهَيل بن أبي صالح، وعبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن عَوْن بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

---

(١) سقط من (ز).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) لوحة (٧٤/ أ).
(٤) مسلم (٧٧٠).

أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدْنِي مِنَ الخَيْرِ، وَإِنِّي لا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا تُوَفِّينِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ، إِلَّا قَالَ اللهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّ عَبْدِي قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا فَأَوْفُوهُ إِيَّاهُ، فَيُدْخِلُهُ اللهُ الجَنَّةَ»(١).

قال سُهَيل: فأخبرتُ القاسم بن عبد الرحمن أن عونًا أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما في أهلنا جاريةٌ إلا وهي تقول هذا في خِدْرها، انفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا [حسن](٢)، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، حدَّثني حُيَيُّ بن عبد الله؛ أن أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قِرْطاسًا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقْتَرِفَ عَلَىٰ نَفْسِي إِثْمًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَىٰ مُسْلِمٍ»(٣).

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرَّد به أحمد أيضًا.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا ابن عياش، عن محمَّد بن زياد الألْهاني، عن أبي راشد الحُبْرَاني قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدِّثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقىٰ بين يَدَيَّ صحيفة، فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرتُ فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله، عَلِّمْنِي ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ(٤)، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، أَوْ أَقْتَرِفَ عَلَىٰ نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَىٰ مُسْلِمٍ»(٥).

ورواه الترمذي(٦)، عن الحسن بن عَرَفَة، عن إسماعيل بن عَيَّاش به، وقال: حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم، حدَّثنا [شيبان](٧)، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤١٢). وإسناده منقطع، فعون بن عتبة لم يسمع من ابن مسعود.

(٢) سقط من (ز)، وحذفها خطأ.

(٣) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (٢/ ١٧١)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وعبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم: ضعيف، لكنَّه ثبت صَحِيحًا بسياقٍ آخر، وهو الحديث الآتي.

(٤) لوحة (٧٤/ ب). (٥) رواه أحمد (٢/ ١٩٦).

(٦) صحيح لغيره: الترمذي (٣٥٢٩) وقال: حسنٌ غريبٌ. قلت: لأنَّ رجاله ثقات عدا ابن عياش فهو صدوقٌ في روايته عن أهل بلدته وهذا منها، والحديث يشهدُ له الرِّواية السَّابقة فيرقى للصِّحَّة، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٦٣).

(٧) في (ز): «حدَّثنا سيَّار»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...» إلىٰ آخره(١).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: ولو أنَّ جميع مُلْك الأرض وضِعْفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾، أي: الذي أَوْجَبَهُ الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملءَ الأرض ذهبًا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنَّكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدَّار الدُّنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم مِن العذاب والنَّكال ما كانوا يستهزِئُون به في الدَّار الدُّنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

يقولُ تعالىٰ مُخبرًا عن الإنسان أنَّه في حال الضَّرَّاء يَضْرَع إلىٰ الله ﷻ ويُنِيبُ إليه ويدعوه، وإذا خوَّله منه نعمةً بَغَىٰ وطَغَىٰ، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: لما يعلمُ اللهُ مِن استحقاقي له، ولَوْلَا أنِّي عند الله تعالىٰ خَصِيص لما خَوَّلني هذا!.

قال قتادةُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: علىٰ خيرٍ عندي.

قال اللهُ ﷻ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ليسَ الأمرُ كما زعموا، بل [إنَّما](٢) أنعمنا عليه بهذه النعمة لنَخْتَبِرَه فيما أنعمنا عليه، أَيُطيع أم يعصي؟ مع عِلْمِنَا المتقدِّم بذلك، فهي فتنةٌ؛ أي: اختبارٌ(٣)، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدَّعون ما يدَّعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: قد قال هذه المقالَة، وزعم هذا الزَّعم، وادَّعىٰ هذه الدَّعوىٰ، كثيرٌ ممَّن سلف من الأُمَمِ، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: فما صحَّ قولهم، ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: [من](٤) المخاطبين، ﴿سَيُصِيبُهُمْ

---

(١) ضعيف من هذا الطريق: رواه أحمد (١/ ١٤)، وإسناده منقطع، وفيه ليثُ بن أبي سُلَيْم أُدخل في حديثه ما ليس منه، فلم يتميَّز فتُرِك.

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٧٥/ أ). (٤) سقط من (ز).

سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالىٰ مخبرًا عن قارُونَ أنَّه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ [وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ](١) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُوسِّعه علىٰ قَوْمٍ ويُضَيِّقه علىٰ آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لعبرًا وحُججًا.

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

هذه الآية الكريمة دعوةٌ لجميع العُصاة من الكَفَرَةِ وغيرهم إلىٰ التَّوبة والإنابة، وإخبارٌ بأنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعًا لمن تابَ منها ورجعَ عنها -وإن كانت مهما كانت- وإن كثُرت وكانت مثل زَبَدِ البحر، ولا يصحُّ حملُ هذه الآية علىٰ غيرِ توبةٍ؛ لأنَّ الشِّرك لا يغفر لمن لم يتب مِنْهُ.

وقال البخاري: حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أنَّ ابن جريج أخبرهم: قال يعلىٰ: إنَّ سعيد بن جبير أخبره، عن ابن عبَّاس(٢) رضي الله عنهما؛ أنَّ ناسًا من أهل الشِّرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزَنُوا فأكثروا، فأتوا محمَّدًا ﷺ فقالوا: إنَّ الَّذِي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تخبرُنا أنَّ لِمَا عملنا كفارةً، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]، ونزل قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾(٣).

وهكذا رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، من حديث ابن جريج، عن يَعْلىٰ بن مُسلم المكي، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس به.

(١) سقطت من (ز). (٢) لوحة (٧٥/ ب).
(٣) البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢)، وأبو داود (٤٢٧٤)، والنَّسائي (٧/ ٨٦).

والمراد من الآية الأولىٰ قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية. [الفرقان:٧٠].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابنُ لَهِيعة، حدَّثنا أبو قَبِيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المُرِّي يقول: سمعت ثَوْبان -مولىٰ رسول الله ﷺ- يقول: سمعت رسول الله ﷺ [يقول][1]: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾»، إلىٰ آخر الآية، فقال رَجُلٌ: يا رسول الله، فَمَنْ أشرك؟ فسكت النَّبيُّ ﷺ ثم قال: «أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ»، ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد[2].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا سُرَيْج[3] بن النُّعمان، حدَّثنا نوح[4] بن قيس، عن أَشْعَث بن جابر الحُدَّاني، عن مكحول، عن عمرو بن عَبَسة[5] قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، شيخٌ كبيرٌ يَدَّعِم علىٰ عصا له، فقال: يا رسول الله إن لي غدراتٍ وفجراتٍ، فهل يغفر لي؟ فقال: «أَلَسْتَ تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟» قال: بلىٰ، وأشهد أنَّك رسول الله، فقال: «قَدْ غُفِرَ لَكَ غَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ». تفرد به أحمد[6].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماءَ بنتِ يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ﴾[7] [هود:٤٦]، وسَمِعْتُه يقول: «﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وَلَا يُبَالِي، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾».

ورواه أبو داود، والترمذي، من حديث ثابتٍ به[8].

فهذه الأحاديث كلها دالَّةٌ علىٰ أنَّ المراد: أنَّه يغفر جميع ذلكَ مع التَّوبة، ولا يَقْنَطَنَّ عبدٌ مِن رحمة الله[9]، وإن عَظُمَت ذنوبه وكثرت؛ فإن بابَ التَّوبة والرَّحمة واسعٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٧٥)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٣) في (ز): «شريح»، وهو خطأ.

(٤) في (ز): «حدَّثنا فرج بن قيس»، وهو خطأ، وأورده بعضهم: «روح بن قيس»، والمثبت موافق لما في «المسند» وط. «الشعب»، وهو الصواب: نوح بن قيس أبو رَوْح البصري.

(٥) في (ز): «عن عمرو بن عنبسة»، وهو خطأ.

(٦) صحيح لغيره: رواه أحمد (٤/ ٣٨٥)، ورجاله ثقات غير أنَّ مكحولًا كثيرُ الإرسال، لكن يشهد له حديث أنس بإسنادٍ صحيحٍ؛ رواه أبو يعلى (٣٤٣٣)، والبزار (٣٠٦٧-كشف).

(٧) متواترة: قَرَأَ (عَمِلَ غَيْرَ) الْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَمَلٌ غَيْرُ).

(٨) رواه أحمد (٦/ ٤٥٤، ٤٦٠)، وأبو داود (٣٩٨١)، والترمذي (٢٩٣١) مختصرًا، وقال: حسنٌ غريبٌ، قلت: فيه شهر ابن حوشب: كثير الأوهام والإرسال، إلَّا أن حديثه هذا عن مَوْلَاتِهِ أسماء بنت يزيد الأنصاريَّة، وتكنى أمَّ سلمة، وكان أَرْوَىٰ الناسِ عنها، وقال أحمد: روى عن أسماءَ أحاديثَ حسانًا، وجنحَ الشيخ أحمد شاكر إلى تصحيح الحديث في حاشية «تفسير الطبري» (١٨٢٤٨)، وصحَّحه الألباني. انظر: «الصحيحة» (٢٨٠٩).

(٩) لوحة (٧٦/ أ).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠]، وقال تعالىٰ في حقِّ المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج:١٠].

قال الحسن البصري: انظر إلىٰ هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءَهُ وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والمغفرة!

والآيات في هذا كثيرةٌ جدًّا.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا، ثم ندم وسأل عابدًا من عُبَّاد بني إسرائيل: هل له من توبةٍ؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالمًا مِن علمائهم: هل له من توبةٍ؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التَّوبة؟! ثم أمره بالذهاب إلىٰ قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيِّهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلىٰ الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرَّحمة، وذُكِرَ أنه نأىٰ بصدره عند الموت، وأنَّ الله أمر البلدة الخَيِّرة أن تقترب، وأمرَ تلك [البلدة][1] أن تتباعد[2]. هذا معنىٰ الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلىٰ آخر الآية، قال: قد دعا الله إلىٰ مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومَن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومَن زعم أنَّ عزيرًا ابن الله، ومَن زعم أنَّ الله فقيرٌ، ومَن زعم أن يَدَ الله مغلولةٌ، ومَن زعم أنَّ الله ثالث ثلاثةٍ، يقول الله تعالىٰ لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ[3] غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤] ثم دعا إلىٰ توبته من هو أعظم قولًا مِن هؤلاء، مَن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: مَن آيَسَ عبادَ الله مِن التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتىٰ يتوب الله عليه[4].

وروىٰ الطبراني من طريق الشعبي، عن شُتَير[5] بن شَكَلٍ أنَّه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إنَّ أعظم آيةٍ في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإنَّ أجمع آيةٍ في القرآن بخيرٍ وشرٍّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) سقط من (ز).

(٢) البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦). (٣) لوحة (٧٦/ ب).

(٤) عزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٧٨) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والمعنى صحيح.

(٥) في (ز): «سنيد»، وهو خطأ وتصحيف، شتير هو ابن شَكَل العَبْسي الكوفي: ثقة، ويقال: إنه أدرك الجاهليَّة.

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠]، وإنَّ أكثر آيةٍ في القرآن فرجًا في سورة «الغُرَفِ»[(١)]: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آيةٍ في كتاب الله تصريفًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣،٢]. فقال له مسروق: صَدَقْتَ[(٢)].

وقال الأعمش، عن أبي سعيدٍ، عن أبي الكَنُود قال: مَرَّ عبد الله -يعني ابن مسعود- علىٰ قاصٍّ، وهو يُذَكِّر النَّاس، فقال: يا مُذَكِّرُ لِمَ تُقَنِّطُ النَّاس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم[(٣)].

ذِكْر أحاديثَ فيها نَفْيُ القُنُوطِ

قال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيج بن النُّعمان، حدَّثنا أبو عُبيدة عبد المؤمن بن عُبيد الله[(٤)]، حدَّثني أَخْشَن[(٥)] السَّدُوسِي قال: دخلت علىٰ أنس بن مالك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّىٰ تَمْلأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ لَغَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»**. تفرَّد به الإمام أحمد[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ، حدَّثني لَيْث، حدَّثني محمَّد بن قيس -قَاصُّ[(٧)] عمر بن عبد العزيز- عن أبي صِرْمة، عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: **«لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ، لَخَلَقَ اللهُ قَوْمًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»**[(٨)].

هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في «صحيحه»، والتِّرمذي جميعًا، عن قُتيبة، عن الليث ابن سعد به. ورواه مسلم[(٩)] من وجهٍ آخر به، عن محمَّد بن كَعبٍ القُرَظي، عن أبي صِرْمَة -وهو الأنصاري، صحابي- عن أبي أيوب، به.

---

(١) سورة الغُرَف: هي سورة الزمر؛ لما فيها من الحديث عن غرف أهل الجنة.

(٢) حسن: رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٣٧١/ ٢٠٠٢)، وفي «حسن الظن بالله» لابن أبي الدنيا (٧٠) مختصرًا.

(٣) حسن: رواه الطبري (٢٤/ ١٦)، وابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٥٠)، وابن أبي شيبة (١١/ ٢٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ١٣٦/ ٨٦٣٥)، وعبد الرزاق (١١/ ٢٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٢) من طرقٍ عن الأعمش به، وإسناده حسن.

(٤) في (ز): «حدَّثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله السَّدُوسي»، وهذا نسبٌ صحيحٌ.

(٥) في (ز): «حسن السدوسي»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند»، وكتب الجرح والتعديل.

(٦) رواه أحمد (٣/ ٢٣٨)، وفيه أخشن السدوسي: لم يُوَثِّقه غير ابن حبان، ويشهد له حديث أبي أيوب الآتي، وثبت نحوه عن أبي هريرة عند مسلم (٢٧٤٩).

(٧) في (ز): «قاضي عمر»، وهو خطأ.

(٨) مسلم (٢٧٤٨)، وأحمد (٥/ ٤١٤).

(٩) لوحة (٧٧/ أ).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أحمد بن عبد الملك الحَرَّاني، حدَّثنا يحيىٰ بن عمرو بن مالك النُّكْري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجَوْزَاء، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: [«كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ»(١)، وقال رسول الله ﷺ:](٢) «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ». تفرَّد به أحمد(٣).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثني عبد الأعلىٰ بن حماد النَّرسِي(٤)، حدَّثنا داود بن عبد الرحمن، حدَّثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي، عن أبي عمرو البَجَلي، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمَّد بن علي، عن محمَّد ابن الحَنَفِيَّة، عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ المُفَتَّنَ التَّوَّابَ». لم يخرجوه من هذا الوجه(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: إن إبليس -عليه لعائن الله- قال: يا رَبِّ، إنَّك أخرجتني من الجنَّة مِن أجل آدم، وإنِّي لا أستطيعه إلا بسُلْطَانِك، قال: فإنَّك مُسَلَّطٌ، قال: يا رب، زدني، قال: لا يُولَد له ولدٌ إلا وُلِدَ لك مثله، قال: يا ربِّ، زدني، قال: [أجعل](٦) صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرىٰ الدَّم، قال: يا رب، زدني، قال: أَجْلِبْ عليهم بخيلك ورَجْلِكَ، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا، فقال آدم عليه السلام: يا رب، قد سَلَّطته عَلَيَّ، وإنِّي لا أمتنع منه(٧) إلَّا بك، قال: لا يُولَد لك ولدٌ إلَّا وَكَّلْتُ به مَن يحفظه مِن قرناء السُّوء، قال: يا ربِّ، زدني، قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسَّيِّئة واحدةٌ أو أمحوها، قال: يا رب، زدني، قال: باب التَّوبة مفتوحٌ ما كان الروح في الجسد، قال: يا ربِّ، زدني، قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٨).

وقال محمَّد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عُمير، عن عمر رضي الله عنه في حديثه قال: وكنَّا نقول ما الله بقابلٍ ممَّن افتتن صَرْفًا ولا عَدْلًا ولا توبةً، عَرَفُوا الله ثم رجعوا إلىٰ الكفر لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، قال: فلمَّا قدم(٩) رسول الله ﷺ [المدينة](١٠)، أَنْزَل الله فيهم وفي قولنا

(١) الصحيح موقوف: رواه أحمد (١/ ٢٨٩)، وفيه يحيى بن عمرو النُّكري: ضعيف، ضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١٢)، ولكن ثبت الحديث موقوفًا من طريق حماد بن زيد، رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٣٩) وسنده صحيح.

(٢) سقط من (ز).

(٣) يشهد له ما تقدم من الروايات.

(٤) في (ز): «حماد القرشي»، وهو خطأ.

(٥) ضعيف جدًّا: رواه أحمدُ (١/ ٨٠، ١٠٣)، وفيه أبو عمرو البَجَلِي، قال ابن حبان: يروي الموضُوعَات عن الثقات، لا يَحِلُّ الاحتجاج به، وعبد الملك بن سفيان: مجهول.

(٦) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٧) في (ز): «به»، وهي غير موجودة عند ابن أبي حاتم.

(٨) مرسل: لأنَّه لم يوصل إسناده إلى النَّبيِّ ﷺ، والمُرْسَل أحدُ أقسام الضَّعيف، رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٠٢).

(٩) لوحة (٧٧/ ب).

(١٠) سقط من (ز).

وقولهم لأنفسهم: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ . قال عمر رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفةٍ، [وبعثت بها][١] إلىٰ هشام بن العاص، قال: فقال هشام: لما أتتني جعلت [أقرؤها][٢] بذي طُوَىٰ أُصَعِّدُ بها فيه وأُصَوِّتُ ولا أفهمها، حتىٰ قلت: اللَّهم أَفْهِمْنِيهَا، قال: فألقىٰ الله في قلبي أنَّها إنَّما أُنْزِلَتْ فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، فرجعت إلىٰ بعيري فجلست عليه، فلحقتُ برسول الله ﷺ بالمدينة[٣] .

ثم استحث ﷻ عباده إلىٰ المسارعة إلىٰ التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، أي: [ارجعوا إلىٰ الله واستسلموا له، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: بادروا][٤] بالتَّوبة والعمل الصالح قبل حلول النِّقمة.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا تعْلَمُونَ ولا تشْعُرُونَ.

ثم قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، أي: يومَ القيامة يتحسَّر المجرم المفرِّط في التَّوبة والإنابة، ويودُّ لو كان من المحسنين المخلِصين المُطِيعين لله ﷻ.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدُّنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقنٍ مصدقٍ.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: تود أن لو أُعيدت إلىٰ الدَّار الدُّنيا فتُحْسِن العمل.

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عبَّاسٍ: أخبر الله سبحانه، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فأخبر[٥] الله تعالىٰ: أن لو رُدوا لما قَدَرُوا علىٰ الهدىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا أَسْوَدُ، حدَّثنا أبو بكر، عن الأَعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي

---

(١) في (ز): «وبعتها». (٢) بياض في (ز)!!.

(٣) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٥٣٦- بتحقيقي)، والطبري (٢٤/ ١١)، والحاكم (٢/ ٤٣٥). ورجاله ثقات إلا أنَّ ابن إسحاقَ مدلِّسٌ، وقد صرَّح ابن إسحاق بالتَّحديث، وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، ووافقَهُ الذَّهبي.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) لوحة (٧٨/ أ).

هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي؟! فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ». قال: «وَكُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي!»، [قال](١): «فَيَكُونُ لَهُ الشُّكْرُ»(٢).

ورواه النسائي من حديث أبي بكر بن عياش به.

ولما تمنَّىٰ أهل الجرائم العَودَ إلىٰ الدنيا، وتحسَّروا علىٰ تصديق آيات الله واتِّباع رسله، قال [الله ﷻ](٣): ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي: قد جاءتك أيُّها العبد النَّادِم علىٰ ما كان منه- [آياتي](٤) في الدَّار الدنيا، وقامت حُجَجِي عليك، فكَذَّبْتَ بها واستكبرتَ عن اتِّباعها، وكنتَ مِن الكافِرينَ بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ (٥) لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عن يوم القيامة أنَّه تسودُّ فيه وجوهٌ، وتَبْيَضُّ فيه وجوهٌ، تسودُّ وجوه أهل الفُرْقَةِ والاختلاف، وتبيضُّ وجوه أهل السُّنَّة والجماعةِ، قال تعالىٰ هاهنا: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: في دعواهم له شريكًا وولدًا ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، أي: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦) ﴾، أي: أليست جهنم كافيةً لهم سجنًا ومَوْئِلًا، لهم فيها [دار](٧) الخزي والهوان، بسبب تكبُّرِهم وتجبُّرِهم وإبائِهم عن الانقياد للحقِّ؟!

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وَهْب، حدَّثنا عَمِّي، حدَّثنا عيسىٰ بن أبي عيسىٰ الخياط، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المُتَكَبِّرِينَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَشْبَاهَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا مِنَ النَّارِ فِي وَادٍ

---

(١) سقط من (ز).

(٢) حسن: رواه أحمد (٢/ ٥١٢)، والنسائي في «التفسير» (٤٧٤)، والحاكم (٢/ ٤٣٥)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٣٤). وقال الحاكم: صحيحٌ على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) ليست في (ز). (٤) في (ز): «بلى قد جاءتك آياتي».

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: قد يُورِد علينا مُورِدٌ أن الله تعالىٰ ذكر أن من الناس من قتل الأنبياء؟ فكيف يجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت من قتل بعض الأنبياء؟ والجواب عنه: أن قتل الأنبياء لا يعني: قتل ما جاءوا به من الحق، والأنبياء إنما تكلموا من أجل إثبات الحق، لا من أجل إثبات شخصيتهم، ثم إنه إذا فاتهم الانتصار في الدنيا الذي يشاهدونه، لن يفوتهم ذلك في الآخرة، لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر].

الباء بمعنىٰ (في)أي: ينجي الله الذين اتقوا من العذاب في مكان فوزهم، وهو: الجنة، والباء تأتي بمعنىٰ: (في) في اللغة العربية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] بالليل يعني: في الليل.

(٦) في (ز): «مثوى للكافرين». وهو خطأ.

(٧) ليست في (ز).

يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، مِنْ نَارِ الأَنْيَارِ، وَيُسْقَوْنَ عُصَارَةَ أَهْلِ النَّارِ، وَمِنْ طِينَةِ الخَبَالِ»[١].

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ[٢]﴾، أي: ممَّا سبق لهم من السَّعادة والفوزِ عند الله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمِنُون مِن كلِّ فزَعٍ، مُزَحْزَحُونَ عن كلِّ شرٍّ، مُؤمِّلون كلَّ خيرٍ.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه خالق الأشياءِ كلِّها، وربُّها ومليكها والمتصرِّف فيها، وكلٌّ تحت تدبيرِهِ وقهرِهِ وكلاءَتِهِ.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح بالفارسية.

وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عُيينة.

وقال السُّدِّي: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خزائن السموات والأرض.

والمعنىٰ علىٰ كلا القولَين: أن أَزِمَّة الأمور بيدِهِ، له الملك وله الحَمْدُ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير.

ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ -أي: حُججه وبراهينه- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا غريبًا جدًّا -وفي صحته[٣] نظر- ولكن نذكره كما ذكره، فإنَّه قال:

حدَّثنا يزيد بن سِنان البصري بمصر، حدَّثنا يحيىٰ بن حماد، حدَّثنا الأَغلَب بن تَميم، عن مَخْلَد ابن هُذَيل العبدي، عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان ﷺ، أنَّه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فقال: «مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ يَا عُثْمَانُ»، قال: «تَفْسِيرُهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، الأَوَّلِ وَالآخِرِ، وَالظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، [وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،][٤] مَنْ قَالَهَا يَا عُثْمَانُ إِذَا أَصْبَحَ عَشْرَ مِرَارٍ أُعْطِيَ خِصَالًا سِتًّا؛ أَمَّا أُولَاهُنَّ: فَيُحْرَسُ مِنْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَيُعْطَىٰ قِنْطَارًا مِنَ الأَجْرِ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَتُرْفَعُ لَهُ دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَيَتَزَوَّجُ مِنَ

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، من طريق محمد بن عَجْلَان عن عمرو بن شعيب به، ورجاله ثقات عدا محمَّد بن عجلان: صدوق.

(٢) لوحة (٧٨/ ب). (٣) في (ز): «وفي جدته نظر».

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت عند «ابن أبي حاتم».

الحُورِ العِينِ، وَأَمَّا الخَامِسَةُ: فَيَحْضُرُهُ اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، وَأَمَّا السَّادِسَةُ: فَيُعْطَىٰ مِنَ الأَجْرِ[1] كَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ، وَلَهُ مَعَ هَذَا يَا عُثْمَانُ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ حَجَّ وَتُقُبِّلَتْ حَجَّتُهُ، وَاعْتَمَرَ فَتُقُبِّلَتْ عُمْرَتُهُ، فَإِنْ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ طُبِعَ بِطَابَعِ الشُّهَدَاءِ»[2].

ورواه أبو يعلىٰ المَوْصلي من حديث يحيىٰ بن حماد به مثله، وهو غريبٌ، وفيه نكارةٌ شديدةٌ، والله أعلم.

وقوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾، ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عبَّاسٍ [رضي الله عنه أنه قال][3]: إن المشركين بجَهْلِهم دعَوْا رسول الله ﷺ إلىٰ عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[4].

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، أي: أَخلِصِ العبادةَ لله وحدَهُ لا شريك له، أنت ومَن مَعَكَ، أنت ومَنِ اتَّبعك وصدَّقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: وما قدر المشركون الله حقَّ قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظمَ منه، القادر علىٰ كلِّ شيءٍ، المالك لكلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ تحت قهرِهِ وقُدْرَتِهِ.

قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السُّدِّي: ما عظَّمُوه حقَّ عَظَمَتِهِ.

وقال محمَّد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذَّبوه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، هم الكفار الذين لم يُؤْمِنُوا بقدرَةِ الله تعالىٰ عليهم، فمَن آمن [أن][5] الله علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، فقد قَدَرَ الله حق قَدْرِه، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

---

(١) لوحة (٧٩/ أ).

(٢) منكر: فيه الأغلب بن تميم: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عَدِيٍّ: يكتب حديثه، وانظر: «تاريخ ابن معين» (١٢٧/٤)، و«التاريخ الكبير» (٢/ ٧٠)، و«الكامل في الضعفاء» (٢/ ١٢٢)، ومَخْلَد بن هذيل لم أعرفه، رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٠٥)، وانظر ما قاله ابن كثير تعليقًا على الحديث.

(٣) ليست في (ز).

(٤) عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٧/ ٢٤٥) إلى ابن مَرْدَويه ولم أقف على إسناده.

(٥) سقط من (ز).

وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ متعلِّقةٌ بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت[(١)] من غير تكييفٍ ولا تحريفٍ.

قال البخاري: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: حدَّثنا آدم، حدَّثنا شَيْبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد: إنَّا نَجِد أن الله ﷻ يجعل السَّموات[(٢)] علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشَّجر علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر الخلائق علىٰ إصبع، فيقول: أنا الملك، فضَحِكَ رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحَبْر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية[(٣)].

وقد رواه البخاري أيضًا في غير هذا الموضع من «صحيحه»، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي في «التفسير» من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن إبراهيم، عن [عَبِيدة، عن عبد الله بن مسعود ﷺ بنحوه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأَعْمَش، عن إبراهيم، عن][(٤)] عَلْقَمة، عن عبد الله ﷺ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبَلَغَك أن الله تعالىٰ يحمل الخلائق علىٰ إصبع، والسَّموات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشَّجر علىٰ إصبع، والثَّرىٰ علىٰ إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه. قال: وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إلىٰ آخر الآية[(٥)].

وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي -من طُرق- عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن حسن الأشقر، حدَّثنا أبو كُدَينة، عن عطاء، عن أبي الضُّحىٰ، عن ابن عبَّاسٍ قال: مرَّ يهوديٌّ برسول الله ﷺ وهو جالسٌ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السَّماء علىٰ ذِهْ -وأشار بالسبابة- والأرض علىٰ ذِهْ، والجبال علىٰ ذِهْ، وسائر الخلق علىٰ ذِهْ -كل ذلك يشير بإصبعه- قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية[(٦)].

وكذا رواه الترمذي في «التفسير» عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمَّد بن الصَّلْتِ،

---

(١) تقدم في التعليق علىٰ آية سورة الأعراف (٥٤) أن معنىٰ (إمرارها كما جاءت): إثبات الصفة علىٰ ما يليق بالله ﷻ، وعدم التعرض لها بتأويل أو تحريف أو غيره، فراجعه.

(٢) لوحة (٧٩/ ب).

(٣) البخاري (٤٨١١) و(٧٤١٤) و(٧٤٥١) و(٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦)، وأحمد (١/ ٣٧٨)، والترمذي (٣٢٣٨).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) رواه أحمد (١/ ٣٧٨) وإسناده صحيح، وهو في «الصحيحين» كما أشار المصنف، لكن ليس فيهما سبب النزول.

(٦) رواه أحمد (١/ ٢٥١)، والترمذي (٣٢٤٠)، والطبري (٢٤/ ١٨)، وفيه عطاء بن السائب: صدوق اختلط ، والذي يترجح عندي أنَّ الراوي عنه روى بعد اختلاطه فالإسناد ضعيف، لكن يشهد لحديثه الرواية السابقة في «الصحيحين».

عن أبي جعفر، عن أبي كُدَينة يحيىٰ بن المُهَلَّب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضُّحىٰ -مسلم بن صُبَيح- به، وقال: حسنٌ صحيحٌ [غريبٌ](١)، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدَّثنا سعيد بن عُفَير، حدَّثنا اللَّيْث، حدَّثنا عبد الرحمن بن خالد بن مُسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟**». تفرَّد به من هذا الوجه، ورواه مسلم(٢) من وجه آخر(٣).

وقال البخاري -في موضع آخر-: حدَّثنا مُقَدَّم بن محمَّد، حدَّثنا عَمِّي القاسم بن يحيىٰ، عن عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ**»(٤). تفرد به أيضًا من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجهٍ آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريقٍ أخرىٰ بلفظٍ آخر أبسط من هذا السِّياق وأطول، فقال:

حدَّثنا عفَّان، حدَّثنا حمَّاد بن سَلَمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عُبيد الله بن مِقْسَم، عن ابن عمر، أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم علىٰ المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يُحركها يُقْبِل بها ويُدبر: «**يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا العَزِيزُ، أَنَا الكَرِيمُ**». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتىٰ قلنا: لَيَخِرَّنَّ به(٥).

وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجة، من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، زاد مسلم: ويعقوب ابن عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عُبيد الله بن مِقْسم، عن ابن عمر به نحوه.

ولفظ مسلم -عن عُبيد الله بن مِقْسَم في هذا الحديث-: أنَّه نظر إلىٰ عبد الله بن عمر كيف يَحْكي النَّبيَّ ﷺ، قال: «**يَأْخُذُ اللهُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا-: أَنَا المَلِكُ، حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟**»(٦).

وقال البَزَّار: حدَّثنا سليمان بن سَيْف، حدَّثنا أبو علي الحَنَفي، حدَّثنا عَبَّاد المِنْقَري، حدَّثني محمَّد بن المُنْكَدِر قال: حدَّثنا عبد الله بن عمر ب: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية علىٰ المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، حتىٰ بلغ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا،

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (٨٠/ أ).
(٣) البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).
(٤) البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).
(٥) أحمد (٢/ ٧٢)، ومسلم (٢٧٨٨)، والنسائي في «الكبرى»، وابن ماجة (١٩٨) و(٤٢٧٥).
(٦) مسلم (٢٧٨٨).

[فجاء][1] وذهب ثلاث مراتٍ[2].

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عُبيد بن عُمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح.

وقال الطبراني[3] في «المعجم الكبير»: حدَّثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبي، حدَّثنا حَيَّان بن نافع بن صَخْر[4] بن جُويرية، حدَّثنا سعيد بن سالم القَدَّاح، عن مَعْمر بن الحسن، عن بكر بن خُنَيْسٍ، عن أبي شَيْبة، عن عبد الملك بن عُمير، عن جَرير قال: قال رسول الله ﷺ لنفرٍ من أصحابه: «**إِنِّي قَارِئٌ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الزُّمَرِ، فَمَنْ بَكَىٰ مِنْكُمْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**»؟ فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، إلىٰ آخر السورة، فمِنَّا مَن بكىٰ، ومِنَّا مَن لَمْ يَبْكِ، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله لقد جهدنا أن نبكي فلم نَبْكِ؟ فقال: «**إِنِّي سَأَقْرَؤُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ لَمْ يَبْكِ فَلْيَتَبَاكَ**»[5]. هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا.

وأغرب منه ما رواه في «المعجم الكبير» أيضًا: حدَّثنا هاشم بن مَرْثَد[6]، حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل ابن عَيَّاش، حدَّثني أبي، حدَّثني ضَمْضَم بن زُرْعة، عن شُريح بن عُبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ثَلَاثُ خِلَالٍ غَيَّبْتُهُنَّ عَنْ عِبَادِي، لَوْ رَآهُنَّ رَجُلٌ مَا عَمِلَ سُوءًا أَبَدًا: لَوْ كَشَفْتُ غِطَائِي فَرَآنِي حَتَّىٰ[7] يَسْتَيْقِنَ وَيَعْلَمَ كَيْفَ أَفْعَلُ بِخَلْقِي إِذَا أَتَيْتُهُمْ وَقَبَضْتُ السَّمَوَاتِ بِيَدِي، ثُمَّ قَبَضْتُ الأَرْضَ وَالأَرْضِينَ، ثُمَّ قُلْتُ: أَنَا المَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي لَهُ المُلْكُ دُونِي؟ ثُمَّ أَرَيْتُهُمُ الجَنَّةَ وَمَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، فَيَسْتَيْقِنُوهَا وَأُرِيهِمُ النَّارَ وَمَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فَيَسْتَيْقِنُوهَا، وَلَكِنْ عَمْدًا غَيَّبْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ لِأَعْلَمَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ[8]، وَقَدْ بَيَّنْتُهُ لَهُمْ؟**»[9].

وهذا إسنادٌ متقاربٌ، وهي نُسخة تُروىٰ بها أحاديثُ جمَّةٌ، والله أعلم.

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسند البزار».

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٥٣٩٨).

(٣) لوحة (٨٠/ ب).

(٤) في (ز): «حيان بن نافع عن صخر بن جويرية»، وهو خطأ، ووقع في بعض النسخ: «حيان بن نافع»، وهو خطأ كذلك، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «الطبراني»، وكتب الرجال.

(٥) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٩٨)، وفيه بكر بن خُنَيْس: قال الحافظ: صدوق له أغلاط اهـ. وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٤/ ٢١٠).

(٦) في (ز): «هاشم بن زيد»، وهو خطأ وتحريف.

(٧) في (ز): «حيى»، والمثبت موافق لما في «المعجم الكبير».

(٨) في (ز): «كيف يعلموني»، والمثبت موافق لما في «المعجم الكبير».

(٩) ضعيف: رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٦٧)، وفي «الكبير» (٣/ ٣٩٤/ ٣٤٤٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٩)، وفي الحديث محمَّد بن إسماعيل بن عياش: ضعيف، والإسناد منقطع بين شُرَيْح وأبي مالك، وهاشم بن مَرْثد: ضعيف.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ[(١)(٢)] ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن هَوْلِ يوم القِيامَةِ، وما يكون فيه من الآيات العَظِيمَة والزَّلازل الهائلة، فقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ[(٣)] إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، هذه النفخة هي الثَّانية، وهي نَفْخة الصَّعق، وهي التي يموت بها الأحياء مِن أهل السَّموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مُصرَّحٌ به مفسرًا في حديث الصُّور المشهور[(٤)]. ثم يقبض أرواح الباقين حتىٰ يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحيُّ القيُّوم -الذي كان أولًا، وهو الباقي آخرًا- بالدَّيْمُومَة والبقاء، ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦]، ثلاث مرَّات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: الَّذِي هو واحدٌ وقد قهرَ كلَّ شيءٍ، وحكم بالفناء علىٰ كلِّ شيءٍ. ثم يُحْيِي أوَّل مَن يُحْيِي إسرافيل، ويأمُرُهُ أن ينفخ في الصُّور أخرىٰ، وهي النفخة الثالثة[(٥)] نفخة البعث، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «النفخة الأولىٰ»، وهذا بناء علىٰ أن النفخ في الصور يكون مرتين، وقيل: بل النفخ في الصور ثلاث مرات، وقد دل علىٰ هذا: حديث الصور الذي ذكره ابن كثير رحمه الله بطوله في سورة الأنعام، وأن هذه الثلاث هي: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧] في سورة النمل، وهنا قال: ﴿فَصَعِقَ﴾ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، وقيل: بل النفخ مرتان، وهو ما مشىٰ عليه المؤلف رحمه الله، وأن نفخة الفزع هي نفخة الصعق، وأن الناس إذا سمعوه أول مرة فزعوا، ثم يطيل في النفخ، فيصعقون، يموتون بعد الفزع، وعلىٰ هذا فيكون النفخ مرتين: الأولىٰ فزع ثم صعق؛ لأنه يطيل النفخ ثم يصعق الناس، ولا شك أن شيئًا يصعق الناس منه لابد أن يكون شيئًا عظيمًا مزعجًا مرعبًا، وهو كذلك.

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ألَّا يصعق فإنه لا يصعق، وقد اختلف العلماء: من هذا المستثنى؟ فذهب المؤلف وجماعة إلى أن المستثنى: «الحور، والولدان» وهم في الجنة، وقيل: الحور والولدان والملائكة، ولا يمنع منه كلام المؤلف لقوله: «وغيرهما»، وقيل: الله أعلم، نقول: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما أبهم الله عز وجل، ولا نتعرض للتفصيل؛ لأنه ليس هناك دليل صحيح صريح في تعيين هؤلاء المستثنَيْنَ.

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: بالتتبع للآيات القرآنية المتضمنة لأحوال الدار الآخرة نجد أن النفخات للصور أربع نفخات: وهي نفخة الفناء، ونفخة البعث، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، وفي هذه الآيات ذكر نفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين سميت هذه نفخة صعق؛ لأن الخلائق يصعقون ولا يموتون بدليل حديث البخاري «فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله تعالى» لفظ مسلم. قال القرطبي: والإفاقة إنما تكون من غَشْية وزوال عقل، لا عن موت بردِّ الحياة والله أعلم.

(٣) لوحة (٨١/ أ).

(٤) ضعيف: تقدم تخريجه. انظر: سورة البقرة، الآية (٢١٠)، وفي سورة الأنعام، الآية (٣٨)، (٧٣)، وفي سورة إبراهيم (٤٨)، وفي سورة طه، الآية (٧٨).

(٥) اختلف أهل العلم في النفخ في الصور، هل هما نفختان أم ثلاث؟ والأقرب: أنهما نفختان فقط، وهو اختيار العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره. ومِنَ المُضحك المُبكي ما ذُكِرَ عن الإمام الشَّعْبي -عامر بن شَرَاحيل- رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «دخلتُ أُصلِّي في المسجد، فإذا إلى جانبي شيخ عظيم اللحية، قد أطاف به قوم فحدثهم قال: حدثني فلان... يبلغ به النبي ﷺ: «إن الله =

نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، أي: أحياء بعد ما كانوا عظامًا ورُفاتًا، صاروا أحياءً ينظرون إلىٰ أهوال يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شُعبة، عن النُّعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب ابن عاصم بن عُروة بن مسعود قال: سمعت رجلًا قال لعبد الله بن عمرو، إنك تقول: السَّاعة تقوم إلىٰ كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألَّا أحدِّثكم شيئًا!! إنما قلت: سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا، ثم قال عبد الله ابن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي، فَيَمْكُثُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ -لا أدري: أربعين يومًا، أو أربعين عامًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين ليلةً- فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، كَأَنَّهُ عُرْوَةُ ابْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيّ، فَيَظْهَرُ، فَيُهْلِكُهُ اللهُ، ثُمَّ يَلْبَثُ النَّاسُ بَعْدَهُ سِنِينَ سَبْعًا لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ[(١)] فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، «وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ[(٢)] الطَّيْرِ، وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا». قال: «فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِالأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارَّةٌ أَرْزَاقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ [لَهُ][(٣)]، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَهُ، فَيُصْعَقُ، ثُمَّ لَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ إِلَّا صُعِقَ. ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أو: يُنْزِلُ اللهُ- مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ -أَو: الظِّلُّ. شكَّ نُعمان، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]»، قال: «ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ». قال: «فَيُقَالُ: كَمْ؟ قَالَ: فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَيَوْمَئِذٍ تُبْعَثُ الوِلْدَانُ شِيبًا، وَيَوْمَئِذٍ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»[(٤)].

انفرد بإخراجه مسلم في «صحيحه».

وقال البخاري: حدَّثنا عمر بن حفص بن غياث، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الأعمش قال: سمعت أبا

= تعالى خلق صورين، له في كل صور نفختان، نفخة الصعق ونفخة القيامة». قال الشعبيُّ: فلم أضبط نفسي أن خففتُ صلاتي، ثم انصرفت فقلتُ: يا شيخ، اتق الله، ولا تحدثن بالخطأ، إن الله تعالى لم يخلق إلا صورًا واحدًا، وإنما هي نفختان؛ نفخة الصعق، ونفخة القيامة، فقال لي: يا فاجر، إنما حدثني فلان عن فلان، وترد عَلَيَّ؟ ثم رفع نعله فضربني بها، وتتابع القوم عَلَيَّ ضربًا معه، فوالله ما أقلعوا عني حتى حلفتُ لهم أن الله تعالى خلق ثلاثين صورًا، له في كل صور نفخة فأقلعوا عني، فرحلتُ حتى دخلتُ دمشق»، ثم ذكر القصة للخليفة، فضحكَ حتى ضربَ الأرضَ برجليه. «القُصَّاص والمُذكِّرين» لابن الجوزي (ص٣٠٢)، و«تحذير الخواصّ» للسيوطي (ص٢٠٣) ط: الكتب الإسلامي.

(١) في (ز): «حَتَّى أَنْ لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ كَانَ»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) لوحة (٨١/ ب).

(٣) سقط من (ز).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٠)، وأحمد (٢/ ١٦٦).

صالح [قال][(١)]: سمعت أبا هريرة ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أَبيْتُ[(٢)]، قالوا: أربعون سنةً؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيتُ، ويَبْلىٰ كل شيءٍ مِن الإنسان إلا عَجْبَ ذَنَبِه[(٣)] فيه يُركب الخلق[(٤)].

وقال أبو يَعْلَىٰ: حدَّثنا يحيىٰ بن معين، حدَّثنا أبو اليَمَان، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر بن محمَّد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سَأَلْتُ[(٥)] جِبْرِيلَ ﵇ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَنِ الَّذِينَ لَمْ يَشَإِ اللهُ أَنْ يَصْعقَهُمْ؟ قَالَ: هُمُ الشُّهَدَاءُ، مُقَلَّدُونَ أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ عَرْشِهِ، تَتَلَقَّاهُمْ مَلَائِكَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَىٰ المَحْشَرِ بِنَجَائِبَ[(٦)] مِنْ يَاقُوتٍ، نِمَارُهَا أَلْيَنُ مِنَ الحَرِيرِ، مَدُّ خُطَاهَا[(٧)] مَدُّ أَبْصَارِ الرِّجَالِ، يَسِيرُونَ فِي الجَنَّةِ يَقُولُونَ عِنْدَ طُولِ النُّزْهَةِ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَىٰ رَبِّنَا ﷻ لِنَنْظُرَ كَيْفَ يَقْضِي بَيْنَ خَلْقِهِ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ إِلَهِي، وَإِذَا ضَحِكَ إِلَىٰ عَبْدٍ فِي مَوْطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ»[(٨)].

رجاله كلهم ثقاتٌ، إلا شيخَ إسماعيلَ بن عَيَّاش، فإنَّه غير معروفٍ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ[(٩)] رَبِّهَا﴾، أي: أضاءت يومَ القِيَامة إذا تجلَّىٰ الحق -تبارك وتعالىٰ- للخلائق لِفَصْل القَضَاء، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قال ابن عبَّاس: يشهَدُون علىٰ الأُمَمِ بأنَّهم بلَّغُوهم رسالات الله إليهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[(١٠)]، أي:

---

(١) سقط من (ز).

(٢) أبيت: بضم، أي: أن أقول ما لم أسمع، وبالفتح، أي: أن أعرف ذلك فإنه غيب. «فتح الباري»: (٨/ ٦٩٠)، وانظر: (١١/ ٣٧٠).

(٣) عَجْبُ الذَّنَب: هو العظم المحدد أسفل الصلب، وهو مكان الذَّنَب من ذوات الأربع. «هدي الساري»: (ص١٥٣).

(٤) البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٥) في (ز): «سأل جبريل».

(٦) النَّجائب: جمع نجيبة، تأنيث النَّجيب من الإبل، وهو القوي الخفيف السَّريع. والنِّمار: جمع نَمِرة، وهي: كل شملة مخططة من مآزر الأعراب.

(٧) في (ز): «مد خطامها».

(٨) ضعيفٌ، عدا الجملة الأولى فصحيحةٌ: عزاه البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٥٨٠٦)، وابن حجر في «المطالب العالية» (٣٧٩٧) إلى أبي يعلى، وعزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٥٠) إلى أبي يعلى، والدارقطني في «الأفراد»، وابن المنذر والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».
وعمر بن محمَّد هو: ابن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وإسماعيل بن عَياش: ضعيف في روايته عن غير أهل بلدته، وهذا منها؛ لأنَّ عمر بن محمَّد مدنيّ، وبهذا السبب ضعف الشيخ الألباني الحديث في «السلسلة الضعيفة» (٥٤٣٧).
قلت: وأمَّا الفقرة الأولى فقد رواها الحاكم (٢/ ٢٥٣) وصححه، وكذلك صححه المنذري في «الترغيب» (٢/ ١٩٩)، وابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٧١) ولفظه: أنه سأل جبريل ﵇ عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ...﴾ الآية، مَنِ الذين لم يشأ الله أن يَصْعقهم؟ قال: «هُمْ شُهَدَاءُ اللهِ ﷻ».
وانظر «الضعيفة» للشيخ الألباني (٣٦٨٥).

(٩) لوحة (٨٢/ أ).

(١٠) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ فهو من باب عطف العام علىٰ الخاص، والمراد بهم: الذي يشهدون =

الشُّهَداء من الملائكة الحَفَظَةِ علىٰ أعمال العباد مِن خيرٍ وشرٍّ، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، أي: من خيرٍ أو شرٍّ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا(١) ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يُخبر تعالىٰ عن حال الأشقياء الكفَّار كيف يُساقُون إلىٰ النَّار، وإنَّما يُساقون سَوْقًا عَنِيفًا بزجرٍ وتهديدٍ ووعيدٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، أي: يُدْفَعُون إليها دفعًا، هذا وهُم عِطَاشٌ ظِماءٌ، كما قال في [الآية](٢) الأخرىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكمٌ وعميٌ، منهم مَن يَمْشِي علىٰ وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا [وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ](٣) مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فُتِحَتْ لهم أبوابها سريعًا،

= علىٰ الأمم وللرسل، وهم هذه الأمة، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣] فالرسل شهداء علىٰ أممهم، يقولون: يا ربنا نشهد أنك أرسلتنا إلىٰ أقوامنا وأننا بلَّغناهم، ولا يمكن أن يقول أحد في ذلك اليوم: هذه دعوىٰ، فأين البينة؛ لأنه لو قال مثل هذا القول، من يشهد؟ أعضاؤه تشهد، والله يشهد قبل كل شيء، أما الشهداء فنعم، نقول: هم أمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذه الأمة -ولله الحمد- تشهد علىٰ الناس في الدنيا، وفي الآخرة، نحن الآن نشهد أن الله أرسل نوحًا إلىٰ قومه، ونشهد أن قومه أُبْلِغُوا علىٰ الوجه الأكمل، ونشهد أنه بقي فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، كل هذا نشهد به بما علمنا الله عز وجل في كتابه، فيوم القيامة تكون الشهادة لنا علىٰ الأمم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿زُمَرًا﴾: قال: «جماعات متفرقة»، وما وجه التفريق في هذه الجماعات؛ هل باعتبار الأمم أو باعتبار الأعمال؛ بحيث تكون الزمرة الأولىٰ هي الكافرة المشركة، والثانية ما دونها، والثالثة ما دونها، وهكذا؟ فيه احتمال، فإن قلنا بالأول؛ أي: أن هذه الزمر باعتبار الأمم، فإن دليله: قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فإن هذا يدل علىٰ أنهم يُذْهَب بهم إلىٰ النار أممًا، وإن قلنا بالثاني، فدليله: ما يُصْنَع بأهل الجنة؛ أن أول زمرة تدخل الجنة وجوههم كالقمر ليلة البدر، فإن هذا يقتضي أن يكون الزمر باعتبار العمل، فالله أعلم، المهم: أن نعرف أنهم يساقون زمرًا.

(٢) سقط من (ز). (٣) في (ز): «صمًّا وبكمًا». وهو خطأ.

لتُعَجِّلَ لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزَّبَانِيَة -الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القُوَىٰ علىٰ وجهِ التَّقريع والتَّوبيخ والتَّنكيل-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: مِن جنسكم تتمكَّنُون مِن مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحُجَجَ والبراهين[1] علىٰ صحَّة ما دَعَوْكم إليه[2]، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويُحَذِّرُونكُم مِن شرِّ هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: قد جاءُونَا وأنذرُونَا، وأقاموا علينا الحُجَجَ والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ولكن كذَّبناهُم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشِّقْوة التي كنَّا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلىٰ الباطل، كما قال تعالىٰ مخبرًا عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١٠]، [أي: رجعوا علىٰ أنفسهم بالملامة والنَّدامة، ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١١]][3]، أي: بعدًا لهم وخسارًا.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كلُّ مَن رآهم وعَلِمَ حالهم يشهد عليهم بأنَّهم مستحِقُّون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلىٰ قائلٍ مُعينٍ، بل أطلقه ليَدُلَّ علىٰ أنَّ الكون[4] شاهدٌ عليهم بأنَّهم مُستَحِقُّون ما هم فيه بِمَا حكم العدل الخَبير عليهم به؛ ولهذا [قال جلَّ وعلا][5]: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبِئْسَ المصير وبئس المَقِيل[6] لكم، بِسَبَبِ تكبُّرِكُم في الدُّنيا، وإبائِكُم عن اتِّباع الحقِّ، فهُوَ الَّذِي صيَّرَكُم إلىٰ ما أنتُم فيه، فبِئْسَ الحال وبِئْسَ المآل.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٧٤﴾

وهذا إخبارٌ: عن حالِ السُّعَدَاء المؤمنين حين يُسَاقُون علىٰ النَّجَائب وفدًا إلىٰ الجنَّة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعةً بعد جماعةٍ؛ المقرَّبون، ثم الأبرار، ثم الَّذِين يلونهم، ثم الَّذِين يلونهم كلُّ طائفةٍ مع مَن يُنَاسِبُهُم: الأنبياء مع الأنبياء، والصِّدِّيقُون مع أشكالهم، والشُّهَدَاء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صِنْفٍ مع صنفٍ، كل زمرةٍ تناسب بعضها بعضًا.

---

(١) في (ز): «الحجج والبرهان».
(٢) لوحة (٨٢/ ب).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) في (ز): «أن القول».
(٥) سقط من (ز).
(٦) في (ز): «المعقل».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا [(١)] إلىٰ أبواب الجنَّة بعد مجاوزة الصِّراط، حُبِسُوا علىٰ قَنْطرةٍ بين الجنَّة والنَّار، فاقتُصَّ لهم مظالم كانت بَيْنَهُم في الدُّنيا، حتَّىٰ إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنَّة، وقد ورد في حديث الصُّور أن المؤمنين إذا انتهوا إلىٰ أبواب الجنة تشاوروا فيمن يَسْتَأْذِنُ لهم بالدُّخول، فيقصدون، آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم محمَّدًا -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- كما فعلوا في العَرَصَات [(٢)] عند استشفاعهم إلىٰ الله ﷻ أن يأتي لفَصْل القَضَاء؛ ليظهر شرف محمَّدٍ ﷺ علىٰ سائرِ البشر في المواطن كلها.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَّةِ»**، وفي لفظ لمسلم: **«وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ»** [(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم، حدَّثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: يَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَلَّا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»** [(٤)].

ورواه مسلم عن عمرو الناقد وزُهَير بن حرب، كلاهما عن أبي النَّضْر هاشم بن القاسم، عن سليمان -وهو ابن المُغيرة القَيْسي- عن ثابت، عن أنس به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَرٌ، عن همَّام بن مُنَبهٍ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا. آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأُلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»** [(٥)].

رواه البخاري عن محمَّد بن مُقَاتِل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم، عن محمَّد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن مَعْمر بإسناده نحوه. وكذا رواه أبو الزِّناد، عن الأعْرج، عن أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ أبو يَعْلىٰ: حدَّثنا أبو خَيْثَمةَ، حدَّثنا جريرٌ، عن عُمارة بن القَعْقاع، عن أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة [(٦)] ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ ضَوْءِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأُلُوَّةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَىٰ خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»** [(٧)].

---

(١) لوحة (٨٣/ أ). (٢) في (ز): «في الصرخات».
(٣) مسلم (١٩٦). (٤) مسلم (١٩٧)، وأحمد (٣/ ١٣٦).
(٥) البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٥٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٣١٦) من حديث أبي هريرة.
(٦) لوحة (٨٣/ ب). (٧) أبو يعلى (٦٠٨٤)، ورواه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).

وأخرجاه أيضًا من حديث جرير.

وقال الزُّهري، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ، هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». أخرجاه[1].

وقد روىٰ هذا الحديث -في السبعين ألفًا [يدخلون الجنة][2] بغير حساب- البخاري ومسلم، عن ابن عبَّاسٍ، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورِفَاعة بن عَرَابَة الجُهَني، وأُمِّ قَيْسٍ بنتُ مِحْصَن[3].

ولهما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا -أو: سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ- آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّىٰ يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الجَنَّةَ، وُجُوهُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»[4].

وقال أبو بكر بن أبي شَيْبة: حدَّثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن محمَّد بن زياد قال: سمعت أبا أُمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَلا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذَابَ، وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»[5].

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صَفْوان بن عمرو، عن سُلَيم[6] بن عامر، عن أبي اليَمَان عامر بن عبد الله بن لُحَيٍّ[7]، عن أبي أُمَامة رضي الله عنه.

ورواه الطبراني، عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلَمي: «ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا».

وروىٰ مثله عن ثَوْبان وأبي سعيد الأنماري، وله شواهد من وجوهٍ كثيرةٍ[8].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، لم يذكر الجواب[9] هاهنا، وتقديره: حتىٰ إذا جاءُوهَا، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكرامًا وتعظيمًا، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسَّلام والثَّناء، لا كما تلقَىٰ الزَّبانية الكفَرَة بالتَّريب[10]

---

(١) البخاي (٥٨١١) (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦). (٢) سقط من (ز).

(٣) تقدم تخريج هذه الأحاديث. انظر تفسير سورة آل عمران الآية (١١٠ - ١١٢).

(٤) البخاري (٦٥٤٣، ٦٥٥٤)، ومسلم (٢١٩).

(٥) صحيح: رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٢٧)، وأحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجة (٤٢٨٦)، وصححه الألباني (٥/ ٢١٢).

(٦) في (ز): «حكيم بن عامر»، وهو خطأ. (٧) في (ز): «عبد الله بن يحيى»، وهو خطأ.

(٨) وقد أورد هذه الشواهد الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٧٩)، وانظر تفسير سورة آل عمران (الآية ١١٠ - ١١٢).

(٩) لوحة (٨٤/ أ). (١٠) التثريب: التوبيخ.

والتَّأنيب، فتقديره: إذا كان هذا، سَعِدُوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كلِّ ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حُذف الجواب هاهنا ذهب الذِّهن كل مذهبٍ في الرَّجاء والأمل.

ومَن زَعَم أنَّ «الواو» -في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾- واو الثَّمانية، واستدل به علىٰ أن أبواب الجنَّة ثمانيةٌ، فقد أبعد النُّجْعَة وأغرق في النَّزع[1]، وإنما يستفاد كونُ أبواب الجنَّة ثمانيةً من الأحاديث الصَّحيحة.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن الزُّهْري، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ». فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا رسول الله، ما علىٰ أحدٍ من ضرورةٍ دُعِي من أيِّها دُعِيَ، فهل يُدْعىٰ منها كلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[2].

ورواه البخاري ومسلم من حديث الزُّهْري بنحوه.

وفيهما من حديث أبي حازم -سلمة بن دينار- عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّىٰ الرَّيَّانَ، لا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ»[3].

وفي «صحيح مسلم»، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغ -أو: فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ- ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[4].

وقال الحَسَن بن عَرَفة: حدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِفْتَاحُ الجَنَّةِ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[5].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أصح الأقوال: أن الواو للعطف وليست للحال، وأن الجواب محذوف مقدر قبل الواو، التقدير: حتىٰ إذا جاءوها هذبوا ونقوا وفتحت أبوابها، وهذا القول هو الراجح بدلالة الأحاديث عليه، فإنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة: أنهم إذا عبروا الجسر الصراط الممدود علىٰ جهنم، وُقِفُوا علىٰ قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، حتىٰ إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، ثم إنهم أيضًا إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابها مفتوحة؛ بل يجدونها مغلقة، حتىٰ يشفع النبي ﷺ فيفتح الله أبوابها، هذا القول هو الراجح المتعين لدلالة السنة عليه.

(٢) البخاري (١٨٢٧)، ومسلم (١٠٢٧)، وأحمد (٢/ ٤٤٩).

(٣) البخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (١١٥٢).

(٤) رواه مسلم (٢٣٤).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٤٢)، وفيه انقطاع بين شهر ومعاذ، وشهر: كثير الإرسال والأوهام، وإسماعيل بن عياش روايته عن غير أهل بلده ضعيفة، وهذا منها.

ذكرُ سعَة أبواب الجنَّة -نسألُ الله العظيم من فضله أن يجْعَلنَا من أهلها-[(١)]:

في «الصحيحين» من حديث أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «فَيَقُولُ اللهُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي الأَبْوَابِ الأُخَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ -ما بين عِضَادَتَي[(٢)] الباب- لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أو: هَجَرَ وَمَكَّةَ». وفي رواية: «مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم»، عن عُتْبة بن غَزْوان أنه خطبهم [خُطبة][(٤)] فقال فيها: «وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ [مَا بَيْنَ][(٥)] مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ[(٦)] [مِنَ][(٧)] الزِّحَامِ»[(٨)].

وفي «المسند» عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ مثله.

وقال عَبْد بن حُميد: حدَّثنا الحسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، حدَّثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»[(٩)].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطابَ جَزَاؤُكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن يُنادىٰ بين المسلمين في بعض الغزوات: «إِنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»، وفي روايةٍ: «مُؤْمِنَةٌ»[(١٠)].

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حِوَلًا.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عَايَنُوا في الجنَّة ذلك الثَّواب الوَافِر، والعطاء العَظِيم، والنَّعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، أي: الَّذي كان وعدنا علىٰ ألسنةِ رسله الكِرَام، كما دعوا في الدُّنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، [﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣].][(١١)]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا

---

(١) لوحة (٨٤/ ب).
(٢) العَضادتان: خشبتا الباب من جانبيه.
(٣) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٢/ ٤٣٥).
(٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».
(٥) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».
(٦) أي: ممتلئ.
(٧) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».
(٨) مسلم (٢٩٦٧)، ورواه أحمد (٥/ ٣) عن حكيم بن معاوية عن أبيه نحوه.
(٩) في هذا الإسناد ضعفٌ؛ لأنَّه من رواية دَرَّاج عن أبي الهيثم وهي ضعيفة، وفي الإسناد أيضًا ابن لهيعة وقد اختلط، لكن يشهد له ما تقدَّم.
(١٠) مسلم (١١١).
(١١) سقطت من (ز).

يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾، قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد؛ أي: أرض الجنَّة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ[١] أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: أين شئنا حَلَلْنا، فنِعْم الأجرُ أجرُنَا علىٰ عملنا[٢].

وفي «الصحيحين» من حديث الزهري، عن أنس في قصة المِعْراج قال النَّبيُّ ﷺ: «**أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ[٣] اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ**»[٤].

وقال عبد بن حُميد: حدَّثنا رَوْح بن عُبادة، حدَّثنا حمَّاد بن سَلَمة، حدَّثنا الجُريري، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيدٍ ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ سأل ابن صائدٍ عن تُربة الجنة، فقال: دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسْكٌ خالصٌ: فقال رسول الله ﷺ: «**صَدَقَ**»[٥].

وكذا رواه مسلم، من حديث أبي مَسْلمة[٦]، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيدٍ به.

ورواه مسلم أيضًا عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة، عن الجُرَيْري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيدٍ؛ أنَّ ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنَّة، فقال: «**دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ**».

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو غسَّان مالك بن إسماعيل، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضَمرة، عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سِيقُوا حتىٰ انتهوا إلىٰ بابٍ من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرةً يخرج مِن تحت ساقِهَا عينان، فعَمَدُوا إلىٰ إحداهما فتَطَهَّرُوا منها، فجرت عليهم نَضْرَة النَّعيم، فلم تُغَيَّر أبشارهم بعدها أبدًا، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدًا بعدها، كأنَّما دهنوا بالدِّهان، ثم عَمَدُوا إلىٰ الأخرىٰ كأنَّما أمروا بها، فشَرِبُوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذىٰ أو قذىٰ، وتلقَّتْهُم الملائكة علىٰ أبواب الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. ويلقىٰ كل غلمان

---

(١) لوحة (٨٥/ أ).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: يتوجه قوله: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ بوجهين:

الوجه الأول: إما أن المعنىٰ: حيث نشاء في الدنيا بمعنىٰ: أن الإنسان في الدنيا له أن يعمل العمل الذي يؤهله إلىٰ الدرجات أو العمل الذي يجعله في الوسط، أو العمل الذي يجعله في الأدنىٰ.

الثاني: حيث نشاء في الجنة؛ يعني: أننا ففي الجنة لا نشاء إلا ما نحن فيه، بمعنىٰ: أن كل واحد منا يقتنع بمكانه الذي سكنه ولا يريد غيره، ودليل هذا قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

(٣) **الجَنَابِذ**: جمع جُنبُذة، وهي القبة.

(٤) البخاري (٣٤٩) (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٥) مسلم (٢٩٢٨).

(٦) في (ز): «أبي سلمة»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».

صاحِبَهُم يُطيفُون به، فعل الولدان بالحَمِيمِ جاء مِن الغَيْبَةِ: أَبْشِر، قد أعَدَّ الله لك من الكَرَامَة كذا وكذا، قد أعدَّ الله لَكَ من الكَرَامَة كذا وكذا، قال: وينطلق غلامٌ مِن غلمانِهِ إلىٰ أزواجِهِ من الحُورِ العين، فيقول: هذا فلان -باسمه في الدنيا- فيَقُلْن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم، فيَسْتخِفُّهُنَّ الفرح حتىٰ تخرج إلىٰ أُسكُفَّةِ(١) الباب، قال: فيَجِيءُ فإذا هو بنمارقَ مصفوفةٍ، وأكوابٍ موضوعةٍ، وزرابيّ مبثوثةٍ، قال(٢): ثم ينظر إلىٰ تأسيس بنيانه، فإذا هو قَدْ أُسِّسَ علىٰ جَنْدلِ اللُّؤلؤ، بين أحمرَ وأخضرَ وأصفرَ [وأبيضَ](٣)، ومِن كلِّ لونٍ، ثم يرفع طَرْفه [إلىٰ سقفه](٤)، فلولا أنَّ الله قدره له، لألَمَّ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلىٰ أزواجِهِ مِن الحور العين، ثم يتَّكِئُ علىٰ أريكةٍ من أرَائِكِه، ثم يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] الآية(٥).

ثم قال: حدَّثنا، أبي حدَّثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهْدِي، حدَّثنا مَسْلمة بن جعفر البَجَلي قال: سمعت أبا معاذ البَصْري يقول: إن عليًّا رضي الله عنه كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يُسْتَقْبَلُونَ [-أَوْ:](٦) يُؤْتَوْنَ- بِنُوقٍ لَهَا أَجْنِحَةٌ، وَعَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ، شِرَاكُ(٧) نِعَالِهِمْ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهَا مَدُّ البَصَرِ، فَيَنْتَهُونَ إِلَىٰ شَجَرَةٍ يَنْبُعُ(٨) مِنْ أَصْلِهَا عَيْنَانِ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيُغْسَلُ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ دَنَسٍ، وَيَغْتَسِلُونَ مِنَ الأُخْرَىٰ، فَلَا تَشْعَثُ أَبْشَارُهُمْ وَلَا أَشْعَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَيَنْتَهُونَ - أو: فَيَأْتُونَ- بَابَ الجَنَّةِ، فَإِذَا حَلْقَةٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ عَلَىٰ صَفَائِحِ الذَّهَبِ، فَيَضْرِبُونَ بِالحَلْقَةِ عَلَىٰ الصَّفِيحَةِ، فَيُسْمَعُ(٩) لَهَا طَنِينٌ يَا عَلِيُّ، فَيَبْلُغُ كُلَّ حَوْرَاءَ أَنَّ زَوْجَهَا قَدْ أَقْبَلَ، فَتَبْعَثُ قَيِّمَهَا فَيَفْتَحُ لَهُ، فَإِذَا رَآهُ خَرَّ لَهُ -قال مسلمة: أراه قال: سَاجِدًا- فَيَقُولُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَإِنَّمَا أَنَا قَيِّمُكَ، وُكِّلْتُ بِأَمْرِكَ. فَيَتْبَعُهُ وَيَقْفُو أَثَرَهُ، فَتَسْتَخِفُّ الحَوْرَاءَ العَجَلَةُ، فَتَخْرُجُ مِنْ خِيَامِ الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ حَتَّىٰ تَعْتَنِقَهُ، ثُمَّ تَقُولُ: أَنْتَ حِبِّي، وَأَنَا حِبُّكَ، وَأَنَا الخَالِدَةُ الَّتِي لَا أَمُوتُ، وَأَنَا النَّاعِمَةُ الَّتِي لَا أَبْأَسُ، وَأَنَا الرَّاضِيَةُ الَّتِي لَا أَسْخَطُ، وَأَنَا المُقِيمَةُ الَّتِي لَا أَظْعَنُ، فَيَدْخُلُ بَيْتًا مِنْ أُسِّهِ إِلَىٰ سَقْفِهِ مِائَةُ أَلْفِ ذِرَاعٍ، بِنَاؤُهُ عَلَىٰ جَنْدَلِ اللُّؤْلُؤِ، طَرَائِقُ أَصْفَرُ وَأَخْضَرُ وَأَحْمَرُ، لَيْسَ فِيهَا طَرِيقَةٌ تُشَاكِلُ صَاحِبَتَهَا، فِي البَيْتِ سَبْعُونَ سَرِيرًا،

---

(١) الأسكفة: خشبة الباب التي يوطأ عليها.
(٢) لوحة (٨٥/ ب).
(٣) ليست في (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤١٣)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٥٠)، والبيهقي في «البعث» (٢٤٦)، والطبري (٢٤/ ٢٤)، وفي سنده عاصم بن ضَمْرة السَّلُولي؛ قال الحافظ: صدوق.
قلت: وثَّقه ابن معينٍ وابن المديني، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن عدي: ينفرد عن علي بأحاديثَ والبليَّةُ منه، وقال ابن حبان: كان رديءَ الحفظ فاحشَ الخطأ، يرفع عن عليٍّ كثيرًا فاستحق الترك.
قلت: وهذا لم يرفعه، بل وقفه على عليٍّ فلا يستحق الترك لهذا؛ فالإسناد حسن إن شاء الله.
(٦) سقط من (ز).
(٧) الشِّرَاك: سير النعل.
(٨) في (ز): «نبعت».
(٩) في (ز): «فلو تسمع».

عَلَىٰ كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ حَشِيَّةً، عَلَىٰ كُلِّ حَشِيَّةٍ سَبْعُونَ زَوْجَةً، عَلَىٰ كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهَا مِنْ بَاطِنِ الحُلَلِ، يَقْضِي جِمَاعَهَا فِي مِقْدَارِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ، الأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِهِمْ تَطَّرِدُ، أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ -قال[١] : صَافٍ، لا كَدَرَ فِيهِ- وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ -قال: لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ المَاشِيَةِ- وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ -قال: لَمْ تَعْصِرْهَا الرِّجَالُ بِأَقْدَامِهِمْ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ -قال: لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ- يَسْتَجْنِي الثِّمَارَ، فَإِنْ شَاءَ قَائِمًا، وَإِنْ شَاءَ قَاعِدًا، وَإِنْ شَاءَ مُتَّكِئًا، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤]، فَيَشْتَهِي الطَّعَامَ فَيَأْتِيهِ طَيْرٌ أَبْيَضُ -قال: وربما قال: أَخْضَرُ- قال: فَتَرْفَعُ أَجْنِحَتَهَا، فَيَأْكُلُ مِنْ جُنُوبِهَا، أَيَّ الأَلْوَانِ شَاءَ، ثُمَّ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ، فَيَدْخُلُ المَلَكُ فَيَقُولُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَلَوْ أَنَّ شَعَرَةً مِنْ شَعَرِ الحَوْرَاءِ وَقَعَتْ لِأَهْلِ الأَرْضِ، لَأَضَاءَتِ الشَّمْسُ مَعَهَا [سَوَادًا فِي نُورٍ][٢] »[٣] .

هذا حديثٌ غريبٌ، وكأنَّه مرسلٌ، والله أعلم.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ حكمه في أهل الجنَّة والنَّار، وأنَّه نَزَّل كُلًّا في المحل الَّذي يليق به ويَصْلُح له، وهو العَادِل في ذلك، الذي لا يجور -أخبر عن ملائكته أنَّهم مُحدقون من حول عرشه المجيد، يسبِّحون بحمد ربِّهم، ويمجدونه ويعظمونه ويُقَدِّسُونه ويُنَزِّهُونَهُ عن النَّقائص والجَور، وقد فصل القضيَّة، وقضي الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ ، أي: بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ .

ثم قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، أي: ونطقَ الكَوْنُ أجمعُهُ -نَاطِقُه وبَهِيمُهُ- لله ربِّ العالمين بالحَمْدِ في حُكْمه وعَدْله؛ ولهذا لم يُسند القول إلىٰ قائلٍ بل أَطْلَقه، فدلَّ[٤] علىٰ أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، واختتم بالحمدِ في قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[آخر تفسير سورة الزُّمَر، ولله الحمد][٥]، [أوَّلًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا][٦].

---

(١) لوحة (٨٦/ أ). (٢) في (ز): «سوافي نور».

(٣) ضعيف: مسلمة بن جعفر البَجَلي، أورده ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا (٨/ ١٢٧)، وقال الذهبي: يُجْهل، والإسناد منقطعٌ أيضًا، فأبو معاذ البصري: سليمان بن أرقم من السابعة، فالإسناد منقطعٌ بينه وبين علي رضي الله عنه.

(٤) في (ز): «فقال». (٥) سقط من (ز). (٦) ليست في (ز).

سورة غافر

تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرٍ[(١)(٢)]، وهِيَ مَكِّيَّةٌ

قد كَرِهَ بعضُ السَّلف، منهم محمَّد بن سيرين أن يقال: «الحَوَامِيم»، وإنَّما يقال: «آل حم»[(٣)].

قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» دِيبَاج القرآن[(٤)].

وقال ابن عبَّاسٍ: إنَّ لكلِّ شيءٍ لُبابًا، ولُبَاب القرآن «آل حم» -أو قال: الحَوَامِيم[(٥)].

قال مِسْعَرُ بن كِدَام: كان يقال لهن: «العرائس»[(٦)].

روىٰ ذلك كله الإمام العَلم أبو عُبيد القاسم بن سَلَّام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب: «فضائل القرآن».

وقال حُميد بن زَنْجويه: حدَّثنا عُبيد الله بن موسىٰ، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأَحْوَص، عن عبد الله قال: إنَّ مَثَل القرآن كمَثَل رجلٍ انطلقَ يرتادُ لأهله منزلًا، فمَرَّ بأثر غيثٍ، فبينا هو يسيرُ فيه ويتعجَّب منه، إذ هبط علىٰ رَوْضَاتٍ دَمِثَاتٍ[(٧)]، فقال: عَجِبْتُ مِنَ الغَيْث الأوَّل فهذا أَعْجَبُ وأعجب. فقيل له: إن مَثَل الغَيْثِ الأوَّل مثل عِظَم القرآن، وإن مثل هؤلاء الرَّوضات الدَّمثات، مثل «آل حم» في القرآن. أورده البغوي[(٨)].

---

(١) في (ز): «تفسير سورة المؤمن».

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: وتسمىٰ أيضًا سورة المؤمن وسورة الطول وهي أول آل حم التي يقال لها ديباج القرآن وعرائس القرآن ويقال ذوات حَم وذكر القرطبي أن رجلًا من أهل الشام كان ذا بأس شديد فقيل لعمر وقد سأل عنه أنه تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر إلىٰ فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم حَم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا غله إلا هو إليه المصير ثم ختم الكتاب وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتىٰ تجده صاحيًا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني الله يغفر لي وحذَّرني عقابه، فلم يبرح يرددها حتىٰ بكىٰ ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته فلما بلغ عمر أمره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم زل زلة فسددوه وادعو الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا عونًا للشيطان عليه.

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٨).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٧)، والحاكم (٢/ ٤٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٧١)، وإسناده منقطع بين مجاهد وابن مسعود.

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٧)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٦) لوحة (٨٦/ ب). ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن».

(٧) دَمِثات: جمع دَمِثة، وهي الأرض السهلة الرخوة.

(٨) رواه البغوي (١٨٤١)، ورجاله ثقات.

وقال ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب: أن الجرَّاح بن أبي الجراح حدَّثه عن ابن عبَّاس، قال: لكلِّ شيءٍ لُبابٌ، ولبابُ القرآن الحواميم(١).

وقال ابن مسعود: إذا وَقعْتُ في: «آل حَم» [فقد](٢) وقعتُ في رَوْضات أتأنَّق(٣) فيهن(٤).

وقال أبو عُبيد: حدَّثنا الأَشْجَعِيُّ، حدَّثنا مِسْعر -هو ابن كِدَام- عمَّن حدَّثه: أنَّ رجلًا رأىٰ أبا الدَّرْداء رضي الله عنه يبني مسجدًا، فقال له: ما هذا؟ فقال: أَبْنِيهِ من أجل «آل حم»(٥).

وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدَّرْداء هو المسجد المنسوب إليه داخل قَلْعَة دمشق. وقد يكون صِيَانَتُها وحفظها ببركته وبركة ما وُضِعَ له، فإنَّ هذا الكلام يدلُّ علىٰ النَّصر علىٰ الأعداء، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «**إِنْ بُيِّتُّمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: «حَم، لا يُنْصَرُونَ»**، وفي رواية: «**لا تُنْصَرُونَ**»(٦).

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدَّثنا أحمد بن الحكم [بن ظَبْيَان](٧) بن خَلف المَازِني، ومحمَّد ابن الليث الهَمداني قالا: حدَّثنا موسىٰ بن مسعود، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المَليكي، عن زُرَارة بن مُصْعَب، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ وَأَوَّلَ حَم المُؤْمِنِ، عُصِمَ ذَلِكَ اليَوْمَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ**». ثم قال: لا نعلمه يُروىٰ إلا بهذا الإسناد(٨).

ورواه التِّرمذي من حديث المليكي، وقال: تكلَّم فيه بعض أهل العلم مِن قِبَلِ حفظِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

أمَّا الكلام علىٰ الحروف المقطَّعة، فقد تقدَّم في أوَّل «سورة البقرة»، بما أغنىٰ(٩) عن إعادته هاهنا.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا، وفي إسناده ابن لهيعة. (٢) سقط من (ز).

(٣) أي: أعجب بهن، وأستلذ قرائتهن، وأتتبع محاسنهن.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١٣٧)، وفيه المسعودي اختلط، والإسناد منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود.

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٧)، وفيه رجل مجهول.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٦٥)، وأبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (٢٦٨٢)، ورجاله ثقات، ولا يضرُّه عنعنة أبي إسحاق، فالثوري من أثبت الناس فيه.

(٧) سقط من (ز).

(٨) ضعيف: رواه الترمذي (٢٨٧٩)، وفيه عبد الرحمن بن أبي بكر: ضعيف.

(٩) لوحة (٨٧/ أ).

وقد قيل: إن ﴿حمٓ﴾ اسمٌ من أسماء الله ﷻ، وأنشدوا في ذلك:

يُـــذَكِّرُنِي حَـــامِيمَ وَالـــرُّمْحُ شَـــاجِرٌ فَهَـــلَّا تَـــلَا حَـــامِيمَ قَبْـــلَ التَّقَـــدُّمِ

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي، من حديث الثَّوري، عن أبي إسحاق، عن المُهَلَّب بن أبي صُفْرة قال: حدَّثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ بُيِّتُّمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حَم، لا يُنْصَرُونَ». وهذا إسنادٌ صحيحٌ[(١)].

واختار أبو عبيد أن يُروىٰ: «فَقُولُوا: حَم، لا يُنْصَرُوا». أي: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاءً لقوله: [فَقُولُوا][(٢)].

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، أي: تنزيل هذا الكتاب -وهو القرآن- من الله ذي العزَّة والعِلْم، فلا يُرَام جنابه[(٣)]، ولا يخفىٰ عليه الذَّرُّ وإن تكَاثَف حِجَابه.

وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، أي: يغفر ما سَلَفَ من الذَّنب، ويقبل التَّوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخَضَعَ لديه.

وقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: لمن تمرَّد وطغىٰ وآثَرَ الحياة الدُّنيا، وعتا عَن أوامر الله وبغىٰ، [وقد اجتمع في هذه الآية الرَّجاء والخوف][(٤)]. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ يقرنُ هذين الوصفين كثيرًا في مواضعَ متعدِّدةٍ من القرآن؛ ليبقَىٰ العبد بين الرَّجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يعني: السَّعَة والغِنَىٰ، وكذا قال مُجاهد وقتادةُ.

وقال يزيد بن الأَصَمِّ: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ يعني: الخير الكثير.

وقال عِكْرِمة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: ذي المَنِّ.

وقال قتادة: [يعني][(٥)] ذي النِّعَمِ والفَوَاضِلِ.

والمعنىٰ: أنَّه المتفضِّل علىٰ عباده، المتطوِّل عليهم بما هم [فيه][(٦)] مِن المِنَنِ والإنعام، التي لا

---

(١) تقدَّم قريبًا، انظر الصفحة الماضية.

(٢) سقط من (ز). وانظر: «فضائل القرآن» (صـ٢٥٤).

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وهـــو العزيـــز فـــلا يـــرامُ جنابـــه أنَّـــىٰ يُـــرام جنـــاب ذي الـــسلطان؟

(٤) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

(٥) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

(٦) سقط من (ز).

يُطِيقُون القيام بشُكْرِ واحدةٍ منها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نَظِيرَ له في جميع صفاتِه، فلا إِلَهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سواه، ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه المَرْجِع والمآب، فيُجازي كل عاملٍ بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عَيَّاش: سمعت أبا إسحاق السَّبِيعيَّ يقول: جاء رجلٌ إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إني قَتَلْتُ، فهل لي من توبةٍ؟ فقرأ عليه: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، وقال: اعمل ولا تيأس(١).

رواه ابن أبي حاتم(٢) -واللفظ له- وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن مَرْوان الرَّقِّي، حدَّثنا عمر: -يعني: ابن أيوب- أخبرنا جعفر بن بُرْقان، عن يزيد بن الأَصَمِّ قال: كان رجلٌ من أهل الشَّام ذو بأسٍ، وكان يَفِدُ إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشَّراب، قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «مِن عمر بن الخطاب إلىٰ فلان ابن فلان، سلامٌ عليك، [أما بعد](٣)، فإني أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو، غافر الذَّنب وقابل التَّوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِلَ بقَلْبِه، وأن يتوب [الله](٤) عليه، فلمَّا بلغ الرَّجلَ كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذَّنب وقابل التَّوب [شديد العقاب](٥)، قد حذَّرني عقوبته، ووعدني أن يَغْفِرَ لي.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن بُرْقان، وزاد: «فلم يزل يُرَدِّدها علىٰ نفسه، ثم بكىٰ، ثم نزع(٦) فأحسن النَّزع، فلما بلغ عمر ﷺ خبرهُ قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زلَّ زلَّةً فسدِّدُوه ووَفِّقُوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمر بن شَبَّة(٨)، حدَّثنا حمَّاد بن وَاقِد -أبو عُمَر الصَّفَّار- حدَّثنا ثابت

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤١٥)، والطبري (٢٤/ ٤١)، وإسناده منقطع.
(٢) لوحة (٨٧/ ب). (٣) ليست في (ز).
(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «تفسير ابن أبي حاتم».
(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «تفسير ابن أبي حاتم».
(٦) أي: رجع فأحسن الرجوع.
(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٧)، وفيه انقطاع بين يزيد بن الأصم وبين عمر بن الخطاب.
(٨) في (ز): «عمر بن شعبة»، وهو خطأ، ووقع عند «ابن أبي حاتم»: «عمر بن شيبة»، وكذا مثبتٌ في بعض طبعات «تفسير ابن كثير»، وهو خطأ، فأبو عمر الصفار حماد بن واقد إنما يروي عنه «عمر بن شبة» كما في «تهذيب الكمال» وكتب الرجال.

البُناني، قال: كنت مع مصعب بن الزبير في سَواد الكوفة، فدخلت حائطًا أصلي ركعتين فافتتحت: ﴿حمٓ﴾ المؤمن، حتىٰ بلغت: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فإذا رجلٌ خلفي علىٰ بغلةٍ شَهْباءَ عليه مُقَطَّعاتٌ يمنيةٌ فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لي ذنبي». وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتي». وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، فقل: «يا شَدِيد العقاب، لا تعاقبني». قال: فَالْتَفَتُّ فلم أرَ أحدًا، فخرجت إلىٰ الباب فقلت: مَرَّ بكم رجلٌ عليه مُقَطَّعَاتٌ يمنيةٌ؟ قالوا: ما رأينا أحدًا فكانوا يُرون أنه إلياس(1).

ثم رواه من طريقٍ أخرىٰ، عن ثابت بنحوه، وليس فيه ذكر إلياس.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ(2) كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾

يقول تعالىٰ: ما يدفع الحق ويجادل فيه -بعد البيان وظهور البُرهَان- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الجاحدون لآيات اللهِ وحُجَجِهِ وبراهينه، ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان:٢٤].

ثم قال تعالىٰ مُسليًا لنبيه محمَّد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأنَّ له أسوةً مَنْ سَلَفَ مِن الأنبياء؛ فإنَّه قد كذَّبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليلٌ، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ -وهو أوَّلُ رسولٍ بَعَثَه الله ينهىٰ عن عبادة الأوثان- ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من كل أمةٍ، ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ﴾، أي: حَرَصُوا علىٰ قتله بكلِّ ممكنٍ، ومنهم مَن قتل رسوله، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، أي: مَاحَلُوا(3) بالشُّبهة ليردوا الحقَّ الواضح الجليَّ.

وقد قال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا عَارِم أبو النعمان، حدَّثنا مُعْتَمِرُ بن سليمانُ قال: سمعت أبي يحدث عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَعَانَ بَاطِلًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»(4).

---

(١) ضعيف: فيه حماد بن واقد: ضعيف. رواه ابن أبي حاتم (١٨٤١٧).

(٢) لوحة (٨٨/ أ).   (٣) أي: دافعوا وحاولوا، من المحال، وهو الكيد، وقيل: المكر.

(٤) صحيح بطرقه: رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١١٥٣٩)، وفي إسناده حَنَش وهو الحسين بن قيس. في «التقريب»: متروك، =

وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾، أي: أهلكتُهم على ما صَنَعُوا من هذه الآثامِ والذُّنوبِ العِظَامِ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالِي بهم؟ قد كان شديدًا موجعًا مؤلمًا.

قال قتادة: كان والله شديدًا.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[١]، أي: كما حقت كلمةُ العذاب على الَّذِين كفروا من الأمم السَّالفة، كذلك حقَّت على المكذِّبين من هؤلاء الَّذِين كذَّبوك وخالَفوك يا محمَّد بطريق الأَوْلَىٰ والأحرىٰ؛ لأنَّ من كذَّبك فلا وثوق له بتصديقِ غيرك[٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً[٣] وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الملائكة المقرَّبين من حَمَلةِ العرش الأربعة، ومَن حوله مِن الكَرُوبيِّين[٤]، بأنَّهم يسبِّحون بحمدِ ربِّهم؛ أي: يقرنون بين التَّسبيح الدَّال على نفيِ النَّقائص، والتَّحميد المُقتضي لإثباتِ صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: خاشعون له أذلَّاء بين يديه، وأنَّهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: من أهل الأرض ممَّن آمن بالغيب، فقيَّض الله سبحانه ملائكته المقرَّبين أن يَدْعُوا

= ورواه الحاكم (٤/ ١٠٠) من نفس الطريق موقوفًا، قال الحاكم: صحيح، وتعقبه الذهبي فقال: حنش ضعيف، والحديث صحَّحه الألباني لطرقه وشواهده. انظر: «الصحيحة» (١٠٢٠، ١٠٢١)، ومن شواهده التي أوردها الشيخ حديث ابن عمر مرفوعًا بإسناد حسن: «مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ (أَوْ يُعِينُ عَلَىٰ ظُلْمٍ) لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْزِعَ». رواه ابن ماجة (٢٣٢٠)، والحاكم (٤/ ٩٩) وصحَّحه ووافقه الذهبي. ومعنىٰ: «حَتَّىٰ يَنْزِعَ»، أي: يترك ذلك بتوبة.

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: الإجماع على وجوب الوقف على قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٦] ثم يستأنف القراءة قائلًا الذين يحملون العرش...الخ إذ يقبح أن يتبادر إلىٰ ذهن السامع أن أصحاب النار هم الذين يحملون العرش.

(٢) لوحة (٨٨/ ب).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: من فوائد هذه الآية الكريمة: سعة رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾، فإن قال قائل: كيف يصح ذلك، وأكثر بني آدم كفار فأين الرحمة؟ كلهم: مرحومون بالرحمة العامة، من يُخْرِجُ لهم النبات، ومن يُنزل لهم المطر، ومن يجعلهم أَصِحَّاء من يمتعهم بالسمع بالبصر إلا الله، وهذه رحمة، فرحمة الله وسعت كل شيء.

(٤) الكَرُوبِيُّونَ: أَقْرَبُ الملائكة إِلَىٰ حَمَلَةِ العَرْش. «اللسان»: كرب.

للمؤمنين بظهرِ الغيب، [ولمَّا كان هذا مِن سَجَايَا الملائكة عليهم الصَّلاة والسَّلام، كانوا يُؤمِّنون علىٰ دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب][(١)]، كما ثبت في «صحيح مسلم»: «**إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ**»[(٢)].

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد -هو: ابن أبي شَيبة- حدَّثنا عَبْدَة بن سليمان، عن محمَّد بن إسحاق، عن يعقوب بن عُتبة، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ صَدَّق أُميَّة في شيءٍ مِن شِعْره، فقال:

رَجُـلٌ وَثَـوْرٌ تَحْـتَ رِجْـلِ يَمِينِـهِ ... وَالنَّـسْرُ لِلأُخْـرَىٰ وَلَيْـثٌ مُرْصَـدُ

فقال رسول الله ﷺ: «**صَدَقَ**». فقال:

وَالـشَّمْسُ تَطْلُـعُ كُـلَّ آخِـرِ لَيْلَـةٍ ... حَمْـرَاءَ يُـصْبِحُ لَوْنُهَـا يَتَـوَرَّدُ[(٣)]

تَـأْبَىٰ فَمَـا تَطْلُـعُ لَنَـا فِـي رِسْـلِهَا ... إِلَّا مُعَذَّبَـــةً وَإِلَّا تُجْلَـــدُ

فقال النَّبيُّ ﷺ: «**صَدَقَ**»[(٤)].

وهذا إسنادٌ جيدٌ. وهو يقتضي أن حَمَلَةَ العرش اليوم أربعةٌ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانيةً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤالٌ وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث، وبين الحديث الذي رواه أبو داود:

حدَّثنا محمَّد بن الصَّبَّاح البَزَّاز، حدَّثنا الوليد بن أبي ثَوْرٍ، عن سِمَاكٍ، عن عبد الله بن عَمِيْرَة، عن الأَحْنَف بن قَيْسٍ، عن العبَّاس بن عبد المُطلب، قال: كُنْتُ بالبَطْحَاء في عصابةٍ فيهم[(٥)] رسول الله ﷺ، فمرَّت بهم سحابةٌ، فنظر إليها فقال: «**مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟**» قالوا: السَّحَاب، قال: «**وَالمُزْنُ؟**» قالوا: والمُزن، قال: «**وَالعَنَانُ؟**» قالوا: والعَنَان -قال أبو داود: ولم أُتقن العنان جيِّدًا- قال: «**هَلْ تَدْرُونَ بُعْدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟**» قالوا: لا ندري، قال: «**بُعْدُ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ، أَوْ اثْنَتَانِ، أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ**»، حتىٰ عَدَّ سبع سموات، «**ثُمَّ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ**»[(٦)]، [بَيْنَ][(٧)]

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) مسلم (٢٧٣٢، ٢٧٣٣).

(٣) في (ز): «يتردد»، وهو تصحيف، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٢٥٦)، وابن خزيمة في «التوحيد»، وسنده صحيحٌ، وصحَّحه المصنف في «البداية والنهاية» (١/ ١٣).

(٥) لوحة (٨٩/ أ).

(٦) كذا في «سنن أبي داود»، وفي (ز): «بحر ماءٍ».

(٧) سقط من (ز)، وهو موافق لما في «سنن أبي داود».

أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ، بَيْنَ أَظْلَافِهِنَّ وَرُكَبِهِنَّ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَىٰ ظُهُورِهِنَّ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ اللهُ عَجَلَّ فَوْقَ ذَلِكَ». ثم رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من حديث سماك بن حرب به. وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ[(١)].

وهذا يقتضي أنَّ حملة العرش ثمانية[(٢)]، كما قال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ: حملة العرش ثمانيةٌ، أربعةٌ يقولون: «سبحَانك اللَّهمَّ وبحمدك، لك الحمد علىٰ حِلْمِك بعد عِلْمِك». وأربعة يقولون: [«سبحانك اللَّهمَّ وبِحَمْدِكَ، لك الحمد علىٰ عَفْوِكَ بعد قُدْرَتِكَ».

ولهذا يقولون][(٣)] إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، أي: إنَّ رحمتك تَسَعُ ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيطٌ بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، أي: فاصفح عن المُسِيئين إذا تابوا وأنابوا، وأَقْلَعُوا عمَّا كانوا فيه، واتَّبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: وزَحْزِحْهُم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾، أي: اجمع بَيْنَهُم وبينهم؛ لتَقَرَّ بذلك أعينهم بالاجتماع في منازلَ متجاورةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١]، أي: ساوينا بين الكلِّ في المنزلة لتَقَرَّ أعينهم، وما نَقَصْنَا العَاليَ حتىٰ يساوي الدَّانيَ، بل رَفَعْنَا النَّاقص في العمل، [فساويناه بكثيرِ العمل][(٤)] تَفَضُّلًا [منَّا][(٥)] ومِنَّةً.

قال سعيد بن جُبير: إنَّ المؤمن إذا دخل الجنَّة سأل عن أبيه وابنه وأخيه وأين هم؟ فيُقال: إنهم لم يبلُغُوا طبقتك في العمل، فيقول: إنِّي إنَّما عَمِلْتُ لي ولهم، فَيُلْحَقُونَ به في الدرجة[(٦)]، ثم تلا سعيد بن جُبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجة (١٩٣)، وفيه عبد الله بن عَمِيرة: مجهول.

(٢) قلت: بيَّنَ أن حديث الثمانية الأوعال ضعيف، وأنَّ الصَّحيح هو الحديث السَّابق بأنَّهم الآن أربعة.

(٣) سقط من (ز)، وهو موافق لما في «سنن أبي داود».

(٤) سقط من (ز).

(٥) سقط من (ز).

(٦) لوحة (٨٩/ ب).

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾، وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ(٢).

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك، من شَرْعِك وقدرك.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي: لطفت به ونجيته من العقوبة، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ(٣) إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الكفار: أنَّهم يُنادَون يوم القيامةِ وهم في غَمَراتِ النِّيران يتلظَّوْنَ، وذلك عندما بَاشَرُوا مِن عذاب الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، فمَقَتُوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البُغْضِ، بسبب ما أَسْلَفوا من الأعمال السَّيِّئة، التي كانت سَبَبَ دُخولهم إلىٰ النَّار، فأخبرتهم المَلَائِكَةُ عند ذلك إخبارًا عاليًا، نادَوْهم [به](٤) نداء [بأن](٥) مقت الله لهم في الدُّنيا -حين كان يُعرَض [عليهم](٦) الإيمان فيكفرون- أشد مِن مَقْتِكُم أيُّها المعذَّبون أنفسَكُم اليوم في هذه الحالة.

---

(١) رواه الطبري (٢٤/ ٤٥)، وفيه شَرِيك القاضي: سيئ الحفظ، ويحيىٰ بن يَمَانٍ العِجْلي: صدوق يخطئ كثيرًا.
والإسناد مقطوع علىٰ سعيد بن جبير، ومثله لا يقال بالرأي، فهو مرسل.

(٢) رواه الطبري (٢٤/ ٤٦)، وإسناده صحيح.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وقيل: إنه مضاف إلىٰ مفعوله لا إلىٰ فاعله، وعلىٰ هذا يكون المعنىٰ: لمقتكم الله حين تُدعَون إلىٰ الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم؛ أي: أنهم كرهوا ما دُعُوا في الدنيا من محبة الله، وأبدلوا ذلك بأشد البغض، وهذا المعنىٰ أقرب مما مشىٰ عليه المفسر رحمة الله؛ «﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم»، وعلىٰ ما رجحنا يكون المعنىٰ: لمقتكم الله فهو مضاف إلىٰ مفعوله، متىٰ مقت الله؟ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وعلىٰ هذا فيكون قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنكم حينما دعيتم إلىٰ الإيمان كرهتم ذلك ولم تقتنعوا بل أبغضتموه أشد البغض.

(٤) ليست في (ز).

(٥) هذه الكلمة مطموسة في (ز).

(٦) سقط من (ز).

قال قتادة في قوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، يقول: لمقتُ الله أهل الضَّلالة حين عُرِض عليهم الإيمان في الدُّنيا، فتركوه وأَبَوْا أن يَقْبَلُوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة.

وهكذا قال الحسن البصري، ومجاهد، والسُّدِّي، وذَرُّ بن عبد الله الهَمْداني(١)، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، [وابن](٢) جرير الطبري، رحمهم الله.

وقوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، قال الثَّوْري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأَحْوَص، عن ابن مسعود ﵁: هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨](٣).

وكذا قال ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، وقتادة، وأبو مالك. وهذا هو الصَّواب الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْيَةَ.

وقال السُّدِّي: أُمِيتُوا في الدنيا ثم أُحْيُوا في قبورهم فخُوطِبُوا، ثم أُمِيتُوا ثم أُحْيُوا يوم القيامة.

وقال ابن زيد: أُحيوا حين أُخذ عليهم الميثاق من صُلْبِ آدم، ثم خلقهم في الأرحام، ثمَّ أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة.

وهذان القولان -من السُّدِّي وابن زيد- ضعيفان؛ لأنَّه يلزمهما علىٰ ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات.

والصَّحيح قول ابن مسعود وابن عبَّاس ومن تابعهما.

والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرَّجعة وهم وقوفٌ بين يدي الله ﷻ في عَرَصَات القِيامَة، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، فلا يُجابُون. ثم إذا رَأَوُا النَّار وعايَنُوها ووقفوا عليها، ونظروا إلىٰ ما فيها من العَذابِ والنَّكال، سألوا الرَّجعة أشدَّ ممَّا سألوا أوَّل مرَّةٍ، فلا يُجابُونَ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨]، فإذا دخلوا النَّار وذاقوا مَسَّها، وحَسِيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالُهم للرَّجعة أشدَّ وأعظمَ، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧]، ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا

---

(١) لوحة (٩٠/ أ).

(٢) سقط من (ز).

(٣) رواه الطبري (٢٤/ ٤٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٧) وصحَّحه علىٰ شرط الشَّيخين، ووافقه الذَّهبي.

﴿تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تلطَّفُوا في السُّؤال، وقدَّموا بين يدي كلامهم مُقدِّمةً، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، أي: قدرتك عظيمة، فإنَّك أحييتنا[1] بعد ما كنَّا أمواتًا، ثم أمتَّنا ثم أحييتنا، فأنتَ قادرٌ علىٰ ما تشاء، [وقد][2] اعترفنا بذُنُوبِنا، وإنَّنا كنَّا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، أي: فهل أنت مُجِيبُنا إلىٰ [أن تُعِيدَنا إلىٰ][3] الدَّار الدُّنيا؟ فإنَّك قادرٌ علىٰ ذلك؛ لِنَعْمَلَ غيرَ الَّذي كنَّا نعمل، فإن عُدْنَا إلىٰ ما كنَّا فيه فإنَّا ظالمون، فأُجِيبُوا: ألا سبيلَ إلىٰ عودِكُم ومَرْجِعُكُم إلىٰ الدَّار الدُّنيا، ثم علَّل المنع مِن ذلك بأنَّ سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَده وتَنْفِيه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلىٰ الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الَّذي لا يجور، فيَهْدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء، ويرحم مَن يشاء، ويُعَذِّبُ مَن يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، أي: يظهر قدرته لخَلْقِهِ بما يُشَاهِدُونَه -في خلقه العلوي والسُّفْلِيِّ- من الآيات العظيمة الدَّالَّة علىٰ كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المَطَرُ الَّذي يُخْرِجُ به مِن الزُّروع والثِّمار ما هو مشاهَدٌ بالحس، من اختلاف ألوانه وطُعُومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماءٌ واحدٌ، فبالقُدْرَة العظيمة فَاوَت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكَّر في هذه الأشياء ويستَدِلُّ بها علىٰ عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: [مَنْ][4] هو بَصِيرٌ منيبٌ إلىٰ الله ﷻ.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، أي: فأَخْلِصُوا لله وحدَهُ العِبادَةَ والدُّعاء، وخالِفُوا المشركين في مَسْلَكِهِم ومَذْهَبِهِم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن نُمَير، حدَّثنا هشام -يعني: ابن عروة بن الزُّبير- عن أبي الزُّبير - محمَّد بن مسلم بن تَدْرُس المكي - قال: كان عبدُ الله بن الزُّبَير يقول في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ حين يسلِّم: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**»، قال: وكان رسول الله ﷺ[5] يُهَلِّلُ

---

(١) لوحة (٩٠/ ب). (٢) سقط من (ز).
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).
(٥) لوحة (٩١/ أ).

بهنَّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ(١).

ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجَّاج بن أبي عثمان، وموسىٰ بن عقبة، ثلاثتهم عن أبي الزُّبير، عن عبد الله بن الزُّبير قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول في دبر الصَّلاة: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ...». وذكر تمامه.

وقد ثبت في «الصَّحيح» عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ»(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الربيع، حدَّثنا الخَصِيب بن ناصح، حدَّثنا صالح -يعني المُرِّي- عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ»(٣).

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ(٤) لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالىٰ [مخبرًا](٥) عن عَظَمَتِه وكبريائِهِ، وارتفاع عَرْشه العَظِيم العالي علىٰ جميع مخلوقاتِهِ كالسَّقف لها، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى

---

(١) مسلم (٥٩٤)، وأبو داود (١٥٠٧)، والنَّسائي (٣/ ٧٠)، وأحمد (٤/ ٤).

(٢) مسلم (٢٩٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩) وقال: غريب، وفيه صالح المري: ضعيف، والحاكم (٢/ ١٦٤) وقال الحاكم: حديثٌ مستقيمٌ تفرَّد به صالح المرِّي وهو أحد زهَّاد البصرة، وردَّه الذَّهبي فقال: صالح: متروك، وأمَّا الحافظ فقال عنه: ضعيف، (تقريب - ترجمة ٢٨٤٥) والحديث حسَّنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨)، وضعَّفه النَّووي في «الأذكار»، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٩٤)، وأورد له شاهدًا عند أحمد (٢/ ١٧٧) من حديث ابن عمرو. وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين ﵀: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: استدل بها بعض العلماء علىٰ أن من أُهدي إليه شيء من القرب فإنه لا ينتفع به؛ لأنه ليس من كسبه، إلا ما جاءت به السنة، ولكن الصحيح أنه ينتفع به، فإذا قلت: إن هذا هو الصحيح فكيف الجواب عن الآية؟

الجواب عن الآية: أنها تدل علىٰ أن النفس تجزىٰ بما كسبت، لكن لا تدل علىٰ أنها لا تنتفع بعمل غيرها، والشيء المضمون تمامًا هو ما كسبت، وأما ما أهداه الغير لها فهذا شيء آخر وله أدلة أخرىٰ.

(٥) ليست في (ز).

﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٣، ٤]، وسيأتي بيان أنَّ هذه مسافةُ ما بين العرش إلىٰ الأَرْضِ السَّابعة، في قول جماعةٍ من السَّلف والخَلَفِ، وهو الأرجح إن شاء الله تعالىٰ، وقد ذكر غيرُ واحدٍ أنَّ العرش مِن ياقوتةٍ حمراءَ، اتِّساع ما بين قُطْرَيْهِ مسيرةُ خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السَّابعة مسيرةُ خمسين ألف سنة[(١)]. وقد تقدَّم في حديث «الأَوْعَال» ما يدلُّ علىٰ ارتفاعه عن السَّموات السَّبع بشيءٍ عظيمٍ[(٢)].

وقوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠[(٣)] فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ -١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: اسمٌ مِن أسماءِ يوم القيامة، حذَّر منه عباده.

وقال ابن جُرَيجٍ: قال ابن عبَّاسٍ: يلتَقِي فيه آدم وآخر ولدِهِ.

وقال ابن زيد: يلْتَقِي فيه العِبَادُ.

وقال قتادة، والسُّدِّي، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السَّماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضًا: يلتقي فيه أهل السَّماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

وقال مَيْمون بن مِهْران: يلتقي [فيه][(٤)] الظَّالم والمظلوم.

وقد يقال: إنَّ يوم القيامة هو يشْمَلُ هذا كله، ويشمل أن كلَّ عاملٍ سيلقىٰ ما عَمِلَ مِن خيرٍ وشرٍّ. كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهرون بادُون كلهم، لا شيءَ يُكِنُّهم ولا يُظِلُّهم ولا يسترهم؛ ولهذا قال: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾، أي: الجميع في علمِهِ علىٰ السَّواء.

وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، قد تقدَّم في حديث[(٥)] ابن عمر: أنَّه تعالىٰ يطوي السَّموات والأرض بيَدِهِ، ثم يقول: أنا المَلِك، أنَا الجبَّار، أنا المتكبِّر، أين مُلُوك الأرضِ؟ أين الجبَّارُون؟ أين المُتكبِّرونَ؟[(٦)]

وفي حديث الصُّور: أنَّه تعالىٰ إذا قبض أرواح جميعَ خلقِهِ، فلَمْ يبقَ سِوَاهُ وحده لا شريك له،

---

(١) لم يثبت هذا في حديث صحيح.

(٢) ضعيف: تقدم في تفسير الآية (٧) من هذه السورة.

(٣) لوحة (٩١/ ب). (٤) ليست في (ز).

(٥) في (ز): «في تفسير ابن عمر».

(٦) رواه البخاري (٤٨١٢). وانظر تفسير الآية (٦٧) من سورة الزمر.

حينئذٍ يقول: لمَن المُلك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلًا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(١)، أي: الذي هو وحده قد قهَرَ كلَّ شيءٍ وغلبه.

[وقد قال](٢) ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن غالب الدقَّاق، حدَّثنا عُبيد بن عُبيدة، حدَّثنا مُعتمرٌ، عن أبيه، حدَّثنا أبو نَضْرةَ، عن ابن عبَّاسٍ ﵄ قال: ينادي منادٍ بين يَدَي السَّاعة: يا أيُّها النَّاس، أتتكم السَّاعة، فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله ﷻ إلىٰ سماء الدُّنيا ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٣).

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، يخبر تعالىٰ عن عدلِه في حُكمِهِ بين خلقه، أنَّه لا يَظْلِم مثقالَ ذرَّةٍ مِن خيرٍ ولا مِن شرٍّ، بل يجزي بالحسنةِ عشْرَ أمثالها، وبالسَّيِّئةِ واحدةً؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، كما ثبت في «صحيح مسلم»(٤)، عن أبي ذرٍّ، عن رسول الله ﷺ -فيما يحكي عن ربِّه ﷻ- أنَّه قال: «**يا عِبادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظالَمُوا**»، إلىٰ أن قال: «**يا عِبادِي، إنَّما هِيَ أَعْمالُكُمْ أُحْصِيها عَلَيْكُمْ [ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها]**(٥)، **فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ**»(٦).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يُحاسِب الخلائق كلَّهم، كما يحاسب نفسًا واحدةً، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ(٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) ضعيف: تقدَّم عند تفسير الآية (٢١٠) من سورة البقرة، والآية (٣٨)، (٧٣) من سورة الأنعام، والآية (٤٨) من سورة إبراهيم، والآية (١٠٣) من سورة طه، والآية (٢) من سورة الحج، والآية (٦٨) من سورة الزمر.

(٢) سقط من (ز).

(٣) صحيح: ومثله لا يقال بالرأي، فهو في حكم المرفوع، رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٢٧).

(٤) لوحة (٩٢/ أ).

(٥) سقط من (ز)، وهي ثابتة في الحديث.

(٦) مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجة (٤٢٥٧).

(٧) قال الشيخ ابن عثمين ﵀: فإن قال قائل: إن من القوم الذين يدعون مع الله إلهًا آخر من إذا دَعَوْا هذه الأصنامَ أجابتهم، فإذا دَعَوْها لكشف الضر انكشف الضر عنهم، ومن الناس من إذا خالف هذه الأصنام أصيب ببلاء، فما هو الجواب؟

الجواب أن يقال: هذا الذي يحصل، يحصل من الله ﷻ، لا من هذه الأصنام ابتلاءً وامتحانًا، ويقال فيه: إنه حصل =

يوم الآزفة هو: اسمٌ من أسماء يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لاقترابها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الانبياء:١]، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك:٢٧].

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾، [أي: ساكتين][(١)]، قال قتادة: وَقَفَت القلوب في الحناجر مِنَ الخوفِ، فلا تخرج ولا تعود إلىٰ أماكنها، وكذا قال عكرمة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ.

ومعنىٰ ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحدٌ إلَّا بإذنه، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

وقال ابن جُرَيْجٍ: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: باكين.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للَّذين ظلموا أنفسَهُم -بالشِّرك بالله- من قريبٍ منهُم ينفعهم، ولا شفيعٍ يشفع فيهم، بل قد تقطَّعَت بهم الأسباب مِن كلِّ خيرٍ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ يخبر تعالىٰ عن علمه التَّامِّ المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذِّر النَّاس علمه فيهم، فيَسْتَحْيُوا من الله حَقَّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حقَّ تقواه، ويُرَاقِبُوه مراقبةَ مَن يعلم أنَّه يراه، فإنَّه تعالىٰ يَعْلَمُ العين الخَائِنَةَ وإن أبدت أمانةً، ويعلم[(٢)] ما تَنْطَوِي عليه خبَايَا الصُّدور من الضَّمائر والسَّرائر.

قال ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾: وهو الرَّجل يدخل علىٰ أهل البيتِ بيتَهُم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمرُّ به وبِهِم المرأةُ الحسناء، فإذا غَفَلُوا لَحَظَ إليها، فإذا

= عند ذلك لا به، يعني: حصل هذا القضاء من الله ﷻ عند دعاء هذه الأصنام لا بدعاء هذه الأصنام.

فإن قال قائل: لماذا تعدلون عن السبب الظاهر إلىٰ سبب آخر لا يعلم؟

قلنا: عدلنا إلىٰ ذلك؛ لقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾، وبقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤]، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وإلا فإن العامي قد يأتي إلىٰ صاحب القبر ويقول: يا سيد يا ولي الله يا مولاي أنقذني من هذه البلية، أنقذني من هذه الضائقة، فيذهب إلىٰ بيته ويجد الأمر قد انفرج، هو علىٰ كل حال سوف يضيف هذا الانفراج إلىٰ الأمر الظاهر الذي قام به، وهو دعاء هذا القبر حتىٰ انفرجت عنه الغمة، فنقول: هذه فتنة، ونعلم علم اليقين أن صاحب القبر ليس هو الذي كشف الضر، وإنما الذي كشفه هو الله ﷻ، لكن حصل الكشف عند دعاء هذا القبر لا بدعائه، لأنه دائمًا يوردون علينا أصحابُ القبورِ هذه الشبهة، يقول: أنا دعوت السيد الفلاني فاستجاب لي وانكشفت الغمة.

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٩٢/ ب).

فَطِنوا غَضَّ بصره عنها، فإذا غَفَلُوا لحظ، فإذا فَطِنُوا غضَّ، وقد اطَّلع الله مِن قلبه أنَّه وَدَّ أن لو اطَّلَع علىٰ فَرْجِهَا(١). رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: هو الغَمْز، وقول الرجل: رأيتُ، ولم يَرَ؛ أو: لم أَرَ، وقد رَأَىٰ.

وقال ابن عبَّاسٍ: يعلم الله تعالىٰ من العين في نَظَرِها، هل تريدُ الخِيَانَةَ أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرتَ عليها هل تَزْنِي بها أم لا؟.

وقال السُّدِّي: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾، أي: من الوَسْوَسَةِ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: يحكم بالعدل.

وقال الأَعْمَش، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾: قادرٌ علىٰ أن يَجْزِيَ بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾(٢).

وهذا الذي [فسَّر به](٣) ابن عبَّاس هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيءٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، أي: سميعٌ لأقوال خلقه، بصيرٌ بهم، فيهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: أَوَ لَمْ يَسِرْ هؤلاء المكذِّبون برسالتك يا محمَّد، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: من الأمم المكذِّبة بالأنبياء، ما حلَّ بهم من العذاب(٤) والنَّكال مع أنَّهم كانوا أشدَّ مِن هؤلاء قوَّةً ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: أثروا في الأرض من البِنَايَاتِ(٥) والمعالِمِ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٢٨).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» (٢/ ١٢٨٣).

(٣) في (ز): «فسره».

(٤) لوحة (٩٣/ أ).

(٥) في (ز): «النباتات».

والدِّياراتِ، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشَّديد، أخذهم الله بذُنُوبِهم -وهي كفرهم برسلهم- ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، [أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحدٌ، ولا ردَّه عنهم رادٌّ، ولا وقاهم واقٍ](١).

ثم ذكر علَّة أخذه إيَّاهم، وذنوبَهُم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدَّلائل الوَاضِحَات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ أي: مع هذا البيان والبُرْهان كفروا وجَحَدُوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: ذو قوَّةٍ عظيمةٍ وبطشٍ شديدٍ، وهو: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: عقابُهُ أليمٌ شديدٌ وجيعٌ، أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مسليًا لنبيِّه ﷺ في تكذيب مَن كذَّبه مِن قومه، ومبشرًا له بأنَّ العاقبة والنُّصرة له في الدُّنيا والآخرة، كما جرىٰ لموسىٰ بن عِمْرَان؛ فإنَّ الله تعالىٰ أرسله بالآيات البينات، والدَّلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، والسُّلطان هو: الحُجَّة والبرهان.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: مَلِك القِبْطِ بالدِّيار المصريَّة، ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو وزيره في مملكته، ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وكان أكثر النَّاس في زمانه مالًا وتجارةً، ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، أي: كذَّبوه وجعلوه ساحرًا مجنونًا مُمَوِّهًا كذَّابًا في أنَّ الله أرسلَهُ، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٢) ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدَّالِّ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ أرسله إليهم، ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ وهذا أمرٌ ثانٍ مِن فرعون بقتلِ ذكور بَني إسرائيل،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) لوحة (٩٣/ ب).

أمَّا الأول: فكان لأجل الاحتراز مِن وجود مُوسَىٰ، [أو لإذلال][١] هذا الشَّعب وتقليل عَدَدِهِم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثَّاني: فللعلَّة الثَّانية، لإهانة هذا الشَّعب، ولكي يتشاءَمُوا بموسىٰ ؛ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمرٌ بعد أمرٍ.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: وما مكرهم وقصدهم الَّذِي هو تقليلُ عددِ بني إسرائيل لئلَّا يُنْصَرُوا عليهم إلَّا ذاهبٌ وهالكٌ في ضلالٍ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، وهذا عَزْمٌ من فرعون -لعنه الله- علىٰ قتل موسىٰ ؛ أي: قال لقومه: دعوني [حتىٰ][٢] أقتلَ لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجَحْدِ والتَّجَهْرُمِ والعنادِ.

وقوله -قبَّحه الله-: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، يعني: موسىٰ، يخشىٰ فرعونُ أن يُضِلَّ موسىٰ النَّاسَ ويغيِّر رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: «صارَ فرعون مُذَكِّرًا» يعني: واعظًا، يشفق علىٰ النَّاس من موسىٰ ، وقرأ الأكثرون: «أَنْ يُبدل دينكم وأَنْ يُظْهِرَ في الأرض الفساد»، وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، وقرأ بعضهم: «يَظْهَرَ في الأرضِ الفَسَادُ» -بالضم-[٣].

وقال موسىٰ: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، [قال موسىٰ][٤]: استجرتُ بالله وعُذْتُ به مِن شرِّه وشرِّ أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ -أيها المخاطبون- ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق، مجرم، ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسىٰ ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف[٥] قومًا قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَنَدْرَأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ»[٦].

---

(١) في (ز): «أو لإذ».

(٢) سقط من (ز).

(٣) متواترة: قَرَأَ (يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) لوحة (٩٤/ أ).

(٦) صحيح: رواه أبو داود (١٥٣٧)، وأحمد (٣/ ٤١٤).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾

المشهور أنَّ هذا الرَّجل المؤمن كان قبْطيًّا من آل فرعون.

قال السُّدِّي: كان ابن عمٍّ فرعون.

ويقال: إنَّه الَّذي نجا مع موسىٰ. واختاره ابن جرير، وَرَدَّ قول مَن ذهب إلىٰ أنَّه كان إسرائيليًّا؛ لأنَّ فرعون انفعل لكلَامِهِ واستمعه، وكفَّ عن قتل موسىٰ عليه السلام، ولو كان إسرائيليًّا لأوشك أن يُعَاجَلَ بالعقوبة؛ لأنَّه منهم.

وقال ابن جُرَيج عن ابن عبَّاس: لم يؤمن من آل فرعون سوىٰ هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠]. رواه ابن أبي حاتم(١).

وقد كان هذا الرجلُ يكتُمُ إيمانه عن قومه القِبْط، فلم يَظْهَرْ إلا هذا اليومَ حينَ قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فَأَخَذَتِ الرجلَ غضبةٌ لله عز وجل، «وَأَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»، كما ثبت بذلك الحديث(٢)، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، [أي: لأجل أن يقول رَبِّيَ الله](٣)، اللَّهمَّ إلَّا ما رواه البخاري في «صحيحه» حيث قال:

حدَّثنا عليُّ بن عبد الله، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا الأَوْزَاعِيُّ، حدَّثني يحيىٰ بن أبي كثير، حدَّثني محمَّد بن إبراهيم التَّيمي، حدَّثني عُروة بن الزُّبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أَخْبِرْنِي بأشدِّ شيءٍ مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسولُ الله ﷺ يصلِّي بفناء الكعبة، إِذْ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيط، فأخذ بمَنْكِبِ رسول الله ﷺ ولَوَىٰ ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكرٍ رضي الله عنه فأخذ(٤) بمنكبَيْهِ ودَفَع عن النَّبيِّ ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٣١)، وإسناده منقطع.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجة (٤٠١١)، وفيه عطية العَوْفي: شيعي مدلس، ولكن للحديث شواهد، استوفاها شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٩١).

(٣) ليست في (ز).

(٤) لوحة (٩٤/ ب).

رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[١].

انفرد به البخاري من حديث الأَوْزَاعِي. قال: وتابعه محمَّد بن إسحاق، عن [يحيىٰ بن عُروة][٢]، عن أبيه به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا هارون بن إسحاق الهَمْداني، حدَّثنا عَبْدَةُ، عن هشام -يعني: ابن عُروة- عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِل: ما أشدُّ ما رأيتَ قريشًا بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مرَّ بهم ذات يوم، فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أَنَا ذَاكَ»، فقاموا إليه، فأخذوا بمَجَامِعِ ثيابه، فرأيتُ أبا بكرٍ محتضِنَه مِن ورائه، وهو يَصِيح بأعلىٰ صَوْته، وإن عينيه لَيَسِيلَان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، حتىٰ فرغ من الآية كلها[٣].

وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة، فجعله من «مسند عمرو بن العاص رضي الله عنه».

وقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول: «رَبِّي الله»، وقد أقام لكم البرهان علىٰ صِدْقِ ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزَّل معهم في المخاطَبَةِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، يعني: إذا لم يظهر لكم صحَّة ما جاءَكُم به، فمِنَ العقلِ والرَّأي التَّامِّ والحزم أن تَتْرُكُوه ونفسَهُ فلا تُؤْذُوهُ، فإن يكُ كاذبًا فإنَّ الله سيُجَازِيه علىٰ كَذِبِه بالعقوبة في الدُّنيا والآخرة، وإن يكُ صادقًا وقد آذيتموه يُصِبْكُم بعضُ الَّذِي يَعِدُكُم، فإنَّه يتوعَّدُكُم إن خالفتموه بعذابٍ في الدُّنيا والآخرة، فمِن الجائز عندكُم أن يكون صادقًا، فينبغي علىٰ هذا ألا تَتَعَرَّضُوا له، بل اتْرُكُوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام أنَّه طلَبَ مِن فرعون وقومِهِ المُوَادعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى[٤] فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:١٧ -٢١]، وهكذا قال رسول الله ﷺ [لقريش][٥] أن يتركوه يدعو إلىٰ الله تعالىٰ عبادَ الله، ولا يَمَسُّوه بسوءٍ، وأن يَصِلُوا ما بينه وبينهم مِن القَرَابَةِ في ترك أذيَّتِه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

---

(١) البخاري (٤٨١٥، ٣٦٧٨، ٣٨٥٦).

(٢) في (ز): «كثير بن عروة»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٣) حسن: رواه أبو يعلىٰ (٧٣٣٩)، وابن حبَّان (٦٥٦٩)، وابن أبي حاتم (١٨٤٣٠).

(٤) لوحة (٩٥/ أ). (٥) سقط من (ز).

[الشورى: ٢٣]، أي: إلا أن [لا][1] تؤذوني فِيمَا بَيْنِي وبينكم من القَرَابَة، فلا تُؤْذُونِي وتَتْرُكُوا بيني وبين النَّاس، وعلىٰ هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكانت فتحًا مبينًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، أي: لو كان هذا الَّذِي يزعم أنَّ الله أرسله إليكم كاذبًا -كما تزعمون- لكان أمره بيِّنًا، يظهر لكل أحدٍ في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غايةِ الاختلاف والاضطراب، وهذا نرىٰ أمرَهُ سديدًا ومنهجه مستقيمًا، ولو كان من المسرفين الكذَّابين لما هداه الله، وأرشده إلىٰ ما ترون من انتظام أمرِهِ وفعلِهِ.

ثم قال المؤمن محذِّرًا قومَهُ زوالَ نعمةِ الله عنهم[2]، وحُلُولَ نقمَةِ الله بهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قد أنعم الله عليكُم بهذا المُلْكِ والظُّهور في الأرض بالكَلِمَةِ النَّافذة والجاه العريض، فرَاعُوا هذه النِّعمة بشكر اللهِ، وتصديق رسوله ﷺ، واحذَرُوا نقمةَ الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: لا تُغْنِي عنكم هذه الجُنُودُ وهذه العساكر، ولا تَرُدُّ عنَّا شيئًا مِن بأس الله إن أرادنا بسوءٍ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، رادًّا علىٰ ما أشار به هذا الرَّجل الصَّالح البارُّ الرَّاشد الذي [كان][3] أحقَّ بالمُلْك من فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلَّا ما أراه لنَفْسِي وقد كذب فرعون، فإنَّه كان يتحقَّق صِدْقَ موسىٰ فيما جاء به من الرِّسالة، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كَذَبَ فيه وافترَىٰ، وخَانَ الله ورسوله ورعِيَّتَه، فغشَّهم وما نصَحَهُم، وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، أي: وما أدعوكم إلَّا إلىٰ طريقِ الحقِّ والصِّدق والرُّشد، وقد كذب أيضًا في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتَّبعوه، قال الله تعالىٰ[4]: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفي الحديث: «مَا مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»[5].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): «عليهم».
(٣) سقط من (ز).
(٤) لوحة (٩٥/ ب).
(٥) البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢) نحوه دون قوله: «وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مَنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ».

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ
يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ
مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾

هذا إخبارٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ عن هذا الرجل الصَّالح، مؤمن آل فرعون: أنَّه حذَّر قومَهُ بأس اللهِ في الدُّنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾، أي: الَّذين كذَّبوا رُسُلَ الله في قديم الدَّهر، كقَوْم نوحٍ وعادٍ وثمود، والَّذين مِن بعدهم من الأُمَمِ المكذِّبة، كيف حلَّ بهم بأس الله، وما رَدَّه عنهم رادٌّ، ولا صدَّه عنهم صادٌّ.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾، أي: إنَّما أهلكهم اللهُ بذُنوبِهم، وتكذِيبِهم رسلَهُ، ومخالفتهم أمرَهُ. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾، يعني: يوم القيامة، وسمي بذلك -قال بعضهم- لما جاء في حديث الصُّور[1]: إن الأرض إذا زُلزلتْ وانشقَّت مِن قُطْرٍ إلىٰ قُطْرٍ، وماجَت وارتجَّت، فنظر النَّاس إلىٰ ذلك ذهبوا هارِبين يُنادِي بعضهم بعضًا، وقال آخرون -منهم الضَّحَّاك-: بل ذلك إذا جِيءَ بجهنَّم، ذهب النَّاس هِرابًا، فتتلقَّاهم الملائكة فتَرُدُّهم إلىٰ مقام المَحْشَر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[2] [الرحمن:٣٣].

وقد رُوِي عن ابن عبَّاس، والحسن، والضَّحَّاك: أنهم قرؤوا: «يوم التَّنادّ» بتشديد الدَّال[3] من نَدَّ البعير: إذا شرد وذهب.

وقيل: لأنَّ الميزان عنده مَلَك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادىٰ بأعْلَىٰ صوتِهِ: ألا قد سَعِد فلان ابن فلان سعادةً لا يشقىٰ بعدها أبدًا، وإن خفَّ عمله نادىٰ: ألَا قد شَقِيَ فلان بن فلان.

وقال قتادة: يُنادَىٰ كلُّ قوم بأعمالهم: ينادِي أهلُ الجنة أهلَ الجنَّة، وأهلُ النَّار أهلَ النَّار.

وقيل: سُمِّي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ

---

(١) ضعيف: تقدَّم. انظر تفسير الآية (١٦) من هذه الآية.

(٢) لوحة (٩٦/ أ).

(٣) قراءة: قَرَأَ (التَّنَادِّ) ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (التَّنَادِ) مَعَ اخْتِلَافٍ فِي إِثْبَاتِ الْيَاءِ وَحَذْفِهَا.

رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النَّار أهلِ الجنَّة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداةِ أصحابِ الأعراف أهلَ الجنَّة وأهلَ النَّار، كما هو مذكورٌ في «سورة الأعراف».

واختار البغويُّ وغيره: أنَّه سُمِّيَ بذلك لمجموع ذلك. وهو قولٌ حسنٌ جيدٌ، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، أي: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لكم من مانعٍ يمنعُكُم مِن بأس الله وعذابِه، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضلَّه الله فلا هَادِيَ له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولًا مِن قَبْلِ موسىٰ، وهو يوسف ﷺ، كان عزيزَ أهل مصر، وكان رسولًا يدعو إلىٰ الله أُمَّته القِبْطَ، فما أطاعوه تلك الطَّاعة إلا لمجرَّد الوزارة والجاه الدُّنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، [أي: يَئِسْتُم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾][(١)]، وذلك لكُفرِهم وتكذيبِهم، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، أي: كحالكم هذا يكون حال من يُضِلُّه الله في أفعَالِهِ وارتياب قلبه.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾، أي: الَّذِين يدفعون الحقَّ بالباطل، ويجادلون الحُجَج بغير دليلٍ وحجَّةٍ معهم من الله، فإن الله يمقت علىٰ ذلك أشدَّ المقت؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: والمؤمنون أيضًا[(٢)] يُبغضون من تكون هذه صفته، فإنَّ مَن كانت هذه صفته، يطبع الله علىٰ قلبه، فلا يَعْرِفُ بعد ذلك معروفًا، ولا ينكر منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: علىٰ اتِّباع الحقِّ ﴿جَبَّارٍ﴾.

وروىٰ ابن أبي حاتم عن عكرمة -وحَكَىٰ عن الشَّعْبِي- أنَّهما قالا: لا يكون الإنسان جبَّارًا حتىٰ يقتُلَ نفسَيْن.

وقال أبو عِمْرَان الجَوني وقتادة: آيةُ الجَبابِرَة القتلُ بغيرِ حقٍّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) لوحة (٩٦/ ب).

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فرعون وعتوِّهِ وتمرُّدِهِ، وافترائِهِ في تكذيبه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنَّه أمر وزيرَهُ هامان أن يبنيَ له صرحًا، وهو: القصر العالي المُنِيف الشَّاهق. وكان اتِّخاذه من الآجُرِّ المَضْرُوب من الطِّين المشوي، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النَّخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجُرِّ، وأن يجعلوه في قبورهم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، قال سعيد بن جُبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طُرق السموات. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وهذا من كُفرِهِ وتمرُّدِهِ، أنَّه كذَّب موسىٰ في أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أرسلَهُ إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: بصنيعه هذا الَّذي أراد أن يُوهِمَ به الرَّعيَّةَ أنَّه يعملُ شيئًا يتوصَّلُ به إلىٰ تكذيب مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد: يعني إلا في خسارٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾

يقول المؤمنُ لقومِهِ ممَّن تمرَّد وطغىٰ وآثر الحياةَ الدُّنيا، ونَسِيَ الجبَّار[١] الأعلىٰ، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

لا كما[٢] كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ثم زَهَّدَهم في الدُّنيا التي قد آثرُوها علىٰ الأخرىٰ، وصدَّتْهُم عن التَّصدِيق برسول الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: قليلةٌ زائلةٌ فانيةٌ عن قريبٍ تَذْهَبُ [وتزول وتَضْمَحِلُّ][٣]، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾، أي: الدَّار الَّتي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظَعْنَ عنها إلىٰ غيرها، بل إمَّا نعيمٌ وإمَّا جحيمٌ، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: [لا يتقدَّر بجزاءٍ، بل يُثِيبُه الله][٤] ثوابًا كثيرًا لا انقضاءَ له ولا نفادَ.

---

(١) لوحة (٩٧/ أ).

(٢) في (ز): «لا يضمحل كما».

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «أي: تقدر بجزاء ثم يثيبه الله».

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ[١] وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[٢]

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلىٰ النَّجاة، وهي عبادةُ الله وحدَهُ لا شَرِيكَ له، وتصديقُ رسولِهِ الَّذِي بعثه، ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: علىٰ جهل بلا دليل، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، أي: هو في عِزَّتِهِ وكبريائِهِ يغفر ذنبَ مَن تاب إليه. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ يقول: حقًّا.

قال السُّدِّي وابن جرير: معنىٰ قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقًّا.

وقال الضَّحَّاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلىٰ، إنَّ الَّذي تدعُونَنِي إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس بشيءٍ.

وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع[٣] ولا يضرُّ.

وقال السُّدِّي: لا يجيب داعيَهُ، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ أي: مرجعنا إلىٰ الله عز وجل في الدنيا والآخرة أم في الآخرة فقط؟ في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، فالمراد إلىٰ الله في الدنيا وفي الآخرة.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن قال قائل: هل العذاب يكون علىٰ البدن أو علىٰ الروح أو عليهما جميعًا؟

نقول: ظاهر السنة أن العذاب يكون علىٰ البدن حين مُساءلةِ الملكين؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن المنافق والمرتاب يقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا، فيضرب بمِرْزَبَّة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثَّقَلَين: الإنس والجن فإنهم لا يسمعونه فكل شيء يسمعه، والمراد بذلك من قَرُب منه بحيث يسمع، أما من كان بعيدًا فلا، وهذا يدل علىٰ أن الذي يعذَّب حين المساءلة البدنُ؛ لقوله: فيضرب، أما بعد ذلك فالأصل: أن العذاب علىٰ الروح، فقد تتصل بالبدن كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وإن شئنا قلنا: هذا بحث لا طائل تحته ولم يسأل عنه أصحابه، فنثبت عذاب القبر علىٰ حسب ما جاء في الكتاب والسنة لا نزيد ولا ننقص.

(٣) لوحة (٩٧/ ب).

غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في الدَّار الآخرة، فيُجازِي كلًّا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صِدْقَ ما أَمَرْتُكُم به ونَهَيْتُكُم عنه، ونصحْتُكم ووضَّحْتُ لكم، وتتذكَّرُونَه وتندمون حيث لا ينفعكم النَّدم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وأتوكَّل على الله وأَسْتَعِينُهُ، وأُقَاطِعُكُم وأُبَاعِدُكُم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، أي: هو بصيرٌ بهم، فيَهْدِي مَن يستحقُّ الهداية، ويُضِلُّ مَن يستحقُّ الإضلال، ولَهُ الحجَّة البالغة، والحكمةُ التَّامَّةُ، والقَدَرُ النَّافِذُ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة، أمَّا في الدُّنيا فنجَّاه الله مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمَّا في الآخرة فبالجنَّة، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق في اليمِّ، ثم النَّقْلة منه إلى الجحيم. فإن أَرْوَاحَهُم[1] تعرض على النَّار صباحًا ومساءً إلى قيام السَّاعة، فإذا كان يوم القِيَامَةِ اجتمعت أرواحُهُم وأجسامُهُم في النَّار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا، وهذه الآية أصلٌ كبيرٌ في استدلال أهل السُّنَّة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤالٌ، وهو أنَّه لا شكَّ أنَّ هذه الآية مَكيَّةٌ، وقد استدلُّوا بها على عذاب القبر في البَرْزَخِ[2].

---

(١) في (ز): «فأرواحهم».

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: مسألة: أهل الإلحاد يقولون: إنكم تقولون: إن الميت في قبره يعذب ونحن نحفر القبر ونجد أن الميت باقٍ على ما هو عليه فما الرد على هؤلاء؟

الجواب: نرد عليهم -حسيًا- بأن هذا النائم يرى أنه معذب أو أنه منَّعم وأنه ذهب وأنه جاء، وهو على فراشه لم يتغيَّر، حتى اللِّحاف ما سقط عن ظهره، هنا نقول: قِسِ الحاضر بالغائب ثم لو كان عذاب القبر يُدرَك بالاطلاع عليه لم يكن إيمانًا بالغيب، وكان إيمانًا بالشهادة لا ينفع - يعني: الإنسان إذا عاين الشيء فإن إيمانه به لا يكمل- ترى الكافرين عند حضور الأجل يؤمنون، ولكن هل ينفعهم ذلك؟ لا.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: لا تقبل دعوة الكافر أبدًا في حال واحدة أو في حالتين، تقبل دعوة الكافر في حالين: الحال الأولى إذا كان مضطرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [لقمان:٣٢]، وإنما أجيبت دعوة المضطر؛ لصدق لجوئه إلى الله؛ لأنه مضطر صادق اللجوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مظلومًا، فإنه تقبل دعوته على الراجح؛ لقول الرسول ﷺ: **«اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**، وهذا كان يخاطبه في قوم أسلموا لكنها عامة، وإنما أجيبت دعوة الكافر إذا كان مظلومًا إقامةً =

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم -هو ابن القاسم، أبو النَّضر- حدَّثنا إسحاق بن سعيد -هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص- حدَّثنا سعيد -يعني: أباه- عن عائشة؛ أنَّ يهوديَّةً كانت تخدمها فلا تَصْنَعُ عائشةُ إليها شيئًا من المعرُوفِ[١] إلا قالت لها اليهوديَّة: وَقَاكِ الله عذاب القبر، قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبرِ عذابٌ قبل يوم القيامة؟ قال: «لَا، وَعَمَّ ذَلِكَ؟» قالت: هذه اليهوديَّة، لا نصنع إليها شيئًا من المعروف إلَّا قالت: وقاكِ الله عذابَ القبر. قال: «كَذَبَتْ يَهُودِيَّةٌ، وَهُمْ عَلَىٰ اللهِ أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ القِيَامَةِ». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه، مُحْمَرَّةً عيناه، وهو ينادي بأعلىٰ صوته: «القَبْرُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ»[٢].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ علىٰ شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه.

وروىٰ أحمد ومسلم[٣]: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سُفيان، عن الزُّهري، عن عُروة، عن عائشة، قال: سألتها امرأةٌ يهوديَّةٌ فأعطتها، فقالت لها: أعاذكِ الله من عذاب القبر، فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لَا»، قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ»[٤].

وهذا أيضًا علىٰ شرطهما.

فيُقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكيَّةً، وفيها الدَّليل علىٰ عذاب البرزخ؟ والجواب: أنَّ الآية دلَّت علىٰ عرض الأرواح علىٰ النَّار غدوًّا وعشيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالةٌ علىٰ اتِّصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصًّا بالرُّوح، فأمَّا حصول ذلك للجَسَدِ وتألُّمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السُّنَّةُ في الأحاديث المرضيَّة الآتي ذكرها.

وقد يقال: إنَّ هذه الآية إنَّما دلَّت علىٰ عذاب الكفَّار في البرزخ، ولا يلزم مِن ذلك أن يُعَذَّبَ المؤمنُ في قبره بذنبٍ، وممَّا يدل علىٰ هذا ما رواه الإمام أحمد:

= للعدل؛ لأن الله لم يُجِبِ الكافرَ محبةً له ولكن إقامة للعدل؛ لأنه الآن هناك خَصْمان مظلوم وظالم فلإقامة العدل يستجيب الله دعوة الكافر.

(١) لوحة (٩٨/ أ).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٨١)، والحديث رواه نحوه مختصرًا مسلم، كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير تعقيبًا بعد الحديث.

(٣) كذا في (ز)، وفي بعض النسخ سقط «مسلم»، والحديث عند مسلم (٥٨٤) بنحوه.

(٤) رواه أحمد (٦/ ٢٣٨)، ورجاله ثقات عدا سفيان بن حسين فإنه ضعيف في الزهري، لكن انظر الروايات الآتية.

حدَّثنا عثمان بن عمر، حدَّثنا يونس، عن الزُّهري، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأةٌ من اليهود، وهي تقول: [أَشَعَرْتِ][(١)] أنَّكم تُفْتَنُون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ»، قالت عائشة: فلَبِثْنا ليالي، ثم قال[(٢)] رسول الله ﷺ: «أَشَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ؟»، وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعدُ يَسْتَعِيذُ من عذاب القبر[(٣)].

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحَرْمَلة، كلاهما عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد الأَيْلِي، عن الزُّهري به.

وقد يقال: إنَّ هذه الآية دلَّت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم مِن ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها، فلمَّا أوحي إليه في ذلك بخصوصيَّته استعاذَ منه، والله سبحانه وتعالى أعلم[(٤)].

وقد روى البخاري من حديث شعبة، عن أَشْعَث بن أبي الشَّعْثَاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ يهوديَّةً دخلت عليها فقالت: أعاذَكِ الله مِن عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».   (٢) لوحة (٩٨/ ب).

(٣) مسلم (٥٨٤)، والنسائي (٤/ ١٠٤)، وأحمد (٦/ ٢٤٨).

(٤) قال ابن تيمية رحمه الله: «العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة». «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٢)، وأحاديث إثبات عذاب القبر متواترة كما نص على ذلك العلماء، وقد ألف في إثبات ذلك البيهقي منذ ما يقرب من ألف عام، وقال الأشعري: وأجمعوا على أن عذاب القبر حق، وأن الناس يسألون في قبورهم بعد أن يحيون فيها، ويُسألون فيثبِّت الله من شاء من عباده بحسب ما قدموا من أعمال. «رسالة أهل الثغر» (ص٩٠-ط الجليند)، وقال ابن وهبان الحنفي:

وحقٌّ سؤالُ القبرِ ثمَّ عذابُهُ ... وكلُّ الذي عنه النبيونَ أَخْبَرُوا
حسابٌ وميزانٌ صحائفُ نُشِّرَتْ ... جِنانٌ ونيرانٌ صراطٌ ومَحْشَرُ

«الآيات البينات» للألوسي (ص٨١).

ومن موجبات عذاب القبر: الغِيبةُ والنميمة وعدم التنزه من البول وغيرها، تنظر في: «إثبات عذاب القبر» للبيهقي، و«الروح» لابن القيم، وموانعه في «المقاصد الحسنة» (ص٤٣٦)، قال ناظمها:

عليكَ بخمسٍ فتنةَ القبرِ تمنعُ ... وتُنْجِي من التعذيبِ عنكَ وتدفَعُ
رباطٌ بِثَغْرٍ ليلةً ونهارَها ... وموتُ شهيدٍ شاهَدَ السيفَ يَلْمَعُ
ومِنْ سورةِ «المُلْكِ» اقتَرِئْ كلَّ ليلةٍ ... ومَنْ رُوحُهُ يومَ العَرُوبةِ تُنْزَعُ
وموتُ شهيدِ البطْنِ جاءَ خِتَامَهَا ... وذو غِيبةٍ تعذيب يتنوعُ

وللمزيد ينظر: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ٣٢٢)، و(٢/ ١٠٤)، و«الإقناع» لابن القطان: (١/ ٤٩)، و«الإحكام» لابن دقيق (ص١٠٨)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٥)، و«شرح الطحاوية» (٢/ ٢٠٨، وما بعدها)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٣٣-٢٤٢)، و«نيل الأوطار» (١/ ٣٠٧).

عن عذاب القبر؟ فقال: «نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّىٰ صلاةً إلَّا تعوَّذ من عذاب القبر[١].

فهذا يدلُّ علىٰ أنَّه بادر إلىٰ تصديق اليهوديَّة في هذا الخبر، وقرَّر عليه. وفي الأخبار المتقدِّمة: أنَّه أنكر ذلك حتىٰ جاءَهُ الوَحْيُ، فلعلَّهما قضيَّتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرةٌ جدًّا.

وقال قتادة في قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحًا ومساءً، ما بقيت الدُّنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخًا ونقمةً وصَغَارًا لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يُغدَىٰ بهم ويُراح إلىٰ أن تقوم السَّاعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا المُحاربي، حدَّثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هُزَيْل[٢]، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ أرواح الشُّهداء في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ تسرح بهم في الجنَّة حيث شاءوا، وإنَّ أرواح ولدان المؤمِنِينَ في أجوافِ عصافيرَ تَسْرَحُ في الجنَّة حيث شاءت، فتأوِي إلىٰ قناديلَ معلَّقةٍ في العَرْش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيرٍ سودٍ تغدُو علىٰ جهنَّم وتروح عليها، فذلك عرضها[٣].

وقد رواه الثَّوري عن أبي قَيْس عن الهُزَيل[٤] بن شُرَحْبيل[٥] من كلامه في أرواح آل فرعون. وكذلك قال السُّدِّي.

وفي حديث الإسراء: من رواية أبي هارون العبدي، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «**ثُمَّ انْطُلِقَ بِي إِلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ، رِجَالٌ، كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بَطْنُهُ مِثْلُ الْبَيْتِ الضَّخْمِ، مُصَفَّدُونَ عَلَىٰ سَابِلَةِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَآلُ فِرْعَوْنَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾. وَآلُ فِرْعَوْنَ كَالإِبِلِ [الْمُسَوَّمَةِ يَخْبِطُونَ]**[٦] **الْحِجَارَةَ وَالشَّجَرَ وَلَا يَعْقِلُونَ**»[٧].

---

(١) البخاري (١٣٧٢، ٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦، ١٢٥٥)، والنسائي (٣/ ٥٦)، وأحمد (٦/ ١٧٤).

(٢) في (ز): (هذيل)، وهو خطأ.

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٣٥)، من طريق ليث بن أبي سُلَيم، وله طريق أخرىٰ عند اللَّالَكَائِي في «أصول الاعتقاد» (٦/ ٢١٦٥). ومنهم من جعله من كلام هزيل (الراوي عن ابن مسعود)، كما أشار إلىٰ ذلك المصنِّف في شرحه. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٨٢)، وابن أبي شيبة (٨/ ٩٨).

(٤) في (ز): «عن أبي الهذيل»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٥) لوحة (٩٩/ أ).

(٦) في (ز): «كالإبل المنسومة يختطفون».

(٧) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٥/ ١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٩٠)، وفيه أبو هارون العبدي، قال الحافظ: متروك، ومنهم من كذَّبه، شيعي.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا زيد بن أَخْزَم، حدَّثنا عامر بن مُدْرِك الحارثي، حدَّثنا عُتبة -يعني ابن يَقْظَان- عن قَيْس بن مسلم، عن طارق بن شهاب[1]، عن ابن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا أَحْسَنَ مِنْ مُحْسِنٍ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ إِلَّا أَثَابَهُ اللهُ». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابةُ الكافر؟ فقال: «إِنْ كَانَ قَدْ وَصَلَ رَحِمًا أَوْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَوْ عَمِلَ حَسَنَةً، أَثَابَهُ اللهُ المَالَ وَالوَلَدَ وَالصِّحَّةَ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال: «عَذَابًا دُونَ العَذَابِ»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2] ورواه البزار في «مسنده» عن زيد بن أَخْرَم، ثم قال: لا نعلم له إسنادًا غير هذا.

وقال ابن جَرير: حدَّثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدَّثنا حمَّاد بن محمَّد الفَزَاري البَلْخِي قال: سمعتُ الأوزاعيَّ وسأله رجل فقال: رحمك الله، رأينا طيورًا تخرج من البحر، تأخذ ناحيةَ الغرب بيضًا، فوجًا فوجًا، لا يعلم عددها إلا الله ﷻ، فإذا كان العشي رجع مثلها سودًا، قال: وفطنتم إلىٰ ذلك؟ قال: نعم. قال: إنَّ تلك الطَّير في حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض علىٰ النَّار غدوًّا وعشيًّا، فترجع إلىٰ وكورها وقد احْتَرَقَتْ رِيَاشُها وصارت سودًا، فينبت عليها من اللَّيل رِيشٌ أبيض، ويتناثر السُّود، ثم تغدو علىٰ النَّار غدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلىٰ وكورها، فذلك دَأْبُهم في الدُّنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالىٰ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا يقولون: إنَّهم[3] ستمائة ألف مقاتل[4].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ ﷻ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ».

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث مالك به[5].

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾[6]

---

(١) في (ز): (عن طارق عن شهاب)، وهو خطأ.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٣٦). والحاكم (٢/ ٢٥٣) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: عتبة بن يقظان واهٍ.

(٣) لوحة (٩٩/ ب).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٤/ ٧١)، وفيه حماد بن محمَّد: ضعيف.

(٥) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: فإن قال قائل: إن من القوم الذي يدعون مع الله إلهًا آخر من إذا دَعَوا هذه الأصنام أجابتهم، =

يخبر تعالىٰ عن تحاجِّ أهل النَّار في النَّار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه مِن جملتهم ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ -وهم: الأتباع- ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ -وهم: القادة، والسَّادة، والكُبراء-: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾، أي: أطعناكم فيما دَعَوْتُمُونا إليه في الدُّنيا من الكُفر والضَّلال، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ أي: قسطًا تتحمَّلُونَه عنَّا.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾، أي: لا نتحمل عنكم شيئًا، كفىٰ بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنَّكال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾، أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منَّا، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾، لما علموا أن الله سبحانه لا يستجيب منهم ولا يَسْتَمِعُ لدُعَائِهم، بل قد قال: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، سألوا الخزنة -وهم كالبوابين لأهل النار- أن يدعوا لهم اللهَ فِي أن يُخَفِّفَ عن الكافِرينَ ولو يومًا واحدًا من العذاب، فقَالَتْ لهم الخَزَنَةُ رَادِّين عليهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي: أوما قامت عليكم الحُجَج في الدُّنيا علىٰ ألسنة الرسل؟! ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ[1] قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم، ولا نسمع منكم، ولا نَوَدُّ خلاصَكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم [أنَّه][2] سواءٌ دَعَوْتُم أو لم تدعوا لا يُسْتَجَابُ لكم ولا يُخَفَّفُ عنكم؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: إلَّا من ذهابٍ، لا يُتَقَبَّلُ ولا يُسْتَجَابُ.

= فإذا دعوها لكشف الضر انكشف الضر عنهم، ومن الناس من إذا خالف هذه الأصنام أصيب ببلاء، فما هو الجواب؟

الجواب أن يقال: هذا الذي يحصل، يحصل من الله عز وجل، لا من هذه الأصنام ابتلاءً وامتحانًا، ويقال فيه: إنه حصل عند ذلك لا به، يعني: حصل هذا القضاء من الله عز وجل عند دعاء هذه الأصنام لا بدعاء هذه الأصنام.

فإن قال قائل: لماذا تعدلون عن السبب الظاهر إلىٰ سبب آخر لا يعلم؟

قلنا: عدلنا إلىٰ ذلك؛ لقول الله -تبارك وتعالىٰ- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ وبقوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر]، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف]، وإلا فإن العامي قد يأتي إلىٰ صاحب القبر ويقول: يا سيد يا ولي يا مولاي أنقذني من هذه البلية، أنقذني من هذه الضائقة، فيذهب إلىٰ بيته ويجد الأمر قد انفرج، هو علىٰ كل حال سوف يضيف هذا الانفراج إلىٰ الأمر الظاهر الذي قام به وهو دعاء هذا القبر حتىٰ انفرجت عنه الغمة، فنقول: هذه فتنة ونعلم علم اليقين أن صاحب القبر ليس هو الذي كشف الضر، وإنما الذي كشفه هو الله عز وجل، لكن حصل الكشف عن دعاء هذا القبر لا بدعائه؛ لأنه دائمًا يوردون علينا أصحاب القبور هذه الشبهة يقول: أنا دعوت السيد الفلاني فاستجاب لي وانكشفت الغمة.

(١) لوحة (١٠٠/ أ). (٢) سقط من (ز).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ سؤالًا فقال: قد عُلِم أن بعض الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسلام- قد قتله قومه بالكليَّة كيَحْيىٰ وزكريَّا وشعياء، ومنهم مَن خرج مِن بين أظهرهم إمَّا مهاجرًا كإبراهيم، وإمَّا إلىٰ السَّماء كعيسىٰ، فأين النُّصرة في الدُّنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرجَ عامًّا، والمراد به البَعْضُ، قال: وهذا سائغٌ في اللُّغة.

الثَّاني: أن يكون المرادُ بالنَّصر الانتصار لهم ممن آذاهُم، وسواء كان ذلك بحَضْرَتِهِم أو في غَيْبَتِهِم أو بعد مَوْتِهِم، كما فُعِلَ بِقَتَلَةِ يحيىٰ وزكريا وشعياء، سُلِّطَ عليهم مِن أعدائهم مَن أهانهم، وسَفَكَ دِمَاءَهُم، وقد ذكر أن النَّمْرُوذ أخذه الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، وأمَّا الذين رامُوا صلب المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من اليهود، فسَلَّط الله عليهم الرُّوم فأهانوهم وأذلُّوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسىٰ ابن مريم إمامًا عادلًا وحكمًا مُقْسِطًا، فيقتل المسيحَ الدَّجَّالَ وجنوده مِن اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصَّليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نُصْرَةٌ عظيمةٌ، وهذه سُنَّة الله في خلقه في قديم[1] الدَّهر وحديثِهِ، أنَّه ينصر عباده المؤمنين في الدُّنيا، ويُقِرُّ أعينهم ممن آذاهم، ففي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ**»[2]. وفي الحديث الآخر: «**إِنِّي لأَثْأَرُ لأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الحَرِبُ**[3]»[4]؛ ولهذا أهلك تعالىٰ قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرَّسِّ، وقوم لوط، وأهل مَدْيَن، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرُّسلَ وخالف الحقَّ، وأنجىٰ الله من بينهم المؤمنين، فلم يُهْلِكْ منهم أحدًا، وعذَّب الكافرين، فلم يُفْلِتْ منهم واحدًا.

قال السُّدِّي: لم يبعث الله رسولًا قطُّ إلىٰ قوم فيقتلونه، أو قومًا من المؤمنين يدعون إلىٰ الحق

---

(١) لوحة (١٠٠/ ب). (٢) البخاري (٦٥٠٣)، وابن حبان (٣٤٧).

(٣) أي: الشديد الغضب.

(٤) ضعيف: رواه البغوي في «شرح السنة» (١٢٤٩) بلفظ: «**إِنِّي لأَغْضَبُ لأَوْلِيَائِي**»، وفي إسناده عمر بن سعيد الدمشقي: ضعيف.

فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتىٰ يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بِدِمَائِهِم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقْتَلون في الدنيا، وهم منصورون [فيها][(١)].

وهكذا نصر الله سبحانه نبيَّه محمَّدًا ﷺ وأصحابه علىٰ مَن خالفه وناوأه[(٢)]، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر علىٰ سائر الأديان، وأمره بالهجرة مِن بين ظَهْرَانَي قومِهِ إلىٰ المدينة النبويَّة، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخَذَّلهم له، وقتل صناديدهم، وأسرَ سَرَاتَهُم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم مَنَّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدَّةٍ قريبةٍ فتح عليه مكَّة، فقرَّت عينُهُ ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرَّف المعظَّم، فأنقذه الله به ممَّا كان فيه مِن الشِّرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله تعالىٰ إليه لِمَا له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابَهُ خلفاء بعده، فبلَّغُوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلىٰ الله، وفتحوا البلاد والرَّساتيق[(٣)] والأقاليم والمدائن والقُرَىٰ والقلوب، حتىٰ انتشَرَتِ الدَّعوة المحمَّديَّة في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال[(٤)] هذا الدِّين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلىٰ قيام السَّاعة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، أي: يوم القيامة تكون النُّصرةُ أعظمَ وأكبرَ وأجلَّ.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿يَوْمُ﴾ بالرَّفع، كأنَّه فسَّره به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهم المشركون، ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذرٌ ولا فديةٌ، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعاد والطَّرد من الرَّحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي النار.

قاله السُّدِّي، بئس المنزل والمقيل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدىٰ والنُّور، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا علىٰ طاعة الله واتباع رسوله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الكتاب الذي أُورِثُوه -وهو التوراة- ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهي: العقول الصَّحيحة السَّليمة.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ -أي: يا محمَّد- ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: وعدناك أنَّا سَنُعْلِي كلمتك، ونجعل

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): «خالفهم وناوأهم».
(٣) جمع رُسْتَاق -فارسي معرب- وهو: السَّوَاد والقرىٰ.
(٤) لوحة (١٠١/ أ).

العاقبة لك ولمن اتَّبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حقٌّ لا مِرْيَة فيه ولا شكَّ.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[١]، هذا تهييج[٢] للأمَّة على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ﴾ أي: في أواخر النَّهار وأوائل اللَّيل، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهي أوائل النَّهار وأواخر اللَّيل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصَّحيحة بالشُّبَه الفاسدة بلا بُرهَانٍ ولا حجَّةٍ من الله، ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[٣].

أي: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ على اتِّباع الحقِّ، واحتقارٌ لمن جاءهم به، وليس ما يَرُومُونه من إخمال الحق وإعلاء البَاطِل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي[٤]: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، أو من شر مثل هؤلاء المُجَادِلين في آيات الله بغير سلطان، هذا تفسير ابن جرير.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائدها: جواز الذنوب على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ لقوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾: والخطاب للرسول ﷺ وإذا جاز الذنب على الرسول وهو أشرف الرسل، فعلى غيره من باب أولى.

فإن قال قائل: أليس الأنبياء معصومين عن الذنوب؟

فالجواب: هذه الآية وأمثالها تدل على أن الجواب بالنفي، لكنهم يفارقون غيرهم في ذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنهم معصومون من الكذب والخيانة وما أشبه ذلك مما يؤثر على الرسالة.

والوجه الثاني: أنهم معصومون عن كل ذنب يُخِلُّ بالشرف.

والثالث: أنهم معصومون من الإقرار على الذنوب، لابد أن ينزهوا عليها حتى يوفقوا للتوبة، منها فهذه فروق ثلاثة بينهم وبين غيرهم مِنَ الناس، أما غيرهم من الناس فإنهم ليسوا معصومين مما يُخِلّ بالشرف ولا مما يخل بالأمانة، وليسوا معصومين من الإصرار على المعاصي.

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: ذكر القرطبي عدة أقوال للسلف في الذنب المطلوب من الرسول ﷺ الاستغفار منه، قيل: ذنبه ﷺ الذي كان قبل البعثة والعصمة، وقيل: ذنب أمته، وقيل: الصغائر ومخالفة الأولى وقيل المراد هو تعبُّد اللهِ رسولَهُ بالدعاء إذ الاستغفار دعاء بطلب المغفرة وهو وجه، وأوجه منه إرشاد الآية إلى الاستغفار.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن قيل: إننا نجد المجادلة من الكفار أحيانًا لا تُدفع، يعجِزُ الإنسان عن دفعها.

فنقول: نعم هذا ربما يكون، لكن ليست العلة من الحجة، بل من المحتج، العلة ليست مع الحجة، الحجة قائمة والحق غالب، لكن العلة من المحتج، قد يكون قليل العلم؛ ولهذا لا ينبغي أن تدخل في مجادلة غيرك إلا ومعك علم، وقد يكون قاصر الفهم لا يفهم، هو عنده علم، ولكنه لا يفهم، وقد يكون سيِّئ القصد يريد الغلبة فقط؛ انتصارًا لقوله، لا انتصارًا للحق، وهذا يُخْذَل، قد يكون لِعَيِّه، ومعنى العيِّ: أنه ليس عنده من البيان والفصاحة ما يؤدي إلى الغلبة؛ لأن البيان والفصاحة لهما تأثير كبير في إثبات الحق؛ فلقد قال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرًا»، فهذه الأمور الأربعة هي التي تجعل الباطل يعلو ظاهرًا على الحق، والأربعة هي: إما قلة العلم، أو سوء القصد، أو قصور فهمه، أو العي، يعني: التعبير عما في نفسه، هذه الأربعة هي التي تجعل من الباطل منارًا يعلو ظاهرًا على الحق، وأما الحق نفسه فلا يمكن إطلاقًا أن يغلبه الباطل.

(٤) لوحة (١٠١/ ب).

وقال كَعْبٌ، وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، قال أبو العَالِيَة: وذلك أنَّهم ادَّعَوْا أنَّ الدَّجَّال منهم، وأنَّهم يملكون به الأرض، فقال الله لنبيِّه ﷺ آمرًا له أن يستعيذ من فتنة الدَّجَّال، ولهذا قال: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾(١).

وهذا قولٌ غريبٌ، وفيه تعسُّفٌ بعيدٌ، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾

يقول تعالىٰ منبِّهًا علىٰ أنَّه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهلٌ عليه، يسير لديه -بأنَّه خلق السَّموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق النَّاس بَدْأةً وإعادةً، فمَن قدر علىٰ ذلك فهو قادرٌ علىٰ ما دُونَه بطريق الأَوْلَىٰ والأحرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ [وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ](٢) بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبَّرُون هذه الحجَّة ولا يتأمَّلُونها، كما كان كثيرٌ من العرب يعترفون بأنَّ الله خلق السَّموات والأرض، وينكرون المَعَاد، استبعادًا وكفرًا وعنادًا، وقد اعترفوا بما هو أولىٰ مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾، أي: كما لا يستوي الأعمىٰ الَّذِي لا يُبْصِرُ شيئًا، والبصير الذي يرىٰ ما انتهىٰ إليه بصره، بل بينهما فرقٌ عظيمٌ، كذَلِكَ لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقلَّ ما يتذكَّر كثيرٌ من النَّاس.

ثم قال(٣): ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ أي: لكائنةٌ وواقعةٌ، ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لا يصدِّقون بها، بل يُكَذِّبون بوجودها.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن عبد الحَكَم، حدَّثنا أَشْهَب، حدَّثنا مالك، عن شيخ قديم من أهل اليمن -قدم مِن ثَمَّ- قال: سمعتُ أنَّ السَّاعة إذا دَنَت اشتدَّ البلاء علىٰ النَّاس، واشتدَّ حرُّ الشَّمس(٤).

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٤٠)، وإسناده مرسَلٌ.

(٢) سقطت من (ز). (٣) لوحة (١٠٢/ أ).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٤٢).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾

هذا من فضله -تبارك وتعالىٰ- وكرمه أنَّه نَدَبَ عبادَهُ إلىٰ دعائه، وتكفَّل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أحبُّ عبادِهِ إليه مَنْ سأله فأكثرَ سُؤَالَهُ، ويا مَن أبغضُ عبادِهِ إليه مَن لم يسألْهُ، وليس كذلك غيرك يا رب. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنىٰ يقول الشاعر:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كَعْبُ الأَحْبَار: أُعْطِيَتْ هذه الأمة ثلاثًا لم تُعطَهُن أمةٌ قبلهم إلا نبيٌّ؛ كان إذا أرسل [الله نبيًّا](١) قيل له: «أنتَ شاهدٌ علىٰ أمَّتِكَ، وجَعلتُكم شهداء علىٰ النَّاس». وكان يقال له: «ليس عليك في الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. وكان يقال له: «ادْعُنِي(٢) أَسْتَجِب لك». وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. رواه ابن أبي حاتم(٣).

وقال الإمام الحافظ أبو يعلىٰ -أحمد بن علي بن المُثَنَّىٰ المَوْصلي- في «مسنده»: حدَّثنا أبو إبراهيم التَّرْجُمَاني، حدَّثنا صالح المُرِّي قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ -فيما يروي عن ربِّه عز وجل- قال: «**أَرْبَعُ خِصَالٍ، وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ لِي، وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِبَادِي، فَأَمَّا الَّتِي لِي: فَتَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ عَلَيَّ: فَمَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ جَزَيْتُكَ بِهِ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ: فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الإِجَابَةُ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِبَادِي: فَارْضَ لَهُمْ مَا تَرْضَىٰ لِنَفْسِكَ**»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأَعْمَش، عن ذَرٍّ، عن يُسَيع الكِنْدي، عن النُّعْمان بن بَشِير رضي الله عنه(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ**»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٦).

وهكذا رواه أصحاب «السُّنن»: الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن أبي حاتم، وابن جرير، كلُّهُم مِن حديث الأعمش به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «ادعوني».

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٤٣)، وهو من كلام كعب الأحبار لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

(٤) ضعيف: «زوائد البزار» (١٩-كشف)، وفيه صالح المُرِّي، قال الحافظ: ضعيف (تقريب - ترجمة ٢٨٤٥). انظر: «تهذيب الكمال» (١٣/ ١٦-٢٢).

(٥) لوحة (١٠٢/ ب).

(٦) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٧١)، والترمذي (٢٩٦٩، ٣٢٤٧)، وأبو داود (١٤٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٦٤)، وابن ماجة (٣٨٢٨).

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير أيضًا، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذرٍّ، به. وأخرجه الترمذي أيضًا من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذرٍّ به.

ورواه ابن حِبَّان والحاكم في «صحيحيهما»، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثني أبو مَلِيح[1] المَدَني -شيخ من أهل المدينة- سمعه عن أبي صالح، وقال مُرة: سمعت أبا صالح يحدِّث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ». تفرَّد به أحمد، وهذا إسنادٌ لا بأس به[2].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا مروان الفَزاري، حدَّثنا صَبيح أبو المَليح: سمعت أبا صالحٍ يحدِّث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَسْأَلْهُ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

قال ابن معينٍ: أبو المليح هذا اسمه: صُبَيْح. كذا قَيَّده بالضَّمِّ عبد الغني بن سعيد، وأما أبو صالح هذا فهو الخُوزي، سكن شِعَب الخُوز. قاله البزَّار في «مسنده». وكذا وقع في روايته: أبو المليح الفارسي، عن أبي صالح الخُوزي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

وقال الحافظ أبو محمَّد الحسن بن عبد الرحمن الرَّامَهُرْمزي: حدَّثنا همام، حدَّثنا إبراهيم بن الحسن، حدَّثنا نائل بن نجيح، حدَّثني عائذ بن حبيب، عن محمَّد بن سعيد قال: لما مات محمَّد ابن مسلمة الأنصاري، وَجَدْنا في ذُؤَابَة سيفه كتابًا: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي بَقِيَّةِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّ دَعْوَةً أَنْ تُوَافِقَ رَحْمَةً فَيَسْعَدَ بِهَا صَاحِبُهَا سَعَادَةً لا يَخْسَرُ بَعْدَهَا أَبَدًا»[3].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾[4] أي: عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي: صاغرين حقيرين، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن ابن عَجْلان، حدَّثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[5]، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولُسُ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ: عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ»[6].

---

(١) في (ز): «أبو صالح»، وهذا خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) حسن: رواه أحمد (٢/ ٤٤٣)، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجة (٣٨٢٧)، وله شواهد. انظر: تفسير الفاتحة الآية (١). والحديث حسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥٤).

(٣) صحيح: رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاضل» (٦١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٥٢١٩)، وفي «الأوسط» (١٨٥٦)، وله شواهد أوردها الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٩٠).

(٤) لوحة (١٠٣/ أ).

(٥) الذَّر: النمل الصغير، واحدتها: ذرة.

(٦) حسن: رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، ورجاله ثقات عدا محمَّد بن عجلان: صدوق.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبو بكر بن محمَّد بن يزيد بن خُنَيْس، سمعت أبي يحدِّث عن وُهَيب بن الوَرْد، حدَّثني رجلٌ قال: كنت أسير ذات يومٍ في أرض الروم، فسمعت هاتفًا من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رَبِّ، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدًا غيرك! يا رَبِّ، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلىٰ أحدٍ غيرك -قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطَّامَّة الكبرىٰ- قال: ثم عاد الثانية فقال: يا رَبِّ، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيءٍ مِن سَخَطِكَ برضا غيرك. قال وُهَيب: وهذه الطَّامَّة الكبرىٰ. قال: فناديته: أجنيٌّ أنت أم إنسيٌّ؟ قال: بل إنسيٌّ، اشْغَلْ نَفْسَك بما يَعْنِيك عمَّا لا يعنيك.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ خلقه، بما جعل لهم من اللَّيل الذي يَسْكُنُون فيه ويَسْتَرِيحُون من حركات تردُّدهم في المعايش بالنَّهار، وجعل النَّهار مبصرًا؛ أي: مضيئًا؛ ليتصرَّفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتَّمكُّن من الصناعات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الَّذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد[١]، خالق الأشياء، الَّذي لا إله غيرُهُ، ولا ربَّ سواهُ، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره مِن الأصنام، التي لا تَخْلُقُ شيئًا، بل هي مخلوقةٌ منحوتةٌ؟!

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: كما ضلَّ هؤلاء بعبادةِ غيرِ الله، كذلك أُفِكَ الذين من قبلهم، فعبدوا غيرَهُ بلا دليلٍ ولا برهانٍ، بل بمجرَّد الجهل والهوىٰ، وجَحَدُوا حُجَجَ الله وآياتِهِ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: جعلها مستقرًّا لكم، بساطًا مهادًا تعيشون عليها، وتَتَصرَّفون فيها، وتَمْشُون في مَنَاكِبِهَا، وأرساهَا بالجبال؛ لئلَّا تميد بكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ

(١) لوحة (١٠٣/ ب).

بِنَآءً﴾ أي: سقفًا للعالم محفوظًا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصُّورِ في أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من المآكل والمشارِب في الدُّنيا، فذكر أنَّه خلق الدَّار والسُّكَّان والأرزاق، فهو الخالق الرَّازق، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢٢]، وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: فتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه ربُّ العالَمِينَ كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو الحيُّ أزلًا وأبدًا، لم يَزَلْ ولا يزال[١]، وهو الأوَّل والآخر، والظَّاهر والباطن، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: موحِّدين له مُقِرِّين بأنَّه لا إله إلا هو، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعةٌ من أهل العلم يأمرون من قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أن يتبعها بـ«الحَمْدُ لله رب العالمين» عملًا بهذه الآية[٢].

ثم روىٰ عن محمَّد بن علي بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: من قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فليقُلْ في أثرها: «الحمدُ لله ربِّ العالمين»، [فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]].

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سعيد بن جُبير قال: إذا قرأت: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ[٤] لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، فقل: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وقل علىٰ أثرها: «الحمدُ لله ربِّ العالمين»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد لهؤلاء المشركين: إن الله يَنْهىٰ أن يُعْبَدَ أحدٌ سواه من الأصنام والأنداد

---

(١) في (ز): «ولا زال».
(٢) رواه الطبري (٢٤/ ٨١).
(٣) رواه الطبري (٢٤/ ٨١)، والحاكم (٢/ ٤٣٨) وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) لوحة (١٠٤/ أ).
(٥) رواه الطبري (٢٤/ ٨١).

والأوثان. وقد بيَّن تعالىٰ أنَّه لا يستحق العبادةَ أحدٌ سواه، في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾، أي: هو الذي يُقلِّبُكُم في هذه الأطوار كلِّها، وحده لا شريكَ له، وعن أمرِهِ وتدبيرِهِ وتقديرِهِ يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ أن يُوجَدَ ويخرج إلىٰ هذا العالم، بل تسقطه أمُّهُ سقطًا، ومنهم من يتوفىٰ صغيرًا، وشابًّا، وكَهْلًا قبلَ الشَّيخوخة، كقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جُريجٍ: تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرِّد بذلك، لا يقدر علىٰ ذلك أحدٌ سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أي: لا يخالَف ولا يمانَعُ، بل ما شاء كان [لا محالة](١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ألا تعجبُ يا محمَّدُ من(٢) هؤلاء المكذِّبين بآيات الله، ويجادلون في الحقِّ والباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدىٰ إلىٰ الضلال؟! ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾، أي: من الهدىٰ والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ(٣)، من الرَّبِّ -جل جلاله- لهؤلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزَّبانية يسحبونهم علىٰ وجوههم، تارةً إلىٰ الحميم وتارةً إلىٰ الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذِكْره أكلَهم الزَّقُّومَ وشربهمُ الحميمَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨]، وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، إلىٰ أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (١٠٤/ ب).
(٣) في (ز): «هذا تهديد ووعيد شديد».

ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٤١-٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ [خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ](١) ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]؛ أي: يقال لهم ذلك على وجه التَّقريع، والتَّوبيخ، والتَّحقير، والتَّصغير، والتَّهكُّم، والاستهزاء بهم.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن مَنِيع، حدَّثنا منصور بن عمار، حدَّثنا بشير بن طلحة الخُزَامي، عن خالد بن دُرَيْك، عن يَعْلَىٰ بن مُنْيَة -رفع الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ- قال: «**يُنْشِئُ اللهُ سَحَابَةً لِأَهْلِ النَّارِ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، أَيُّ شَيْءٍ تَطْلُبُونَ؟ فَيَذْكُرُونَ بِهَا سَحَابَ الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ: نَسْأَلُ بَرْدَ الشَّرَابِ، فَتُمْطِرُهُمْ أَغْلَالًا تَزِيدُ فِي أَغْلَالِهِمْ، وَسَلَاسِلَ تَزِيدُ فِي سَلَاسِلِهِمْ، وَجَمْرًا يُلْهِبُ النَّارَ عَلَيْهِمْ**». هذا حديثٌ غريبٌ(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرُونكم اليَوْمَ؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾، أي: ذهبوا فلم ينفعُونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟(٣) مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، أي: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الَّذِي أنتم فيه جزاءٌ علىٰ فرحكم في الدُّنيا بغيرِ الحقِّ، ومرحكم وَأَشَرِكُمْ، وبطركم، ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المَنْزلُ والمَقِيلُ الذي فيه الهوان والعذاب الشَّديد، لمن استكبر عن آياتِ الله، واتِّباع دلائله وحُجَجِه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- بالصَّبر علىٰ تكذيب من كذَّبه من قومه؛ فإن الله

---

(١) سقطت من (ز).

(٢) ضعيف: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٤١٠٣)، وفيه منصور بن عمار: قال ابن معين: منكر الحديث، والإسناد منقطع بين خالد بن دُرَيك ويعلىٰ.

(٣) لوحة (١٠٥/ أ).

سَيُنْجز لك ما وعدك من النصر والظَفَرِ علىٰ قومك، وجَعْلِ العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: في الدنيا، وكذلك وَقَعَ، فإنَّ الله أقرَّ أعينهم من كُبَرائِهِم وعظمَائِهِم، أُبيدُوا في يوم بدرٍ، ثم فتحَ الله عليه مكَّة وسائر جزيرة العرب في أيَّام حياتِهِ ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: فنُذِيقُهُم العذاب الشَّديد في الآخرة.

ثم قال مسليًا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، كما قال: في «سورة النساء» سواء؛ أي: منهم مَن أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومِهِم كيف كذَّبوهم ثم كانت للرُّسُلِ العاقبةُ والنُّصرةُ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذُكِرَ بأضعافِ أضعافٍ، كما تقدَّم التَّنبيه علىٰ ذلك في «سورة النِّساء»، ولله الحمد والمنَّة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولم يكن لواحدٍ من الرُّسُلِ أن يأتي قومَهُ بخارقٍ للعادات، إلَّا أن يأذن الله له في ذلك[1]، فيدلُّ ذلك علىٰ صدقِهِ فيما جاءهم به، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وهو عذابه، ونكاله المحيط بالمكذِّبين، ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ فينجو المؤمنون، ويَهْلِكُ الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تُرْكَبُ وتُؤْكَلُ وتُحْلَبُ، ويُحْمَلُ عليها الأثقال في الأسفارِ والرِّحال إلىٰ البلاد النَّائية، والأقطار الشَّاسعة، والبقر تُؤكل، ويُشرب لبنها، وتُحرث عليها الأرض، والغنم تُؤكل، ويُشرب لبنها، والجميع تُجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثِّياب والأمتعة، كما فَصَّل وبيَّنَ في أماكن تقدَّم ذكرها في «سورة الأنعام»، و«سورة النحل»، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: حُجَجه وبَرَاهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، أي: لا تَقْدِرُون علىٰ إنكار شيءٍ مِن آياتِهِ، إلَّا أن تُعانِدُوا وتُكابِرُوا.

---

(١) لوحة (١٠٥/ ب).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الأُمَمِ المكذِّبة بالرُّسُل في قديم الدَّهر، وماذا حلَّ بهم من العذاب الشَّديد، مع شدَّة قُواهم، وما أثَّروه [1] في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنىٰ عنهم ذلك شيئًا، ولا رَدَّ عنهم ذرَّةً من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرُّسل بالبيِّنات، والحُجَج القَاطِعَات [2]، والبراهين الدَّامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغْنَوْا بما عندهم من العِلْم في زعمِهِم عمَّا جاءتهم به الرُّسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلمُ منهم، لَن نُبْعَثَ ولن نُعَذَّبَ.

وقال السُّدِّي: فرحوا بما عندهم من العلم بجَهَالَتِهِم، فأتاهم مِن بأس الله ما لا قِبَل لهم به.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذِّبون ويستبعدون وقوعه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عايَنُوا وقوعَ العذاب بهم، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحَّدوا الله وكفروا بالطَّاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنَّه قد استجاب لنبيِّه موسىٰ دعاءَهُ عليه حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]. وهكذا هاهنا قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾، أي: هذا حُكْم الله في جميع مَنْ تاب عند معاينة العذاب؛ أنَّه لا يقبل. ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» [3]، أي: فإذا غرغَرَ وبلغت الرُّوح الحنجَرَة، وعاين الملك، فلا توبةَ حينئذٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر» [4]، ولله الحمد والمنَّة.

---

(١) أي: تركوا فيها من الآثار. (٢) لوحة (١٠٦/ أ).

(٣) حسن صحيح: رواه الترمذي (٣٥٧٧)، وابن ماجة (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢)، ورجاله ثقات عدا ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت: صدوق يخطئ ورُمِيَ بالقدر، وتغيَّر بآخره، لكن للحديث شواهدُ يتقوَّىٰ بها، وقد تقدَّمت عند تفسير الآية (١٧) من «سورة النِّساء» وبها يصِحُّ الحديث.

(٤) في (ز): «سورة المؤمن».

سورة فصلت

تفسير سورة فصلت[1] وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعني: القرآن مُنزَّلٌ مِنَ الرَّحمن الرَّحيم، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[2] [النحل:١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، أي: بُينت معانيه، وأُحكِمَتْ أحكامُهُ، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حالِ كونه لفظًا عربيًّا بينًا واضحًا، فمعانيه مفصَّلةٌ، وألفاظه واضحةٌ غير مشكلةٍ، كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، أي: هو معجز من حيث لفظُهُ ومعناه، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّما يعرف هذا البيانَ والوضوحَ العلماءُ الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3]، أي: تارةً يُبَشِّرُ المؤمنين، وتارةً يُنْذِرُ الكافِرينَ، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يَفْهَمُون منه شيئًا مع بيانِهِ ووضوحِهِ.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: في غُلفٍ مغطَّاةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عمَّا جئتَنا به، ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيءٌ مما تقول، ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل أنتَ علىٰ طريقتك، ونحن علىٰ طريقتنا لا نتابعك.

---

(١) في (ز): «سورة حم السجدة».

(٢) لوحة (١٠٦/ ب).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ﴿وَنَذِيرًا﴾: لمن كفر به، وإن شئت فقل: إنه نذير لجميع العالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، المهم أن البِشارة خاصة، والنِّذارة عامة، وربما يكون خاصًّا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم]، يعني: الذي كفروا به، فصارت البشير خاصة بمن آمن، والنذير تكون عامة وتكون خاصة.

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد في «مسنده»: حدَّثني ابن أبي شيبة، حدَّثنا علي بن مُسْهِرٍ، عن الأَجْلَح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلة الأَسَدي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: اجتمعت قريشٌ يومًا فقالوا: انظروا أعْلَمكم بالسِّحر والكِهانة والشِّعر، فليأتِ هذا الرَّجل الذي قد فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعابَ دِينَنَا، فليكلِّمه ولننظر ماذا يَرُدُّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عُتْبة فقال: يا محمَّد، أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خيرٌ أم عبد المطَّلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنتَ تزعم أنَّ هؤلاء خيرٌ منك، فقد عبدوا الآلهة الَّتِي عِبْتَ، وإن كنتَ تزعُمُ أنَّك خيرٌ منهم فتكلَّم حتىٰ نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً[1] قطُّ أشأَمَ علىٰ قومِكَ منك؛ فرَّقْتَ جماعَتَنَا، وشتَّت أَمْرَنَا، وعِبْتَ دِينَنَا، وَفَضَحْتَنَا في العرب، حتىٰ لقد طار فيهم أنَّ في قريشٍ ساحرًا، وأنَّ في قريشٍ كاهنًا! والله ما ننظر إلا مثل صَيْحَة الحُبْلىٰ أن يقوم[2] بعضُنَا إلىٰ بعضٍ بالسُّيوف، حتىٰ نَتَفَانَىٰ! أيُّها الرَّجل، إن كان إنَّما بك الحَاجَةُ جمعنا لك حتىٰ تكون أَغْنَىٰ قريش رجلًا، وإن كان إنَّما بكَ الباءَةُ فاختر أيَّ نساء قريشٍ [شئتَ][3] فلنزوِّجك عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قال: نعم فقال رسول الله ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، حتىٰ بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فقال عُتْبة: حَسْبُكَ! حَسْبُكَ! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا»، فرجع إلىٰ قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرىٰ أنَّكم تُكَلِّمُونه به إلَّا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال: [نعم، قالوا: فما قال؟ قال][4]: لا والَّذِي نصبها بَنِيَّةً[5]، ما فَهِمْتُ شيئًا مما قال، غير أنَّه أنذركم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمود، قالوا: وَيْلَكَ! يُكَلِّمُكَ الرجل بالعربيَّة ما تدري ما قال؟! قال: لا والله ما فهمتُ شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة[6].

وهكذا رواه الحافظ أبو يَعْلَىٰ المَوصِلي في «مسنده»، عن أبي بكر بن أبي شَيْبَة بإسناده مثله سواءً.

وقد ساقه البَغَوِيُّ في «تفسيره» بسنده عن محمَّد بن فُضَيل، عن الأَجْلَح -وهو: ابن عبد الله الكِنْدِي الكوفي- وقد ضُعِّفَ بعض الشيء، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلَة، عن جابر، فذكر الحديث إلىٰ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً [مِّثْلَ صَٰعِقَةِ][7] عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسك عُتْبة علىٰ فِيهِ، وناشده بالرَّحِم،

---

(١) السَّخْلة: ولد الشاة من المعز والضأن، والسخل: المولود المحبب إلىٰ أبويه، وهو في الأصل: ولد الغنم.

(٢) لوحة (١٠٧/ أ).

(٣) ليست في (ز)، وهي مثبتة عند «عبد بن حميد».

(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة عند «عبد بن حميد».

(٥) يعني بالبنية: الكعبة، وكانت تدعىٰ بنية إبراهيم عليه السلام لأنه بناها.

(٦) رواه عبد بن حميد في «المنتخب» (١١٢٣)، ورواه أبو يعلىٰ (١٨١٨)، وابن أبي شيبة (٨/ ٤٤٠)، والحاكم (٢/ ٢٧٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذَّهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٠): فيه الأجلح الكِنْدِي وثَّقه ابن معينٍ وغيرُهُ، وضعَّفه النَّسائي وغيره، وبقيَّة رجاله ثقات.

(٧) سقطت من (ز).

ورجع إلىٰ أهله ولم يخرج إلىٰ قريشٍ واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرىٰ عُتْبة إلا قد صَبَا إلىٰ محمَّد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجةٍ قد أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عُتْبة، ما حَبَسك عنا إلا أنك صَبَوت إلىٰ محمَّد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك من أَمْوَالِنا ما يغنيك عن طعام محمَّد، فغضب عُتبة، وأقسم ألا يُكلِّم محمَّدًا أبدًا، وقال: والله، لقد علمتم أنِّي من أكثر قريشٍ مالًا، ولكنِّي أتيتُهُ وقصصت عليه القصَّة، فأجابني بشيءٍ والله ما هو بشِعرٍ ولا كِهانة ولا سِحرٍ، وقرأ السُّورة إلىٰ قوله: ﴿[فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ][1] فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾، فأمسكت بفِيهِ، وناشدته بالرَّحِم أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمَّدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب[2].

وهذا السِّياق أشبه من سياق البَزَّار وأبي يَعْلَىٰ، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمَّد بن إسحاق بن يسار في كتاب «السِّيرة» علىٰ خلاف هذا النَّمَط، فقال:

حدَّثني [يزيد][3] بن زياد، عن محمَّد بن كَعْبٍ القُرَظي قال: [حُدِّثْتُ أن عُتبة][4] بن ربيعة -وكان سيدًا- قال يومًا وهو جالسٌ في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقومُ إلىٰ محمَّد فأكلمَهُ وأعرضَ عليه أمورًا لعلَّه يَقْبَلُ بعضها، فنعطيَهُ أيَّها شاء ويَكُفَّ عنَّا؟ -وذلك حين أسلم[5] حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون- فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه،فقام إليه عُتْبة حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنَّك منَّا حيث قد عَلِمْتَ مِن السِّطَة في العشيرة[6]، والمكان في النَّسب، وإنَّك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ، فَرَّقتَ به جَمَاعَتَهم، وسفَّهْتَ به أحلَامَهم، وعِبْتَ به آلِهَتَهُم ودِينَهُم، وكَفَّرتَ به من مضىٰ من آبائهم، فاسمع منِّي أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلَّك تَقْبَلُ منَّا بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**قُلْ يَا أَبَا الوَلِيدِ، أَسْمَعْ**». قال: يا ابن أخي، إن كنت إنَّما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك مِن أموالنا حتىٰ تكون من أكثرنَا أموالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدْنَاك علينا، حتىٰ لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملَّكنَاك علينا، وإن كان هذا الذي يَأْتِيك رَئِيًّا[7] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطِّبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نُبْرِئَكَ منه، فإنه ربما غلب التَّابع[8] علىٰ الرجل حتىٰ يُدَاوَىٰ منه -أو كما قال له- حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه[9] قال: «**أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟**»، قال: نعم. قال: «**فَاسْتَمِعْ مِنِّي**»،

---

(١) ليست في (ز).

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (١/ ١٦٠).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «قال: حديث ابن عتبة».

(٥) في (ز): «أقبل»، والمثبت موافق لما عند «ابن إسحاق».

(٦) في (ز): «السيطة والعشيرة»، **السِّطَة**: الشرف.

(٧) **الرَّئِي**: ما يتراءىٰ للإنسان من الجن.

(٨) **التابع**: ما يتبع الإنسان من الجن.

(٩) لوحة (١٠٨/ أ).

قال: أفعل، قال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾»، ثم مضىٰ رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السَّجدة [منها][(١)]، فسجد ثم قال: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ»، فقام عتبةُ إلىٰ أصحابه، فقال بعضُهُم لبعضٍ: أقسم -يحلف بالله- لقد جاءكم أَبُو الوليد بغيرِ الوَجْهِ الَّذِي ذهب به، فلمَّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنِّي قد سمعت قولًا -والله- ما سمعت مثلَهُ قطُّ، واللهِ ما هو بالسِّحر ولا بالشِّعر ولا بالكِهانة. يا معشرَ قريشٍ، أَطِيعُونِي واجعلوها لي، خلُّوا بين الرَّجل وبين ما هُو فيه فاعتزِلُوه، فوَالله ليكونَنَّ لقولِهِ الذي سمعتُ نبأٌ، فإن تُصِبْه العرب فقد كُفِيتُمُوه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد النَّاس به، قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رَأْيِي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وهذا السِّياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم[(٢)].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ⑥ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ⑦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد [لهؤلاء][(٣)] المكذِّبين المشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرِّقين، إنَّما الله إلهٌ واحدٌ، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [أي: أخلصوا][(٤)] له العبادة علىٰ منوالِ ما أمركم به علىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُل، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالِفِ الذُّنُوبِ، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[(٥)] أي: دمارٌ لهم وهلاكٌ عليهم، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني: الذين لا يشهدون أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وكذا قال عِكْرِمَة.

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلىٰ:١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨]، والمراد بالزَّكاة هاهنا: طهارةُ النَّفس من الأخلاق الرذيلة، ومِن أهم ذلك طهارةُ النَّفس من الشِّرك.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) سيرة ابن إسحاق (١/ ٣٠٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٤)، وإسناده مرسل، وفيه من لم يُسَمَّ.

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «وأخلصوا».

(٥) لوحة (١٠٨/ ب).

وزكاة المال إنَّما سُمِّيَتْ زكاةً؛ لأنَّها تُطَهِّرُهُ من الحَرَامِ، وتكون سببًا لزيادَتِهِ وبركتِهِ وكثرة نفعِهِ، وتوفيقًا إلىٰ استعماله في الطَّاعات.

وقال السُّدِّي: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: الذين لا يَدِينونَ بالزَّكاة[١].

وقال مُعَاوِية بن قُرَّة: ليسَ هُم مِن [أهل][٢] الزَّكاةِ.

وقال قتادة: يمنعون زكاةَ أَمْوَالِهِم[٣].

وهذا هو الظاهر عند كثيرٍ مِن المفسِّرين، واختاره ابن جريرٍ. وفيه نظرٌ؛ لأنَّ إيجاب الزَّكاة إنَّما كان في السَّنة الثَّانية من الهجرة إلىٰ المدينة، علىٰ ما ذكره غير واحدٍ، وهذه الآية مكيَّةٌ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: لا يبعد أن يكون أصل الزَّكاة والصَّدقة كان مأمورًا به في ابتداءِ البعثة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأمَّا الزَّكاة ذات النُّصُبِ والمقادير فإنَّما بُيِّنَ أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعًا بين القولين، كما أنَّ أصل الصَّلاة كان واجبًا قبل طلوع الشَّمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلمَّا كان ليلة الإسراءِ قبل الهجرة بسنةٍ ونصفٍ، فَرَضَ الله علىٰ رسوله ﷺ الصَّلواتِ الخمسَ، وفصَّل شروطها وأركانها وما يتعلَّق بها بعد ذلك شيئًا فشيئًا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٤]، قال مجاهدٌ وغيره: لا مَقْطُوعَ ولا مَجْبُوبَ، كقوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال السُّدِّي: غير ممنونٍ عليهم، وقد ردَّ عليه بعضُ الأئمَّة هذا التَّفسير؛ فإنَّ المنَّة لله علىٰ أهل الجنَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ[٥] لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «**إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[٦].

---

(١) أي: لا يؤمنون بها.

(٢) سقط من (ز).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الزكاة يحتمل أن تكون زكاة النفس، ويحتمل أن تكون زكاة المال.
الراجح أن المراد بها زكاة النفس، والمعنىٰ: (لا يؤتون أنفسهم زكاتها)، وفي الحديث: «آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكَّاها» وعلىٰ هذا نرجح أن المراد بالزكاة زكاة النفس، ويكون المعنىٰ لا يؤتون أنفسهم زكاتها، بل يهينونها ويقلُّون عنها.

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أجر الآخرة غير مقطوع بل ومستمر ودائم وغير ممنون به أيضًا، بل يُعطىٰ الإنسان بدون مِنَّة، وأما ثواب الدنيا فإنه بالعكس.

(٥) لوحة (١٠٩/ أ).

(٦) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

هذا إنكارٌ مِن الله علىٰ المشركين الَّذين عبدوا معه غيرَه، وهو الخالق لكلِّ شيءٍ، القاهرُ لكلِّ شيءٍ، المقدِّرُ لكلِّ شيءٍ، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراءَ وأمثالًا تعبدونها معه، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأَشْياء هو رَبُّ العَالِمينَ كلِّهم.

وهذا المكان فيه تفصيلٌ لقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختَصُّ بالأرضِ ممَّا اختصَّ بالسَّماء، فذكر أنَّه خلق الأرض أوَّلًا لأنَّها كالأساسِ، والأصل أن يُبْدَأَ بالأَساسِ، ثم بعده بالسَّقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأمَّا قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]، ففي هذه الآية أن دَحْيَ الأرض كان بعد خلق السماء، فالدَّحْيُ هو مُفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السَّماء، فأمَّا خلق الأرض فقبل خلق السَّماء بالنَّصِّ، وبهذا أجاب ابن عبَّاس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من «صحيحه»، فإنه قال:

وقال المِنْهَال، عن سعيد بن جُبير قال: قال رجلٌ لابن عبَّاس: إني أجد في القرآن أشياء[1] تختلف عليَّ[2]، قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

(١) لوحة (١٠٩/ ب).

(٢) يجب أن يُعلم أنه يستحيل أن يكون هناك تعارض بين آية و آية، أو بين آية وحديث صحيح، أو بين حديث وآخر - كلاهما صحيح وغير منسوخ-، وقد بيَّن العلماء ذلك منذ قرون، وكلامهم متناثر في الكتب في تجلية مثل هذه المسائل، من ذلك ما كتبه الإمام أحمد بن حنبل في كتابه «الرد علىٰ الزنادقة»، وكذا العلامة/ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، وكتابه أجمع وفي الحديث: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة، و«بيان مشكل الآثار» للطحاوي وغيرها، وللمعاصرين مؤلفات في ذلك. فمن وجد تعارضًا في الظاهر بين آيتين، أو بين آية وحديث، أو بين حديث وآخر فعليه أن يرجع لمثل هذه الكتب، وأن يسأل أهل العلم حتىٰ يُجلوا له هذه الشبهة، ولإمام الأئمة ابن خزيمة كلام نفيس في ذلك، يرجع إليه في كتب مصطلح الحديث. ولْيَعْلَمْ من وجد ذلك أن هذا الذي يراه تعارضًا إنما هو بالنسبة إليه لقصر في فهمه أو قلة علمه هو، أما النصوص الصحيحة غير المنسوخة فلا تعارض بينها البتة. والله الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل.

بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كتموا في هذه الآية؟ وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]، فذكر خلق السَّماء قبل خلقِ الأرض، ثم قال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾، فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، فكأنَّه كان ثم مضىٰ.

قال -يعني: ابن عبَّاس-: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ في النَّفخة الأولىٰ، ثم يُنْفَخُ في الصُّور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنساب [بينهم](١) عند ذلك ولا يتساءَلُون، [ثم](٢) في النَّفخة الأخرىٰ: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾، فإنَّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لَمْ نكُنْ مشركين»، فيختم علىٰ أفواههم، فتَنْطِقُ أيديهم. فعند ذلك يعرف أن الله لا يكتم حديثًا، وعنده ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السَّماء، ثم استوىٰ إلىٰ السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين آخرين، ثم دَحَىٰ الأرض، ودَحْيُها: أَنْ أخرجَ منها الماء والمرعىٰ، وخلق الجبالَ والجماد والآكامَ وما بينهما في يَوْمَيْنِ آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، فَخُلِقتِ الأرض وما فيها من شيءٍ في أربعةِ أيَّامٍ، وخُلِقَتِ(٣) السموات في يَوْمَيْنِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٩٦]، سمىٰ نفسه بذلك، وذلك قولُهُ؛ أي: لم يزل كذلك؛ فإنَّ الله لم يرد شيئًا إلا أصاب به الَّذي أراد، فلا يختلفنَّ عليك القرآن، فإنَّ كلًّا من عند الله ﷻ.

قال البخاري: حدَّثنيه يوسف بن عَدِي، حدَّثنا عُبَيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أُنَيْسَة، عن المِنْهَال -هو: ابن عمرو- بالحديث(٤).

فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركةً قابلةً للخير والبَذْر والغِرَاس، ﴿وَقَدَّرَ(٥) فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ -وهو: ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن الَّتي تزرع وتغرس- يعني:

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) في (ز): «وخلق». والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٤) رواه البخاري تعليقًا (٨/ ٥٥٥)، وابن مَنْده في «التوحيد» (١-١٩)، والطبري (٤/ ٩٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٦٠، ١٦١).

(٥) لوحة (١١٠/ أ).

يوم الثلاثاء والأربعاء، فهُمَا مع اليومين السَّابقين أربعةٌ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾، جعل في كلِّ أرضٍ ما[1] لا يَصْلُحُ في غيرها، ومنه: العصب[2] باليمن، والسابوري بسابور، والطيالسة بالرّي.

وقال ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي في قوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، أي: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: علىٰ وَفْقِ مرادِ مَن له حاجةٌ إلىٰ رزقٍ أو حاجةٍ، فإنَّ الله قدَّر له مَا هو محتاجٌ إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ وهو: بخارُ الماء المتصاعد منه [حين][3] خلقت الأرض[4]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ أي: استجِيبَا لأمري، وانفعلَا لفعلِي طائعتين أو مكرهتين.

قال الثَّورِي، عن ابن جُريج، عن سليمان بن موسىٰ، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾، قال: قال الله تعالىٰ للسَّموات: أَطْلِعِي شمسِي وقمرِي ونجومِي. وقال للأرض: شَقِّقِي أنهارك، وأخرجي ثمارَكِ، فقالتا: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[5]، واختاره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[6] أي: بل نستجيب لك مُطِيعين بما فِينَا، مما تُريد خلقه مِن الملائكة والإنس والجنِّ جميعًا مُطِيعِين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربيَّة، قال: وقيل: تنزيلًا لهنَّ معاملة مَن يعقل لكلامهما.

وقيل: إنَّ المتكلم مِن الأرض بذلك هو مكان الكعبةِ، ومن السَّماء ما يُسَامته منها، والله أعلم.

---

(١) في (ز): «مما لا يصلح». (٢) سقط من (ز).

(٣) العَصْب: برود يمنية يعصب غزلها، أي: يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج، فيأتي موشيًا لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ. وأما السَّابري: فهو منسوب إلىٰ سابور، بلدة قريبة من أصفهان، وكل ثوب رقيق عندهم: سابري. وأما الطيالسة: فجمع طيلسان وطيلس -فارسي مُعَرَّب-، فُسر بأنه: ثوب يلبس علىٰ الكتف، وقيل: ثوب يحيط بالبدن ينسج للبس، خال عن التفصيل والخياطة، وقيل: كساء مدور أخضر لا أسفل له، لحمته أو سداه من صوف، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم، والرَّي: مدينة بفارس.

(٤) في (ز): «السماء». (٥) الطبري (٢١/ ٤٤٠-طبعة الرسالة).

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قال: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾: إن قلنا: أنه أمر تكوين فإنه لا يستقيم أن يكون طوعًا أو كرهًا؛ لأن أمر التكوين كائن لا محالة، فالظاهر والله أعلم أنه أمر تكليف، ولله تعالىٰ أن يكلف ما شاء من عباده أو من خلقه، له أن يكلف ما يشاء.

وقال الحسن البصري: لو أَبَيَا عليه أمرَهُ لعذَّبهما عذابًا يجدان أَلَمَه. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تَسْوِيتِهِنَّ سبع سموات في يومين؛ أي: آخرين[١]، وهما: يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ورتَّبَ مقررًا في كلِّ سماءٍ ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ -وهنَّ الكواكبُ المنيرةُ المشرِقَةُ علىٰ أهل الأرض- ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حرسًا من الشَّياطين أن تَسْتَمِعَ إلىٰ الملإِ الأعلىٰ.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، أي: العزيز الذي قد عزَّ كلَّ شيءٍ فغلَبَهُ وقهَرَهُ، العليم بجميع حركاتِ المخلوقات وسكناتِهم.

قال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّادُ بن السَّرِيِّ، حدَّثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن أبي سعد[٢] البقَّال، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس -قال هنَّاد: قرأت سائر الحديث- أنَّ اليهود أتتِ النَّبيَّ ﷺ فسألته عن خلقِ السموات والأرض، فقال: «خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ الأَحَدِ وَيَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الجِبَالَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ الشَّجَرَ وَالمَاءَ وَالمَدَائِنَ وَالعُمْرَانَ وَالخَرَابَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ لِمَنْ سَأَلَ»، قال: «وَخَلَقَ يَوْمَ الخَمِيسِ: السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الجُمُعَةِ: النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالمَلَائِكَةَ إِلَىٰ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِيَتْ مِنْهُ، [فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الآجَالَ، حِينَ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ،][٣] وَفِي الثَّانِيَةِ: أَلْقَىٰ الآفَةَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَفِي الثَّالِثَةِ: آدَمَ، وَأَسْكَنَهُ الجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمَّد؟ قال: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ». قالوا: قد أصبتَ لو أتممت! قالوا: ثم استراح، فغضب النَّبيُّ ﷺ غضبًا شديدًا، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨][٤]. هذا الحديث فيه غرابةٌ.

فأما حديث ابن جُرَيج، عن إسماعيل بن أُمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ[٥] الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ آخِرَ الخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ

---

(١) لوحة (١١٠/ ب).

(٢) في (ز): (سعيد)، والمثبت هو الصواب.

(٣) سقط من (ز)، وهو موافق لما في «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير الطبري (٢٤/ ٩٥)، والحاكم (٢/ ٥٤٣)، وفيه أبو سعد البقَّال: ضعيف.

(٥) لوحة (١١١/ أ).

الجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَىٰ اللَّيْلِ»[(١)]. فقد رواه مسلم، والنَّسائي في كتابيهما، من حديث ابن جريج به، وهو من غرائب الصحيح، وقد عَلَّله البخاري في «التَّاريخ»؛ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة ﷺ، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ[(٢)] وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ[(٣)] لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: قُل يا محمَّد لهؤلاءِ المشركين المكذِّبين بما جِئتَهُم به مِن الحقِّ: إن أعرضتم عما جِئتُكم به مِن عند الله فإني أُنذِرُكُم حلولَ نقمةِ الله بكم، كما حلَّت بالأُمَمِ الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١]، أي: في القُرىٰ المجاورة لبِلَادِهِم، بعث الله إليهم الرُّسل يأمرونَ بعبادةِ الله وحدَهُ لا شَريكَ له، ومبشِّرين ومُنذِرين، ورأوا ما أحلَّ الله بأعدائِهِ مِن النِّقَم، وما ألبس أولياءه مِن النِّعَم، ومع هذا ما آمَنُوا ولا صدَّقُوا، بل كذَّبوا وجَحَدُوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أرسل[(٤)] الله رسلًا لكانُوا ملائكةً من عندِهِ، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: لا نَتَّبِعُكُم وأنتم بشرٌ مثلنا.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بَغَوْا وعتَوْا وعَصَوْا[(٥)]، ﴿وَقَالُوا

(١) رواه مسلم (٢٧٨٩)، وأحمد (٢/ ٣٢٧)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (١١٠١٠).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: هذه ليست صفة مقيدة ولكنها صفة كاشفة؛ لأن كل استكبار في الأرض بغير الحق، فالاستكبار لا ينقسم إلىٰ قسمين، بل هو قسم واحد، فكل استكبار فإنه بغير حق، ويسمىٰ مثل هذا القيد صفة كاشفة، أي تكشف ما سبق وتبين حقيقته، إذن فما حقيقة الاستكبار؟ أنه بغير حق.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: مسألة: حول إضافة قوله تعالىٰ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ إلىٰ الأيام.

الجواب: لا بأس به، كما قال لوط: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧]، المراد به مجرد الخبر، وأما إذا كان المراد به العيب والسب، فإنه لا يجوز.

(٤) في (ز): «لو شاء أرسل».

(٥) لوحة (١١١/ ب).

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: مَنُّوا بشدَّة تركيبهم وقوَاهُم، واعتقدوا أنَّهم يمتنعون به مِن بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكَّرُون فيمن يُبَارِزُون بالعداوة؟ فإنَّه العظيم الَّذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإنَّ بطشَهُ شديدٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبَّار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسولَهُ، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، قال بعضهم: وهي الشَّدِيدَةُ الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي الَّتي لها صوتٌ، والحقُّ أنَّها متَّصِفَةٌ بجميع ذلك، فإنَّها كانت ريحًا شديدةً قويَّةً؛ لتكُونَ عقوبتهم مِن جنس ما اغترُّوا به مِن قواهم، وكانت باردةً شديدةَ [البرد جدًّا، كقوله تعالىٰ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]؛ أي: باردة شديدة][(١)]، وكانت ذات صوتٍ مزعجٍ، ومنه سُمِّيَ النَّهر المشهور ببلاد المشرق صرصرًا؛ لقوَّة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ أي: متتابعاتٍ، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]؛ أي: ابتُدِئُوا بهذا العذاب في يومِ نحسٍ عليهم، واستمرَّ بهم هذا النَّحس سبع ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ حتَّىٰ أبادَهُم عن آخرِهِم، واتَّصل بهم خِزْيُ الدُّنيا بعذابِ الآخرَةِ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أي: أشد خزيًا لهم[(٢)]، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: في الأخرىٰ، كما لم ينصروا في الدُّنيا، وما كان لهم مِنَ الله مِن واقٍ يَقِيهِم العذاب ويَدْرَأُ عنهم النَّكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، قال ابن عبَّاس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبير، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد: بَيَّنَّا لهم. وقال الثَّوري: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: بَصَّرْنَاهم، وبينَّا لهم، ووَضَّحْنَا لهم الحقَّ علىٰ لسانِ نبيِّهم صالح ﷺ، فخالَفُوهُ وكذَّبوه، وعقروا ناقةَ الله الَّتي جعلها آيةً وعلامةً علىٰ صدقِ نَبِيِّهِم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾، أي: بعث الله عليهم صَيْحةً ورجفةً وذُلًّا وهوانًا وعذابًا ونكالًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من التَّكْذيبِ والجُحُودِ.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يَمَسَّهُمْ سوءٌ، ولا نالهم من ذلك ضررٌ، بل نَجَّاهُم اللهُ مع نَبِيِّهِم[(٣)] صالح عليه السلام بإيمَانِهِم وتقواهم لله عز وجل.

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): «بهم».
(٣) لوحة (١١٢/ أ).

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾، أي: اذكُر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلىٰ النَّار ﴿يُوزَعُونَ﴾؛ أي: تَجْمع الزَّبانيَّة أولهم علىٰ آخِرِهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]؛ أي: عِطاشًا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأَعْمَالِهِم ممَّا قدَّموه وأخَّروه، لا يُكْتَمُ منه حرفٌ.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: لَامُوا أعضاءهم وجلودهم حين شَهِدُوا عليهم، فعِنْدَ ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يُخَالَفُ ولا يُمَانَعُ، وإليه تُرْجَعُون.

قال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدَّثنا [محمَّد بن][1] عبد الرحيم، حدَّثنا علي بن قادم، حدَّثنا شَريك، عن عُبيدٍ المُكْتِبِ، عن الشَّعْبي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضَحِكَ رسول الله ﷺ ذات يوم وتَبَسَّم، فقال: «أَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتُ؟» قالوا: يا رسول الله، من أيِّ شيء ضَحِكْتَ؟ قال: «عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: أَيْ رَبِّي، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تَظْلِمَنِي؟ قَالَ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أَقْبَلُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَوَ لَيْسَ كَفَىٰ بِي شَهِيدًا، وَبِالمَلَائِكَةِ الكِرَامِ الكَاتِبِينَ؟! قَالَ: فَيُرَدِّدُ هَذَا الكَلَامَ مِرَارًا». قال: «فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، عَنْكُنَّ كُنْتُ[2] أُجَادِلُ»[3].

ثم رواه هو وابن أبي حاتم، من حديث أبي عامر الأَسَدِي، عن الثَّوري، عن عُبيد المُكْتِبِ، عن فُضيل بن عمرو، عن الشَّعْبي ثم قال: «لا نعلمُ رواه عن أنس غير الشَّعبي».

---

(١) سقط من (ز)، والصواب ما أثبتناه.
(٢) لوحة (١١٢/ ب).
(٣) رواه البزَّار (٧٤٧٦)، والحاكم (٤/ ٦٠١) وصححه علىٰ شرط مسلم، وابن أبي حاتم (١٨٤٥٤)، وأبو يعلىٰ (٣٩٧٥)، وعبد الغني المقدسي في «ذكر النار» (٢٥)، وصحح الدارقطني الإسناد الآتي من طريق الثوري. «العلل» (٢٤٩٣)، وهو الإسناد الآتي.

وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعًا عن أبي بكر بن أبي النَّضر، [عن أبي النَّضر][(١)]، عن عُبيد الله ابن عبد الرحمن الأَشْجَعي، عن الثوري به[(٢)].

ثم قال النَّسائيُّ: «لا أعلم أحدًا رواه عن الثَّورِي غيرُ الأَشْجَعِي». وليس كما قال كما رأيت[(٣)]، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، غن يونس بن عُبَيْدٍ، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بُرْدَة: قال أبو موسىٰ: ويُدعىٰ الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه رَبُّهُ ﷻ عمله، فيجحد ويقولُ: أَيْ ربِّ، وعزَّتِكَ لقد كتب عَلَيَّ هذا الملك ما لَمْ أعمل! فيقول له الملك: أما عَمِلْتَ كَذَا، في يوم كذا، في مكانِ كذا؟ فيقول: لا وَعِزَّتِك، أيْ ربِّ ما عملته، [قال][(٤)]: فإذا فعل[(٥)] ذلك خُتِمَ علىٰ فِيهِ -قال الأشعريُّ: فإنِّي لَأَحسب أوَّلَ ما ينطق منه فَخِذُهُ اليُمْنَىٰ[(٦)].

وقال الحافظ أبو يَعْلىٰ: حدَّثنا زُهَيْرٌ حدَّثنا حسن، عن ابن لَهِيعةَ: قال دَرَّاجٌ، عن أبي الهيثم، عن أبىٰ سعيدٍ الخُدري، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَجَحَدَ وَخَاصَمَ، فَيُقَالُ: هَؤُلَاءِ جِيرَانُكَ، يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيَقُولُ: أَهْلُكَ، عَشِيرَتُكَ؟**[(٧)] **فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيَقُولُ: احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ، ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللهُ وَتَشْهَدُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ**»[(٨)].

وقال ابن أبي حاتم: وحدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، سمعت أبي: حدَّثنا علي بن زيد، عن مسلم بن صُبيْح -أبي الضُّحىٰ-، عن ابن عبَّاس: أنه قال لابن الأزرق: إنَّ يوم القيامة يأتي علىٰ النَّاس منه حين لا ينطقون، ولا يَعْتَذِرُون، ولا يتكلَّمون حتىٰ يُؤْذَنَ لهم، ثم يُؤْذَنُ لهم فَيَخْتَصِمُون، فيجحدُ الجَاحِدُ بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيَبْعَثُ الله عليهم -حين يَجْحَدُون- شهداء مِن أنفسهم؛ جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويَخْتِمُ

---

(١) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٢) مسلم (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٥٣).

(٣) فقد رواه عن الثوري: الأشجعي -عبيد الله بن عبد الرحمن-، ورواه عنه أبو عامر الأسدي، وهو: عبد الملك بن عمرو الأسدي العَقَدِي.

قلت: ورواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٨)، من طريق مهران بن أبي عمر.

(٤) ليست في (ز).

(٥) في (ز): «فإذا تعمل ذلك».

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٥٥)، والطبري (٢٣/ ٢٤)، وإسناده صحيح، ومثله لا يُقال بالرأي، ويشهد له الحديث السابق.

(٧) في بعض النسخ: «أهلك وعشيرتك»، وما أثبتناه موافق لما في «مسند أبي يعلىٰ».

(٨) ضعيف بهذا الإسناد: رواه أبو يعلىٰ (١٣٢٢)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، ودَرَّاج روايته عن أبي الهيثم ضعيفة، لكن يشهد له رواية مسلم السابقة.

علىٰ أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجَوارحَ، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ[1] أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فتُقرُّ الألسنة بعد الجحود[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عَبْدَةُ بن سليمان، حدَّثنا ابن المبارك، حدَّثنا صَفْوان بن عمرو، عن عبدالرحمن بن جُبير الحَضْرَمي، عن رافع أبي الحسن -وصف رجلًا جحد- قال: فيُشِيرُ الله إلىٰ لسانه، فيَرْبُو في فِيهِ حتىٰ يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمةٍ، ثم يقول لآرابِهِ[3] كلِّها: تكلَّمِي واشهدي عليه. فيشهد عليه سمعُهُ وبصرُهُ وجلدُهُ وفرجُهُ ويداه ورجلاهُ: صَنَعْنَا، عَمِلْنَا، فَعَلْنَا[4].

وقد تقدَّم أحاديثُ كثيرةٌ وآثار[5]، عند قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا.

وقال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سُوَيد بن سعيد، حدَّثنا يحيىٰ بن سُلَيم الطَّائفي، عن ابن خُثَيْم، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رَجَعَتْ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ مهاجِرَةُ البحر قال: «**أَلَا تُحَدِّثُونَ بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُم بِأَرْضِ الحَبَشَةِ؟**»، فقال فتيةٌ منهم: بلىٰ يا رسول الله، بينَا نحن جلوسٌ إِذْ مرَّت علينا عجوزٌ من عجائز رهابينهم، تحملُ علىٰ رَأْسِها قُلَّةً مِن ماءٍ، فمرَّت بفتًىٰ منهم، فجعل إحدَىٰ يَدَيْهِ بين كَتِفَيْهَا، ثم دفعها فخرَّت علىٰ ركبتيها، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُها، فلما ارتفعَتْ التَفَتَتْ إليه، فقالت: سوف تعلم يا غُدَرُ، إذا وضع اللهُ الكُرْسيَّ، وجمع الأولين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «**صَدَقَتْ صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ[6] اللهُ قَوْمًا لا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟!**»[7].

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. ورواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب «الأهوال»: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيىٰ بن سليم به.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ أي: تقول لهم الأعضاءُ والجلود حين يَلُومُونَها علىٰ الشَّهادة عليهم: ما كنتم تتكتَّمُونَ مِنَ الَّذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهِرُونَ

---

(١) لوحة (١١٣/ أ).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٥٧)، وفيه علي بن زيد بن جُدْعان: ضعيف.

(٣) أي: أعضائه.

(٤) رواه الدُّولَابِي في «الكنىٰ والأسماء» (٨٢٨).

(٥) في (ز): «وآيات».

(٦) أي: يطهرهم من الدنس والآثام.

(٧) حسن صحيح: رواه ابن ماجة (٤٠١٠)، وابن أبي عاصم (٥٨٢)، وصحَّحه الشيخ الألباني لشواهدَ لهُ.

الله بالكُفرِ والمعاصي، ولا تبالُونَ منه في زَعْمِكُم؛ لأنَّكم كنتم[١] لا تعتقدونَ أنَّه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾، أي: هذا الظَّن الفاسد -وهو: اعتقادكم أنَّ الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون- هو [الذي][٢] أتلفكم وأرداكم عند رَبِّكُم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القِيَامَةِ خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأَعْمَش، عن عمارة، عن عبدالرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثةُ نفرٍ: قرشي، وَخَتَناه[٣] ثَقَفِيَّان -أو ثقفي وخَتَناه قرشيان- كثيرٌ شحمُ بطونِهِم، قليلٌ فقهُ قلوبِهِم، فتكلَّموا بكلامٍ لَمْ أسمعه، فقال أحدُهُم: أَتَرَوْنَ أنَّ الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنَّا إذا رفعنا أصواتنا سَمِعَهُ، وإذا لم نَرْفَعْهُ لم يسمعه، فقال الآخر: إن سَمِعَ منه شيئًا سَمِعَه كله، قال: فذكرت ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، إلىٰ قوله: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤].

وكذا رواه التِّرمذي عن هنَّاد، عن أبي معاوية، بإسناده نحوه. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضًا، من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن عُمارة بن عُمير، عن وَهْب بن رَبيعة، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه. ورواه البخاري ومسلم أيضًا، من حديث السُّفْيانَيْنِ، عن منصور، عن مُجاهد، عن أبي مَعْمر عبد الله بن سَخْبرةَ، عن ابن مسعودٍ به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مُفَدَّمًا عَلَىٰ أَفْوَاهِكُمْ بِالفِدَامِ**[٥]، **فَأَوَّلُ شَيْءٍ يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ**»[٦].

قال مَعْمَر: وتلا الحسن: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»، ثم أَفْتَرَ[٧] الحسن ينظر في هذا فقال: ألا إنَّما عمل النَّاس علىٰ قدرِ ظنونِهِم بربِّهم، فأمَّا المُؤْمِن فَأَحْسَنَ الظَّنَّ بربِّه فَأَحْسَنَ العملَ، وأمَّا الكافر والمنافق فأساءَا[٨] الظَّن بالله فأساءَا العمل، ثمَّ قال: قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

---

(١) لوحة (١١٣/ ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) الأختان: أقارب زوجة الرجل.

(٤) البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥)، والتِّرمذي (٣٢٤٩)، وأحمد (١/ ٣٨١).

(٥) الفِدَام: ما يوضع علىٰ الفم سِدادًا له، وما يشد علىٰ فم الإبريق ونحوه.

(٦) حسن: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٨٥)، وفي «المصنف» (١/ ١٣٠/ ٢٠١١٥)، ورواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٦٩).

(٧) أي: تبسم حتىٰ بدت أسنانه من غير قهقهة.

(٨) لوحة (١١٤/ أ).

سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا النَّضر بن إسماعيل القاص -وهو أبو المغيرة- حدَّثنا ابن أبي لَيْلىٰ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ، فَإِنَّ قَوْمًا [قَدْ](٢) أَرْدَاهُم سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾»(٣).

وقوله: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ أي: سواءٌ عليهم أَصَبَرُوا أم لَمْ يَصْبِرُوا هُم في النَّار، لا مَحِيدَ لهم عنها، ولا خُروجَ لهم منها، وإنْ طَلَبُوا أن يَسْتَعْتِبُوا ويُبْدُوا أعذارًا فما لهم أعذار، ولا تُقَالُ لهم عَثَراتٌ.

قال ابن جرير: ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ أي: يَسْألوا الرَّجْعَةَ إلىٰ الدُّنيا، فلا جواب لهم، قال: وهذه كقوله تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ -١٠٨].

﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٢٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٢٩﴾

يذكر تعالىٰ أنَّه هو [الَّذي](٤) أضلَّ المشركين، وأنَّ ذلك بمشيئَتِهِ وكونِهِ وقدرتِهِ، وهو الحكيم في أفعالِهِ، بما قَيَّضَ لهم من القُرَناءِ من شياطِينِ الإنسِ والجنِّ. ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، أي: حَسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنِّسبة إلىٰ المُسْتَقْبَل فلم يَرَوْا أنفسهم إلا مُحْسِنِينَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ(٥) ۝٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

---

(١) مرسل بهذا الإسناد: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٨٥)، والمرفوع منه أصلُهُ في «الصَّحِيحَيْنِ» من حديثِ أبي هريرة، رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) سقط من (ز).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٩٠)، وفيه النَّضر بن إسماعيل، وليس بالقويِّ، لكن قوله: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ» رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجة (٤١٦٧).

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (١١٤/ ب).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب، كما حقَّ[١] علىٰ أُمَمٍ قد خلت من قبلهم، ممَّن فعل كفِعْلِهِم من الجنِّ والإنسِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي: استوَوْا هم وإيَّاهم في الخسار والدَّمار.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾، أي: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقُرْآنِ، ولا يَنْقَادُوا لأوَامِرِهِ، ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: إذا تُلِيَ لا تستمعوا له، كما قال مجاهد: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ يعني: بالمُكاءِ والصَّفِيرِ والتَّخْلِيطِ في المنطقِ علىٰ رسول الله ﷺ إذا قَرَأَ القرآن، قريش تفعله.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾: عِيبُوهُ.

وقال قتادة: اجْحَدُوا بِهِ، وأَنْكِرُوهُ، وَعَادُوهُ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، هذا حال هؤلاء الجهلة مِن الكفَّار، ومَن سَلَكَ مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله -سبحانه- عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالىٰ منتصرًا للقرآن، ومنتقمًا ممن عاداه مِن أَهْلِ الكُفْرَانِ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: فِي مقابَلَةِ ما اعتمدوه في القُرْآنِ وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بشَرِّ أعمالهم وسيِّئِ أفعالِهِم، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

قال سُفيان الثَّوري، عن سَلَمة بن كُهَيْل، عن مالك بن الحُصَين الفَزاري، عن أبيه، عن عليٍّ عليه السلام في قوله: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾، قال: إبليسُ وابنُ آدمَ الَّذِي قتل أَخاهُ[٢].

وهكذا روىٰ حَبة العُرَنِي عن عليٍّ مثل ذلك.

وقال السُّدِّي، عن عليٍّ: فإبليس يدعو به كل صاحب شِركٍ، وابنُ آدمَ يدعُو به كلُّ صاحبِ كبيرةٍ، فإبليس -لعنه الله- هو الدَّاعِي إلىٰ كل شرٍّ مِن شركٍ فما دونه، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث: «**مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ[٣] دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ**»[٤].

وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منَّا في العذاب؛ ليكونَا أشدَّ عذابًا منَّا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدَّرك الأسفل من النَّار، كما تقدَّم في «الأعراف» من سؤال الأتباعِ مِن الله أن

---

(١) في (ز): «حقق».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٦٠)، والطبري (٢٤/ ١١٣) من طرق عن علي بن أبي طالب، ورواه الحاكم (٢/ ٤٤٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) لوحة (١١٥/ أ).

(٤) صحيح: البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧)، والنسائي (٣٩٩٦)، وابن ماجة (٢٦١٦)، وأحمد (١/ ٣٨٣).

يُعذِّب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: إنَّه تعالىٰ قد أعطىٰ كلًّا منهم ما يستَحِقُّه مِن العذاب والنَّكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: أَخْلَصُوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالىٰ علىٰ ما شَرَعَ الله لهم.

قال الحافظ أبو يَعْلىٰ المَوْصِلي: حدَّثنا الجَرَّاح، حدَّثنا سَلْمُ بن قُتيبة -أبو قُتيبة الشَّعِيري-، حدَّثنا سُهَيْل بن أبي حَزْم، حدَّثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناسٌ ثم كَفَرَ أكثرُهم، فمَن قالها حتىٰ يموت فقد استقام عليها[(١)].

وكذا رواه النَّسائي في «تفسيره»، والبَزَّار، وابن جرير، عن عمرو بن عليٍّ الفلَّاس، عن سَلْم بن قُتيبة به[(٢)]. وكذا رواهُ ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفلَّاس به، ثم قال ابن جرير:

حدَّثنا ابن بشَّار، حدَّثنا عبدالرحمن، حدَّثنا سُفيان، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد[(٣)]، عن سعيد بن نمران قال: قرأت عند أبي بكرٍ الصِّدِّيق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قال: هم الَّذِين لم يُشْرِكُوا بالله شيئًا[(٤)].

ثم رَوىٰ من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر ﵁: ما تقولون[(٥)] في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ من ذنب. فقال: لقد حملتموها علىٰ غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلىٰ إلهٍ غيره[(٦)]، وكذا قال

(١) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٣٤٩٥)، والترمذي (٣٢٥٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٧٠)، وفيه سهيل بن أبي حزم: ضعيف، ورواه أبو الفضل المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٣٧٧١)، وقال: سهيل ضعيف، ولم يتابع عليه.

(٢) رواه النسائي (١١٧٤٠)، والطبري (٢٤/ ١١٤).

(٣) في (ز): «عامر بن سعيد»، وهو خطأ.

(٤) رواه الطبري (٢٤/ ١١٤)، وفي إسناده سعيد بن نمران: مجهول. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٦١)، ويشهد له الرواية الآتية.

(٥) في (ز): تقول.

(٦) لوحة (١١٥/ ب). رواه الطبري (١٤/ ١١٤-١١٥)، والحاكم (٢/ ٤٤٠). وصحَّحه، ووافقه الذَّهبي، وفيه أبو بكر بن أبي موسىٰ: مقبول، وفيه حفص بن عمر العَدَني: ضعيف.

مُجَاهِد، وعِكْرِمة، والسُّدِّي، وغير واحِدٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبد الله الظَّهْرَاني، أخبرنا حَفْصُ بن عُمر العَدَني، عن الحَكَم بن أَبَان، عن عكرمة قال: سُئِل ابنُ عبَّاسٍ ب: أيُّ آيةٍ في كتاب الله أرخصُ؟ قال قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ على شهادة أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[(١)].

وقال الزُّهْرِيُّ: تلا عُمَرُ هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا -والله- لله بطَاعَتِهِ، ولم يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعالب[(٢)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾: على أداء فرائضه[(٣)].
وكذا قال قتادة، قال: وكان الحَسَن يقول: اللَّهمَّ أنتَ ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾: أخلَصُوا له العمل والدِّين.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْمٌ، حدَّثنا يَعْلَىٰ بن عطاء، عن عبد الله بن سُفيان الثَّقَفي، عن أبيه؛ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، مُرْني بأمرٍ في الإسلام لا أَسْأَل عنه أحدًا بعدك، قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». قلت: فما أَتَّقِي؟ فأومأ إلى لسانِهِ، ورواه النَّسائي من حديث شُعبة، عن يَعْلَىٰ بن عطاء به[(٤)].

ثم قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيمُ بن سعد، حدَّثني ابن شهاب، عن محمَّد بن عبدالرحمن بن ماعز الغامدي، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، حدِّثني بأمرٍ أعتصم به، قال: «قُلْ رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف عليَّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هَٰذَا»[(٥)].

وهكذا رواه التِّرمذي وابن ماجة، من حديث الزهري به. وقال التِّرمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وقد أخرجه مسلم في «صحيحه» والنسائي، من حديث هشام بن عُروة، عن أبيه، عن سفيان ابن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» وذكر تمام الحديث[(٦)].

---

(١) لم أقف على تخريجه، والسَّند الذي ذكره ابن كثير فيه حفص بن عمر العدني: ضعيف.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٥)، والبغوي في «تفسيره» (١١٦٦)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٣١)، من طريق الزُّهري أنَّ عمر قال، فالإسناد منقطع.

(٣) رواه الطبري (٢٤/ ١١٥).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٨٩)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٢٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٠)، وابن أبي شيبة (٩/ ٦٦) مختصرًا، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٠٠)، والدارمي (٢/ ٢٩٨)، والطبراني في «الكبير» (٦٣٩٨).

(٥) رواه أحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجة (٣٩١٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٦) مسلم (٣٢).

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مُجاهد، والسُّدِّي، وزيد[١] بن أَسْلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾. قال مُجَاهد، وعِكْرِمة، وزيد بن أَسْلَم: أي مما تُقْدِمُون عليه مِن أَمْرِ الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾، أي: علىٰ ما خَلفتموه مِن أَمْرِ الدُّنيا، مِن وَلَدٍ وأَهْلٍ، ومَالٍ أو دَيْنٍ، فإنَّا نَخْلُفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فيُبَشِّرُونَهم بذَهَابِ الشَّرِّ، [وحُصُول الخَيْر][٢].

وهذا كما في حديث البَرَاء ﷺ: «إِنَّ المَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ المُؤْمِنِ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، اخْرُجِي إِلَىٰ رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»[٣].

وقيل: إنَّ الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم[٤]. حكاه ابن جرير عن ابن عبَّاس، والسُّدِّي.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدَّثنا عبدُ السلام بن مُطَهِّر، حدَّثنا جَعْفَر بن سُليمان: سمعت ثابتًا [قرأ سورة: «حم][٥] السجدة»، حتىٰ بَلَغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فوقف فقال: بَلَغَنَا أَنَّ العبدَ المُؤمن حِين يبعثهُ اللهُ مِن قبرِه، يتلقَّاهُ مَلَكاهُ اللَّذَان كانا معه في الدُّنيا، فيقولان له: لا تخفْ ولا تحزنْ، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، قال: فيُؤَمِّنُ الله خوفَهُ، ويقرُّ عينه، فما عظيمةٌ يخشىٰ النَّاس يوم القيامة إلَّا هي للمُؤمنِ قُرَّةَ عَيْنٍ، لِمَا هَدَاهُ الله، ولما كان يعمل له في الدنيا.

وقال زيدُ بنُ أَسْلَم: يبَشِّرُونه عند مَوْتِهِ، وفي قَبْره وحين يُبعث. رواه ابن أبي حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلَّها، وهو حسنٌ جدًّا، وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: [تقول الملائكة للمؤمنين][٦] عند الاحتضار: نحنُ كُنا أولياءكم؛ أي: قُرناءكم في الحَيَاة الدنيا، نسدِّدُكم ونوفِّقُكُم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكونُ معكم في الآخرة نُؤنِسُ مِنْكم الوَحْشَةَ في القُبور، وعند النَّفخةِ في الصُّور، ونُؤَمِّنُكُم يومَ البَعْث والنُّشور، ونجاوز بكُمُ الصِّراط المستَقِيمَ، ونوَصِّلُكُم إلىٰ جنات النعيم.

---

(١) لوحة (١١٦/ أ).
(٢) سقط من (ز).
(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٦٤)، وأبو داود (٤٧٥٤)، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٨).
(٤) نصُّه عند الطبري: «تنزل عليهم في الآخرة». «تفسير الطبري»: (٢٤/ ١١٦).
(٥) بياض في (ز).
(٦) في (ز): «يقول للمؤمن الملائكة».

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنَّة من جميع ما تختارُونَ مما تشتهيه النُّفوس(١)، وَتَقرُّ به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، [أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم؛ أي: كما اخترتم.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافةً وعطاءً وإنعامًا من غفورٍ لذُنُوبكُم، رحيمٍ بكم رءوفٍ، حيث غَفَرَ وسَتَرَ ورَحِمَ ولَطَفَ.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث «سُوقِ الجنة» عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾](٢) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فقال:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا هِشَام بن عمَّار، حدَّثنا عبد الحَمِيد بن حبيب بن [أبو سعيد](٣) -أبي سعيد، حدَّثنا الأَوْزَاعي، حدَّثني حسَّان بن عَطِيَّة، عن سعيد بن المُسَيب: أنَّه لَقِيَ أبا هُريرة رضي الله عنه، فقال أبو هريرة: نسأَلُ الله أن يجمعَ بيني وبينك في سُوق الجنَّة، فقال سعيدٌ: أَوَ فِيهَا سوقٌ؟ قال: نَعَم، أخبرني رُسُول الله ﷺ: «أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوا [فِيهَا](٤)، نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الجُمُعَةِ فِي أَيَّامِ الدُّنْيَا، فَيَزُورُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ، وَيَتَبَدَّىٰ لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ(٥)- عَلَىٰ كُثْبَانِ المِسْكِ وَالكَافُورِ، مَا يَرَوْنَ بِأَنَّ أَصْحَابَ الكَرَاسِيِّ بِأَفْضَلَ مِنْهُمْ مَجْلِسًا».

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نَرَىٰ رَبَّنا يوم القيامة؟ قال: «نَعَمْ، [هَلْ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فَكَذَلِكَ لَا تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُم تَعَالَىٰ](٦)، وَلَا يَبْقَىٰ فِي ذَلِكَ المَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللهُ مُحَاضَرَةً(٧)، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ: يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ -يُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا- فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ

---

(١) لوحة (١١٦/ ب).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) في (ز): (أبي سعيد)، والمثبت هو الصواب، فـ (أبو سعيد) كنية عبد الحميد.

(٤) سقط من (ز).

(٥) أي: خسيس.

(٦) سقط من (ز).

(٧) سقط من (ز).

مِنْ فَوْقِهِمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ»، قال: «ثُمَّ يَقُولُ رَبُّنَا ﷻ: قُومُوا إِلَىٰ مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الكَرَامَةِ، وَخُذُوا مَا اشْتَهَيْتُمْ»، قال: «فَنَأْتِي سُوقًا قَدْ حَفَّتْ بِهِ المَلَائِكَةُ، فِيهَا مَا لَمْ تَنْظُرِ العُيُونُ إِلَىٰ مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعِ الآذَانُ، وَلَمْ يَخْطِرْ عَلَىٰ القُلُوبِ. قَالَ: فَيَحْمِلُ لَنَا مَا اشْتَهَيْنَا، لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ وَلا يُشْتَرَىٰ، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَىٰ أَهْلُ الجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا». قال: «فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، فَيَلْقَىٰ مَنْ هُوَ دُونَهُ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ- فَيَرُوعُهُ مَا [يَرَىٰ][1] عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ، فَمَا يَنْقَضِي [آخِرُ][2] حَدِيثِهِ حَتَّىٰ يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا.

ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَىٰ مَنَازِلِنَا، فَيَتَلَقَّانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقُلْنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِحِبِّنَا، لَقَدْ[3] جِئْتَ وَإِنَّ بِكَ مِنَ الجَمَالِ وَالطِّيبِ أَفْضَلَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا اليَوْمَ رَبَّنَا الجَبَّارَ[4] ﷻ وَبِحَقِّنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا بِهِ»[5].

وقد رواه الترمذي في «صفة الجنَّة»[6] من «جامعه»، عن محمَّد بن إسماعيل، عن هشام بن عمَّار، وروا ابن ماجة، عن هشام بن عمَّار به نحوه. ثم قال التِّرمذي: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن أبي عَدِي، عن حُمَيْد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ». قلنا: يا رسول الله، كُلنا نكره الموت؟ قال: «لَيْسَ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ [المَوْتِ][7]، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حُضِرَ[8] جَاءَهُ البَشِيرُ مِنَ اللهِ بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لَقِيَ اللهَ فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»، قال: «وَإِنَّ الفَاجِرَ -أَوِ الكَافِرَ- إِذَا حُضِرَ جَاءَهُ بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ -أَوْ: مَا يَلْقَىٰ مِنَ الشَّرِّ- فَكَرِهَ لِقَاءَ اللهِ فَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[9].

وهذا حديثٌ صحيحٌ، وقد ورد في «الصحيح» من غير هذا الوجه.

---

(١) أي: كلمه.
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (١١٧/ أ).
(٤) في (ز): «الجبار ربنا».
(٥) ضعيف: رواه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجة (٤٣٣٦)، وأحمد، وضعفه الشيخ الألباني، انظر: «الضعيفة» (١٧٢٢).
(٦) في (ز): «قصة الجنة».
(٧) سقط من (ز).
(٨) أي: حضره الموت.
(٩) رواه أحمد (٣/ ٢٣٧)، والبخاري (٦٥١٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ [(١)] ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ [(٢)] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: دعا عبادَ الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وهو في نفسِهِ مُهتدٍ بما يقوله، فنفعه لنفسِهِ ولغيرِهِ لازمٌ ومُتعدٍّ، وليس هو من الَّذين يأمرون بالمعروف ولا يأتُونه، وينهَوْنَ عن المنكرِ ويأتونه، بل يأتمرُ بالخيرِ ويترك الشَّرَّ، ويَدْعُو الخَلْقَ إلىٰ الخالِقِ تبارك وتعالىٰ، وهذه عامَّةٌ في كلِّ مَن دعا إلىٰ خيرٍ، وهو في نفسِهِ مهتدٍ، ورسول الله ﷺ أَوْلَىٰ النَّاسِ بذلك، كما قال محمَّد بن سِيرين، والسُّدِّي، وعبدالرحمن بن زَيد بن أَسْلَم.

وقيل: المراد بها المُؤذِّنُون الصُّلَحاء، كما ثبت في «صحيح مسلم»: «**المُؤذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٣)]. وفي «السُّنَنِ» مرفوعًا: «**الإِمَامُ[(٤)] ضَامِنٌ[(٥)]، وَالمُؤذِّنُ مُؤتَمَنٌ، فَأَرْشَدَ اللهُ**

---

(١) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: قال ابن حزم: والقول عندنا في هذه المسألة، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه. فإن كان يدري أنه مصدق بالله ﷻ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتىٰ به عليه السلام، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك، فواجب عليه أن يعترف بذلك كما أمر تعالىٰ، إذ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحىٰ] ولا نعمةَ أوكدُ، ولا أفضل، ولا أولىٰ بالشكر، من نعمة الإسلام، فواجب عليه أن يقول: أنا مسلم قطعًا عند الله تعالىٰ، وفي وقتي هذا، ولا فرق بين قوله: أنا مؤمن مسلم، وبين قوله: أنا أسود وأنا أبيض.

وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها، وليس هذا من باب الامتداح، والتعجب في شيء؛ لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد. قال تعالىٰ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة]، وقول ابن مسعود عندنا صحيح؛ لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة، إلىٰ جميع البر والطاعات، فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه مسلم مؤمن، علىٰ معنىٰ أنه مستوفٍ لجميع الطاعات، وهذا صحيح، ومن ادعىٰ لنفسه هذا فقد كذب بلا شك، وما مَنَعَ ﷺ من أن يقول المرء: إني مؤمن، بمعنىٰ مصدق، كيف؟ وهو يقول: قل آمنت بالله ورسله؛ أي : صدقت، وأما من قال: فقل إنك في الجنة، فالجواب: أننا نقول: إن مِتْنَا علىٰ ما نحن عليه الآن، فلا بد لنا من الجنة بلا شك، وبرهان ذلك: أنه قد صح من نصوص القرآن، والسنة، والإجماع، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به، ولم يأتِ بما هو كفر، فإنه في الجنة، إلا أننا لا ندري ما يُفْعَل بنا في الدنيا ، ولا نأمن من مكر الله تعالىٰ، ولا إضلاله، ولا كيد الشيطان، ولا ندري ماذا نكسب غدًا، ونعوذ بالله من الخِذْلان. انتهىٰ .

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: فائدة الاستعاذة بالنسبة إلىٰ الرسول ﷺ تجديد داعية العصمة المركوزة في نفس النبي ﷺ لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استعداد للنعمة وصَقْل للنفس مما يُغَان علىٰ القلب؛ كما قال الرسول ﷺ: «**إنه ليُغان علىٰ قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**».

(٣) رواه مسلم (٣٨٧). (٤) لوحة (١١٧/ ب).

(٥) أرادَ بالضَّمان هاهنا: الحِفظَ والرِّعاية لا ضَمَانَ الغَرامة؛ لأنه يَحْفَظُ علىٰ القوم صَلاتَهم. وقيل: إنَّ صلاة المُقْتَدِين به

الأَئِمَّةَ، وَغَفَرَ لِلْمُؤَذِّنِينَ»(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحُسَين، حدَّثنا محمَّد بن عَرُوبَة الهَرَوِي، حدَّثنا غَسَّان قاضي هَرَاة، وقال أبو زُرْعَة: حدَّثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن مَطَرٍ، عن الحَسَن، عن سَعْد بن أبي وَقَّاص أنه قال: «سِهَامُ المُؤَذِّنِينَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَسِهَامِ المُجَاهِدِينَ، وَهُوَ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ كَالمُتَشَحِّطِ(٢) فِي سَبِيلِ اللهِ فِي دَمِهِ»(٣).

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذنًا ما بَالَيْتُ أَلَّا أحجَّ، ولا أعتمرَ، ولا أُجاهِدَ»(٤).

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنًا لكَمُلَ أمري، وما باليت أَلَّا أنتصب لقيام اللَّيل ولَا لِصِيَامِ النَّهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ» ثلاثًا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا ونحن نَجتلدُ(٥) على الأذان بالسُّيُوفِ، قال: «كَلَّا يَا عُمَرُ، إِنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتْرُكُونَ [الأَذَانَ](٦) عَلَى ضُعَفَائِهِمْ، وَتِلْكَ لُحُومٌ حَرَّمَهَا اللهُ عَلَى النَّارِ، لُحُومُ المُؤَذِّنِينَ»(٧).

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قالت: فهو المُؤَذِّن إذا قال: «حَيَّ على الصَّلاة»، فقد دَعَا إلى الله(٨).

وهكذا قال ابن عُمر، وعِكرمة: إنها نزلت في المؤذنين.

وقد ذكر البَغَوِيُّ عن أبي أُمَامَة البَاهِلي ﵁ أنَّه قال في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، قال: يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة(٩).

ثم أوردَ البَغَوِيُّ حديث «عبد الله بن المُغَفَّل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ».

= في عُهْدته وصِحَّتها مقرونةٌ بِصِحَّة صلاته، فهو كالمُتكفِّل لهم صحَّة صلاتهم. «النهاية». و(المؤذِّنُ مُؤتَمن) مُؤتَمَن القوم: الذي يَثِقون إليه ويَتَّخِذُونه أمينًا حافظًا. يُقال: اؤْتُمِنَ الرجُل فهو مُؤتَمَنٌ، يعني: أن المؤذِّن أَمِينُ الناس على صَلاتهم وصِيَامهم. «النهاية».

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥١٨)، والترمذي (٢٠٧)، وللحديث شواهد استوفاها شيخنا في «إرواء الغليل» (٢١٧).

(٢) تَشَحَّط في دَمِه: أي تخبَّط فيه واضْطرب وتَمَرَّغ.

(٣) عزاه المصنِّف لابن أبي حاتم، ورواه ابن شاهين في «الترغيب في فضائل الأعمال» (٥٦٦)، وفي إسناده مطر بن طَهْمَان: صدوقٌ كثيرُ الخطأ، والحسن هو البصري كثير الإرسال.

(٤) رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٢٦)، وفيه رجلٌ مبهمٌ.

(٥) في (ز): «تجتهد».

(٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف: رواه ابن شاهين في «فضائل الأعمال» (٥٦٦)، وعزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١/ ٥٥٣) إلى أبي الشيخ والدَّيْلَمي، وكذلك عزاه العَجْلُوني في «كشف الخفاء» (٢١١)، وفي إسناده انقطاع بين الحسن البصري وعمر.

(٨) رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٢٦) نحوه، وفيه عبيد الله بن الوليد: ضعيف.

(٩) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٣٣).

ثم قال في الثالثة: «لِمَنْ شَاءَ»[١]. وقد أخرجهُ الجماعةُ في كُتبهم، مِن حديث عبد الله بن بُرَيدة عنه، وحديث الثَّوْري، عن زيد العَمِّي، عن أبي إياس -مُعَاوية بن قُرَّة-، عن أنسِ بن مَالك ﷺ. قال الثَّوريُّ: لا أُراهُ إلا وقد رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ: «الدُّعَاءُ لا يُرَدُّ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ»[٢].

ورواه أبو داود، والترمذي، والنَّسائيُّ في «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثوري به، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ.

ورواه النَّسائيُّ أيضًا من حديث سُليمان التَّيمي، عن قتادة، عن[٣] أنسٍ به.

والصَّحيحُ أنَّ الآية عَامَّةٌ في المُؤذِّنينَ وفي غيرهم، فأمَّا حال نزول هذه الآية فإنَّه لم يكن الأذَانُ مَشْروعًا بالكُلِّيَّة؛ لأنَّها مَكِّيَّةٌ، والأذان إنَّما شُرِع بالمدينة بعد الهجرة، حين أُرِيهُ عبدُ اللهِ بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه، فقَصَّهُ علىٰ رسُولِ الله ﷺ، فأمره أن يُلْقِيَه علىٰ بلالٍ فإنَّه أَنْدَىٰ صَوْتًا[٤]، كما هو مُقرَّرٌ في مَوْضِعه، فالصحيحُ إذًا أنَّها عَامَّةٌ، كما قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الحَسَن البَصْري: أنَّه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فقال: هذا حبيبُ اللهِ، هذا وليُّ اللهِ، هذا صَفْوةُ اللهِ، هذا خِيرَةُ الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلىٰ اللهِ، أجاب الله في دعوتِهِ، ودَعَا النَّاسَ إلىٰ ما أجابَ الله [فيه من دَعْوَتِهِ][٥]، وعَمِلَ صالحًا في إجابته، وقال: إنَّني من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي: فَرْقٌ عظيمٌ بين هذه وهذه، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: مَن أساءَ إليكَ فادفعه عَنْكَ بالإحسان إليه، كما قال عُمَرُ ﷺ: ما عاقبتَ مَن عَصَىٰ اللهَ فيكَ بمثل أن تُطِيعَ اللهَ فيه[٦].

---

(١) البخاري (٦٢٤)، ومسلم (٨٣٨)، وأحمد (٤/ ٨٦)، ورواه أصحاب السنن: أبو داود (١٢٨٣)، والترمذي (١٨٥)، والنسائي، وابن ماجة (١١٦٢).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢) و(٣٥٩٥)، وفيه زيد العمِّي: فيه مقال، لكنَّه تُوبع. انظر: «صحيح ابن حبَّان» (١٦٩٦)، وإسناده صحيح.

(٣) لوحة (١١٨/ أ).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٩)، والتِّرمذي (١٨٩)، وابن ماجة (٧٠٦)، وأحمد (٤/ ٤٢-٤٣) واللفظ له، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) في (ز): «في دعوته».

(٦) رواه ابن حبَّان في «روضة العقلاء» (ص٨٩)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٧/ ٢٢) إلىٰ الخطيب في «المتَّفق والمفترق»، ورواه السَّخاوي في «البلدانيات» (١/ ٣٥١)، وجمال الدين الحنفي في «مشيخة ابن البخاري» (١/ ٦٢١). وسعيد بن المسيب عن عمر فيه انقطاع؛ فقد وُلِدَ في سنتين مِن خلافة عُمَرَ إلا أنَّه كان شديد الحِرْصِ والسُّؤال عنه.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، وهو الصَّديق؛ أي: إذا أحسنتَ إلىٰ مَن أَسَاء إليكَ قادَتْهُ تِلْكَ الحَسَنَة إليه إلىٰ مُصَافَاتِك، ومحبَّتِك، والحُنُوِّ عليك، حتىٰ يَصِيرَ كأنَّه وليٌّ لك حميمٌ؛ أي: قريبٌ إليكَ من الشَّفقة عليكَ والإحسانِ إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، أي: وما يقبلُ هذه الوصيَّة ويعملُ بها إلا مَن صبر [علىٰ][1] ذلك؛ فإنَّه يشقُّ علىٰ النُّفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيبٍ وافرٍ من السَّعادة في الدُّنيا والأُخرىٰ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصَّبر عند الغضَبِ، والحِلْمِ عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعَلُوا ذلك عصمَهُمُ الله مِن الشَّيطان، وخَضَعَ لهم عدوُّهم كأنَّه وليٌّ حميمٌ.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، أي: إنَّ شيطان الإنس رُبَّما يَنْخدِعُ بالإحسانِ إليه، فأمَّا شيطانُ الجنِّ فإنَّه لا حيلةَ فيه إذا وَسْوَسَ إلَّا الاستعاذة بخالِقِهِ الَّذِي سلَّطَهُ عليك[2]، فإذَا استعَذْتَ بالله ولجأتَ إليه، كفَّه عنكَ وردَّ كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ الصَّلاة يقول: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[3].

وقد قدَّمنا أنَّ هذا المقام لا نَظِيرَ له في القرآن إلا في «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفي «سورة المؤمنين» عند قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ -٩٨].

[لكن الذي ذكر في «الأعراف» أخفُّ علىٰ النَّفس مما ذكر في «سورة السجدة»[4]؛ لأنَّ الإعراضَ عن الجاهلِ وتركَهُ أخفُّ علىٰ النَّفس مِنَ الإحسان إلىٰ المُسيءِ فتتلذَّذ النَّفس من ذلك ولا انتقادَ له إلا بمعالَجةٍ ويساعدها الشَّيطان في هذه الحال، فتنفعلُ له وتستعصي علىٰ صاحبها، فتحتاج إلىٰ مجاهدةٍ وقوةِ إيمانٍ؛ فلهذا أكَّد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتَّعريف باللام فقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾][5].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) لوحة (١١٨/ ب).

(٣) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٢١٩٤)، وفيه سفيان بن وكيع: ضعيف، لكنه توبع، فقد رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٨، ٢٧٩٥)، من طريق أخرىٰ عن أبي الزبير. فصار مدار الحديث علىٰ أبي الزبير وهو مدلس، وقد عنعن.

(٤) المقصود بها هنا سورة «فصلت» لما بها من سجدة، وليست كما يتبادر سورة «السجدة».

(٥) ما بين المعقوفتين ليست في (ز)، وهو مستفاد من طبعة «طيبة».

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ -منبهًا خلقه علىٰ قدرته العظيمة، وأنَّه الَّذي لا نظيرَ له وأنَّه علىٰ ما يشاءُ قادرٌ-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أي: أنَّه خلق اللَّيل بظَلَامِهِ، والنَّهار بضِيائِهِ، وهما متعَاقِبَان لا يَقِرَّان، والشَّمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فَلَكِه، واختلاف سَيْرِهِ [في](1) سمائِهِ؛ ليُعرف باختلاف سيرِهِ وسير الشَّمس مقاديرُ اللَّيل والنَّهار، والجُمَعِ والشُّهورِ والأعوامِ، ويتبيَّن بذلكَ حلولُ الحقوقِ، وأوقاتُ العبادات والمعامَلاتِ.

ثم لما كان الشَّمس والقمر أحسن الأَجْرَام المشَاهَدَةِ في العالَم العلويِّ والسُّفلي، نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّهما مخلوقَانِ عبدَانِ مِن عبيده، تحت قهرِهِ وتسخيرِهِ، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: ولا تُشْرِكُوا به فما تنفعكم عبادتُكُم له مع عبادَتِكُمْ لغيره، فإنَّه لا يغفر أن يُشْرَكَ به.

ولهذا قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: عن إفرادِ العبادةِ له وأَبَوْا إلَّا أن يُشركوا معه غيره، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ -يعني: الملائكة-، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ(2) وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، كقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا سُفيان -يعني: ابن وكيع- حدَّثنا أبي، عن ابن أبي لَيْلىٰ، عن أبي الزُّبير، عن جَابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا تَسُبُّوا اللَّيْلَ وَلَا النَّهَارَ، وَلَا الشَّمْسَ وَلَا القَمَرَ، وَلَا الرِّيَاحَ؛ فَإِنَّهَا تُرْسَلُ رَحْمَةً لِقَوْمٍ، وَعَذَابًا لِقَوْمٍ»**(3).

---

(١) سقط من (ز).

(٢) لوحة (١١٩/ أ).

(٣) حسن لغيره: رواه أبو يعلىٰ (٢١٩٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٨٣٥)، وفي «الأدب» (٨٦)، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ. قال الحافظ: صدوق سيِّئ الحفظ جدًّا، لكنَّه تُوبع، فقد رواه تمام في «الفوائد» (١١٨٥)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٩٨، ٢٧٩٥)، وفي «الدعاء» (٢٠٥١)، من طريق سعيد بن بشير عن أبي الزبير به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٧): سعيد بن بشير وثَّقه جماعةٌ، وضعَّفهُ آخرون، وبقيَّة رجاله ثقات.

قلت: وفي الإسناد: عنعنة أبي الزبير عن جابر، وهو مدلِّس، لكن يشهد له حديث: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ» وهو في «الصحيحين».

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: علىٰ قُدرته علىٰ إعادة الموتىٰ، ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: هامدة لا نباتَ فيهَا، بل هي مَيتةٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميل ألوان الزُّروع والثِّمار، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا(١) لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، قال ابن عبَّاس: الإلحاد: وضع الكلام علىٰ غير مواضعه.

وقال قَتَادَة وغيره: هو الكُفْرُ، والعنادُ.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، أي: فيه تَهديدٌ شَديدٌ، ووَعيدٌ أكيدٌ؛ أي: إنَّه تعالىٰ عالِمٌ بمن يُلْحِدُ في آياته وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وسيجزيهِ علىٰ ذلكَ بالعقوبة والنَّكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يَسْتَويان.

[ثم قال ﷻ تهديدًا للكفَرَة: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾، قال مُجاهِد، والضَّحَّاكُ، وعطاءُ الخُراسَاني: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾: وعيد؛ أي: من خيرٍ أو شرٍّ، إنَّه عليمٌ بكُم وبصيرٌ بأعمالِكُم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾](٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾(٣)، قال الضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وقتادة: وهو القرآن،

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإلحاد في الآيات الكونية يكون بواحد من الأمور الثلاثة:
الأمر الأول: بنسبتها إلىٰ غير الله، مثل أن يقول: إن الذي خلق السماء القوةُ الطبيعيةُ.
الأمر الثاني: وإما باعتقاد مشارك لله فيها، مثل أن يقول: إن الذي يدبر الكون هو الله والإمام فلان، كما تقوله بعض الرافضة.
الأمر الثالث: وإما باعتقاد مُعِينٍ لله فيها، يعني كأن الله عَجَزَ عن إقامة السموات والأرض فأعانه آخرُ، هذا هو الإلحاد في آيات الله الكونية، وإلىٰ هذا يشير قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ]: كل الثلاث جاءت، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: علىٰ سبيل الاستقلال، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: علىٰ سبيل المشاركة، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: ما لله ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، معين.
الآيات الشرعية، قلنا: هي ما نزل من الوحي علىٰ رسل الله، والإلحاد فيها يكون بتكذيبها، وتحريفها، ومخالفتها، يكون أيضًا بثلاثة أمور: تكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حذفه من أجل أن يذهب الذهن كل مذهب في تقدير الخبر، ولكن نعلم علم اليقين، أنه لا يمكن أن يقدر خبراً سارًّا، يعني لا يمكن أن يكون التقدير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لهم جنات النعيم،

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: مَنِيعُ الجَناب، لا يُرامُ أن يأتِيَ أحدٌ بمثلِهِ، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، أي: ليس للبُطلان إليه سَبيل؛ لأنه مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، أي: حكيمٌ في أقوالِهِ وأفعالِهِ، حميدٌ بمعنىٰ محمودٌ؛ أي: في جَميع ما يأمرُ به وينْهَىٰ عنه، الجميع محمودةٌ عواقبُهُ وغاياتُهُ.

ثم قال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن[1] قَبْلِكَ﴾، قالَ قَتادة، والسُّدِّيُّ، وغيرُهما: ما يُقالُ لك من التَّكذيب إلا كما قد قِيلَ للرُّسُل من قبلِك، فكما قد كُذِّبْتَ فقد كُذِّبوا، وكما صبروا علىٰ أذىٰ قَوْمِهم لهم، فاصْبِرْ أنتَ علىٰ أذىٰ قومِكَ لَك، وهذا اختيار ابن جَرير، ولم يَحْكِ هُوَ ولا ابنُ أبي حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لمن استمر علىٰ كفرِهِ وطغيانِهِ وعنادِهِ وشقاقِهِ ومخالفتِهِ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حَمَّاد، عن عليِّ بن زَيْد، عن سعيد بن المُسَيب قال: [لما][2] نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لَوْلَا غَفْرُ اللهِ وَتَجاوُزُهُ مَا هَنأَ أَحَدًا العَيْشُ، وَلَوْلَا وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لَاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ»[3].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ القُرْآنَ وفصاحَتَهُ وبلاغَتَهُ، وإحكامَهُ في لفظِهِ ومعناه -ومع هذا لم يُؤْمِنْ به المشركون- نبَّه علىٰ أنَّ كفرهم به كفرُ عنادٍ وتعنتٍ، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم،

=

هذا مستحيل، إنما هو في أي شيء تقدره من العذاب، وهذا من بلاغة القرآن، أن يجعل المجال مفتوحًا ليقدره الإنسان كل تقدير. هل هناك فرق بين اليأس والقنوط؟

الجواب: نعم، اليأس زوال الرجاء بحيث ينقطع رجاء الإنسان، والقنوط أشد من اليأس، وعلىٰ هذا فيكون قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: يكون هذا ابتداء، والقنوط نهايته.

(١) لوحة (١١٩/ ب).

(٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف بهذا السياق: فيه علي بن زيد: ضعيف، والإسناد مرسل رواه ابن أبي حاتم (١٤١٤٥) (١٨٤٦٣)، لكن ثبت نحوه في «صحيح مسلم» (٢٧٥٦) ولفظه: «لَوْ يعلمُ المؤمنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ العقوبةِ مَا طَمِعَ في جنَّتِه أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ ما عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

لقالوا علىٰ وَجْهِ التَّعنُّتِ والعنادِ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾، أي: لقالوا: هَلَّا أنزل مُفَصَّلًا بلغةِ العرب، ولأَنْكَرُوا ذلك وقالوا: أعجميٌّ وعربيٌّ؟ أي: كيف ينزلُ كلامٌ أعجميٌّ علىٰ مخاطبٍ عربيٍّ لا يفهمه؟! هكذا رُوي هذا المعنىٰ عن ابن عبَّاس، ومُجاهد، وعِكرمة، وسعيد بن جُبير، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾، أي: هلَّا أُنزِلَ بعضها بالأعجميِّ، وبعضها بالعربيِّ. هذا قولُ الحَسَن البَصْري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهامٍ في قوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ (١)، وهو رواية عن سعيد بن جُبير، وهو [في التَّعنُّت و] (٢) العنادِ أبلغُ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ (٣) لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، أي: قُلْ يا مُحمَّد: هذا القرآن لمن آمَنَ بِهِ هُدىً لقلبه وشِفَاءٌ لما في الصدور مِنَ الشُّكُوكِ والريب، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، أي: لا يَهْتدون إلىٰ ما فيه من البيان كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾. قال مُجاهِد: يعني بعيدٌ مِن قُلوبهم.

قال ابن جَرير: معناه: كأنَّ مَن يُخاطبهم يُنَادِيهم مِن مكانٍ بعيدٍ، لا يفهمون ما يقول.

قلت: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضَّحَّاكُ: يُنَادَوْنَ يومَ القِيامَةِ بأشنَعِ أسمائهم.

وقال السُّدِّي: كان عُمَر بن الخطاب ﷺ جالسًا عند رَجُلٍ من المسلمين يَقْضِي، إذ قال: يا لَبَّيْكَاهُ، فقال عمر: لِمَ تُلبي؟ هل رأيت أحدًا، أو دعاك أحدٌ؟ قال: دعاني داعٍ مِن وراء البحر، فقال عمر: أولئكَ يُنَادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ. رواه ابن أبي حاتم (٤).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾، أي: كُذِّبَ وأُوذِيَ، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الشورى: ١٤]، بتأخير الحساب إلىٰ يوم المَعَاد، ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجَّل لهم العذاب، بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلًا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرةٍ منهم لما قالوا، بل كانوا شاكِّين فيما قالوا، غير محققين لشيءٍ كانوا فيه. هكذا وجَّهَهُ ابن جَرير، وهو محتملٌ، والله أعلم.

---

(١) متواترة: قَرَأَ (أَعْجَمِيٌّ) قُنْبُلٌ وَهِشَامٌ وَرُوَيْسٌ بِاخْتِلَافٍ عَنْهُمْ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ بِلَا خُلْفٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (ءَأَعْجَمِيٌّ)، وَكُلٌّ عَلَىٰ أَصْلِهِ فِي الْهَمْزَتَيْنِ مِنْ حَيْثُ التَّسْهِيلُ وَالتَّحْقِيقُ وَالْإِبْدَالُ، وَالْإِدْخَالُ وَعَدَمُهُ.

(٢) ليست في (ز).

(٣) لوحة (١٢٠/ أ).

(٤) لم أقف علىٰ إسناده عنده.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، [أي: إنَّما يعود نفعُ ذلك علىٰ نَفْسِهِ][1]، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، أي: إنما يرجع وَبَالُ ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لا يعاقب أحدًا إلا[2] بذنبٍ، ولا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحُجَّة عليه، وإرسال الرَّسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: لا يعلم ذلك أحدٌ سواه، كما قال ﷺ -وهو سيد البشر لجبريل، وهو من سادات الملائكة- حين سأله عن الساعة، فقال: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[3]، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزبُ عَن علمِهِ مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السَّماء، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلَّت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، أي: يوم القيامة يُنادِي اللهُ المشركين علىٰ رُءُوس الخلائق: أين شركائي الَّذين عبدتموهُم مَعِي؟ ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ -أي: أَعْلَمْنَاك- ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، أي: ليس أحدٌ منَّا اليوم يشهد أن معك شريكًا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾، أي: ذهبوا فلم يَنفَعُوهُم، ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، [أي: وظنَّ المشركون يوم القيامة -وهذا بمعنىٰ اليقين- ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾][4]، أي: لا مَحِيدَ لهم عَن عذابِ الله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

---

(١) في (ز): «أي: إنما يرجع».
(٢) لوحة (١٢٠/ ب).
(٣) البخاري (٥٠)، مسلم (٨).
(٤) سقط من (ز).

يقول تعالىٰ: لا يَمَلُّ الإنسان من دعائه ربَّه بالخير، وهو: المال، وصحَّة الجسم، وغير ذلك، وإن مسَّه الشر، وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ ، أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ[1] مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ ، أي: إذا أصابه خيرٌ ورزقٌ بعد ما كان في شدَّةٍ ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ، أي: يكفر بقيام السَّاعة؛ أي: لأجل أنه خُوِّلَ نعمةً يَفْخَر ويَبْطَر ويكفر؟! كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئن كان ثَمَّ مَعادٌ فَلَيُحْسِنَنَّ إليَّ ربي، كما أحسن إليَّ في هذه الدَّار، يَتمنَّىٰ علىٰ الله ﷻ مع[2] إساءته العملَ وعدمِ اليقين. قال تعالىٰ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ، يتهدد تعالىٰ مَن كان هذا عملَهَ واعتقادُهُ بالعقاب والنَّكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ، أي: أعرض عن الطَّاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ، كقوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات:٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ -أي: الشِّدَّة- ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ ، أي: يُطيل المسألة في [الشَّيءِ الواحدِ][3] ، فالكلام العَرِيضُ: ما طال لفظه وقلَّ معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قلَّ ودلَّ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] الآية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۞٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۞٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۞٥٤﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ -هَذَا القُرْآنُ- ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ، أي: كيف تَرَوْنَ حالكم عند الَّذي أنزله علىٰ رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ؟

أي: في كفرٍ وعنادٍ ومشاقَّةٍ للحقِّ، ومَسْلَكٍ بعيدٍ من الهدىٰ.

ثم قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ، أي: سنُظْهِرُ لهم دلالاتنا وحُجَجنا علىٰ كون القرآن حقًّا منزلًا من عند الله ﷻ علىٰ رسوله ﷺ بدلائلَ خارجيةٍ، ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾[4] ، من الفتوحات

---

(١) لوحة (١٢١/ أ). (٢) في (ز): «بعد».
(٣) في (ز): «في الذي يؤاخذ». (٤) لوحة (١٢١/ ب).

وظهور الإسلام علىٰ الأقاليم وسائر الأديان.

قال مجاهد، والحسن، والسُّدِّي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وَقْعة بَدْرٍ، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلَّتْ بهم، نَصَرَ الله فيها محمَّدًا وصحبه، وخذَلَ فيها الباطل وحِزْبَه.

ويحتمل أن يكون المراد مِن ذلك: ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه مِن المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوطٌ في علم التَّشريح الدَّالِّ علىٰ حكمة الصَّانع تبارك وتعالىٰ، وكذلك ما هو مجبولٌ عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحِيَله وحذره أن يَجُوزَها ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبي جعفر القرشي:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرًا ... فَانْظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أَنْتَ الَّذِي يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي ... الدُّنْيَا وَكُلُّ أُمُورِهِ عِبَرُ
أَنْتَ المُصَرِّفُ[1] كَانَ فِي صِغَرٍ ... ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أَنْتَ الَّذِي تَنْعَاهُ خِلْقَتُهُ ... يَنْعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ وَالبَشَرُ
أَنْتَ الَّذِي تُعْطَىٰ وَتُسْلَبُ لا ... يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أَنْتَ الَّذِي لا شَيْءَ مِنْهُ لَهُ ... وَأَحَقُّ مِنْهُ بِمَالِهِ القَدَرُ

وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي: كفىٰ بالله شهيدًا علىٰ أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أنَّ محمَّدًا صادقٌ فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شكٍّ من قيامِ السَّاعة؛ ولهذا لا يتفكَّرون فيه ولا يعملون له ولا يَحْذَرُون منه، بل هُو عندهم هَدَرٌ لا يَعْبَئُونَ به، وهُو واقعٌ لا ريبَ فيه وكائنٌ لا محالَةَ.

قال ابن أبي الدنيا: حدَّثنا أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا خَلَفُ بن تميم، حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن سعيد الأنصاري: أنَّ عمر بن عبد العزيز صَعِدَ المنبرَ، فحَمِدَ الله وأَثْنَىٰ عليه[2]، ثم قال: أمَّا بعدُ، أيُّها النَّاسُ، فإنِّي لم أجمعْكُم لأمرٍ أُحْدِثُهُ فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائِرُون، فعلمت أنَّ المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذِّب به هالكٌ، ثم نزل.

ومعنىٰ قوله ﵁: «أنَّ المصدِّق به أحمق»، أي: لأنَّه لا يعمل له عملَ مثلِهِ، ولا يَحْذَر منه ولا

يخاف مِن هوله، وهو مع ذلك مُصَدِّقٌ به موقنٌ بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادىٰ في لَعِبه وغفلته وشهواتِهِ وذنوبِهِ، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق في اللُّغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذِّب به هالك»، هذا واضحٌ، والله أعلم.

ثم قال تعالىٰ -مقررًا علىٰ أنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبكلِّ شيءٍ محيطٌ، وإقامة السَّاعة لديه يسيرٌ سهلٌ عليه تبارك وتعالىٰ-: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءٍ مُّحِيطُۢ﴾، أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت طَيِّ علمه، وهو المتصرِّف فيها كلِّها بحكمه، فمَا شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة فُصِّلت][1].

(١) ليست في (ز).

سُورَةُ الشُّورَىٰ

تفسير سورة الشورى وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قد تقدَّم الكلام علىٰ الحُروفِ [المقطَّعة][(١)]. وقد روىٰ ابن جرير هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا منكرًا، فقال:

حدَّثنا أحمد بن زُهَير، حدَّثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطي، حدَّثنا أبو المغيرة -عبد القدوس ابن الحجاج- عن أَرْطَاة بن المنذر قال: جاء رجلٌ إلىٰ ابن عبَّاس فقال له -وعنده حُذيفة بن اليمان-: أخبرني عن تفسير قول الله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، قال: فأطرق، ثمَّ أعرض عنه، ثم كرَّر مقالته فأعرض عنه، فلم يُجِبْهُ بشيءٍ وكَرِهَ مقالَتَهُ، ثم كرَّرها الثَّالثةَ فلم يُحِرْ إليه شيئًا، فقال حذيفة: أنا أُنبِّئُك بها، قد عَرَفْتُ لِمَ كَرِهَهَا؟ نزلت في رجلٍ مِن أهل بيتِهِ يقال له: «عبد الإله» -أو[(٢)]: عبد الله- ينزل علىٰ نهرٍ مِن أنهار المشرِقِ تُبْنَىٰ عليه مَدِينتَانِ، يشق النَّهر بينهما شقًّا، فإذا أذن الله في زوال ملكهِمْ وانقطاع دولتهم ومدَّتِهم، بعث الله علىٰ إحداهما نارًا ليلًا فتصبح سوداءَ مظلمةً وقد احترقت، كأنَّها لم تكُنْ مكانها، وتُصْبِحُ صاحبتُها متعجِّبةً: كيف أفلتت؟! فما هُو إلا بياض يومها ذلك، حتىٰ يجتمع فيها كلُّ جبَّارٍ عنيدٍ منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعًا، فذلك قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ يعني: عزيمةً من الله تعالىٰ وفتنةً وقضاءً حُمَّ: ﴿حمٓ﴾، «عين»: يعني عدلًا منه، «سين»: يعني سيكون، «ق»: يعني واقع بهاتين المدينتين[(٣)].

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٢٢ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (٢٥/ ٦)، وابن أبي حاتم (١٨٤٦٤)، وإسناده منقطع بين أرطأة بن المنذر وبين ابن عبَّاس، وقد وردت هذه الواسطة عند الخطيب في «التاريخ» (١/ ٤٠)، ونُعَيم بن حماد في «الفتن» (١٣٥) عن أرطأة عمن حدثه عن ابن عبَّاس، وهَذا مبهمٌ فلا يصح الإسناد.

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يَعْلىٰ المَوْصلي في الجزء الثاني من «مُسند ابن عبَّاس»، وعن أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ في ذلك، ولكن إسناده ضعيفٌ جدًّا ومنقطعٌ؛ فإنَّه قال:

حدَّثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدَّثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيىٰ الخُشَني الدمشقي، عن أبي معاوية قال: صَعِدَ عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيُّها النَّاس، هل سمع منكم أحدٌ رسول الله ﷺ يفسِّر: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾؟ فوثب ابن عبَّاس فقال: أنا، قال: «﴿حمٓ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ [تَعَالَىٰ]». قال: فعين؟ قال: «عَايَنَ المُوَلُّونَ عَذَابَ يَوْمِ بَدْرٍ». قال: فسين؟ قال: «سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذرٍّ، ففسَّر كما قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وقال: قاف: «قَارِعَةٌ مِنَ السَّمَاءِ تَغْشَىٰ النَّاسَ»][1].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أَنْزَلَ الكُتُبَ والصُّحُفَ علىٰ الأنبياء قبلَكَ. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقوالِه، وأفعالِه.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ -وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ- فَيُفْصَمُ عَنِّي[2] قَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ». قالت[3] عائشة: فلقد رَأَيْتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفْصَمُ عنه وإن جَبِينَه ليَتَفَصَّدُ عرَقًا[4].

أخرجاه في «الصَّحيحين»، ولفظه للبخاري.

وقد رواه الطبراني عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنَّه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَهُ». قال: «وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ»، قال: «وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي المَلَكُ فَيَتَمَثَّلُ لِي فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»[5].

---

(١) ضعيف: فيه الحسن بن يحيىٰ الخُشَني، قال أبو حاتم: صدوق سيئ الحفظ، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الدارقطني: متروك، وقال أبو أحمد بن عديٍّ: هو ممن تحتمل روايته، وقال الحافظ: صدوق كثير الغلط. انظر «تهذيب الكمال» (٦/ ٣٣٩)، و«تقريب التهذيب» ترجمة (١٢٩٥)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٧/ ٣٣٦) إلىٰ أبي يعلىٰ وابن عساكر. وما بين المعقوفتين بياض في (ز).

(٢) يعني الوَحْي، أي: يُقْلِع. وأفْصَم المطَر: إذا أَقْلَع وانكَشَف. «النهاية».

(٣) لوحة (١٢٣/ أ).

(٤) رواه مالك في «الموطأ» (٢٧٠)، ورواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٢٣٣).

(٥) رواه الطبراني في «الكبير» (٣٣٤٣)، وأحمد (٦/ ٢٥٧).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قُتيبة، حدَّثنا ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبي حَبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سَأَلْتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تُحِسُّ بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَسْمَعُ صَلَاصِلَ ثُمَّ أَسْكُتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تُقْبَضُ». تفرد به أحمد(١).

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ في أوّل «شرح البخاري»، بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنَّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع عبيدٌ له ومِلْكٌ له، تحت قهره وتصريفه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قال ابن عبَّاس، والضَّحَّاكُ، وقتادة، والسُّدِّي، وكَعْب الأحبار: أي فَرَقًا من العظمة. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إعلامٌ بذلك وتنويهٌ به. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ -يعني: المشركين- ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيدٌ علىٰ أعمالهم، يُحْصِيها ويَعُدُّها عدًّا، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذيرٌ، والله علىٰ كل شيءٍ وكيلٌ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ (٢) حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ (٣) وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧﴾

يقول تعالىٰ: وكما أَوْحَيْنَا إلىٰ الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحًا جليًّا بينًا، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ -وهي مكة- ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البِلادِ شرقًا وغربًا، وسُمِّيَتْ مكَّةُ: «أمّ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٢٢٢)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وعمرو بن الوليد لم يسمع منه إلا يزيد بن أبي حبيب، واختلف في اسمه، فقيل: عمرو بن الوليد، وقيل: الوليد عبده، قال أبو حاتم: مجهول، وتابعه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٣٤١)، ويكفي في الاستدلال حديث عائشة رضي الله عنها السَّابق.

(٢) لوحة (١٢٣/ ب).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: هل المراد هنا بالرحمة التي هي وصفه، أو المراد الرحمة التي هي خلقه؟ الثاني: لأن الرحمة التي هي وصفه لا يدخلها الناس وإنما يدخلون في الرحمة التي هي خلقه وهي الجنة، ويدل لهذا قوله سبحانه وتعالىٰ في الحديث القدسي للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء» فقال لها: أنت رحمتي.

القرىٰ»؛ لأنَّها أشرف مِن سائر البلاد، لأدلَّةٍ كثيرةٍ مذكورةٍ في مواضعها(١)، ومِن أوجز ذلك وأدلِّه: ما قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو اليَمَان، حدَّثنا شُعَيب، عن الزُّهْرِي، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن، أنَّ عبد الله ابن عَدِيِّ بن الحمراء الزهري أخبره، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول -وهو واقفٌ بالحَزْوَرَة(٢) في سُوق مَكَّة-: «وَاللهِ، إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»(٣).

وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الزُّهري به، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ -وهو يوم القيامة- يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ.

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شكَّ في وقوعه، وأنَّه كائنٌ لا محالة، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، أي: يَغْبِنُ(٤) أهلُ الجنَّةِ أهلَ النار، وكقوله تعالىٰ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾](٥) ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ [وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ](٦) ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٣-١٠٥].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا لَيْث، حدَّثني أبو قَبِيل المَعَافِري، عن شُفَيّ الأَصْبَحِيّ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟»، قال: قلنا: لا، إلَّا أن تخبرنا يا رسول الله، قال -للذي في يده اليمنىٰ-: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالِمِينَ، بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ(٧) عَلَىٰ آخِرِهِمْ، لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثم قال(٨) للَّذي في يساره: «هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيءٍ [إذًا](٩) نعمل إن كان هذا أمرًا قد فُرِغَ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا(١٠)، فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ الجَنَّةِ -وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ- وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ»، ثم قال بيده(١١) فقبضها، ثم قال: «فَرَغَ رَبُّكُمْ عز وجل مِنَ العِبَادِ»، ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها

(١) ينظر: «أخبار مكة» للأزرقي: (١/ ٢٢١)، و«للفاكهي»: (٢/ ٢٨٠)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: (٤/ ١٥٦)، و«سبل الهدىٰ والرشاد»: (١/ ٢٢٥).

(٢) الحَزْوَرة: موضع بمكة، والحزورة في الأصل: بمعنىٰ التل الصغير، سميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٠٥)، ورواه الترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجة (٣١٠٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤٢٥٢، ٤٢٥٣).

(٤) أي: يستنقصون عقولهم باختيارهم الكفر علىٰ الإيمان.

(٥) سقطت من (ز). (٦) سقطت من (ز).

(٧) أي: جمعوا وأحصوا، فلا يزاد فيهم ولا ينقص.

(٨) لوحة (١٢٤/ أ). (٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١٠) سددوا وقاربوا: اطلبوا السداد واعملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه، أي: اقربوا منه، والسداد: الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا. «شرح مسلم» للنووي: (١٧/ ١٦٢).

(١١) أي: أشار بها.

فقال: «فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ»، ونبذ باليسرىٰ فقال: «فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»[١]. وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعًا، عن قُتيبة، عن الليث بن سعد، وبكر بن مُضَر، كلاهما عن أبي قَبِيلٍ، عن شُفَيٍّ بن ماتع الأَصْبَحي، عن عبد الله بن عمرو به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

وساقه البغوي في «تفسيره» من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عُثمان، عن أبي الزَّاهِرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ، فذكره بنحوه، وعنده زياداتٌ منها: ثم قال: «فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، عَدْلٌ مِنَ اللهِ ﷻ»[٢].

ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح -كاتب الليث- عن الليث به.

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وَهْبٍ، عن عمرو بن الحارث، عن أبي قَبِيلٍ، عن شُفَيٍّ، عن رَجُلٍ مِنَ الصَّحابة، فذكره.

ثُم روىٰ عن يونس، عن ابن وَهْبٍ، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن شُرَيْح، عن يحيىٰ بن أبي أُسيد؛ أنَّ أبا فِرَاس حدَّثه: أنه سَمع عبد الله بن عمرو يقول: إنَّ الله لمَّا خلق آدم نَفَضه نَفْض المِزْوَد[٣]، وأخرج منه كلَّ ذريته، فخرج أمثال النَّغَف[٤]، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شَقِيٌّ وسعيدٌ، ثم ألقاهما، ثم قبضهما فقال: فريقٌ في الجنَّة، وفريقٌ في السَّعير[٥].

وهذا الموقوف أشبه بالصَّواب[٦]، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا حَمَّاد -يعني: ابن سلمة- أخبرنا الجُرَيري، عن[٧] أبي نَضْرَة، أن رجُلًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يقال له: أبو عبد الله -دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي- فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقِرَّهُ[٨] حَتَّىٰ تَلْقَانِي»، قال: بلىٰ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً، وَأُخْرَىٰ بِاليَدِ الأُخْرَىٰ، قَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أُبَالِي». فلا أدري في أيِّ القَبْضَتَيْن أنا[٩].

وأحاديث القدر في «الصِّحاح»، و«السنن»، و«المسانيد» كثيرةٌ جدًّا، منها حديث علي، وابن مسعود، وعائشة، وجماعةٍ جمَّةٍ.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (٢/ ١٦٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٧٣)، وابن أبي عاصم (٣٤٨)، وحسَّنه الألباني. انظر: «الصحيحة» (٨٤٨).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٣٩).

(٣) المزود: وعاء يجعل فيه الزاد.

(٤) النَّغَفُ: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، ودود أبيض يكون في النَّوىٰ.

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٢٥/ ٧)، وفيه يحيىٰ بن أبي أسيد: ذكره البُخاري وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٦) بل الموقوف ضعيفٌ، والمرفوعُ حسنٌ فهو أولىٰ بالتَّقديم والتَّصويب.

(٧) لوحة (١٢٤/ ب).

(٨) أي: احفظه.

(٩) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٧٦) و(٥/ ٦٨)، وإسناده صحيح؛ حماد بن سلمة روىٰ عن الجُرَيْري قبل الاختلاط.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من شاء إلى الحق، وأضل من شاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب[١]، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي سويد[٢]، حدثه عن ابن حُجَيرة: أنه بلغه أن موسى عليه السلام قال: يا رب خلقك الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقًا في الجنة وفريقًا في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع [زرعك][٣]، فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع، فرفع، فلم يترك شيئًا، قال: يا رب قد رفعت، قال: ارفع، قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه، قال: كذلك أُدخل خلقي كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه[٤].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ[٥] وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرًا أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى[٦] وهو على كل شيء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور -وهذا عام في جميع الأشياء- ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، أي: الحاكم في كل شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور.

---

(١) في (ز): «ابن وهيب»، وهو خطأ.

(٢) كذا في (ز)، والذي في «الطبري»: «أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي سُويد، حدثه عن ابن حُجيرة، أنه بلغه أن موسى...».

(٣) في (ز): (ذرعك)، والمثبت موافق لما في «الطبري» ط: هجر.

(٤) ضعيف: رواه الطبراني (٢٥/ ٩)، وإسناده ضعيف؛ لأنه لم يُسنده إلى النبي ﷺ، ومثل هذه الأخبار لا تثبت إلا بوحي عن النبي ﷺ.

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هو الولي على كل أحد بالولاية العامة والولاية الخاصة، والفرق بين الولاية العامة والولاية الخاصة، أن الولاية العامة تشمل كل أحد، فكل أحد فالله وليه يتولى أمره، حتى الكافر وليه، والولاية الخاصة تقتضي النصر والتأييد، ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

(٦) لوحة (١٢٥/ أ).

وقوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: مِن جنسِكُم وشكلِكُم، مِنَّةً عليكم وتفضُّلًا جعل مِن جنسِكُم ذكرًا وأنثىٰ، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلَقَ لكُم مِن الأنعام ثمانيةَ أزواجٍ.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، أي: يخلقكم فيه؛ أي: في ذلك الخلق علىٰ هذه الصِّفة لا يزال [يذرؤُكُم](١) فيه ذكورًا وإناثًا، خلقًا مِن بعد خلقٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، ونسلًا بعد نسلٍ، من النَّاس والأنعام.

وقال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرَّحم. وقيل: في البطن. وقيل: [في](٢) هذا الوجه من الخِلْقة.

قال مجاهد: ونَسْلًا بعد نسلٍ من النَّاس والأنعام.

وقيل: «في» بمعنىٰ «الباء»؛ أي: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلِّها شيءٌ؛ لأنَّه الفرد الصمد الَّذي لا نظيرَ له، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ(٣) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم تفسيره في «سورة الزمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرِّفُ الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع علىٰ مَن يشاء، ويُضَيِّق علىٰ مَن يشاء، وله الحكمة والعدل التَّامُّ، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فذكر أول

---

(١) بياض في (ز)!!. (٢) سقط من (ز).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعض الناس يقول: إن «مقاليد» اسم أعجمي معرَّب، و«المِقْلَاد» بمعني: المفتاح، لكن هذا قول ضعيف بلا شك؛ لأنه يا إخواني لا نرجع إلىٰ التعريف إلا بالضرورة، يعني: لا يمكن أن نقول: هذه الكلمة أصلها فارسية، أو أصلها رومية، أو أ صلها كذا وعربت، لا يجوز لنا أن نعدل إلىٰ هذا إلا عند الضرورة؛ لأن الله تعالىٰ جعل القرآن عربيًّا، فإذا قلنا في كلمة : أصلها غير عربي هذا خلاف ظاهر القرآن، لكن إذا اضْطُرِرْنا إلىٰ أننا لم نجد لهذه الكلمة أصلًا في اللغة حينئذٍ يكون معربًا، و«مقاليد» لها أصل مأخوذ من القلادة، التي تقاد بها البعير، فمعنىٰ مقاليد؛ أي: أَزِمَّة الأمور، أمور السموات والأرض له وحده.

الرُّسل بعد آدم وهو نوح عليه السلام وآخرهم، وهو: محمَّد ﷺ[١]، ثم ذكر مَنْ بين ذلك مِن أولي العَزْم، وهم: إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ ابن مريم، عليهم السَّلام وهذه الآية انتظمت ذِكْر الخمسة، كما اشتملت آيةُ «الأحزاب» عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية[الأحزاب:٧]. والدين الَّذي جاءَتْ به الرُّسُلُ كلهم هو: عبادةُ الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وفي الحديث: «نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِياءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ[٢] دِينُنَا وَاحِدٌ»[٣]، أي: القَدْر المُشترك بينهم هو عِبادة الله وَحْده لا شريك له، وإن اختلفت شَرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، أي: وَصَّىٰ اللهُ تعالىٰ جميع الأنبياءِ -عليهم السَّلام- بالإئتِلاف والجماعة، ونهاهُم عن الافتِراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شقَّ عليهم وأنكروا ما تدعُوهُم إليه يا محمَّد من التَّوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: هو الذي يُقدِّر الهداية لمن يَسْتَحِقُّها، ويكتب الضَّلالة علىٰ مَن آثرها علىٰ طريقِ الرُّشْدِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أي: إنَّما كان مخالفَتُهُم للحقِّ بعد بُلوغِهِ إليهم، وقيام الحُجَّة عليهم، وما حَمَلَهُم علىٰ ذَلِكَ إلَّا البغيُ، والعنادُ، والمشاقَّة.

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: لولا الكلمةُ السابقة مِنَ الله بإنظارِ العبادِ بإقامةِ حسابهم إلىٰ يوم المَعادِ، لعَجَّل لهم العُقوبة في الدُّنيا سَريعًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ -يعني: الجِيلَ المُتأخِّرَ بعد القرن الأول المكذِّب للحقِّ- ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي: ليسوا علىٰ يقينٍ مِن أمرِهِمْ، وإنَّما هم مقلِّدُون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليلٍ ولا بُرهانٍ، وهم في حَيْرةٍ من أمرِهِمْ، وشكٍّ مريبٍ، وشقاقٍ بعيدٍ.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ[٤] بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

(١) لوحة (١٢٥/ ب).
(٢) أَوْلَادُ العَلَّات: الذين أمَّهاتُهم مُخْتَلفةٌ وأبوهم واحِدٌ، أرادَ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ وشرائعَهُم مُخْتَلِفة. «النهاية»: (٣/ ٢٩١).
(٣) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩).
(٤) لوحة (١٢٦/ أ).

اشتملت هذه الآيةُ الكريمة علىٰ عَشْرِ كلماتٍ مُستقلَّاتٍ، كُلٌّ منها مُنفصلةٌ عن الَّتِي قبلها، [لها][(١)] حُكم برأسه -قالوا: ولا نَظير لها سوىٰ آية الكرسي، فإنها أيضًا عَشَرَةُ فصولٍ كهذه.

قوله ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك -من الدِّين الذي وصَّينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشَّرائع الكبار المتَّبعة كأُولِي العَزْمِ وغيرِهم- فادعُ النَّاس إليه.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أي: واستقم أنتَ ومَن اتَّبعك علىٰ عبادةِ الله، كما أمركم الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، يعني: المُشركين فيما اخْتلَقُوهُ، وكذَّبُوه وافتَرَوْهُ مِن عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، أي: صَدَّقتُ بجميع الكتب المنزَّلة من السَّماء علىٰ الأنبياءِ لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾، أي: في الحُكْم كما أَمَرَنِي الله.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ أي: هو المعبود، لا إلهَ غيرُهُ، فنحن نُقِرُّ بذلك اختيارًا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا، فلَهُ يَسْجُدُ مَن في العالمين طَوْعًا واختيارًا.

وقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، أي: نحن بُرآءُ منكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ قال مُجاهد: أي: لا خُصومة. قال السُّدِّي: وذلك قبل نزول آية السَّيف، وهذا مُتَّجهٌ؛ لأنَّ هذه الآية مَكِّيَّةٌ، وآيةُ السَّيْف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾، أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦].

وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾

يقول تعالىٰ متوعِّدًا الذين يصدُّون عن سبيل الله مَن آمنَ به: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ[(٢)]

---

(١) ليست في (ز).

(٢) لوحة (١٢٦/ ب).

مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: يُجَادِلُون المؤمنين المستجيبينَ لله ولِرَسُولِهِ؛ ليصدُّوهم عمَّا سلكوه مِن طريقِ الهُدَىٰ، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلةٌ عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ -أي: منه-، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عبَّاسٍ، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولِرَسُولِهِ؛ ليصدُّوهم عن الهُدَىٰ، وطَمِعُوا أن تعودَ الجاهليَّة.

وقال قتادة: هم اليهود والنَّصارىٰ، قالوا لهم: دِينُنَا خيرٌ مِن دينكم، [ونبيُّنَا قبل نبيِّكم، ونحن خيرٌ منكم][1]، وأَوْلَىٰ [بالله][2] منكم، وقد كَذَبُوا في ذلك.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: الكُتب المُنزَّلَة مِن عنده علىٰ أنبيائه. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧-٩].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيبٌ فيها، وتَرْهِيبٌ منها، وتزهيدٌ في الدُّنيا.

وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩]، وإنَّما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا، وكُفرًا وعنادًا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، أي: خائفون وَجِلُون مِن وقوعها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾، أي: كائنةٌ لا محالة، فهم مُستعِدُّون لها عاملون مِن أجلها.

وقد رُوِي من طُرقٍ تبلغ درجة التَّواتر، في الصِّحاح والحسان، والسُّنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه؛ أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ، وهو في بعض أسفارِهِ فناداه فقال: يا محمَّد، فقال له النَّبيُّ ﷺ [نحوًا من صوته][3]: «**هَاؤُمْ**». فقال: متىٰ السَّاعةُ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**وَيْحَكَ، إِنَّهَا كَائِنَةٌ، فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»، فقال: حُبَّ الله ورسوله. فقال: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[4].

فقوله في الحديث: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، هذا مُتواترٌ لا محالَةَ، والغرض: أنَّه لم يُجِبْهُ عن وقتِ السَّاعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلَآ[5] إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: يُحاجُّون في وجودِهَا ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِى

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس، ورواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود.

(٥) لوحة (١٢٧/ أ).

ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في جهل بيّنٍ؛ لأنّ الذي خلق السّمواتِ والأرضَ قادرٌ علىٰ إحياء الموتىٰ بطريق الأَوْلَىٰ والأَحْرَىٰ، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن لُطْفِهِ بخلقه في رزقه إيَّاهم عن آخِرِهم، لا ينسىٰ أحدًا منهم، سواء في رزقه البرَّ والفاجرَ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]، ولها نظائرُ كثيرةٌ.

وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يُوسع علىٰ مَن يشاءُ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: لا يُعجزه شيءٌ.

ثم قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ -أي: عمل الآخرة- ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، أي: نُقَوِّيهِ ونُعِينُه علىٰ ما هُو بصَدَدِهِ، ونُكْثِرُ نماءَهُ، ونجزيه بالحسنةِ عشر أمثالها إلىٰ سَبْعِمائة ضعفٍ، إلىٰ ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، أي: ومَن كانَ إنَّما سعيه ليحصل له شيءٌ مِن الدُّنيا، وليس له إلىٰ الآخرة همَّةٌ [البتَّة][(1)] بالكُلِّيَّة، حَرَمَه اللهُ الآخرة والدُّنيا، إن شاء أعطاه مِنْهَا، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هَٰذِهِ ولا هَٰذِهِ، وفاز هذا السَّاعي بهذه النِّيَّة بالصَّفقة الخاسرة في الدُّنيا والآخرة.

والدَّليل علىٰ هذا: أنَّ هذه الآية هاهنا مقيَّدةٌ بالآية التي في «سبحان»، وهي قوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا[(2)] ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

وقال الثَّوريُّ، عن مُغيرة، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كَعْب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّرْ

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٢٧/ ب).

هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»(١).

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، أي: هُم لا يتبعون ما شرع الله لكَ مِن الدِّين القويم، بل يتبعون ما شَرَعَ لهم شياطينهم من الجِنِّ والإنس، من تحريمِ ما حرَّموا عليهم، من البَحِيرَة والسَّائبة والوَصِيلَةِ والحام، وتحليلِ المَيْتَة والدَّم والقِمَار، إلىٰ نحو ذلك من الضَّلالات والجهالات الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التَّحليل والتَّحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت في «الصَّحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، إِنَّه أَوَّلُ مَن سيَّب السَّوائب**»(٢). وكان هذا الرَّجل أحد ملوك خُزَاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الَّذِي حَمَلَ قريشًا علىٰ عبادة الأصنام، لَعَنَهُ الله وقَبَّحَه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لَعُوجِلُوا بالعقوبة، لولا ما تقدَّم من الإنظار إلىٰ يوم المَعَاد، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: شديدٌ مُوجِعٌ في جَهنَّم وبئس المصير.

ثم قال تعالىٰ: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾، أي: في عَرَصَاتِ القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، أي: الَّذِي يخافون منه واقعٌ بِهِم لا محالَةَ، هذا حالُهُم يوم مَعَادِهِم، وهم في هذا الخَوْفِ والوَجَلِ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأين هذا مِن هذا؟!

أين مَنْ هو في العَرَصَاتِ في الذُّلِّ والهوان والخَوفِ المُحَقَّقِ عليه بظُلْمِهِ، ممن هو في رَوْضَاتِ الجنَّات(٣)، فيما يشاءُ مِن مَآكِلَ ومشَارِبَ ومَلَابِسَ ومَسَاكِنَ ومَنَاظِرَ ومَنَاكِحَ ومَلَاذَّ، فيما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ.

قال الحَسَن بن عَرَفَة: حدَّثنا عُمر بن عبد الرحمن الأَبَّار، حدَّثنا محمَّد بن سعدِ الأنصاري، عن أبي طَيْبَة، قال: إنَّ الشَّرْبَ(٤) من أهلِ الجنَّة لتظلهم السَّحابة فتقول: ما أُمْطِرُكُم، قال: فما يدعو داعٍ مِن القوم بشيءٍ إلا أمطرتهم، حتىٰ إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابًا.

رواه ابن جَرير، عن الحسن بن عَرَفَة به.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، أي: الفوز العظيم، والنِّعمة التَّامة السَّابغة الشَّاملة العامَّة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٣٤)، والحاكم (٤/ ٣١١، ٣١٨) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٢٥).

(٢) البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٣) لوحة (١٢٨/ أ).

(٤) أي: الجماعة الذين يجتمعون علىٰ الشراب.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: -لما ذكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: هذا حاصلٌ لهم كائنٌ لا محالة، ببشارةِ الله لهم به.

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: قل يا محمَّد لهؤلاءِ المشركين من كفَّار قريشٍ: لا أسألكم علىٰ هذا البلاغ والنُّصح لكم مالًا تُعطُونيه، وإنَّما أطلب منكم أن تكُفُّوا شرَّكُم عنِّي وتَذَرُوني أُبلِّغ رسالات ربِّي، إن لم تنصرُوني فلا تؤذُوني بما بَيْني وبينكم من القرابة.

قال البخاريُّ: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شُعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرَة قال: سمعتُ طاوسًا، عن ابن عبَّاسٍ: أنه سُئِل عن قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ فقال سعيدُ ابنُ جُبير: قُرْبَىٰ آل محمَّد. فقال ابن عبَّاسٍ: عَجِلْتَ؛ إن النَّبيَّ ﷺ لم يكن بطن من قريشٍ إلا كان له فيهم [قرابة][1]، فقال: إلا أن تصلوا ما بَيْني وبَيْنكُم من القرابة. انفرد به البخاري[2].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيىٰ القطان، عن شُعبة به، وهكذا روىٰ عامر[3] الشَّعْبي، والضَّحَّاكُ، وعلي بن أبي طلحة، والعَوْفي، ويُوسف بن مِهْران، وغيرُ واحدٍ، عن ابن عبَّاس، مثله، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسُّدِّي، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطَّبَراني حدَّثنا هاشم بن يزيد الطَّبراني، وجعفر القَلانسي قالا: حدَّثنا آدم بن أبي إياس، حدَّثنا شريك، عن خُصَيفٍ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: **«لا أَسألُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَنْ تَوَدُّوني فِي نَفْسِي لِقَرَابَتِي مِنْكُمْ، وَتَحْفَظُوا القَرَابَةَ الَّتِي بَيْني وَبَيْنَكُمْ»**[4].

وروىٰ الإمام أحمد، عن حسن بن موسىٰ: حدَّثنا قزَعَةُ؛ يعني: ابن سُوَيدٍ -وابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قزَعة بن سُويد- عن ابن أبي نَجيح، عن مُجاهد، عن ابن عبَّاسٍ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«لا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ مَا آتَيْتُكُمْ مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَىٰ أَجْرًا، إِلَّا أَنْ تُوادُّوا اللهَ، وَأَنْ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ»**[5].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) البخاري (٤٨١٨)، والترمذي (٣٢٥١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٧٤).
(٣) لوحة (١٢٨/ ب).
(٤) حسن لغيره: رواه الطبراني (١١/ ١٢٢٣٣)، وفيه شَريكٌ القاضي: سيئ الحفظ، لكن للحديث متابعة، رواه أحمد (١/ ٢٦٨)، والطبراني (١١/ ١١١٤٤)، وهو الذي أورده المصنف بعده، ورجاله ثقات علىٰ اختلاف في قَزَعة بن سويد، وبالجملة: فالحديث حسنٌ إن شاء الله.
(٥) انظر التعليق السابق.

وهكذا روىٰ قَتادة، عن الحَسَن البَصْري مثله.

وهذا كأنَّه تفسيرٌ بقولٍ ثانٍ، كأنَّه يقول: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: إلَّا أن تَعْمَلُوا بالطَّاعة التي تُقَرِّبُكم عندَ الله زُلْفَىٰ.

وقولٌ ثالث: وهو ما حكاه البخاري وغيره، روايةً عن سعيد بن جُبيرٍ، ما معناه أنَّه قال: معنىٰ ذَٰلِكَ أن تودُّوني في قرابتي؛ أي: تحسنوا إليهم وتبرُّوهم. وقال السُّدِّي، عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي ابن الحسين أسيرًا، فأُقِيم علىٰ دَرَج دِمَشق، قام رجلٌ من أهل الشَّام فقال: الحمدُ لله الَّذِي قَتلكم واستأصلكُم، وقطع قرني الفِتْنَة[1]، فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: «أَقَرَأْتَ آل حَم»؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقْرأْ «آل حم»؟! قال: ما قرأت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟، قال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نعم[2].

وقال أبو إسحاق السَّبِيعيُّ: سألت عمرو بن شعيبٍ عن قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال: قربىٰ النَّبيِّ ﷺ. رواهما ابن جرير.

ثم قال ابن جرير[3]: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ، حدَّثنا مالك بن إسماعيل، حدَّثنا عبد السلام، حدَّثني يزيد بن أبي زياد، عن مِقْسَم، عن ابن عبَّاس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا -وكأنهم فَخَرُوا- فقال ابن عبَّاسٍ -أو: العبَّاس، شكَّ عبدُ السلام-: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِي؟**»، قالوا: بلىٰ، يا رسول الله، [قال: «**أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟**»، قالوا: بلىٰ يا رسول الله][4]، قال: «**أَفَلَا تُجِيبُونِي؟**» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «**أَلَا تَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْرِجْكَ قَوْمُكَ فَآوَيْنَاكَ؟ أَوَ لَمْ يُكَذِّبُوكَ فَصَدَّقْنَاكَ؟ أَوَ لَمْ يَخْذُلُوكَ فَنَصَرْنَاكَ؟**»، قال: فما زال يقول حتىٰ جَثَوا علىٰ الرُّكَبِ، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله، قال: فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[5].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد -وهو ضعيف- بإسناده مثله، أو قريبًا منه.

وفي «الصحيحين» -في قَسْم غنائم حُنين- قريبٌ مِن هذا السِّياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه

---

(١) أي: استأصلها.

(٢) رواه الطبري (٢٥/ ٢٥) من طريق إسماعيل بن أبان، وقد رُمِي بالتَّشيُّع؛ فلا يُقْبَلُ منه ما كان نصرًا لمذهبه.

(٣) لوحة (١٢٩/ أ). (٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) **ضعيف بهذا السياق**: رواه ابن جرير (٥/ ٢٥)، وابن أبي حاتم (١٨٤٧٢)، وهو ضعيف بهذا السياق، وعلته يزيد ابن أبي زياد: ضعيف، وأصل الحديث ثابت في «الصحيحين» دون ذكر سبب نزول الآية. وسيأتي.

الآية[1]، وذِكْرُ نزولها في المدينة [فيه][2] نظر؛ لأنَّ السُّورةَ مكيَّةٌ، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السِّياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحُسين، حدَّثنا رجلٌ سمَّاهُ، حدَّثنا حُسَيْن الأَشْقَر، عن قَيْس، عن الأَعْمَش، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاسٍ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، قالوا: يا رسول الله، مَن هؤلاء الَّذين أمرَ الله بمَوَدَّتِهم؟ قال: «**فَاطِمَةُ وَوَلَدُهَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**»[3].

وهذا إسنادٌ ضعيفٌ، فيه مُبْهَمٌ لا يُعْرَفُ، عن شيخٍ شيعيٍّ مُتَحَرِّقٍ[4]، وهو حُسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيدٌ؛ فإنَّها مَكِّيَّةٌ ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكُلِّيَّة، فإنَّها لم تتزوَّج بعَليٍّ إلَّا بعد بَدْرٍ مِن السَّنة الثَّانية من الهِجْرَة.

والحقُّ تفسير الآية بما فسَّرها به الإمام حَبرُ الأمة، وتُرْجُمَان القرآن، عبد الله بن عبَّاس، كما رواه عنه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا تُنْكَرُ الوصاة بأهل البيت[5]، والأمر بالإِحْسَان إليهم، واحترامهم وإكرامهم؛ فإنَّهم مِن ذُرِّيَّةٍ طاهرةٍ، من أشرف بيتٍ وُجِدَ علىٰ وجهِ الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسُّنَّةِ النَّبويَّةِ الصَّحيحةِ الواضحةِ الجليَّةِ، كما كان عليه سلفهم، كالعبَّاس وبَنِيهِ، وعليٍّ وأهل بيته وذَوِيهِ رَضِيَ الله عنهم أجمعين.

[وقد ثبتَ في «الصحيح»][6]: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغَدِير خُمٍّ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي، وَإِنَّهُمَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[7].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العبَّاس بن عبد المُطلب قال: قُلْتُ: يا رسول الله، إن قُرَيشًا إذا لَقِيَ

---

(١) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١). (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه الطبراني (١١/ ١٢٢٥٩)، وفيه حسين الأشقر، وقيس بن الربيع كلاهما ضعيف، ثم إن الأشقر شيعي، وهذا الحديث مما يؤيِّد بدعته فلا يُقْبَلُ، قال فيه البخاري: فيه نظر، وفي موضع آخر: عنده مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي. انظر: «تهذيب الكمال» (٦/ ٣٦٦)، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق يَهِمُ ويغلو في التشيع.
قلت: وإنما اعتمد الحافظ علىٰ قول ابن معين، وقد سئل عنه: صدوق؟ قال: نعم، كتبت عنه.
وهذا عندي فيه نظر، فقد اتفق الفقهاء علىٰ تجريحه، وجرحهم مفصَّلٌ، أو يحمل كلام ابن معين علىٰ أنه صدوق في نفسه، لكنه لا يصح حديثه، والراجح أنه: منكر الحديث.

(٤) في (ز): «مخترق». التخرق: اختلاق الكذب. (٥) لوحة (١٢٩/ ب).

(٦) في (ز): «والصحيحين»، وهو خطأ، فالحديث من أفراد مسلم.

(٧) مسلم (٢٤٠٨) بنحوه، وسيأتي قريبًا شواهد له.

بعضهم بعضًا لَقُوهم بِبِشْرٍ حَسَنٍ، وإذا لقُونا لقونا بوجُوهٍ لا نعرفها؟ قال: فغضب النَّبيُّ ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَدْخُلُ قَلْبَ الرَّجُلِ الإِيمَانُ حَتَّىٰ يُحِبَّكُمْ للهِ وَلِرَسُولِهِ»[(١)].

ثم قال أحمد: حدَّثنا جَرير، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العبَّاس علىٰ رسول الله ﷺ فقال: إنَّا لنخرج فنرىٰ قريشًا تُحدث، فإذا رأونا سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودَرَّ عِرْقٌ[(٢)] بين عينه، ثم قال: «وَاللهِ لا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِيمَانٌ حَتَّىٰ يُحِبَّكُمْ للهِ وَلِقَرَابَتِي»[(٣)].

وقال البخاري: حدَّثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدَّثنا خالد، حدَّثنا شُعبة، عن واقد [قال][(٤)]: سمعتُ أبي يحدِّث عن ابن عمر، عن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمَّدًا ﷺ في أهل بيته[(٥)].

وفي «الصَّحيح»: أنَّ الصِّدِّيقَ قال لعَليٍّ رضي الله عنهما: واللهِ لَقَرَابَةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي[(٦)].

وقال عمر بن الخطَّاب للعبَّاس رضي الله عنهما: واللهِ لَإِسْلَامك يوم أسلمتَ كان أحب إليَّ من إسلام الخطَّاب لو أسلم؛ لأنَّ إسلامك كان أحب إلىٰ رسول الله من إسلام الخطَّاب[(٧)].

فحال الشَّيخين رضي الله عنهما[(٨)] هو الواجب علىٰ كل أحدٍ أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النَّبيِّين والمرسلين، رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حَيَّان التيمي، حدَّثني يَزيد بن حيَّان قال: انطلقت أنا و[حصين بن سبرة][(٩)]، وعمر بن مسلم إلىٰ زيد بن أرْقم، فلما جلسنا إليه قال له حُصَين: لقد لقيتَ يا زيد خيرًا كثيرًا، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعتَ حديثه وغزوتَ معه، وصلَّيت معه، لقد رأيت يا زيد خيرًا كثيرًا، حدِّثنا يا زيد ما سمعتَ من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخي، والله لقد كَبِرَت سِنِّي، وقَدُمَ عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنت أَعِي من رسول الله ﷺ، فما حدَّثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلِّفُونِيهِ، ثم قال: قام رسول الله ﷺ [يومًا][(١٠)] خطيبًا فينا، بماءٍ يدعىٰ خُمًّا -بين

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢٠٧) و(٤/ ١٦٥)، والترمذي (٣٧٠٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١٧٦)، وإسناده ضعيف، وعلته يزيد بن أبي زياد: ضعيف، وقد اضطرب في هذا الحديث، فقد رواه هنا من مسند «العبَّاس بن عبد المطلب»، ورواه في الحديث الآتي من مسند «عبد المطلب بن ربيعة».

(٢) أي: امتلأ دمًا، كما يمتلئ الضرع لبنًا إذا در.

(٣) إسناده ضعيف كسابقه.

(٤) سقط من (ز).

(٥) البخاري (٣٧١٣، ٣٧٥١).

(٦) البخاري (٣٧١٢).

(٧) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٨/ ٩١٤)، وابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٦٤)، وإسحاق بن راهَوَيْه -كما في «المطالب العالية» (٤/ ٢٤٨)- والطبري في «التاريخ» (٢/ ١٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٢) مختصرًا ومطوَّلًا، وقال الحافظ في «المطالب العالية» (٤/ ٢٤٨): هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٨) لوحة (١٣٠/ أ).

(٩) في (ز): (حسين بن ميسرة)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(١٠) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «المسند».

مكة والمدينة- فحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه، وذكَّر ووعظ، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**». فحثَّ علىٰ كتاب الله ورغَّب فيه، وقال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**». فقال له حُصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصَّدقة بعده قال: ومَنْ هُم؟ قال: هُم آلُ عليٍّ، وآل عَقِيلٍ، وآل جَعفَرٍ، وآل العَبَّاس، قال: أكلُّ هؤلاءِ حُرِمَ الصدقة؟ قال: نَعم[1].

وهكذا رواه مسلم في الفضائل، والنسائي، من طرق عن يزيد بن حَيَّان به.

وقال أبو عيسىٰ التِّرمذي: حدَّثنا علي بن المنذر الكوفي، حدَّثنا محمَّد بن فضيل، حدَّثنا الأَعْمَش، عن عَطية، عن أبي سعيد - والأعمش، [عن حَبيب بن أبي ثابت][2]، عن زيد بن أَرْقَم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ[3] مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَالآخَرُ عِتْرَتِي: أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا**».

تفرَّد بروايتِهِ التِّرمذي ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ[4].

وقال التِّرمذي أيضًا: حدَّثنا نَصر بن عبد الرحمن الكُوفي، حدَّثنا زَيْد بن الحسن، عن جَعْفَر بن محمَّد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حَجَّتِهِ يوم عَرَفة، وهو علىٰ ناقته القَصْواء يخطب، فسمعته يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي: أَهْلَ بَيْتِي**»[5][6].

---

(١)رواه أحمد (٤/ ٣٦٦)، ورواه مسلم (٢٤٠٨)، وأبو داود (٤٩٧٣)، ورواه الترمذي (٣٧٨٦) نحوه.

(٢)في (ز): «عن أبي حبيب عن أبي ثابت».

(٣)لوحة (١٣٠/ ب).

(٤) حسن:رواه الترمذي (٣٧٨٦).

(٥)رواه الترمذي (٣٧٨٨)، وللحديث شواهد أخرىٰ -كما قال ابن كثير- وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٧٦١).

(٦) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ عقبه في «الصحيحة» (١٧٦١):(واعلم أيها القارئ الكريم، أن من المعروف أن الحديث مما يحتج به الشيعة، ويَلْهَجون بذلك كثيرًا، حتىٰ يتوهم أهل السُّنة أنهم مصيبون في ذلك، وهم جميعًا واهمون في ذلك، وبيانه من وجهين:

الأول: أن المراد من الحديث في قوله ﷺ: «عترتي» أكثر مما يريده الشيعة، ولا يرده أهل السُّنة، بل هم مستمسكون به، ألا وهو أن العترة فيهم هم أهل بيته ﷺ، وقد جاء ذلك موضحًا في بعض طرقه كحديث الترجمة: «عترتي أهل بيتي». وأهل بيته في الأصل هم: نساؤه ﷺ، وفيهن الصديقة عائشة -رضي الله عنهن جميعًا- كما هو صريح قوله تعالىٰ في «الأحزاب»: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ بدليل الآية التي قبلها والتي بعدها: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
=

تفرَّد به الترمذي أيضًا، وقال: حسنٌ غريبٌ. وفي الباب عن أبي ذرٍّ، وأبي سعيد، وزَيد بن أَرْقَم، وحُذَيفة بن أَسِيد.

ثم قال الترمذي: حدَّثنا أبو داود سليمان [بن][(١)] الأشعث، حدَّثنا يحيىٰ بن مَعِين، حدَّثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سُليمان النَّوْفَلي، عن محمَّد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس، عن أبيه، عن جدِّه عبد الله بن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي**»[(٢)]. ثم قال: حسنٌ غريبٌ، إنما نعرفه من هذا الوجه.

وقد أوردنا أحاديثَ أُخَر عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب، ٣٣]، بما أغنىٰ عن إعادتِهَا هاهنا، ولله الحمد والمنَّة. =

وقال الحافظ أبو يَعْلَىٰ: حدَّثنا سُوَيد بن سَعِيد، حدَّثنا مُفَضَّل بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن

= ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾، وتخصيص الشيعة (أهل البيت) في الآية بعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين ﵃ دون نسائه ﷺ من تحريفهم لآيات الله تعالىٰ انتصارًا لأهوائهم، كما هو مشروح في موضعه، وحديث الكساء وما في معناه غاية ما فيه توسيع دلالة الآية ودخول عليٍّ وأهله فيها كما بينه الحافظ ابن كثير وغيره، وكذلك حديث «العترة» قد بيَّن النبي ﷺ أن المقصود أهل بيته ﷺ بالمعنىٰ الشامل لزوجاته وعَلِي وأهله، ولذلك قال التُّورْبَشْتِي، كما في «المِرْقاة» (٥/ ٦٠٠): «عترة الرجل: أهل بيته ورهطه الأَدْنَوْن، ولاستعمالهم «العترة» علىٰ أنحاء كثيرة بيَّنها رسول الله ﷺ بقوله: «أهل بيتي» ليعلم أنه أراد بذلك نسله وعصابته الأدنين وأزواجه».
والوجه الآخر: أن المقصود من «أهل البيت» إنما هم العلماء الصالحون منهم والمتمسكون بالكتاب والسنة.
قال الإمام أبو جعفر الطحاوي ﵀: («العترة» هم أهل بيته ﷺ الذين هم علىٰ دينه وعلىٰ التمسك بأمره). وذكر نحوه الشيخ علي القارئ في الموضع المشار إليه آنفًا، ثم استظهر أن الوجه في تخصيص أهل البيت بالذكر ما أفاده بقوله: «إن أهل البيت غالبًا يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم المطلعون علىٰ سيرته الوقفون علىٰ طريقته العارفون بحُكمِه وحكمته، وبهذا يصلح أن يكون مقابلًا لكتاب الله سبحانه كما قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾». قلت: ومثله قوله تعالىٰ في خطاب أزواجه ﷺ في آية التطهير المتقدمة: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ فتبيَّن أن المراد بأهل البيت المتمسكون منهم بسنته ﷺ، فتكون هي المقصود بالذات في الحديث، ولذلك جعلها أحد (الثقلين) في حديث زيد بن أرقم المقابل للثَّقَل الأول وهو القرآن، وهو ما يشير إليه قول ابن الأثير في «النهاية»: «سماهما (ثقلين) لأن الأخذ بهما -يعني: الكتاب والسنة- والعمل بهما ثقلين، ويقال لكل خطير نفيس (ثقل)، فسماهما (ثقلين) إعظامًا لقدرهما وتفخيمًا لشأنهما».
قلت: والحاصل أن ذكر أهل البيت في مقابل القرآن في هذا الحديث كذكر الخلفاء الراشدين مع سنته ﷺ في قوله: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين...» قال الشيخ القارئ (١/ ١٩٩): «فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم، إما لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها». إذا عرفت ما تقدم فالحديث شاهد قوي لحديث «الموطأ» بلفظ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله». وهو في «المشكاة» (١٨٦). وقد خفي وجه هذا الشاهد علىٰ بعض من سود صفحات من إخواننا الناشئين اليوم في تضعيف حديث الموطأ. والله المستعان).

(١) في (ز): «حدَّثنا أبو داود وسليمان الأشعث».

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٣٧٩٠)، وعبد الله بن سليمان النوفلي: ضعيف.

حَنَشٍ قال: سمعت أبا ذرٍّ وهو آخذٌ بحَلَقةِ الباب يقول: يا أيها النَّاس، مَن عرَفَنِي فقد عرَفَنِي، ومن أنكرني فأنا أبو ذرٍّ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ دَخَلَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ»(١) . هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ ، أي: ومن يعمل حسنة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: أجرًا وثوابًا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۢ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا(٢) وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وقال بعض السَّلف: [إنَّ](٣) مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدها، ومِن جزاء السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ، أي: يغفر الكثير من السَّيِّئاتِ، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعِفُ فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ، أي: لو افتريت عليه كذبًا -كما يزعم هؤلاء الجاهلون- ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ، أي: لَطَبَعَ علىٰ قلبِكَ وسلبَكَ ما كان آتاك من القُرْآنِ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، أي: لانتقمنا منه أشدَّ الانتقام، وما قدَرَ أحدٌ مِن النَّاس أن يحجِزَ عنهُ.

وقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ، ليس معطوفًا علىٰ قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزومًا، بل هو مرفوعٌ علىٰ الابتداء.

قاله ابن جرير، قال: وحُذِفت من كتابته «الواو» في رسم المصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٨]، وقوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء:١١].

وقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ ، معطوف علىٰ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُحَقِّقُه ويُثْبِتُه ويُبَيِّنُه ويُوَضِّحُه بكلماته؛ أي: بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تكنُّه الضَّمائر، وتنطوي عليه السَّرائر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم (٣/ ١٥٠)، وإسناده ضعيف، وعلَّتُهُ: مفضل بن عبد الله.

(٢) لوحة (١٣١/ أ). (٣) ليست في (ز).

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ عباده بقبولِ توبتِهِم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: إنَّه مِن كرَمِهِ وحلمِهِ أنَّه يعفو ويَصْفَحُ، ويَسْتُرُ ويَغْفِرُ، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠]، وقد ثبت [(١)] في «صحيح مسلم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال:

حدَّثنا محمَّد بن الصَّبَّاح، وزُهير بن حَرْب قالا: حدَّثنا عمر بن يونس، حدَّثنا عكرمة بن عمَّار، حدَّثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدَّثني أنس بن مالك -وهو عمه- قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ [علىٰ] [(٢)] رَاحِلتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ -أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ-» [(٣)].

وقد ثبت أيضًا في «الصحيح» من رواية عبد الله بن مسعود نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزُّهْري في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ فِي المَكَانِ الَّذِي يَخَافُ أَنْ يَقْتُلَهُ العَطَشُ فِيهِ» [(٤)].

وقال همَّام بن الحارث: سُئِلَ ابن مسعودٍ عن الرجل يَفْجُر بالمَرْأَةِ ثمَّ يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، الآية [(٥)]. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شَريك القَاضي، عن إبراهيم بن مُهَاجر، عن إبراهيم النَّخَعي، عن همَّام فذكره.

وقوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل ويَعْفُو عن السَّيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالمٌ بجميع ما فعلتم وصَنَعْتُم وقُلْتُم، ومع هذا يتوبُ علىٰ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني يستجيب لهم، وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدُّعاء لهم [لأنفسهم] [(٦)] ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النُّحاة، وأنَّه جعلها كقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثم روىٰ هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شَقِيق بن سَلَمة، عن سَلَمة بن سَبِرة قال: خطبنا مُعَاذٌ بالشَّام فقال: أنتم المُؤمنون، وأنتم أهل الجنَّة، و[اللهِ] [(٧)] إنِّي أرجو أن يُدخِلَ اللهُ مَن تَسْبُون من فارس

---

(١) لوحة (١٣١/ ب). (٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «صحيح مسلم».

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس، ورواه (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٤٩)، وهو عند مسلم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق به.

(٥) رواه الطبري (٢٥/ ٢٨)، وابن أبي حاتم (١٨٤٧٨)، وفيه شريك القاضي: صدوق سيئ الحفظ.

(٦) ليست في (ز).

(٧) سقط من (ز).

والروم الجنة(١)، وذلك بأنَّ أحدكم إذا عمل له -يعني: أحدُهم عملًا- قال: أحسنتَ يرحمك الله، أحسنتَ بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾(٢).

وحكىٰ ابن جَرِيرٍ عن بعضِ أهل العربيَّة أنَّه جعل(٣) [مثل](٤) قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر:١٨]، أي: هم الذين يَسْتَجِيبُون للحقِّ ويتَّبِعُونَه، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٣٦]، والمعنىٰ الأول أظهر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن المُصَفىٰ، حدَّثنا بَقِيَّة، حدَّثنا إسماعيل بن عبد الله الكِنْدِيّ، حدَّثنا الأَعْمَش، عن شَقِيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، قال: «الشَّفَاعَةُ لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، مِمَّنْ صَنَعَ إِلَيْهِمْ مَعْرُوفًا فِي الدُّنْيَا»(٥).

وقال قَتَادة، عن إبراهيم النَّخعي اللَّخمِي في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: يَشْفَعُون في إخوانِهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، قال: يَشْفَعُون في إِخْوَانِ إِخْوَانِهِم.

وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لما ذَكَر المؤمنين وما لهم من الثَّواب الجزيل، ذَكَر الكافرين وما لهم عِنْدَه يوم القيامة من العذاب الشَّديد الموجِع المُؤْلِم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذَلِكَ علىٰ البغي والطُّغْيَان من بعضِهم علىٰ بعضٍ، أشَرًا وبطرًا.

وقال قتادة: كان يُقَال: خيرُ العيشِ ما لا يُلهيك ولا يُطْغِيك. وذكر قَتَادة حديث: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ مِنْ زَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا». وَسُؤَالُ السَّائِلِ: أيأتي الخيرُ بالشَّرِّ؟. الحديث(٦).

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، أي: ولكن يرزقهم من الرِّزْقِ ما يختاره

---

(١) لوحة (١٣٢/ أ). (٢) رواه الطبري (٢٥/ ٢٨)، وابن أبي حاتم (١٨٤٧٩)، والأثر رواته ثقات.

(٣) في (ز): «أن جعله». (٤) ليست في (ز).

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٣٢١) و(١٤٦٦٤)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٤٨)، وفي «الأوسط» (٥٧٧٠)، وأبو نُعَيم في «الحلية» (٤/ ١٠٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣): وفيه إسماعيل عبد الله الكندي، ضعَّفه الذَّهبيُّ مِن عند نفسه، فقال: أتىٰ بخبر مُنكرٍ، وبقيَّة رجاله وُثِّقُوا.

قلت: الذهبي إمام حافظ، وقد أقره علىٰ ذلكَ الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (١/ ٤١٧).

وللحديث طريقٌ أخرىٰ عند أبي نعيم في «الحلية»، من طريق ابن حِمْيَر، عن الثوري، عن الأعمش به، وتعجَّب أبو نعيم من هذا الطريق، ومقصده بذلك أنَّه غير محفوظٍ عنه، فلا يصحُّ أن يقال: إنه متابعٌ لإسماعيل الكندي.

(٦) حديث: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا»: رواه البخاري (٢٩١)، ومسلم (١٠٥٢)، وأما ما أورده هنا عن قتادة من قوله فهو مرسل. رواه الطبري (٢٥/ ١٩).

مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بِذَلِكَ فيُغني من يستحق الغنىٰ، ويُفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي[1] لَمَنْ لا يُصْلِحُهُ إِلَّا الغِنَىٰ، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لا يُصْلِحُهُ إِلَّا[2] الفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ»[3].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾، أي: مِن بعد إِيَاس النَّاس مِن نُزول المَطَر، ينزله عليهم في وَقْتِ حَاجَتِهِم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩].

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، أي: يَعُم بها الوجودَ علىٰ أهلِ ذلك القُطْرِ وتلك النَّاحية.

قال قَتَادة: ذُكِر لنا أنَّ رجُلًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحطَ[4] المطر وقَنَطَ النَّاس. فقال عمر رضي الله عنه: مُطِرْتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[5]. أي: هو المتصرِّف لخلقه بما ينفعهم في دُنْيَاهم وأُخْرَاهُم، وهو المحمود العَاقِبة في جميعِ ما يُقَدِّرُه ويَفْعَلُه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ -الدَّالَّة علىٰ عظمَتِهِ وقدرتِهِ العظيمة وسلطانِهِ القاهر- ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾، أي: ذَرأَ فيهما؛ أي: في السَّموات والأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهذا يشمل الملائِكَةَ، والجنَّ والإنسَ وسائرَ الحيواناتِ، علىٰ اختلافِ أشكالهم وألوانهم ولغَاتِهم، وطِبَاعِهم وأجناسِهم وأنواعِهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسَّموات، ﴿ ﴾ -مع هذا كله- ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، أي: يوم القيامة يجمع الأوَّلين والآخِرين، وسائر الخلائق في صعيدٍ واحدٍ، يسمعهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصر، فيحكم فيهم بحُكْمِه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: مَهْما أصابكم أيُّها النَّاس من المصائب فإنَّما هو عَن سَيِّئَاتٍ تقدَّمَتْ لكم، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، أي: من السَّيِّئَاتِ، فلا يُجَازيكم عليها، بل يَعْفُو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾

---

(١) في (ز): «عباده». (٢) لوحة (١٣٢/ ب).

(٣) ضعيف: رواه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٢٣) من حديث أنس، ورواه الخطيب (١٥/ ٦) من حديث عمر، وسبق في تفسير سورة الإسراء الآية (٣٠).

(٤) أي: احتبس وانقطع. (٥) رواه الطبري (٢٥/ ٣٠)، وإسناده منقطع.

[فاطر: ٤٥] وفي الحديث الصحيح: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا[١] وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا»[٢].

وقال ابن جَرير: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، حدَّثنا أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قِلَابَةَ قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنِّي لَرَاءٍ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ؟ فقال: «أَرَأَيْتَ مَا رَأَيْتَ مِمَّا تَكْرَهُ، فَهُوَ مِنْ مَثَاقِيلِ ذَرِّ الشَّرِّ، وَتَدَّخِرُ مَثَاقِيلَ الخَيْرِ حَتَّىٰ تُعْطَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ». قال: قال أبو إدريس: فإنِّي أرىٰ مِصْدَاقها في كتاب الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قِلابَةَ، عن أنس، قال: والأول أصح[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن عِيسَىٰ بن الطَّبَّاع، حدَّثنا مَرْوان بن مُعاوية الفَزَاري، حدَّثنا الأَزْهَر بنُ رَاشِد الكَاهِلي، عن الخَضْر بن القَوَّاسِ البَجَلي[٤]، عن أبي سُخَيْلَة، عن عَلِيٍّ ﷺ قال: ألا أُخبركم بأفضل آيةٍ في كتاب الله ﷻ، وحدَّثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. وسأُفَسِّرُها[٥] لك يا عليُّ «مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عُقُوبَةٍ أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا، فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يُثَنِّي عَلَيْهِ العُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَاللهُ تَعَالَىٰ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ عَفْوِهِ»[٦].

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مَرْوَان بن مُعاوية [نا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخضر بن القواس][٧]، عن أبي[٨] سُخَيلة قال: قال علي... فذكر نحوه مرفوعًا.

ثم روىٰ ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفًا فقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا منصور بن أبي مُزاحم، حدَّثنا أبو سعيد بن أبي الوَضَّاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيفَةَ قال: دخلت علىٰ

---

(١) لوحة (١٣٣/ أ). (٢) البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣)، والترمذي (٩٦٦).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٣٠/ ١٧٣)، ورجاله ثقات، إلا أنه مُرسل. والطريق الأخرىٰ عنده أيضًا (٣٠/ ٢٦٨) من طريق أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس وفي إسناده الهيثم بن الربيع: ضعيف، إلا أنَّها مِن طريق الهيثم بن الربيع العقيلي: ضعيف.

(٤) في (ز): «الجيلي»، وهو خطأ. (٥) في (ز): «وما فسرها لك».

(٦) ضعيف مرفوعًا والصحيح الموقوف: رواه أحمد (١/ ٨٥)، وأبو يعلىٰ (٣٥٢و ٣٥٣)، وفيه أزهر بن راشد، قال الحافظ: مقبول.

وأما الرِّواية الثَّانية التي رواها موقوفة علىٰ عليٍّ ﷺ فإسنادها صحيح، وهي في حكم المرفوع، رواها ابن أبي حاتم (١٨٤٨٠).

(٧) ما بين المعقوفتين في (ز): (وعبدة)، والمثبت موافق لما في مسند الإمام أحمد (١/ ٨٥)، والخضر بن القواس، وأبو سخيلة: مجهولان.

(٨) في (ز): «عن ابن أبي سخيلة»، وهو خطأ.

عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحدِّثُكم بحديثٍ ينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يَعِيَه؟ قال: فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، قال: ما عاقبَ اللهُ به في الدُّنيا فالله أَحْلَمُ[1] مِن أن يُثنّي عليه العقوبَةَ يوم القيامة، وما عفا الله عَنْهُ في الدُّنيا فالله أَكْرَمُ مِن أن يَعُود في عَفْوِهِ يوم القِيَامَة[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يَعْلَىٰ بن عبيد، حدَّثنا طَلْحَة -يعني: ابن يحيىٰ- عن أبي بُرْدَةَ، عن مُعاوية -هو ابن أبي سُفيان رضي الله عنهما- قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ المُؤْمِنَ[3] فِي جَسَدِهِ يُؤْذِيهِ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**»[4].

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا حسين، عن زَائِدة، عن لَيْث، عن مُجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ العَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا، ابْتَلَاهُ اللهُ بِالحَزَنِ لِيُكَفِّرَهَا**»[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيّ، حدَّثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مُسلم، عن الحَسَن -هو البَصْري- قال في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ خَدْشِ عُودٍ، وَلَا اخْتِلَاجِ[6] عِرْقٍ، وَلَا عَثْرَةِ قَدَمٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ**»[7].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمر بن عَليّ، حدَّثنا هُشَيمٌ، عن منصور، عن الحسن، عن عِمْرَان ابن حُصَين رضي الله عنه قال: دخل عليه بعض أصحابه -وقد كان ابْتُلِيَ في جسده- فقال له بعضهم: إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرىٰ فيك، قال: فلا تبتئس بما ترىٰ؛ فإنَّ ما ترىٰ بذنبٍ، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[8].

قال: وحدَّثنا أبي: حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدَّثنا جَرير، عن أبي البلاد قال: قلت للعَلاء بن بَدْر: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال: فبِذُنُوب والديك[9].

---

(١) لوحة (١٣٣/ ب). (٢) انظر التخريج السابق. (٣) في (ز): «ابن آدم».

(٤) صحيح لغيره: رواه أحمد (٤/ ٩٨)، وفي إسناده طلحة بن يحيىٰ. قال الحافظ: صدوق يخطئ، لكن له شواهد منها ما تقدم.

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ١٥٧)، وفيه ليث بن أبي سليم: لم تتميز أحاديثه فتُرِكَ.

(٦) أَصْل الاخْتلاج: الحرَكة والاضطراب.

(٧) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨١)، ووكيع في «الزهد» (٩٣)، والإسناد مرسل؛ لأنه عن الحسن البصري.

(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨٢)، والحاكم (٢/ ٤٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٥٣)، وفيه المبارك بن فَضَالة: صدوق يُسوِّي ويُدلِّس، أي: أنَّ تدليسه شرُّ أنواعِ التَّدليس، وهو تدليس التَّسوية.

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨٣)، وإسناده صحيح.

وحدَّثنا أبي: حدَّثنا علي بن محمَّد الطَّنافسي، حدَّثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، عن الضَّحَّاكِ قال: ما [نعلم أحدًا حفظ][1] القرآن ثم نسيه إلا بِذَنْبٍ، ثم قرأ الضَّحَّاكُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾. ثم يقول الضَّحَّاكُ: وأي مصيبةٍ أعظم من نِسْيَانِ القرآن[2].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ[3] عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾

يقول تعالىٰ: ومِن آياته الدَّالَّة علىٰ قدرَتِهِ وسُلطَانِهِ، تسخيره البحرَ لتجري الفلك فيه بأمرِهِ، وهي: الجَوَاري في البحر كالأعلام؛ أي: كالجبال.

قاله مجاهد، والحسن، والسُّدِّي، والضَّحَّاكُ؛ أي: هي في البحر كالجبال في البَرِّ، ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾، أي: الَّتِي تَسِيرُ بالسُّفُنِ، لو شاء لسَكَّنَهَا حتىٰ لا تتحرك السُّفن، بل تظلُّ رَاكِدَةً لا تجيء ولا تذهب، بل وَاقِفَةٌ علىٰ ظهره؛ أي: علىٰ وَجْه الماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ -أي: في الشدائد- ﴿شَكُورٍ﴾، أي: إنَّ في تسخيره البحر وإجرائِهِ الهواء بقَدْرِ ما يحتاجون إليه لسَيْرِهِم- لَدَلالَاتٍ علىٰ نِعَمِهِ تعالىٰ علىٰ خلقه، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾، أي: في الشَّدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء.

وقوله: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: ولو شاء لأهلك السُّفن وغرَّقها بذُنُوبِ أهلها الَّذِين هم راكبُونَ عليها، ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ أي: من ذنوبهم، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأَهْلَكَ كلَّ مَنْ رَكِبَ البحر.

وقال بعض علماء التَّفسير: معنىٰ قوله: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: لو شاء لأرسل الرِّيح قويَّةً عاتيةً، فأخذت السُّفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرَفَتها ذاتَ اليَمِين أو ذات الشمال، آبقة لا تَسِيرُ علىٰ طريقٍ، ولا إلىٰ جهةِ مقصدٍ، وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنَّه تعالىٰ لو شاء لسَكَّن الريح فوقفت، أو لَقَوَّاه فشردت وأَبِقَتْ وهلكت، ولكن مِن لُطْفِهِ ورحمته أنَّه يرسله بحسب الحاجة، كما يُرْسِلُ المطر بقَدْرِ الكِفَاية، ولو أنزله كثيرًا جدًّا لهدم البنيان، أو قليلًا لما أنبت الزرع والثِّمار، حتىٰ إنَّه يُرْسِل إلىٰ مثل بلاد مصر سَيْحًا من أرضٍ أخرىٰ غيرها؛ لأنَّهم لا يحتاجون إلىٰ مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾، أي: لا مَحِيدَ لهم عن بَأْسِنَا ونِقْمَتِنَا، فإنَّهم مقهُورُون بقُدْرَتِنَا.

---

(١) في (ز): «ما تعلَّم أحد».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٦٢)، وإسناده صحيح.

(٣) لوحة (١٣٤/ أ).

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ[(١)] خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ محقِّرًا بشأنِ الحياة الدُّنيا وزينتها، وما فيها من الزَّهرة والنَّعيم الفاني، بقوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: مهما حَصَّلتم، وجمعتم فلا تغتروا به؛ فإنَّما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دارٌ دنيئةٌ فانيةٌ زائلةٌ لا مَحَالَة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وثواب الله خيرٌ من الدنيا، وهو باقٍ سرمديٌّ، فلا تُقدِّموا الفاني علىٰ الباقي؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: للَّذين صبروا علىٰ[(٢)] تَرْك المَلاذِّ في الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: ليُعِينَهُم علىٰ الصبر في أداء الواجبات وترك المحرَّمات.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام علىٰ الإثم والفواحش في «سورة الأعراف». ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، أي: سَجِيتهم [وخُلُقهم وطبعهم][(٣)] تقتضي الصفحَ والعفوَ عن النَّاس، ليس سَجِيَّتُهم الانتقامَ من النَّاس.

وقد ثبت في «الصَّحيح»: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تُنْتَهَكَ حرماتُ الله[(٤)]. وفي حديثٍ آخر: «كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ المَعْتَبَةِ: مَا لَهُ؟ تَرِبَتْ جَبِينُهُ[(٥)]»[(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن زَائِدة، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يُسْتَذَلُّوا، وكانوا إذا قَدَرُوا عَفَوْا[(٧)].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: اتَّبعوا رُسلَهُ وأطاعوا أمره، واجتنبوا زَجْرَهُ، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ - وهي أعظم العبادات لله ﷻ - ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لا يُبرمون أمرًا حتىٰ يتشاوَرُوا فيه؛ ليتساعَدُوا بآرائهم في مِثْلِ الحروب وما جَرىٰ مجراها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولهذا كان ﷺ يُشَاوِرُهم في الحُرُوبِ ونحوها؛ ليطيِّب بذلك قلوبَهُم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب ﵁ الوفاة -حِينَ طُعِن- جعل الأمر بعدَهُ شورىٰ في ستَّة نفرٍ، وهم: عثمان، وعلي، وطَلْحَة، والزُّبير[(٨)]، وسعد، وعبد الرحمن بن عَوْف، رضي الله عنهم أجمعين[(٩)].

---

(١) لوحة (١٣٤/ ب). (٢) في (ز): «أي: علىٰ».

(٣) ليست في (ز). (٤) البخاري (٦١٢٦) و(٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٥) قيل: أراد به دُعاء له بكثرة السُّجود. «النهاية».

(٦) في (ز): «تَرِبَتْ يَمِينُهُ»، والمثبت من «صحيح البخاري». رواه البخاري (٦٠٣١، ٦٠٤٦).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨٦). (٨) لوحة (١٣٥/ أ).

(٩) في (ز): «جميعهم».

فاجتمع رَأْيُ الصَّحابة كلِّهم علىٰ تقدِيمِ عثمان عليهم ﷺ(١)، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلىٰ خَلْقِ الله، الأقربُ إليهم مِنْهُم فالأَقْرَب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، أي: فيهم قُوَّة الانتصار ممَّن ظلمَهُم واعْتَدَىٰ عليهم، ليسُوا بعَاجِزِينَ ولا أذلَّة، بل يَقْدِرون علىٰ الانتقام ممَّن بَغَىٰ عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]، مع قُدرته علىٰ مُؤاخذتهم ومُقابلَتِهم علىٰ صَنيعهم إليه، وكما عَفَا رسول الله ﷺ عن أولئك النَّفر الثمانين الذين قصدوه عام الحُديبية، ونزلوا من جبل التَّنعيم، فلما قَدَرَ عليهم عفا عنهم مع قدرته علىٰ الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذي أراد الفَتْكَ به عَلَيْهِ السَّلَامُ حين اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وهو نائمٌ، فاستيقظ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في يده صَلْتًا، فانتهره فوضعه مِن يده، وأخذ رسول الله ﷺ السَّيف مِن يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمَهُم بما كان مِن أمرِهِ وأمرِ هذا الرَّجلِ، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لَبِيد ابن الأَعْصَم، الذي سَحَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرتِهِ عليه، وكذلك عفوه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن المرأةِ اليهوديَّة -وهي: زينب أخت مَرْحَب اليهودي الخَيْبَري الذي قتله محمد بن مسلمة- الَّتي سَمَّتِ الذِّرَاعَ يوم خيبر، فأخبره الذِّرَاع بذلك، فدعَاهَا فاعترفت فقال: «**مَا حَمَلَكِ عَلَىٰ ذَلِكَ**»، قالت: أردتُ إن كنتَ نبيًّا لم يضرك، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك، فأطلقها ﷺ، ولكن لمَّا مَات منه بِشْر بن البراء قَتَلَهَا به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا، ولله الحمد.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ(٢) إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ : علىٰ عمومه أو يستثنىٰ منه؟ الجواب: يستثنىٰ منه ما ظهرت مصلحته لولي الأمر فإنه لا حاجة إلىٰ أن يشاور، ويدل لهذا عمل السلف الصالح، فها هو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من أشد الخلفاء اهتمامًا بالرعية، لا يشاور إذا كانت المصلحة ظاهرة له، وإنما يشاور إذا أشكل عليه الأمر، لو أحصيت ما شاور فيه ما بلغ إلا العشرات أو أقل، وقد بقي عشر سنوات في الخلافة، هذا العمل السلفي من الخلفاء الراشدين يقيد قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: إذن ما الذي يستثنىٰ؟ ما ظهرت فيه المصلحة لولي الأمر فلا حاجة فيه للمشاورة؛ لأن المشاورة في هذه الحال ضرر في تنفيذ الأمر والمضي فيه.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن فوائدها: الحث علىٰ العفو إذا كان إصلاحًا، فإن لم يكن إصلاحًا فالأخذ بالحزم أولىٰ، دليل هذا: أن الله قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾.

يتفرع علىٰ هذا مسألة مهمة: لو أن الجاني معروف بالشر والفساد فاعتدىٰ علىٰ شخص، هل نقول: الأفضل أن يعفو عنه؟ الجواب: لا، بل نشترط أن يكون ذلك إصلاحًا، هذا الرجل الشرير المعروف بالشر إذا جنىٰ علىٰ شخص هل نقول للشخص المجني عليه، اعفُ عنه فأجرك علىٰ الله؟ لا نقول هذا؛ لأننا لو عفونا عن هذا الرجل الشرير في هذه القضية المعينة، فَعَلَ مثلها أو أشد بعد ذلك؛ لأنه أخذ علىٰ العفو، فكل يؤمل أن يُعفىٰ عنه في كل فعل، فإذا كان الجاني شريرًا معروفًا بالفساد فجنىٰ علىٰ شخص، فهل نقول: الأفضل أن تعفو عنه أو تأخذ بحق؟ ذكرنا أن الأفضل في هذه الحال أن تأخذ بحقك؛ لأن هذا الرجل الشرير المجبول علىٰ الشر إذا عفوت عنه الآن ذهب يفعل ما هو أشد في اليوم الثاني، يجب أن نعمل أن قوله - تبارك وتعالىٰ- ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، هذه الآية المطلقة تقيد بهذه الآية، بل كل نص فيه الحث علىٰ العفو فإنه مقيد بهذه الآية، إذن لا بد أن يكون العفو إصلاحًا.

﴿ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[1]

قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ كقوله تعالىٰ[2]: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٤].

وكقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٩] فشرع العَدْلَ وهو القصاص، ونَدَبَ إلىٰ الفَضْلِ وهو العفو، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة:٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي: لا يضيع ذلك عند الله، كما صحَّ في الحديث: «وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»[3].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المُعْتَدِينَ، وهو المبتدئُ بالسَّيِّئَةِ.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثةً: ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فذكر المقتصد، وهو الذي يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، ثم ذكر السَّابق بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، ثم ذكر الظَّالم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلىٰ الفضل، ونهىٰ عن[4] الظلم][5].

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: نقل السيوطي في «الإكليل» عن الكيا الهراسي أنه قال: قد ندب الله إلىٰ العفو في مواضع من كتابه، وظاهر هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أن الانتصار أفضل، قال: وهو محمول علىٰ من تعدىٰ وأصرّ؛ لئلا يتجرأ الفساق علىٰ أهل الدين، وآيات العفو فيمن ندم وأقلع. انتهىٰ.
وعجيب فهمه الأفضلية من الآية، فإنها لا تدل عليه، عبارة ولا إشارة؛ فإنه تعالىٰ لم يرغب في الانتصار، وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا، ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المماثلة، ثم بين أن العفو أولىٰ، وهو الذي انتهىٰ إليه الكلام، وتم به السياق، وكذلك لا حاجة إلىٰ حمل الانتصار علىٰ من تعدىٰ؛ وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات، والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل، ودفع الظلم عن النفس والصَّغار، ورفع الأحقاد والأضغان، وأما العفو والصفح، فذاك من فروع علم الأخلاق، وتهذيب النفوس؛ لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق، رغبة في تزكية النفس وهضماً لها وحرصاً علىٰ خير الأمرين وأوفر الأجرين، وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية، وتوسطها بين الاقتصاص البتة، والعفو كلياً؛ لأن العقل السليم يرىٰ فيهما إفراطاً وتفريطاً، والدين دين الفطرة، وهي تتقاضىٰ القصاص بالمثل، وتراه حقاً لها بجبلتها، والقضاء الأدبي، والوازع الرحماني يرشدها إلىٰ ما هو أمثل إن شاءت، ويبرهن لها أمثليته، مما لا يبعد إذا راجعت نفسها وثابت إلىٰ رشدها، أن تُؤْثِرَهُ ولا تؤثر عليه؛ كيف؟ وقد دل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ كما قال الزمخشري، علىٰ أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء، خصوصاً في حال الحرب والتهاب الحمية. فربما كان المجازىٰ من الظالمين وهو لا يشعر.

(٢) لوحة (١٣٥/ ب).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والتِّرمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٥).

(٤) وردت في ط: «طيبة» (من ظلم). (٥) ليست في (ز)، وهو مستفاد من ط: «طيبة».

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، أي: ليس عليهم جناحٌ في الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جَرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن بَزِيع، حدَّثنا مُعَاذُ بن مُعاذ، حدَّثنا ابن عَوْنٍ قال: كُنْتُ أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، فحدَّثني عَليُّ بنُ زَيْد بن جُدْعَان، عن أُم مُحمَّد -امرأة أبيه- قال ابن عَوْنٍ: زعموا أنَّها كانت تدخل علىٰ أم المؤمنين عائشة -قالت: قالت أمُّ المؤمنين: دخل [علينا][1] رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جَحْش، فجعل يصنع بيده شيئًا فلم يَفْطَنْ لها، فقلت[2] بيده حتىٰ فَطَّنته لها، فأمسك، وأقبلت زينبُ تقحم[3] لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي. فقال لعائشة: «سُبِّيهَا»، فَسبَّتْهَا فَغَلبتْهَا، وانطلقت زينب فأتت عليًّا فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم، فجاءت فاطمة فقال لها: «إِنَّهَا حِبَّةُ أَبِيكِ وَرَبِّ الكَعْبَةِ» فانصرفت، وقالت لعلي: إني قلت له: كذا وكذا، فقال لي: كذا وكذا. قال: وجاء عليٌّ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فكلَّمه في ذلك[4].

هكذا وَرَدَ هذا السِّياق، وعلي بن زيد بن جُدْعَان يأتي في رواياته بالمُنكرات غالبًا، وهذا فيه نكَارةٌ، والحديث الصَّحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائي وابن ماجه، من حديث خالد بن سلمة الفَأْفَاء، عن عبد الله البَهِيِّ، عن عُروة قال: قالت عائشة ﵂: ما علمتُ حتىٰ دَخَلَتْ عليَّ زينب بغير إذنٍ وهي غَضْبَىٰ، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حَسْبك إذا قَلَبت لك ابنة أبي بكر ذُرَيِّعَتَيهَا[5][6]، ثم أقبلت عليَّ فأعرضت عنها، حتىٰ قال النَّبيُّ ﷺ: «دُونَكِ فَانْتَصِرِي»، فأقبلت عليها حتىٰ[7] رَأَيْتُها وقد يَبِس رِيقها في فَمِهَا، ما تَرُدّ عليَّ شيئًا، فرأيت النَّبيَّ ﷺ يتهَلّل وجْهُه. وهذا لفظ النسائي[8].

وقال البَزَّار: حدَّثنا يوسف بن موسىٰ، حدَّثنا أبو غَسَّان، حدَّثنا أبو الأَحْوَص عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن الأَسْوَد، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدِ انْتَصَرَ».

ورواه التِّرمذي من حديث أبي الأَحْوَص، عن أبي حمزة -واسمه: ميمون- ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديثه، وقد تُكُلِّم فيه من قِبَلِ حفظه»[9].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾، أي: إنَّما الحرج والعَنَتُ، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ

---

(١) سقط من (ز). (٢) أي: أمسكت بيده.

(٣) أي: تتعرّض لشَتْمها وتدخل عليها فيه، كأنها أقبَلَت تَشْتِمُها من غير رَوِيَّة ولا تَثَبُّت.

(٤) إسناده ضعيفٌ بهذا السياق: رواه الطبري (٢٥/ ٣٩)، وفيه علي بن زيد بن جُدْعَان: ضعيف، ويأتي بالمنكرات، وأم محمَّد زوجة أبي عليٍّ: مجهولة، وأصل القصَّة صحيحٌ بغير هذا السِّياق، وهو الحديث الآتي.

(٥) في (ز): «درعيها»، والمثبت هو الصواب. (٦) لوحة (١٣٦/ أ).

(٧) **الذريعة**: تصغير الذراع، وأرادت بالذريعتين: الساعدين.

(٨) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٩٣)، والنسائي في «عشرة النساء» (٨٩١٤)، وابن ماجة (١٩٨١).

(٩) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٤٧)، وفيه أبو حمزة، قال أحمد: متروك.

﴿ٱلْحَقِّ﴾، أي: يبدؤون النَّاس بالظُّلم، كما جاء في الحديث الصحيح: «**المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ**»[(١)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديدٌ مُوجعٌ.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا الحسنُ بن موسىٰ، حدَّثنا سعيدُ بن زيد -أخو حماد بن زيد- حدَّثنا عثمان الشَّحَّام، حدَّثنا محمَّد بن وَاسِع قال: قَدِمْتُ مكَّة فإذا علىٰ الخندق مَنْظَرَةٌ[(٢)]، فأُخِذت فانطُلِق بي إلىٰ مروان بن المُهَلب، وهو أميرٌ علىٰ البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عَدي، قال: ومن أخو بني عَدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقًا له مرة علىٰ عمل، فكتب إليه: أمَّا بعد، فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيفٌ، وبطنك خميصٌ، وكفُّك نقيَّةٌ من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلتَ ذلك لم يكن عليك سبيلٌ، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقال: صَدَقَ والله ونَصَحَ، ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلتُ: حاجتي أَن تُلحقني بأهلي، قال: نعم. رواه ابن أبي حاتم[(٣)].

ثم إنَّه تعالىٰ لما ذمَّ الظُّلم وأهله وشرع القصاص، قال نادبًا إلىٰ العفو والصَّفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، أي: صبر علىٰ الأذىٰ وستر السَّيِّئة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

قال سعيدُ بن جُبير: يعني لمن حَقِّ الأمور التي أمر الله بها؛ أي: لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة الَّتي عليها ثوابٌ جزيلٌ وثناءٌ جميلٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عِمْرَانُ بن مُوسىٰ الطَّرَسُوسي[(٤)]، حدَّثنا عبد الصمد بن يزيد -خادم الفُضَيل بن عياض[(٥)]- قال: سَمِعت الفضيل بن عِياض يقول: إذا أتاك رجلٌ يَشْكُو إليك رجُلًا فَقُل: يا أخي، اعْفُ عنه، فإنَّ العفو أقرب للتقوىٰ. فإن قال: لا يحتمل قَلْبِي العفو، ولكن أَنْتَصِرُ كما أمرني الله ﷻ. فقل له: إن كنت تُحْسِنُ أن تنتصر، وإلَّا فَارْجِع إلىٰ بابِ العَفْو، فإنَّه بابٌ واسعٌ، فإنَّه مَن عفا وأصلح فأجره علىٰ الله، وصاحب العفو ينام علىٰ فراشِهِ باللَّيل، وصاحبُ الانتصار يقلِّب الأمور[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ -يعني: ابن سعيد القَطَّان- عن ابن عَجْلان، حدَّثنا سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رجلًا شتم أبا بكر، والنَّبيُّ ﷺ جالسٌ، فجعل النَّبيُّ ﷺ يعجب، ويتبسَّم، فلما أكثَرَ ردَّ عليه بعضَ قولِهِ، فغَضِبَ النَّبيُّ ﷺ وقام، فَلَحِقَه أبو بكرٍ فقال: يا رسول الله، إنَّه كان يشتُمُني وأنت جالسٌ، فلمَّا رَدَدْتُ عليه بعضَ قوله غضبتَ وقمتَ! قال: «**إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا**

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٧)، ورواه أحمد وغيره.
(٢) المنظرة: موضع الحرس، وتكونه في رأس الجبل.
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨٧)، وإسناده لا بأس به.
(٤) في (ز): «الترسوسي»، وهو خطأ.
(٥) لوحة (١٣٦/ ب).
(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٤٨٨).

رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ حَضَرَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ». ثم قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ، مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلِمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا للهِ، إِلَّا أَعَزَّ اللهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا صِلَةً، إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً، إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا قِلَّةً»(١).

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلىٰ بن حمَّاد، عن سُفيان بن عُيينة -قال: ورواه صَفْوان بن عيسىٰ، كلاهما عن محمَّد بن عَجْلان، ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُري، عن بشير بن المحرَّر، عن سعيد بن المُسَيب مُرسلًا.

وهذا الحديث في غاية الحُسْن في المعنىٰ، وهو سببُ سبِّه للصديق.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن(٢) نفسه الكريمة: إنَّه ما شاء كان ولا رَادَّ له، وما لم يشأ لم يَكُن فلا موجِدَ له، وأنَّه مَن هَدَاه فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف، ١٧].

ثم قال مُخبرًا عن الظَّالمين -وهم المشركون بالله- ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة يتمنَّوْن الرَّجعة إلىٰ الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ -أي: علىٰ النَّار- ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، أي: الَّذي قد اعتراهُم بما أَسْلَفُوا مِن عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، قال مجاهد: يعني ذليل؛ أي: ينظرُونَ إليها مُسارقَة خوفًا منها، والذي يحذرون منه واقعٌ بهم لا محالَةَ، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أَجَارَنا الله مِن ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: ذُهِبَ بهم إلىٰ النَّار فعُدِمُوا لذَّتهم في دار الأبد، وخَسِرُوا أنفسهم، وفرَّق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم، فخسروهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٤٨٩٧)، وأحمد (٢/ ٤٣٦)، وحسَّنه الألباني، ورواه أبو داود (٤٨٩٦) مرسلًا.

(٢) لوحة (١٣٧/ أ).

﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائمٌ سَرْمديٌّ أبديٌّ، لا خروجَ لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: يُنقِذُونَهُم ممَّا هم فيه مِن العذاب والنَّكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاصٌ.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ ما يكون في يوم القيامة من الأهْوَالِ والأمور العِظَام الهائِلَةِ حَذَّر منه وأمر بالاستعدادِ له، فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا أمر بكونه فإنَّه[1] كَلَمْحِ البَصَر يكُونُ، وليس له دَافِعٌ ولا مانعٌ.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾، أي: ليسَ لكُم حِصْنٌ تتحصَّنُون فيه، ولا مَكَان يَسْتُرُكُم وتتنكرون فيه، فتَغِيبُون عن بَصَرِهِ تبارك وتعالىٰ، بل هو محيطٌ بكم بعلمه وبصرِهِ وقدرتِهِ، فلا ملجأَ مِنْهُ إلا إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١٠-١١].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾، يعني: المشركين، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: لستَ عليهم بمصيطر، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، أي: إنَّما كَلَّفْنَاك أن تُبلغهم رِسَالة الله إليهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾، أي: إذا أصابه رَخَاءٌ ونعمةٌ فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، يعني: الناس، ﴿سَيِّئَةٌ﴾، أي: جدبٌ ونقمةٌ وبلاءٌ وشدَّةٌ، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدَّم من النِّعمة، ولا يعرف إلا السَّاعة الرَّاهنة، فإن أصابته نعمةٌ أَشِرَ وبَطِرَ، وإن أصابته محنةٌ يَئِسَ وقَنَطَ، كما قال رسول الله ﷺ [للنساء][2]: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»، فقالت امرأةٌ: ولِمَ يا رسُولَ اللهِ؟ قال: «لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَايَةَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ[3]، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ تَرَكْتَ يَوْمًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»[4]. وهذا حال أكثر النَّاس إلَّا مَن هداه الله وألهمه رُشْدَهُ، وكان من الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»[5].

---

(١) لوحة (١٣٧/ ب). (٢) ليست في (ز).

(٣) أي: تجحدن إحسان أزواجكن.

(٤) رواه مسلم (١٧١٩)، وأبو داود (٣٥٩٦)، والتِّرمذي (٢٢٩٦)، وابن ماجة (٢٣٦٤).

(٥) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، من حديث صُهيب. ورواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حُذيفة.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرِّف فيهما، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُن، وأنَّه يعطي مَن يشاء، ويَمنعُ من يشاء، ولا مانع لما أعطىٰ، ولا مُعْطِيَ لما منع، وأنَّه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، أي: يرزقه البنات فقط -قال البَغَويُّ: ومنهم لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ-[١] ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، أي: يرزقه البنين فقط. -قال البغوي: كإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يولد له أنثىٰ- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾، أي: ويُعطي مَن يشاءُ مِن النَّاس الزَّوجَيْنِ: الذَّكر والأنثىٰ؛ أي: مِن هذا وهذا، قال البغويُّ: كمُحمَّد ﷺ، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، أي: لا يُولد له، قال البغويُّ: كيحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، فجعل النَّاس أربعة أقسام، منهم من يُعطيه البنات، ومنهم مَن يُعْطِيهِ البنين، ومنهم مَن يُعْطِيهِ من النَّوعَيْنِ ذكورًا وإناثًا، ومنهم من يمنعُهُ هذا وهذا، فيجعله عَقِيمًا لا نسلَ له ولا يُولَدُ له، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾، أي: بمَن يستحِقُّ كُل قسمٍ مِن هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: علىٰ [ما][٢] يشاءُ مِن تفاوتِ النَّاس في ذلك.

وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالىٰ عن عيسىٰ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: دلالة [لهم][٣] علىٰ قدرته -تعالىٰ وتقدَّس- حيث خلق الخلقَ علىٰ أربعة أقسام، فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلوقٌ مِن ترابٍ لا مِن ذكرٍ ولا أنثىٰ، وحواء عليها السَّلام من ذكرٍ بلا أنثىٰ، وسائر الخلق -سِوَىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ- من ذكرٍ وأنثىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنثىٰ بلا ذكرٍ، فتمَّت الدلالة بخلق عيسىٰ ابن مريم، عليهما السَّلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكلٌّ منهما أربعةُ أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾[٤] صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) لوحة (١٣٨/ أ). (٢) في (ز): (من). (٣) سقط من (ز).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].
الجواب: أن الهداية في الآية الثانية هداية التوفيق، فإن النبي ﷺ لا يملك أن يهدي أحدًا وأما الهداية في الآية التي هنا فهي هداية الدلالة، اقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، هديناهم هداية دلالة يعني: بينا لهم الحق ودللناهم عليه ولكنه -والعياذ بالله- استحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ فلم يهتدوا.

هذه مقاماتُ الوحي بالنِّسبة إلىٰ جناب الله ﷻ، وهو أنَّه تعالىٰ تارةً يقذفُ في رُوعِ النَّبيِّ ﷺ شيئًا لا يتمارىٰ فيه أنَّه من الله ﷻ، كما جاء في «صحيح ابن حبَّان»، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ (١)» (٢).

وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلَّم موسىٰ عليه السلام، فإنَّه سأل الرُّؤية بعد التَّكليم، فحُجِب عنها.

وفي «الصَّحيح» (٣) أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا (٤)...». الحديث (٥)، وكان [أبوه] (٦) قد قُتِلَ يوم أُحُدٍ، ولكن هذا في عالَم البرزخ، والآية إنَّما هي في الدَّار الدُّنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة علىٰ الأنبياء عليهم السَّلام، ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ فهو عليٌّ عليمٌ خبيرٌ حكيمٌ.

وقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: علىٰ التَّفصيل الَّذي شرع لك في القرآن، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ -أي: القرآن- ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ -أي: يا محمَّد- ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحقُّ القويم، ثم فَسَّره بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ أي: شَرْعه الَّذي أمر به الله، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما، والمُتصرِّف فيهما، الحَاكِم الذي لا مُعقب لحكمه، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: تَرْجع الأمور، فيَفْصِلُهَا ويَحْكُم فيها.

آخر تفسير سورة «[حم] (٧) الشورى» والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لوحة (١٣٨/ ب).

(٢) صحَّحه الألباني: رواه القُضَاعي في «مسند الشهاب» (١١٥١)، ومعمر في «الجامع» (٢٠١٠٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١١٢)، وابن مردويه في «الأمالي» (٢٤)، وصححه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (١٥)، وفي «الصحيحة» (٢٨٦٦).

(٣) نسبته إلىٰ الصحيح وهم، وإنما هو عند الترمذي وابن ماجة.

(٤) أي: ليس بينهما حِجابٌ ولا رَسُولٌ.

(٥) حسن: رواه الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجة (١٩٠)، وابن حبان (٧٠٢٢)، والحاكم (٣/ ٢٢٤)، وصححه ووافقه الذهبي، والحديث تقدم في تفسير سورة آل عمران الآيات (١٦٩-١٧٥).

(٦) ليست في (ز). (٧) ليست في (ز).

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

تفسير سورة الزخرف وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: البيِّن الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنَّه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللُّغات للتخاطُبِ بين النَّاس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي:أنزلناه، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحًا واضحًا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمونَهُ وتتدبَّرونه[1]، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ [لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]، بيَّنٌ شرفه في الملأ الأعلىٰ؛ ليشرِّفه ويعظِّمه ويطيعَهُ أهل الأرض، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ -أي: القُرآن- ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾][3] أي: اللَّوح

---

(١) لوحة (١٣٩/ أ).

(٢) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: هل المراد ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: ذِكْره، أو المراد: نفس القرآن في اللوح المحفوظ؟ يحتمل أن المراد: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: ذكره، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)﴾ [الشعراء]، ومعلوم أن القرآن ليس في زُبُر الأولين، ولكن في زُبُر الأولين ذِكرُه، ولكن إذا تأمَّلنا قلنا: الأصل أن الضمير يرجع إلىٰ المُضمَر الذي دلَّ عليه؛ أي: إلىٰ نفس المُضمَر الذي دل عليه، وحينئذ يكون: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن كله في اللوح المحفوظ.

فإن قال قائل: هذا القول يرد عليه: أن في القرآن الكريم كلماتٍ تحدَّث الله بها عن شيء مضىٰ؛ مثل قوله الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارة إلىٰ غزوة أُحد، ﴿غَدَوْتَ﴾ أي: خرجت في الغداة، هذا الخبر بعد وقوع المُخبَر عنه أو قبله؟ بعد أن غدا، لأن غدا فعل ماض، فهنا يُشكِل يُقال: كيف كان في اللوح المحفوظ يتحدَّث الله عن شيء حصل قبل أن تنزل الآية؟

فيقال: لا إشكال، والجواب: أنه كتب هذا في اللوح المحفوظ لعلمه أن سيقع، ثم أنزله بعد وقوعه، كما أن الحوادث الكونية مكتوبة في اللوح المحفوظ لعلمه سبحانه أنه ستقع، ثم تكون حين يريد الله أن تكون.

(٣) سقط من (ز).

المحفوظ، قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: ذُو مكانةٍ عظيمةٍ وشرفٍ وفضلٍ، قاله قتادة. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكمٌ بريءٌ من اللَّبس والزَّيغ.

وهذا كلُّهُ تنبيهٌ علىٰ شرفِهِ وفضلِهِ، كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ -٨٠]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ -١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء رحمهم الله من هاتين الآيتين: أن المُحْدِثَ لا يَمَسُّ المصحفَ، كما ورد به الحديث -إن صحَّ-؛ لأنَّ الملائكة يعظِّمون المصاحِفَ المشتملَةَ علىٰ القرآن في الملإِ الأعلىٰ، فأهل الأرضِ بذلك أَوْلَىٰ وأَحْرَىٰ؛ لأنَّه نزل عليهم، وخطابه متوجِّه إليهم، فهُم أحقُّ أن يُقَابِلُوه بالإكرامِ والتَّعظيم، والانقياد له بالقَبول والتَّسليم؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، اختلف المفسِّرون في معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذِّبكم ولم تفعلوا ما أُمِرْتُم به؟! قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو صالح، والسُّدِّي، واختاره ابن جرير.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أنَّ هذا القرآن رُفِعَ حين رَدَّتْهُ أوائل هذه الأمَّة لَهَلَكُوا، ولكن الله عادَ بعائِدَتِهِ[1] ورَحْمَتِهِ، وكرَّرَهُ عليهم ودعاهُم إليه عشرين سنةً، أو ما شاء الله مِن ذَلِكَ.

وقول قتادة لطيفُ المعنىٰ جدًّا، وحاصله: أنَّه يقول في معناه: إنَّه تعالىٰ مِن لُطْفِه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءَهُم إلىٰ الخير والذِّكر الحكيم -وهو القرآن- وإن كانوا مُسْرِفين مُعْرِضِين عنه، بل أمَرَ به ليَهْتَدِي من قَدَّر هدَايَتَهُ، وتقوم الحجَّة علىٰ من كَتَبَ شقَاوَتَهُ.

ثم قال تعالىٰ: -مُسليًا لنبيِّه في تكذيب من كذَّبه مِن قومه، وآمرًا له بالصَّبر عليهم-: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في شِيَعِ الأوَّلين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يكذِّبونه ويَسْخَرُون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، [أي: فأهلكنا المكذِّبين بالرُّسُل، وقد كانوا أشدَّ بطشًا][2] من هؤلاء المكذِّبين لك يا محمَّد. كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ[3] وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢]، والآيات في ذلك كثيرةٌ.

وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، قال مجاهد: سنتهم، وقال قتادة: عقوبتهم، وقال غيرهما: عبرتهم؛ أي: جعلناهم عبرةً لمن بعدهم من المكذِّبين أن يُصِيبَهُم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى

(١) أي: بفضله. (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٣) لوحة (١٣٩/ ب).

عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

يقول تعالىٰ: ولَئِنْ سألت -يا محمَّد- هؤلاء المشركِينَ بالله العابِدِينَ معه غيره: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أي: ليعترفُنَّ بأنَّ الخالق لِذَلِكَ هو الله تعالىٰ وحدَهُ لا شريك له، وهم مَعَ هذا يعبدُون معه غيرَهُ مِن الأصنام والأَنْدَادِ.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، أي: فراشًا قرارًا ثابتةً، يسيرُون عليها ويقُومُون وينامُون وينصرفون، مع أنَّها مخلوقةٌ علىٰ تيَّار الماءِ، لكنَّه أرساها بالجبال لئلَّا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ أي: طرقًا بين الجبال والأودية ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، أي: في سيركم من بلدٍ إلىٰ بلدٍ، وقُطْرٍ إلىٰ قُطْرٍ، وإقليم إلىٰ إقليم.

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ أي: بحسب الكفايَةِ لزُرُوعِكُم وثِمَارِكُم وشُرْبِكُم، لأنفسِكُم ولأنعامِكُم، وقوله: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ أي: أرضًا ميتةً، فلمَّا جاءها الماءُ اهْتَزَّت وربَتْ، وأَنْبَتَتْ مِن كلِّ زوجٍ بهيجٍ، ثم نبَّه بإحياءِ الأرضِ علىٰ إحياءِ الأجساد يومَ المَعَادِ بعد مَوْتِهَا، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تُنْبِتُ الأرضُ مِن سائر الأصناف، مِن نباتٍ وزُرُوعٍ وثمارٍ وأزاهيرَ، وغير ذلك، أي: مِن الحيوانات علىٰ اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: السفن، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ أي: ذَلَّلها لكم وسخَّرها ويسَّرها لأَكْلِكُم لحومها، وشُرْبِكُم ألبانَها، ورُكُوبِكُم ظهورها؛ ولهذا قال[1]: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستووا مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِقِين[2][3]، ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: علىٰ ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾ أي: فيما سخَّر لكم، ﴿إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مقاومين، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد: ﴿مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مُطِيقِينَ. ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾

---

(١) لوحة (١٤٠/ أ). (٢) ارتفق القوم: صاروا رفقاء، يعني: أنهم يركبونها مترافقين في سفرهم.

(٣) في (ز): «واقفين».

أي: لصائرون إليه بعد مَمَاتِنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التَّنبيهِ بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبَّه بالزَّاد الدُّنيَوِيِّ على [الزاد][1] الأخروي في قوله: [﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللِّباس الدُّنيَوِيِّ على الأخرَوِيِّ في قوله تعالى][2]: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ذِكْر الأحاديث الواردة عند ركوب الدَّابَّة

حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا شَرِيك بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن علي بن ربيعة قال: رأيتُ عليًّا رضي الله عنه أُتِيَ بدابَّة، فلما وضع رجله في الرِّكاب قال: باسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثمَّ حَمِدَ الله ثلاثًا، وكبَّر ثلاثًا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أَنْتَ، قد ظلمتُ نفسِي فاغفر لي، ثم ضَحِكَ فقلت له: مِن أيِّ شيءٍ ضَحِكْتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك، فقلت: مِمَ ضَحِكْتَ يا رسول الله؟ فقال: «**يَعْجَبُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَيَقُولُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**»[3].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث أبي الأَحْوَص -زاد النسائي: ومنصور- عن أبي إسحاق السَّبِيعي، عن علي بن ربيعة الأسدي الوالبي به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وقد قال عبدالرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن شُعبة: قلت لأبي إسحاق السَّبِيعي: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: مِن يونس بن خَبَّاب. فلقيت يونس بن خبَّاب فقلت: ممَّن سمعته؟ فقال: مِن رجل سَمِعَه مِن عليِّ بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شَقِيق بن عُقبة الأسدي، عن علي بن ربيعة الوالبي به.

حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو المُغيرة، حدَّثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن[4] أبي طلحة، عن عبد الله بن عبَّاس؛ أن رسول الله ﷺ أَرْدَفَهُ على دابَّتِهِ، فلمَّا استوى عليها كبَّر رسول الله ﷺ ثلاثًا، وحَمِدَ الله ثلاثًا، وسبَّح ثلاثًا، وهلَّل الله واحدةً، ثم استلقى عليه فضَحِك، ثم أقبل عليه فقال: «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَرْكَبُ دَابَّةً فَيَصْنَعُ كَمَا صَنَعْتُ، إِلَّا أَقْبَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، فَضَحِكَ إِلَيْهِ كَمَا ضَحِكْتُ إِلَيْكَ**». تفرَّد به أحمد[5].

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو كامل، حدَّثنا حمَّاد بن سَلَمة، عن أبي الزُّبير، عن علي بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا رَكِبَ راحلته كبَّر

---

(١) ليست في (ز). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) **صحَّحه الألباني**: رواه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، وأحمد (١/ ٩٧).

(٤) لوحة (١٤٠/ ب).

(٥) **ضعيف**: رواه أحمد (١/ ٣٣١)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٨١٥).

ثلاثًا، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ فِي سَفَرِي هَذَا البِرَّ وَالتَّقوَىٰ، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَاطْوِ لَنَا البَعِيدَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا». وكان إذا رجع إلىٰ أهله قال: «آيِبُونَ تَائِبُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»(١).

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جُرَيْج، والتِّرمذي من حديث حماد ابن سلمة، كلاهما عن أبي الزبير به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن عُبيد، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن إبراهيم، عن عمرو بن الحَكَم بن ثَوْبَان، عن أبي لَاسٍ الخُزَاعِي قال: حَمَلَنا رسول الله ﷺ علىٰ إبلٍ من إبل الصَّدقة إلىٰ الحجِّ. فقلنا: يا رسول الله، ما نرىٰ أن تحملنا هذه! فقال: «مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا فِي ذُرْوَتِهِ شَيْطَانٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا إِذَا رَكِبْتُمُوهَا كَمَا آمُرُكُمْ، ثُمَّ امْتَهِنُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ ﷻ»(٢). أبو لاس اسمه: محمَّد بن الأسود بن خَلَف.

حديثٌ آخر في معناه: قال أحمد: حدَّثنا عَتَّاب، أخبرنا عبد الله وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمَّد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «عَلَىٰ ظَهْرِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ، فَإِنْ رَكِبْتُمُوهَا فَسَمُّوا اللهَ ﷻ ثُمَّ لَا تُقَصِّرُوا عَنْ حَاجَاتِكُمْ»(٣).

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا(٤) بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين فيما افْتَرَوْهُ وكذَّبُوه في جعلهم بعض الأنعام لطَوَاغِيتِهم وبعضَهَا لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا

---

(١) مسلم (١٣٤٢)، وأبو داود (٢٥٩٩)، والترمذي (٣٤٤٧)، وأحمد (٢/ ١٤٤).

(٢) حسن صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٢١)، ورجاله ثقات، ولا يضرُّ عنعنة أبي إسحاق؛ فقد صرَّح بالسَّماع كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٢٤)، وحسَّنه الألباني وصحَّحه لشَاهِدِهِ الآتي، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١١٣).

(٣) حسن صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٩٤)، وإسنادُهُ لا بأسَ به، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١١٤).

(٤) لوحة (١٤١/ أ).

كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قِسْمَي البنات والبنين أخسَّهما وأردأَهُما وهو البنات، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

ثم قال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾، وهذا إنكارٌ عليهم غايةَ الإنكارِ، ثم ذكر تمامَ الإنكارِ فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أي: إذا بُشِّر أحدُ هؤلاء بما جعلُوهُ لله من البنَاتِ يأنفُ مِن ذلك غايَةَ الأنفةِ، وتعلُوهُ كآبةٌ من سوءِ ما بُشِّرِ به، ويتوارَىٰ من القوم مِن خَجَلِهِ مِن ذلك، يقول تعالىٰ: فكَيْفَ تأنفون أنتم مِن ذلك، وتنسُبُونه إلىٰ الله ﷻ؟!

ثم قال: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾، أي: المرأة ناقصةٌ يكمل نقصها بلُبْسِ الحليِّ منذ تكون طفلةً، [وإذا خاصمت فلا عبارَةَ لها](١)، بل هي عاجزةٌ عَيِيَّةٌ، أَوَ مَنْ يكون هكذا يُنْسَب إلىٰ جناب الله ﷻ؟! فالأُنْثَىٰ ناقصةُ الظَّاهر والباطن، في الصُّورة والمعنىٰ، فيكمل نقصَ ظاهِرِهَا وصورتها بلبس الحُليِّ وما في معناه؛ ليجبر ما فيها مِن نقصٍ، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْيُ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيصَةٍ ... يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الحُسْنُ قَصَّرَا

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الجَمَالُ مُوَفَّرًا ... كَحُسْنِكِ، لَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ أَنْ يُزَوَّرَا

وأمَّا نقص معناها، فإنَّها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصارِ عند الانتصارِ، لا عبارةَ لها(٢) ولا همَّة، كما قال بعض العرَبِ وقد بشِّر ببنت: «ما هِيَ بِنِعْمَ الولد: نصرها بالبُكَاء، وبِرُّهَا سَرِقة»(٣).

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ أي: اعتقدُوا فيهم ذَلِك، فأنكر عليهم تعالىٰ قولهم ذلك، فقال: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾؟ أي: شاهدوه وقد خَلقَهُم الله إناثًا؟ ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ ﴾ -أي: بذلك- ﴿ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ﴾ أي: لو أراد الله لحالَ بَيْنَنَا وبينَ عبادَةِ هذه الأصنام، التي هي علىٰ صُوَرِ الملائكة التي هي بَنَاتُ الله، فإنَّه عالمٌ بذلك وهو يقرِّرُنا عليه، فجمعوا بين أنواعٍ كثيرةٍ من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدًا، -تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

الثَّاني: دعواهم أنَّه اصطفىٰ البناتِ علىٰ البَنِينَ، فجعلوا الملائكة الَّذِين هم عباد الرَّحمن إناثًا.

الثَّالث: عبادتُهُم لهم -مع ذَلِكَ كله-، بلا دليلٍ ولا برهانٍ، ولا إذنٍ من الله ﷻ، بل بمجرَّد الآراءِ والأهواء، والتَّقليد للأسلاف والكُبَرَاء والآباء، والخَبْطِ في الجاهليَّة الجَهْلاء.

الرَّابع: احتجاجهم بتقريرِهِم علىٰ ذلك قَدَرًا، [والحُجَّة إنَّما تكون بالشَّرع](٤)، وقد جهلوا في

---

(١) في (ز): «وإذا حاضت فلا عبادة لها».
(٢) لوحة (١٤١/ ب).
(٣) في (ز): «نصرُهَا بكاءٌ، وبرُّها تسرِقُهُ».
(٤) ليست في (ز).

هذا الاحتجاج جهلًا كبيرًا(١)؛ [فإنَّه تعالىٰ قد أنكر ذلك عليهم أشدَّ الإنكار، فإنَّه منذ بَعَثَ الرُّسلَ](٢)، وأنزل الكُتُبَ يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهىٰ عن عبادة ما سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال في هذه الآية -بعد أن ذكر حُجَّتَهُم هذه-: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بصحَّة ما قالوه واحتجُّوا به، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَكْذِبون ويتقَوَّلون.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي ما: يعلمون قُدْرَة الله علىٰ ذَلِكَ.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا(٣) قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين في عِبادَتِهم غير الله بلا برهانٍ ولا دليل ولا حجَّةٍ: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾، [أي: من قبل شِرْكِهم](٤)، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أيْ: فيما هم فيه؛ أي: ليس الأمرُ كَذَلِكَ، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، أي: لم يكُن ذَلِكَ.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: لَيْسَ لهم مستندٌ فيما هُم فيه من الشِّرك سِوَىٰ تقليد الآباء والأَجْداد، بأنَّهم كانوا علىٰ أُمَّةٍ، والمراد بها: الدِّين -هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]-.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أي: ورائهم، ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعْوَىٰ منهم بلا دليل.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ مقالة هؤلاء قد سَبَقَهُم إليها أشباهُهُم ونُظراؤُهُم من الأُمَم السَّالفة المُكذِّبة للرُّسُل، تشابهتْ قُلُوبُهُم، فقالوا مثل مقالَتِهِم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) ذكر ابن القيم في «شفاء العليل» طائفة من الردود علىٰ من احتج بالقدر علىٰ المعاصي والشرك وغيرها، وبين أن حجتهم داحضة، وهي حجة سلفهم إبليس -لعنه الله-. فليراجع كلامه، وراجع كذلك: «شرح القصيدة التائية» للعلامة السعدي -رحم الله الجميع-.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) لوحة (١٤٢/ أ).

(٤) سقط من (ز).

ثم قال تعالىٰ: قُل -أي: يا محمَّد- لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: ولو علموا وتيقَّنُوا صحَّة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسُوءِ قصدِهِم ومكابرَتِهم للحقِّ وأهله.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المُكذِّبة بأنواعٍ مِن العذاب، كما فَصَّله تعالىٰ في قصصهم، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؟ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجَّىٰ الله المؤمنين؟.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ(١) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ(٢) نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ إمامِ الحُنفَاءِ، ووالدُ مَن بُعِثَ بعدَهُ مِن الأنبياء، الَّذي تنتسب إليه قريشُ فِي نَسَبِهَا ومذهبِها: أنه تبرأ مِن أبيهِ وقومِهِ في عبادَتِهِم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، أي: هذه الكَلِمَة، وهي: عبادة الله تعالىٰ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وخَلْع ما سِوَاهُ من الأوثان، وهي: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، أي: جعلها دائمةً في ذرِّيَّته يقتدِي به فيها مَن هداه الله من ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضَّحَّاكُ، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، يعني: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لا يزال في ذُرِّيَّتِهِ مَن يقولها. ورُوِيَ نحوه عن ابن عبَّاس.

وقال ابن زيد: كلمةُ الإسلام. وهو يَرْجع إلىٰ ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ﴾ -يعني: المشركين- ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾، أي: فتطَاوَلَ عليهم العُمُرُ في ضَلَالِهِم، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّن الرِّسَالَةِ والنِّذَارَةِ.

---

(١) قال أبو بكر الجزائري رحمه الله: لفظ العقب الوارد في الآية وفي الحديث الصحيح: «من أُعْمِر عُمرىٰ فهي له ولعقبه فإنها للذي أُعطِيَها لا ترجع إلىٰ الذي أعطاها لأنه أعطىٰ عطاء وقعت فيه المواريث» قال ابن العربي: ترد هذه اللفظة علىٰ أحدَ عَشَر لَفظًا وهي الولد والبنون والذرية والعقب والنسل والآل والقرابة والعشيرة والقوم والموالي.

(٢) لوحة (١٤٢/ ب).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: كابَرُوهُ وعانَدُوهُ، [ودفعُوا][١] بالصُّدُور[٢] والرَّاح[٣] كُفرًا وحسدًا وبغيًا، ﴿وَقَالُوا﴾ -كالمعترضين علىٰ الَّذِي أنزله تعالىٰ وتقدَّس-: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ، أي: هلَّا كان إنزالُ هذا القُرآنِ علىٰ رجلٍ عظيمٍ كبيرٍ في أعينِهم مِنَ القَرْيَتَيْنِ؟ يعنُونَ: مكَّة والطَّائف. قاله ابن عبَّاس، وعكرمة، ومحمَّد بن كَعْبٍ القُرَظِي، وقتادة والسُّدِّي، وابن زيد.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ منهُم، أنَّهم أرادُوا بذَلِكَ: الوليد بن المغيرة، وعُرْوَةَ بن مسعود الثَّقفي.

وقال مالكٌ: عن زَيْدِ بن أسلم، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفي[٤].

وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثَّقفي، وعنه أيضًا: أنَّهم يعنون: عتبة بن ربيعة، وعن ابن عبَّاس: جبَّار مِن جبابِرَةِ قريشٍ، وعنه أنَّهم يعنون: الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثَّقفي.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد يا ليل بالطائف.

وقال السُّدِّي: عنوا [بذلك][٥] الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثَّقفي.

والظَّاهر: أنَّ مرادهم رجلٌ كبيرٌ مِن أيِّ البلدتين كان.

قال الله تعالىٰ رادًّا عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أي: ليس الأمر مردودًا إليهم، بل إلىٰ الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنَّه لا ينزلها إلا علىٰ أزكىٰ الخلق قلبًا ونفسًا[٦]، وأشرفهم بيتًا وأطهرهم أصلًا.

ثم قال تعالىٰ مبينًا أنَّه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهُم من الأموال والأرزاق والعقول والفُهُوم، وغير ذلك من القُوَىٰ الظَّاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ، قيل: معناه ليُسَخِّر بعضُهُم بعضا في الأعمال؛ لاحتياج هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا، قاله السُّدِّي وغيره.

وقال قتادة والضَّحَّاكُ: ليملك بعضهم بعضًا، وهو راجعٌ إلىٰ الأوَّل.

ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ، أي: رحمة الله بخلقِهِ خيرٌ لهم ممَّا بأيديهم مِن الأموال ومتاع الحياة الدُّنيا.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، أي: لولا أن يعتقد كثيرٌ مِن النَّاس الجهلة أنَّ إعطاءنا المالَ دليلٌ[٧] علىٰ محبَّتِنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا علىٰ الكفر لأجلِ المالِ -هذا معنىٰ

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «بالصَّدر والرَّاح». (٣) أي: الأكُف.
(٤) لوحة (١٤٣/ أ). (٥) ليست في (ز). (٦) في (ز): «يقينًا». (٧) في (ز): «قليل».

قول ابن عبَّاس، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم- ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: سلالم ودرجًا من فضَّةٍ، -قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّي: وابن زيد، وغيرهم، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: يصعدون.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أي: أغلاقًا على أبوابهم، ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾؛ أي: جميع ذلك يكون فضةً، ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ أي: وذهبًا، قاله ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد.

ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [أي: إنَّما ذلك مِن الدنيا][(١)] الفانية الزَّائلة الحقيرة عند الله تعالىٰ؛ أي: يعجل لهم[(٢)] بحسناتهم التي يعمَلُونَها في الدُّنيا مآكِلَ ومشَارِبَ، ليُوَافُوا الآخرة وليس لهم عندَ الله حسنةٌ يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح. وقد ورد في حديث آخر: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَىٰ مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ»[(٣)]، أسنده البغوي من رواية زكريا بن مَنْظُور، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره، ورواه الطبراني من طريق زَمْعَةَ بن صالح، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النَّبيِّ ﷺ: «لَوْ عَدَلَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا أَعْطَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَيْئًا»[(٤)].

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصَّة لا يُشَارِكُهُم فيها أحدٌ غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعِدَ إليه في تلك المَشْرَبة لما آلىٰ مِن نسائِهِ، فرآه عمر علىٰ رمالِ حصيرٍ قد أثَّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبُكَاء وقال: يا رسول الله، هذا كِسْرَىٰ وقَيْصَر -فيما هُمَا فيه-، وأنت صفوةُ الله مِن خلقه، وكان رسول الله ﷺ مُتَّكِئًا فجلس وقال: «أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟»، ثم قال: «أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا»، وفي رواية: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟»[(٥)].

وفي «الصَّحيحين» أيضًا وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ»[(٦)]. وإنَّما خَوَّلَهم اللهُ تعالىٰ في الدنيا لحقارتها[(٧)]، كما روىٰ التِّرمذي وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَىٰ مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ أَبَدًا»، قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ[(٨)].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (١٤٣/ ب).
(٣) حسنٌ لشواهِدِه: تقدم. انظر تفسير الآية (٢٦) من سورة البقرة.
(٤) انظر التعليق السابق.
(٥) البخاري (٨٩) و(٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).
(٦) البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).
(٧) في (ز): «لحقارتها في الدنيا».
(٨) تقدم قريبًا.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(١) ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ(٢) مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامَىٰ ويتغافَلُ ويعرض، ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والعَشَا في العين: ضعفُ بَصَرِهَا، والمراد هاهنا: عشا البَصِيرَة، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾، أي: هذا الَّذي تَغَافَلَ عن الهدىٰ نُقَيِّضُ له من الشَّياطين مَن يُضِلُّه، ويهديه إلىٰ صراط الجحيم، فإذَا وَافَىٰ الله يوم القيامة يَتبرَّم بالشَّيطان الَّذي وُكِّل به، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، [أي: فبئس القرين كُنتَ لي في الدُّنيا](٣). وقرأ بعضهم: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا»(٤) يعني: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجُرَيري قال: بلغنا أنَّ الكافر إذا بُعِثَ مِن قبره يومَ القيامة سَفَع(٥) بيدِهِ شيطانٌ فلم يُفَارِقْهُ، حتىٰ يُصَيِّرَهُمَا الله تعالىٰ إلىٰ النَّار، فذلك حين يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾(٦).

---

(١) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ووجه ذلك: أنه جرت العادة أن الإنسان إذا عُذِّب ورأىٰ غيره يعذَّب هان عليه الأمر وتسلَّىٰ، في يوم القيامة يشترك أهل النار في العذاب، لكن هل ينفعهم هذا شيئًا؟ لا ينفعهم.

(٢) لوحة (١٤٤/ أ). (٣) ليست في (ز).

(٤) متواترة: قَرَأَ (جَاءَانَا) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَشُعْبَةُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (جَاءَنَا).

(٥) أي: أخذ بيده.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٩٦)، ورواه الطبري (٢٤/ ٧٤)، وهو موقوف علىٰ الجُريري، ويحتاج لثبوته إسناده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

والمراد بالمَشْرِقَيْنِ هنا هو ما بين المشرق والمغرب، وإنَّما استعمل هاهنا تغليبًا، كما يقال: القمران، والعُمَرَان، والأبوان، [والعسران][(١)] . قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسليةٌ لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخَنْسَاء تَبكي أخاها:

وَلَــوْلَا كَثْــرَةُ البَــاكِينَ حَــوْلِي ... عَلَــىٰ قَــتْلَاهُمُ لَقَتَلْــتُ نَفْــسِي

وَمَــا يَبْكُــونَ مِثْــلَ أَخِــي وَلَكِــنْ ... أُسَــلِّي الــنَّفْسَ عَنْــهُ بِالتَّأَسِّــي

قطع الله بذلك بين أهل النَّار، فلا يحصل لهم بذلك تأسٍّ وتسلية ولا تخفيف][(٢)] .

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾، أي: لا يُغْنِي عنكم اجتماعكم في النَّار واشتراككم في العذاب الأليم.

وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: ليس ذلك إليك، إنَّما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكنَّ الله يَهْدِي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك.

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾، أي: لا بدَّ أن ننتقِمَ منهم ونُعَاقِبَهُمْ، ولو ذَهَبْتَ أنتَ، ﴿ أَوْ[(٣)] نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ[(٤)] فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾، أي: نحن قَادِرُونَ علىٰ هذا، وعلىٰ هذا. ولم يقبض الله رسوله حتىٰ أقرَّ عينه من أعدائِهِ، وحكَّمه في نواصيهم، وملَّكه ما تضمنته صَيَاصِيهِم[(٥)]، هذا معنىٰ قول السُّدِّي، واختاره ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن ثَوْر، عن مَعْمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾، فقال: ذهب النَّبيُّ ﷺ وبقيت النِّقمة، ولم يُرِ الله نبيَّه ﷺ في أمَّته شيئًا يكرهه حتىٰ مضىٰ، ولم يكن نبيٌّ قطُّ إلَّا ورأىٰ العقوبةَ في أُمَّتِهِ، إلا نبيكم ﷺ، قال: وذُكر لنا أنَّ رسول الله ﷺ أُرِيَ ما يُصيب أُمَّته [من][(٦)] بعده، فما رُئِي ضاحكًا مُنبسطًا حتىٰ قبضه الله ﷻ[(٧)] .

وذكر من رواية سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة نحوه، ثم روىٰ ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضًا.

وفي الحديث: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ[(٨)]، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَىٰ السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ»[(٩)][(١٠)] .

---

(١) ليست في (ز). (٢) ما بين المعقوفتين ليست في (ز). (٣) في (ز): «وإمَّا». وهو خطأ.

(٤) لوحة (١٤٤/ ب). (٥) أي: حصونهم. (٦) سقط من (ز)، والرِّواية في «الطبري» بدونها.

(٧) مرسل: رواه الطبري (٢٤/ ٧٥)، وإسناده مرسل، فالحديثُ غيرُ صحيحٍ، ورواه الحاكم (٢/ ٤٤٧) موصولًا من حديث أنس، وفيه عنعنة قتادة.

(٨) في (ز): «أَمَنَةٌ مِنَ السَّمَاءِ»، وهذا مخالف لما في «الصحيح». (٩) مسلم (٢٥٣١).

(١٠) معنىٰ الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء =

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: خُذ بالقرآن المنزَّل علىٰ قلبك، فإنَّه هو الحقُّ، وما يَهْدِي إليه هو الحق المُفْضِي إلىٰ صراط الله المستقيم، المُوصِل إلىٰ جنَّات النَّعيم، والخير الدَّائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، قيل: معناه لشَرَفٌ لك ولِقَوْمِك، قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد، واختاره ابن جرير، ولم يَحْكِ سواه.

وأورد البغوي هاهنا حديث الزهري، عن محمَّد بن جُبير بن مُطْعِم، عن مُعاوية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا أَكَبَّهُ اللهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ». رواه البخاري[1].

وقيل معناه: إنَّه شرفٌ لهم مِن حيث إنَّه أُنزِل بلُغَتِهم، فهُم أفْهَمُ النَّاس له، فينبغي أن يكونوا أقوَمَ النَّاس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السَّابقين الأولين، ومَن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، أي: لتذكيرٌ لك ولقومك، وتخصيصهم بالذِّكر[2] لا ينفي مَن سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن، وكيف كُنْتُم في العمل به والاستجابة له.

وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[3]؟ أي: جميع الرُّسُل دَعَوْا إلىٰ ما دعوتَ النَّاس إليه من عبادةِ الله وحده لا شريك له، ونَهَوْا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأَلِ الذين أرسلنا إليهم قبلك رُسلنا»[4]. وهكذا حكاه قتادة، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، عن ابن مسعود، وهذا كأنَّه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإنَّ الأنبياء جُمِعوا له، واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

= فانفطرت وانشقت وذهبت، وقوله ﷺ: «وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتىٰ أصحابي ما يوعدون»، أي: من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك. قوله ﷺ: «وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتىٰ أمتي ما يوعدون»، معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ. «شرح مسلم» للنووي: (١٦/ ٨٣).

(١) البخاري (٣٥٠٠)، والبغوي (١٨٨٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥/ ٨٧٥٠). (٢) لوحة (١٤٥/ أ).

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: فإن قال قائل: كيف يسأل من أرسل الله من الرسل وهو لم يُدرِكهم؟

فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية، والمعنىٰ: إنك إن تسأل -علىٰ الفرض والتقدير- فلن تُجَبْ بـ(نعم)، بل سيكون الجواب: لا، فهو من باب التحدِّي لهؤلاء المشركين الذي يدَّعون أنهم علىٰ حق.

(٤) قراءة: قَرَأَ (وَاسْأَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عبده ورسوله موسىٰ عليه السلام أنَّه ابتعثه إلىٰ فرعون وملئِهِ من الأمراء والوُزَراء والقادة، والأتباع والرَّعايا، من القِبْطِ وبني إسرائيل، يدعوهم إلىٰ عبادَةِ الله وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وينهاهُم عن عبادة ما سِوَاه، وأنَّه بعثَ معه آياتٍ عظامًا -كيَدِهِ وعَصَاهُ، وما أرسل مَعَه من الطُّوفان والجرادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّم، ومِن نقص الزُّروع والأنفس والثَّمرات-، ومع هذا كله استكبروا عن اتِّباعها والانقياد لها، وكذَّبوها وسَخِرُوا منها، وضَحِكُوا ممَّن جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غَيِّهِم وضلالهم، وجَهْلِهِم وخبالهم، وكلَّما جاءتهم آيةٌ مِن هذه الآياتِ يضَّرَّعون إلىٰ موسىٰ عليه السلام ويتلطَّفُون له في العِبارَةِ بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾، أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماءُ زمَانِهِم هم السَّحرة، ولم يكن السِّحْرُ عندهم[1] في زمَانِهِم مذمومًا، فليسَ هذا منهم علىٰ سبيلِ الانتقاصِ منهم؛ لأنَّ الحال حال ضرورةٍ منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنَّما هو تعظيمٌ في زعمهم، ففي كل مرةٍ يَعِدُون موسىٰ عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويُرْسِلُوا معه بني إسرائيل، وفي كل مَرَّةٍ ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فرعون وتمرُّدِهِ وعتوِّه وكفرِهِ وعنادِهِ: أنَّه جمع قومَهُ، فنادىٰ فيهم

(١) لوحة (١٤٥/ ب).

متبجِّحًا مفتخرًا بمُلْكِ مصرَ وتصرُّفِهِ فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنانٌ وأنهارُ ماءٍ، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترَوْنَ ما أنا فيه من العَظَمَةِ والملك؟! يعني: وموسىٰ وأتباعه فقرَاء ضعفَاء، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأٓخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، قال السُّدِّي: يقول: بل أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نُحاة البَصْرة: إن «أم» هاهنا بمعنىٰ «بل». ويؤيِّد هذا ما حكاه الفرَّاء عن بعض القرَّاء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذي هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحًا واضحًا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾؟ -علىٰ الاستفهام-.

قلت: وعلىٰ كلِّ تقديرٍ فإنما يعني[(١)] فرعون -عليه اللعنة- أنَّه خيرٌ من موسىٰ عليه السلام، وقد كَذَبَ في قوله هذا كذبًا بينًا واضحًا، فعليه لعائنُ الله المتتابعة إلىٰ يومِ القيامة.

ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ -كما قال سفيان-: حقيرٌ.

وقال قتادة والسُّدِّي: يعني ضعيف.

وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مالَ.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، يعني: لا يكاد يُفْصِح عن كلامه، فهو عَيِيٌّ حصر.

قال السُّدِّي: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسُّدِّي، وابن جرير: يعني عيي اللِّسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيءٌ من الجَمْرة حين وضَعَهَا في فِيهِ وهو صغيرٌ.

وهذا الذي قاله فرعون -لعنه الله- كذبٌ واختلاقٌ، وإنَّما حمله علىٰ هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلىٰ موسىٰ عليه السلام بعينِ كافرةٍ شقيَّةٍ، وقد كان موسىٰ عليه السلام من الجَلَالَةِ والعظمةِ والبَهَاءِ في صورةٍ يَبْهَرُ أبصار ذَوِي الألباب. وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كَذب، بل هو المهين الحقير خِلْقةً وخُلُقًا ودينًا. وموسىٰ عليه السلام هو الشريفُ الرَّئيسُ الصَّادقُ البارُّ الرَّاشدُ. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراءٌ أيضًا، فإنَّه وإن كان قد أصاب لسانَهُ في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عز وجل أن يحُلَّ عقدةً من لسانِهِ ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في [ذلك][(٢)] في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقىٰ شيءٌ لم يسأل إزالَتَهُ، كما قاله الحسن البصري، وإنَّما سأل زوالَ ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخِلْقيَّة التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يُذَمُّ عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنَّما أراد التَّرويج علىٰ رعيَّتِهِ، فإنَّهم كانوا

---

(١) لوحة (١٤٦/ أ). (٢) ليست في (ز).

جهلةً أغبياء، وهكذا كقوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ -أي: وهي ما يجعل في الأيدي من الحُلِيّ، قاله ابن عبَّاسٍ وقتادة وغير واحدٍ-، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، أي: يكتنفونه خدمةً له ويشهدون بتَصْدِيقِه، نظر إلىٰ الشَّكل الظَّاهر، ولم يفهم السِّر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم، فدعاهُم إلىٰ الضَّلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ (١) فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أسخطونا.

وقال الضَّحَّاكُ، عنه: أغضبونا، وهكذا قال ابن عبَّاس أيضًا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمَّد بن كعبٍ القرظي، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم من المفسِّرين.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وَهْب، حدَّثنا عَمِّي، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، عن عُقبة بن مُسلم التُّجِيبي، عن عُقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ ﷻ يُعْطِي العَبْدَ مَا شَاءَ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ [لَهُ]»(٢)، ثم تلا ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣).

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدَّثنا قَيْس بن الربيع، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذُكِر عندهُ موتُ الفَجْأَةِ، فقال: تخفيفٌ علىٰ المؤمن، وحسرةٌ علىٰ الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز ﵀: وَجَدْتُ النِّقمة مع الغَفْلَةِ، يعني قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾، قال أبو مِجْلَز: ﴿سَلَفًا﴾ لِمِثْل مَن عَمِلَ بِعَمَلِهِم.

وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرةً لمن بعدهم.

---

(١) لوحة (١٤٦/ ب).

(٢) سقط من (ز)، وهي ثابتة عند «ابن أبي حاتم».

(٣) حسن صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥١٠)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، لكن الراوي عنه عبد الله بن وهب، وروايته عنه صحيحةٌ، وله طريقٌ أخرىٰ: رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، وفيه رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف. انظر: «الصحيحة» للألباني (٤١٣).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥١٣) وفيه يحيىٰ الحِمَّاني: حافظ إلَّا أنَّهم اتَّهموه بسرقة الحديث، وقيس بن الربيع: صدوق إلَّا أنَّه تغيَّر لما كَبِرَ، وأَدْخَلَ عليه ابنه ما لَيْسَ مِن حديثه فحدَّث به.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن تعَنُّتِ قريش في كفرهم وتعمُّدِهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قال غير واحدٍ، عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّي: يَضْحَكُون، [أي: أعجبوا بذلك.

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون][(١)]. وقال إبراهيم النَّخَعي: يعرضون[(٢)].

وكان السبب في ذلك ما ذكره محمَّد بن إسحاق في «السيرة» حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ -فيما بلغني- يومًا مع الوليد بن المُغيرة في المسجد، فجاء النَّضْر بن الحارث حتىٰ جلس معهم، وفي المجلس غيرُ واحدٍ مِن رجال قريش، فتكلَّم رسول الله ﷺ، فعرض له النَّضر بن الحارث، فكلَّمه رسول الله ﷺ حتىٰ أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾. الآيات [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ التَّميمي حتىٰ جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النَّضر بن الحارث لابْنِ عبد المطَّلب وما قعد، وقد زعم محمَّدٌ أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جهنَّم، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ: أما والله لو وَجَدْتُهُ لَخصَمْتُه، سلوا محمَّدًا: أكُلُّ ما يُعْبَدُ مِن دون الله في جهنَّم مع مَن عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزَيْرًا، والنصارىٰ تعبد المَسِيح [عيسىٰ][(٣)] ابن مريم؟! فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرىٰ، ورأوا أنَّه قد احتج وخاصم، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ[(٤)] أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ». فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أي: عِيسَىٰ وعُزَيْر ومن عُبِدَ [معهما][(٥)] من الأَحْبَار والرُّهبان الَّذِين مَضَوا علىٰ طاعة الله ﷻ فاتَّخذهم مَن يعبدهم من أهل الضَّلالة

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) لوحة (١٤٧/ أ). (٣) ليست في (ز).
(٤) في (ز): «من أراد». والمثبت موافق لما في «الطبري». (٥) سقط من (ز).

أربابًا مِن دون الله. ونزل فيما يذكرون أنَّهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾. الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسىٰ وأنَّه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومَن حضره مِن حُجَّتِهِ وخصومته، ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكَرَ عيسىٰ فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾، أي: ما وضعت(١) علىٰ يديه من الآيات من إحياءِ الموتىٰ وإبراء الأسقام، فكفىٰ به دليلًا علىٰ عِلْمِ السَّاعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(٢).

وذكر ابن جرير من رواية العَوفي، عن ابن عبَّاسٍ قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قال: يعني قريشًا، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، إلىٰ آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبدُ اللهِ ورسولُهُ». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربًّا، كما اتخذت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم ربًّا، فقال الله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا شَيْبَان، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي رَزِينٍ، عن أبي يحيىٰ -مولىٰ ابن عَقِيل الأنصاري- قال: قال ابن عبَّاس: لقد علمتُ آيةً من القُرْآن ما سألَني عنها رجلٌ قطُّ، فما أدري أعلمها النَّاس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها؟ قال: ثم طَفِقَ يحدِّثنا، فلمَّا قام تلاوَمْنَا ألا نكون سألناه، عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدًا، فلما راحَ الغد قلت: يا ابن عبَّاس، ذكرت أمس أنَّ آيةً من القرآن لم يسألك عنها رجلٌ قط، فلا تدري أَعَلِمَهَا الناس أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللَّاتي قرأت قبلها، قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريشٍ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِيهِ خَيْرٌ**»، وقد عَلِمَتْ قريش أن النَّصارىٰ تعبد عيسىٰ ابن مريم، وما تقول في محمَّد ﷺ، فقالوا: يا محمَّد، ألستَ تزعم أن عيسىٰ كان نبيًّا وعبدًا من عباد الله صالحًا؟ فإن كنت صادقًا كان آلهتهم كما تقولون قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. [قلت: ما يَصِدون؟](٤) قال: يضحكون(٥)، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسىٰ ابن مريم قبل القيامة(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن يعقوب الدمشقي، حدَّثنا آدم، حدَّثنا شَيْبَان، عن عاصم بن أبي

---

(١) لوحة (١٤٧/ ب). (٢) انظر تفسير سورة الأنبياء الآية (١٠٤).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٢٥/ ٨٦)، وفيه عطية العَوْفي: ضعيف متَّهم.

(٤) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «المسند». (٥) في «المسند»: «يضجون».

(٦) حسن: رواه أحمد (١/ ٣١٧)، وابن أبي حاتم (١٨٥١٤)، وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، فإنَّه حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات.

النَّجُودِ، عن أبي أحمد مولى الأنصار[(١)]، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِيهِ خَيْرٌ». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسىٰ كان نبيًّا وعبدًا من عباد الله صالحًا، فقد كان[(٢)] يُعبد من دون الله؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[(٣)].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قالت قريش: إنما يريد مُحمَّدٌ أن نعبده كمَا عَبَد قوم عيسىٰ [عيسىٰ][(٤)]، ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، قال قتادة: يقولون: آلهتنا خيرٌ منه، وقال قتادة: قرأ ابن مسعودٍ: «وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هذا»[(٥)]، يعنون محمَّدًا ﷺ.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: مراءً، وهم يعلمون أنه ليس بوارد علىٰ الآية؛ لأنها لِمَا لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هي خطابٌ لقريش، وهم إنَّما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتىٰ يوردوه، فتعيَّن أنَّ مقالتهم إنما كانت جدلًا منهم، ليسوا يعتقدون صحَّتها.

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: حدَّثنا ابن نُمَيْر، حدَّثنا حَجَّاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًىٰ كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا أُورِثُوا الجَدَلَ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[(٦)].

وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجَّاج بن دينار به. ثم قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال.

وقد روي من وجه آخر عن أبي أُمامة بزيادةٍ، فقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا حُمَيْد بن عَيَّاش الرملي، حدَّثنا مُؤَمَّلٌ، حدَّثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبدالرحمن الشامي، عن أبي أمامة - قال حماد: لا أدري رفعه أم لا؟- قال: ما ضلَّت أمَّةٌ بعد نبيِّها إلا كان أوَّل ضلالها التَّكذيب بالقدر، وما ضلَّت أمَّةٌ بعد نبيِّها إلا أُعطُوا الجدَل، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[(٧)].

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أحمد بن عبدالرحمن، عن عَبَّاد بن عباد، عن جعفر،

---

(١) في (ز): «الأنصاريين»، والمثبت موافق لما عند «ابن أبي حاتم». (٢) لوحة (١٤٨/ أ).

(٣) حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥١٤)، وإسناده حسن كسابقه. (٤) سقط من (ز).

(٥) قراءة: قَرَأَ (أَمْ هَذَا) ابْنُ مَسْعُودٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (أَمْ هُوَ).

(٦) حسَّنه الألباني: رواه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢)، وفيه حجاج بن دينار. قال الحافظ: لا بأس به، وأبو غالب: مثله.

قلتُ: وقد تُوبعَ كما في الرِّوايات الأخرىٰ التي أوردها ابن كثير، وهي عند الطَّبري (٢٥/ ٥٣). والحديث حسَّنه الشَّيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤١).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٨٥١٥)، وفيه ابن مخزوم لَمْ أعرفه، ومؤمَّل هو ابن إسماعيل: ضعيف، ويشهد له الرواية السابقة.

عن القاسم، عن أبي أُمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على النَّاس وهم يتنازعون في القرآن، فغَضِبَ غضبًا شديدًا [حتى](١) كأنما صُبَّ على وجهه الخل، ثم قال: «لا تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَإِنَّهُ مَا ضَلَّ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»، ثم تلا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ(٢) خَصِمُونَ﴾(٣).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى عليه السلام ما هو إلا عبدٌ [من عباد الله](٤) أنعم الله عليه بالنُّبوَّة والرِّسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: دلالةً وحجَّةً وبرهانًا على قدرتنا على ما نَشاء.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ -أي: بدلكم- ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، قال السُّدِّي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عبَّاس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضًا، كمَا يخلف بعضكم [بعضًا](٥). وهذا القول يَسْتَلْزِمُ الأوَّل، وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾، تقدَّم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك: ما بُعث به عيسى عليه السلام من إحياءِ الموتى وإبراءِ الأَكْمَهِ والأَبْرص، وغير ذلك من الأسقام، وفي هذا نظر، وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البَصْري وسعيد بن جُبير: أي الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ عائدٌ على القرآن، بل الصَّحيح أنَّه عائدٌ على عيسى عليه السلام، فإنَّ السِّياق في ذكره، ثم المراد بذلك: نزوله قبل [يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾- أي: قبل موت عيسى عليه السلام، ثم](٦)- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنَّه لعَلَم للسَّاعة»(٧)، أي: [أمارةٌ ودليلٌ على وقوع السَّاعة](٨)، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للسَّاعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن عبَّاس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا.

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكوا فيها، إنَّها واقعةٌ وكائنةٌ لا محالة، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي: فيما أخبركم به، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [أي: عن اتِّباع الحق](٩)، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ -أي: بالنُّبوَّة- ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

---

(١) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «تفسير الطبري».
(٢) لوحة (١٤٨/ ب).
(٣) رواه الطبري (٢٥/ ٥٣)، وفي إسناده جعفر بن الزبير الحنفي: متروك الحديث، ويكفي في ثبوت الحديث ما تقدَّم في الرِّواية قبل السَّابقة.
(٤) ليست في (ز).
(٥) سقط من (ز).
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٧) شاذة: قَرَأَ (لَعَلَمٌ) الأَعْمَشُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (لَعِلْمٌ).
(٨) في (ز): «آية للسَّاعة».
(٩) سقط من (ز).

قال ابن جرير: يعني مِن الأمور الدِّينيَّة لا الدُّنيويَّة، وهذا الَّذي قاله حسنٌ جيِّدٌ، ثمَّ ردَّ قول مَن زعم أنَّ «بعض» هاهنا بمعنىٰ «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

تَـــرَّاكُ أَمْكِنَـــةٍ إِذَا لَـــمْ أَرْضَـــهَا ... أَوْ يَعْتَلِـــقْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَامُهَـــا

وأوَّلوه علىٰ أنَّه أراد: جميعَ النُّفوس.

قال ابن جرير: وإنَّما أراد نفسَهُ فقط، وعبَّر بالبعضِ عنها[1]. وهذا الَّذي قاله مُحْتَمَلٌ.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: [أنا وأنتم عبيدٌ له، فقراءُ إليه، مشترِكُونَ في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي][2]: هذا الَّذي جِئْتُكُم به هو الصِّراط المستقيم، وهو عبادة الرَّبِّ ﷻ وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفِرَق وصاروا شِيَعًا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله -وهو الحق-، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله -تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾

يقول تعالىٰ: هل يَنْتَظِرُ هؤلاء المُشْرِكُون المكذِّبُون للرُّسُلِ ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ أي: فإنَّها كائنةٌ لا محالَةَ وواقعةٌ، وهؤلاء غافلون عنها غير مُسْتَعِدِّينَ [لها][3]، فإذا جاءَتْ إنَّما تَجِيءُ وهم لا يشعرون بها، فحينئذٍ يندمون كلَّ النَّدم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم، وقوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل صداقةٍ وصحابةٍ لغَيْرِ الله فإنَّها تنقلب يوم القيامة عداوةً، إلا ما كان لله ﷻ فإنَّه دائمٌ بدوامِهِ، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليٍّ رضي الله عنه: ﴿الْأَخِلَّاءُ

(١) لوحة (١٤٩/ أ). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٣) ليست في (ز).

﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، قال: خَليلَان مؤمنَان، وخليلَان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبُشِّر بالجنَّة فذكر خليله، فقال: اللَّهم، إنَّ فلانًا خليلي كان يأمرني بطَاعَتِكَ وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشَّرِّ، ويُنْبِئُنِي أنِّي ملاقيك، اللَّهمَّ فلا تضله[1] بعدي حتىٰ تُرِيَه مثل ما أَرَيْتَنِي، وتَرْضَىٰ عنه كما رضيتَ عنِّي، فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضَحِكتَ كثيرًا وبكيتَ قليلًا، قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: لِيُثْنِ أحدُكُما علىٰ صاحبه، فيقول كل واحدٍ منهما لصاحبه: نِعْمَ الأخ، ونِعْمَ الصَّاحب، ونِعْمَ الخليل. وإذا مات أحد الكافرين، وبُشِّرَ بالنَّار ذكر خليله فيقول: اللَّهمَّ إنَّ خليلي فلانًا كان يأمُرُنِي بمَعْصِيَتِك ومعصيةِ رسولِكَ، ويأمرني بالشَّرِّ وينهاني عن الخَيْرِ، ويخبرني أنِّي غير ملاقيك، اللَّهمَّ فلا تَهْدِهِ بعدي حتىٰ تُرِيَه مثل ما أَرَيْتَنِي، وتسخط عليه كما سخطت عليَّ، قال: فيموت الكافر [الآخر][2]، فيجمع بين أرواحهما فيقال: لِيُثْنِ كل واحدٍ منكمَا علىٰ صاحبه، فيقولُ كل واحدٍ منهما لصاحبه: بئسَ الأخ، وبئسَ الصَّاحب، وبئس الخَلِيل. رواه ابن أبي حاتم[3].

وقال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خُلَّة عداوة يوم القيامة إلا المتَّقين.

وروىٰ الحافظ ابن عساكر -في ترجمة هشام بن أحمد- عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدَّثنا أبو جعفر محمَّد بن الخضر بالرَّقَّة، عن مُعَافَىٰ: حدَّثنا حكيم[4] بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، أَحَدُهُمَا بِالمَشْرِقِ وَالآخَرُ بِالمَغْرِبِ، لَجَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: هَذَا الَّذِي أَحْبَبْتَهُ فِيَّ»[5].

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، [ثم بشرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادَتْ لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المُعْتَمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإنَّ النَّاس حين يبعثون لا يبقىٰ أحدٌ منهم إلا فَزِعَ، فينادي منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾][6]، فيرجوها النَّاس كلُّهُم، قال: فيتبعُها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، قال: فيَيْأَسُ النَّاس منها غيرَ المؤمنين. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنَّة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم، ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي:

---

(١) لوحة (١٤٩/ ب). (٢) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «ابن أبي حاتم»، ومصادر التخريج.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم (١٨٥١٩)، وفي إسناده الحارث الأعور: كذبه الشعبي، ورُمِيَ بالرَّفض، وفي حديثه ضعف.

(٤) في (ز): «عن معافىٰ بن حكيم»، وهو خطأ.

(٥) ضعيف: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٠٦)، وأبو نعيم في «الأربعين» (٣١)، وأورده الخطيب التِّبريزي في «المشكاة» (٣/ ١٣٩٨)، في إسناده حكيم بن نافع الرقي القرشي، قال أبو حاتم: هو ضعيف الحديث، منكر الحَدِيث عن الثِّقات، وقال أبو زرعة: ليس بشيء.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

تَنْعَمُون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في «سورة الروم».

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: زَبَادِيِّ آنِيَةِ الطَّعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي: آنية الشَّراب؛ أي: من ذهب لا خراطِيمَ لها ولا عُرَىٰ، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي ٱلْأَنفُسُ﴾(١) -وقرأ بعضهم: ﴿تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾- ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: طَيِّب الطعم والرِّيح وحسن المَنْظَرِ.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد، عن عكرمة -مولىٰ ابن عبَّاس- أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَدْنَىٰ(٢) أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً وَأَسْفَلَهُمْ دَرَجَةً لَرَجُلٌ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ [بَعْدَهُ](٣) أَحَدٌ، يُفْسَحُ(٤) لَهُ فِي بَصَرِهِ مَسِيرَةَ مِائَةِ عَامٍ فِي قُصُورٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَخِيَامٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا مَعْمُورٌ يُغْدَىٰ عَلَيْهِ وَيُرَاحُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ صَحْفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، لَيْسَ فِيهَا صَحْفَةٌ إِلَّا فِيهَا لَوْنٌ لَيْسَ فِي الأُخْرَىٰ مِثْلُهُ، شَهْوَتُهُ فِي آخِرِهَا كَشَهْوَتِهِ فِي أَوَّلِهَا، لَوْ نَزَلَ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَ عَلَيْهِمْ مِمَّا أُعْطِيَ، لا يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِمَّا أُوتِيَ شَيْئًا»(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدَّثنا عمرو بن سَوَّاد السَّرْحي(٦)، حدَّثنا عبد الله بن وَهْب، عن ابن لَهِيعَة، عن عُقَيْل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة: أن أبا أمامة ﵁ حدَّث أنَّ رسول الله ﷺ حدَّثهم -وذكر الجنَّة- فقال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَيَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمُ اللُّقْمَةَ فَيَجْعَلُهَا فِي فِيهِ، ثُمَّ يَخْطِرُ عَلَىٰ بَالِهِ طَعَامٌ آخَرُ، فَيَتَحَوَّلُ الطَّعَامُ الَّذِي فِي فِيهِ عَلَىٰ الَّذِي اشْتَهَىٰ»، ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٧).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن -هو: ابن موسىٰ- حدَّثنا سُكَيْنُ بن عبد العزيز، حدَّثنا الأشعث(٨) الضَّرير، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً إِنَّ لَهُ لَسَبْعَ دَرَجَاتٍ، وَهُوَ عَلَىٰ السَّادِسَةِ وَفَوْقَهُ السَّابِعَةُ، وَإِنَّ لَهُ ثَلَاثَمِائَةِ خَادِمٍ، وَيُغْدَىٰ عَلَيْهِ وَيُرَاحُ كُلَّ يَوْمٍ بِثَلَاثِمِائَةِ صَحْفَةٍ -ولا أعلمه إلا قال: مِنْ ذَهَبٍ- فِي كُلِّ صَحْفَةٍ لَوْنٌ لَيْسَ فِي الأُخْرَىٰ، وَإِنَّهُ لَيَلَذُّ أَوَّلَهُ كَمَا يَلَذُّ آخِرَهُ(٩)، وَإِنَّهُ لَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لَوْ أَذِنْتَ لِي لَأَطْعَمْتُ أَهْلَ الجَنَّةِ

---

(١) متواترة: قَرَأَ (تَشْتَهِيهِ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَحَفْصٌ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (تَشْتَهِي).

(٢) لوحة (١٥٠/ أ). (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): «يفتح».

(٥) مرسل: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٦٥).

(٦) في (ز): «ثواد السرخي».

(٧) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٢١)، وعقيل بن خالد لم أعرفه، والحسن البصري: مدلِّس، وقد عنعن.

(٨) في (ز): «أبو الأشعث».

(٩) في بعض النُّسخ هنا زيادة: «وَمِنَ الأَشْرِبَةِ ثَلَاثُمِائَةِ إِنَاءٍ، فِي كُلِّ إِنَاءٍ لَوْنٌ لَيْسَ فِي الآخَرِ، وَإِنَّهُ لَيَلَذُّ أَوَّلَهُ كَمَا يَلَذُّ آخِرَهُ»، وهي ليست في (ز)، ولا في «المسند».

وَسَقيْتُهُمْ، لَمْ يَنْقُصْ مِمَّا عِنْدِي شَيْءٌ، وَإِنَّ لَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ لِاثْنَيْنِ[(١)] وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، سِوَىٰ أَزْوَاجِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنَّ الوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ لَيَأْخُذُ مَقْعَدُهَا قَدْرَ مِيلٍ مِنَ الأَرْضِ»[(٢)].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنَّة ﴿خَٰلِدُونَ﴾، أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حِوَلا، ثم قيل لهم علىٰ وجه التَّفضُّل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إيَّاكم، فإنَّه لا يُدْخِلُ أحدًا عملُهُ الجنة، ولكن بفضلٍ مِن الله ورحمته. وإنَّما الدَّرجات تفاوتها بحسب عمل الصَّالحات[(٣)].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الفَضْل بن شَاذَان المقرئ، حدَّثنا يوسف بن يعقوب -يعني الصَّفَّار- حدَّثنا أبو بكر بن عَيَّاش، عن الأَعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَىٰ مَنْزِلَهُ مِنَ الجَنَّةِ حَسْرَةً، فَيَقُولُ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، وَكُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ يَرَىٰ مَنْزِلَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، لِيَكُونَ لَهُ شُكْرًا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلٌ فِي الجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَالكَافِرُ يَرِثُ المُؤْمِنَ مَنْزِلَهُ مِنَ النَّارِ، وَالمُؤْمِنُ يَرِثُ الكَافِرَ مَنْزِلَهُ مِنَ الجَنَّةِ» وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اختَرْتمُ وأردتم. ولما ذكر الله تعالىٰ الطَّعام والشَّراب، ذكر بعده الفاكهة لِتَتِمَّ هذه النِّعمة والغِبْطَة.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ حال السُّعداء، ثَنَّىٰ بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾، أي: ساعة واحدة، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيِسونَ مِن كلِّ خيرٍ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: بأعمالهم السَّيِّئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرُّسل إليهم، فكذَّبُوا وعَصَوْا، فَجُوزوا بذلك جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيد.

---

(١) كذا في (ز) و«المسند» والقياس أن يقال: «لاثنتين».

(٢) رواه أحمدُ (٢/ ٥٣٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٢٩، ٤٥٠)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال، وقد عنعن.

(٣) لوحة (١٥٠/ ب).

(٤) حسَّنه الألباني: تقدَّم. انظر تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو: خازنُ النَّار.

قال البخاري: حدَّثنا حجاج بن مِنْهال، حدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يعلىٰ، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ علىٰ المنبر: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1]. أي: ليقبض أرواحنا فيُريحنا ممَّا نحن فيه، فإنَّهم كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١١-١٣]، فلما سألوا أن يمُوتُوا أجابهم مالك: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، قال[2] ابن عبَّاسٍ: مكث ألف سنةٍ، ثم قال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾. رواه ابن أبي حاتم[3]. أي: لا خروجَ لكُم منها ولا مَحِيدَ لكم عنها.

ثم ذكر سببَ شِقْوَتِهِم وهو مخالفتهم للحقِّ ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بيَّنَّاه لكم ووضَّحناه وفسَّرْناه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تُقْبِل عليه، وإنَّما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصدُّ عن الحقِّ وتأباهُ، وتبغض أهله، فعودوا علىٰ أنفسكم بالملامَةِ، واندموا حيث لا تنفعكم النَّدَامَة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، قال مجاهد: أرادُوا كيدَ شرٍّ فكِدْنَاهُم.

وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأنَّ المشركين كانوا يتحيَّلُون في ردِّ الحقِّ بالباطل بحِيَلٍ ومكرٍ يسلكونه، فكَادَهُم الله، وردَّ وبَالَ ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: سرَّهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم، صغيرَهَا وكبيرها.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ (٨١) سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: لو فرض هذا لعبدته

---

(١) البخاري (٤٨١٩). (٢) لوحة (١٥١/ أ). (٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٢٥).

علىٰ ذلك لأنِّي عبدٌ مِن عبيده، مطيعٌ لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبارٌ ولا إباءٌ عن عبادتِهِ، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنعٌ في حقِّه تعالىٰ، والشَّرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجوَاز أيضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقال بعض المفسِّرين في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الآنِفِينَ، ومنهم سفيان[1] الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الجاحدين، من «عَبِدَ يَعْبَدُ».

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشَّواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وَهْب، حدَّثني ابن أبي ذِئْب، عن ابن[2] قُسَيْط، عن بَعَجة بن زيد الجُهَني؛ أنَّ امرأةً منهم دخلت علىٰ زوجها، وهو رجلٌ منهم أيضًا فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجُها لعثمان بن عفان ﵁، فأمر بها أن تُرجم، فدخل [عليه][3] علي بن أبي طالب ﵁ فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عَبِدَ[4] عثمان ﵁ أن بعث إليها: تُرَد، قال يونس: قال ابن وَهْب: عَبِدَ: استنكف[5].

وقال الشاعر:

مَتَىٰ [مَا][6] يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَهُ ... وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لا مَحَالَةَ ظَالِمَا

وهذا القول فيه نظرٌ؛ لأنَّه كيف يَلْتَئِمُ مع الشَّرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنعٌ منه؟ هذا فيه نظر، فليتأمل، اللَّهمَّ إلَّا أن يقال: «إِنْ» ليست شرطًا، وإنَّما هي نافيةٌ، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرَّحمن ولد فأنَا أوَّل الشَّاهدين.

وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي.

---

(١) لوحة (١٥١/ ب).

(٢) في (ز): «أبي قُسَيْط»، وكذا في بعض النُّسخ الخطيَّة لتفسير الطَّبري، وهو خطأ، والصَّواب ما أثبتناه، ابن قسيط هو: يزيد بن عبد الله بن قُسيط، وانظر: «تهذيب الكمال» (٣٢/ ١٧٧).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «ما عند».

(٥) رواه الطبري (٢٥/ ١٠٢)، وابن شَبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٩-٩٨٠)، وله طرق أخرىٰ، رواه ابن أبي حاتم (٢٢٦٥)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٤٤٦)، وابن مَنْدَه في «التوحيد» (١٠١) وثبت نحوه عن عمر بن الخطاب: رواه ابن أبي حاتم (٢٢٦٤)، وسعيد بن منصور (٢٠٧٤)، وابن شَبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٩)، والبيهقي في «السنن الصغير» (٢٨٢٤)، وفي «السنن الكبرىٰ» (١٥٥٤٩)، وابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم» (١٧٤٦)، وقد صحَّح ابن حجر بعضَ روايات عثمان. انظر: «التَّلخيص الحبير» (١٧٦١).

(٦) سقط من (ز).

وقال أبو صَخْر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، أي: فأنا أوَّل مَن عبده بأن لا ولد له، وأوَّل مَن وحَّدَهُ، وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: أول من عبده ووحَّده وكذَّبكُم.

وقال البخاري: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين، وهما لُغتان: [رجل][(١)] عَابِد وعَبِدٌ.

والأول أقرب علىٰ أنه شرطٌ وجزاءٌ، ولكن هو ممتنع.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولدٌ كنت أوَّل مَن عبده، بأن له ولدًا، لكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير، وردَّ قول من زعم أن «إِنْ» نافية.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه خالق الأشياء عن أن يكون له ولدٌ، فإنَّه فردٌ أحدٌ صمدٌ، لا نَظِيرَ له ولا كفءَ له، فلا وَلَدَ له.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أي: في جهلهم[(٢)] وضلالهم، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي: فسَوْفَ يعلمون كيف يَكُون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، أي: هو إِلَهُ مَنْ في السَّماء وإِلَهُ مَنْ في الأرض، يعبده أهلُهما، وكلُّهم خَاضِعُون له، أذلَّاءُ بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، أي: هو المدعُوُّ «الله» في السَّموات والأرض.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرِّف فيهما، بلا مدافعةٍ ولا ممانعةٍ، فسُبْحَانَه وتعالىٰ عن الوَلَدِ، و«تبارك» أي: استقرَّ له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرَّبُّ العليُّ العظيم، المالك للأشياءِ، الَّذِي بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الأمور نقضًا وإبرامًا، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يُجَلِّيهَا لوقتها إلا هُوَ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيُجَازِي كلًّا بعَمَلِهِ، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان، ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يقدرون علىٰ الشَّفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكن من شهد بالحقِّ علىٰ بصيرةٍ وعلمٍ، فإنَّه تنفع شفَاعته عنده بإذنِهِ له.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (١٥٢/ أ).

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنَّه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هَذَا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئًا ولا يقدر علىٰ شيءٍ، فهم في ذلك في غاية الجَهْلِ والسَّفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وقال: محمَّد قيله؛ أي: شكا إلىٰ ربِّه شكواه من قومه الَّذِينَ كذَّبوه، فقال: يا رب، إن هؤلاء قومٌ لا يؤمنون، كما أخبر تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وهذا الذي قلناه هو معنىٰ قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير.

قال البخاري[(١)]: وقرأ عبد الله -يعني: ابن مسعود-: «وقال الرَّسولُ يا رَبِّ».

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فأبرَّ اللهُ قولَ محمَّدٍ.

وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلىٰ ربه ﷻ.

ثم حكىٰ ابن جرير في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما: أنَّه معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، والثاني: أن يقدر فعل، وقال: قِيلَه. والثانية: الخفض، [وقيلِهِ][(٢)] عطفًا علىٰ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، تقديره: وعِلمُ قِيلِه.

وقوله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمِثْلِ ما يُخَاطِبُونَك به من الكلَامِ السَّيِّءِ، ولكن تَأَلَّفْهُمْ واصفح عنهُم فعلًا وقولًا، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديدٌ منه تعالىٰ لهم، ولهذا أحلَّ بهم بأسَهُ الَّذِي لا يُرَدُّ، وأعلىٰ دينَهُ وكَلِمَتَهُ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجِلَاد، حتىٰ دخَلَ النَّاسُ في دِينِ الله أفواجًا، وانتشر الإسلام في المشارِقِ والمغارِبِ.

آخر تفسير سورة الزخرف.

---

(١) لوحة (١٥٢/ ب).

(٢) سقط من (ز).

سُورَةُ الدُّخَانِ

تَفْسِيرُ سُورة الدُّخَانِ، وهِيَ مكِّيَّةٌ

قال الترمذيُّ: حدثنا سفيان بن وَكِيعٍ، حدثنا زَيْدُ بن الحُبَاب، عن عُمَرَ بن أبي خَثْعَم، عن يحيىٰ ابن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿حم الدُّخَان﴾ في ليلةٍ أصبحَ يستغفرُ له سبعون ألف مَلَكٍ»[1]. ثم قال: غريبٌ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعُمَر بن أبي خَثْعَم: يُضَعَّف. قال البخاري: مُنكر الحديث.

ثم قال: حدثنا نَصْرُ بن عبدالرحمن الكُوفي، حدثنا زَيْدُ بن الحُبَاب، عن [هشام أبي المقدام][2]، عن الحسن، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿حم الدُّخَان﴾ في ليلة الجمعة غُفِرَ له»[3]. ثم قال: غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المِقْدَام: يُضعَّف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال [أيوب][4]، ويونس بن عُبيد، وعلي بن زيد.

وفي «مُسند البَزَّار» من رواية أبي الطُّفَيْل عَامر بن وَاثِلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسُولَ الله ﷺ[5] قال لابن صَيَّادٍ[6]: «إني قد خَبَأْتُ خَبأً فما هو؟» -وخبَّأ له رسُولُ الله ﷺ «سورة الدخان»-، فقال: هو الدُّخ[7]. فقال: «اخسَأ، ما شَاءَ اللهُ كان»، ثم انصرفَ[8].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٢٨٨٨)، وفيه عمر بن عبد الله بن أبي خثعم: ضعيف، وسفيان بن وكيع: ضعيف.

(٢) في (ز): (هشام عن أبي المقدام)، والمثبت هو الصواب، كما في «سنن الترمذي».

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٢٨٨٩)، وفيه هشام أبو المقدام: ضعيف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، فالإسناد منقطع.

(٤) في (ز): (أبو زيد)، والصواب ما أثبتناه، كما في «السنن» للترمذي.

(٥) لوحة (١٥٣/ أ).

(٦) ابن صياد: ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدَّجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره، حتىٰ تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدَّجال، لكنه كان من جنس الكُهَّان. «مجموع الفتاوىٰ»: (١١/ ٢٨٣-الفرقان)، وانظر: «فتح الباري»: (١٣/ ٩١) وما بعدها.

(٧) الدُّخ: الدخان.

(٨) صحيح بإسنادٍ آخر: رواه البزار (٣٣٩٢- كشف)، وإسناده ضعيف، لكن أصل الحديث صحيحٌ من حديث عبد الله ابن مسعود، رواه البخاري (٣٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢٤).

يقول تعالىٰ مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزله في ليلةٍ مباركةٍ، وهي ليلة القدر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة» بما أغنىٰ عن إعادته.

ومَن قال: إنها ليلة النصف من شَعبان -كما رُوي عن عِكرمة- فقد أبعد النُّجْعَة؛ فإن نَصَّ القرآن أنها في رمضان. والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن اللَّيث، عن عُقيل، عن الزُّهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنَس، أن رسُولَ الله ﷺ قال: «تُقْطَع الآجال مِن شَعبان إلىٰ شَعبان، حتىٰ إن الرجُل لينكح ويُولد له، وقد أخرج اسمه في الموتىٰ»(١)، فهو حديثٌ مرسلٌ، ومثله لا يُعارض به النصوص.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: مُعلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعًا؛ لتقوم حُجة الله علىٰ عباده.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يُفصل من اللوح المحفوظ إلىٰ الكَتَبَة أمر السَّنَة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلىٰ آخرها. وهكذا رُوي عن ابن عُمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحدٍ من السلف.

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكمٌ لا يُبَدَّلُ ولا يُغيَّرُ؛ ولهذا قال: ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآ﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالىٰ وما يُوحيه فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي: إلىٰ الناس رسولًا يتلو عليهم آياتِ الله مُبيناتٍ، فإن الحاجة كانت ماسَّةً إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾، أي: الذي أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مُتحققين.

ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨].

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالىٰ: بل هؤلاء المشركون في شكٍّ يلعبون؛ أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه، ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال مُتوعدًا لهم ومتهددًا: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾.

---

(١) ضعيف: في إسناده عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق يخطئ كثيرًا، والإسناد مرسل، رواه الطبري (٢٥/ ١٠٩).

قال سُليمان بن مِهْرَان الأَعْمَش، عن أبي الضُّحَىٰ مُسْلم بن صُبَيْح، عن مَسْرُوقٍ قال: دخلنا المسجد -يعني: مسجد الكوفة- عند أبواب كِنْدَة، فإذا رجلٌ يقُص علىٰ أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدُّخَان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزُّكَام. قال: فأتينا ابن مسعودٍ فذكرنا ذلك له، وكان مُضطجعًا ففزع فقعد، وقال: إن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إنَّ مِنَ العِلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»؛ سأُحدثكم عن ذلك، إن قريشًا لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت علىٰ رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنين يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتىٰ أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء فلا يرون إلا الدخان -وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلىٰ السماء، فيرىٰ ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد- قال: قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَر، فإنها قد هلكت. فاستسقىٰ لهم فَسُقُوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ[(١)] قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ قال: ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلىٰ حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضىٰ خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام[(٢)(٣)]. وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في «الصحيحين»، ورواه الإمام أحمد في «مسنده»، وهو عند الترمذي والنسائي في «تفسيرهما»، وعند ابن جرير وابنِ أبي حاتم من طُرقٍ متعددةٍ، عن الأعمش به، وقد وافق ابن مسعودٍ علىٰ تفسير الآية بهذا، وأن الدُّخَان مَضَىٰ، جماعةٌ من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مُسَافِر، حدثنا يحيىٰ بن حسان، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا عبد الرحمن الأَعْرَج في قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة. وهذا القول غريبٌ جدًّا، بل منكرٌ.

وقال آخرون: لم يَمْضِ الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث أبي سَرِيحة حُذَيفة بن أَسِيد الغِفَاري ﵁ قال: أشرفَ علينا رسُولُ الله ﷺ من غُرفةٍ ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طلوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ، وَالدَّجَّالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ النَّاسَ -أو: تَحْشُرُ**

(١) لوحة (١٥٤/ أ). (٢) رواه البخاري (٤٨٢٠)، ومسلم (٢٧٩٨)، وأحمد (١/ ٣٨٠)، والترمذي (٣٢٥٤).

(٣) الدخان: تقدم، والروم: في سورة الروم، والقمر: قال تعالىٰ فيه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، والبطشة: قال الله فيها: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ذُكِرَ أن المقصود بذلك يوم بدر، واللِّزَام: اختلف فيه، فقيل: هو القتل يوم بدر، وقيل: التصاق القتلىٰ ببعضهم في بدر، وقيل: الأسر ببدر، وقيل: القحط.

النَّاسَ-، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا». تفرد بإخراجه مسلم في «صحيحه»(١).

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لابن الصَّيَّاد: «إني خَبَّأْتُ لك خَبْأً» قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخْسَأْ فلن تَعدو قدركَ». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وهذا فيه إشعارٌ بأنه مِنَ المُنتظر المُرتقب، وابن صَيَّاد كاشف على طريقة الكُهَّان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون(٣) العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعني: الدخان. فعندها عرف رسولُ الله ﷺ(٤) مادته وأنها شيطانيةٌ، فقال له: «اخْسَأْ، فلن تَعدو قَدْرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثني عصام بن رَوَّاد بن الجرَّاح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد الثوري، حدثنا منصور بن المُعْتمر، عن رِبْعِي بن [حِرَاش](٥) قال: سمعت حذيفة بن اليَمان يقول، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ الدَّجَّالُ، وَنُزُولُ عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنِ أَبْيَنَ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَىٰ الْمَحْشَرِ، تَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَالدُّخَانُ. قَالَ حُذَيْفَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الدُّخَانُ؟ فَتَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هذه الآية: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ -يَمْلأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصِيبُهُ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ [فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ](٦) السَّكْرَانِ، يَخْرُجُ مِنْ مِنْخَرَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبُرِهِ»(٧).

قال ابن جرير: لو صحَّ هذا الحديث لكان فاصلًا، وإنما لم أَشْهَد له بالصحة لأن محمد بن خلف العَسْقلاني حدثني أنه سأل رَوَّادًا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا، قال: فقلت له: فقُرِئ عليه وأنت حاضرٌ فَأَقَرَّ به؟ فقال: لا، فقلت له: فمن أين جئتَ به؟ فقال: جاءني به قومٌ فعرضوه عليَّ، وقالوا لي: اسمعه مِنَّا. فقرءوه عليَّ ثم ذهبوا به، فَحَدَّثُوا به عنِّي، أو كما قال.

وقد أجاد ابن جريرٍ في هذا الحديث هاهنا، فإنه موضوعٌ بهذا السند، وقد أكثر ابن جريرٍ من سياقه في أماكن من هذا «التفسير»، وفيه مُنكراتٌ كثيرةٌ جدًّا، ولا سيما في أول سورة «بني إسرائيل» في ذكر المسجد الأقصىٰ، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا صَفْوان، حدثنا الوليدُ، حدثنا خُليد، عن الحسن، عن أبي سعيدٍ الخُدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَهِيجُ الدُّخَانُ بِالنَّاسِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَأْخُذُهُ

---

(١) مسلم (٢٩٠١)، والترمذي (٢١٨٣)، وابن ماجه (٤٠٤١)، وأحمد (٤/ ٦).

(٢) البخاري (٣٠٥٥)، ومسلم (٢٩٣).

(٣) أي: يقطعون.

(٤) لوحة (١٥٤/ ب).

(٥) في (ز): (خراش)، وهو تصحيف.

(٦) في (ز): (كمنزلة).

(٧) ضعيف: رواه الطبراني (٢٥/ ٦٨) وضعفه، (انظر ما نقله عنه ابن كثير بعد إيراده الحديث).

كَالزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَنْفُخُهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ»(١).

ورواه سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي سعيدٍ الخُدري موقوفًا(٢). ورواه عَوْف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جريرٍ أيضًا: حدثني(٣) محمد بن عَوْف، حدثنا محمد بن إسماعيل [بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَم بن زُرعَة، عن شُريح بن عُبيد](٤)، عن أبي مالكٍ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثًا: الدُّخَانُ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَالزَّكْمَةِ، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَنْتَفِخُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ، وَالثَّانِيَةُ: الدَّابَّةُ، وَالثَّالِثَةُ: الدَّجَّالُ»(٥).

ورواه الطبرانيُّ عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش به، وهذا إسنادٌ جيدٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليٍّ ﷺ قال: لم تَمْضِ آيةُ الدُّخان بعدُ، يأخذ المؤمن كهيئة الزُّكام، وتنفخ الكافر حتىٰ [ينفد](٦).

وروىٰ ابن جريرٍ من حديث الوليد بن جُمَيع، عن عبد الملك بن المُغيرة، عن عبدالرحمن بن البَيْلَماني، عن ابن عُمر قال: يخرج الدُّخَان فيأخذ المؤمن كهيئة الزُّكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتىٰ [يكون](٧) كالرَّأسِ الحَنِيذِ(٨). أي: المشوي علىٰ الرَّضْف(٩).

ثم قال ابن جرير: حدثني يَعْقُوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن ابن جُرَيج، عن عبد الله بن أبي مُلَيْكَة قال: غَدَوْتُ علىٰ ابن عباس ﵄ ذات يوم فقال: ما نِمْتُ الليلة حتىٰ أصبحت. قلت: لِمَ؟ قال: قالوا طَلَع الكوكبُ ذو الذَّنب، [فخشيتُ](١٠) أن يكون الدُّخَان قد طَرَق، فما نمت حتىٰ أصبحتُ(١١).

---

(١) **حسن لغيره**: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٣٣)، ورجاله ثقات، إلا أن الحسن يرسل وقد عنعن، ولكن يشهد له حديث حذيفة السابق، وكذلك حديث أبي مالك الأشعري، ويشهد له الآثار التي أوردها ابن كثيرٍ عن عبد الله بن عمر، ومثل هذا لا يقال بالرأي.

(٢) رواه الطبري (٢٥/ ٦٨) موقوفًا، وإسناده كسابقه.

(٣) لوحة (١٥٥/ أ).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) **ضعيف**: رواه الطبري (٢٥/ ٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٩٢/ ٣٤٤٠)، وفيه محمد بن إسماعيل: ضعيف، وشريح لم يسمع أبا مالك.

(٦) في (ز): (ينفذ). ورواه ابن أبي حاتم (١٨٥٣٤)، وفيه الحارث الأعور: كذبه الشعبي ورمي بالرفض.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه الطبري (٢٥/ ١١٣)، وفيه عبد الرحمن بن البيلماني: ضعيف.

(٩) **الرَّضْف**: الحجارة المحماة علىٰ النار.

(١٠) في (ز): (فحسبت)، والمثبت من «الطبري».

(١١) رواه الطبري (٢٥/ ٦٨)، وابن أبي حاتم (١٨٥٥٠)، ورجاله ثقات، والإسناد صحيح، لكنه موقوف علىٰ ابن عباس، وهو في حكم المرفوع شريطة أن يكون الصحابي لم يأخذ من كتب أهل الكتاب، وهذا الشرط لا يتوفر هنا؛ لأنَّ ابن عباسٍ ممن أخذوا منها.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن [أبي][(١)] عمر، عن سفيان، عن عبدالله بن أبي يزيد، عن عبدالله بن أبي مُلَيكة، عن ابن عباسٍ فذكره. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلىٰ ابن عباس حَبْر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين [أجمعين][(٢)]، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مقنعٌ ودلالةٌ ظاهرة علىٰ أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهرُ القرآن.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بَيِّنٌ واضحٌ يراه كل أحدٍ. وعلىٰ ما فسر به ابن مسعود ﵁: إنما هو خيالٌ رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويَعُمَّهُم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾[(٣)].

وقوله: ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعضٍ ذلك.

وقوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

[يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولًا بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذَّبوه وقالوا: مُعَلَّمٌ مجنونٌ][(٤)]. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ [سبأ: ٥١-٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ **يحتمل معنيين:**

أحدهما: أنه يقوله تعالىٰ: ولو كشفنا عنكم العذاب، ورجعناكم إلىٰ الدار الدنيا، لعُدتم إلىٰ ما كنتم فيه من الكُفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ

---

(١) سقط من (ز)، والصواب إثباتها. (٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (١٥٥/ ب). (٤) سقط من (ز).

يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إنَّا مُؤخرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان [والضلال][(١)]، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون بَاشَرَهُم، [كقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب بَاشَرَهُم][(٢)] واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم -أيضًا- أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالىٰ إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ[(٣)] وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيبٌ ﷺ لم يكن قط علىٰ ملتهم وطريقتهم.

وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلىٰ عذاب الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود علىٰ تفسيره الدخان بما تقدم، ورُوي أيضًا عن ابن عباسٍ وجماعة من رواية العوفي عنه. وعن أُبي بن كَعب وجماعة، وهو مُحتملٌ.

والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدرٍ يوم بطشةٍ أيضًا.

قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابنُ عُلَيَّة، حدثنا خالد الحذَّاء، عن عِكْرمة قال: قال ابن عباسٍ: قال ابن مسعودٍ: البطشة الكبرىٰ: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة[(٤)].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ عنه، وبه يقول الحَسَنُ البَصْري، وعِكرمة في أصح الروايتين عنه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠)
وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ
عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن
فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم
مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣)﴾

---

(١) سقط من (ز).
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (١٥٦/ أ).
(٤) رواه الطبري (٢٥/ ١١٧)، وإسناده صحيح.

يقول تعالىٰ: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسىٰ كليمه عليه السلام ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمونٌ علىٰ ما(١) أبلغكموه.

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجةٍ ظاهرةٍ واضحةٍ، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات، والأدلة القاطعات.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباسٍ، وأبو صالح: هو الرجم باللسان -وهو الشتم-.

وقال قتادة: هو الرجم بالحجارة.

أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليَّ بسوءٍ من قولٍ أو فعلٍ.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: فلا تتعرضوا إليَّ، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمةً إلىٰ أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوةً نفذت فيهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالىٰ أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم، من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، وذلك أن موسىٰ عليه السلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسىٰ أن يضربه بعصاه حتىٰ يعود كما كان؛ ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه علىٰ حاله ساكنًا، وبشَّره بأنهم جندٌ مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دَرَكًا ولا يخشىٰ.

قال ابن عباسٍ: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضِهْ. وقال مجاهدٌ: ﴿رَهْوًا﴾: طريقًا يبسًا كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتىٰ يرجع آخرهم. وكذا قال عِكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وكَعْب الأحبار، وسِمَاك بن حرب، وغير واحدٍ.

---

(١) لوحة (١٥٦/ ب).

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَمْ[1] تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ﴾، وهي البساتين، ﴿وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ﴾، والمراد بها: الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، وهي: المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لَهِيعَةَ، عن وَهْب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عَمرٍو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهرٍ بين المشرق والمغرب، وذَلَّلَهُ له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهرٍ أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجَّر اللهُ له الأرضَ عيونًا، فإذا انتهىٰ جريه إلىٰ ما أراد الله، أوحىٰ الله إلىٰ كُلِّ ماءٍ [أن يرجع][2] إلىٰ عنصره[3].

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾، قال: كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلىٰ آخره في الشقين جميعًا، ما بين أُسوَان إلىٰ رَشِيد، وكان له تسعة خُلُج: خليج الإسكندرية، وخليج دِمياط، وخليج سَرْدَوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَىٰ، متصلة لا ينقطع منها شيءٌ عن شيءٍ، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلىٰ آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروىٰ من ستة عشر ذراعًا، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجُسورها وخُلجها.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ أي: عيشةٍ كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسُلبوا ذلك جميعه في صبيحةٍ واحدةٍ، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلىٰ جهنم وبئس المصير، واستولىٰ علىٰ البلاد المصرية، وتلك الحواصل الفرعونية، والممالك القِبْطية بنو إسرائيل، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، وهم [بنو][4] إسرائيل كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: لم تكن لهم أعمالٌ صالحةٌ تصعد في أبواب السماء فتبكي علىٰ فَقْدِهم، ولا لهم في الأرض بقاعٌ عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكُفرهم وإجرامهم[5]، وعُتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يَعْلَىٰ المَوْصِلي في «مسنده»: حدثنا أحمد بن إسحاق البَصْري، حدثنا مَكِّيُّ بن إبراهيم، حدثنا موسىٰ بن عُبَيْدة، حدثني يزيد الرَّقَاشي، حدثني أَنَس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ: بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِزْقُهُ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ عَمَلُهُ وَكَلَامُهُ، فَإِذَا مَاتَ

---

(١) لوحة (١٥٧/ أ). (٢) في (ز): (ارجعوا).

(٣) إسناده ضعيف: فيه ابن لهيعة: اختلط، وعبد الله بن عمرو ممن رووا من كتب أهل الكتاب؛ فلا يعتمد علىٰ تصحيحه.

(٤) في (ز): (بني). (٥) لوحة (١٥٧/ ب).

فَقَدَاهُ وَبَكَيَا عَلَيْهِ»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾. وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا علىٰ الأرض عملًا صالحًا يبكي عليهم. ولم يصعد لهم إلىٰ السماء من كلامهم ولا من عملهم كلامٌ طيبٌ ولا عملٌ صالحٌ فتفقدهم فتبكي عليهم[١].

ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسىٰ بن [عُبيدة][٢]، وهو: الرَّبذِي.

وقال ابن جرير: حدثني يحيىٰ بن طلحة، حدثني عيسىٰ بن يونس، عن صَفْوان بن عمرو، عن شُريح بن عُبيد الحَضْرَمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا. أَلَا لَا غُرْبَةَ عَلَىٰ مُؤْمِنٍ، مَا مَاتَ مُؤْمِنٌ فِي غُرْبَةٍ غَابَتْ عَنْهُ فِيهَا بَوَاكِيهِ إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ». [ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾][٣]، ثم قال: «إِنَّهُمَا لَا يَبْكِيَانِ عَلَىٰ الْكَافِرِ»[٤].

وقال ابن أبىٰ حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد -يعني: الزُّبيري- حدثنا العلاء بن صالح، عن المِنْهَال بن عَمرو، عن عبَّاد بن عبد الله قال: سأل رجلٌ عليًّا ﷺ: هل تبكي السماء والأرض علىٰ أحدٍ؟ فقال له: لقد سألتني عن شيءٍ ما سألني عنه أحدٌ قبلك، إنه ليس من عبدٍ إلا له مصلًّىٰ في الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عملٌ صالحٌ في الأرض، ولا عملٌ يصعد في السماء، ثم قرأ عَلَيٌّ ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا طَلْق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن مِنْهَال، عن سعيد بن جُبير قال: أتىٰ ابنَ عباسٍ رجلٌ فقال: يا أبا عباسٍ أرأيت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾، فهل تبكي السماء والأرض علىٰ أحدٍ؟ قال: نعم، إنه ليس أحدٌ من الخلائق إلا وله بابٌ في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه؛ بكىٰ عليه، وإذا فقد مُصَلاه من الأرض التي[٦] كان يصلي فيها[٧]، ويذكر الله فيها؛ بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثارٌ صالحةٌ، ولم يكن يصعد إلىٰ الله منهم خيرٌ، فلم تبكِ عليهم السماء والأرض.

وروىٰ العَوْفي، عن ابن عباسٍ نحو هذا[٨]. وقال سفيان الثوري، عن أبي يحيىٰ القَتَّات، عن

---

(١) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٤١٣٣)، وفيه موسىٰ بن عبيدة، ويزيد الرقاشي: كلاهما ضعيف.

(٢) في (ز): (عبدة). (٣) سقط من (ز).

(٤) مرسل: رواه الطبري (٢٥/ ٧٥)، والحديث مرسل، لكن الجملة الأولىٰ منه صحيحة.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٥١)، وفيه عباد بن عبد الله الأسدي الكوفي، قال البخاري: فيه نظر، وذكره العقيلي في «الضعفاء»، وقال ابن حجر: ضعيف، فالإسناد ضعيفٌ، لكنه يتقوَّىٰ بأثر ابن عباس الآتي.

(٦) في الأصل (الذي). (٧) لوحة (١٥٨/ أ).

(٨) رواه الطبري (٢٥/ ١٢٤)، وإسناده صحيح.

مجاهد، عن ابن عباس ﵄ قال: كان يقال: تبكي الأرض علىٰ المؤمن أربعين صباحًا.

[وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحدٍ. وقال مجاهد أيضًا: ما مات مؤمنٌ إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا](١)، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي علىٰ عبدٍ كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي علىٰ عبدٍ كان لتكبيره وتسبيحه فيها دويٌّ كدوي النحل؟ وقال قتادة: كانوا أهون علىٰ الله من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المُسْتَورد بن سابق، عن عُبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا علىٰ اثنين، قلت لعُبيد: أليس السماء والأرض تبكي علىٰ المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قلت: لا، قال: تحمر وتصير وردةً كالدِّهان، إن يحيىٰ بن زكريا لما قُتِل احمرتِ السماء وقطرت دمًا. وإن حسين بن علي لما قُتِلَ احمرتِ السماء(٢).

وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو غسَّان محمد بن عمرو -زُنَيج-، حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قُتِل حُسين بن علي ﵄ احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها(٣). وهكذا قال السُّدِّي الكبير. وقال عطاء الخُرَاساني: بكاؤها أن تحمر أطرافها.

وذكروا أيضًا في مقتل الحسين أنه ما قُلِبَ حجرٌ يومئذ إلا وُجِدَ تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحْمرَّ الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من [سُخْف](٤) الشيعة وكذبهم؛ ليُعَظموا الأمر، ولا شك أنه عظيمٌ، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين ﵁ ولم يقع شيءٌ مما ذكروه، فإنه قد قُتِل أبوه علي بن أبي طالب -وهو أفضل منه بالإجماع- ولم يقع شيءٌ من ذلك، وعثمان بن عفان قُتل محصورًا مظلومًا، ولم يكن شيءٌ من ذلك، وعمر بن الخطاب ﵁ قتل في المِحْرَاب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تَطْرُقهم مصيبةٌ قبل ذلك، ولم يكن شيءٌ من ذلك. وهذا(٥) رسول الله ﷺ -وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة- يوم مات لم يكن شيءٌ مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس فقال الناس: الشمس خسفت لموت إبراهيم، فصَلَّىٰ بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخَطبهم وبيَّن لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته(٦).

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٥٢)، وفيه المستورد بن سابق، قال أبو حاتم: شيخ، وعبد السلام بن عاصم: ضعيف كما في «التقريب».

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٥٣)، وهو منكر.

(٤) في (ز): (خسف).

(٥) لوحة (١٥٨/ ب).

(٦) البخاري (١٠٤٣)، ومسلم (٩١٥).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، يَمْتَنُّ عليهم تعالىٰ بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مستكبرًا جبارًا عنيدًا، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]، وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾] [العنكبوت: ٣٩]، [فكان فرعون](١) سَرِفًا في أمره، سخيفَ الرأي علىٰ نفسه.

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال مجاهد: ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا علىٰ أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمانٍ عالمًا. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، أي: في زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثَّريد علىٰ سائر الطعام.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: من الحُجج والبراهين، وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾، أي: اختبارٌ ظاهرٌ جليٌّ لمن اهتدىٰ به.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثَمَّ إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقًّا ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وهذه حجةٌ باطلةٌ وشبهةٌ فاسدةٌ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يُعيد اللهُ العالمين(٢) خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكونون شهداء علىٰ الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدًا.

ثم قال تعالىٰ مُتهددًا لهم، ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يُرَدُّ، كما حَلَّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث، وكقوم تُبَّع -وهم: سبأ- حيث أهلكهم الله وخَرَّب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شَذَرَ مَذَرَ، كما تقدم ذلك في «سورة سبإ»، وهي مُصَدَّرةٌ بإنكار

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (١٥٩/ أ).

المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عَربًا من قَحْطَان كما أن هؤلاء عربٌ من عَدْنَان، وقد كانت حِمْيَر -وهم: سبأ- كلما مَلَكَ فيهم رجلٌ سموه تُبَّعًا، كما يقال: كِسْرىٰ لمن مَلَكَ الفُرْس، وقَيْصَر لمن مَلَكَ الروم، وفِرْعَون لمن ملك مصر كافرًا، والنَّجَاشِي لمن مَلَكَ الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تَبَابِعَتِهم خرج من اليمن، وسار في البلاد حتىٰ وصل إلىٰ سَمَرْقَنْد، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذي مَصَّرَ الحِيرَة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرُونه[1] بالليل، فاستحيا منهم وكَفَّ عنهم، واستصحب معه حَبْرَين من أحبار يهود كانا قد نصحاه، وأخبراه أنه لا سبيل له علىٰ هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبيٍّ يكون في آخر الزمان، فرجع عنها، وأخذهما معه إلىٰ بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضًا، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل، وأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ علىٰ يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها، وكساها المُلاء[2] والوصائل والحبير. ثم كَرَّ راجعًا إلىٰ اليمن ودعا أهلها إلىٰ التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه من يكون علىٰ الهداية قبل بعثة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتهود معه عامة أهل اليمن.

وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه «السيرة»[3]. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» ترجمةً حافلةً، أورد فيها أشياءَ كثيرةً مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه مَلَكَ دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلىٰ اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن أبي ذئب، عن المَقْبري، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4] عن النبي ﷺ قال: «**مَا أَدْرِي الْحُدُودُ طَهَارَةٌ لِأَهْلِهَا أَمْ لا؟ وَلَا أَدْرِي تُبَّعٌ لَعِينًا كَانَ أَمْ لا؟ وَلَا أَدْرِي ذُو الْقَرْنَينِ نَبِيًّا كَانَ أَمْ مَلِكًا؟**». وقال غيره: «أَعُزَيرًا كان نبيًّا أم لا؟». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حماد [الطِّهْرَاني][5]، عن عبد الرزاق[6].

قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق. ثم روىٰ ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْبٍ، عن أبيه، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**عُزَيرٌ لا أَدْرِي أَنبيًّا كَانَ أَمْ لا؟ وَلا أَدْرِي [أَلَعِين تُبَّع]**[7] **أَمْ لا؟**».

ثم أورد ما جاء في النهي عن سَبِّه ولعنته، كما سيأتي. وكأنه -والله أعلم- كان كافرًا ثم أسلم، وتَابَعَ دين [الكليم][8] علىٰ يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان علىٰ الحق، قبل بعثة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وحج البيت في زمن الجُرهُميين، [وكساه المُلاء والوصائل من الحرير، والحبر ونحر عنده ستة آلاف

---

(١) أي: يضيفونه.

(٢) المُلاء: واحدة ملاءة، وهي: الملحفة، والوصائل: ثياب يمنية، يوصل بعضها ببعض، والحبير من الثياب: ما كان موشيًا مخططًا.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩). (٤) لوحة (١٥٩/ ب).

(٥) في (ز): (الظهراني)، والمثبت هو الصواب، بكسر الطاء المهملة، وسكون الهاء.

(٦) صحيح: رواه الحاكم (١/ ٣٦)، وأبو داود (٤٦٧٤)، وابن أبي حاتم (١٨٥٥٣)، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٧) في (ز): (ألعن تتبعًا). (٨) في (ز): (الخليل).

بَدَنِهِ، وعَظَّمَهُ وأكرمه. ثم عاد إلىٰ][1] اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طُرقٍ متعددةٍ مطولةٍ مبسوطةٍ، عن أُبي بن كَعْب، وعبد الله بن سَلَام، وعبد الله بن عباس، وكَعْب الأَحْبار. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلىٰ عبد الله بن سَلَام أيضًا، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روىٰ قصته وَهْب بن مُنَبِّهٍ، ومحمد بن إسحاق في «السيرة» كما هو مشهورٌ فيها. وقد اختلط علىٰ الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهرٍ طويلٍ، فإن تُبَّعًا هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه علىٰ يديه، ثم لما مات عادوا بعده إلىٰ عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالىٰ كما ذكره في «سورة سبإ»، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جُبير: كَسَا تُبَّع الكَعبة. وكان سعيدٌ ينهىٰ عن سَبِّه.

وتُبَّعُ هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه: أسعد أبو كُرَيْبٍ بن مَلْكيكرب اليماني، ذكروا أنه ملك علىٰ قومه ثلاثمائة سنة وستًّا وعشرين سنة، ولم يكن في حِمْيَر أطول مدة منه، وتُوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحَبْران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نبي [في آخر الزمان][2]، اسمه: أحمد، قال في ذلك شعرًا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب -خالد بن زيد- الذي نزل رسول الله ﷺ في داره، وهو[3]:

شَهِدْتُ عَلَىٰ أَحْمَدَ أَنَّه ... رَسُولٌ مِنَ الله بَارِي النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرِي إلَىٰ عُمْرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيرًا لَه وابنَ عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَه ... وفَرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفِر قبرٌ بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رءوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: «هذا قبر حبي ولميس -وروي: حبي وتماضر- ابنتي تُبَّع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئًا، وعلىٰ ذلك مات الصالحون قبلهما».

وقد ذكرنا في «سورة سبإ» شعر سبإ في ذلك أيضًا.

قال قتادة: ذُكِر لنا أن كَعْبًا كان يقول في تُبَّع: نُعِت نَعْت الرجل الصالح، ذَمَّ اللهُ تعالىٰ قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعًا؛ فإنه قد كان رجلًا صالحًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صَفْوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَةَ عن أبي زُرْعَةَ -يعني: عمرو بن جابر الحَضْرمي- قال: سمعت سَهْل بن سعد الساعدي يقول: قال

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) في (ز): (آخر في الزمان)
(٣) لوحة (١٦٠/ أ).

رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعًا؛ فإنه قد كان أسلم»(١).

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» عن حسن بن موسىٰ، عن ابن لَهيعةَ به.

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأَبَّار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزَّةَ، حدثنا مُؤَمل ابن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباسٍ، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ»(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن ابن أبي ذئب، عن المقْبُري، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَدْرِي، تُبَّعٌ نَبِيًّا كَانَ أَمْ غَيْرَ نَبِيٍّ»(٣).

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم، كما أورده ابن عساكر: «لا أَدْرِي تُبَّعٌ كَانَ لَعِينًا أَمْ لا؟». فالله أعلم.

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيىٰ [البَدِيّ](٤)، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفًا.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عِمْران أبو الهُذَيل، أخبرني تَميم بن عبد الرحمن قال: قال عَطَاء بن أبي رباح: لا تسبوا تُبَّعًا؛ فإن رسول الله ﷺ نهىٰ عن سبه(٥).

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾(٦)

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

---

(١) حسن لغيره:رواه أحمد (٥/ ٣٤٠)، وابن لهيعة: اختلط، وشيخه عمرو بن جابر: ضعيف. ورواه الطبراني (١١/ ٢٩٦)، من حديث ابن عباس، وفيه ابن أبي بَزَّةَ، وثقه ابن حبان، وذكره العقيلي في «الضعفاء»، وللحديث شواهد أخرىٰ استوفاها الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٤٢٣)، وبمجموعها فالحديث حسن لغيره.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) إسناده صحيح:رواه البزار (٨٥١٩)، والحاكم (٢/ ٤٥١)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ٣٣٧)، ويعارضه ما تقدم قريبًا بنفس الإسناد ولفظه: «لا أدري تبع لعينًا أم لا؟» فالله أعلم أي اللفظين أصح، لكن جمع بينهما الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: فالجمع بينه وبين ما قبله أنه ﷺ أُعْلِم بحاله بعد أن كان لا يعلمها؛ فلذلك نهىٰ عن سبه خشية أن يبادر أحدٌ إلىٰ سَبِّه ممن لم يسمع الكلام الأول.

(٤) في (ز): (المدني).

(٥) إسناده مرسل رواه عبد الرزاق (٢/ ١٧١)، وقد تقدم ما في معناه متصلًا.

(٦) لوحة (١٦٠/ ب).

ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ -وهو يوم القيامة- يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين، ويُثيب المؤمنين.

وقوله: ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لا ينفع قريبٌ قريبًا، كقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل أخًا له عن حاله وهو يراه عيانًا.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر القريبُ قريبَهُ، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذ إلا مَنْ رَحِمَه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِخَلْقِهِ[1]، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيزٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عما يعذب به عباده الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ والأثيم؛ أي: في قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحدٍ أنه أبو جهل[2]. ولا شكَّ في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصةً به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا عبدالرحمن، حدثنا سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم عن همام بن الحارث، أن أبا الدَّرْدَاء كان يُقرئ رجلًا [﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء: قُل][3]: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر[4]. أي: ليس له طعامٌ غيرها.

قال مجاهد: ولو وقعت منها قَطْرةٌ في الأرض لأفسدت علىٰ أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعًا.

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾، قالوا: كعكر الزيت، ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي: من حرارتها ورداءتها.

---

(١) في بعض النسخ: (إلا رحمة الله بخلقه).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٢٤)، والطبري (٢٢/٢٨-شاكر) وإسناده مرسل، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٢٥٣)، و«الدر المنثور» (٧/٤١٨ - ٤١٩).

(٣) سقط من (ز).

(٤) صحيح: رواه الطبري (٢٥/ ١٣٠ - ١٣١).

وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالىٰ إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوهُ﴾، ابتدره سبعون ألفًا منهم. ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾(١) أي: سُوقوه سَحْبًا ودَفْعًا في ظَهره. قال مُجاهد: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه. وقال الفرَزْدَق:

لَـيسَ الكِـرَامُ بِنَاحِلِيـكَ أَبَـاهُمُ ... حَتَّـىٰ تُـرَدَّ إِلَـىٰ عَطِيَّـةَ تُعْتَـلُ

﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسطها. ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، كقوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقد تقدم أن المَلَك يضربه بمقمعةٍ من حديدٍ، تفتح دماغه، ثم يصب الحميم علىٰ رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتىٰ تَمْرُق من كعبيه -أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك-.

وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، أي: قولوا له ذلك علىٰ وجه التَّهكُّم والتَّوبيخ.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عباس: أي لست بعزيزٍ ولا كريمٍ.

وقد قال الأُمَوي في «مغازيه»: حدثنا أَسْبَاط، حدثنا أبو بكر الهُذَلِي، عن عِكْرِمة قال: لَقِيَ رسول الله ﷺ أبا جهل -لعنه الله- فقال: «إن الله تعالىٰ أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده، وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أني أَمْنَعُ أهل البَطْحَاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالىٰ يوم بدر، وأَذَلَّهُ، وَعَيَّرَهُ بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ -١٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾

لما ذكر تعالىٰ حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء -ولهذا سُمّي القرآن مَثَاني- فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ -أي: لله في الدنيا- ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت

(١) لوحة (١٦١/ أ).
(٢) ضعيف جدًّا: في إسناده أبو بكر الهذلي: متروك، والإسناد مرسل، أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٤١٨).

والخروج، ومن كل همٍّ وحزنٍ وجزعٍ، وتعبٍ ونَصَبٍ، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب [(١)].

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾، وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم، وشرب الحميم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾، وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾، وهو ما فيه بريقٌ ولمعانٌ، وذلك كالرِّيَاش، وما يُلبس علىٰ أعالي القماش، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: علىٰ السُّرر، لا يجلس أحدٌ منهم وظهره إلىٰ غيره.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾، أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحُور العِين الحِسَان اللاتي ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حَبيب، حدثنا [نَصْرُ] [(٢)] بن مُزَاحِم العَطَّار، حدثنا عُمَر بن سعد، عن رجلٍ، عن أنسٍ -رفعه نوح- قال: لو أن حَوْرَاء بَزَقَت في بَحْرٍ لُجِّيٍّ، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها [(٣)].

وقوله: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أُحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، هذا استثناءٌ يؤكد النفي، فإنه استثناءٌ منقطعٌ ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: **«يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْت، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْت»** [(٤)] وقد تقدم الحديث في سورة مريم.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سُفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن [أبي] [(٥)] مسلم الأغَرّ، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا»**. رواه مسلم عن إسحاق بن راهويه وعَبْد بن حُميد، كلاهما عن عبد الرزاق به [(٦)].

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق: «أبو مُسْلم الأغَرّ»، وأهلُ المدينة يقولون: «أبو عبد الله الأغَرّ».

وقال أبو بكر بن أبي داود السِّجِسْتَاني: حدثنا أحمد بن حَفْص، عن أبيه، عن إبراهيم [بن] [(٧)]

---

(١) لوحة (١٦١/ ب).
(٢) في (ز): (نعمة)، والمثبت هو الصواب.
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٥٨)، وفيه رجل مجهول، ورواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٨٦) من وجه آخر. وإسناده ضعيف فيه منصور بن المهاجر: مستور، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع».
(٤) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، والترمذي (٣١٥٥).
(٥) في (ز): (ابن)، وهو خطأ.
(٦) مسلم (٢٨٣٧).
(٧) في (ز): (عن)، وهو خطأ.

طَهْمَان، عن الحَجَّاج -هو ابن حجاج[١]- عن قتادة[٢]، عن عُبيد الله بن عمرو، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، يَنْعَمُ فِيهَا وَلَا يَبْأَسُ، وَيَحْيَا فِيهَا فَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ**»[٣].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيىٰ، حدثنا عمرو بن محمد النَّاقِد، حدثنا سليمان ابن [عُبيد][٤] الله الرقي، حدثنا مُصْعب بن إبراهيم، حدثنا عِمْرَان بن الرَّبيع الكُوفي، عن يحيىٰ بن سعيدٍ الأنصاري، عن مُحمد بن المُنْكَدِر، عن جابر ﵁ قال: سُئِل نبي الله ﷺ: أينامُ أهل الجنة؟ فقال: «**النَّوْمُ أَخُو الْمَوتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لا يَنَامُونَ**»[٥].

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدوَيه في «تفسيره»: حدثنا أحمد بن القاسم بن صَدَقَة المصري، حدثنا المِقْدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المُغيرة، حدثنا سُفيان الثوري، عن مُحمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**النَّوْمُ أَخُو الْمَوتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لا يَنَامُونَ**»[٦].

وقال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفِريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟[٧] قال: «لا؛ النوم أخو الموت» ثم قال: «لا نعلم أحدًا أسنده عن ابن المنكدر عن جابر إلا الثوري، ولا عن الثوري، إلا الفريابي» هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم، وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛ ولهذا قال: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: إنما كان هذا بفضله، عليهم

---

(١)لوحة (١٦٢/ أ)، وهو حجاج بن حجاج الباهلي البصري الأحول.

(٢)في (ز): (عبادة)، وهو خطأ، والتصويب من كتب الرجال، وقتادة هو ابن دعامة السدوسي.

(٣)رواه ابن أبي داود في «البعث» (٥٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٠٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٠٤٥)، والضياء في «صفة الجنة» (١٣٤)، والأصبهاني في «الترغيب» (٧١١)، قال ابن أبي داود: هذا عبيد الله من أهل البصرة، لم يروه عنه غير قتادة، قلت: وعبيد الله: مجهول [انظر: «التاريخ الكبير» (٣/ ١/ ٣٩٢)، و«الجرح والتعديل» (٢/ ٢/ ٣٢٨)]، لكنه توبع في الروايات الأخرىٰ فرواه ابن سيرين عن أبي هريرة به، كما في رواية أبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٧٥) وإسناده حسن في المتابعات، ويشهد للحديث الرواية السابقة.

(٤)في (ز): (عبد)، والصواب ما أثبتناه، وهو: سليمان بن عبيد الله الأنصاري، أبو أيوب الرَّقي.

(٥) صححه الألباني:رواه الطبراني في «الأوسط» (٩١٩) (٨٨١٦)، وتمام في «الفوائد» (٤٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٠) وقال: غريبٌ من حديث الثوري، ورواه في «صفة الجنة» (٩٠)، والبيهقي في «الأدب» (٦٧٧)، وفي «الشعب» (٤٤١٦)، ورجَّح الدارقطني الإرسال. انظر: «العلل» (٣٢١٥)، واستوفىٰ طرقه الشيخ الألباني، وانظر: «الصحيحة» (١٠٨٧).

(٦)انظر التعليق السابق.

(٧)البزار (٣٥١٧-كشف الأستار)، وانظر ما سبق.

وإحسانه إليهم كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[١].

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينًا جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف[٢] وعاند، قال الله تعالىٰ لرسوله مسليًّا له وواعدًا له بالنصر، ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر، وعُلُو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك -يا محمد- ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان
ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

---

(١) البخاري (٥٦٧٣) (٦٤٦٣) (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) نحوه.
(٢) لوحة (١٦٢/ ب).

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

تفسير سورة الجاثية، وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

يُرشد تعالىٰ خلقه إلىٰ التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات الأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش، والسِّباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله -تعالىٰ- من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدةً لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي: جنوبًا وشآمًا، ودبورًا وصبًا[1]، بحرية وبريةً، ليليةً ونهاريةً. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيمٌ لا ينتج.

وقال أولًا: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرَقٍّ من حالٍ شريفٍ إلىٰ ما هو أشرف منه وأعلىٰ. وهذه الآيات[2] شبيهةٌ بآية «البقرة»، وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]. وقد أورد ابن أبي حاتم -هاهنا- عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ أثرًا طويلًا غريبًا في خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

---

(١) الشآم: الريح القادمة من الشام، والدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبَا والقَبُول، وهي ريحٌ تَهُبُّ من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق. قال ابنُ الأثير: وقول من قال: سُميت به؛ لأنها تأتي من دُبُرِ الكعبة -ليس بشيء. «اللسان»: دبر. والصبا: ريحٌ مهبها من مشرق الشمس إذ استوىٰ الليل والنهار. «المعجم الوسيط»: (ص٥٠٧).

(٢) لوحة (١٦٣/ أ).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالىٰ: هذه آيات الله -يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبينات- ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: متضمنةً الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون؟!

ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، أي: أفَّاكٍ في قوله كذاب، حلافٍ مهينٍ أثيم في فعله وقيله، كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: تُقرأ عليه، ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾، أي: علىٰ كُفره وجحوده استكبارًا وعنادًا، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابًا أليمًا مُوجعًا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: إذا حفظ شيئًا من القرآن كفر به، واتخذه سخريًّا وهزوًا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روىٰ مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر قال: نهىٰ رسولُ الله ﷺ أن يُسَافَرَ بالقرآن إلىٰ أرض العدو مخافة أن يناله العدو[1].

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾، أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلىٰ جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾[2] أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ -يعني: القرآن- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، وهو [المؤلم][3] الموجع.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

يذكر تعالىٰ نِعَمه علىٰ عبيده فيما سَخَّر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ -وهي السفن- فيه بأمره تعالىٰ، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ

(١) رواه مسلم (١٨٦٩). (٢) لوحة (١٦٣/ ب). (٣) في (ز): (المقلق).

تَشْكُرُونَ ﴾ أي: علىٰ حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به؛ أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وروىٰ ابن جريرٍ من طريق العَوْفي، عن ابن عباسٍ في قوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾: كُلُّ شيءٍ هو مِنَ الله، وذلك الاسمُ فيه اسمٌ مِن أسمائه، فذلك جميعًا منه، ولا يُنَازِعُهُ فيه المُنَازِعون، واسْتَيْقن أنه كذلك[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أَبي، حدثنا مُحمد بن خَلَف العَسْقَلاني، حدثنا الفِرْيابي، عن سُفيان، عن الأعمش، عن المِنْهالِ بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجُلٌ عبدَ الله بن عمرو قال: مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرىٰ. قال: وائتِ ابنَ عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[(٢)]. هذا أثرٌ غريبٌ، وفيه نكارةٌ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾، أي: يصفحوا عنهم. ويحتملوا[(٣)] الأذىٰ منهم[(٤)]. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أُمِروا أن يصبروا علىٰ أذىٰ المشركين وأهل الكتاب؛ ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا علىٰ العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾: لا يبالون نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾، أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله مُجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، أي: تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه؛ فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) رواه الطبري (٢٥/ ١٤٣) وإسناده مسلسلٌ بالضعفاء.

(٢) منكر: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٣٦)، وأبو أراكة لم أعرفه، والأثر فيه نكارة كما ذكر ابن كثير.

(٣) في (ز): (ويحملوا). (٤) لوحة (١٦٤/ أ).

يذكر تعالىٰ ما أنعم به علىٰ بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله المُلك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: في زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: حُججًا وبراهينَ وأدلةً قاطعاتٍ، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا -بعد ذلك- من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيًا منهم علىٰ بعضهم بعضًا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ -يا محمد- ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذيرٌ لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ أي: اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضًا(١)، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالىٰ يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات.

ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ -يعني: القرآن- ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ -أي: عملوها وكسبوها- ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، أي: نُساويهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار.

قال الحافظ أبو يَعْلَىٰ: حدثنا مُؤَمَّل بن إهَاب، حدثنا بُكَيرُ بن عثمان التَّنوخِي، حدثنا الوَضِين ابن عَطاء، عن يزيد بن مَرْثَد [الصنعاني](٢)، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن الله بَنَىٰ دينه علىٰ أربعة أركان، فمن لم صبر(٣) عليهن ولم يعمل بهن لَقِيَ الله وهو من الفاسقين. قيل: وما هُنَّ يا أبا ذر؟ قال: يُسلم

---

(١) لوحة (١٦٤/ ب). (٢) في (ز): (الناجي)، والمثبت هو الصواب.

(٣) في (ز): (فمن صبر)، والمثبت موافق لما في «المطالب العالية»، وهو الموافق لسياق الكلام.

حلال الله لله، وحَرام الله لله، وأَمْر الله لله، ونَهي الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله. قال أبو القاسم ﷺ: «كَمَا أَنَّهُ لا يُجْتَنَىٰ مِنَ الشَّوْكِ العِنَبُ، كَذَلِكَ لا يَنَالُ الفُجَّارُ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ»(١). هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حَجَرًا بمكة في أُسِّ الكعبة مكتوبًا عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتنىٰ من الشوك العنب.

وقد روىٰ الطبراني من حديث شُعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي الضُّحَىٰ، عن مَسْرُوق، أن تميمًا الدَّاريّ قامَ ليلةً حتىٰ أصبح يُردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾(٢). ولهذا قال تعالىٰ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنًا فعله، ومهما رآه قبيحًا تركه: وهذا قد يستدل به علىٰ المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين(٣).

وعن مالك -فيما رُوي عنه من التفسير-: لا يَهْوَىٰ شيئًا إلا عَبَدَهُ.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين:

أحدها: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحُجة عليه.

والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾، أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئًا يهتدي به، ولا يرىٰ حجةً يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن قول الدَّهْرِيَّة من الكفار ومن وافقهم من مُشركي العرب في إنكار المعاد:

---

(١) انظر: «المطالب العالية» (٣١٦٦)، و«اتحاف الخيرة» (٧١٤٢)، وفيه الوضين بن عطاء: صدوق سيئ الحفظ، وللمرفوع منه طرق أوردها الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٤٦) وحسنه.

(٢) لوحة (١٦٥/ أ) والحديث رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٥٠)، ورجاله ثقات، ولكن لا أعلم: هل سمع مسروق من تميم الداري أم لا؟

(٣) تقدم أن المراد بالتحسين والتقبيح: الحكم علىٰ الشيء بأنه حسن أو قبيح، ومذهب أهل السنة فيه: أن العقل والشرع كلاهما يُحَسِّنُ ويُقبح -خلافًا للأشاعرة ومن وافقهم-، لكن لا يترتب الثواب والعقاب علىٰ الفعل إلا بعد ورود الشرع. راجع ما تقدم من التعليق علىٰ تفسير سورة الأعراف، الآية (١٥٧).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قومٌ ويعيش آخرون، وما ثَمَّ مَعَاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المُنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة[1]، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستةٍ وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلىٰ ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مراتٍ لا تتناهىٰ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا «الصحيح»، وأبو داود[2]، والنسائي، من رواية سفيان بن عُيينة، عن الزُّهري، عن سعيد بن المُسيب، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ**»[3]. وفي روايةٍ: «**لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»[4].

وقد أورده ابن جريرٍ بسياقٍ غريبٍ جدًّا، فقال: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا سُفيان بن عُيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المُسيب، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يُهْلِكُنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَهُوَ الَّذِي يُهْلِكُنَا، يُمِيتُنَا وَيُحْيِينَا، فَقَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾**»، قال: «**وَيَسُبُّونَ الدَّهْرَ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[5].

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن سُرَيْج[6] بن النُّعْمَان، عن ابن عُيينة مثله. ثم رَوَىٰ عن يُونس، عن ابن وَهْبٍ[7]، عن الزهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**».

وأخرجه صاحبا «الصحيح» والنسائي، من حديث يُونس بن يزيد به.

وقال مُحمد بن إسحاق، عن العَلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) من أكثر من رد علىٰ الفلاسفة وبيَّن ضلالهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وردوده متناثرة في كتبه. ومنها: «الصفدية»، و«درء التعارض»، و«منهاج السنة»، و«مجموع الفتاوىٰ»، و«النبوات».

(٢) لوحة (١٦٥/ ب).

(٣) البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبو داود (٥٢٧٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٨٧).

(٤) مسلم (٢٢٤٦).

(٥) **صحيح**: رواه الطبري (٢٥/ ٩٢)، وابن أبي حاتم (١٨٥٣٩)، وإسناده صحيح.

(٦) في (ز): (شريح بن النعمان)، والمثبت هو الصواب.

(٧) في (ز): (عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري)، والمثبت هو الصواب.

قال: «[يَقُولُ اللهُ][(١)]: اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي فَلَمْ يُعْطِنِي، وَسَبَّنِي عَبْدِي، يَقُولُ: وَادَهْرَاهُ. وَأَنَا الدَّهْرُ»[(٢)].

قال الشَّافعيُّ وأبو عُبيدٍ وغيرُهما من الأئمة في -تفسير قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»-: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شِدةٌ أو بلاءٌ أو نكبةٌ، قالوا: يا خَيبَة الدهر. فيُسْنِدُون تلك الأفعال إلىٰ الدهر ويَسُبونه، وإنما فاعلها هو الله عَجَّلَ، فكأنهم إنما سبوا الله عَجَّلَ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهِي عن سَب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويُسندون إليه تلك الأفعال.

هذا[(٣)] أَحْسَنُ ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حَزْم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عَدّهم الدَّهْر مِن الأسماء الحسنىٰ أخذًا من هذا الحديث[(٤)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: إذا استدل عليهم وبيِّن لهم الحق، وأن الله قادرٌ علىٰ إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ[(٥)] إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقًّا.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلىٰ الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: الذي قدر علىٰ البداءة قادرٌ علىٰ الإعادة بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتىٰ تقولوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن:٩]، ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا يُنكرون المعاد، ويَستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦، ٧]، أي: يرون وقوعه بعيدًا، والمؤمنون يرون ذلك سهلًا قريبًا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) سقط من (ز).

(٢) حسن لغيره: رواه الطبري (٢٥/ ٩٢)، ورجاله ثقات غير ابن إسحاق، فإنه صدوق يدلس، وقد عنعن، لكن يشهد للحديث ما تقدَّم.

(٣) لوحة (١٦٦/ أ).

(٤) انظر ما سبق من التعليق عند الآية (١٨٠) في سورة الأعراف.

(٥) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: فإن قيل: لِمَ سمىٰ قولهم حجةً وليس هو بحجة؟ قيل: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته، وساقوه مساقها؛ فسميت حجةً علىٰ سبيل التهكم.

يخبر تعالىٰ أنه مالك السموات والأرض، الحَاكِم فيهما في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ -أي: يوم القيامة- ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله علىٰ رسله من الآيات البينات، والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قَدِمَ سفيان الثوري المدينةَ، فسمع المعافِري يتكلمُ ببعض ما يُضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمتَ أن لله يومًا يَخْسر فيه المُبطلون؟ قال: فما(١) زالت تُعرف في المعافري حتىٰ لَحِقَ بالله ﷻ. ذكره ابن أبي حاتم.

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: علىٰ رُكبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا يكون إذا جيء بجهنم؛ فإنها تزفر زفرةً لا يبقىٰ أحدٌ إلا جثا لركبتيه، حتىٰ إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتىٰ إن عيسىٰ ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدتني.

قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البَصْري: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: علىٰ الرُّكَبِ.

وقال عِكْرِمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزةً علىٰ ناحيتها، وليس علىٰ الرُّكَبِ. والأول أولىٰ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المُقْرئ، حدثنا سُفيان بن عُيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن بَابَاه، أن رسُولَ اللهِ ﷺ قال: «كَأَنِّي أَرَاكُمْ جَاثِينَ بِالكَوْمِ(٢) دُونَ جَهَنَّمَ»(٣).

وقال إسماعيل بن رَافع المَدِيني، عن مُحمد بن كَعْب، عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا في حديث الصُّور(٤): «فَيَتَمَيَّزُ النَّاسُ، وَتَجْثُو الأُمَمُ(٥)، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللهُ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾».

وهذا فيه جمعٌ بين القولين، ولا مُنافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾، يعني: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر:٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالىٰ: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٣-١٥].

ثم قال: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾، أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادةٍ ولا نقصٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

---

(١) لوحة (١٦٦/ ب).

(٢) أي: المواضع العالية.

(٣) مرسل: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٩٩)، وابن أبي حاتم (١٨٥٤١)، وإسناده مرسل.

(٤) في (ز): (الصورة).

(٥) ضعيف: تقدم. انظر تفسير الآية (٢٠٨) من سورة البقرة، والآية (٧٣) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إِنَّا كُنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباسٍ وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلىٰ السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال علىٰ ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ[1] في كل ليلة قَدْر، مما كتبه الله في القدم علىٰ العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات، وهي الخالصة الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهي الجنة، كما ثبت في «الصحيح» أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[2].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البيِّن الواضح.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك -تقريعًا وتوبيخًا-: أما قُرِئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها؟ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهمًا؛ أي: مرجوحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: بمتحققين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾؛ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾؛ أي: نُعاملكم

---

(١) لوحة (١٦٧/ أ).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠).

مُعاملة الناسي لكم في نار جهنم، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: فلم تعملوا له؛ لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

وقد ثبت في «الصحيح» أن الله تعالىٰ يقول[١] لبعض العبيد يوم القيامة: «أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ[٢]؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: فَاليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»[٣].

قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾؛ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء؛ لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريًّا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ -أي: من النار- ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العُتبىٰ، بل يُعذبون بغير حسابٍ ولا عِتابٍ، كما تدخل طائفةٌ من المؤمنين الجنة بغير عذابٍ ولا حسابٍ.

ثم لما ذكر حُكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: المَالِك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال مُجاهد: يعني السُّلطان؛ أي: هو العظيم المُمجد، الذي كل شيءٍ خاضعٌ لديه فقيرٌ إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَسْكَنْتُهُ نَارِي». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأَغرّ أبي مُسْلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن رسُولِ الله ﷺ بنحوه[٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُغَالب ولا يمانع، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالىٰ وتقدس، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية، ولله الحمدُ والمِنة.

(١) لوحة (١٦٧/ ب).
(٢) ترأس: تكون رئيسًا، وتربع: تأخذ ربع الغنيمة؛ أي: ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا.
(٣) رواه مسلم (٢٩٦٨).
(٤) رواه مسلم (٢٦٢٠).

سُورَةُ الأَحْقَافِ

تفسير سورة الأحقاف، وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ[1] يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾

يخبر تعالىٰ أنه نزَّل الكتاب علىٰ عبده ورسوله محمدٍ صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا تُرام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا علىٰ وجه العَبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلىٰ مدةٍ معينةٍ مضروبةٍ، لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: [لاهون][2] عما يراد بهم، وقد أُنزل إليهم كتابٌ، وأُرسل إليهم رسولٌ، وهم معرضون عن ذلك كله؛ أي: وسيعلمون غِبَّ ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ -أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره-: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أرشدوني إلىٰ المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: ولا شِرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قِطْمير، إنِ المُلْكُ والتصرُّف كله إلا لله ﷻ فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلىٰ هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيءٌ اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ أي: هاتوا كتابًا من كُتب الله المُنزلة علىٰ [الأنبياء][3] عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بيِّنٍ علىٰ هذا المسلك الذي سلكتموه، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: لا

---

(١) لوحة (١٦٨/ أ). (٢) في (ز): (لاهين).
(٣) في (ز): (أنبيائهم).

دليل لكم نقليًّا ولا عقليًّا علىٰ ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أَثَرَةٍ[(١)] من علم» أي: أو عِلم صحيح [يأثرونه عن][(٢)] أحدٍ ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحدٍ يأثر علمًا.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: أو بينةٍ من الأمر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ، عن سُفيان، حدثنا صَفْوَان بن [سُلَيم][(٣)]، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباسٍ -قال سُفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ-: «أو أثَرَةٍ من علمٍ» قال: «الخَطُّ»[(٤)].

وقال أبو بكر بن عَيَّاش: أو بَقِيَّة من علم.

وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ﴾ شيء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضًا: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعني: الخط[(٥)].

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ[(٦)]﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربةٌ، وهي راجعةٌ إلىٰ ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأكرمه وأحسن مثواه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾؛ أي: لا أضل ممن يدعو أصنامًا، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلىٰ يوم القيامة، وهي غافلةٌ عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جَمَادٌ حجارةٌ صُمّ.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]؛ أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

---

(١) **شاذة**: قَرَأَ (أَثْرَةٍ) الْحَسَنُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (أَثَارَةٍ).

(٢) في (ز): (مما يروونه عن).

(٣) في (ز): (حكيم)، وهو خطأ.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٢٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٣٦٣)، وفي «الأوسط» (٢٦٩)، وابن أبي حاتم (١٨٥٦٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (المسند ١٩٩٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٢) و(٧/ ١٠٥): رجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) **أثر ابن عباس**: رواه الحاكم (٢/ ٤٥٤)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، وأقره الذهبي، ورواه الطبري (٢٦/ ٢)، وإسناده صحيح.

(٦) لوحة (١٦٨/ ب).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي[1] وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تتلىٰ عليهم آيات الله بيناتٍ؛ أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحرٌ واضحٌ، وقد كَذَبوا وافتروا وضلّوا وكفروا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يَقْدرْ أحدٌ من أهل الأرض -لا أنتم ولا غيركم- أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ -٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديدٌ لهم، ووعيدٌ[2] أكيدٌ، وترهيبٌ شديدٌ.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيبٌ لهم إلىٰ التوبة والإنابة؛ أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغَفَر ورَحِمَ. وهذه الآية كقوله في «سورة الفرقان»: ﴿وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لَسْتُ بأول رسُولٍ طَرَقَ العَالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتىٰ تستنكروني [وتستبعدوا][3] بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلىٰ الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يَحْكِ ابن جريرٍ ولا ابن أبي حاتم غير ذلك.

---

(١) قال أبو بكر الجزائري حفظه الله: هذا ردٌّ علىٰ المتعنتين من المشركين الذين يطالبون الرسول ﷺ بما لم يكن في وسعه من أمور الغيب، وليس معناه. كما قيل: إنه لا يدري هل يكون بعد موته في الجنة أو في النار؟ ولا يدري هل يكون المشركون في النار أو الجنة؛ إذ هذا قولٌ باطلٌ. وأما حديث عثمان بن مظعون في البخاري (فإنه لما قالت المرأة: رحمة الله عليك يا أبا السائب إن الله أكرمك، فقال لها: وما يدريك أن الله أكرمه فإني -وأنا رسول الله- لا أدري ما يفعل بي)، فإن المراد منه: عدم الجزم بمصير من مات من المسلمين، ووجوب تفويض الأمر إلىٰ الله تعالىٰ.

(٢) لوحة (١٦٩/ أ). (٣) في (ز): (وتستبعدون).

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] [١]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخةٌ بقوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجلٌ من المسلمين: هذا قد بيَّن الله ما هو فاعلٌ بك يا رسول الله، فما هو فاعلٌ بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الفتح: ٥] [٢].

هكذا قال، والذي هو ثابتٌ في «الصحيح» أن المؤمنين قالوا: هنيئًا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل اللهُ هذه الآية [٣].

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾: ما أدري بماذا أُومر، وبماذا أُنهىٰ بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهُذَلِيّ، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، قد عَلِمَ أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا، أُخرجُ كما أُخرجَت الأنبياء من قبلي؟ أم أقتل كما قُتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيُخسفُ بكم أو تُرمون بالحجارة؟

وهذا القول هو الذي عَوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شَكَّ أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلىٰ الآخرة جازمٌ أنه يصير إلىٰ الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدرِ ما كان يئُول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلىٰ ماذا: أيؤمنون أم يكفرون [٤]، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابنِ شِهَاب، عن خَارِجة ابن زيد بن ثابت، عن أُمِّ العلاء -وهي امرأة من نسائهم- أخبرته -وكانت بَايعتْ رسُولَ الله ﷺ- قالت: طَار [٥] لهم في السُّكنىٰ حين اقترعت [٦] الأنصار علىٰ سُكنىٰ المهاجرين عُثمان بن مَظْعُون. فاشتكىٰ عثمانُ عندنا فمرَّضناه، حتىٰ إذا توفي أدْرَجناه في أثوابه، فدخل علينا رسُولُ الله، فقلتُ: رَحْمَةُ الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟**»، فقلت: لا أدري بأبي أنتَ وأمي! فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا [هُوَ]** [٧] **فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ، وَاللهِ مَا أَدْرِي -وَأَنَا رَسُولُ اللهِ- مَا يُفْعَلُ بِي!**»، قالت: فقلت: والله لا أُزكي أحدًا بعده أبدًا. وأحزنني ذلك، فنمتُ فرأيتُ لعُثمان عَينًا تجري، فجئتُ إلىٰ رسُولِ الله ﷺ فأخبرتُه بذلك، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ عَمَلُهُ**» [٨].

---

(١) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ البيهقي في «الدلائل» عن أنس.

(٢) لم أقف علىٰ إسناده

(٣) رواه البخاري (٤١٧٢)، وأبو عوانة (١٨١٥)، وأبو يعلىٰ (٣٢٥٢).

(٤) لوحة (١٦٩/ ب).

(٥) أي: حصل نصيبنا من المهاجرين عثمان.

(٦) في (ز): (أقرعت)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه أحمد (٦/ ٤٣٦)، ورواه البخاري (١٢٤٣) و(٢٦٨٧) و(٣٩٢٩) و(٧٠٠٣) و(٧٠٠٤) و(٧٠١٨).

فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «مَا أَدْرِي -وَأَنَا رَسُولُ اللهِ- مَا يُفْعَلُ بِهِ». وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ».

وفي هذا -وأمثاله- دَلالةٌ علىٰ أنه لا يُقْطَع لمُعين بالجنة إلا الذي نَصَّ الشَّارِعُ علىٰ تعيينهم، كالعشرة، وابن سَلَام، والغُميصاء[1]، وبلال، وسُرَاقة، وعبد الله بن عمرو بن حَرَام -والد جابر-، والقرَّاء السبعين الذين قُتِلوا ببئر مَعُونة، وزيد بن حَارثة، وجعفر، وابن رَوَاحَة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: إنما أتبعُ ما ينزله اللهُ عَلَيَّ من الوحي، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّن النِّذَارة، وأمري ظاهرٌ لكل ذي لُبٍّ وعقلٍ.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ[2] ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ -هذا القرآن- ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾، أي: ما ظنكم أن الله صَانعٌ بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله عَلَيَّ لأبلغكموه، وقد كَفَرتم به وكذبتموه؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؛ أي: وقد شهدت بصدقه وصِحته الكتُب المُتقدمة المُنْزلة علىٰ الأنبياء قبلي، بشرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾، أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيته، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه. وقال مَسْرُوق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سَلَام وغيره؛ فإن هذه الآية مكيةٌ نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

---

(١) ويقال لها أيضًا: الرُّمَيْصاء، وهي: أم سُلَيم؛ أم أنس بن مالك. ينظر: «شرح مسلم» للنووي: (١٦/ ١١)، و«هدي الساري»: (ص/ ٢٤٦).

(٢) لوحة (١٧٠/ أ).

قال مَسْروق، والشَّعْبي: ليس بعبد الله بن سَلَام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سَلَام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير.

وقال مالك، عن أبي النَّضْرِ، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على وجه الأرض: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، إلا لعبد الله بن سَلَام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ (١). رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث مالك به.

وكذا قال ابن عباس، ومُجاهد، والضَّحَّاك، وقَتادة، وعِكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال ابن [يَسَاف] (٢)، والسُّدِّي، والثَّوري، ومالك بن أنس، وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سَلَام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون: بلالًا، وعمارًا، [وصُهَيبًا] (٣)، وخبابًا، وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء (٤)، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجَاهَةً. وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطئوا خطأً بَيِّنًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، أي: يتعجبون؛ كيف اهتدى هؤلاء دوننا؟! ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعةٌ؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه (٥)؛ لأنهم لم يتركوا خصلةً من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ -أي: بالقرآن- ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ﴾ -أي: كذبٌ- ﴿قَدِيمٌ﴾، أي: مأثورٌ عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكِبْر الذي قال رسُولُ اللهِ ﷺ: «بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» (٦).

ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ -وهو التوراة- ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ -يعني: القرآن- ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب، ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: فصيحًا بينًا واضحًا، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتملٌ على النّذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين.

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٤٨)، وأحمد (١/ ١٦٩).

(٢) في (ز): (يسار)، والمثبت هو الصواب.

(٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (١٧٠/ ب).

(٥) ومن أحسن التعريفات للبدعة ما ذكره أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله قائلًا عنها: «طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه». «الاعتصام» (١/ ٤٧) ط دار ابن الجوزي -الدمام-، و(١/ ٤٣) ط مشهور سلمان، وانظر: «مجموع الفتاوى»: (٤/ ١٠٧)، و«جامع العلوم والحكم» (ص٥٠٠). وكتاب «الاعتصام» للشاطبي من أحسن الكتب التي تكلمت على البدعة وحَدِّها وغير ذلك؛ فينبغي مطالعته.

(٦) مسلم: كتاب الإيمان (٩١)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٨)، وابن ماجة (٤١٧٣).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، تقدم تفسيرها في سورة «حم السجدة».

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم [وسُبُوغها] [(١)] عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ [(٢)] وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له، وإخلاص العبادة، والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرونٌ في غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات [(٣)] الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [(٤)]، أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطَّيالسي: حدثنا شُعبة، أخبرني سِمَاك بن حَرْب قال: سمعتُ مُصْعبَ بن سعدٍ يُحدثُ عن سَعد قال: قالت أُمُّ سَعْدٍ [لسعد] [(٥)]: أليسَ قد أمرَ اللهُ بطاعة الوالدين، فلا آكل طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾. الآية. [العنكبوت: ٨] [(٦)].

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجة، من حديث شُعبة بإسناده، نحوه وأطول منه.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: قَاسَت بسببه في حَال حَمله مَشقةً وتعبًا، من وِحَامٍ وغثيانٍ وثقلٍ وكربٍ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقةٍ أيضًا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل عليٌّ ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]، [وقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾] [(٧)] [البقرة:٢٣٣]، على أن أقل مدة

---

(١) في (ز): (وشياعها).

(٢) قال أبو بكر الجزائري رحمه الله: لِمَ خص الدعاء للوالدين في هذا الوقت بالذات؟ لأنه وقتٌ يصبح فيه الولد مشغولًا بزوجةٍ وأولادٍ وتكاليفٍ، فهو في هذه الحال أحوج ما يكون إلى عون الله -تعالى- على بر والديه.

(٣) لوحة (١٧١/ أ).

(٤) متواترة: قرأ (إِحْسَانًا) عاصم وحمزة والكسائي وخلف (في اختياره) ووافقهم الأعمش، وقرأ الباقون (حُسْنًا).

(٥) سقط من (ز).

(٦) مسلم (١٧٤٨) مختصرًا، ورواه أبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، وأحمد (١/ ١٨١).

(٧) سقط من (ز).

الحمل ستة أشهرٍ، وهو استنباطٌ قويٌّ صحيحٌ. ووافقه عليه عُثمانُ وجماعةٌ من الصحابة ﷺ.

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْطٍ، عن [بَعْجَةَ][١] بن عبد الله الجُهني قال: تزوج رجلٌ منَّا امرأةً من جُهَيْنَةَ، فولدت له لتمام ستة أشهرٍ، فانطلق زوجها إلىٰ عُثمان فذكر ذلك له، فبعثَ إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بَكَتْ أُختها، فقالت: ما يُبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحدٌ من خَلْق الله غيره قط، فيقضي الله فيَّ ما شاء. فلما أُتي بها عثمان أَمَرَ برجمها، فبلغَ ذلك عَليًّا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تمامًا لستة أشهرٍ، وهل يكون ذلك؟ فقال له عليٌّ: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلىٰ. قال: أما سمعتَ الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقي إلا ستة أشهرٍ، قال: فقال عثمان: والله ما فَطِنْتُ لهذا، عَلَيَّ بالمرأة، فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغُراب بالغُراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه[٢] أبوهُ قال: ابني، إني واللهِ لا أَشُكُّ فيه، قال: وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة الآكلة، فما زالت تأكله حتىٰ مات. رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجهٍ آخر عند قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١][٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَة بن أبي [المَغْرَاءِ][٤]، حدثنا عَلِيُّ بن مُسْهِرٍ، عن دَاود ابن أبي هِنْد، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعته لسبعة أشهرٍ كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، أي: قَوِيَ وشَبَّ وارتجل، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تناهىٰ عقله، وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين.

قال أبو بكر بن عَيَّاش، عن الأَعْمَش، عن القَاسِم بن عبد الرحمن قال: قُلتُ لمَسْرُوق: متىٰ يُؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين فَخُذْ حذرك.

وقال الحافظ أبو يَعْلىٰ المَوْصِلي: حدثنا عُبَيْدُ الله القَوَارِيري، حدثنا عَزْرَة بن قيس الأَزْدي - وكان قد بلغ مائة سنة- حدثنا أبو الحسن السّلولي عنه وزادني قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «**العَبْدُ المُسْلِمُ إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَفَّفَ اللهُ حِسَابَهُ، وَإِذَا بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً رَزَقَهُ اللهُ الإِنَابَةَ إِلَيْهِ، وَإِذَا بَلَغَ سَبْعِينَ سَنَةً أَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَإِذَا بَلَغَ ثَمَانِينَ سَنَةً ثَبَّتَ اللهُ حَسَنَاتِهِ وَمَحَا سَيِّئَاتِهِ، وَإِذَا بَلَغَ تِسْعِينَ سَنَةً غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَشَفَّعَهُ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ،**

---

(١) في (ز): (معمر)، والمثبت هو الصواب. (٢) لوحة (١٧١/ ب).
(٣) صحيح، تقدم. انظر تفسير سورة الزخرف، الآية (٨١).
(٤) في (ز): (الفداء)، وهو خطأ.
(٥) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٦٧).

وَكُتِبَ فِي السَّمَاءِ: أَسِيرُ اللهِ فِي أَرْضِهِ»[(١)].

وقد رُوِيَ هذا من غير هذا الوجه، وهو في «مسند الإمام أحمد».

وقد قال الحَجَّاجُ بن عبد الله [الحكمي][(٢)] أحد أمراء بني أُمية بدمشق: تركتُ المَعَاصي والذنوب أربعين سنةً حياءً من الناس، ثم تركتُها حَياءً من الله عَجَّلَّ.

وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّىٰ عَلا الشَّيبُ رأسَهُ ... فلمَّا عَلاهُ قالَ للباطِلِ: ابْطُلِ

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ -أي: ألهمني- ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ[(٣)] وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: نسلي وعقبي، ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وهذا فيه إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلىٰ الله عَجَّلَّ ويعزم عليها.

وقد روىٰ أبو داود في «سننه»، عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يُعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا، وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُثْنِينَ بِهَا قَابِلِيهَا، وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا»[(٤)].

قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، [أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلىٰ الله المُنيبون إليه، المُستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم][(٥)]، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعْتَمِرُ بن سُليمان، عن الحَكَم بن أَبَان، عن الغطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رسُولِ الله ﷺ، عن الروح الأمين ﷺ قال: «يُؤْتَىٰ

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو يعلىٰ (٤٢٤٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٨٠)، وقال: لا يصح عن رسول الله ﷺ، وعزرة بن قيس ضعفه يحيىٰ، وأبو الحسن الكوفي: مجهول. قلت: ومحمد بن عمرو: ضعيف، وقد اضطرب في سنده فرواه عن عثمان، ورواه عن عمر [انظر تفسير سورة الحج الآية (٧)]. وقد تقدم الحديث عن أنسٍ هناك، وإسناده ضعيف كذلك. وقال العراقي: موضوع قطعًا، وضعفه الإمام المُعلمي في تعليقه علىٰ «الفوائد المجموعة» (صـ٤٨٣).

(٢) في (ز): (الحليمي). (٣) لوحة (١٧٢/ أ).

(٤) حسن لغيره: رواه أبو داود (٩٦٩)، وفيه شَريك بن عبد الله القاضي، وهو سيئ الحفظ، لكنه توبع، فقد تابعه ابن جريج عن جامع، رواه الحاكم (١/ ٢٦٥)، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٦٩)، وفي «الكبير» (١٠٤٢٦)، من طريق أخرىٰ عن ابن مسعود، وفيه داود بن يزيد الأزدي: ضعيف، وبمجموعهما فالإسناد حسن.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

بِحَسَنَاتِ العَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ، فَيُقْتَصُّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَإِنْ بَقِيَتْ حَسَنَةٌ وَسَّعَ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ»، قال: فدخلتُ علىٰ يَزْدَاد فَحُدِّث بمثل هذا الحديث قال: قلتُ: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾(١).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلىٰ الصنعاني، عن المُعتمر بن سليمان، بإسناده مثله، وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرَّبُّ جل جلاله: «يُؤْتَىٰ بِحَسَنَاتِ العَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ...». فذكره، وهو حديثٌ غريبٌ، وإسنادٌ جيدٌ لا بأس به(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُليمان بن مَعْبَدٍ، حدثنا عمرو بن عاصم الكِلَابيُّ، حدثنا أبو عَوَانة، عن [أبي](٣) بِشر جعفر بن أبي وَحْشية، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حَاطِب قال(٤): ونزل في داري حيث ظهر عليٌّ علىٰ أهل البَصْرة، فقال لي يومًا: لقد شهدتُ أمير المؤمنين عَليًّا، وعنده عمَّارٌ، وصَعْصَعَة، والأَشْتَر، ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان عَلِيٌّ ﷺ علىٰ السرير، ومعه عودٌ في يده، فقال قائلٌ منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسألوه، فقال عَلِيٌّ: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، قال: واللهِ عُثمان وأصحاب عُثمان -قالها ثلاثًا-. قال يوسف: فقلتُ لمُحمد بن حَاطِب: آلله لسمعتَ هذا من عليّ؟ قال: آلله لسمعتُ هذا من عَلِيٍّ ﷺ(٥).

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

لما ذكر تعالىٰ حال الداعين للوالدين البارين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ -وهذا عامٌّ في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (٢١/ ٦١)، وابن أبي حاتم (١٨٥٦٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٨٣٢)، والحاكم (٤/ ٢٨٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وفيه الغطريف أبو هارون، أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ ٥٨)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) في (ز): (ابن).

(٤) لوحة (١٧٢/ ب).

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٧١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٤٦١).

بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروىٰ العَوْفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق(١). وفي صِحَّةِ هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْجٍ، عن مُجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. [وهذا أيضًا](٢) قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وقاله السُّدِّي. وإنما هذا عامٌّ في كل مَن عَقَّ والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ عقهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عَلِيُّ بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيىٰ بن أبي زَائِدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبد [الله بن](٣) المَدِيني قال: إني لفي المسجد حين خَطَبَ مَرْوان(٤)، فقال: إن الله أرىٰ أمير المؤمنين في يَزِيد رأيًا حسنًا، وإن يستخلفه فقد استخلفَ أبو بكرٍ عُمَرَ، فقال عبدُ الرحمن بن أبي بكر: أَهِرَقْلِيَّة؟! إن أبا بكر -والله- ما جعلها في أحدٍ من ولده، ولا أحدٍ من أهل بيته، وما جعلها مُعاوية [في ولده](٥) إلا رحمةً وكرامةً لولده. فقال مَرْوان: ألستَ الذي قال لوالديه: أُفٍّ لكما؟ فقال عبدُ الرحمن: ألستَ ابن اللعين الذي لعنَ رسُولُ اللهِ ﷺ أباكَ؟ قال: وسمعتهما عَائشةُ فقالت: يا مَرْوان، أنتَ القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كَذَبْتَ، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فُلان ابن فُلان. ثم انتحبَ مَرْوان، ثم نزلَ عن المنبر حتىٰ أتىٰ باب حُجرتها، فجعل يُكلمها حتىٰ انصرف(٦).

وقد رواه البخاري بإسنادٍ آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا مُوسىٰ بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوَانَة، عن أبي بِشْرٍ، عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان علىٰ الحِجَاز، استعمله مُعاوية بن أبي سُفيان، فخطبَ وجعل يذكر يَزِيد بن مُعاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدُ الرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خُذوه. فدخلَ بيتَ عائشة ﵂ فلم يقدروا عليه، فقال مَرْوَان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾، فقالت عائشة مِن وَرَاءِ الحِجَاب: ما أنزلَ اللهُ فينا شيئًا مِن القرآن، إلا أن الله أنزلَ عُذْرِي(٧).

طَرِيقٌ أخرىٰ: قال النسائي: حدثنا عَلِيُّ بن الحسين، حدثنا أُمَيَّة بن خالد، حدثنا شُعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مَرْوَان: سُنَّة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سُنَّة هِرَقْل وقَيْصَر. فقال مَرْوَان: هذا الذي أنزلَ اللهُ فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾. الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كَذَبَ مَرْوان! والله ما هو به، ولو شئتُ أن أُسَمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن

---

(١) **لم أقف علىٰ إسنادٍ له**، ورواية العوفي عن ابن عباسٍ ضعيفةٌ.
(٢) سقط من (ز). (٣) بياض بالأصل.
(٤) لوحة (١٧٣/ أ). (٥) سقط من (ز).
(٦) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٧١). وانظر ما بعده.
(٧) البخاري (٤٨٢٧).

رسُول الله ﷺ لَعَنَ أبا مَرْوَان ومروانُ في صُلْبه، فمروان فَضَضٌ[(١)] من لَعْنة الله[(٢)].

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾، أي: أن أُبعث ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾، أي: قد مضىٰ الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه، ويقولان لولدهما: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ[(٣)] إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾، أي: دخلوا في زُمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين، الخَاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ -بعد قوله-: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ﴾ دليلٌ علىٰ ما ذكرناه من أنه جنسٌ يعم كل من كان كذلك، وقال الحَسَنُ وقَتادة: هو الكافر الفَاجر العَاقّ لوالديه، المُكذب بالبعث.

وقد روىٰ الحافظ ابن عَسَاكرٍ في ترجمة سَهْل بن داود، من طريق هِشَام بن عَمَّار: حدثنا حَمَّادُ بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان [الحلبي][(٤)]، عن [سليمان][(٥)] بن حَبيب المُحَاربي، عن أبي أُمامة الباهلي، عن النبي ﷺ قال: «**أَرْبَعَةٌ لَعَنَهُمُ اللهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، وَأَمَّنَتْ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ: مُضِلُّ المَسَاكِينِ** -قال خالد: الذي يَهْوِي بيده إلىٰ [المسكين][(٦)] فيقول: هَلُمَّ أُعْطيك، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء- **وَالَّذِي يَقُولُ لِلْمَكْفُوفِ: اتَّقِ الدَّابَّةَ، وَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ شَيْءٌ، وَالرَّجُلُ يَسْأَلُ عَنْ دَارِ القَوْمِ فَيَدُلُّونَهُ عَلَىٰ غَيْرِهَا، وَالَّذِي يَضْرِبُ الوَالِدَيْنِ حَتَّىٰ يَسْتَغِيثَا**»[(٧)]. غريبٌ جدًّا.

وقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: لكُل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرةٍ فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم: درجات النار تذهب سِفالًا ودرجات الجنة تذهب علوًّا.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ أي: يُقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا. وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل

---

(١) أي: قطعة منها. ونود التنبيه علىٰ أن الكثير من الكتب قد شُحنت بالنصوص التي تَحُط من بني أمية وتنتقصهم، وكثير منها لا خطام له ولا زمام، وقد تصدىٰ لتمحيص ذلك جمع من العلماء، كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «منهاج السنة» وغيره، والدكتور/ السيد شحات رمضان حَفِظَهُ اللَّهُ في كتابه «شبهات بني أمية».

(٢) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٩١)، والحاكم (٤/ ٤٨١) وصححه علىٰ شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي فقال: محمد لم يسمع من عائشة، وهذا الزعم من الذهبي لم يقله غيره، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٧/ ٧٢٣)، وذكر له طريقًا أخرىٰ في «الاستيعاب» (٢/ ٨٢٥).

(٣) لوحة (١٧٣/ ب).

(٤) في (ز): (العدني)، والمثبت موافق لما في «الجرح والتعديل»، وقيل: «القرشي».

(٥) في (ز): (سليم)، والمثبت هو الصواب.

(٦) في (ز): (المسلمين).

(٧) ضعيف: رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٨/ ٧٣) الترجمة (٩٨٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٧٤٨٩)، وفيه: حماد بن عبد الرحمن الكلبي، وشيخه خالد بن الزبرقان: كلاهما ضعيف.

والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخافُ أن أكون كالذين قال الله تعالىٰ لهم وقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾!!

وقال أبو مِجْلَزٍ: ليتفقَّدَنّ أقوامٌ حَسَناتٍ كانت لهم في الدنيا، فيُقالُ لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجُوزوا من جنس عملهم، فكما نعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهُون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ (١) أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مُسليًا لنبيه في تكذيب من كذَّبه من قومه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ -وهو هود عليه السلام- بعثه الله إلىٰ عَادٍ الأُولىٰ، وكانوا يسكنون الأَحْقَاف -جمع حِقْف، وهو: الجبل من الرمل- قاله ابن زيد. وقال عِكْرمة: الأحقاف: الجبل والغار.

وقال عَلِيُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الأحقاف: وادٍ بحَضْرَمَوْت، يُدعىٰ: بَرَهوت، تلقىٰ فيه أرواح الكفار.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أن عَادًا كانوا حَيًّا باليمن، أهل رملٍ، مُشرفين علىٰ البحر بأرضٍ يقال لها: الشِّحْر.

قال ابن ماجة: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»: حدثنا [الحسن][٢] بن علي الخَلَّال، حدثنا زيد بن الحُباب، حدثنا سُفيان، [عن أبي إسحاق][٣]، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُنَا اللهُ، وَأَخَا عَادٍ»[٤].

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ يعني: وقد أرسل الله إلىٰ من حَول بلادهم من القُرىٰ مُرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة:٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ

---

(١) لوحة (١٧٤/ أ). (٢) في (ز): (الحسين)، وهو خطأ.

(٣) في (ز): (حدثنا علي بن إسحاق)، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما عند «ابن ماجة».

(٤) ضعيف: رواه ابن ماجة (٣٨٥٢)، وفيه زيد بن الحباب: صدوق يخطئ في حديث الثوري كما قال الحافظ في «التقريب» ترجمة (٢١٢٤)، وأبو إسحاق يرسل وقد عنعن.

أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:١٣، ١٤]؛ أي: قال لهم هُود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ -أي: لتصُدنا- ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذابَ الله وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أُرسِلتُ به، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عَارِضٌ مُمطرٌ، ففرحوا[(١)] واستبشروا به، وقد كانوا مُمْحِلين مُحتاجين إلىٰ المطر، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: هو العذاب الذي قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُخرب ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم تبقَ لهم باقيةٌ، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: هذا حُكْمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديثٌ في قصتهم، وهو غريبٌ جدًّا من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد:

حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني [أبو][(٢)] المُنْذر سَلام بن سليمان النَّحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن أبي وَائِل، عن الحَارث البَكْري قال: خرجتُ أشكو العَلَاء بن الحَضْرَمي إلىٰ رسُولِ الله ﷺ، فمررت بالرَّبَذَة، فإذا عَجُوزٌ من بني تَمِيمٍ منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلىٰ رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنتَ مُبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وإذا رايةٌ سوداءُ تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلتُ: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا. قال: فجلست، فدخل منزله -أو قال: رحله- فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت [فسلمت، فقال: «هَلْ كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمِيمٍ شَيْءٌ؟» قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبْرَةُ عليهم، ومررت بعجوزٍ من بني تميمٍ منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت][(٣)]، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميمٍ حاجزًا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلىٰ أين يضطر

---

(١) لوحة (١٧٤/ ب). (٢) في (ز): (ابن)، وهو خطأ.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

مُضَرُكَ؟ قال: قلت: إن مَثلي ما قال الأول: «معزَىٰ حَمَلَت حَتْفَها»(١) حَمَلْتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هِيهْ، وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟» -وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يَسْتَطْعِمه- قلتُ: إن عادًا قُحِطُوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما: «الجَرَادَتان»-فلما مضىٰ الشهر خرج إلىٰ جبال مَهْرة فقال: اللهم، إنك تعلم أني لم أجئ إلىٰ مريضٍ فأداويه، ولا إلىٰ أسيرٍ فأفاديه، اللهم اسقِ عادًا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي منها: «اخْتَرْ(٢)، فَأَوْمَأَ إِلَىٰ سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ، فَنُودِيَ مِنْهَا: خُذْهَا رَمَادًا رِمْدَدًا، لا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا». قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا، حتىٰ هلكوا-قال أبو وائل: وصدق- وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: «لا تَكُنْ كَوَافِدِ عَادٍ»(٣).

رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، كما تقدم في سورة «**الأعراف**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنا عمرو: أن أبا النَّضْر حدثه عن سليمان بن [يسار](٤)، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مُستجمعًا ضاحكًا حتىٰ أرىٰ منه لَهَوَاتِه(٥)، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأىٰ غَيْمًا -أو رِيحًا-عُرِفَ ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال: «**يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَىٰ قَوْمٌ العَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**»(٦). وأخرجاه من حديث ابن وهب.

طريق أخرىٰ: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المِقْدام بن شُرَيْح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأىٰ ناشئًا في أُفُقٍ من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ**». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «**اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**»(٧).

---

(١) تقدم الكلام عليه في تفسير «سورة الأعراف»، وانظر قصة هذا المثل في: «مجمع الأمثال» للميداني: ١/ ١٩٢ (١٠٢٠).

(٢) لوحة (١٧٥/ أ).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٧٠)، وأحمد (٣/ ٤٨٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢٠٩٠)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٤٤٥٣)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٦٥٩)، ورجاله ثقات، عدا سلام متكلم فيه، وقد قال ابن عدي: عامة ما يرويه حِسان إلا أنه لا يتابع عليه. وحسَّن إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه علىٰ «المسند» (١٥٩٥٤).

(٤) في (ز): (بشار)، وهو خطأ.

(٥) اللهوات: جمع لهاة، وهي: اللحمة في سقف أقصىٰ الفم.

(٦) رواه البخاري (٤٨٢٨)، ومسلم (٨٩٩)، وأحمد (٦/ ٦٦).

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ١٩٠)، ورواه أبو داود (٥٠٩٩)، والنسائي (٣/ ١٦٤) مختصرًا، وأحمد (٦/ ١٣٧، ١٣٨)، من طرق عن سفيان به.

طريق أخرىٰ: قال مسلم في «صحيحه»: حدثنا أبو الطَّاهر، أخبرنا ابن وَهْب، سمعت ابن جُريج، يُحدث عن عَطَاء بن أبي رَبَاح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عَصَفَتِ الريحُ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». قالت: وإذا تَخَيَّلَتِ[1] السماءُ تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[2].

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي «الأعراف» و«هود» بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عَبْدَان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكُوفي، حدثنا أبو مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد[3] بن جُبير، عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا فُتِحَ عَلَىٰ عَادٍ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا مِثْلَ مَوْضِعِ الخَاتَمِ، ثُمَّ أُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ فَحَمَلَتْهُمُ البَدْوُ إِلَىٰ الحَضَرِ، فَلَمَّا رَآهَا أَهْلُ الحَضَرِ قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِنَا، وَكَانَ أَهْلُ البَوَادِي فِيهَا، فَأُلْقِيَ أَهْلُ البَادِيَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الحَاضِرَةِ حَتَّىٰ هَلَكُوا، قَالَ: عَتَتْ عَلَىٰ خُزَّانِهَا حَتَّىٰ خَرَجَتْ مِنْ خِلَالِ الأَبْوَابِ»[4].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولقد مكنا الأمم [السالفة][5] في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبًا منه، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به، ويستبعدون وقوعه؛ أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحَضْرَمَوْت عند اليمن، وثَمُود وكانت منازلهم بينهم

---

(١) أي: تغيمت وتهيأت للمطر.

(٢) رواه مسلم (٨٩٩)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٩٤٠).

(٣) لوحة (١٧٥/ ب).

(٤) ضعيف: رواه الطبراني (١٢٤١٦)، وفي إسناده أبو مالك الجنبي عمرو بن هاشم، قال الحافظ: لين الحديث، وشيخه مسلم الملائي: ضعيف.

(٥) في (ز): السابقة.

وبين الشام، وكذلك سَبأ وهم أهل اليمن، ومَدْيَن وكانت في طريقهم ومَمَرِّهم إلىٰ غَزَّة، وكذلك بُحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضًا.

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيَّنَّاها ووضحناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾؛ أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهةً، وقد خابوا وخَسِرُوا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها(١).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ (٢) يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٣) ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عِكْرمة، عن الزُّبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنَخْلَةٍ، ورسول الله ﷺ يُصلي العشاء الآخرة، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، قال سُفيان: اللبد: بعضهم علىٰ بعض، كاللبد بعضه علىٰ بعض(٤). تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جنِّ نَصِيبينَ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان، حدثنا أبو عَوَانَة (ح). وقال الحافظ أبو بكر البيهقيُّ في كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن عَلِيُّ بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عُبيد الصَّفَّار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مُسَدَّد، حدثنا أبو عَوَانة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباسٍ قال: ما قرأ رسول الله ﷺ علىٰ الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلىٰ سوق عُكَاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلتْ عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين إلىٰ قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلتْ علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، [وانظروا ما هذا الذي حال بينكم

---

(١) لوحة (١٧٦/ أ).

(٢) قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الماوردي: الجن من العالم الناطق المميز، يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار، وإن تميزوا بأفعالٍ وآثارٍ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء، وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية، وما تخيلوه من آثارهم الخفية.

(٣) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي هذه الآية دليل علىٰ أن حكم الجنّ حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبد بالأوامر والنواهي.

(٤) رواه أحمد (١/ ١٦٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٢): ورجاله رجال الصحيح. قلت: لكنه منقطعٌ بين عكرمة والزبير كما رجَّح ذلك الشيخ العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه علىٰ «المسند» (١٤٣٥).

وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها] (١) يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تِهَامَة إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو بنَخْلَة عامدًا إلىٰ سوق عُكَاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا -والله- الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلىٰ قومهم، قالوا: يا قومنا، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ (٢)، وأنزل الله علىٰ نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وإنما أُوحي إليه قول الجن (٣).

رواه البخاري عن مُسَدَّدٍ بنحوه، وأخرجه مسلم عن شَيْبَان بن فَرُّوخ، عن أبي عَوَانَة به. ورواه الترمذي والنسائي في «التفسير»، من حديث أبي عَوَانة.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان الجِنُّ يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حَقًّا وما زادوا باطلًا، وكانت النُّجُوم لا يُرمىٰ بها قبل ذلك، فلما بُعِثَ رَسُول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمِيَ بشهابٍ يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلىٰ إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمرٍ قد حدث. فَبَثَّ جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يُصلي بين جبلي نَخْلَة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض (٤).

ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من «سننيهما»، من حديث إسرائيل به، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وهكذا رواه أيوب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العَوْفي، عن ابن عباس أيضًا، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحَسَن البَصْري: إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتىٰ أنزل الله عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان، عن محمد بن كَعْبٍ القُرَظي قصة خُروج رسُول الله ﷺ إلىٰ الطائف ودعائه إياهم إلىٰ الله ﷻ، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحَسَن: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي**» إلىٰ آخره. قال: فلما انصرف عنهم بَاتَ بِنَخْلَة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نَصِيبين (٥).

وهذا صحيحٌ، ولكن قوله: «**إِنَّ الجِنَّ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ**». فيه نظرٌ؛ لأن الجن كان

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) لوحة (١٧٦/ ب).

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٥٢)، ورواه البخاري (٧٧٣) و(٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، والترمذي (٣٣٢٣)، والنسائي في «التفسير» (٦٤٤).

(٤) رواه أحمد (١/ ٢٧٤)، والترمذي (٣٣٢٤)، والنسائي في «التفسير» (٦٤٦). انظر ما قبله.

(٥) **مرسل**: رواه ابن إسحاق، كما في «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٤٤).

استماعهم في ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه ﷺ إلىٰ الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنةٍ أو سنتين، كما قرره ابنُ إسحاق وغيره، والله أعلم.

وقال أبو بكر بن أبي شَيْبة: حدثنا أبو أحمد الزُّبَيري، حدثنا سُفيان، عن عَاصِم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا علىٰ النبي ﷺ وهو يقرأ[1] القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال: صه، وكانوا تسعةً أحدهم زوبعة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلىٰ: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضي أن رسُولَ الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلىٰ قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا قومًا بعد قوم، وفوجًا بعد فوج، كما سيأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار، مما سنوردها هاهنا إن شاء الله تعالىٰ وبه الثقة.

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعًا، عن أبي قُدَامة عُبيد الله بن سعيد السَّرخسي، عن أبي أُسامة حَمَّاد بن أسامة، عن مِسْعَر بن كِدَام، عن مَعْن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مَسْرُوقًا: من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك -يعني: ابن مسعود -أنه آذَنَتْهُ بهم شجرةٌ[3]. فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولىٰ، ويكون إثباتًا مُقدمًا علىٰ نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في الأولىٰ، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتىٰ آذَنَتْهُ بِهِمُ الشجرة؛ أي: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس ﷺ إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلىٰ الله ﷻ كما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ[4].

❑ ذكر الرواية عنه بذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بنُ إبراهيم، حدثنا داود، عن الشَّعْبي - وابن أبي زَائِدة، أخبرنا داود، عن الشعبي، عن عَلْقَمة قال: قلتُ لعبد الله بن مسعود: هل صَحِبَ رسولَ الله ﷺ ليلةَ الجنِّ منكم أحدٌ؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلةٍ بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير[5]؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشَرِّ ليلة بات بها قومٌ، فلما كان في وجه الصبح -أو قال: في السَّحَر- إذا نحن به

(١) لوحة (١٧٧/ أ).

(٢) رواه الطبري (٢٢/ ١٣٥-شاكر)، والحاكم (٢/ ٤٥٦) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) البخاري (٣٨٥٩)، ومسلم (١٥٣).

(٤) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٢٢٧).

(٥) أي: ذهب به بسرعة، كأن الطير حملته، أو اغتاله أحد.

يجيء من قِبَل حِرَاء، فقلنا: يا رسول الله -فذكروا[١] له الذي كانوا فيه- فقال: «إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي [الجِنِّ][٢]، فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم -قال: وقال الشعبي: سألوه الزاد- قال عامر: سألوه [ليلتئذٍ الزاد][٣]، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ -قَالَ- فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الجِنِّ»[٤].

وهكذا رواه مسلم في «صحيحه»، عن عَلِي بن حُجْرٍ، عن إسماعيل بن عُلَيَّة به نحوه.

وقال مسلم أيضًا: حدثنا مُحمد بن المُثَنَّىٰ، حدثنا عبدُ الأعلىٰ، حدثنا داود -وهو: ابن أبي هِنْد- عن عَامرٍ قال: سألتُ عَلْقَمَةَ: هَلْ كان ابن مسعود ﷺ شَهِدَ مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال عَلْقَمَةُ: أنا سألتُ ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنِّ؟ قال: لا، ولكنا كُنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أَتَانِي دَاعِي الجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُمْ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ». قال رسول الله ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ»[٥].

طريقٌ أخرىٰ عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جَرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي، حدثني يُونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعودٍ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بِتُّ اللَّيْلَةَ أَقْرَأُ عَلَىٰ الجِنِّ رُبُعًا بِالحَجُونِ»[٦].

طريقٌ أخرىٰ: فيها أنه كان معه ليلة الجن. قال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شِهَاب، عن أبي عثمان بن سَنَّة الخُزَاعي -وكان من أهل الشام- أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ الجِنِّ اللَّيْلَةَ فَلْيَفْعَلْ». فلم يحضر منهم[٧] أحدٌ غيري، قال: فانطلقنا حتىٰ إذا كنا بأعلىٰ مَكة خَطَّ لي برجله خطًّا، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتىٰ قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودةٌ كثيرةٌ

(١) لوحة (١٧٧/ ب). (٢) سقط من (ز).
(٣) في (ز): (بمكة)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٤) رواه أحمد (١/ ٤٣٦)، ومسلم (١٥٠)، والترمذي (٣٢٥٨)، والنسائي في «التفسير» (٦٤٣)، وأبو داود (٨٥).
(٥) رواه مسلم (١٥٠)، وابن خزيمة (٨٢).
(٦) رواه الطبري (٢٦/ ٣٣)، ورواه أحمد (١/ ٤١٦)، والإسناد منقطعٌ، فعبيد الله بن عبد الله لم يدرك عبد الله بن مسعود.
(٧) لوحة (١٧٨/ أ).

حالت بيني وبينه، حتىٰ ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتىٰ بقي منهم رهطٌ، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرَّز، ثم أتاني فقال: «مَا فَعَلَ الرَّهْطُ؟»، فقلتُ: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظمًا وروثًا زادًا، ثم نهىٰ أن يستطيب أحدٌ بروثٍ أو عظمٍ (١).

ورواه ابن جرير عن [محمد بن] (٢) عبد الله بن عبد الحَكَم، عن أبي زُرْعَة وَهْب الله بن رَاشد، عن يونس بن يزيد الأَيْلي به (٣).

ورواه البيهقي في «الدلائل»، من حديث عبد الله بن صالح -كاتب الليث- عن الليث، عن يونس به (٤).

وقد روىٰ إسحاق بن راهويه، عن جَرير، عن قَابُوس بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم. ورواه الحافظ أبو نُعَيم، من طريق مُوسىٰ بن [عُبَيدة] (٥)، عن سعيد بن الحَارث، عن أبي المُعَلىٰ، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضًا.

[طريقٌ أخرىٰ: قال أبو نُعَيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفَّان وعِكْرِمة قالا: حدثنا مُعتمر قال: قال أبي: حدثني أبو تَمِيمة، عن عمرو -ولعله قد يكون قال: البكالي- يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: استتبعني رسول الله ﷺ، فانطلقنا حتىٰ أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطًّا فقال: «كُنْ بَيْنَ ظَهْرِ هَذِهِ لَا تَخْرُجْ مِنْهَا؛ فَإِنَّكَ إِنْ خَرَجْتَ مِنْهَا هَلَكْتَ». فذكر الحديث بطوله، وفيه غرابة شديدة] (٦).

طريقٌ أخرىٰ: قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلىٰ، حدثنا ابن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود: [حُدِّثْتُ] (٧) أنك كُنْتَ مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطًّا، وقال: «لَا تَبْرَحْ مِنْهَا»، فذكر مثل العَجَاجة (٨) السوداء غشيتْ رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مراتٍ، حتىٰ إذا كان قريبًا من الصبح، أتاني النبي ﷺ [فقال: «أَنِمْتَ؟»] (٩)، فقلت: لا والله، ولقد هممت مرارًا أن أستغيث بالناس حتىٰ سمعتك تقرعهم بعصاك، تقول: «اجْلِسُوا»، فقال: «لَوْ خَرَجْتَ لَمْ آمَنْ أَنْ يَخْطَفَكَ بَعْضُهُمْ». ثم قال: «هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا؟» فقلت: نعم رأيت رِجالًا سُودًا

---

(١) رواه الطبري (٢٦/ ٣٢)، والنسائي (١/ ٣٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٣٨).

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٣) رواه الطبري (٢٦/ ٣٢).

(٤) انظر: «دلائل النبوة» (٢/ ٢٣٠).

(٥) في (ز): (عبيد)، وهو خطأ.

(٦) سقط من (ز). رواه أحمد (١/ ٣٩٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٦/ ٤٦١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٤): ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عمرو البكالي، وذكره العجلي في «ثقات التابعين»، وابن حبان وغيره في «الصحابة».

(٧) في (ز): (حديث).

(٨) **العجاج**: الغبار، واحدة عجاجة.

(٩) سقط من (ز).

مستشعرين[(١)] ثيابًا بياضًا. قال: «أُولَئِكَ جِنُّ نَصِيبِينَ سَأَلُونِي الْمَتَاعَ -والمتاع: الزَّاد- [فَمَتَّعْتُهُمْ بِكُلِّ][(٢)] عَظْمٍ حَائِلٍ[(٣)]، أَوْ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ» -فقلت: يا رسول الله، وما يغني ذلك عنهم؟ فقال: «إِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ عَظْمًا إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ لَحْمَهُ يَوْمَ أُكِلَ، وَلَا رَوْثًا إِلَّا وَجَدُوا فِيهَا حَبَّهَا يَوْمَ أُكِلَتْ، فَلَا يَسْتَنْقِيَنَّ[(٤)] أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا خَرَجَ[(٥)] مِنَ الْخَلَاءِ بِعَظْمٍ وَلَا بَعْرَةٍ وَلَا رَوْثَةٍ»[(٦)].

طريقٌ أخرىٰ: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السُّلَمي وأبو نَصْر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيىٰ بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي، حدثنا رَوْحُ بن صلاح، حدثنا موسىٰ بن عُلَيِّ بن رَبَاح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ -خَمْسَةَ عَشَرَ بَنِي إِخْوَةٍ وَبَنِي عَمٍّ- يَأْتُونَنِي اللَّيْلَةَ، فَأَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ»، فانطلقتُ معه إلىٰ المكان الذي أراد، فَخَطَّ لي خطًّا وأجلسني فيه، وقال لي: «لَا تَخْرُجْ مِنْ هَذَا». فبت فيه حتىٰ أتاني رسول الله ﷺ مع السَّحَرِ في يده عظمٌ حائلٌ وروثةٌ [حُمَمة فقال لي: «إِذَا ذَهَبْتَ إِلَىٰ الْخَلَاءِ فَلَا تَسْتَنْجِ بِشَيْءٍ مِنْ هَؤُلَاءِ». قال: فلما أصبحتُ قلتُ: لأعلمن][(٧)] عِلْمي حيث كان رسول الله ﷺ، قال: فذهبتُ فرأيتُ موضع مَبْرك ستين بعيرًا[(٨)].

طريقٌ أخرىٰ: قال البيهقيُّ: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدُّوري، حدثنا عثمان بن عمر، عن المُسْتَمِر بن الرَّيَّان، عن أبي الجَوْزَاء، عن عبد الله بن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجِنِّ، حتىٰ أتىٰ الحَجُون، فَخَطَّ لي خطًّا، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سَيِّد لهم يُقال له «وَرْدَان»: أنا أُرَحِّلُهُم عنك. فقال: «إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ»[(٩)].

طريقٌ أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدثنا عَبْدُ الرَّزَّاق، حدثنا سُفْيان، عن أبي فَزَارَة العَبْسِي، حدثنا أبو زيد -مولىٰ عمرو بن حُرَيث- عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجِنِّ قال لي النبيُّ ﷺ: «أَمَعَكَ مَاءٌ؟»، قلت: ليس معي ماء، ولكن معي إداوة فيها نبيذ. فقال النبي: «تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ» [فتوضأ][(١٠)].

---

(١) استشعر الثوب: لبسه. والشِّعار: الثوب الذي يلي الجسد لأنه ملاصق لشَعْره.

(٢) في (ز): (فمنعتهم كل).

(٣) **العظم الحائل**: المتغير، قد غيره البلىٰ، والبعرة: العذرة والروث.

(٤) أي: لا يستجمر أو يتمسح.

(٥) لوحة (١٧٨/ ب).

(٦) رواه الطبري (٢٦/ ٣٣)، وفيه عبد الله بن عمرو بن غيلان، ذكره ابن حبان في «الثقات» (٧/ ٥١)، وأورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٥/ ١١٧) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، والحديث يشهد له ما تقدم.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٣١)، وفي إسناده روح بن صلاح: وثقه الحاكم وابن حبان، وضعفه ابن عدي، ويشهد له ما تقدم.

(٩) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٣١)، ورجاله ثقات غير أن أبا الجوزاء -وهو: أوس بن عبد الله الربعي- روايته عن عائشة وابن مسعود منقطعة، كما يُفهم ذلك من كلام ابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٠٢).

(١٠) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند». ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤٤٩)، وفيه أبو زيد: مجهول، ورواه أبو داود (٨٤)، والترمذي (٨١)، وابن ماجة (٣٨٤) من طريق أبي زيد به.

ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من حديث [أبي][1] زيد به.

طريقٌ أخرىٰ: قال أحمد: حدثنا يحيىٰ بن إسحاق، أخبرنا ابن لَهِيعَة، عن قيس بن الحَجَّاج، عن حَنَش الصَّنْعَاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «**يَا عَبْدَ اللهِ، أَمَعَكَ مَاءٌ؟**» قال: معي نبيذٌ في إداوةٍ، فقال: «**اصْبُبْ عَلَيَّ**». فتوضأ، فقال النبيُّ ﷺ: «**يَا عَبْدَ اللهِ، شَرَابٌ وَطَهُورٌ**»[2].

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدَّارَقُطنيُّ من طريقٍ آخر، عن ابن مسعودٍ به.

طريقٌ أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الرزاق، أخبرني أبي، عن مِيناء، عن عبد الله قال[3]: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «**نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ**». هكذا رأيته في «المسند» مختصرًا.

وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم. وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «**نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ**». قلت: اسْتَخْلِفْ. قال: «**مَنْ؟**» قلت: [أبا][4] بكر. فسكت، ثم مضىٰ ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «**نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ**». قلت: استخلف. قال: «**مَنْ؟**» قلت: عمر بن الخطاب. فسكت، ثم مضىٰ ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «**نُعِيتْ إِلَيَّ نَفْسِي**». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «**مَنْ؟**» قلت: علي بن أبي طالب. قال ﷺ: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ أَطَاعُوهُ لَيَدْخُلُنَّ الجَنَّةَ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ**»[5].

وهو حديث غريبٌ جدًّا، وأَحْرَىٰ به ألا يكون محفوظًا، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وُفُودهم إليه بالمدينة علىٰ ما سنورده، فإن في ذلك الوقت في آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجانّ أيضًا في دين الله أفواجا، نزلت سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، وهي السورة التي نُعِيَتْ نَفْسُهُ الكريمة فيها إليه، كما قد نص علىٰ ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد في ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم.

---

(١) في (ز): (ابن)، وهو خطأ.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٣٩٨)، وابن ماجة (٣٨٥)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه، فَحَدَّثَ بأحاديثَ منكرةٍ.

(٣) لوحة (١٧٩/ أ). (٤) في (ز): (أبو).

(٥) موضوع: رواه أحمد (١/ ٤٤٩)، وعبد الرزاق (٢٠٦٤٦)، والطبراني (٩٩٧٠)، وابن أبي عاصم (١١٨٣) وفيه ميناء ابن أبي ميناء: كذاب، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٨٥): رواه الطبراني، وفيه ميناء وهو كذاب، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٤٥).

وقد رواه أبو نُعَيم أيضًا عن [الطبراني] (١)، عن محمد بن عبد الله الحَضْرَمي، عن علي بن الحسين بن أبي بُرْدة، عن يحيىٰ بن [يعلىٰ] (٢)الأَسْلَمي، عن حَرْب بن صَبِيح، عن سعيد بن مَسْلَمة، عن أبي مُرة الصنعاني، عن أبي عبد الله الجَدَلي، عن ابن مسعود فذكره، وذكر فيه قصة الاستخلاف، وهذا إسنادٌ غريبٌ، وسِيَاقٌ عجيبٌ (٣).

طريقٌ أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حمَّاد بن سلمة، عن عليِّ بن زيد، عن أبي رَافع، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خَطَّ حوله، فكان أحدهم مثل سواد النخل، وقال لي: «لا تَبرَحْ مَكَانَكَ»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأىٰ الزُّط (٤) قال: كأنهم هؤلاء. وقال (٥) النبي ﷺ: «أَمعَكَ مَاءٌ؟» قلتُ: لا. قال: «أَمَعَكَ نَبِيذٌ؟» قلتُ: نعم. فتوضأ به (٦).

طريقٌ أخرىٰ مرسلةٌ: قال ابن أبي حاتم: حدثنا [أبو] (٧) عبد الله الطّهْراني (٨)، أخبرنا حَفْصُ بن عمر [العَدَني] (٩)، حدثنا الحَكَم بن أَبَان، عن عِكْرِمة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، قال: هم اثنا عشر ألفًا جاءوا من جزيرة المَوْصِل، فقال النبيُّ ﷺ لابن مسعود: «أَنْظِرْنِي حَتَّىٰ آتِيكَ»، وخَطَّ عليه خَطًّا، وقال: «لا تَبْرَحْ حَتَّىٰ آتِيَكَ». فلما خشيهم ابن مسعود كَادَ أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبي ﷺ: «لَوْ ذَهَبْتَ مَا الْتَقَيْنَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١٠).

طريقٌ أخرىٰ مرسلةٌ أيضًا: قال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، قال: ذُكِرَ لنا أنهم صُرِفوا إليه من نِينَوَىٰ، وأن نبيَّ الله ﷺ قال: «إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَىٰ الجِنِّ فَأَيُّكُمْ يَتْبَعُنِي؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجلٌ: يا رسول الله، إن ذاك لذو ندبةٍ فأتبعه ابن مسعود أخو هُذَيل، قال: فدخل النبيُّ ﷺ شِعبًا يقال له: «شِعب الحَجُون»، وخطَّ عليه، وخطَّ علىٰ ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال (١١) وأرىٰ أمثال النسور تمشي في دفوفها (١٢)، وسمعت لَغطًا شديدًا، حتىٰ خفتُ علىٰ نبي الله ﷺ، ثم تلا القرآن،

---

(١) بياض في (ز).

(٢) بياض في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبراني الكبير».

(٣) ضعيف: رواه الطبراني (٩٩٦٩)، وفيه يحيىٰ بن يعلىٰ الأسلمي: ضعيف، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: مضطرب الحديث، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات الأشياء المقلوبة، وفي الإسناد أيضًا حرب بن صبيح، وأبو مرة الصنعاني لم أجد ترجمةً لهما في كتب الرجال.

(٤) في (ز): (المزعي) والمثبت من «المسند»، والزُّطّ: جِنْس من السُّودان والهنُود.

(٥) لوحة (١٧٩/ ب). (٦) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤٥٥)، وفيه علي بن زيد بن جُدعان: ضعيف.

(٧) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٨) في بعض النسخ صحفت إلىٰ (الظهراني) وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو: (محمد بن حماد الطهراني أبو عبد الله الرازي).

(٩) في (ز): (العبدي)، وهو خطأ.

(١٠) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٩٦)، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعيف، والإسناد مرسل.

(١١) أي: أخاف. (١٢) دف النسر: دنا من الأرض في طيرانه.

فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغط الذي سمعتُ؟ قال: «**اخْتَصَمُوا فِي قَتِيلٍ، فَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ**». رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم(١).

فهذه الطرق كلها تدل علىٰ أنه ﷺ ذهب إلىٰ الجن قصدًا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلىٰ الله ﷻ، وشرع الله لهم علىٰ لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن و لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس ﵄ ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته الجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدًا منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحدٌ سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي.

وقد يحتمل أن يكون أول مرةٍ خرج(٢) إليهم لم يكن معه ابن مسعودٍ ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولىٰ من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلةً أخرىٰ، والله أعلم، كما روىٰ ابن أبي حاتم في تفسير ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ من حديث ابن جُريج قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوىٰ، وأما الجن الذين لقُوه بمكة فجن نَصِيبين، وتأوله البيهقيُّ علىٰ أنه يقول: «فبتنا بشَرِّ ليلة بات بها قوم»، علىٰ غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلىٰ الجن، وهو محتملٌ علىٰ بُعْد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سُفيان، حدثني سُويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيىٰ، عن جده سعيد ابن عمرو، قال: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإِدَاوَةٍ لوضوئه وحاجته، فأدركه يومًا فقال: «مَنْ هَذَا؟»، قال: أنا أبو هريرة قال: «**ائْتِنِي بِأَحْجَارٍ أَسْتَنْجِ بِهَا، وَلَا تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلَا رَوْثَةٍ**». فأتيته بأحجارٍ في ثوبي، فوضعتها إلىٰ جنبه حتىٰ إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة؟ قال: «**أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللهَ لَهُمْ أَلَّا يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلَا بِرَوْثَةٍ إِلَّا وَجَدُوهُ طعَامًا**»(٣).

أخرجه البخاري في «صحيحه»، عن موسىٰ بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيىٰ، بإسناده قريبًا منه، فهذا يدل مع ما تقدم علىٰ أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل علىٰ تكرار ذلك.

وقد روي عن ابن عباس غير ما ذُكِرَ عنه أولًا من وجهٍ جيدٍ، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الحميد الحمَّاني، حدثنا النَّضر بن عَرَبي، عن عِكْرمة، عن ابن عباسٍ في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نَفرٍ من أهل نَصِيبين، فجعلهم

---

(١) رواه الطبري (٢٦/ ٣١)، ورجاله ثقات، لكن الإسناد مرسل.

(٢) لوحة (١٨٠/ أ).

(٣) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٣٣)، ورواه البخاري (١٥٥).

رسول الله ﷺ رُسُلًا إلىٰ قومهم(١).

فهذا يدل علىٰ أنه قد روىٰ القصتين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحُسين، حدثنا سُويد بن عبد العزيز، حدثنا رجلٌ سَمَّاهُ، عن ابن جُريج، عن مُجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حَران، وأربعة من أهل نَصِيبين، وكانت أسماؤهم: حيىٰ وحسىٰ ومسىٰ(٢)، وشاصر وناصر، والأرْدَ وَإِبيان والأحقم.

وذكر [أبو حمزة](٣) الثّمَالِيُّ أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم: بنو الشَّيْصِبَانِ، وكانوا أكثر الجن عددًا [وأشرفهم](٤) نسبًا، وهم كانوا عامة جنود إبليس.

وقال سُفيان الثوري، عن عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعةً، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية: أنهم كانوا علىٰ ستين راحلةً، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنىٰ عشر ألفًا، فلعل هذا الاختلاف دليلٌ علىٰ تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل علىٰ ذلك ما قاله البخاري في «صحيحه»:

حدثنا يحيىٰ بن سُليمان، حدثني ابن وَهْب، حدثني عُمر -هو ابن محمد- أن سَالمًا حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعتُ عمر يقول لشيءٍ قط: «إني لأظنه كذا»، إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالسٌ إذ مرَّ به رجلٌ جميلٌ، فقال: لقد أخطأ ظني -أو: إن هذا علىٰ دينه في الجاهلية-أو: لقد كان كاهنهم، عَلَيَّ بالرجُل، فدُعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم اسْتُقْبِل بِهِ رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك(٥) به جِنيّتُك؟ قال: بينما أنا يومًا في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرَ الجِنَّ وإبْلاسَهَا(٦) ... ويَأسَها من بعد إنْكَاسِها

ولُحوقَها بالقِلَاصِ(٧) وَأَحْلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائمٌ عند آلهتهم، إذ جاء رجلٌ بعجلٍ فذبحه، فصرخ به صارخ، لم

---

(١) رواه الطبري (٢٦/ ٣٠-٣١)، والطبراني في «الكبير» (١١٦٦٠)، وفيه النضر بن عربي الباهلي أبو عمر: لا بأس به كما في «التقريب».

(٢) لوحة (١٨٠/ ب).

(٣) في (ز): (أبو حزة).

(٤) في (ز): (وأبر لهم).

(٥) في (ز): (حدثتك).

(٦) أي: تحيرها ودهشتها.

(٧) القلاص: جمع قلوص، وهي: الناقة الشابة، والأحلاس: جمع حِلْس، وهو: الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب.

أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه يقول: يا جليح[١]، أمر نَجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتىٰ أعلم ما وراء هذا، ثم نادىٰ يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا[٢] أن قيل: هذا نبي[٣]. هذا سياق البخاري.

وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريحٌ في روايةٍ ضعيفةٍ عن عمر[٤] [في إسلامه][٥]، وسائر الروايات تدل علىٰ أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم».

وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سَوَاد بن قَارب، وقد ذكرتُ هذا مُستقصًىٰ في «سيرة عمر رضي الله عنه»، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ، ولله الحمد والمنة.

قال البيهقيُّ: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح».

أخبرنا أبو القاسم -الحسن بن محمد بن حَبيب المُفسر- من أصل سَمَاعِه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصَّفَّار الأصبهاني قِرَاءةً عليه، حدثنا أبو [جعفر][٦] أحمد بن موسىٰ الحَمَّار الكُوفي بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصري، حدثنا محمد بن النواس الكُوفي، حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء رضي الله عنه قال: بينما عمر بن الخطاب يخطبُ الناسَ علىٰ مِنبر رسول الله ﷺ إذ قال: أيها الناس، أفيكم سَوَاد بن قَارب؟ قال: فلم يجبه أحدٌ تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بَدءُ إسلامه شيئًا عجيبًا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد حدِّثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلًا بالهند، وكان لي رَئِيٌّ من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلةٍ نائمٌ، إذ جاءني في منامي ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بُعِثَ رسول من لُؤي بن غَالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنِّ و[أَنْجَاسِها][٧] ... وشَدِّها العِيسَ[٨] بأَحْلاسِهَا
تَهْوي إلىٰ مَكةَ تَبْغي الهُدَىٰ ... مَا مُؤمنو الجِنِّ كَأَرْجَاسِهَا
فَانْهَض إلىٰ الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعينَيْك إلىٰ رَاسِهَا

---

(١) جَليح: اسم هذا الرجل المُنَادَىٰ.
(٢) أي: ما لبثنا.
(٣) البخاري (٣٨١٦).
(٤) لوحة (١٨١/ أ).
(٥) سقط من (ز).
(٦) في (ز): (حنيف).
(٧) في (ز): (ألحاسها).
(٨) العِيس: الإبل البيض مع شقرةٍ يسيرةٍ، الواحد: أعيس، وعيساء.

قال: ثم أنبهني فأفزعني، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبيًّا فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبتُ للجنِّ وَتَطْلابِها ... وَشَدِّهَا العِيسَ بأَقْتَابِهَا(١)
تَهْوِي إلىٰ مَكَّةَ تَبْغي الهُدَىٰ ... لَيسَ قُدَاماها كَأَذْنَابِهَا(٢)
فانهض إلىٰ الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعَيْنَيكَ إلىٰ نَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني، ثم قال:

عَجِبتُ للجِنّ وَتَخْبارهَا ... وَشَدِّها العِيسَ بأَكْوَارهَا(٣)
تَهْوي إلىٰ مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَىٰ ... لَيْسَ ذَوُو الشَّرِّ كَأَخْيَارهَا
فَانْهَضْ إلىٰ الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... مَا مُؤمِنو الجِنِّ كَكُفَّارهَا

قال: فلما سمعته تكرر ليلةً بعد ليلةٍ وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلىٰ رَحْلي فشددته علىٰ راحلتي، فما حللت عليه نسعةً ولا عقدتُ أخرىٰ حتىٰ أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة -يعني: مكة- والناس عليه كعُرْفِ الفَرَسِ، فلما رآني النبي ﷺ قال: «مَرْحَبًا بِكَ يَا سَوَاد بْن قَارِبٍ، قَدْ عَلِمْنَا مَا جَاءَ بِكَ». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلتُ شعرًا، فاسمعه مني. قال سَوَادُ: فقلتُ:

أَتَانِي رَئِيّ بعد لَيْلٍ وهَجْعَةٍ ... وَلم يَكُ فيما قَدْ بَلَوْتُ بكَاذِبِ
ثَلاثُ لَيَالٍ قَولُه كُلَّ لَيْلَةٍ: ... أَتاك رسولٌ من لُؤيّ بن غَالبِ
فَشَمَّرتُ عن سَاقي الإزارَ ووسطت ... بي الدِّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسبِ(٤)
فَأشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَيء غَيْرهُ ... وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَىٰ كُل غَائبِ
وأَنَّك أَدْنَىٰ المُرْسَلِينَ شَفَاعَة ... إلىٰ اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأطايبِ
فَمُرنَا بمَا يَأْتِيكَ يا خَيرَ مُرْسلٍ ... وإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذَّوَائبِ
وَكُنْ لي شَفِيعًا يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ ... سِوَاك بمغْنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، وقال لي: «أَفْلَحْتَ يَا سَوَادُ»: فقال له عمر: هل

---

(١) الأقتاب: جمع قَتَب، وهو للجمل كالبرذعة لغيره.
(٢) لوحة (١٨١/ ب).
(٣) الأكوار: جمع كور، وهو رحل الناقة.
(٤) الدِّعلب: الناقة الفتية الشابة، والوجناء: العظيمة الوجنتين، والسباسب: القفار.

يأتيك رَئِيُّكَ الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن[(١)]. ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين.

ومما يدل علىٰ وفادتهم إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ما هاجر إلىٰ المدينة، الحديث الذي رواه الحافظ أبو نُعيم في كتاب «دلائل النبوة» فقال:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن [عَبْدَة][(٢)] المِصِّيصي[(٣)]، حدثنا أبو تَوْبَة -الربيع بن نافع-، حدثنا مُعاوية بن سَلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حدثه عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيتُ عبد الله بن مسعود فقلت له: حُدِّثْتُ أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل، قلت: حدِّثني كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصُّفّة أخذ كُل رجلٍ منهم رجل يُعِشيه، وتُرِكْتُ فلم يأخذني أحدٌ منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ هَذَا؟»، فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «مَا أَخَذَكَ أَحَدٌ يُعَشِّيكَ؟» فقلت: لا. قال: «فَانْطَلِقْ لَعَلِّي أَجِدُ لَكَ شَيْئًا». قال: فانطلقنا حتىٰ أتىٰ حجرة أُمِّ سلمة، فتركني ودخل إلىٰ أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعودٍ، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء، فارجع إلىٰ مضجعك. قال: فرجعت إلىٰ المسجد، فجمعت حَصْبَاء المسجد فتوسدته، والتففت بثوبي، فلم ألبث إلا قليلًا حتىٰ جاءت الجارية، فقالت:أجب رسول الله. فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتىٰ إذا بلغت مقامي، خرج رسول الله ﷺ وفي يده عَسِيب[(٤)] من نخل، [فعرض][(٥)] به علىٰ صدري فقال: «أَتَنْطَلِقُ أَنْتَ مَعِي حَيْثُ انْطَلَقْتُ؟» قلتُ: ما شاء الله. فأعادها علَيَّ ثلاثَ مراتٍ، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتىٰ أتينا بَقِيعَ الغَرْقَد، فخط بعصاه خطًّا، ثم قال: «اجْلِسْ فِيهَا، وَلَا تَبْرَحْ حَتَّىٰ آتِيَكَ». ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتىٰ إذا كان من حيث لا أراه ثارت العَجَاجة[(٦)] السوداء، فَفَرِقْتُ فقلت: ألحق برسول الله ﷺ، فإني أظن أن هَوَازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعىٰ إلىٰ البيوت، فأستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصاني: أن لا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجْلِسُوا». فجلسوا حتىٰ كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتاني رسول الله ﷺ فقال: «أَنِمْتَ بَعْدِي؟» فقلت: لا، ولقد فزعتُ الفزعة الأولىٰ، حتىٰ رأيت أن آتي البيوت فأستغيث الناس حتىٰ سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه.

---

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٤٨)، ورجاله ثقات غير أن أبا إسحاق يُدلس وقد عنعن، وللحديث طرق أخرىٰ: رواه الحاكم (٣/ ٦٠٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٥٢)، من طريقٍ أخرىٰ وفيها انقطاع. ورواه الطبراني في «الكبير» (٦٤٧٦) من طريق ثالثة.وبالجملة فالحديث يدل علىٰ أن القصة صحيحة. والله أعلم.

(٢) في (ز): (عبيد).

(٣) لوحة (١٨٢/ أ).

(٤) **العَسيب**: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها.

(٥) في (ز): (فقبض).

(٦) **العجاج**: الغبار، واحده عجاجة.

فقال: «لَوْ أَنَّكَ خَرَجْتَ مِنْ هَذِهِ الحَلْقَةِ(١) مَا آمَنُهُمْ عَلَيْكَ أَنْ يَخْتَطِفَكَ بَعْضُهُمْ، فَهَلْ رَأَيْتَ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُمْ؟»، فقلت: رأيت رجالًا سُودًا مُسْتَشْعِرِين(٢) بثياب بيض، فقال رسول الله ﷺ: «أُولَئِكَ وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ، أَتَوْنِي فَسَأَلُونِي الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَمَتَّعْتُهُمْ بِكُلِّ عَظْمٍ حَائِلٍ أَوْ رَوْثَةٍ أَوْ بَعْرَةٍ». قلت: وما يغني عنهم ذلك؟ قال: «إِنَّهُمْ لا يَجِدُونَ عَظْمًا إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ لَحْمَهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ أُكِلَ، وَلا رَوْثَةٍ إِلَّا وَجَدُوا فِيهَا حَبَّهَا الَّذِي كَانَ فِيهَا يَوْمَ أُكِلَتْ، فَلَا يَسْتَنْقِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَظْمٍ وَلا بَعْرَةٍ»(٣). وهذا [سياق](٤) غريبٌ جدًّا، ولكن فيه رجلٌ مبهمٌ لم يسم، والله أعلم.

وقد روىٰ الحافظ أبو نعيم من حديث بَقِيَّة بن الوليد، حدثني [نُمير بن (يزيد القيني)(٥)، حدثنا أبي، حدثنا قُحافة بن ربيعة، حدثني الزبير](٦) بن العوام قال: صلىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أَيُّكُمْ يَتْبَعُنِي إِلَىٰ وَفْدِ الجِنِّ اللَّيْلَةَ؟». فأسكت القوم ثلاثًا، فمرَّ بي فأخذ بيدي، فجعلتُ أمشي معه حتىٰ حبستْ عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلىٰ أرض براز، فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، [مستشعرين بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتني رعدةٌ شديدةٌ](٧)، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم(٨)، وهذا حديثٌ غريبٌ، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حَيَّان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن رَوْح، حدثنا يعقوب الدَّوْرَقي، حدثنا الوليد بن بُكير التميمي، حدثنا حُصين بن عمر، أخبرني عبيد المُكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفرٌ من أصحاب عبد الله يريدون الحجَّ، حتىٰ إذا كانوا في بعض الطريق، إذا هم بحَيَّةٍ تنثني علىٰ الطريق أبيض، ينفح منه ريح المِسْك، فقلت لأصحابي: امضوا، فلستُ ببارح حتىٰ أنظر إلىٰ ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثْتُ أن ماتت، فعمدت إلىٰ خِرْقةٍ بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابي في المتعشىٰ. قال: فوالله إنا لقعودٌ إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمرًا؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صَوَّامًا قوامًا، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا الله، ثم

---

(١) لوحة (١٨٢/ ب). (٢) أي: لابسين.

(٣) **ضعيف**، لم أقف عليه في «دلائل النبوة»، وفي إسناده مبهم لم يسم.

(٤) في (ز): (إسناد).

(٥) في (ز): (زيد القنبر)، وهكذا في أغلب النسخ المطبوعة، وصوابها: (نمير بن يزيد القيني) كما أثبتناه، وانظر: «تهذيب الكمال» (٣٠/ ٢٣).

(٦) بياض في (ز). (٧) سقط من (ز).

(٨) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٩٥)، والطيالسي في «المسند» (٥٣)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٣٥/ ٢٥١)، وفي «مسند الشاميين» (١٢٤١) وإسناده حسن، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٤٩٣): رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن، ليس فيه غير بقية وقد صرح بالتحديث.

قضينا[١] حَجَّتنا، ثم مررت بعمر بن الخطاب في المدينة، فأنبأته بأمر الحية، فقال: صَدَقْتَ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَقَدْ آمَنَ بِي قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ بِأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ»[٢].

وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، والله أعلم.

قال أبو نُعيم: وقد روىٰ الثوري، عن أبي إسحاق، عن الشَّعْبِي، عن رجُل من ثَقِيف بنحوه[٣].

وروىٰ عبد الله بن أحمد والطبراني، عن صَفْوَان بن المُعَطّل -هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة- وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة مَوْتًا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن[٤].

وروىٰ أبو نُعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمَة المَاجِشون، عن عمه، عن مُعاذ بن [عُبَيْد][٥] الله بن مَعْمر قال: كنتُ جالسًا عند عُثمان بن عَفان، فجاء رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت بفَلَاةٍ من الأرض، فذكر أنه رأىٰ ثُعْبانين اقتتلا ثم قَتَلَ أحدهما الآخر، قال: فذهبتُ إلىٰ المُعترك، فوجدتُ حَياتٍ كثيرة مقتولة، وإذ ينفح من بعضها ريح المِسك، فجعلت أشمُّها واحدةً واحدةً، حتىٰ وجدت ذلك من حيةٍ صفراءَ رقيقةٍ، فلففتها في عمامتي ودفنتها. فبينا أنا أمشي إذ ناداني منادٍ: يا عبد الله، لقد هُدِيتَ! هذان حَيَّان من الجن بنو أشعيبان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلىٰ ما رأيتَ، واستشهد الذي دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ. قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنتَ صادقًا فقد رأيتَ عجبًا، وإن كنتَ كاذبًا فعليك كذبك[٦].

فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي: استمعوا، وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حدثنا الإمام أبو الطَّيب سَهْل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدَّقَّاق، حدثنا مُحمد بن إبراهيم البُوشَنْجي، حدثنا هِشَام بن عَمَّار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتىٰ ختمها، ثم قال: «مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا، لَلْجِنُّ كَانُوا

---

(١) لوحة (١٨٣/ أ).
(٢) **ضعيف جدًا:** رواه أبو نعيم في «الدلائل» (صـ٣٠٦)، وفيه حصين بن عمر، قال الحافظ: متروك.
(٣) **ضعيف،** فيه أبو إسحاق: مدلس، وفيه رجل مبهم لم يسم.
(٤) **ضعيف جدًا:** رواه أحمد (٤/ ٣١٢)، والطبراني (١٣٤٥)، والحاكم (٣/ ٥١٩)، وفي إسناده عمر بن نبهان العبدي وهو متروك، وسلام أبو عيسىٰ: مجهول.
(٥) في (ز): (عبد).
(٦) **لا بأس به:** رواه أبو نعيم في «الدلائل» (صـ٣٠٥)، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق يخطئ، لكنه توبع عند أبي الشيخ في «العظمة» (١١٠٠)، ومدار الحديث علىٰ عبيد الله: لم يوثقه غير ابن حبان وهو من التابعين، فالإسناد لا بأس به إن شاء الله.

أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، إِلَّا قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ -أَوْ: نِعَمِكَ- رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»[(١)].

ورواه الترمذي في «التفسير»، عن أبي مسلم عبد الرحمن بن وَاقِد، عن الوليد بن مسلم به[(٢)]. قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه، فقرأ عليهم «سورة الرحمن» فذكره، ثم قال الترمذي: «غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير». كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطَّاطَري، عن زُهير بن محمد به مثله.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾؛ أي: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف]، أي: رجعوا إلىٰ قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد اسْتُدِلَّ بهذه الآية علىٰ أنه في الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسلٌ. ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولًا؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبيٍّ بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالىٰ في «سورة الأنعام»: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق علىٰ أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، أي: أحدهما. ثم إنه تعالىٰ فَسَّرَ إنذار الجن لقومهم، فقال مخبرًا عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، ولم يذكروا عيسىٰ؛ لأن عيسىٰ ﷺ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، وهكذا قال وَرَقَة بن نَوْفَل، حين أخبره النبيُّ ﷺ بقصة نزول جبريل ﷺ عليه أول مرة، فقال: بَخٍ بَخٍ[(٣)]، هذا الناموس الذي كان يأتي موسىٰ، يا ليتني أكون فيها جَذَعًا[(٤)].

---

(١) صححه الألباني: رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٣٢)، والترمذي في «السنن» (٣٢٩١)، والحاكم (٢/ ١٧٣) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وله شواهد استوفاها الألباني في «الصحيحة» (٢١٥٠).

(٢) لوحة (١٨٣/ ب).

(٣) بخ بخ: كلمة تقال للاستحسان.

(٤) لَيْتَنِي فيها جَذَعًا: الضَّمير في (فيها) للنُّبُوَّة؛ أي: يا لَيْتَني كنْتُ شابًّا عند ظُهُورها حتىٰ أبالِغ في نُصْرَتِها وحِمَايَتِها، وجَذَعًا: منْصُوبٌ علىٰ الحال من الضَّمير في (فيها)، تقديرُه: لَيْتَني مُسْتقِرٌّ فِيهَا، جذَعا: أي شابًّا. «النهاية» لابن الأثير. وتقدم الكلام علىٰ ورقة بن نوفل في تفسير الفاتحة.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدلٌ، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل[1] الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ -في الاعتقادات- ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: في العمليات.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: فيه دلالةٌ على أنه تعالى أرسل محمدًا -صلوات الله وسلامه عليه- إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي «سورة الرحمن»؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، قيل: إن «من» هاهنا زائدةٌ وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليلٌ، وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدلَ بهذه الآية من ذهبَ من العُلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يُجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجحٍ ومبالغةٍ فلو كان لهم جزاءٌ على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حُدثت عن جَرير، عن لَيْث، عن مُجاهد، عن ابن عباس قال: لا يَدخل مؤمنو الجِن الجَنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذُرية إبليس الجنة[2].

والحق أن مُؤمِنَهم كمؤمن الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف[3]، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظرٌ، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجِنّ هذه الآية بالشكر القولي

---

(١) لوحة (١٨٤/ أ).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥١٨)، وفيه لَيْث بن أبي سُلَيم، أُدخل في حديثه ما ليس منه ولم يتميز فترك، وفي الإسناد أيضًا مبهمٌ وهو من يروي عنه أبو حاتم.

(٣) قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَمَّا دُخُولُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجِيبِينَ دَاعِيَ اللهِ مِنَ الجِنِّ الجَنَّةَ - فَلَمْ تَتَعَرَّضْ لَهُ الآيَةُ الكَرِيمَةُ بِإِثْبَاتٍ وَلَا نَفْيٍ، وَقَدْ دَلَّتْ آيَةٌ أُخْرَىٰ عَلَىٰ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الجِنِّ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَهِيَ قَوْلُهُ - تَعَالَىٰ - فِي سُورَةِ «الرَّحْمَنِ»: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [٤٦ - ٤٧].

وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ، قَائِلِينَ: إِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ، مِنْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الجِنِّ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَأَنَّ جَزَاءَ إِيمَانِهِمْ وَإِجَابَتِهِمْ دَاعِيَ اللهِ هُوَ الغُفْرَانُ وَإِجَارَتُهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ فَقَطْ، كَمَا هُوَ نَصُّ الآيَةِ - كُلُّه خِلَافُ التَّحْقِيقِ.

أبلغ من الإنس، فقالوا: «وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ».

فلم يكن تعالىٰ ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضًا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار -وهو مقام عدل- فَلأَنْ يجازي مؤمنهم بالجنة -وهو مقام فَضْل- بطريق الأولىٰ والأحرىٰ. ومما يدل أيضًا علىٰ ذلك عمومُ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزءٍ علىٰ حدةٍ، ولله الحمد والمنة.

وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتىٰ يُنشئ اللهُ لها خلقًا، أفلا يُسكنها من آمن به وعمل له صالحًا؟ وما ذكروه -هاهنا- من الجزاء علىٰ الإيمان [(١)] من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نصٌّ صريحٌ ولا ظاهر عن الشارع أن [مؤمني] [(٢)] الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لقومه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ [وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى] [(٣)]﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء.

وقد حُكي فيهم أقوالٌ غريبةٌ فعن عُمَرَ بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ [(٤)] الجنة، وإنما يكونون في رَبَضِها وحولها وفي أرجائها [(٥)]. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم، ولا يرون بني آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضًا عن الطعام والشراب كالملائكة؛ لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظرٌ، ولا دليل عليها [(٦)].

ثم قال مخبرًا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بل قدرة الله شاملةٌ له ومحيطةٌ به، ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُ﴾ أي: لا يجيرهم منه أحدٌ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، وهذا مقامُ تهديدٍ وترهيبٍ، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع في كثيرٍ منهم، وجاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ وفودًا وفودًا، كما تقدم بيانه.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ

---

(١) لوحة (١٨٤/ ب).

(٢) في (ز): (مؤمنوا).

(٣) في (ز): ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وهي الآية (٣١) من سورة الأحقاف.

(٤) بحبوحة الدار: وسطها.

(٥) الأرجاء: جمع رجا، وهو ناحية الموضع.

(٦) لمعرفة المزيد عن الجن وأحكامهم وخصائصهم وغير ذلك ينظر: «آكام المرجان» للشبلي، و«لقط المرجان» للسيوطي، و«عالم الجن والشياطين» للأشقر -رحم الله الجميع-، و«وقاية الإنسان من الجن والشيطان» وحيد بالي -حَفِظَهُ اللهُ-.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ أي: ولم يَكْرِثه[١] خلقُهن، بل قال لها: «كُوني» فكانت، بلا مُمانعة ولا مُخالفة، بل طائعةٌ مجيبةٌ خائفةٌ وَجلةٌ، أفليس ذلك بقادرٍ علىٰ أن يحيي الموتىٰ؟! كما قال في الآية[٢] الأخرىٰ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

ثم قال مُتهددًا ومُتوعدًا لمن كفر به: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾، أي: يُقال لهم: أما هذا حقٌّ؟ أفسحرٌ هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، ثم قال تعالىٰ آمرًا رسوله ﷺ بالصبر علىٰ تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: علىٰ تكذيب قومهم لهم.

وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم علىٰ أقوال، وأشهرها أنهم: نُوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نَصَّ اللهُ علىٰ أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتَي «الأحزاب» و «الشورىٰ»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأُولي العزم جميع الرّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحَضْرَمي، حدثنا السَّرِيُّ بن حَيَّان، حدثنا عَبَّاد بن عَباد، حدثنا مُجَالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مَسْروق قال: قالت لي عائشة ﵂: ظَلَّ رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه[٣]، ثم ظَلَّ صائمًا ثم طواه، ثم ظل صائمًا، ثم قال: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ الدُّنْيَا لا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلا لِآلِ مُحَمَّدٍ. يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ مِنْ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَىٰ مَكْرُوهِهَا وَالصَّبْرِ عَنْ مَحْبُوبِهَا، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ مِنِّي إِلَّا أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ، فَقَالَ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وَإِنِّي -وَاللهِ- لَأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا جَهْدِي، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[٤].

---

(١) كرثه الأمر: اشتد عليه، وبلغ منه المشقة.

(٢) لوحة (١٨٥/ أ).

(٣) (طواه) أي: طوىٰ هذا اليوم، فوصله بالذي يليه بالصوم.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٥٨٣)، وفي «مسند الفردوس» (٨٢٢٨)، وفي إسناده مجالد بن سعيد، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وكذا قال الحافظ في «التقريب».

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها.

وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾ قال ابن جرير: يحتمل معنيين. أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره [1]: هذا القرآن بلاغ.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يَهْلِكُ على الله إلا هالكٌ، وهذا من عدله تعالى أنه لا يُعَذِّبُ إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف.

(١) لوحة (١٨٥/ ب).

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

تفسير سورة القتال [وهي مدنية][1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾

يقول تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاءً ولا ثوابًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم [وبواطنهم][2] وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاصٍّ علىٰ عامٍّ، وهو دليلٌ علىٰ أنه شرطٌ في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملةٌ معترضةٌ حسنةٌ؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، قال ابن عباس: أي أَمْرَهُم.

وقال مُجاهد: شأنهم. وقال قتادة و[ابن][3] زيد: حالهم. والكُل مُتقاربٌ. وقد جاء في حديث تَشْمِيت العَاطِس: «يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ»[4].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: [إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شئونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل؛ أي][5]: اختاروا الباطل علىٰ الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾؛ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

---

(١) ليست في (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) في (ز): (أبو). (٤) البخاري (٦٢٢٤)، وأبو داود (٥٠٢٣).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ (١) كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مُرشدًا للمؤمنين إلىٰ ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾؛ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حَصْدًا بالسيوف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾؛ أي: أهلكتموهم قتلًا ﴿فَشُدُّوا﴾ وثاق الأسارىٰ الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مُخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أُساراهم مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمالٍ تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه(٢).

والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر؛ فإن الله -سبحانه- عَاتَبَ المؤمنين علىٰ الاستكثار من الأسارىٰ يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعىٰ بعض العلماء أن هذه الآية -المخيرة بين مُفاداة الأسير والمَنِّ عليه- منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة:٥]. رواه العَوْفي عن ابن عباس(٣). وقاله قتادة، والضحاك، والسُّدِّي، وابن جُرَيْجٍ.

وقال الآخرون -وهم الأكثرون-: ليست بمنسوخةٍ.

ثم قال بعضُهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المَنِّ علىٰ الأسير ومُفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء؛ لحديث قَتْل النبي ﷺ النَّضْرَ بن الحَارث وعُقْبَة بن أبي

(١) لوحة (١٨٦/ أ).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: هذا التخيير هل هو تخيير تشهٍّ، أو تخيير مصلحة؟ تخيير مصلحةٍ؛ يعني: لا يحل لمن يلي أمر المسلمين في هذا الشأن أن يتخيَّر إلَّا ما تقتضيه المصلحة، وهنا نأخذ ضابطًا في هذا المقام؛ نقول: إذا كان المقصود بالتخيير للتيسير، فهو تشهٍّ، وإذا كان التخيير بالتصرُّف للغير، فهو مصلحيٌّ، ولِيُّ أمر المسلمين يُخيَّر بين هذا وهذا، هل هو للتيسير عليه، أو لمصلحة المسلمين؟ لمصلحة المسلمين، فيجب أن يختار ما هو أصلح: من المال أو الافتداء.

(٣) رواه البيهقي (٦/ ٣٢٣)، (٩/ ١١).

مُعَيط من أسارىٰ بدر[١]، وقال ثُمامَةُ بن [أُثال][٢] لرسُولِ الله ﷺ حين قال له: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ، وإن تَمْنُنْ تمنن علىٰ شاكرٍ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعطَ منه ما شئتَ[٣].

وزاد الشافعي فقال: الإمام مُخيرٌ بين قتله أو المنِّ عليه، أو مُفاداته، أو استرقاقه أيضًا. وهذه المسألة مُحَرَّرة في علم الفروع، وقد دللنا علىٰ ذلك في كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[٤]. قال مجاهد: حتىٰ ينزل عيسىٰ[٥] ابن مريم ﷺ[٦]. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ [طَائِفَةٌ مِنْ][٧] أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَّالَ»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن إبراهيم بن سُليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبَيرِ بن نُفَيرٍ؛ أن سَلَمَة بن نُفَيلٍ أخبرهم: أنه أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني [أَسَمْتُ][٩][١٠] الخيل، وألقيتُ السلاح، ووَضَعَتِ الحربُ أوزارَهَا، قلتُ: لَا قِتَالَ. فقال له النبي ﷺ: «الآنَ جَاءَ القِتَالُ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ النَّاسِ، يُزِيغُ [اللهُ][١١] قُلُوبَ أَقْوَامٍ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، وَيَرْزُقُهُمُ اللهُ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ. أَلَا إِنَّ [عُقْرَ دَارِ المُؤْمِنِينَ][١٢] الشَّامُ][١٣]، وَالخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»[١٤].

وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جُبَيْرِ بن نُفَيرٍ، عن سَلَمَة بن نُفَيْلٍ [السَّكُوني][١٥] به.

وقال أبو القاسم البَغَوي: حدثنا داود بن رشيدٍ، حدثنا الوليد بن [مسلم، عن محمد بن][١٦] مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبير بن نُفَير، عن النَّوَّاس بن سَمْعَان قال: لما

---

(١) رواه البزار (١٧٨١ -كشف الأستار)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٩): فيه يحيىٰ بن سلمة بن كهيل وهو ضعيف. قلت: بل هو شيعيٌّ متروكٌ، كذا قال الحافظ في «التقريب».

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٠١)، وقال الهيثمي: فيه عبد الله بن حماد بن نمير ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) في (ز): (أبان)، وهو خطأ. (٣) البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

(٤) قال ابن عثيمين رحمه الله: «حتىٰ» هنا للتعليل؛ أي: لأجل أن تضع الحرب أوزارها.

(٥) لوحة (١٨٦/ ب). (٦) الطبري (١١/ ٣٠٥) عن مجاهد، والبيهقي (٩/ ١٨٠) برقم (١٨٣٩٣).

(٧) سقط من (ز).

(٨) **صحيح**: تقدم عند تفسير الآية (١٢٠) من سورة البقرة، وانظر: تفسير الآية (٥٥) من سورة النور.

(٩) يعني: تركتها تسوم، أي: ترعىٰ.

(١٠) في (ز): (سيَّبْتُ)، والمثبت موافق لما في «المسند». ط: الرسالة.

(١١) في (ز): (له). (١٢) أي: أصل دارهم.

(١٣) في (ز): [إلا إن عقدوا المؤمنين التام].

(١٤) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٠٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٧١٢)، وقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي**» ورد عن جماعة من الصحابة. انظر: تفسير الآية (١٢٠) من سورة البقرة.

(١٥) في (ز): (السلولي). (١٦) سقط من (ز).

فُتِحَ علىٰ رسول الله ﷺ فَتْحٌ فقالوا: يا رسول الله، سُيبتِ الخَيْل، ووضعتِ السلاحُ، ووضعتِ الحربُ أوزارها، قالوا: لا قِتال، قال: «كَذَبُوا، الآنَ جَاءَ القِتَالُ، لا يَزَالُ اللهُ يُرَفِّعُ قُلُوبَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَرْزُقُهُمْ مِنهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَعُقْرُ دَارِ المُسْلِمِينَ بِالشَّامِ»(١).

وهكذا رواه الحافظ أبو يَعْلىٰ المَوْصِلي، عن داود بن رشيدٍ، به. والمحفوظ أنه من رواية سَلَمَة بن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يُقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلىٰ ألَّا يَبْقَىٰ حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتىٰ لا يبقىٰ شِرْكٌ. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أوزار المُحَاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلىٰ الله ﷻ. وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله ﷻ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبةٍ ونكالٍ من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم(٢). كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال في سورة براءة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتلَ كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله في طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»، حيث قال: حدثنا زَيْدُ بن يحيىٰ الدمشقي، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مَكْحُول، عن كثير بن مُرّة، عن قَيْس الجِذَامي - رجُل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْطَىٰ الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ: يُكَفَّرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُؤَمَّنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيُحَلَّىٰ حُلَّةَ الإِيمَانِ»(٣). تفرد به أحمد.

حديثٌ آخر: قال أحمد أيضًا: حدثنا الحَكَم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن [بَحِير ابن سعد](٤)، عن خالد بن مَعْدانَ، عن المِقْدَام بن مَعْد يكرب الكِنْدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتَّ خِصَالٍ: أَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُحَلَّىٰ حُلَّةَ

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٦١٧)، والنسائي في «السنن» (٦/ ٢١٤).

(٢) لوحة (١٨٧/ أ).

(٣) حسن صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وفيه مكحول الشامي: كثير الإرسال وقد عنعن، وعبد الرحمن بن ثابت: صدوق يخطئ، ويشهد لهذه الروايةِ الروايةُ الآتية بعدها.

(٤) في (ز): (يحيىٰ بن سعيد)، وهو خطأ.

الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعَ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»(١).

وقد أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجة.

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عَمْرٍو، وعن أبي قَتَادَةَ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ»(٢). ورُوي من حديث جماعة من الصحابة(٣).

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»(٤). ورواه أبو داود. والأحاديث في فضل الشهيد كثيرةٌ جدًّا(٥).

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلىٰ الجنة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٩].

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عرفهم بها وهداهم إليها. قال مُجاهد: يَهتدي أهلها إلىٰ بيوتهم ومَسَاكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا. وروىٰ مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. وقال محمد بن كَعْب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مُقَاتل بن حَيَّان: بَلَغَنَا أن المَلَك الذي كان وُكِّلَ بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتىٰ يأتي أقصىٰ منزل هو له، فيعرّفه كل شيءٍ أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهىٰ إلىٰ أقصىٰ منزله في الجنة دخل إلىٰ منزله وأزواجه، وانصرف المَلَكُ عنه. ذكرهن ابن أبي حاتم.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضًا، رواه البخاري من حديث قتادة، عن أبي المُتَوَكِّل النَّاجي، عن أبي سعيد ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ أَهْدَىٰ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا»(٦).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجة (٢٧٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣١)، وإسماعيل بن عياش الحمصي روايته عن أهل بلدته صحيحة وهذا منها، فشيخه حمصي مثله.

(٢) مسلم (١٨٨٦).

(٣) فثبت أيضًا عن أنس: رواه الترمذي (١٦٤٠). وقال الترمذي: وفي الباب عن كعب بن عجرة، وجابر، وأبي هريرة، وأبي قتادة.

(٤) حسن صحيح: رواه أبو داود (٢٥٢٢)، وإسناده حسن، ويشهد له ما تقدم.

(٥) لوحة (١٨٧/ ب).

(٦) رواه البخاري (٦٥٣٥)، وأحمد (٣/ ١٣، ٥٧، ٦٣، ٧٤).

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاءَ مِن جِنْسِ العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء في الحديث: «مَنْ بَلَّغَ ذَا سُلْطَانٍ حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا، ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١). ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، [تعس عبد الدرهم](٢)، تَعِسَ عَبْدُ القَطِيفَةِ -وفي رواية: تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ- تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ(٣) فَلَا انْتَقَشَ»(٤)؛ أي: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: أحبطها(٥) وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [أي: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾](٦).

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾؛ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم؛ أي: ونجىٰ المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، ولهذا لما قال أبو سُفْيان -صَخْرُ بن حَرْب- رئيس المُشركين يوم أُحد حين سَأَل عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر وعمر فلم يُجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عُمر بن الخطاب فقال: كَذَبْتَ يا عدو الله، بل أبقىٰ اللهُ لك ما يَسُوءك، وإن الذين عَدَدتَ لأحياءُ كلهم. فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً(٧) لم آمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تُجِيبُونَهُ؟»(٨) قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العُزَّىٰ، ولا عُزَّىٰ لكم. فقال:

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٥٥/ ٤١٤)، و«شرح السنة» للبغوي (٣٧٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٦٢)، والأحاديث الطوال للطبراني (٢٩)، وإسناده ضعيف فيه: الحسين بن حميد بن الربيع اللخمي: متهم، وجميع بن عمير بن عبد الرحمن العجلي: ضعيف رافضي، قال أبو داود: كان كذابًا.

(٢) سقط من (ز).

(٣) أي: إذا شاكَتْهُ شَوْكَةٌ فلا يَقْدِرُ علىٰ انْتِقاشها، وهو: إخراجُها بالمِنْقاش. «النهاية».

(٤) البخاري (٢٨٨٧)، وابن ماجة (٤١٣٥، ٤١٣٦). (٥) لوحة (١٨٨/ أ).

(٦) في (ز): [﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه].

(٧) مَثَّلت بالقتيل: إذا جدعت أنفه أو أذنه أو مذاكيره، أو شيئًا من أطرافه.

(٨) في (ز): (تُجِيبُوهُ)، والمثبت موافق لما في «ألا تجيبوا له»، وفي رواية: «أجيبوه».

«أَلَا تُجِيبُوهُ؟»، قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» (١).

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْمًا وقَضْمًا وليس لهم همةٌ إلا في ذلك. ولهذا ثبت في «الصحيح»: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ» (٢). ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي (٣): يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: مكة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوةً من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرىٰ؟ فإن رفع عن كثيرٍ منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر علىٰ الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾؛ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلىٰ، عن المُعْتَمِر بن سُليمان، عن أبيه، عن حَنَشٍ، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلىٰ الغار -أراه قال-: التفت إلىٰ مكة - وقال: «أَنْتِ أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ، وَأَنْتِ أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ إِلَيَّ، وَلَوْ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُخْرِجُونِي لَمْ أَخْرُجْ مِنْكِ» (٤). فأعدىٰ الأعداء من عَدَا علىٰ الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول (٥) الجاهلية، فأنزل الله علىٰ نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ أي: علىٰ بصيرةٍ ويقينٍ في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدىٰ والعلم، وبما جَبَلَهُ الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾؟ أي: ليس هذا كهذا، كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد:١٩]، وكقوله: ﴿لَا

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣)، وأحمد (٤/ ٢٩٣).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦١). (٣) لوحة (١٨٨/ ب).

(٤) صحيح: رواه ابن جرير (٢٦/ ٤٨)، ورجاله ثقات، وله شاهدٌ من حديث عبد الله بن عدي -بدون ذكر سبب نزول الآية- رواه الترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجة (٣١٠٨)، وإسناده صحيح.

(٥) الذُّحُول: الأحقاد والعداوات، جمع ذَحْل.

﴿يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ (١) ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخُراساني: غير منتنٍ. والعرب تقول: أَسِنَ الماء، إذا تغيَّر ريحه (٢).

وفي حديثٍ مرفوعٍ أورده ابن أبي حاتم: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يعني: الصافي الذي لا كَدَرَ فيه (٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا وَكِيعٌ، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّةَ، عن مَسْرُوقٍ قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجَّرُ من جبلٍ من مسكٍ (٤).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفي حديثٍ مرفوعٍ: «**لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ المَاشِيَةِ**» (٥).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفي حديثٍ مرفوعٍ: «**لَمْ تَعْصِرْهَا الرِّجَالُ بِأَقْدَامِهَا**» (٦).

وقوله ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وهو في غايةِ الصفاءِ، وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديثٍ مرفوعٍ: «**لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ**» (٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَزيد بن هارون، أخبرنا الجُرَيري، عن حكيم [بن معاوية] (٨)، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فِي الجَنَّةِ بَحْرُ اللَّبَنِ، وَبَحْرُ المَاءِ، وَبَحْرُ العَسَلِ، وَبَحْرُ الخَمْرِ، ثُمَّ تَشَقَّقُ الأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدُ**» (٩). ورواه الترمذي في «صفة الجنة»، عن محمد بن [بَشَّار] (١٠)، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجُرَيري به. وقال: حسنٌ صحيحٌ.

وقال أبو بكر بن مَرْدويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النُّعْمَان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبيد أبو قُدامة الإِيَادي، حدثنا أبو عِمْران الجَوْني، عن [أبي بكر] (١١) بن عبد الله بن قَيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هَذِهِ الأَنْهَارُ**

---

(١) لوحة (١٨٩/ أ). (٢) الطبري (١١/ ٣١٣). (٣) لم أقف على إسناده.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٦٧)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٩٣) عن الأعمش به.

والحديث رواه -أيضًا- ابن أبي الدنيا في «وصف الجنة» (١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٨٦)، وفيه سليمان بن أرقم: متروك، والإسناد منقطعٌ بين أبي معاذ البصري وبين علي بن أبي طالب.

(٥) انظر التخريج السابق. (٦) انظر التخريج السابق.

(٧) انظر التخريج السابق. (٨) سقط من (ز).

(٩) صححه الألباني: رواه أحمد (٥/ ٥)، والترمذي (٢٥٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٤)، والبيهقي في «البعث» (٢٣٩)، وانظر: «صحيح الجامع» (٢١٢٢).

(١٠) في (ز): (يسار)، وهو خطأ. (١١) في (ز): (يزيد)، وهو خطأ.

تَشْخُبُ(١) مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ فِي جَوْبَةٍ(٢)، ثُمَّ تَصَدَّعُ بَعْدُ أَنْهَارًا»(٣).

وفي «الصحيح»: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»(٤).

وقال الحافظ أبو القاسم الطَّبَراني(٥): حدثنا مُصْعَب بن إبراهيم بن حَمزة الزُّبيري، وعبد الله بن الصَّقْر السُّكَريُّ قالا: حدثنا إبراهيم بن المُنْذِر الحِزَامي، حدثنا عبد الرحمن بن المُغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عَيَّاش، عن دَلْهَم بن الأسود [بن عبد الله بن حَاجب بن عامر بن المُنْتَفِق العُقَيلي، عن أبيه، عن عمه لَقِيط بن عَامر](٦). قال دَلْهَم: وحدثنيه أيضًا أبو الأسود، عن عاصم بن لَقِيطٍ أن لَقِيط بن عامر خرج وَافِدًا إلىٰ رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعَلَام نَطَّلِعُ من الجنة؟ قال: «عَلَىٰ أَنْهَارِ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ مَا بِهَا صُدَاعٌ وَلَا نَدَامَةٌ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَفَاكِهَةٍ -لَعَمْرُ إِلَهِكَ مَا تَعْلَمُونَ وَخَيْرٍ مِنْ مِثْلِهِ- وَأَزْوَاجٍ مُطَهَّرَةٍ»، قلتُ: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواجٌ مُصْلِحَاتٌ؟ قال: «الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ، تَلَذُّونَهُنَّ مِثْلَ لَذَّاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَلَذُّونَكُمْ(٧)، غَيْرَ أَلَّا تَوَالُدَ»(٨).

وقال أبو بكر -عبد الله بن محمد- بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن عُبيدة، عن يَزيد بن هَارون، أخبرني الجُريري، عن مُعاوية بن قُرّة، [عن أبيه](٩)، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أُخْدُود في الأرض، والله إنها لتجري سائحةً علىٰ وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر(١٠).

وقد رواه أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعًا.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

---

(١) أي: تسيل. (٢) الجَوبة: الحفرة المستديرة الواسعة.

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٤١٦)، وفي إسناده الحارث بن عبيد، قال أبو حاتم: ليس بالقوي يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال النسائي: ليس بذاك القوي، وقال ابن معين: ضعيف الحديث. انظر «تهذيب الكمال» (٥/ ٣٦٠).

(٤) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٥) لوحة (١٨٩/ ب). (٦) سقط من (ز).

(٧) في «الكبير» للطبراني: (وتَلَذُّونكم)، وفي «المسند»: (ويَلْذَذْن بكم)

(٨) حديث ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٣)، الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢١١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٣٤٣) برقم (٦٣٦)، وحققه وصححه ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٨).

(٩) سقط من (ز)، والصواب إثباته.

(١٠) أي: الجيد إلىٰ الغاية. صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٤٧) وفي «صحيح الترغيب» (٣٧٢٣)، وله حكم الرفع كما قاله الألباني.

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ [أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالدٌ في النار؟][(١)]، ليس هؤلاء كهؤلاء؛ أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾؛ أي: حارًّا شديد الحرِّ، لا يُسْتطَاعُ. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾؛ أي: قطَّع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذًا بالله من ذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾

يقول تعالىٰ مُخبرًا عن المُنافقين في بَلَادَتِهِمْ وقلة فهمهم، حيث[(٢)] كانوا يجلسون إلىٰ رسول الله ﷺ، ويستمعون كلامه، ولا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ -من الصحابة-: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾؛ أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكترثون له.

قال الله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: فلا فهمٌ صحيحٌ، ولا قصدٌ صحيحٌ.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾؛ أي: ألهمهم رشدهم.

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي: أَمَارَات اقترابها، كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثةُ رسُول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحُجة علىٰ العالمين. وقد أخبر -صلوات الله وسلامه عليه- بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوطٌ في موضعه.

وقال الحسنُ البَصْري: بعثةُ محمدٍ ﷺ من أشراطِ الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء في أسمائه ﷺ، أنه نبي التوبة، ونبي المَلحَمة، والحاشر الذي يُحشَر الناس علىٰ قدميه، والعَاقِب الذي ليس بعده نبي.

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن المِقْدام، حدثنا فُضَيل بن سُليمان، حدثنا أبو [حَازِم][(٣)]، حدثنا

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٩٠/ أ).
(٣) في (ز): (رجاء)، وهو خطأ.

سَهْل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا -بالوسطىٰ والتي تليها-: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»(١).

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبارٌ بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتىٰ كونه آمرًا بعلم ذلك(٢)؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(٣) وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي»(٤). وفي «الصحيح» أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ،

---

(١) البخاري (٤٩٣٦).

(٢) **قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:** وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عينٍ علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحدٍ، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطرٌّ إلىٰ ذلك. والطريق إلىٰ العلم بأنه لا إله إلا هو أمور:

أحدها: بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة علىٰ كماله وعظمته وجلالته فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالىٰ المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داعٍ إلىٰ العلم بأنه تعالىٰ وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصةٌ من جميع الوجوه، فقيرةٌ بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرةٍ، من جلب خيرٍ أو دفع شرٍّ، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله علىٰ ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا، وعلمًا -وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل علىٰ التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلىٰ أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشُّبَهُ والخيالات، ولا يزداد -علىٰ تكرر الباطل والشبه- إلا نموًّا وكمالًا.

هذا، وإن نظرت إلىٰ الدليل العظيم، والأمر الكبير -وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته- فإنه الباب الأعظم إلىٰ العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

(٣) لوحة (١٩٠/ ب). (٤) البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[(١)]. وفي «الصحيح» أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جَعْفَر، حدثنا شُعْبة، عن عاصم الأَحْوَل قال: سمعت عبد الله ابن سَرْجِس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله. فقلت: أستغفر لك؟ فقال: «نَعَمْ، وَلَكُمْ»، وقرأ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ثم نظرت إلىٰ نُغْضِ[(٣)] كتفه الأيمن -أو: كتفه الأيسر، شُعبة الذي شَكَّ- فإذا هو كهيئة الجُمع[(٤)] عليه الثآليل[(٥)].

رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول به.

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلىٰ: حدثنا مُحْرِز بن عَوْنٍ، حدثنا عُثمان بن مَطَر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نصيرَة، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَأَكْثِرُوا مِنْهُمَا، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالأَهْوَاءِ، فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»[(٦)].

وفي الأثر المروي: «قَالَ إِبْلِيسُ: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لا أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ اللهُ ﷻ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَلا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[(٧)]. والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرةٌ جدًّا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ[(٨)] إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جُرَيج، وهو اختيار ابن جرير.

وعن ابن عباس: مُتقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة[(٩)].

وقال السُّدِّي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولىٰ وأظهر، والله أعلم.

---

(١) مسلم (٧٧١). (٢) البخاري (٦٣٠٧).

(٣) النُّغْض: أعلىٰ الكتف، وقيل: العظم الرقيق الذي علىٰ طرفه.

(٤) أي: مثل جُمْع الكف، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها، والثآليل: جَمْع ثُؤْلُول، وهُو: الحبَّة التي تَظْهر في الجِلد كالحِمَّصَة فما دُونها.

(٥) رواه مسلم (٢٣٤٦)، وأحمد (٥/ ٨٢).

(٦) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (١٣٦)، وفيه: عثمان بن مطر: ضعيف.

(٧) حسنه الألباني: رواه أحمد (٣/ ٢٩، ٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٦١) وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٣٣٣)، وفيه دراج؛ قال الحافظ: صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف. وقد أورد له الألباني طرقًا أخرىٰ وأودع الحديث في «الصحيحة» (١٠٤).

(٨) لوحة (١٩١/ أ). (٩) رواه البغوي (١/ ٢٨٥) في «التفسير».

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷻ وأمر به نكَلَ(١) عنه كثيرٌ من الناس، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: مشتملة علىٰ حُكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: من فَزعهم ورُعبهم وجُبنهم من لقاءِ الأعداءِ. ثم قال مُشجعًا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: وكان الأولىٰ بهم أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: عن الجهاد ونكلْتُم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾؛ أي: تعودوا إلىٰ ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾، وهذا نهيٌ عن الإفساد(٢) في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله -تعالىٰ- بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلىٰ الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طُرقٍ عديدةٍ، ووجوهٍ كثيرةٍ.

قال البخاري: حدثنا خالد بن مَخْلَدٍ، حدثنا سُليمان، حدثني مُعاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحِقْوِ الرَّحْمَنِ**(٣) ﷻ **فَقَالَ: مَهْ! فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ. فَقَالَ: أَلَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مَنْ**

---

(١) أي: امتنع. (٢) لوحة (١٩١/ ب).

(٣) قال الشيخ العلامة عبد الرحمن البراك حفظه الله: «ومن خير ما يقال في هذا المقام قول الشافعي رحمه الله تعالىٰ: (آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله). وقول شيخ الإسلام في «نقض التأسيس» (٣ / ١٢٧): (هذا الحديث في الجُملة من أحاديث الصفات التي نصَّ الأئمةُ علىٰ أنه يُمَرُّ كما جاء، وردوا علىٰ من نفىٰ موجبه).». تعليقه حفظه الله علىٰ «فتح الباري»: (١٠/ ٥٩٥) ط طيبة، وقد ذكرنا مقصود العلماء بإمرار الصفات في التعليق المتقدم علىٰ آية الاستواء من «سورة الأعراف» فليراجع. وانظر: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» للشيخ الغُنيمان: (٢/ ٣٨١- ٣٨٥).

وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَاكِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(١).

ثم رواه البخاري من طريقين آخرين، عن مُعاوية بن أبي مُزرد به. قال رسول الله ﷺ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»؛ ورواه مسلم من حديث مُعاوية بن أبي مُزرد به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عُيَينة بن عبد الرحمن بن جَوْشَن، عن أبيه، عن أبي بَكْرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَىٰ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ، مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»(٢).

رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة، من حديث إسماعيل -هو ابن عُلَية- به. وقال الترمذي: هذا حديثٌ صحيحٌ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا مَيْمُون أبو محمد المرئي، حدثنا محمد بن عَبَّاد المخزومي، عن ثَوْبان، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ النَّسَاءُ(٣) فِي الأَجَلِ، وَالزِّيَادَةُ فِي الرِّزْقِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٤). تفرد به أحمد، وله شاهدٌ في «الصحيح».

وقال أحمد أيضًا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجَّاج بن أَرْطَأة، عن عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أَصِلُ ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأُحسِنُ ويُسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إِذَنْ تُتْرَكُونَ جَمِيعًا، وَلَكِنْ جُدْ بِالفَضْلِ وَصِلْهُمْ؛ فَإِنَّهُ(٥) لَنْ يَزَالَ مَعَكَ ظَهِيرٌ مِنَ اللهِ ﷻ مَا كُنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ»(٦).

تفرد به من هذا الوجه، وله شاهدٌ من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَىٰ، حدثنا فِطْرٌ، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، وَلَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا». رواه البخاري(٧).

---

(١) البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٢) **صحيح:** رواه أحمد (٥/ ٢٨)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجة (٤٢١١).

(٣) أي: التأخير.

(٤) **صحيح:** رواه أحمد (٥/ ٢٧٥)، وله شاهدٌ عن أنس رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٥) لوحة (١٩٢/ أ).

(٦) **صحيح من غير هذا الطريق:** وهذا الطريق رواه أحمد (٣/ ١٨١)، وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف، ولكن الحديث له شاهد صحيح وفيه: «إِنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُم المَلَّ».

(٧) رواه البخاري (٥٩٩١)، وأحمد (٢/ ١٦٣، ١٩٠).

وقال أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، أخبرنا قَتادة، عن أبي ثُمَامة الثقفي، عن عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُوضَعُ الرَّحِمُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهَا حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ**[١] **المِغْزَلِ، تَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ طُلَقٍ ذُلَقٍ**[٢]، **فَتَصِلُ مَنْ وَصَلَهَا وَتَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهَا**»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو -يَبْلُغُ به النبيَّ ﷺ- قال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ**[٤] **مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتُّهُ**»[٥].

وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث سُفيان بن عُيينة، عن عَمرو بن دِينار به. وهذا هو الذي يُرْوَىٰ بتَسَلْسُل الأولية، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَزيد بن هَارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائي، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن [قَارظ][٦]؛ أن أباه حدثه: أنه دخل علىٰ عبد الرحمن بن عوف وهو مريضٌ، فقال له عبد الرحمن: وَصَلَتْكَ رَحِمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ ﷻ: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنِ اسْمِي، فَمَنْ يَصِلْهَا أَصِلْهُ، وَمَنْ يَقْطَعْهَا أَقْطَعْهُ فَأَبُتَّهُ -أَوْ قَالَ-: مَنْ يَبُتَّهَا أَبُتَّهُ**». تفرد به من هذا الوجه[٧]. ورواه أحمد أيضًا من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن الرَّدَّاد- أو: أبي الردَّاد-عن عبد الرحمن بن عوف به. ورواه أبو داود والترمذي، من رواية أبي سلمة، عن أبيه. والأحاديث في هذا كثيرةٌ.

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمَّار المَوْصِلي، حدثنا عيسىٰ بن يونس، عن [محمد بن عبد الله بن عُلَاثة، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة][٨]، عن أبي عمر البصري، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ[٩]: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[١٠]. وبه

---

(١) **حُجْنَة المِغْزَل**: صِنَّارَته، وهي: المُعْوَجَّة التي في رأسه. «النهاية».

(٢) (طُلَقٍ ذُلَقٍ) أي: فَصيح بليغ، هكذا جاء في الحديث علىٰ فُعَل، بوزن: صُرَد. ويقال: طَلِق ذَلِق، وطُلُقٌ ذُلُقٌ، وطَلِيقٌ ذَلِيق، ويُراد بالجميع: المَضاء والنَّفاذ. وذَلَق كل شيء حَدُّه. «النهاية».

(٣) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٢/ ١٨٩)، ورجاله ثقات، غير أن أبا ثمامة الحنفي، وقيل: الثقفي، انظر: «تعجيل المنفعة» لابن حجر (ترجمة ١٢٤٤)، ولم يوثقه غير ابن حبان، وهو تابعيٌّ، وللحديث شواهد تقدمت، وانظر ما بعده.

(٤) **شجنة**: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

(٥) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ١١٠)، وفيه أبو قابوس: مقبول، ولكن للحديث شواهد في الباب، بها يصحح الحديث، وصححه الألباني. انظر: «صحيح سنن أبي داود».

(٦) في (ز): (فارض)، وهو خطأ.

(٧) **صحيح**: رواه أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧)، وأحمد (١/ ١٩١).

(٨) ما بين المعقوفتين ورد في (ز): (الحجاج بن يونس الحجاج بن الفرافصة)، وهو خطأ، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «المعجم الكبير».

(٩) لوحة (١٩٢/ ب).

(١٠) رواه الطبراني (٦/ ٦١٦٩) من حديث سلمان، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٨٧): وفيه جماعة لم أعرفهم.

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ظَهَرَ القَوْلُ، وَخُزِنَ العَمَلُ، وَائْتَلَفَتِ الألْسِنَةُ، وَتَبَاغَضَتِ القُلُوبُ، وَقَطَعَ كُلُّ ذِي رَحِمٍ رَحِمَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ»(١).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ(٢) أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيًا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؛ أي: بل علىٰ قلوبٍ أقفالها، فهي مُطْبَقَة(٣) لا يخلص إليها شيءٌ من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بِشْر، [قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال](٤): حدثنا حَمَّاد بن زيد، حدثنا هِشَام بن عُروة، عن أبيه قال: تَلَا رسول الله ﷺ يومًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل عليها أقفالها [حتىٰ يكون الله ﷻ](٥) يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب في نَفْسِ عُمر ﷺ حتىٰ وَلِيَ، فاستعان به(٦).

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ أي: فارقوا الإيمان، ورجعوا إلىٰ الكفر(٧)، ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: زَيَّنَ لهم ذلك وحَسَّنَه، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾

= قلت: وفي الإسناد الحجاج بن الفرافصة: صدوقٌ عابدٌ يهمُ، وأبو علاثة: صدوق يهم. والحديث رواه مسلم (٢٦٣٨)، وأبو داود (٤٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٥) من حديث أبي هريرة مختصرًا علىٰ الجزء الأول.

(١) رواه الطبراني (٦/ ٢٦٣ برقم ٦١٧٠)، وفي «الأوسط» (١٥٧٨)، وأبو نعيم (٣/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم (١٨٥٨٩)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٣٠٦)، ورواه الطبراني في «الكبير» (٦١٧٢)، وبَحْشَل في «تاريخ واسط» (صـ١٢٥)، وفيه محمد بن عبد الله بن علاثة: صدوق يخطئ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٨٧): وفيه جماعةٌ لم أعرفهم، لكن هؤلاء الجماعة بينهم الألباني في «الضعيفة»، وحكم علىٰ الحديث بالضعف (٥٥٥٩).

(٢) قال ابن القيم ﷀ: وتأمل تنكير القلوب وتعريف الأقفال بالإضافة إلىٰ ضمير القلوب؛ فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: (أم علىٰ القلوب أقفالها)، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة، وفي قوله: ﴿أَقْفَالُهَا﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال لذهب الوهم إلىٰ ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلىٰ ضمير القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.

(٣) أي: مغطاة مغشاة.

(٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٥) سقط من (ز).

(٦) صحيح: رواه الطبري (٢٦/ ٥٨)، وإسناده صحيح.

(٧) تقدم الكلام علىٰ الردة في تعليقي علىٰ آية سورة البقرة (٢١٧)، وذكرتُ أنها تكون: بالقول، وبالفعل، وبالاعتقاد، وبالترك، وبالشك. ينظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٢٨)، و«مغني المحتاج» (٤/ ١٣٣)، و«حواشي تحفة المحتاج» (٩/ ٧٩)، و«المغني» لابن قدامة: (١٢/ ٢٦٤)، و«الإعلام بقواطع الإسلام» للهيتمي، و«الشرح الممتع»: (١٤/ ٤٠٧)، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» لشيخنا الدكتور/ عبد العزيز آل عبد اللطيف ﷻ، وشروح «نواقض الإسلام».

أي: غرَّهم وخدعهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾؛ أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلعٌ عليه وعالمٌ به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؛ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعَصَّت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ (١) فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ -أي: بالضرب-.

﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(٢).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سيوضح أمرهم ويجليه حتىٰ يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالىٰ في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة علىٰ نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمىٰ الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالىٰ: ولو نشاء -يا محمد- لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانًا، ولكن لم يفعل تعالىٰ ذلك في جميع المنافقين سترًا منه علىٰ خلقه، وحملًا للأمور علىٰ ظاهر السلامة، ورد السرائر إلىٰ عالمها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، أي: فيما يبدو من كلامهم الدال علىٰ مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي

---

(١) لوحة (١٩٣/ أ).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «الحبوط نوعان: عام وخاص؛ فالعام: حبوط الحسنات كلها بالرِّدة، والسيئات كلها بالتوبة، والخاص: حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعض...». «الصلاة وحكم تاركها». (ص٦٦)، ط. المكتب الإسلامي، تحقيق/ تيسير زعيتر، واستفدنا هذا التعليق من «نواقض الإيمان» لشيخنا الدكتور/ عبد العزيز آل عبد اللطيف حفظه الله (ص١٦٧)- الحاشية-.

الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه[١]. وفي الحديث: «مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللهُ جِلْبَابَهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ»[٢]. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول «شرح البخاري»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. [وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين][٣].

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سُفيان، عن سَلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن [أبي][٤] مسعود عُقْبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ خطبةً[٥] فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَافِقِينَ، فَمَنْ سَمَّيْتُ فَلْيَقُمْ». ثم قال: «قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ». حتى سمَّى ستةً وثلاثين رجلًا، ثم قال: «إِنَّ فِيكُمْ -أو: مِنْكُمْ - فَاتَّقُوا اللهَ». قال: فمر عمر برجلٍ ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بُعْدًا لك سائر اليوم[٦].

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس في تقدم علم الله -تعالى- بما هو كائنٌ أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباسٍ في مثل هذا: إلا لنعلم؛ أي: لنرى[٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصدَّ عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقَّه، وارتدَّ عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله؛ فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضةٍ من خيرٍ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسناتِ يذهبن السيئات.

---

(١) لم أقف على تخريجه.

(٢) ضعيف جدًا: رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٨٤)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥): فيه حامد بن آدم وهو كذاب، قلت: وفيه أيضًا محمد بن عبيد الله العَرْزَمي: متروك الحديث، وانظر لذلك: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٢٣٧).

(٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (ابن)، وهو خطأ. (٥) لوحة (١٩٣/ ب).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٧٣)، وفيه عياض بن عياض عن أبيه، أورده الحافظ في «تعجيل المنفعة»، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقد ثبت معرفته ﷺ للمنافقين كما تقدم في سورة التوبة الآية (٧٧-٧٨).

(٧) رواه الطبري (٢/ ٨) في تفسير «سورة البقرة»: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية. وقال ابن تيمية (لنعلم في بضعة عشر موضعًا - أي: من القرآن - قال ابن عباس: إلا لنرى) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٠٤).

وقد قال الإمام محمد بن نَصْر المَرْوَزي في كتاب «الصلاة»: حدثنا أبو قُدامة، حدثنا وكيعٌ، حدثنا أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنبٌ، كما لا ينفع مع الشرك عملٌ، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يُبطل الذنبُ العَمَل(١).

ثم رَوَىٰ من طريق عبد الله بن المُبارك: أخبرني [بُكَير](٢) بن مَعْروف، عن مُقَاتل بن حَيَّان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كُنَّا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرىٰ أنه ليس شيءٌ من الحسنات إلا مقبول، حتىٰ نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا(٣) أَعْمَالَكُمْ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتىٰ نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف علىٰ من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبيها(٤).

ثم أمر تعالىٰ عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطلٌ للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية، [النساء: ٤٨].

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾؛ أي: المُهَادنة والمُسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُمْ؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ أي: في حال عُلُوكم علىٰ عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم [قوة](٥) وكثرة بالنسبة إلىٰ جميع المسلمين، ورأىٰ الإمام في المُعاهدة والمُهادنة مصلحةً، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلىٰ الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلىٰ ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بِشَارةٌ عظيمةٌ بالنصر والظفر علىٰ الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: ولن يُحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها، ولا ينقصكم منها شيئًا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي

---

(١) ضعيف: رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٤٥) برقم (٦٩٨)، وعزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٥٠٤) إلىٰ ابن أبي حاتم (١٨٥٩١)، والبغوي (١/ ٢٩٠)، وفيه أبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ، والإسناد أيضًا مرسلٌ.
(٢) في (ز): (بكر)، وهو خطأ. (٣) لوحة (١٩٤/ أ).
(٤) رواه الطبري (١١/ ١٤)، والبغوي (١/ ١٢٥)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٤٦)، وفي إسناده بكير بن معروف، قال عنه الحافظ: صدوق فيه لين.
(٥) سقط من (ز).

﴿سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾

يقول تعالىٰ تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك، إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: هو غنيٌّ عنكم لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموالِ مواساةً [١] لإخوانكم الفقراء؛ ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحوجكم [٢] تبخلوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾. قال قتادة: «قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة؛ فإن المال مَحْبوبٌ، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلىٰ الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلىٰ ذلك، ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيءٍ فقيرٌ إليه دائمًا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه. فَوَصْفُهُ بالغنىٰ وصفٌ لازمٌ له، ووصف الخلق بالفقر وصفٌ لازمٌ لهم؛ أي: لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ -أي: عن طاعته واتباع شرعه- ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾؛ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال ابن أبي حاتم، وابن جرير: حدثنا يُونس بن عبد الأعلىٰ، حدثنا ابنُ وَهْب، أخبرني [مُسلم] [٣] بن خالد، عن العَلَاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده علىٰ كتف سلمان الفارسي ثم قال: «هَذَا وَقَوْمُهُ، وَلَوْ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنَ الفُرْسِ» [٤]. تفرد به مسلم بن خالد الزِّنْجِيُّ، ورواه عنه غير واحدٍ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال.

---

(١) لوحة (١٩٤/ ب).

(٢) المثبت من (ز)، وفي بعض الطبعات: (يحرجكم)، وقال الإمام الطبري: (﴿فَيُحْفِكُمْ﴾. يقول: فيُجهدكم بالمسألة، ويُلحَّ عليكم بطلبها منكم فيُلحف... قال ابن زيد في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾. قال: الإحفاء أن تأخذ كل شيء بيديك). اهـ

(٣) في (ز): (مسلمة)، والمثبت هو الصواب.

(٤) صحيح من غير سبب إيراده: رواه الطبري (٢٦/ ٦٦)، ورجاله ثقات عدا مسلم بن خالد الزنجي: ضعيف من قِبل حفظه، ولكن الحديث صحيح، وسبب إيراده قراءته ﷺ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، رواه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، وسيأتي في «سورة الجمعة».

سورة الفتح

تفسير سورة الفتح، وهي مكية

قال الإمامُ أحمد: حدثنا وَكيعٌ، حدثنا شُعْبَة، عن مُعاوية بن قُرَّة قال: سمعتُ عبد الله بن مُغَفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مَسيره «سورة الفتح» علىٰ راحلته فرجَّع فيها [1]. قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته [2]. أخرجاه من حديث شُعبة به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلىٰ المسجد الحرام ليقضي عُمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلىٰ المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي مِن قابل، فأجابهم إلىٰ ذلك علىٰ تكرُّهٍ من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديَه حيث أُحْصِر، ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية [3].

وقال الأَعْمَش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية [4].

وقال البخاري: حدثنا عُبيد الله بن موسىٰ، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة -وقد كان فتح مكة فتحًا- ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية،

---

(١) التَّرجِيعُ: تَرْدِيدُ القراءةِ، ومنه تَرْجيعُ الأذان، وقيل: هو تقاربُ ضُروب الحَرَكات في الصَّوت. «النهاية»: (٢/ ٢٠٢)، وقال ابنُ حجر رحمه الله: الذي يظهر أن في الترجيع قدرًا زائدًا علىٰ الترتيل...وقال الشيخُ أبو محمد بن أبي جَمْرة: معنىٰ الترجيع تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. «فتح الباري»: (٩/ ٩٢)، وراجع ما تقدم في مقدمة التفسير.

(٢) البخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤)، وأحمد (٥/ ٥٤).

(٣) لم أجده.

(٤) الطبري (٢٢/ ٢٠٤-شاكر).

كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية [بئر، فنزحناها فلم نترك][1] فيها قطرةً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس علىٰ شَفِيرها، ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيدٍ، ثم إنها أصدرتنا[2] ما شئنا نحن وركائبنا[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، قال: فسألته عن شيءٍ -ثلاث مرات- فلم يرد علي، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت[4] رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، [أين عمر؟][5] قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فِيَّ شيءٌ، قال: فقال النبي ﷺ: «**نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[6].

ورواه البخاري، والترمذي، والنسائي من طرق، عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال علي بن المَدِيني: هذا إسنادٌ مدينيٌّ لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت علىٰ النبي ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجعه من الحُديبية، قال النبي ﷺ: «**لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَىٰ الأَرْضِ**»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: [هنيئًا][7] مريئًا يا نبي الله، لقد بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾، حتىٰ بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥][8]، أخرجاه في «الصحيحين» من رواية قتادة به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسىٰ، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب قال: سمعت أبي يُحدث عن عمه عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري، عن عمه مُجَمِّعِ بن [جارية][9] الأنصاري -وكان أحد القراء الذين قرءوا القرآن- قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون[10] الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أُوحي إلىٰ رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ علىٰ راحلته عند كُرَاع الغَمِيم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: فقال رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، وفتحٌ هو؟ قال: «**إِي وَالَّذِي**

(١) في (ز): (هي قبر حساها فلم تقول).
(٢) أي: صرفتنا وقد روينا.
(٣) البخاري (١٤٥٠).
(٤) أي: ألححتَ عليه في المسألة إلحاحًا أدَّبك بسُكوته عن جوابك. يقال: (فلانٌ لا يُعطِي حتىٰ يُنْزَر) أي: يُلَحَّ عليه. «النهاية».
(٥) سقط من (ز).
(٦) البخاري (٤١٧٧)، والترمذي (٣٢٦٤)، وأحمد (١/ ٣١).
(٧) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».
(٨) البخاري (٤١٧٢)، ومسلم (١٧٨٦)، وأحمد (٣/ ١٩٧).
(٩) في (ز): (حارثة)، وهو خطأ.
(١٠) أي: يزجرون إبلهم ويدفعونها.

نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَفَتْحٌ». فقسمت خيبر علىٰ أهل الحديبية، لم يدخل معهم فيها أحدٌ إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ علىٰ ثمانية عشر سهمًا، وكان الجيش ألفًا وخمسمائة فارس، فأعطىٰ الفارس سهمين، وأعطىٰ الراجل سهمًا[١].

رواه أبو داود في «الجهاد» عن محمد بن عيسىٰ، عن مُجمِّع بن يعقوب به.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا أبو بَحْر، حدثنا شُعبة، حدثنا جَامع بن شَدَّاد، عن عبد الرحمن بن أبي عَلْقَمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: لما أقبلنا من الحُديبية أَعْرَسْنا فنِمْنَا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائمٌ، قال: فقلنا: «امْضُوا». فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افْعَلُوا مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ مَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها[٢] بشجرةٍ، فأتيته بها فركبها، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي -قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه- فلما سُرِّيَ عنه أخبرنا أنه أُنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[٣].

وقد رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، من غير وجه، عن جامع بن شداد به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شُعبة يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتىٰ تَرِم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[٤]. أخرجاه، وبقية الجماعة -إلا أبا داود- من حديث زياد به.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا هارون بن مَعْروف، حدثنا ابن وَهْب، حدثني أبو صَخْر، عن ابن قُسَيْط، عن عُروة بن الزبير، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلىٰ قام حتىٰ تتفطر[٥] رجلاه. فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»[٦]. أخرجه مسلم في «الصحيح» من رواية عبد الله بن وهب به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عَوْن الخَرَّاز -وكان ثقةً- بمكة،

---

(١) **ضعيف**: رواه أبو داود (٢٧٣٦، ٣٠١٥)، وأحمد (٣/ ٤٢٠)، وفيه يعقوب بن مُجمع: مقبول كما في «التقريب».
(٢) **الخِطَام**: الزمام أو الحبل الذي تقاد به.
(٣) **صحيح**: رواه الطبري (٢٦/ ٦٩)، وأبو داود (٤٤٧).
(٤) البخاري (١١٣٠) و(٤٨٣٦) و(٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩)، والترمذي (٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢١٩)، وابن ماجة (١٤١٩)، وأحمد (٤/ ٢٥٥).
(٥) أي: تتشقق.
(٦) رواه مسلم (٢٨٢٠)، وأحمد (٦/ ١١٥)، ورواه البخاري (٤٨٣٧) بنحوه.

حدثنا [محمد][(١)] بن بِشْر، حدثنا مِسْعَر، عن قتادة، عن أنس قال: قام رسول الله ﷺ حتىٰ تورمت قدماه -أو قال: ساقاه- فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[(٢)]. غريبٌ من هذا الوجه.

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: بينًا ظاهرًا، والمراد به: صلح الحديبية؛ فإنه حصل بسببه خيرٌ جزيلٌ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، هذا من خصائصه -صلوات الله وسلامه عليه- التي لا يشاركه فيها[(٣)] غيره. وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره: «غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». وهذا فيه تشريفٌ عظيمٌ لرسول الله ﷺ، وهو -صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره علىٰ الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر علىٰ الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «**حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**[(٤)]»، ثم قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي اليَوْمَ شَيْئًا يُعَظِّمُونَ بِهِ حُرُمَاتِ**[(٥)] **اللهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا**»[(٦)]. فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلىٰ الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ -أي: في الدنيا والآخرة- ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله، وينصرك علىٰ أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[(٧)]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت -[أي: في الدنيا والآخرة][(٨)]- أحدًا عصىٰ الله -تعالىٰ-

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ورواه أبو يعلىٰ (٢٩٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٣٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٧٤): (رواه أبو يعلىٰ والطبراني في «الأوسط» والبزار، ورجاله رجال الصحيح).

(٣) في (ز): (لا يشاركه غيره).

(٤) فيل أبْرَهَة الحبَشِي الذي جاء يَقْصِدُ خَراب الكعبة، فحَبس الله الفيل فلم يَدْخُل الحرم، ورَدّ رأسه راجعًا من حيثُ جاء؛ يعني: أنَ الله حَبس ناقة النبي ﷺ لما وصَل إلىٰ الحُدَيْبية فلم تَتَقدّم ولم تَدْخُلِ الحَرَمَ؛ لأنه أراد أن يَدْخُلَ مكة بالمسلمين. «النهاية».

(٥) **الحُرُمات**: جمع حُرْمة، كظُلْمة وظُلُمات، يريد: حُرْمة الحَرَم، وحُرْمة الإحرام، وحُرْمة الشهر الحرام. والحُرْمة: ما لا يَحِلّ انْتِهاكُه. «النهاية».

(٦) البخاري (٢٧٣١).

(٧) مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٥، ٣٨٦، ٤٣٨).

(٨) سقط من (ز).

فيك بمثل أن تطيع الله فيه(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس(٢)، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت؛ زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

وقد استدل بها البُخاري وغيره من الأئمة علىٰ تفاضل الإيمان في القلوب(٣).

ثم ذكر تعالىٰ أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولو أرسل عليهم مَلَكًا واحدًا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالىٰ شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئًا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويستر، ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ

(١) إسناده منقطع: رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٧/ ١٦٠)، وفي «المتفق والمفترق»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٢٣)، وأبو طاهر المخلص في «المخلصيات» (٣٠٣٩)، وابن البخاري في «المشيخة» (١/ ٦٣١)، و«البلدانيات» للسخاوي (١/ ٢٥٠)، و«الترغيب والترهيب» للأصبهاني (١٦٢٠)، والإسناد منقطع بين سعيد بن المسيب وعمر.

(٢) رواه البغوي (١/ ٢٩٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن أبي حاتم.

(٣) وحكوا الإجماع علىٰ ذلك -أي: علىٰ تفاضل الإيمان وزيادته ونقصانه-. ينظر: «أصول السنة» للحميدي (٢/ ٥٤٦) ط. الأعظمي، والبخاري: (١/ ٤٥-فتح)، و«مقالات الإسلاميين» (١/ ٣٢٢)، و«رسالة أهل الثغر» (ص٨٨ ط.الجليند)، كلاهما للأشعري، و«التمهيد» لابن عبد البر (٩/ ٢٣٨)، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٨٣١) وما بعدها، و«شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (٣/ ٩٦٠) وما بعدها، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٢٢٣)، و(٧/ ٦٧٢)، وغيرها كثير.

دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ -أي: أبعدهم من رحمته- ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

ثم قال مؤكدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء -أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين-: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمدًا -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾؛ أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾؛ أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة «الأحزاب».

﴿لِّيُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾، قال ابن عباسٍ وغير واحدٍ: يعظموه[1]، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: هو حاضرٌ معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي ابن بكَّار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَّ سَيْفَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَدْ بَايَعَ اللهَ»[2].

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «وَاللهِ لَيَبْعَثُهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يَنْظُرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، وَيَشْهَدُ عَلَىٰ مَنِ اسْتَلَمَهُ بِالحَقِّ، فَمَنِ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ»[3]، ثم قرأ:

---

(١) رواه الطبري (١١/ ٣٣٧).

(٢) ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٦٣١)، وعزاه السيوطي إلى ابن مردوية ورمز له بالضعف.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٩٦١)، وابن ماجة (٢٩٤٤)، وأحمد (١/ ٢٤٧، ٢٦٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنيٌّ عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلًا. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر[١] بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ قيل: ألف وثلاثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصحُّ.

❑ ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

قال البخاري: حدثنا قُتيبة، حدثنا سُفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنَّا يوم الحُديبية ألفًا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سُفيان بن عُيينة به. وأخرجاه أيضًا من حديث الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: كُنا يومئذ ألفًا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع [الماء][٢] من بين أصابعه، حتىٰ رَوَوْا كُلهم[٣].

وهذا مُختصرٌ من سِيَاقٍ آخر حين ذكر قصة عَطَشهم يوم الحُديبية، وأن رسُول الله ﷺ أعطاهم سهمًا من كنانته، فوضعوه في بئر الحُديبية، فجَاشَت[٤] بالماء حتىٰ كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: كنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا. وفي رواية في «الصحيحين» عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٥].

وروىٰ البخاري من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المُسَيّب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. [قلت: فإن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٦].

قال البيهقي: هذه الرواية تدل علىٰ أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة][٧].

وروىٰ [العَوْفي][٨] عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين[٩].

والمشهور الذي رواه غير واحدٍ عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأَصَمّ، عن العباس الدُّورِي، عن يحيىٰ بن مَعِين، عن شَبَابة بن سَوَّار، عن شُعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفًا وأربعمائة[١٠].

---

(١) السمر: شجر الطلح، وهو شجر طوال عظام، والواحدة: سَمُرة، ولذلك كان يقال للمبايعين تحت الشجرة: أصحاب السمرة.

(٢) سقط من (ز).

(٣) البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٨٥٦).

(٤) أي: فارت.

(٥) البخاري (٥٦٣٩)، ومسلم (١٨٥٦).

(٦) البخاري (٤١٥٣).

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وانظر: «دلائل النبوة» (٤/ ٩٨).

(٨) سقط من (ز).

(٩) رواه الطبري في «التاريخ» (٢/ ١١٦).

(١٠) «دلائل النبوة» (٤/ ٩٨).

وكذلك هو في رواية سَلَمَة بن الأَكْوَع(١)، ومَعْقِل بن يَسَار(٢)، والبَرَاء بن عَازِب(٣). وبه يقول غير واحدٍ من أصحاب المَغَازي والسير. وقد أخرج صاحبا «الصحيح» من حديث شُعبة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت عبد الله بن أبي أَوْفَىٰ يقول: كان أصحاب الشجرة ألفًا وأربعمائة، وكانت أَسْلَم يومئذٍ ثُمن المُهاجرين(٤).

وروىٰ محمد بن إسحاق في «السيرة»، عن الزهري، عن عُروة بن الزبير، عن المِسْوَر [بن مَخْرَمة](٥)، ومَرْوَان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحُديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالًا، وساق معه الهَدْي سبعين بَدَنَةً، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله -فيما بلغني عنه- يقول: كُنا أصحاب الحُديبية أربع عشرة مائة(٦).

كذا قال ابن إسحاق، وهو معدود من أوهامه؛ فإن المحفوظ في «الصحيحين» أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

❑ ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار في «السيرة»: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلىٰ مكة ليبلغ عنه أشراف قُريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قُريشًا علىٰ نفسي، وليس بمكة من بني عَدِي بن كَعْب من يمنعني، وقد عَرَفَتْ قُريش عداوتي إياها، وغلظي عليها، ولكني أدلك علىٰ رجلٍ أعز بها مني، عثمان بن عفان، فبعثه إلىٰ أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته.

فخرج عثمان إلىٰ مكة، فلقيه أَبَانُ بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أَجَارَه حتىٰ بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتىٰ أتىٰ أبا سُفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به رسول ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل(٧).

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نَبْرَحُ حَتَّىٰ نُنَاجِزَ القَوْمَ». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلىٰ البيعة. فكانت بيعة الرضوان

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٧).
(٢) رواه مسلم (١٨٥٨)، وأحمد (٥/ ٢٥).
(٣) البخاري (٤١٥٠).
(٤) البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).
(٥) سقط من (ز).
(٦) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٦٥).
(٧) رواه الإمام أحمد (٤/ ٣٢٣)، والطبري في «التفسير» (١١/ ٣٤٧)، وفي «التاريخ» (٢/ ١٢١)، وابن هشام في «السيرة» (٣/ ٢٧١).

تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ علىٰ الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم علىٰ الموت، ولكن بايعنا علىٰ ألا نَفِرّ.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحدٌ من المسلمين حضرها إلا الجَدّ بن قَيس أخو بني [سلمة][(١)]، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد ضَبأ[(٢)] إليها يستتر بها من الناس، ثم أتىٰ رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطلٌ[(٣)].

وذكر ابن لَهِيعَة، عن الأَسْوَد، عن عُروة بن الزبير قريبًا من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشًا بعثوا -وعندهم عثمان[(٤)] - سُهَيْل بن عمرو، وحُوَيْطِب بن عبد العُزىٰ، ومكرز بن حفص إلىٰ رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادىٰ منادي رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل علىٰ رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا علىٰ اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلىٰ رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة، فبايعوه علىٰ ألا يفروا أبدًا، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلىٰ الموادعة والصلح[(٥)].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن [عُبيد][(٦)] الصَّفَّار، حدثنا تَمْتَام، حدثنا الحسن بن بِشْر، حدثنا الحَكَم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسولَ رسولِ الله ﷺ إلىٰ أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ»**. فضرب بإحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم[(٧)].

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به، عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ[(٨)].

وقال عبد الملك بن هِشَام النَّحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سِنَان الأسدي.

وقال أبو بكر -عبد الله بن الزبير- الحُمَيدي: حدثنا سُفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي،

---

(١) في (ز): (مسلم). (٢) أي: لزق بالأرض يستتر بها.
(٣) الطبري في «التاريخ» (٢/ ١٢١)، وفي «التفسير» (١١/ ٣٤٧)، والبغوي (١/ ٣٠٤)، وابن هشام (٣/ ٢٧٢).
(٤) في (ز): (عثمان بن).
(٥) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١١٢)، وانظر: «كنز العمال» رقم (٣٠١٥٢)، (١٠/ ٧٥٤)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٤٤).
(٦) في (ز): (عبد)، والمثبت هو الصواب.
(٧) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١١٢)، والحكم بن عبد الملك: ضعيف.
(٨) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٧٢)، وفيه من لم يسم.

قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلىٰ البيعة، كان أول من انتهىٰ إليه أبو سِنَان الأسدي رضي الله عنه، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبي ﷺ: «عَلَامَ تُبَايِعُنِي؟». فقال أبو سنان: علىٰ ما في نفسك. هذا أبو سنان وهب الأسدي رضي الله عنه(١).

وقال البخاري: حدثنا شُجَاع بن الوليد، سمع [النَّضْر](٢) بن محمد، حدثنا صَخْر بن الربيع، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلىٰ فرسٍ له عند رجلٍ من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايَعه عبد الله، ثم ذهب إلىٰ الفرس فجاء به إلىٰ عمر، وعمر يَسْتلئم(٣) للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتىٰ بايع رسول الله ﷺ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر(٤).

ثم قال البخاري: وقال هِشَام بن عَمَّار: حدثنا الوليد بن مُسلم، حدثنا عمر بن محمد العُمَري، أخبرني نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحُديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال -يعني: عمر-: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلىٰ عمر فخرج فبايع(٥).

وقد أسنده البيهقي عن [أبي](٦) عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دُحَيْم: حدثني الوليد بن مسلم، فذكره.

وقال الليث، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه علىٰ ألا نَفِرّ، ولم نبايعه علىٰ الموت. رواه مسلم عن قُتيبة، عنه(٧).

وروىٰ مسلم عن يحيىٰ بن يحيىٰ، عن يزيد بن زُرَيْع، عن خالد، عن الحَكَم بن عبد الله بن الأعرج، عن مَعْقِل بن يَسَار، قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه علىٰ الموت، ولكن بايعناه علىٰ ألا نفر(٨).

وقال البخاري: حدثنا المكيُّ بن إبراهيم، عن يزيد بن أبي عُبيد، عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، علىٰ أي شيءٍ كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: علىٰ الموت(٩).

---

(١) مرسل: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٣٧).
(٢) في (ز): (المنصور)، وهو خطأ.
(٣) أي: يلبس ما عنده من عُدة الحرب.
(٤) البخاري (٤١٨٦).
(٥) البخاري (٤١٨٧) معلقًا، قال الحافظ: وقد وصله الإسماعيلي.
(٦) في (ز): (ابن).
(٧) مسلم (١٨٥٦).
(٨) مسلم (١٨٥٨).
(٩) البخاري (٧٢٠٨)، ومسلم (١٨٦٠).

وقال البخاري أيضًا: حدثنا أبو عَاصِم، حدثنا يزيد بن أبي عُبيد، عن سَلَمة قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «يَا سَلَمَةُ أَلَا تُبَايِعُ؟»، قلت: بايعت، قال: «أَقْبِلْ فَبَايِعْ». فدنوتُ فبايعته. قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: علىٰ الموت[١]. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد. وكذا روىٰ البخاري عن عبَّاد بن تميم: أنهم بايعوه علىٰ الموت.

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العَقَدِي -عبد الملك بن عمرو-، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي، عن إياس بن سَلَمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحُديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاةً لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ علىٰ جَبَاهَا -يعني: الرّكي[٢]- فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلىٰ البيعة في أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتىٰ إذا كان في وسط الناس قال [ﷺ: «بَايِعْنِي يَا سَلَمَةُ». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس][٣]. قال: «وَأَيْضًا». قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلًا[٤] فأعطاني حَجَفَة -أو دَرَقَة-ثم بايع، حتىٰ إذا كان في آخر الناس قال ﷺ: «أَلَا تُبَايِعُ يَا سَلَمَةُ؟»، قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم. قال: «وَأَيْضًا». فبايعته الثالثة، فقال: «يَا سَلَمَةُ، أَيْنَ حَجَفَتُكَ أَوْ دَرَقَتُكَ الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟». قال: قلت: يا رسول الله، لَقِيَنِي عامر عَزِلًا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا[٥] هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي»، قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتىٰ مشىٰ بعضنا في بعضٍ فاصطلحنا. قال: وكنت خادمًا لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسقي فرسه وأحُسّهُ[٦] وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجرًا إلىٰ الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعضٍ، أتيت شجرةً [فَكَسَحْتُ][٧] شوكها، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعةٌ من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتُهم، وتحولت إلىٰ شجرةٍ أُخرىٰ، فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادىٰ منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قُتِلَ ابن زُنَيْم. فاخترطتُ سَيفي[٨]، فشددتُ علىٰ أولئك الأربعة وهم رُقُود، فأخذتُ سِلَاحهم وجعلته ضِغثًا[٩] في يدي، ثم قلت: والذي كرم

---

(١) البخاري (٤٢٠٨)، ومسلم (١٨٦٠)، وانظر البخاري (٢٩٦٠).

(٢) **الركي**: البئر، وجباها: ما حولها. (٣) سقط من (ز).

(٤) أي: ليس معه سلاح، **والحَجَفة**: الترس الصغير يطارق بين جلدين، **والدرقة**: نوع من التروس.

(٥) أي: أعني علىٰ طلب حبيب، إشارة لإيثار سلمة لعمه علىٰ نفسه، وإعطائه سلاحه مع احتياجه إليه، وفيه مدح لسلمة رضي الله عنه ونعته بالإيثار.

(٦) **أحسه**: أزيل عنه التراب بالمحسة. (٧) في (ز): (فكشحت). وكسحت؛ أي: كنست ما تحتها من الشوك.

(٨) أي: سللته.

(٩) **الضغث**: الحزمة، يريد أنه أخذ سلاحهم وجمع بعضه إلىٰ بعض، حتىٰ جعله في يده حزمة.

وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجلٍ من العَبَلات[1] يقال له: [«مكرز»][2] من المشركين يقوده، حتىٰ وقفنا بهم علىٰ رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الفُجُورِ وَثِنَاهُ[3]»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤][4].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم -بن راهويه- بسنده نحوه، أو قريبًا منه.

وثبت في «الصحيحين» من حديث أبي عَوَانَة، عن طارق، عن سعيد بن المُسَيِّب، قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا مِن قابل حاجّين، فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم[5].

وقال أبو بكر الحُميدي: حدثنا سُفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر، قال: «لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلىٰ البيعة، وجدنا رجلًا منا يقال له: «الجَدّ بن قيس» مختبئًا تحت إبط بعيره»[6].

رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن أبي الزبير[7] به.

وقال الحُميدي أيضًا: حدثنا سُفيان، عن عمرو، سمع جابرًا قال: كُنا يوم الحُديبية ألفًا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ اليَوْمَ». قال جابر: لو كنت أُبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[8].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا يونس، حدثنا الليث عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»[9].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفَلَّاس المخرمي، حدثنا سعد بن عمرو الأَشْعَثِي، حدثنا محمد بن ثَابت العَبْدي، عن خِدَاش بن عَيَّاش، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ كُلُّهُمُ الجَنَّةَ إِلَّا صَاحِبَ الجَمَلِ الأَحْمَرِ». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجلٌ قد أَضَلَّ بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أُصِيبُ بَعِيري أحبّ إليّ من أن أُبايع!![10].

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قُرَّة، عن أبي الزُّبير، عن جابر،

---

(١) العَبَلات: بطن من قريش من بني عبد شمس بن عبد مناف.
(٢) في (ز): (مشكور).
(٣) أي: أوله وآخره، والثِّنىٰ: الأمر يعاد مرتين.
(٤) البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٣٩)، ومسلم (١٨٠٧).
(٥) البخاري (٤١٦٣)، ومسلم (١٨٥٩).
(٦) الحميدي (١٢٧٧)، ومسلم (١٨٥٦).
(٧) في (ز): (ابن الزبير)، وهو خطأ.
(٨) الحميدي (١٢٢٥)، والبخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦).
(٩) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٥٠)، ورجاله ثقات، وقد صرح أبو الزبير بالسماع في رواية مسلم نحوها، وستأتي.
(١٠) صحيح لغيره: رواه الترمذي (٣٨٦٣)، وفيه خداش بن عياش: لين الحديث، لكن يشهد له ما تقدم.

عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ -ثَنِيَّةَ [المُرَارِ](١) - فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الجَمَلِ الأَحْمَرِ». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إليَّ من أن يستغفر لي صاحبكم!! فإذا هو رجلٌ ينشد ضالةً. رواه مسلم عن عبيد الله به(٢).

وقال ابن جُريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابرًا يقول: أخبرتني أُمُّ مُبَشِّر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يَدْخُلُ النَّارَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا أَحَدٌ». قالت: بلىٰ يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فقال النبي ﷺ: «قَدْ قَالَ اللهُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢]»(٣). رواه مسلم.

وفيه أيضًا عن قُتَيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر؛ أن [عبدًا لحَاطِب](٤) بن أبي بَلْتَعة جاء يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَبْتَ، لا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَةَ»(٥).

ولهذا قال تعالىٰ في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠]، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المُقَام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قولٌ منهم لا علىٰ سبيل الاعتقاد، بل علىٰ وجه التَّقِيَّة

---

(١) في (ز): (الدار)، والمثبت من «صحيح مسلم»، وثنية المرار: موضع قريب من الحديبية.

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٠)، وأبو يعلىٰ (١٨٧٠)، ولم أجد الحديث في «مسند أحمد».

(٣) مسلم (٢٤٩٦). (٤) في (ز): (عبد حاطب). (٥) مسلم (٢١٩٥).

والمُصانعة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحدٌ أن يَرُدَّ ما أراده فيكم تعالىٰ وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذورٍ ولا عاصٍ، بل تخلف نفاقٍ، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: اعتقدتم أنهم يُقتلون، وتُستأصل شأفتهم، وتُستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكىٰ. قاله ابن عباس[1]، ومجاهد، وغير واحدٍ. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هي بلغة عمان.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله -تعالىٰ- سيعذبه في السَّعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

ثم بيَّن تعالىٰ أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض؛ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلىٰ المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء [ومجالدتهم][2] ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبةً لهم من جنس ذنبهم. فإن الله -تعالىٰ- قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية[3]. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التي في «براءة» نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرةٌ عن غزوة الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

---

(١) الطبري (٩/ ٣٧٢)، «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٢).
(٢) في (ز): (مجادلتهم).
(٣) رواه الطبري (١١/ ٣٤٢).

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية [قبل سؤالكم][1] الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾؛ أي: أن نشرككم في المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأسٍ شديدٍ، على أقوال:

أحدها: أنهم هَوَازِن. رواه شُعبة عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جُبير -أو عِكْرِمة، أو جميعًا- ورواه هُشيم عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادة في رواية عنه.

الثاني: ثَقِيف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حَنِيفَة، قاله جُوَيبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزُّهري. ورُوي مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، [وعِكْرمة][2] -في إحدى الروايات عنه-.

وقال كَعْب الأَحْبار: هم الروم.

وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم.

وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضًا: هم رجالٌ أولو بأسٍ شديدٍ -ولم يعين فرقةً-. وبه يقول ابن جُرَيج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشجُّ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القَوَارِيري، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأتِ أولئك بعد.

وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هريرة في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سُفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تُقَاتِلُوا قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ، ذُلْفَ الأَنْفِ**[3]**، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ المُطْرَقَةُ**».

---

(١) بياض في (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) **الذَّلَف**: قصر الأنف وانبطاحه، وقيل: ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته، والذُّلْف: جمع أذلف، كأحمر وحمر، والآنف: جمع قلة للأنف، وضع موضع جمع الكثرة، **والمَجَانّ المطرقة**، المجان: جمع مِجَن، وهو الترس، والمُطْرَقة: هي التي أُلبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة، قالوا: ومعناه تشبيه وجوه التُّرك في عرضها وتنور وجناتها بالترسة المطرقة.

قال سفيان: هم التُّرْك[١].

قال ابن أبي عمر: وجدتُ في مكان آخر: ابن أبي خالد، عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تُقَاتِلُونَ قَوْمًا [نِعَالُهُمُ][٢] الشَّعْرُ» قال: هم البارزون؛ يعني: الأكراد.

وقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرًا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يُسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال، بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ -أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد، وتؤدوا الذي عليكم فيه- ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لَازِم -كالعمىٰ والعرج المستمر-، وعارض -كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول-، فهو في حال مرضه مُلحق بذوي الأعذار اللازمة حتىٰ يبرأ.

ثم قال تعالىٰ مُرغِّبًا في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ -أي: يَنْكل[٣] عن الجهاد، ويُقبل علىٰ المعاش- ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سَمُرة بأرض الحُديبية.

قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عُبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق [بن][٤] عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًّا فمررت بقوم يُصلون، فقلتُ: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيدٌ: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمدٍ ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم[٥].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: من الصدقِ والوفاءِ، والسمعِ والطاعةِ، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾: وهي الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو ما أجرىٰ الله علىٰ أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر

---

(١) رواه البخاري (٢٩٢٨)، ومسلم (٢٩١٢).
(٢) في (ز): (يقال لهم).
(٣) النكول: الامتناع.
(٤) في (ز): (أبي)، وهو خطأ.
(٥) رواه البخاري (٤١٦٣).

البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن سعيد القطَّان، حدثنا عُبيد الله بن موسىٰ، أخبرنا موسىٰ -يعني: ابن عُبيدة- حدثني إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون(١). إذ نادىٰ منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فثُرنا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، فبايع لعثمان بإحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ، فقال الناس: هنيئًا لابن عفان، طوف بالبيت ونحن هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ مَكَثَ كَذَا كَذَا سَنَةً مَا طَافَ حَتَّىٰ أَطُوفَ»(٢).

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلىٰ اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر.

وروىٰ العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك؛ فإن الله حافظهم وناصرهم علىٰ سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله.

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾؛ أي: وغنيمة أخرىٰ وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالىٰ يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

---

(١) المَقِيل والقَيْلُولة: الاستِراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نَوم. يقال: قَالَ يَقِيلُ قَيْلُولةً فهو قائلٌ. «النهاية».
(٢) ضعيف: رواه الطبري (٢٦/ ٨٦)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفي عن ابن عباسٍ: هي خيبر. وهذا علىٰ قوله في قوله تعالىٰ: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم(١).

وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جَرير.

وقال ابن أبي ليلىٰ، والحسن البصري: هي فارس والروم.

وقال مجاهد: هي كل فتحٍ وغنيمةٍ إلىٰ يوم القيامة.

وقال أبو داود الطَّيَالِسي: حدثنا شُعبة، عن سِمَاك الحَنفِي، عن ابن عباسٍ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح [التي](٢) تفتح إلىٰ اليوم(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، يقول تعالىٰ مبشرًا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًّا مدبرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تَقَابَل الكفر والإيمان في موطن فَيْصل إلا نصر الله الإيمان علىٰ الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالىٰ يوم بدر [بأوليائه](٤) المؤمنين؛ نصرهم علىٰ أعدائهِ من المشركين، مع قلة عَدَدِ المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، هذا امتنانٌ من الله علىٰ عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرَةٌ للمؤمنين، وعاقبةٌ لهم في الدنيا والآخرة. وقد تقدم في حديث سَلَمة بن الأكْوَع حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارىٰ فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أَرْسِلُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حَمَّاد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة في السلاح، مِن قِبَل جبل التَّنْعِيم، يريدون غِرَّة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأُخذوا -قال عفَّان: فعفا عنهم- ونزلت هذه

---

(١) الطبري (٢٦/ ٨٧). (٢) سقط من (ز).
(٣) لا بأس به: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٣)، من طريق شعبة به، ورجاله ثقات، عدا سماك الحنفي: لا بأس به.
(٤) في (ز): (بأولئك). (٥) مسلم (١٨٠٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٣٩).

الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (١).

ورواه مسلم وأبو داود في «سننه»، والترمذي والنسائي في التفسير من «سننيهما»، من طرق، عن حماد بن سلمة به.

وقال أحمد -أيضًا-: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا الحسين بن وَاقِد، حدثنا ثابت البُنَاني، عن عبد الله بن [مُغَفَّلٍ المُزَني] (٢) قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالىٰ في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة علىٰ ظهر رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: «**اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**»، وكتب: «**هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ أَهْلَ مَكَّةَ**». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «**اكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدِ أَحَدٍ؟ أَوْ: هَلْ جَعَلَ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا؟**» فقالوا: لا. فخلىٰ سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. رواه النسائي من حديث حسين بن وَاقِد به (٣).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْدٍ، حدثنا يعقوب القُمِّي، حدثنا جعفر، عن ابن أَبْزَىٰ قال: لما خرج النبي ﷺ بالهَدْي وانتهىٰ إلىٰ ذِي الحُلَيْفَة، قال له عمر: يا نبي الله، تدخلُ علىٰ قومٍ لك حَرْبٌ بغير سلاحٍ ولا كُرَاعٍ (٤)؟! قال: فبعث إلىٰ المدينة، فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتىٰ أتىٰ منًىٰ، فنزل بمنىٰ، [فأتاه عينه] (٥) أن عِكْرِمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «**يَا خَالِدُ، هَذَا ابْنُ عَمِّكَ أَتَاكَ فِي الخَيْلِ**»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله -فيومئذٍ سمي سيف الله- يا رسول الله، ارم بي أين شئت. فبعثه علىٰ خيل، فلقي عكرمة في الشِّعْب فهزمه حتىٰ أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتىٰ أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتىٰ أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾، إلىٰ: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل (٦).

---

(١) مسلم (١٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٢)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٢٦٤)، والنسائي في «التفسير» (٥٣٠).

(٢) في (ز): (المغفل الذي).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٨٦)، والطبري (٢٦/ ٩٣)، والنسائي في «التفسير» (٥٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣١٩).

(٤) **الكُرَاع**: الخيل.

(٥) بياض في (ز)، والعين: الجاسوس الذي يأتي بأخبار العدو.

(٦) **مرسل**: رواه الطبري (٢٦/ ٩٤)، وانظر تعليق ابن كثير بعده.

ورواه ابن أبي حاتم، عن ابن [أبزىٰ][1] بنحوه. وهذا السياق فيه نظرٌ؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدًا لم يكن أسلم؛ بل قد كان طليعة المشركين يومئذٍ، كما ثبت في «الصحيح». ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء؛ لأنهم قاضوه علىٰ أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه، ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ **فالجواب**: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَديًا، وإنما جاء محاربًا مقاتلًا في جيشٍ عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خللٌ، قد وقع فيه شيءٌ فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم، عن عكرمة مولىٰ ابن عباس: أن قريشًا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحدًا، فأُخذُوا أخذًا، فأُتي بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلَّىٰ سبيلهم، وقد كانوا رموا إلىٰ عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية[2].

وقال قتادة: ذُكِر لنا أن رجُلًا يقال له: «ابن زُنَيْم» اطلع علىٰ الثَّنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلًا فأتوه باثني عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم: «هَلْ لَكُمْ عَلَيَّ عَهْدٌ؟ هَلْ لَكُمْ عَلَيَّ ذِمَّةٌ؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية[3].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالىٰ -مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم علىٰ نصرتهم علىٰ رسول الله ﷺ-: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾؛ أي: وصدوا الهَدْيَ أن يصل إلىٰ محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهديُ سبعين بدنةً، كما سيأتي بيانه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾؛ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم

(١) في (ز): (بزى).
(٢) رواه الطبري (٢٦/ ٨٣)، وفيه من لم يسم، ويكفي في سبب النزول ما تقدم من حديث سلمة بن الأكوع.
(٣) مرسل: رواه الطبري (٢٦/ ٨٣).

خيفةً علىٰ أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوامٌ لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ -أي: إثمٌ وغرامةٌ- ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثيرٌ منهم إلىٰ الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾؛ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم، ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلًا ذريعًا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزِّنْباع -رَوْح بن الفرج- حدثنا عبد الرحمن بن أبي عبَّادٍ المَكِّيِّ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله [أبو](١) سعيد -مولىٰ بني هاشم- حدثنا حُجْرُ بن خلف(٢): سمعت عبد الله بن [عوف](٣) يقول: سمعت جنيد بن سبع يقول: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرًا، وقاتلت معه آخر النهار مسلمًا، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، قال: كنا تسعة نفرٍ: سبعة رجالٍ وامرأتين(٤).

ثم رواه من طريقٍ أخرىٰ عن محمد بن عبَّادٍ المَكِّي به، وقال فيه: عن [أبي](٥) جمعة جنيد بن سَبُع، فذكره(٦). والصواب: أبو جعفرَ حبيب بن سباع، ورواه ابن أبي حاتم من حديث حُجر بن خلف به. وقال: كنا ثلاثة رجالٍ وتسع نسوةٍ، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جَبَلَةَ، عن أبي حمزة، عن عَطَاء، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابًا أليمًا بقتلهم إياهم(٨).

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وأبوا أن يكتبوا: «هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهي قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحَسَن بن قَزَعَة أبو علي البَصْري، حدثنا سفيان بن

---

(١) في (ز): (ابن)، وهو خطأ.

(٢) كذا في (ز)، وهو موافق للمطبوع من «المعجم الكبير»، وهو: أبو خلف حجر بن الحارث.

(٣) في (ز): (عمر)، وهو خطأ.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٢٩٠)، وأبو يعلىٰ (١٥٦٠)، ورجاله ثقات، وأبو خلف هو حجر بن الحارث الغساني، قال الحافظ في «تعجيل المنفعة»: محله الصدق، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٠): (رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات).

(٥) في (ز): (ابن).

(٦) الطبراني (٤/ ٢٤)، وانظر ما تقدم.

(٧) رواه الدولابي في «الكنىٰ والأسماء» (١٤٧)، وابن بشران في «الأمالي» (٣١٠).

(٨) «الدر المنثور» (١/ ٥٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

حبيب، حدثنا شعبة، عن ثُوَيْر، عن أبيه، عن الطُّفَيل -يعني: ابن أُبَي بن كعب ﷺ عن أبيه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١).

وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قَزَعَة، وقال: غريبٌ لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّمَادِي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني اللَّيْثُ، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شِهَاب، عن سعيد بن المُسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ». وأنزل الله في كتابه، وذكر قومًا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، وهي: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، فاستكبروا عنها، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ علىٰ قضية المُدة(٢).

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري، والظاهر أنها مُدْرَجةٌ من كلام الزهري، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عَطَاء بن أبي رَبَاح: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وقال يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عُروة، عن المِسْوَر: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٣).

وقال الثوري، عن سَلَمَة بن كُهَيْل، عن عَبَايَة بن رِبْعِي، عن علي: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ». وكذا [قال ابن عمر ﷺ](٤).

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، قال: يقول شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوىٰ(٥).

وقال سعيد بن جُبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، والجهاد في سبيله.

وقال عَطَاء الخُرَاسَاني: هي: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ».

---

(١) الترمذي (٣٢٦٥)، وأحمد (٥/ ١٣٨) برقم (٢١٢٩١)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ «الترمذي»، وضعفه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه علىٰ «مسند الإمام أحمد».

(٢) أصل الحديث في «الصحيحين» إلىٰ قوله: «وحسابه علىٰ الله»، وأما هذه الزيادات فقد سبق تخريجها. انظر: تفسير الآية (٣٥) من سورة الصافات.

(٣) رواه الطبري (٢٦/ ١٠٤).

(٤) سقط من (ز)، رواه الطبري (٢٦/ ١٠٤).

(٥) البغوي (١/ ٣٢١).

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، كان المسلمون أحقَّ بها، وكانوا أهلها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: هو عليمٌ بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن [سعيد](١)، حدثنا شَبَابة بن سَوَّار، عن أبي رَزِين، عن عبد الله ابن العلاء بن زَبْر، عن [بُسْر بن عُبيد الله](٢)، عن أبي إدريس، عن أُبَي بن كَعْب أنه كان يقرأ: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَلَوْ حَمِيتُم كَمَا حَمُوا لَفَسَدَ المَسْجِدُ الحَرَام). فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أني كنت أدخل علىٰ رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجلٌ عندك علمٌ وقرآن، فاقرأ وعَلِّم مما علمك الله ورسوله(٣).

❑ وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومَرْوَان بن الحَكَم قالا: خرج رسول الله ﷺ [عام الحديبية](٤) يريد زيارة البيت، لا يريد قتالًا، وساق معه الهَدْيَ سبعين بَدَنَةً، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بَدَنَةٍ عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتىٰ إذا كان بعُسْفَان لقيه بِشْر بن سُفيان الكَعْبي، فقال: يا رسول الله، هذه قُريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المَطَافِيل(٥)، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَة(٦) أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلىٰ كُرَاع الغَمِيم، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! قَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ؟ فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟ فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَىٰ الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتَّىٰ يُظْهِرَنِي اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين

---

(١) في (ز): (شهيد)، وهو خطأ. (٢) في (ز): (بشر بن عبد الله)، والمثبت هو الصواب.

(٣) النسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ٤٦٣) برقم (١١٤٤١)، والحاكم (٢/ ٢٢٥-٢٢٦) وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٠٩). قلتُ: فيه بسر بن عبيد الله، أورده البخاري في «التاريخ الكبير»، وابن أبي حاتم، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، لكن قال ابن حبان في «الثقات»: كان أحفظ الناس في أبي إدريس.

(٤) سقط من (ز).

(٥) أي: الإبل معها أولادها، والعوذ في الأصل: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت، وبعدما تضع حتىٰ يقوىٰ أولادها، والمطفل: الناقة القريبة العهد بالنتاج معها طفلها، يريد: أنهم جاءوا بأجمعهم كبارهم وصغارهم.

(٦) (عَنْوَةً) أي: قَهْرًا وغَلَبَةً.

بين ظهري الحَمْض على طريق تخرجه على ثنية المرار (١) والحُديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قَتَرَة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريشٍ، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خَلَأَت (٢). فقال رسول الله ﷺ: «مَا خَلَأَتْ، وَمَا ذَلِكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ اليَوْمَ إِلَىٰ خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ، إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثم قال للناس: «انْزِلُوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماءٍ ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهمًا من كِنانته فأعطاه رجلًا من أصحابه، فنزل في قَلِيبٍ من تلك القلب، فغرزه فيه فَجَاشَ (٣) بالماء حتى ضرب الناس عنه بعَطَن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجال من خُزَاعَة، فقال لهم كقوله لبِشْر بن سُفيان، فرجعوا إلى قُريشٍ فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمدٍ، وإن مُحمدًا لم يأتِ لقتالٍ، إنما جاء زائرًا لهذا البيت معظِّمًا لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خُزَاعَة في عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئًا كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبدًا علينا عَنْوَةً، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلَّمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريشٍ فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ؛ فبعثوا إليه الحُليس (٤) بن عَلْقَمَة الكِنَاني، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ (٥)، فَابْعَثُوا الهَدْيَ [فِي وَجْهِهِ] (٦)»، فبعثوا الهدي، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده قد أكل أوتاره (٧) من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَده، الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابيٌّ لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعودٍ الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمدٍ إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والدٌ

(١) ثَنِية المِرَار: موضع قرب الحديبية.

(٢) (خَلَأَت) أي: امتنعت من المشي، وهو كالحران للفرس. «هدي الساري»: (ص/ ١١٣).

(٣) جاش: فار.

(٤) في (ز): (الجليس)، والمثبت هو الصواب، وفي «المسند»: (الحِلْس)، وعلق عليه المحقق: (هكذا جاء في النسخ - أي: الحِلْس- وضبطه السندي: بكسر فسكون، وجاء في هامش (س): الحُليس، مصغرًا.
قلت: وكذلك ضبطه الحافظ في «الفتح» (٥/ ٣٤٢)).اهـ
قلت: وهو ما اعتمدناه.

(٥) في (ز): (يباهلون).

(٦) سقط من (ز).

(٧) الأوتار: جمع وَتَر، وهو وتر القسي.

وأنا ولدٌ، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتىٰ آسَيْتُكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعتَ أوباش الناس، ثم جئتَ بهم لبيضتك لتفضَّها [(١)]، إنها قريشٌ قد خرجت معها العُوذُ المَطَافِيلُ، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبدًا، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا. قال: وأبو بكرٍ قاعدٌ خلف رسول الله ﷺ، فقال: امْصُص بَظْرَ اللَّاتِ [(٢)]! أنَحْنُ ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ». قال: أما والله لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لِحْيَة رسول الله ﷺ، والمُغِيرة بن شُعْبَة وَاقِفٌ علىٰ رأس رسول الله ﷺ في الحديد، قال: فقرع يده [(٣)]. ثم قال: أَمْسِك يَدَكَ عن لِحْيَة رسول الله ﷺ قبل -والله- لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: مَنْ هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هَذَا ابْنُ أَخِيكَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ». قال: أَغُدَرُ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟!

قال فكلَّمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلَّم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأتِ يريد حربًا. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأىٰ ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وُضُوءًا إلا ابتدروه، ولا يَبْصُقُ بُصاقًا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيءٌ إلا أخذوه. فرجع إلىٰ قريشٍ فقال: يا معشر قريش، إنىٰ جئت كسرىٰ في مُلْكه، وجئتُ قيصر والنجاشيّ في مُلْكهما، والله ما رأيت مَلِكًا قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيءٍ أبدًا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خِرَاش بن أُمية الخُزَاعيّ إلىٰ مكة، وحمله علىٰ جملٍ له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خِرَاش، فمنعتهم الأحابيش، حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ، فدعا عُمر ليبعثه إلىٰ مكة، فقال: يا رسول الله، إنىٰ أخاف قريشًا علىٰ نفسي، وليس بها من بني عَدِيٍّ أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك علىٰ رجلٍ هو أعز مني: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلىٰ قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحربٍ أحدٍ، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته. فخرج عثمان حتىٰ أتىٰ مكة، فلقيه أَبَانُ بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه ورَدِف خلفه، وأجاره حتىٰ بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتىٰ أتىٰ أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به رسول الله ﷺ، قال: واحتبسته قريشٌ عندها، قال: وَبَلَغ رسول الله أن عُثمان قد قُتِل.

---

(١) أي: تكسرها، والمراد بالبيضة هنا: الأهل والعشيرة.

(٢) البَظْر: قطعة تبقىٰ بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله علىٰ ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلىٰ الفرار، وفيه: جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك، وقال ابن المنير: في قول أبي بكر تخسيسٌ للعدو وتكذيبهم. «فتح الباري»: (٥/ ٣٤٠).

(٣) قرع يده: ضربها.

قال محمد: فحدثني الزهري: أن قُريشًا بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائتِ محمدًا فصالِحْهُ ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنَّا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عَنوةً أبدًا. فأتاه سُهَيْل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَرَادَ القَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ». فلما انتهىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ تكَلَّمَا وأطالا الكلام، وتراجعا حتىٰ جرىٰ بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتىٰ أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أوَلَيْسَ برسول الله؟ أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غَرْزَه[(١)] حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. ثم قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتىٰ رسول الله فقال: يا رسول الله، أولسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بَلَىٰ»، قال: فَعَلَامَ نُعْطِي الذلة في ديننا؟ فقال: «أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي». ثم قال عمر: ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتىٰ رجوت أن يكون خيرًا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﵁ فقال: «اكتب: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». [فقال سُهَيْل بن عمرو][(٢)]: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، فقال رسول الله: «اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. هَذَا مَا [صَالَحَ][(٣)] عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، [سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو»][(٤)].

فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، علىٰ وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، علىٰ أنه من أتىٰ رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتىٰ قريشًا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبةً[(٥)] مكفوفةً، وأنه لا أسلال، ولا أغلال.

وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمتَ بها ثلاثًا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذ جاءه أبو جَنْدَل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ علىٰ نفسه، دخل الناس من ذلك أمرٌ عظيمٌ، حتىٰ كادوا أن يهلكوا. فلما رأىٰ سهيل أبا جَنْدَل قام

---

(١) الغَرْز: ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب، والمعنىٰ: اعتلق به وأمسكه، واتبع قوله وفعله، ولا تخالفه.

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (صَلَحَ).

(٥) العيبة في الأصل: مستودع الثياب، والمكفوفة: المشدودة علىٰ ما فيها؛ أي: بينهم صدرٌ نقيٌّ من الغل والخداع، مطوي علىٰ الوفاء بالصلح.

إليه فضرب وجهه، وقال: يا محمد، قد لَجَّتِ[١] القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صَدَقْتَ». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جَنْدَل بأعلىٰ صوته: يا مَعَاشِرِ المسلمين، أتردونني إلىٰ أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟ قال: فزاد الناس شرًّا إلىٰ ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا جَنْدَلٍ، [اصْبِرْ وَ]**[٢] **احْتَسِبْ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وِلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ وَأَعْطونا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِناَّ لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ**». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلىٰ جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: وَيُدْنِي قائم السيف منه، قال: يقول: رجوتُ أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال: فَضَنَّ الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب[٣] في الحِلِّ، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْحَرُوا وَاحْلِقُوا**». قال: فما قام أحدٌ. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجلٌ [حتىٰ عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجلٌ][٤].

فرجع رسول الله ﷺ فدخل علىٰ أم سلمة فقال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ، مَا شَأْنُ النَّاسِ؟**» قالت: يا رسول الله، قد دَخَلَهم ما رأيتَ، فلا تُكَلِّمن منهم إنسانًا، واعمد إلىٰ هَدْيِكَ حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يُكلِّم أحدًا حتىٰ أتىٰ هَدْيَهُ فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتىٰ إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح[٥].

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر، وزياد البَكَّائي، عن ابن إسحاق، بنحوه، وفيه إغراب. وقد رواه أيضًا عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري به نحوه، وخالفه في أشياء، وقد رواه البخاري في «صحيحه»، فساقه سياقةً حسنةً مطولةً بزياداتٍ جيِّدةٍ، فقال في كتاب الشروط من «صحيحه»:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، أخبرني الزهري، أخبرني عُرْوة بن الزبير، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومَرْوَان بن الحَكَم، يصدق كل واحدٍ منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتىٰ ذا الحُلَيْفَة قَلَّدَ الهَدْي وَأَشْعَرَه[٦]، وأحرم

---

(١) أي: وجبت. (٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٣) في (ز): (مضربٌ)، والمثبت من «المسند»، ومعناه: ضارب خيمته.

(٤) سقط من (ز).

(٥) رواه أحمد (٤/ ٣٢٣)، وأصله في «الصحيحين» كما سيأتي.

(٦) تقليد الهَدْي: إلباسه القِلادة من النِّعَال القديمة ونحوها ليعلم أنه هديٌ. والإشعار: أن يكشط جلد البَدَنَة حتىٰ يسيل دمٌ ثم يسلته، فيكون ذلك علامة علىٰ كونها هديًا، وبذلك قال الجمهور من السلف والخلف، وذكر الطحاوي في (اختلاف العلماء) كراهته عن أبي حنيفة، وذهب غيره إلىٰ استحبابه للاتباع حتىٰ صاحباه: أبو يوسف ومحمد، فقالا: هو حسن...وقال الخطابي وغيره: اعتلال من كره الإشعار بأنه من المثلة مردودٌ؛ بل هو بابٌ آخر كالكَيِّ وشَق أُذن الحيوان ليصير علامةً، وغير ذلك من الوسم وكالختان والحجامة...وروي عن إبراهيم النخعي أيضًا أنه كره الإشعار، ذكر ذلك الترمذي، قال: سمعت أبا السائب يقول: كنا عند وكيع، فقال له رجل: روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مُثْلةٌ، فقال له وكيع: أقول لك: أَشْعَرَ رسولُ الله ﷺ، وتقول: قال إبراهيم!!! ما أحقك بأن تحبس. «فتح الباري»: (٣/ ٥٤٤).

منها بعُمرةٍ وبعث عَيْنًا له من خُزاعة، وسار حتىٰ إذا كان بغدير الأشطاط(١) أتاه عينه، فقال: إن قريشًا قد جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ عَلَىٰ عِيَالِهِمْ، وَذَرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ البَيْتِ؟» وفي لفظ: «أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ عَلَىٰ ذَرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ. [فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللهُ قَدْ قَطَعَ عُنُقًا مِنَ المُشْرِكِينَ وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْزُونِينَ»، وفي لفظ](٢): «فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَجْهُودِينَ مَحْرُوبِينَ(٣)، وَإِنْ نَجَوْا يَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللهُ، أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نَؤُمَّ البَيْتَ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ؟». فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحدٍ ولا حربًا، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر ﷺ: الله ورسوله أعلم إنما جئنا مُعتمرين، ولم نجئ لقتال أحدٍ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فَرُوحُوا إِذَنْ»، وفي لفظ: «فَامْضُوا عَلَىٰ اسْمِ اللهِ».

حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَة، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ». فوالله ما شعر بهم خالد حتىٰ إذا هم بقَتَرة(٤) الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتىٰ إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حَلْ حَلْ(٥)، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «مَا خَلَأَتِ(٦) القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتىٰ نزل بأقصىٰ الحُديبية علىٰ ثَمَدٍ(٧) قليل الماء، يتبرّضه(٨) الناس تبرُّضًا، فلم يلبث الناس حتىٰ نزحوه، وشُكي إلىٰ رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهمًا ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتىٰ صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن وَرْقَاء الخُزاعي في نفرٍ من قومه من خُزاعة، وكانوا عَيْبَة نصح رسول الله ﷺ من أهل تِهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العُوذ المَطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ فَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا(٩)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَىٰ أَمْرِي هَذَا حَتَّىٰ تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ». قال بُدَيْل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتىٰ أتىٰ قريشًا، فقال: إنَّا قد جئنا من عند هذا الرجل،

---

(١) غدير الأشطاط: موضع قريب من عُسفان، وعُسفان علىٰ مرحلتين من مكة.

(٢) بياض في (ز).

(٣) أي: مسلوبين منهوبين.

(٤) القَتَرة: غبرة الجيش.

(٥) حل حل: كلمة زجر للإبل.

(٦) خلأت: أي امتنعت علىٰ صاحبها.

(٧) الثَّمَد: الماء القليل.

(٨) أي: يأخذونه قليلًا قليلًا، والبَرْض: الشيء القليل.

(٩) جَمُّوا: استراحوا من جهد الحرب.

وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلىٰ. قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني أستنفرت أهل عكاظ، فلما بَلَّحُوا (١) عَلَيَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يُكلِّم رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحوًا من قولِهِ لبُدَيل بن وَرْقاء. فقال عُروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرىٰ فإني والله لأرىٰ وجوهًا، وإني لأرىٰ أشوابًا (٢) من الناسِ خليقًا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر ﷺ: امْصُص بَظْر اللات! أنحن نَفِرّ وندعه؟! قال: مَنْ ذَا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أَمَا والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يُكَلِّم النبي ﷺ فكلَّما كَلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة ﷺ قائمٌ علىٰ رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر (٣)، فكلما أهوىٰ عروة بيده إلىٰ لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أَخِّرْ يدك عن لحية النبي ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَر، ألست أسعىٰ في غَدْرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «**أَمَّا الإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا المَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيءٍ**».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضُوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ﷺ، فرجع عروة إلىٰ أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ الملوك، ووفدت علىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت (٤) ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، والله إن تنخم نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضُوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّونَ النظر إليه تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجلٌ منهم من بني كِنَانة: دعوني آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف علىٰ النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: «**هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُون البُدْنَ، فابعثُوها لَهُ**» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأىٰ ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلىٰ أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأشعرت، فما أرىٰ أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال رجلٌ منهم يقال له:

---

(١) أي: امتنعوا من إجابتي.
(٢) أي: أخلاطًا وأنواعًا.
(٣) المغفر: ما يلبسه الجندي علىٰ رأسه كالخوذة.
(٤) أي: ما رأيت.

«مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هَذَا مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، فجعل يُكَلِّم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينك كتابًا فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللَّهمَّ»، كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثم قال: «هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» قال الزهري: وذلك لقوله: «وَاللهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». فقال له النبيُّ ﷺ: «عَلَىٰ أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ». فقال سهيلٌ: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً[1]، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلىٰ أن لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان علىٰ دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلىٰ المشركين وقد جاء مسلمًا؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جَنْدل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ[2] في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتىٰ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إليّ، فقال النبيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قال: فوالله إذًا لا أصالحك علىٰ شيءٍ أبدًا. فقال النبيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي»[3]، فقال: ما أنا بمجيزٍ ذلك لك، قال: «بَلَىٰ فَافْعَلْ». قال: ما أنا بفاعلٍ. قال مكرز: بلىٰ قد أجزناه لك. قال أبو جَنْدَل: أي معشر المسلمين، أُرَدّ إلىٰ المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا في الله ﷻ. قال عمر بن الخطاب ﵁: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألست نبيَّ الله حقًّا؟ قال ﷺ: «بَلَىٰ». قلت: ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل؟ قال: «بَلَىٰ». قلت: فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟» قلت: لا، قال: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟ قال: بلىٰ. قلت: ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل؟ قال: بلىٰ. قلت: فلم نعطي الدَّنيَّة في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك

---

(١) أي: قهرًا. (٢) يرسف: يمشي مشي المقيد. (٣) أجزه لي: أعطه لي.

بغَرْزه، فوالله إنه علىٰ الحق. قلت: أوليس كان يحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلىٰ، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فَعَمِلْتُ لذلك أعمالًا. قال: فلما فرغ من قضيةِ الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**». قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتىٰ قال ذلك ثلاث مراتٍ!! فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل علىٰ أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تُكلِّم أحدًا منهم كلمةً حتىٰ تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يُكلِّم أحدًا منهم حتىٰ فعل ذلك، نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، ثم جاءه نسوةٌ مؤمناتٌ، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾، حتىٰ بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرىٰ صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلىٰ المدينة فجاءه أبو بَصِير -رجلٌ من قريش- وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلىٰ الرجلين فخرجا به حتىٰ بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصيرٍ لأحد الرجلين: والله إني لأرىٰ سيفك هذا يا فلان جيِّدًا، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيِّدٌ، لقد جَرَّبْتُ منه ثم جربتُ، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتىٰ بَرَد[(١)]، وفَرَّ الآخر حتىٰ أتىٰ المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لَقَدْ رَأَىٰ هَذَا ذُعْرًا**»، فلما انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ قال: قتل -والله- صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد -والله- أوفىٰ الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نَجَّاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «**وَيْلَ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ**[(٢)] **! لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتىٰ أتىٰ سيف البحر[(٣)]، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتىٰ اجتمعت منهم عصابةٌ، فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلىٰ الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلىٰ النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم

---

(١) أي: مات.

(٢) يقال: سَعَرتُ النار والحرْبَ: إذا أوقَدتهما، وسَعَّرتهما بالتشديد للمبالغة. والمِسعر والمِسْعار: ما تُحرِّكُ به النارُ من آلةِ الحديد. يَصِفُه بالمبالغة في الحَرْبِ والنَّجدة، ويُجْمعان علىٰ مَساعر ومَساعير. «النهاية».

(٣) سيف البحر: جانبه أو ساحله.

الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[١].

هكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك من حديث مَعْمَر وسفيان بن عُيينة، كليهما عن الزهري به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، [عن][٢] مَرْوان والمِسْوَر بن مَخْرَمة، عن رجالٍ من أصحاب النبي ﷺ بذلك. وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلىٰ ما هاهنا، ولذلك سُقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخاري في «التفسير»: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِي، حدثنا يَعْلىٰ، حدثنا عبد العزيز بن سِيَاه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيتُ أبا وائل أسأله فقال: كنا بصِفِّين فقال رجلٌ: ألم تر إلىٰ الذين يُدْعَون إلىٰ كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نعم. فقال سَهْل[٣] بن حنيف: اتهِمُوا[٤] أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية -يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين- ولو نرىٰ قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا علىٰ الحق وهم علىٰ الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: «**بَلَىٰ**»، قال: ففِيمَ نُعطي الدنيَّة في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «**يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**»، فرجع متغيظًا، فلم يصبر حتىٰ جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا علىٰ الحق وهم علىٰ الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا، فنزلت «سورة الفتح»[٥].

وقد رواه البخاري أيضًا في مواضع أخر، ومسلم، والنسائي، من طُرق أخر، عن أبي وائل شَقِيق[٦] ابن سلمة، عن [سَهْل][٧] بن حُنيف به. وفي بعض ألفاظه: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر علىٰ أن أرد علىٰ رسول الله ﷺ أمره لرددته». وفي رواية: فنزلت «سورة الفتح»، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشًا صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعليٍّ: «**اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «**اكْتُبْ: مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ**». قال: لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «**اكْتُبْ: مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ**». واشترطوا علىٰ النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده

---

(١) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) في (ز): (بن).
(٣) في (ز): (سهيل)، وهو خطأ.
(٤) في (ز): (إنهم).
(٥) رواه البخاري (٤٨٤٤)، ومسلم (٣١٨٢).
(٦) لوحة (٢١٣/ أ)، في (ز) وأكثر النسخ الخطية: (سفيان)، وهو خطأ واضح، والصواب ما أثبتناه.
(٧) في (ز): (سهيل).

عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أتكتب هذا؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ»[١]. رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به.

وقال أحمد أيضًا: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا عِكْرِمة بن عَمَّار قال: حدثني سِمَاك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحَرُورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعليٍّ: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امْحُ يَا عَلِيُّ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، امْحُ يَا عَلِيُّ، وَاكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ». والله لرسول الله خيرٌ من عليٍّ، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم[٢].

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي، بنحوه.

وروىٰ الإمام أحمد، عن يحيىٰ بن آدم: [حدثنا زهير][٣]، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن الحَكَم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس ﵄ قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بَدَنَةً فيها جمل لأبي جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلىٰ أولادها[٤].

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ[٥] أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

كان رسول الله ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنه دخل مكة وطاف بها بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعةٌ منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح، ورجعوا عامهم ذلك علىٰ أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتىٰ سأل عمر بن الخطاب ﵁ في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا»، قال: لا قال: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ». وبهذا أجاب الصديق ﵁ أيضًا حَذْو القُذَّة[٦] بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٤)، وأحمد (٣/ ١٦٨).
(٢) صحيح لغيره: رواه أحمد (١/ ٣٤٢)، وفيه سماك بن الوليد أبو زميل، قال الحافظ: ليس به بأس، لكن يشهد له ما تقدم.
(٣) في (ز): (عن ابن نمير)، والمثبت هو الصواب.
(٤) رواه أحمد (١/ ٣١٤)، والبيهقي (٥/ ٢٣٠)، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ جدًّا، وقد حسن الحديث الشيخ أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «المسند».
(٥) لوحة (٢١٣/ ب).
(٦) القُذَّة: واحدة القُذَذ، وهي: ريش السهم، وكل واحدةٍ من ريش السهم تقدر علىٰ قدر صاحبتها.

بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾، هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيءٍ، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «وَالمُقَصِّرِينَ». في الثالثة أو الرابعة[(١)].

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة في المعنىٰ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفىٰ عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحدٍ. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبعٍ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلىٰ المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلىٰ خيبر ففتحها الله عليه بعضها عَنْوةً وبعضها صُلحًا، وهي إقليمٌ عظيمٌ كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها علىٰ الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحدٌ غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسىٰ الأشعري وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دُجَانَة [سِمَاك بن خَرَشَة][(٢)]، كما هو مقررٌ في موضعه، ثم رجع إلىٰ المدينة، فلما كان في ذي القعدة في سنة سبعٍ خرج إلىٰ مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحُلَيْفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنةً، فلبىٰ وسار أصحابه يُلبون. فلما كان قريبًا من مَرِّ الظَّهْران بعث محمد بن مَسْلَمَة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبًا شديدًا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه بينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمَرِّ الظَّهْران حيث ينظر إلىٰ أنصاب الحرم[(٣)]، بعث السلاح من[(٤)] القسي والنبل والرماح إلىٰ بطن يأجج[(٥)]، وسار إلىٰ مكة بالسيوف مغمدةً في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وَمَا ذَاكَ؟»، قال: دخلتَ علينا بالسلاح والقسيّ والرماح. فقال: «لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، وَقَدْ بَعَثْنَا بِهِ إِلَىٰ يَأْجُجَ»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلىٰ رسول الله ﷺ ولا إلىٰ أصحابه غيظًا وحنقًا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلىٰ البيوت ينظرون إلىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبين يديه أصحابه يلبون،

---

(١) البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١)، وأبو داود (١٩٧٩)، والترمذي (٩١٣)، وابن ماجة (٣٠٤٣).

(٢) بياض في (ز)، لوحة (٢١٤/ أ).

(٣) **أنصاب الحرم**: علاماته التي تُحدده وتميزه من الحِلّ.

(٤) في (ز): (مع القسي).

(٥) **يأجج**: علىٰ ثمانية أميال من مكة.

يلبون، والهدي قد بعثه إلىٰ ذي طُوًىٰ[١]، وهو راكبٌ ناقته القَصْواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذٌ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باســـم الـــذي لا ديـــن إلا دينُـــه ... باســـم الـــذي محمـــدٌ رســـوله
خَلُّـــوا بنـــي الكُفَّـــار عَـــنْ سَـــبيله ... اليـــوم نـــضربكم علـــىٰ تَأْويلـــه
كمـــا ضـــربناكم علـــىٰ تنزيلـــه[٢] ... ضـــربًا يزيـــلُ الهـــام عَـــن مَقِيلـــه
ويُـــذْهِل الخليـــل عـــن خليلـــه ... قـــد أنـــزل الـــرحمن في تنزيلـــه
في صُـــحف تتلـــىٰ علـــىٰ رسُـــوله ... بـــأن خيـــر القَتْـــل في ســـبيله
يـــا رب إني مـــؤمن بقِيلِـــه

فهذا مجموعٌ من رواياتٍ متفرقةٍ.

قال يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، دخلها وعبد الله[٣] بن رَوَاحَة آخذٌ بخِطَام ناقته ﷺ، وهو يقول:

خَلّـــوا بنـــي الكُفَّـــار عـــن ســـبيله ... إنِّـــي شَـــهيدٌ أنـــه رَسُـــولُه
خلـــوا فكـــل الخيـــر في رســـوله ... يـــا رب إنِّـــي مـــؤمن بقيلـــه
نحـــن قتلنـــاكم علـــىٰ تأويلـــه ... كمـــا قتلنـــاكم علـــىٰ تنزيلـــه
ضـــربًا يُزيـــل الهـــام عـــن مقيلـــه ... وَيُـــذْهل الخليـــل عـــن خليلـــه

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة[٤] القضاء، مشىٰ عبد الله بن رَوَاحَة بين يديه، وفي رواية: وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

خلـــوا بنـــي الكُفَّـــار عـــن ســـبيله ... قـــد نـــزل الـــرحمن في تنزيلـــه
بـــأنَّ خيـــر القتـــل في ســـبيله ... يـــا رب إنِّـــي مـــؤمن بقِيلِـــه
نحـــن قتلنـــاكم علـــىٰ تأويلـــه ... كمـــا قتلنـــاكم علـــىٰ تنزيلـــه
ضـــربًا يزيـــل الهـــام عـــن مقيلـــه ... ويـــذهل الخليـــل عـــن خليلـــه[٥]

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا محمد بن الصَّبَّاح، حدثنا إسماعيل -يعني: ابن زكريا- عن عبد الله -يعني: ابن عثمان- عن أبي الطُّفَيْل، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرَّ الظَّهْرَان

---

(١) ذو طوىٰ: موضع عند مكة.
(٢) أي: نحن قاتلناكم علىٰ تأويله، كما قاتلناكم علىٰ إنكار تنزيله، والهام: أعلىٰ الرأس، ومقيله: موضعه.
(٣) لوحة (٢١٤/ ب). (٤) في (ز): (في غزوة).
(٥) صحيح: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٢٢).

في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشًا تقول: ما يتباعثون من العَجَفِ[١]. فقال أصحابه: لو انتحرنا[٢] من ظَهْرنا فأكلنا من لحمه وحَسَونا من مَرَقه أصبحنا غدًا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَةٌ[٣]. قال: «**لا تَفْعَلُوا، وَلَكِنِ اجْمَعُوا لِي مِنْ أَزْوَادِكُمْ**». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع[٤]، فأكلوا حتىٰ تركوا، وحَثَا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتىٰ دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «**لا يَرَىٰ القَوْمُ فِيكُمْ غَمِيزَةً**[٥]»، فاستلم الركن ثم رَمَلَ، حتىٰ إذا تغيب بالركن اليماني مشىٰ إلىٰ الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي، أما إنكم لتنقُزُون[٦] نَقْزَ الظِّبَاء، ففعل ذلك ثلاثة أطوافٍ، فكانت سُنَّةً. قال أبو الطُّفَيْل: فأخبرني ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع[٧].

وقال أحمد أيضًا: حدثنا يونس؛ حدثنا حمَّاد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عباسٍ قال[٨]: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّىٰ يثرب، ولقوا منها سوءًا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قومٌ قد وهنتهم حمىٰ يثرب، ولقوا منها شرًّا، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ علىٰ ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه][٩] أن يَرْمُلُوا[١٠] الأشواط الثلاثة؛ ليرىٰ المشركون جَلَدَهُم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاءً عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحُمّىٰ قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا[١١].

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث حماد بن زيد به، وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة -أي: من ذي القعدة- فقال المشركون: إنه يقدم عليكم [وفد قد][١٢] وَهَنتهم حُمَّىٰ يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يَرْمُلُوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قال البخاري: وزاد ابن سَلَمَة -يعني: حمَّاد بن سلمة- عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لِعَامِهِ الذي استأمن قال: «**ارْمُلُوا**». ليرىٰ المشركون قوتهم، والمشركون من قِبَل قُعَيْقِعَان[١٣].

---

(١) أي: لا يستطيعون التصرف من الهزال.

(٢) أي: ذبحنا، والظهر: الإبل.

(٣) أي: راحة وشبع وري.

(٤) الأنطاع: الجلود.

(٥) أي: عيبًا.

(٦) ينقزون: يثبون ويقفزون.

(٧) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٠٥)، وانظر ما بعده.

(٨) لوحة (٢١٥/ أ).

(٩) ليست في (ز).

(١٠) الرَّمَلُ: الإسراع في المشي مع تقارب الخُطا وهز المنكبين.

(١١) البخاري (٤٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦)، وأحمد (١/ ٢٩٠، ٢٩٤).

(١٢) في (ز): (وقد).

(١٣) قُعيقعان: جبل بمكة. رواه البخاري (٤٢٥٦).

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عَطَاء، عن ابن عباسٍ قال: إنما سعىٰ النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة؛ ليرىٰ المشركون قوته[(١)].

ورواه في مواضع أخر، ومسلم، والنسائي، من طُرق، عن سُفيان بن عيينة به.

وقال أيضًا: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمع ابن أبي أَوْفَىٰ يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سَتَرْنَاه من غِلمان المشركين ومنهم؛ أن يُؤذوا رسول الله ﷺ[(٢)]. انفرد به البخاري دون مسلم.

وقال البخاري أيضًا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سُرَيْج بن النُّعْمَان، حدثنا فُلَيْح. وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فُلَيْح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج مُعتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هَدْيَهُ وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم علىٰ أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها [ثلاثًا][(٣)]، أمروه أن يخرج فخرج[(٤)].

وهو في «صحيح مسلم» أيضًا.

وقال البخاري أيضًا: حدثنا عُبيد الله بن موسىٰ، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء، قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبىٰ أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة، حتىٰ قاضاهم علىٰ أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نُقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «**أَنَا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**». ثم قال لعلي بن أبي طالب: «**امْحُ رَسُولَ اللهِ**». قال: لا والله لا أمحوك أبدًا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب -وليس يُحْسِنُ يَكْتُب- فكتب: «**هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: لَا يُدْخِلُ مَكَّةَ السِّلَاحَ إِلَّا السَّيْف فِي القِرَابِ، وَأَلَّا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ أَرَادَ أَنْ يَتْبَعَهُ، وَأَلَّا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا**». فلما دخلها ومضىٰ الأجل، أتوا عليًّا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضىٰ الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنةُ حمزة تنادي: يا عمّ، يا عمّ. فتناولها عَلِيٌّ فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر، فقال عليّ: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيدٌ: ابنة أخي، فقضىٰ بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**»، وقال لعليٍّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**»، وقال لجعفر: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**»، وقال لزيد: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**». قال عليٌّ: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «**إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ**». انفرد به من هذا الوجه[(٥)].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ أي: فعلم الله -تعالىٰ- من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن

---

(١) البخاري (٤٢٥٧). (٢) البخاري (٤٢٥٥). (٣) سقط من (ز).
(٤) لوحة (٢١٥/ ب). رواه البخاري (٢٠٧١)، (٤٢٥٢)، ومسلم (١٢٢٧). (٥) البخاري (٤٢٥١).

﴿دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالىٰ مبشِّرًا للمؤمنين بنصرة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- علىٰ عدوه وعلىٰ سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل علىٰ شيئين: علمٌ وعملٌ، فالعلم الشرعيُّ صحيحٌ، والعمل الشرعيُّ مقبولٌ، فإخباراتها حقٌّ وإنشاءاتها عدلٌ، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: علىٰ أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عربٍ وعجمٍ ومِلِّيين ومُشركين، ﴿وَكَفَىٰ[(1)] بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن محمد -صلوات الله عليه- أنه رسوله حقًّا بلا شكٍّ ولا ريبٍ، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتملٌ علىٰ كل وصفٍ جميلٍ، ثم ثنىٰ بالثناء علىٰ أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذه صفة المؤمنين: أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا علىٰ الكفار، رحيمًا برًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»[(2)]، وقال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[(3)]، وشبك بين أصابعه. كلا الحديثين في «الصحيح».

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة -وهي خير الأعمال- ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة علىٰ فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه -تعالىٰ- عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعني: السَّمْت الحَسَن[(4)].

---

(١) لوحة (٢١٦/ أ).
(٢) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).
(٣) البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٤) رواه الطبري (١٦/ ١١١)، والبيهقي (٢/ ٣٨٦).

وقال مجاهد وغير واحدٍ: يعني: الخُشُوع والتواضع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافِسِي، حدثنا حُسين الجُعْفي، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال: الخُشوع. قلتُ: ما كنتُ أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني [(١)] مَن هو أقسىٰ قلبًا من فرعون.

وقال السُّدِّي: الصلاة تُحسن وجوههم.

وقال بعضُ السَّلَفِ: مَنْ كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجة في «سننه»، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحي، عن ثابت بن موسىٰ، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ**» [(٢)]. والصحيح أنه موقوف [(٣)].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أَسَرَّ أحدٌ سَريرةً إلا أبداها الله علىٰ صَفَحَاتِ وجهه، وفَلَتَاتِ لسانه [(٤)].

والغرض: أن الشيء الكامن في النفس يظهر علىٰ صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحةً مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: مَنْ أصلح سريرته أصلح الله علانيته [(٥)].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسىٰ، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمِيِّ، عن سلمة بن كُهَيْل، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلي قال: قال النبي ﷺ: «**مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ**» [(٦)]. العَرْزَمي متروك.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا حسن بن موسىٰ، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ**» [(٧)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْرٌ، حدثنا قَابُوس بن أبي ظَبْيَان، أن أباه حدثه عن ابن عباسٍ، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**» [(٨)]. ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النُّفَيلي، عن زُهير به.

---

(١) لوحة (٢١٦/ ب).

(٢) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (١٣٣٣)، وفيه شريك القاضي: سيئ الحفظ، وثابت بن موسىٰ: ضعيف الحديث، والحديث ضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٤٢٤٩).

(٣) هذا مِنَ المُدْرَج، فهو من كلام شريك يثني علىٰ ثابت بن موسىٰ، فظن ثابت أنه يرويه بهذا السند فأَدْرَجَهُ، وانظر في ذلك: «تهذيب الكمال» (٤/ ٣٧٩).

(٤) لم أقف علىٰ تخريجه.

(٥) البيهقي (١٠/ ١٠٦) برقم (٢٠٠٧٠).

(٦) **ضعيف جدًّا**: تقدم في تفسير الآية (٣٠) من سورة محمد.

(٧) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٢٨)، وفي إسناده دراج، وروايته عن أبي الهيثم ضعيفةٌ.

(٨) **صحيح**: روه أحمد (١/ ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٧٦).

فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم.

وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ: بلغني أن النصارىٰ كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «وَاللهِ لَهَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنَ الحَوَارِيِّينَ فِيمَا بَلَغَنَا». وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة مُعظَّمةٌ في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[1]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ [فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾][2]؛ أي: فراخه[3]، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: شده، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: شب وطال، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾؛ أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ -في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفةٌ من العلماء علىٰ ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ -«من» هذه لبيان الجنس- ﴿مَّغْفِرَةً﴾؛ أي: لذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا، ووعد الله حقٌّ وصدقٌ، لا يخلفُ ولا يبدل، وكل من اقتفىٰ أثر الصحابة فهو في حكمهم[4]، ولهم الفضل والسَّبْق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحدٌ من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

قال مسلم في «صحيحه»: حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**[5]»[6].

آخر تفسير «سورة الفتح»، ولله الحمد والمنة.

---

(١) لوحة (٢١٧ أ). (٢) ليست في (ز).

(٣) الشَّطْءُ: فَرْخُ الزَّرْعِ والنخل، وقيل: هو ورقُ الزَّرْعِ، وفي التنزيل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: طَرَفَه، وجمعه: شُطُوءٌ، وقال الفرّاءُ: شَطْؤه السُّنْبُل، تُنْبِت الحَبَّةُ عَشْرًا وثمانيًا وسَبْعًا فيَقْوَىٰ بعضُه ببعض، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: فأعانه، وقال الزجاج: ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: أخرج نباته، وقال ابن الأعرابي: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: فِراخَه. «اللسان»: شطأ.

(٤) في (ز): (في جملتهم).

(٥) المُد: ربع الصاع، والنصيف: نصف المُد، والمد أيضًا: ملء كفي الرجل المتوسط. قال البيضاوي: (معنىٰ الحديث: لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحدٍ ذهبًا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت: ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية. قلت: وأعظم من ذلك في سبب الأفضلية: عظم موقع ذلك لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلىٰ الأفضلية بسبب القتال، كما وقع في الآية: ﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ فإن فيها إشارة إلىٰ موقع السبب الذي ذكرته؛ وذلك أن الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيمًا لشدة الحاجة إليه وقلة المعتني به، بخلاف ما وقع بعد ذلك، لأن المسلمين كثروا بعد الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فإنه لا يقع ذلك الموقع المتقدم والله أعلم). «فتح الباري»: (٧/ ٣٤).

(٦) رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠)، ونسبته إلىٰ مسلم فحسب وهمٌ.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

تفسير سورة الحجُرات، وهي مدنيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾

هذه آدابٌ أَدَّبَ الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ، من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: لا تتسرعوا في الأشياء بين يديه؛ أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور، حتىٰ يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث مُعاذ[(١)]، [إذ][(٢)] قال له النبي ﷺ حين بعثه إلىٰ اليمن: «بِمَ تَحْكُمُ؟» قال: بكتاب الله. قال: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟» قال: بسُنة رسول الله. قال: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟» قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ، لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ»[(٣)]. وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

فالغرض منه: أنه أَخَّرَ رأيه ونظره واجتهاده إلىٰ ما بعد الكتاب والسُّنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[(٤)]. وقال العَوْفي عنه: نهىٰ أن يتكلموا بين يدي كلامه[(٥)]. وقال مجاهد: لا تَفْتَاتُوا علىٰ رسول الله ﷺ بشيء، حتىٰ يقضي الله علىٰ لسانه.

وقال الضَّحَّاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

---

(١) لوحة (٢١٧/ ب). (٢) ليست في (ز).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٣٠)، وأبو داود (٣٥٩٢)، والترمذي (١٣٢٧)، وإسناده مرسل، وفيه جهالة الحارث بن عمرو، وجهالة أصحاب معاذ. وانظر: «الضعيفة» للألباني (٨٨١).

(٤) الطبري (٢٦/ ١١٦)، و«حلية الأولياء» (١٠/ ٣٩٨) برقم (٦٩).

(٥) الطبري (٢٦/ ١١٦).

وقال سفيان الثوري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقولٍ ولا فعلٍ.

وقال الحسن البَصْري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا وكذا، لو صنع كذا، فكَرِه الله ذلك، وتقدم فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدبٌ ثانٍ أَدَّبَ الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ [فوق صوته](١). وقد رُوِيَ أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ﵄.

وقال البخاري: حدثنا يَسَرَةُ(٢) بن صَفْوان اللَّخْمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر ﵄ رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه رَكْبُ بني تميم، فأشار أحدهما بالأَقْرَع بن حَابِس أخي بني مُجَاشع، وأشار الآخر برجلٍ آخر -قال نافع: لا أحفظ اسمه- فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. قال: ما أردتُ [خلافك](٣). فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتىٰ يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه(٤): يعني أبا بكر ﵁(٥). انفرد به دون مسلم.

ثم قال البخاري: حدثنا حسن بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، حدثني ابن أبي مُلَيكة، أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قَدم رَكْبٌ من بني تميم علىٰ النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بن مَعْبدٍ. وقال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلىٰ -أو: إلا- خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتىٰ ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، حتىٰ انقضت الآية، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥](٦).

وهكذا رواه هاهنا منفردًا به أيضًا.

وقال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدثنا الفضل بن سَهْل(٧)، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حُصين بن عُمر، عن مُخَارق، عن طارق بن شهاب، عن أبىٰ بكرٍ الصديق قال: لما نزلت هذه

---

(١) ليست في (ز).

(٢) في (ز) غير منقوطة، وفي كثير من النسخ المطبوعة: (بُسْرَة)، وهو خطأ، فـ(يَسَرَة) من شيوخ البخاري، وهو من صغار التاسعة: ثقة.

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «صحيح البخاري».

(٤) لوحة (٢١٨/ أ).

(٥) رواه البخاري (٤٨٤٥).

(٦) رواه البخاري (٤٨٤٧).

(٧) في (ز): (الفضل بن سهيل).

الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السِّرَار [١].

حُصين بن عُمر هذا -وإن كان ضعيفًا- لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة ﷺ بنحو ذلك، والله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أَزْهَر بن سَعْد، أخبرنا ابن عَوْن، أنبأني موسىٰ بن أنس، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ افتقد ثَابت بن قَيْس، فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده في بيته مُنكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حَبِطَ عمله، فهو من أهل النار. فأتىٰ الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسىٰ: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارةٍ عظيمةٍ فقال: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**» [٢]. تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، إلىٰ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشَّمَّاس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي علىٰ رسول الله ﷺ [حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينًا، ففقده رسول الله ﷺ] [٣]، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ [٤]، مَا لَكَ؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول؛ حَبِطَ عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «**لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**». قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قَيس بن شَمَّاس، وقد تَحَنَّط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم. فقاتلهم حتىٰ قُتل [٥].

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبة، حدثنا الحسن بن موسىٰ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن ثابتٍ البُناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، إلىٰ آخر الآية، جلس ثابتٌ في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لسعد بن مُعاذ: «**يَا أَبَا عَمْرٍو** [٦]، **مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ أَشْتَكَىٰ؟**»، فقال سعد: إنه لجاري،

---

(١) رواه البزار (٥٦)، وإسناده ضعيف، وعلته حصين بن عمر: متروك، وقد ثبت الحديث من رواية أبي هريرة: رواه الحاكم (٢/ ٥٠١) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
والسِّرَار: المسارة؛ أي: كصاحب السرار، أو: كمثل المسارة لخفض صوته.

(٢) البخاري (٤٨٤٦).

(٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (٢١٨/ ب).

(٥) رواه أحمد (٣/ ١٣٧)، وإسناده صحيح.

(٦) في (ز): (فقال: يا أبا عمرو).

وما علمت له بشكوىٰ. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا علىٰ رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١).

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيدٍ الدَّارمي، عن حَيَّان بن هلال، عن سليمان بن المُغيرة به، قال: ولم يذكر سعد بن معاذ. وعن قَطَن(٢) بن نُسَيرٍ، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ.

حدثنا هُرَيم بن عبد الأعلىٰ الأَسَدي، حدثنا المُعْتَمر(٣) بن سليمان، سمعت أبي يذكر عن [ثابت، عن](٤) أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتص الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة.

فهذه الطُّرق الثلاث مُعَلِّلةٌ لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجودًا؛ لأنه كان قد مات بعد بني قُرَيظة بأيامٍ قلائل سنة خمسٍ، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا زيد بن الحُبَابِ، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت(٥) بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، قال: قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العَجلان، فقال: ما يُبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوفُ أن تكون نزلت فيَّ وأنا صَيِّت رفيع الصوت. قال: فمضىٰ عاصم بن عدي إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: وغلبه البكاء، فأتىٰ امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أُبَي بن سَلُول فقال لها: إذا دخلتُ بَيْتَ فَرَسي فشدّي عَلَيّ الضبَّة بمسمار، فضربته بمسمار حتىٰ إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتىٰ يتوفاني الله ﷻ، أو يرضىٰ عني رسول الله ﷺ. قال: وأتىٰ عاصم رسولَ الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «**اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي**». فجاء عاصم إلىٰ المكان فلم يجده، فجاء إلىٰ أهله فوجده في بيت الفَرَسِ، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: اكسر الضبة. قال: فخرجا فأتيا النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟**». فقال: أنا صيت، وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيَّ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾. فقال له رسول الله ﷺ: «**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟**». فقال: رضيتُ ببشرىٰ(٦) الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبدًا علىٰ صوت النبي ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ

---

(١) رواه مسلم (١١٩).
(٢) في (ز): (مطر بن بشير)، وهو خطأ.
(٣) في (ز): (زهير بن سليمان)، وهو خطأ.
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت في «صحيح مسلم».
(٥) لوحة (٢١٩/ أ).
(٦) في (ز): (بشير الله).

﴿الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(١)]. الآية.

وقد ذكر هذه القصة غير واحدٍ من التابعين كذلك، فقد نهىٰ الله ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد رُوِّينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا[(٢)].

وقال العلماء: يُكْره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترمٌ حيًّا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا. ثم نهىٰ عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه[(٣)]، بل يخاطب بسكينةٍ ووقارٍ وتعظيمٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣].

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيُحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في «الصحيح»: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا يُكْتَبُ لَهُ بِهَا الجَنَّةُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»[(٤)].

ثم نَدَبَ اللهُ ﷻ إلىٰ خفض الصوت عنده، وحَثَّ علىٰ ذلك، وأرشد إليه ورغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ -أي: أخلصها لها وجعلها أهلًا ومحلًّا- ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد في «كتاب الزهد»: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيان، عن منصور، عن مُجاهد، قال: كُتِبَ إلىٰ عمر: يا أمير المؤمنين، رجلٌ لا يشتهي المَعْصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجلٌ يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر ﵁: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[(٥)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

---

(١) رواه الطبري (٢٦/ ١١٨)، وفيه إسماعيل بن محمد وأبو ثابت، أوردهما ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولم يذكر فيهما جرحًا ولا تعديلًا، وإسماعيل ذكره ابن حبان في الثقات، والحديث ضعفه الألباني بعلل: الاضطراب، والانقطاع، والجهالة في مبحث طويل. انظر «السلسلة الضعيفة» (٣٦٩٨).

تنبيه: أصل الحديث الذي فيه بشارة النبي ﷺ لثابت بالجنة وخوف ثابت من رفع الصوت ثابت في «الصحيحين»؛ البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩).

(٢) البخاري (٤٧٠)، والبيهقي (١٠/ ١٠٣).

(٣) لوحة (٢١٩/ ب).

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٥) عزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٥٥٢) لأحمد في «الزهد».

ثم إنه تعالىٰ ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات -وهي بيوت نسائه- كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أرشد إلىٰ الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيًا لهم إلىٰ التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد ذُكر أنها نزلت في الأَقْرَع بن حَابس التميمي، فيما أورده غير واحدٍ، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وُهَيْبٌ، حدثنا موسىٰ بن عُقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس؛ أنه نادىٰ رسول الله ﷺ [من وراء الحجرات][(١)]، فقال: يا محمد، يا محمد -وفي رواية: يا رسول الله- فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حَمْدِي لزَيْن، وإن ذَمّي لَشَيْن، فقال[(٢)]: «ذَاكَ اللهُ ﷻ»[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عَمَّار الحسين بن حُرَيْث المَرْوزي، حدثنا الفَضْل بن موسىٰ، عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾، قال: جاء رجلٌ الي رسول الله فقال: يا محمد، إن حَمْدي زَين، وذَمي شَين. فقال: «ذَاكَ اللهُ ﷻ»[(٤)].

وهكذا ذكره الحسن البصري وقتادة مُرسلًا.

وقال سُفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عَمْرَةَ قال: كان بِشْرُ بن غالب ولَبِيد بن عُطَارِد -أو: بشر بن عطارد ولبيد بن غالب -وهما عند الحَجَّاج جالسان- فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾، قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جُبير فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات:١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك[(٥)] بنو أسد[(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن علي البَاهِلي، حدثنا المُعْتمر بن سليمان، سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البَجَلي، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناسٌ من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلىٰ هذا الرجل، فإن يكُ نبيًّا فنحن أسعد [الناس به][(٧)]، وإن يكُ ملكًا نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاءوا إلىٰ حجرته فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ [بأذني فمدها، فجعل][(٨)] يقول: «لَقَدْ صَدَّقَ اللهُ قَوْلَكَ يَا زَيْدُ،

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٢٢٠/ أ).

(٣) **صححه الألباني:** رواه أحمد (٣/ ٤٨٨)، والطبراني (١/ ٣٠٠/ ٨٧٨).

(٤) رواه الترمذي (٣٢٦٣)، والطبري (٢٦/ ١٢١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٥١٥)، وانظر الحديث السابق.

(٥) في (ز): (ولم يباطل). (٦) رواه الطبري (٢٦/ ٧٧).

(٧) سقط من (ز). (٨) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «تفسير الطبري»، ولم أجدها عند «ابن أبي حاتم».

لَقَدْ صَدَّقَ اللهُ قَوْلَكَ يَا زَيْدُ»[١]. ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عَرَفة، عن المُعْتمر بن سليمان به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

يأمر تعالىٰ بالتثبت في خبر الفاسق ليُحتَاطَ له؛ لئلا يحكم بقوله فيكون -في نفس الأمر- كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفىٰ وراءه، وقد نهىٰ الله عن اتباع سبيل المُفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر[٢]، وقَبِلَهَا آخرون؛ لأنا إنما أُمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق؛ لأنه مجهول الحال. وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط[٣]، حين بعثه رسول الله ﷺ علىٰ صدقات بني المُصْطلق. وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» من رواية ملك بني المُصْطلق، وهو الحَارِث بن ضِرَار[٤]، والد جُويرية[٥] بنت الحارث، أم المؤمنين ﵂ قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسىٰ بن دينار، حدثني أبي، أنه سمع الحارث بن ضرار الخُزَاعي يقول: قدمت علىٰ رسول الله ﷺ فدعاني إلىٰ الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلىٰ الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلىٰ الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويُرسل إليَّ رسول الله رسولًا لإبَّان كذا وكذا[٦] ليأتيك بما جَمَعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سُخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٢٦/ ١٢١)، وفيه داود الطفاوي: لين الحديث، وشيخه أبو مسلم: مقبول.
(٢) لوحة (٢٢٠/ ب).
(٣) طعن فريق من أهل العلم في هذا، واعترض علىٰ الحافظ ابن كثير لإيراده ذلك دون التعقيب عليه، وذلك لكلام في الأسانيد التي نقلت بها، ولمكانة الوليد بن عقبة عند الصحابة، وخاصة أبي بكر وعمر ﵄، وراجع في ذلك: «التحبير للأوهام والتنبيهات الواردة في تفسير ابن كثير» لهاني الحاج (ص:١٠٥-١٠٨).
(٤) في (ز): (الحارث بن أبي ضرار).
(٥) في (ز): (ميمونة).
(٦) لإبان كذا، بكسر الهمزة، وتشديد الباء الموحدة، أي: لوقت كذا.

بسَرَوَات[١] قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّتَ لي وقتًا يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْفُ، ولا أرىٰ حبس رسوله إلا من سخطةٍ كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عُقبة إلىٰ الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتىٰ بلغ بعض الطريق فَرَق [-أي: خاف-][٢]، فرجع فأتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب[٣] رسول الله ﷺ البعث إلىٰ الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتىٰ إذا استقبل البعث وفَصَلَ عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلىٰ من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق[٤] ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث علىٰ رسول الله ﷺ قال: «مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟». قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسُولُ رسُولِ الله ﷺ، خشيتُ أن يكون كانت سخطةً من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾، إلىٰ قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾[٥].

ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر[٦] بن شَاذان التَّمَّار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضِرَار، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا جعفر بن عَوْنٍ، عن موسىٰ بن عُبيدة، عن ثابت مولىٰ أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلًا في صدقات بني المصطلق بعد الوقيعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلىٰ رسول الله فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلىٰ الظهر، فقالوا:

---

(١) أي: أشرافهم، ورؤسائهم.
(٢) سقط من (ز).
(٣) ضرب بعثًا: أي أرسل بعثًا إليه.
(٤) لوحة (٢٢١/ أ).
(٥) حسن لغيره: رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني (٣/ ٣١٠)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٤٥٧)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢٠٨١ -بتحقيقي)، وفيه دينار والد عيسىٰ فهو مجهول، وقد تفرد بالرواية، قال ابن المديني: لا أعرفه، والحديث أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٧، ٨٨)، وقال: «أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسندٍ جيدٍ»، وصححه الألباني، وسكت عنه الحافظ في «الإصابة». انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني. وله شواهد؛ فقد رواه الطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٢٣)، والبيهقي (٩/ ٥٤)، من حديث أم سلمة، وفيه ضعف، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٠٩) من حديث جابر، وفيه ضعف، ورواه في «الكبير» (١٨/ ٤) من حديث علقمة بن ناجية، وفيه ضعف. انظر الروايات الآتية.
(٦) في (ز): (البدر بن شاذان).

نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلًا مُصَدِّقًا[(١)]، فسُررنا بذلك وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبًا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتىٰ جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[(٢)].

وروىٰ ابن جريرٍ أيضًا من طريق العَوْفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط إلىٰ بني المُصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسولَ رسولِ الله ﷺ، وإنه لما حُدِّثَ الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضبًا شديدًا، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم[(٣)] إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتابٌ جاء منك لغضبٍ غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبي ﷺ استغشهم وهَمَّ بهم، فأنزل الله عذرهم في الكتاب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ إلىٰ آخر الآية[(٤)].

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلىٰ بني المصطلق ليُصدّقهم[(٥)]، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك -زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام- فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتىٰ أتاهم ليلًا فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالدًا أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأىٰ الذي يعجبه، فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «**التَّبَيُّنُ مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[(٦)].

وكذا ذكر غير واحدٍ من السلف، منهم: ابن أبي ليلىٰ، ويزيد بن رُومان، والضحاك، ومقاتل بن حَيَّان، وغيرهم في هذه الآية: أنها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمُّ من رأيكم

---

(١) المُصدق: جامع الزكاة.

(٢) رواه الطبري (٢٦/ ١٢٣)، والبيهقي (٩/ ٥٤)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف، وانظر ما قبله.

(٣) لوحة (٢٢١/ ب).

(٤) رواه الطبري (٢٦/ ١٢٣)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس. وانظر ما قبله.

(٥) أي: ليجمع منهم الزكاة.

(٦) رواه الطبري (٢٦/ ١٢٤)، والإسناد مرسل.
وأما قوله: «التبين من الله، والعجلة من الشيطان» فحسن لغيره، له شاهد من حديث أنس، رواه أبو يعلىٰ (٤٥٠١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٧٢).

لأنفسكم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

ثم بيَّن تعالىٰ أن رأيهم سخيفٌ بالنسبة إلىٰ مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدىٰ ذلك إلىٰ عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: حببه إلىٰ نفوسكم، وحسنه في قلوبكم.

قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزٌ، حدثنا علي بن مَسْعَدَةَ، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، وَالإِيمَانُ فِي القَلْبِ»، قال: ثم يُشير بيده إلىٰ صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التَّقْوَىٰ هَاهُنَا، التَّقْوَىٰ هَاهُنَا»[(١)].

﴿وَكَرَّهَ[(٢)] إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ [وَٱلْعِصْيَانَ﴾ أي: وبغَّض إليكم الكفر والفسوق][(٣)]، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان، وهي: جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة.

وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن[(٤)] المكي، عن ابن[(٥)] رفاعة الزُّرَقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّىٰ أُثْنِي عَلَىٰ رَبِّي ﷻ»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ، وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ المُقِيمَ الَّذِي لا يَحُولُ وَلا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ العَيْلَةِ[(٦)]، وَالأَمْنَ يَوْمَ الخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَمِنْ شَرِّ مَا مَنَعْتَنَا، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢): رجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي وأبو حاتم وابن معين، وضعفه آخرون.
قلت: ضعفه البخاري والنسائي وأبو داود والعقيلي، وخلاصة القول فيه: أنه لا يصح تفرده فالإسناد ضعيف، وأما قوله: «التقوىٰ هاهنا» فصحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٨٨)، ورواه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤٢١٣).

(٢) لوحة (٢٢٢/ أ).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (عبد الواحد بن أنس)، وهو خطأ.

(٥) في (ز): (أبي رفاعة)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) العيلة: الافتقار.

الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ، إِلَهَ الحَقِّ»(١).

ورواه النسائي في «اليوم والليلة» عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْد بن رِفاعة، عن أبيه به. وفي الحديث المرفوع: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ»(٢).

ثم قال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾؛ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضلٌ منه عليكم، ونعمةٌ من لدنه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عليمٌ بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيمٌ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾

يقول تعالىٰ آمرًا بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم علىٰ بعض: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ(٣) مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره علىٰ أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت(٤)، لا(٥) كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في «صحيح البخاري» من حديث الحسن، عن أبي بَكْرَة أن رسول الله ﷺ خطب يومًا ومعه علىٰ المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلىٰ الناس أخرىٰ ويقول: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ»(٦). فكان كما قال -صلوات الله وسلامه عليه- أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة، والواقعات(٧) المهولة(٨).

وقوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: حتىٰ ترجع إلىٰ أمر الله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في «الصحيح» عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «انْصُرْ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٢٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٤٤٥)، والطبراني (٥/ ٤٧/ ٤٥٤٩)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢٥): رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح. ورواه الحاكم (١/ ٥٠٦) وصححه علىٰ شرطهما، وتعقبه الذهبي فإنهما لم يخرجا لعبيد وهو ثقة، ثم قال: والحديث مع نظافة إسناده منكر أخاف أن يكون موضوعًا، رواه عن خلاد بن أبي سبرة، وتعقبه الألباني علىٰ «فقه السيرة» (٢٧٥) فقال: ولم أعرف لقوله وجهًا.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٦). (٣) لوحة (٢٢٢/ ب).

(٤) إلا بالذنوب التي نَصَّ العلماء بالأدلة علىٰ أنها مُكَفِّرة وتنقض الإسلام، كَسَبِّ الله ورسوله، والاستهزاء بالدين، وموالاة أعداء الإسلام... وغير ذلك. راجع: «شروح الطحاوية» علىٰ قول الماتن: «ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب...»، و«الإعلام بقواطع الإسلام» لابن حجر الهيتمي، و«شروح نواقض الإسلام»، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» للشيخ الدكتور/ عبد العزيز آل عبد اللطيف حَفِظَهُ اللهُ.

(٥) في (ز): (إلا كما يقول). (٦) البخاري (٢٧٠٤).

(٧) في (ز): (الوقعات). (٨) في (ز): (المفتولة).

أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ»(١).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث أن أنسًا قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سَبَخَة، فلما انطلق إليه النبيُّ ﷺ قال: إليكَ عَنِّي، فَوَاللهِ لَقَدْ آذَانِي رِيحُ حِمَارِكَ، فقال رجلٌ من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾(٢).

ورواه البخاري في «الصلح» عن مُسَدَّدٍ، ومسلم في «المغازي» عن محمد بن عبد الأعلىٰ، كلاهما عن المُعْتمر بن سُليمان، عن أبيه به نحوه(٣).

وذكر سعيد بن جُبير: أن الأَوْسَ والخَزْرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما(٤).

وقال السُّدِّي: كان رجلًا من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعىٰ: أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيَّة(٥) له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلىٰ أهلها، فجاء قومها [وأنزلوها(٦) لينطلقوا](٧) بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا(٨) بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاءوا إلىٰ أمر الله(٩).

وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط -وهو العدل- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلىٰ، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المُقْسِطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ، بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا»(١٠).

---

(١) البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤)، والترمذي (٢٢٥٥).
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٥٧)، والبخاري (٢٦٩١).
(٣) البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩).
(٤) رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٠٩)، والإسناد مرسل.
(٥) العُلية: الغرفة.
(٦) لوحة (٢٢٣/ أ).
(٧) في (ز): (وأهلوها يتطلبوا).
(٨) في (ز): (ليحوموا).
(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٨٦١٠)، وإسناده مرسل كسابقه.
(١٠) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٥٩)، وانظر الرواية التي بعده.

ورواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى به. وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح[١].

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أَوْس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**المُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَىٰ يَمِينِ العَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[٢].

ورواه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة به.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ**»[٣]. وفي «الصحيح»: «**وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[٤]. وفي «الصحيح» أيضًا: «**إِذَا دَعَا المُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ قَالَ المَلَكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ**»[٥]. والأحاديث في هذا كثيرة، وفي «الصحيح»: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ**»[٦]. وفي «الصحيح» أيضًا: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»[٧].

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن[٨] ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد السَّاعِدي يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ المُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ، يَأْلَمُ المُؤْمِنُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ، كَمَا يَأْلَمُ الجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ**»[٩]. تفرد به، ولا بأس بإسناده.

وقوله[١٠]: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: الفئتين المقتتلتين، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

---

(١) صحيح: رواه النسائي في «الكبرى» (٥٩١٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٨/ ٢٢١)، وأحمد (٢/ ١٦٠).

(٣) روا البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٥) رواه مسلم (٢٧٣٢).

(٦) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٧) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٨) في (ز): (مصعب عن ثابت)، وهو خطأ.

(٩) رواه أحمد (٥/ ٣٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٤٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٦٩٣)، وإسناده ضعيف، وعلته: مصعب بن ثابت: لين الحديث.

وله شاهد من حديث النعمان بن بشير: رواه مسلم (٢٥٨٦) نحوه.

(١٠) لوحة (٢٢٣/ ب).

ينهىٰ تعالىٰ عن السُّخرية بالناس، وهو احتقارهم[١] والاستهزاء بهم، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ»، ويُرْوَىٰ: «وَغَمْطُ النَّاسِ»[٢]. والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام؛ فإنه قد يكون الْمُحْتَقَرُ أعظم قدرًا عند الله وأحب إليه مِنَ السَّاخر منه الْمُحْتَقِرِ له؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ﴾، فنصَّ علىٰ نهي الرجال وعطف بنهي النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل، واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم:١١]، أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة، وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومُقَاتِل ابن حَيَّان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا يطعن[٣] بعضكم علىٰ بعض[٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾؛ أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هِنْد، عن الشَّعبي قال: حدثني أبو جَبِيرة ابن الضَّحَّاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثةٌ، فكان إذا دُعِيَ أحدٌ منهم باسمٍ من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[٥].

ورواه أبو داود عن موسىٰ بن إسماعيل، عن وُهَيْبٍ، عن داود به.

وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو: التنابز بالألقاب -كما كان أهل الجاهلية يتناعتون[٦]- بعدما دخلتم في[٧] الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ -أي: من هذا- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتٗا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

يقول تعالىٰ ناهيًا عباده المؤمنين عن كثيرٍ من الظن، وهو التهمة والتخون[٨] للأهل والأقارب

---

(١) في (ز): (استحقارهم).
(٢) رواه مسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وابن ماجه (٥٩).
(٣) في (ز): (لا يظفر).
(٤) الحاكم (٢/ ٥٠٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٩).
(٥) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٦٩)، وأبو داود (٤٩٦٢).
(٦) في (ز): (يتعانون).
(٧) لوحة (٢٢٤/ أ).
(٨) في (ز): والتمرن.

والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا، ورُوِّينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تَظُنن بكلمةٍ خرجت من أخيك[١] المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً[٢].

وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضَمْرة -نَصْر بن محمد بن سليمان- الحِمْصي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن [أبي][٣] قيس النَّضري، حدثنا عبد الله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالُهُ وَدَمُهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا[٤]». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه[٥].

وقال مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، [وَلَا تَحَسَّسُوا][٦]، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[٧].

رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيىٰ بن يحيىٰ، [وأبو داود عن العتبي][٨]، ثلاثتهم عن مالك به.

وقال سُفيان بن عُيينة، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»[٩].

رواه مسلم، والترمذي وصححه، من حديث سفيان بن عُيينة، به.

وقال الطبراني رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله القِرْمِطي العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ لَازِمَاتٌ لِأُمَّتِي: الطِّيَرَةُ، وَالحَسَدُ،

---

(١) في (ز): (أصل).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٢٣)، والخطيب في «التاريخ»، وإسناده منقطع بين سعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب.

(٣) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٤) في (ز): (إلا خيرٌ).

(٥) حسن لغيره: رواه ابن ماجه (٣٩٣٢)، وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٢٣): هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد: ضعفه أبو حاتم، وذكره ابن حبان في «الثقات». والحديث رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٧/ ١٠٩٦٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٠٦) من طرق لا يخلو كل منهما من ضعف، وبمجموع الطرق والشواهد حسَّن الألباني الحديث في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢٠).

(٦) سقط من (ز).

(٧) رواه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٨) في (ز): (وأبو داود وغيره والعنسي).

(٩) رواه البخاري (٦٠٧٦)، ومسلم (٢٥٥٩).

وَسُوءُ الظَّنِّ». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إِذَا حَسَدْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَأَمْضِ»(١). وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة(٢)، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن زيد قال: أُتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل، فقيل له: هذا فُلان تقطر لحيته خمرًا. فقال عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به(٣).

سَمَّاه ابن أبي حاتم في روايته: الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا هاشم، حدثنا لَيْثٌ، عن إبراهيم بن نَشِيطٍ الخَوْلاني، عن كعب ابن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دُخَيْنٍ كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانًا يشربون الخمر، وأنا داعٍ لهم الشُّرَطَ فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عِظْهُم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُخَيْنٌ فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داعٍ لهم الشُّرَط فتأخذهم. [قال: لا تفعل، ولكن عِظْهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم](٤). فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحْيَا مَوْءُودَةً مِنْ قَبْرِهَا»(٥).

ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد به نحوه.

وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ»، أو: «كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها. رواه أبو داود منفردًا به من حديث الثوري به(٦).

وقال أبو داود أيضًا: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَمُ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْرٍ، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب، وأبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ(٧) فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ»(٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضًا. والتَّجَسُّس -غالبًا- يطلق في الشر، ومنه: الجاسوس. وأما التَّحَسُّس فيكون -غالبًا- في الخير، كما قال تعالى إخبارًا عن يعقوب عليه السلام أنه

---

(١) في (ز): (فأغض). والحديث ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٢)، وفيه إسماعيل بن قيس: ضعيف.

(٢) لوحة (٢٢٤/ ب).

(٣) صححه الألباني: رواه أبو داود (٤٨٨٨).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت في «المسند».

(٥) ضعيف: رواه أبو داود (٤/ ٢٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٢٨٣)، وأحمد (٤/ ١٥٣)، وفيه أبو الهيثم: مقبول.

(٦) إسناده صحيح: رواه أبو داود (٤٨٨٨)، وصححه الألباني.

(٧) في (ز): (ابتغى القرينة).

(٨) صحيح لغيره: رواه أبو داود (٤٨٨٩)، وفيه سعيد بن عمرو الحضرمي: مقبول، ويشهد له ما تقدم.

قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١).

وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلىٰ حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع علىٰ أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم(٢). رواه ابن أبي حاتم عنه(٣).

وقوله: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ فيه نهي عن الغِيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»(٤).

ورواه الترمذي عن قُتيبة، عن الدَّرَاوَرْدي به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَارٍ، عن غُنْدَرٍ، عن شعبة، عن العلاء. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرَّة.

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيىٰ، عن [سُفيان](٥)، حدثني علي بن الأقمر(٦)، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حَسْبُكَ من صَفِية كذا وكذا! -قال غير مسدد: تعني قصيرة- فقال: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**(٧)». قالت: وحكيتُ له إنسانًا(٨)، فقال ﷺ: «**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا، وَإِنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»(٩).

ورواه الترمذي من حديث يحيىٰ القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِيّ، ووَكِيع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأقمر، عن أبي حُذَيفة سَلَمة بن صُهَيبة الأرحبي، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح.

وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشَّوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسَّان بن المُخَارق؛ أن امرأة دخلت علىٰ عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلي النبي أي: إنها قصيرة؛ فقال النبي ﷺ «**اغْتَبْتِيهَا**»(١٠).

---

(١) صحيح: تقدم قريبًا. (٢) أي: أن يهجر كل واحد صديقه أو أخاه.

(٣) لوحة (٢٢٥/ أ).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٥). ورواه مسلم (٢٥٨٩) نحوه.

(٥) بياض في (ز). (٦) في (ز): (الأحمر)، وهو خطأ.

(٧) أي: غيرته عن حاله.

(٨) أي: عملت مثل فعله.

(٩) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٤٠٥).

(١٠) الطبري (١٦/ ١٣٦)، وفيه: حسان بن مخارق، ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣/ ٢٣٥)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

والغِيبَة مُحرمة بالإجماع، ولا يستثنىٰ من ذلك إلا ما رجحت مصلحته[١]، كما في الجَرْح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «**ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ**»[٢]، وكقوله لفاطمة بنت قيس -وقد خطبها معاوية وأبو الجهم-: «**أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ**[٣]، **وَأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ**»[٤]. وكذا ما جرىٰ مجرىٰ ذلك. ثم بقيتها علىٰ التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالىٰ بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «**كَالكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ**»[٥]، وقد قال: «**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ**». وثبت في الصحاح والحِسان والمَسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»[٦].

وقال أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلىٰ، حدثنا أَسْبَاط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَىٰ المُسْلِمِ حَرَامٌ؛ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ**»[٧].

ورواه الترمذي عن عُبيد بن أَسْباط بن محمد، عن أبيه به. وقال: حسن غريب.

وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله بن جُريج[٨]، عن أبي بَرْزَة الأَسْلَمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ**

---

(١) **قال النووي** رحمه الله: اعلم أن الغيبة تُباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو بستة أسباب:... فذكرها، وهي مجموعة في قول الناظم:

الــذَّمُّ لــيس بغيبــةٍ في ســتةٍ ... مــتظلمٍ، ومُعَــرِّفٍ، ومُحَــذِّرِ

ولمُظْهِــرٍ فــسقًا، ومــستفتٍ ومــن ... طلــب الإعانــةَ في إزالــة مُنكــرِ

ينظر: كلام النووي في «رياض الصالحين» (ص/ ٥٢٥) ط المكتب الإسلامي، والأبيات في «سبل السلام» للصنعاني (٤/ ٥٥٧) ط العاصمة، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٠٤)، و«شرح مسلم» (١٦/ ١٤٢)، و«رفع الريبة» للشوكاني (٦/ ٥٥٥٦ - الفتح الرباني).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

(٣) أي: فقير.

(٤) أي: إنه كثير الضرب للنساء، وقيل: كثير السفر، والحديث رواه مسلم (١٤٨٠).

(٥) لوحة (٢٢٥/ ب)، رواه البخاري (٢٦٢٢)، ومسلم (١٦٢٢).

(٦) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٧) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٨٨٢)، والترمذي (١٩٢٨).

(٨) في (ز): (عبد الله بن خديج)، وهو خطأ، و(سعيد بن عبد الله بن جريج هو الأسلمي مولىٰ أبي برزة).

يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»(١).

تفرد به أبو داود. وقد رُوِي من حديث البَرَاء بن عَازِب، فقال الحافظ أبو يَعْلىٰ في «مسنده»: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مُصعب بن سلام، عن حمزة بن حَبيب الزيات، عن أبي إسحاق السَّبيعي(٢)، عن البراء بن عازب قال: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ حتىٰ أسمع العَوَاتِق في بيوتها -أو قال: في خُدُورها- فقال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتْبَعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»(٣).

طريقٌ أخرىٰ عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيىٰ بن أَكْثم، حدثنا الفضل بن موسىٰ الشيباني، عن الحسين بن وَاقِد، عن أَوْفىٰ(٤) بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتْبَعْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ». قال: ونظر ابن عمر يومًا إلىٰ الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حُرمتك، وللمؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك(٥).

قال أبو داود: وحدثنا حَيْوَة(٦) بن شُرَيْح، حدثنا بَقِيَّةُ، عن [ابن](٧) ثوبان، عن أبيه، عن مَكْحُول، عن وَقَّاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه(٨): أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً فَإِنَّ اللهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا فِي جَهَنَّمَ، وَمَنْ كُسِيَ ثَوْبًا بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ فِي جَهَنَّمَ، وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ فَإِنَّ اللهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». تفرد به أبو داود(٩).

وحدثنا ابن مُصَفىٰ، حدثنا بقية وأبو المغيرة قالا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرَائِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(١٠).

---

(١) حسن صحيح: رواه أبو داود (٤٨٨٠).

(٢) في (ز): (عن أبي إسحق الزيات السبيعي)، وهو خطأ.

(٣) رواه أبو يعلىٰ (١٦٧٥)، وهو شاهد لما قبله.

(٤) في (ز): (أول بن دلهم).

(٥) حسن صحيح: رواه الترمذي (٢٠٣٢) وقال: غريب. وهو شاهد لما قبله، وقول ابن عمر: (ما أعظمك وأعظم حرمتك) تقدم نحوه مرفوعًا؛ وهو حسن لغيره.

(٦) في (ز): (حبرة بن شريح)، وهو خطأ.

(٧) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٨) لوحة (٢٢٦/ أ).

(٩) صححه الألباني: رواه أبو داود (٤٨٨١)، وأورد الألباني طرقه في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٤).

(١٠) حسن: رواه أبو داود (٤٨٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٤).

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المُغيرة -عبد القدوس بن الحجاج- الشامي، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عَبْدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمِّي، حدثنا أبو هارون العَبْديّ، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أُسريَ بك؟ قال: «ثُمَّ انْطُلِقَ بِي إِلَىٰ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ كَثِيرٌ، رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُوَكَّلٌ بِهِمْ رِجَالٌ يَعْمَدُونَ إِلَىٰ عُرْضِ جَنْبِ أَحَدِهِمْ فَيَحْذُونَ مِنْهُ الحُذْوَةَ[١] مِنْ مِثْلِ النَّعْلِ ثُمَّ يَضَعُونَهُ فِي فِيِّ أَحَدِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: كُلْ كَمَا أَكَلْتَ، وَهُوَ يَجِدُ مِنْ أَكْلِهِ المَوْتَ، يَا مُحَمَّدُ، لَوْ يَجِدُ المَوْتَ وَهُوَ يُكْرَهُ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ: يَا جِبْرَائِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الهَمَّازُونَ اللَّمَّازُونَ أَصْحَابُ النَّمِيمَةِ. فَيُقَالُ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وَهُوَ يُكْرَهُ عَلَىٰ أَكْلِ لَحْمِهِ»[٢].

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير «سورة سُبحان»، ولله الحمد.

وقال أبو داود الطيالسي في «مسنده»: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يومًا ولا يُفطرن أحدٌ حتىٰ آذن له. فصام الناس، فلما أمسوا[٣] جعل الرجل يجيء إلىٰ رسول الله ﷺ فيقول: [ظللت][٤] منذ اليوم صائمًا، فائذن لي فأفطر، فيأذن له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتىٰ جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين فائذن لهما فَلْيفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «مَا صَامَتَا، وَكَيْفَ صَامَ مَنْ ظَلَّ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ؟ اذْهَبْ، فَمُرْهُمَا[٥] إِنْ كَانَتَا صَائِمَتَيْنِ أَنْ يَسْتَقِيئَا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقةً علقةً[٦]، فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ مَاتَتَا وَهُمَا فِيهِمَا لأَكَلَتْهُمَا النَّارُ»[٧].

إسنادٌ ضعيفٌ، ومتنٌ غريبٌ. وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون، حدثنا سليمان التيمي، قال: سمعت رجلًا يحدث في مجلس أبي عثمان النَّهْدي عن عبيد -مولىٰ رسول الله- أن امرأتين صامتا علىٰ عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلًا أتىٰ رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش -أُراهُ قال: بالهاجرة- فأعرض عنه -أو: سكت عنه- فقال: يا نبي الله، إنهما -والله- قد ماتتا أو كادتا تموتان. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال:

---

(١) الحذو: القطع والتقدير؛ أي: يقطعون منه القطعة.

(٢) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١٥/ ١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٠)، وفيه أبو هارون العبدي، قال الحافظ: متروك، ومنهم من كذبه.

(٣) في (ز): (فلما آمنوا).

(٤) سقط من (ز).

(٥) لوحة (٢٢٦/ ب).

(٦) العَلَقة: قطعة من الدم.

(٧) ضعيف: رواه الطيالسي (٢٢٢١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٩٦)، وفي إسناده يزيد الرقاشي: ضعيف.

فجيء بقدح -أو عُسّ- فقال لإحداهما: «قيئي» فقاءت من قيح ودم وصديد حتىٰ قاءت نصف القدح. ثم قال للأخرىٰ: قيئي فقاءت قَيْحًا ودمًا وصَديدًا ولحمًا ودمًا عبيطًا[١] وغيره حتىٰ ملأت القدح. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا علىٰ ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلىٰ الأخرىٰ فجعلتا تأكلان لحوم الناس[٢].

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون، وابن أبي عَدي، كلاهما عن سُليمان بن طَرْخان التيمي به، مثله أو نحوه. ثم رواه أيضًا من حديث مُسَدَّدٍ، عن يحيىٰ القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان، عن سعد -مولىٰ رسول الله ﷺ-أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: «**ادْعُهُمَا**». فجاء بعُس -أو: قَدَح- فقال لإحداهما: «**قِيئِي**»، فقاءت لَحْمًا ودمًا عبيطًا وقيحًا، وقال للأخرىٰ مثل ذلك، فقال: «**إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا، وَأَفْطَرَتَا عَلَىٰ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمَا، أَتَتْ إِحْدَاهُمَا لِلْأُخْرَىٰ فَلَمْ تَزَالَا تَأْكُلَانِ لُحُومَ النَّاسِ حَتَّىٰ امْتَلَأَتْ أَجْوَافُهُمَا قَيْحًا**»[٣].

وقال البيهقي: كذا قال «عن سعد»، والأول -وهو عُبيد- أصح.

وقال الحافظ أبو يَعْلَىٰ: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَدٍ، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْجٍ، أخبرني أبو الزبير، عن ابن عَمّ لأبي هريرة أن مَاعِزًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فأعرض عنه -قالها أربعًا- فلما كان في الخامسة قال: «**زَنَيْتَ**»؟ قال: نعم. قال: «**وَتَدْرِي مَا الزِّنَا؟**»[٤]، قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا. قال: «**مَا تُرِيدُ إِلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ؟**»، قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أَدْخَلْتَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا كَمَا يَغِيبُ المِيلُ**[٥] **فِي المُكْحُلَةِ وَالرِّشَاءُ**[٦] **فِي البِئْرِ؟**». قال: نعم يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرُجم، فسمع النبي ﷺ رجلين[٧] يقول أحدهما [لصاحبه][٨]: ألم تر إلىٰ هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتىٰ رُجمَ رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتىٰ مَرّ بجيفة حمارٍ فقال: «**أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الحِمَارِ**»، قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: «**فَمَا نِلْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا**

---

(١) **العبيط**: اللحم الطري غير النضيج.

(٢) **ضعيف**: رواه البيهقي في «الدلائل» (٦/ ١٨٦)، وفيه رجل لم يسم.

(٣) **ضعيف كسابقه**: رواه أحمد (٥/ ٤٣١)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٧١).

(٤) لوحة (٢٢٧/ أ).

(٥) **الميل**: العود الذي يكتحل به.

(٦) في (ز): «العصا»، واللفظ المثبت هو لفظ أبي داود (٤٤٢٩)، والذي عند أبي يعلىٰ (١٠/ ٥٢٤ برقم ٦١٤٠): «كما يغيب الميل في المكحلة والعصا في الشيء».

(٧) في (ز): (وجلس)، والمثبت من «مسند أبي يعلىٰ».

(٨) بياض في (ز)، والمثبت من «مسند أبي يعلىٰ».

آنِفًا أَشَدُّ أَكْلًا مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ الآنَ لَفِي أَنْهَارِ الجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا»[١] [إسناده صحيح][٢].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي، حدثنا وَاصِل -مولىٰ ابن عُيينة- حدثني خالد بن عُرْفُطَةَ، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة مُنتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ [المُؤْمِنِينَ]»[٣].

طريق أخرىٰ: قال عبد بن حُميد في «مسنده»: حدثنا إبراهيم بن الأشْعَث، حدثنا الفُضيل بن عياض، عن سُليمان، عن[٤] أبي سُفيان -وهو طلحة بن نافع- عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفرٍ فهاجت ريحٌ منتنةٌ، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ نَفَرًا مِنَ المُنَافِقِينَ اغْتَابُوا نَاسًا مِنَ المُسْلِمِينَ؛ فَلِذَلِكَ بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ»، وربما قال: «فَلِذَلِكَ هَاجَتْ هَذِهِ الرِّيحُ»[٥].

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: زعم أن سلمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ [في سفر][٦] يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائمًا، لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يجداه، فضربا الخِباء فقالا: ما يريد سلمان -أو: هذا العبد- شيئًا غير هذا: أن يجيء إلىٰ طعامٍ مقدورٍ[٧]، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلىٰ رسول الله ﷺ يطلب لهما إدامًا، فانطلق فأتىٰ رسول الله ﷺ ومعه قَدَحٌ له، فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لِتؤدِمَهم[٨] إن كان عندك؟ قال: «مَا يَصْنَعُ أَصْحَابُكَ بِالأُدْمِ؟ قَدِ ائْتَدَمُوا[٩]». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتىٰ أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا والذي بعثك بالحق، ما أصبنا طعامًا منذ نزلنا. قال: «إِنَّكُمَا قَدِ ائْتَدَمْتُمَا بِسَلْمَانَ بِقَوْلِكُمَا». قال: ونزلت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، إنه كان نائمًا[١٠].

وروىٰ الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» من طريق حبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضًا في الأسفار، وكان مع أبي

---

(١) **ضعيف**: رواه أبو داود (٤٤٢٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧١٦٤)، وفيه عبد الرحمن بن الصامت: مقبول؛ يعني: إذا توبع، والحديث ضعفه الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٤).

(٢) ليست في (ز).

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند»، والحديث حسن لغيره: رواه أحمد (٣/ ٣٥٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢١٦)، و الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٨٩).

(٤) في (ز): (سليمان بن أبي سفيان).

(٥) **حسن**: رواه عبد بن حميد (١٠٢٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٣)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٨٧).

(٦) سقط من (ز).

(٧) أي: مطبوخ.

(٨) **الأُدْم**: ما يؤكل به مع الخبز، أيّ شيء كان، **وتؤدمهم**: تعطيهم الأدم.

(٩) لوحة (٢٢٧/ ب).

(١٠) **إسناده مرسل**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٧٠) إلىٰ ابن أبي حاتم.

بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعامًا، فقالا: إن هذا لنئوم[(١)]، فأيقظاه، فقالا له: ائت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأدمانك.

فقال: «**إِنَّهُمَا قَدِ ائْتَدَمَا**»، فجاءا فقالا: يا رسول الله، بأي شيء ائتدمنا؟ فقال: «**بِلَحْمِ أَخِيكُمَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرَىٰ لَحْمَهُ بَيْنَ ثَنَايَاكُمَا**». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله، فقال: «**مُرَاهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمَا**»[(٢)].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدثنا الحكم بن موسىٰ، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق، عن عمه موسىٰ بن يَسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا، قُرِّبَ لَهُ لَحْمُهُ فِي الآخِرَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: كُلْهُ مَيْتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا. قَالَ: فَيَأْكُلُهُ وَيَكْلَحُ**[(٣)] **وَيَصِيحُ**»[(٤)]. غريبٌ جدًّا.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقِبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: توابٌ علىٰ من تاب إليه، رحيمٌ بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم علىٰ ألا يعود. وهل يشترط الندم علىٰ ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يُشترط أن يتحلله؛ فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذىٰ أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذًا أن يُثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يَرُدَّ عنه الغِيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا [يحيىٰ بن][(٥)] أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيىٰ المعَافِريّ أخبره، أن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِيّ أخبره، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَمَىٰ مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ يَعِيبُهُ**[(٦)]**، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ نَارِ**[(٧)] **جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَىٰ مُؤْمِنًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ**[(٨)]**، حَبَسَهُ اللهُ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ**»[(٩)]. وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله -وهو ابن المبارك- به بنحوه.

---

(١) في (ز): «إن هذا لنوائيم نوم بينكم»، والمثبت من «الدر المنثور»، والذي في «المختارة»: «إن هذا لَيُوائم نوم نبيكم ﷺ» (٥/ ٧١ برقم ١٦٩٧).

(٢) صححه الألباني: رواه الضياء في «المختارة» (١٦٩١)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٨)

(٣) **الكُلوح والكُلاح**: بُدُوُّ الأسنان عند العبوس.

(٤) الطبراني في «الأوسط» (٢/ ١٨٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٧٨)، وفيه محمد بن إسحاق: مدلس، وقد عنعن؛ فالإسناد ضعيف، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» برقم (١٦٨٥).

(٥) بياض في (ز).

(٦) في (ز): (يغتبه)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٧) لوحة (٢٢٨/ أ).

(٨) في (ز): (يريد سبته)، والمثبت كما في «المسند».

(٩) حسنه الألباني: رواه أبو داود (٤٨٨٣)، وأحمد (٣/ ٤٤١) وفيه إسماعيل بن يحيىٰ المعافري: لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الذهبي: فيه جهالة، وذكر هذا الحديث من غرائبه، فالإسناد عندي ضعيف، وانظر: «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٦)، وفي «التعليق الرغيب» (٣/ ٣٠٢).

وقال أبو داود أيضًا: حدثنا إسحاق بن الصَّبَّاح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث: حدثني يحيىٰ بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ يُحِبُّ فِيهَا نُصْرَتَهُ، وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، [وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ][1]، إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ يُحِبُّ فِيهَا نُصْرَتَهُ»[2]. تفرد به أبو داود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مُخبرًا للناس أنه خلقهم من نفسٍ واحدةٍ، وجعل منها زوجها، وهما: آدم وحواء، وجعلهم شُعوبًا، وهي أعم[3] من القبائل، وبعد القبائل مراتب أُخر كالفَصَائل والعشائر والعمائر والأفخاذ[4] وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب بُطُون العَجَمِ، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه»[5] لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القَصْد والأمم، في معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية[6] إلىٰ آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية[7]، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالىٰ - بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبهًا علىٰ تساويهم في البشرية-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌّ يرجع إلىٰ قبيلته.

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «سنن أبي داود».
(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٤)، وفيه إسماعيل بن بشير، ويحيىٰ بن سليم: كلاهما مجهول.
(٣) في (ز): (أهم). (٤) في (ز): (والإتخاذ).
(٥) في (ز): (الأسباه). (٦) في (ز): (اللطينة).
(٧) وفي الأبيات المنسوبة لعلي بن أبي طالب ﷺ، وبعضهم ينسبها للشافعي:

الناس من جهة التمثال أكْفَاءُ	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم في أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم	علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال علىٰ الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيًّا به أبدا	فالناس موتىٰ وأهل العلم أحياء

وقال مجاهد في قوله ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا؛ أي: من قبيلة كذا وكذا.
وقال سفيان الثوري: كانت حِمْيَرُ ينتسبون إلىٰ مَخَاليفها[١]، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلىٰ قبائلها.

وقد قال أبو عيسىٰ الترمذي: حدثنا أحمد بن[٢] محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك بن عيسىٰ الثقفي، عن يزيد -مولىٰ المنبعث[٣]- عن أبي هريْرة، عن النبي ﷺ قال: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ؛ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ[٤]، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ**»[٥]. ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾؛ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوىٰ لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عَبْدَة، عن عُبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سُئِل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: [«**فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال][٦]: «**فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟**» قالوا: نعم. قال: «**فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**»[٧]. وقد رواه البخاري في غير موضع، من طرق عن عَبْدَة[٨] بن سليمان. ورواه النسائي[٩] في «التفسير» من حديث عبيد الله -وهو ابن عمر العمري- به.

حديث آخر: قال مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كَثِير بن هشام، حدثنا جعفر بن بَرْقَان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[١٠].

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سِنَان، عن كَثِير بن هشام به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «**انْظُرْ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَىٰ**»[١١]. تفرد به أحمد.

---

(١) المَخَاليف: جمع مِخْلَاف، وهو القرية.
(٢) في (ز): (حدثنا أحمد حدثنا محمد)، وهو خطأ.
(٣) لوحة (٢٢٨/ ب). (٤) أي: سبب لكثرة المال، ومنسأة في الأثر: يعني به الزيادة في العمر.
(٥) صححه الألباني: رواه الترمذي (١٩٨٠)، وفيه عبد الملك بن عيسىٰ الثقفي: مقبول كما في «التقريب»، لكن أورد الشيخ الألباني له شواهد وصححه. انظر: «الصحيحة» (٢٧٦).
(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت في «البخاري».
(٧) البخاري (٤٦٨٩)، ومسلم (٢٣٧٨).
(٨) في (ز): (عبيدة). (٩) النسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٤٩).
(١٠) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤١٤٣).
(١١) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ٢٥٨)، وفيه انقطاع بين بكر بن عبد الله المُزني وأبي ذر، ويشهد له حديث عقبة الآتي.

حديث آخر: وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عُبَيْدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جَبَلَة، حدثنا عُبيد بن حُنَين الطائي، سمعت محمد بن حَبيب بن خِرَاش العَصَرِيّ، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**المُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ، لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ**»(١).

حديث آخر: قال أبو بكر البَزَّار في «مسنده»: حدثنا أحمد بن يحيىٰ الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قَيْس -يعني: ابن الربيع- عن شبيب بن غَرْقَدَة، عن المُستظل بن حُصين، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ، وَلَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ بِآبَائِهِمْ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الجِعْلَانِ**»(٢).

ثم قال: لا نعرفه عن حُذيفة إلا من هذا الوجه.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا(٣) الربيع بن سُليمان، حدثنا أَسَدُ بن موسىٰ، حدثنا يحيىٰ بن زكريا القَطَّان، حدثنا مُوسىٰ بن عُبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة علىٰ ناقته القَصْواء يستلم الأركان بِمِحْجَنٍ(٤) في يده، فما وجد لها مُنَاخًا في المسجد حتىٰ نزل ﷺ علىٰ أيدي الرجال، فخرج بها إلىٰ بطن المَسِيل فأُنِيخَت؛ ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم علىٰ راحلته، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو له أهل ثم قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ**(٥) **الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَىٰ اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَىٰ اللهِ. إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**»، ثمَّ قال: «**أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ**»(٦).

هكذا رواه عَبْدُ بن حُميد، عن أبي عاصم الضحاك بن مَخْلَدٍ، عن موسىٰ بن عُبيدة به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن الحارث بن

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني (٤/ ٢٥/ ٣٥٤٧)، وفيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة: متروك، هذا من حيث الإسناد، ويكفي الاستدلال بالآية، وما ورد من الأحاديث الصحيحة في نفس المعنىٰ.

(٢) حسن لغيره: رواه البزار (٢٩٣٨)، وفيه الحسن بن الحسين العرني: ضعيف، وقيس بن الربيع: صدوق، تغير لما كبر، وأدخل في حديثه ما ليس منه فحدث به. ولكن للحديث شاهد من حديث أبي هريرة: رواه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وأحمد (١٠٧٨١ -رسالة)، وسنده حسن.
والجعلان: جمع جُعَل، وهي دويبة.

(٣) لوحة (٢٢٩/ أ). (٤) **المِحْجَن**: عصا معقفة الرأس. (٥) أي: كبرها.

(٦) حسن لغيره: فيه موسىٰ بن عُبيدة: ضعيف، لكنه توبع، فقد رواه الترمذي (٣٢٧٠) من طريق عبد الله بن جعفر: (ضعيف) عن عبد الله بن دينار به، قال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس. قلت: وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٤٤).

يزيد، عن علي بن رَبَاح، عن عُقبة[١] بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَسَبَّةٍ عَلَىٰ أَحَدٍ، كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ طَفَّ الصَّاعُ[٢] لَمْ يَمْلَؤُهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِدِينٍ وَتَقْوَىٰ، وَكَفَىٰ بِالرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ بَذِيًّا[٣] بَخِيلًا فَاحِشًا»[٤].

وقد رواه ابن جرير، عن يُونس، عن ابن وَهْب، عن ابن لَهِيعة به. ولفظه: «النَّاسُ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ، طَفَّ الصَّاعُ لَمْ يَمْلَئُوهُ، إِنَّ اللهَ لا يَسْأَلُكُمْ عَنْ أَحْسَابِكُمْ وَلا عَنْ أَنْسَابِكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ»[٥].

وليس هو في شيءٍ من الكتب الستة من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شَرِيك، عن سِمَاكٍ، عن عبد الله بن عَمِيرة زوج دُرة ابنة أبي لَهب، عن دُرة بنت أبي لَهب قالت: قام رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ وهو علىٰ المنبر، فقال: يا رسول الله، أيّ الناس خير؟ فقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ، وَأَتْقَاهُمْ للهِ ﷻ، وَآمَرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ»[٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم ابن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحدٌ قط، إلا ذو تُقىٰ. تفرد به أحمد[٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم[٨] بكم، خبيرٌ بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء علىٰ من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة مَنْ ذهب من العلماء إلىٰ أن الكفاءة في النكاح لا تُشترط، ولا يشترط سوىٰ الدِّين؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وذهب الآخرون إلىٰ أدلةٍ أخرىٰ مذكورةٍ في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في «كتاب الأحكام» ولله الحمد والمنة. وقد روىٰ الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلًا من بني هَاشم

---

(١) في (ز): (عن عيينة)، وهو خطأ.

(٢) أي: قَريبٌ بعضُكم من بَعْضٍ. يقال: هذا طَف المِكْيال وطِفَافه وطَفَافه؛ أي: قَرُب من مِلْئه. وقيل: هو ما عَلَا فوق رَأْسِه. ويقال له أيضا: طُفاف، والمعنىٰ: كُلُّكُم في الانتِساب إلىٰ أبٍ واحدٍ بمنزلةٍ واحدةٍ في النَّقص والتَّقاصُر عن غاية التَّمام. وشبَّهَهُم في نُقْصانِهم بالمَكِيلِ الذي لم يَبْلُغْ أن يَمْلأ المِكْيالَ، ثم أعْلَمهُم أن التَّفاضُلَ ليس بالنَّسَبِ ولكنْ بالتَّقْوَىٰ. «النهاية».

(٣) البَذاء: الفحش في القول.

(٤) حسن: رواه أحمد (٤/ ١٥٨)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، لكن رواية العَبَادِلة عنه صحيحة، وقد رواه عنه ابن وهب عند الطبري (٢٦/ ١٤٠)، فثبت أنه لم يروه في الاختلاط.

(٥) رواه الطبري (٢٦/ ١٤٠).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٤٣٢)، وفيه شريك القاضي: سيئ الحفظ.

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٩٦)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه.

(٨) لوحة (٢٢٩/ ب).

يقول: أنا أولىٰ الناس برسول الله. فقال: غيرك أولىٰ به منك، ولك منه [نسبه](١).

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مُنكرًا علىٰ الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وقد اسْتُفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان(٢)، فترقىٰ من الأعم إلىٰ الأخص، ثم للأخص منه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقَّاص، عن أبيه قال: أعطىٰ رسول الله ﷺ رجالًا ولم يعطِ رجلًا منهم شيئًا، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلانًا وفلانًا ولم تُعط فلانًا شيئًا، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»، حتىٰ أعادها سعدٌ ثلاثًا، والنبي ﷺ يقول: «أَوْ مُسْلِمٌ»، ثم قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأُعْطِي رِجَالًا وَأَدَعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ فَلَا أُعْطِيهِ شَيْئًا؛ مَخَافَةَ أَنْ(٣) يُكَبُّوا فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ»(٤). أخرجاه في «الصحيحين» من حديث الزهري به.

فقد فَرَّقَ النبيُّ ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل علىٰ أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري»(٥) ولله الحمدُ والمنة. ودل ذلك علىٰ أن ذاك الرجل كان مسلمًا ليس منافقًا؛ لأنه تركه من العطاء، ووكله إلىٰ ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا علىٰ أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلىٰ مما وصلوا إليه، فأُدبوا في ذلك. وهذا معنىٰ قول ابن

---

(١) سقط من (ز). والحديث رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٣٤).
(٢) رواه مسلم (٨). (٣) لوحة (٢٣٠/ أ).
(٤) رواه البخاري (١٧) و(١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠٠) كتاب الإيمان.
(٥) وانظر كذلك: شرح كتاب الإيمان من «فتح الباري»، و«جامع العلوم والحكم» -كلاهما للحافظ ابن رجب- الحديث الثاني، وكذا شروح «الأربعين النووية» علىٰ الحديث الثاني، و«كتاب الإيمان» من «مجموع الفتاوىٰ» وهو في المجلد السابع.

عباس وإبراهيم النخعي، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا؛ لأن البخاري ذهب إلىٰ أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسباء. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خُزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم علىٰ رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعُنفوا وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في «سورة براءة». وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: لم تصلوا إلىٰ حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ ؛ أي: لا ينقصكم من أجوركم[(١)] شيئًا، كقوله: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ؛ أي: لمن تاب إليه وأناب.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ -أي: إنما المؤمنون الكُمَّل- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ ؛ أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا علىٰ حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي: وبذلوا مُهجهم[(٢)] ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه[(٣)]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة[(٤)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا يحيىٰ بن غَيْلان، حدثنا رِشْدين، حدثني عمرو بن الحارث، عن أبي السَّمْح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: إن النبي ﷺ قال: **«المُؤْمِنُونَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِي يَأْمَنُهُ النَّاسُ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ الَّذِي إِذَا أَشْرَفَ عَلَىٰ طَمَعٍ تَرَكَهُ[(٥)] للهِ عَزَّ وَجَلَّ»**[(٦)].

وقوله: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ ؛ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ؛ أي: لا يخفىٰ عليه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ .

---

(١) في (ز): (أجورها). (٢) في (ز): (مهجتهم).

(٣) قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال في «الإكليل»: في الآية دليلٌ علىٰ أن الأعمال من الإيمان. وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف.

(٤) لوحة (٢٣٠/ ب).

(٥) في (ز): (يذكر الله)، والمثبت كما في «المسند».

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٨)، وفيه دراج أبو السمح وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة، ورِشْدين هو ابن سعد: ضعيف كذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعني: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم علىٰ الرسول، يقول الله ردًّا عليهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حُنين: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟»، كُلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجَوْهري، حدثنا يحيىٰ بن سعيد الأُمَوي، عن محمد بن قيس، عن أبي عَوْن، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس ﷺ قال: جاءت بنو أسدٍ إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِقْهَهُمْ قَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

ثم قال: لا نعلمه يُروىٰ إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روىٰ أبو عون -محمد بن عبيد الله- عن سعيد بن جُبير غير هذا الحديث.

ثم كَرَّر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير الحُجرات، ولله الحمد والمنة.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) كتاب الزكاة.

(٢) إسناده صحيح: رواه البزار (٥١٤١).

سُورَةُ قٓ

تفسير سورة قٓ، وهي مكِّيَّة[1]

وهذه السورة هي أول الحزب المُفَصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات[2]. وأما ما يقوله العامة: إنه من(عَمّ)، فلا أصل له، ولم يقله أحدٌ من العلماء المعتبرين فيما نعلم، والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في «سننه»، «باب تحزيب القرآن» ثم قال: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا قُرّان[3] بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حَيَّان -وهذا لفظه- عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يَعْلى، عن عُثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده -قال عبد الله بن سعيد [في حديثه][4]: أوس بن حذيفة- ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المُغيرة بن شُعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قُبةٍ له -قال مُسَدَّدٌ: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف- قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلةٍ يأتينا بعد العشاء يحدثنا -قال أبو سعيد: قائمًا على رجليه حتى يُرَاوِح[5] بين رِجْليه من طول القيام- فأكثر ما يحدثنا ما لقي مِنْ قومه مِنْ قريش، ثم يقول: لا سواء[6]، وكنا مستضعفين مستذلين -قال مُسَدَّدٌ: بمكة- فلما خرجنا إلى المدينة كانت سِجَال[7] الحرب بيننا وبينهم، نُدَال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا الليلة! قال: «**إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ القُرْآنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّىٰ أُتِمَّهُ**». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تُحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المُفَصل وحده[8].

---

(١) لوحة (٢٣١/ أ).

(٢) تقدم الكلام على هذا أول الكتاب في «فضائل القرآن»، وانظر: «فتح الباري»: (٢/ ٢٤٩).

(٣) في (ز): (حدثنا فرات)، وهو خطأ.

(٤) في (ز): (حدثنيه)، وهو خطأ بيِّنٌ واضحٌ، والمثبت موافق لما في «سنن أبي داود» وهو الصواب، فإن عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج هو شيخ أبي داود وبقية الجماعة، وأما أوس بن حذيفة فهو صحابي، ومحال أن يروي عنه أبو سعيد الأشج بحال.

(٥) أي: يعتمد على إحدى الرجلين مرة، وعلى الأخرى مرة؛ ليوصل الراحة إلى كل منهما.

(٦) في (ز): (لا أساء).

(٧) يقال: الحرب بيننا سجال؛ أي: مرة لنا ومرة علينا، وأصله: أن المُسْتقين بالسَّجْل -وهو الدلو- يكون لكل واحدٍ منهم سَجْلٌ.

(٨) إسناده ضعيف: رواه أبو داود (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥). وفيه عثمان بن عبد الله بن أوس: ضعيف.

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شَيبة، عن أبي خالد الأحمر به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن -هو ابن يَعْلىٰ الطائفي- به.

إذا عُلِمَ هذا، فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة، فالتي بعدهن سورة «ق». بيانه:

ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء.

وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل.

وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون[(١)]، والنور، والفرقان.

وإحدىٰ عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، و«الم» السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس.

وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، و«حم» السجدة، و«حم عسق»، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات.

ثم بعد ذلك: الحزب المفصل، كما قاله الصحابة ﷺ، فتعين أن أوله سورة «ق»، وهو الذي قُلناه، ولله الحمد والمنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك، عن ضَمْرة بن سعيد، عن عُبَيد الله بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقدٍ الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بـ﴿قٓ﴾، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾[(٢)].

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك به. وفي روايةٍ لمُسلم عن فُلَيح[(٣)]، عن ضَمْرة، عن عُبيد[(٤)] الله، عن أبي واقد قال: سألني عمر، فذكره.

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن[(٥)] إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم[(٦)]، عن يحيىٰ[(٧)] بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد[(٨)] بن زُرَارة، عن أُم هِشَام بنت حَارِثة قالت: لقد كان تَنُّورنا[(٩)] وتَنُّور النبي ﷺ وَاحِدًا سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا علىٰ لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة علىٰ المنبر إذا خطب الناس[(١٠)]. رواه مسلم [أيضًا، من حديث ابن إسحاق به][(١١)].

---

(١) لوحة (٢٣١/ ب).

(٢) رواه مسلم (٨٩١)، وأبو داود (١١٥٤)، والترمذي (٥٣٤)، وابن ماجه (١٢٨٢)، والنسائي (١/ ١٨٣)، وأحمد (٥/ ٢١٧).

(٣) في (ز): (عن مالك).

(٤) في (ز): (عبد الله)، وهو خطأ.

(٥) في (ز): (عن أبي إسحق)، والمثبت هو الصواب.

(٦) في (ز): (عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم)، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «المسند» ط: الرسالة.

(٧) في (ز): (عن أبي بن عبد الله)، والمثبت هو الصواب.

(٨) في (ز): (أسعد بن زرارة).

(٩) التَّنُّور: الموقد، وهي تشير بذلك إلىٰ حفظها ومعرفتها بأحوال النبي ﷺ وقربها من منزله.

(١٠) رواه مسلم (٨٧٣)، وأبو داود (١١٠٠)، وأحمد (٦/ ٤٣٥).

(١١) سقط من (ز).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة، عن خُبَيب،[(١)] عن عبد الله بن محمد بن مَعْن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظتُ «ق» إلا من فِي رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحدًا[(٢)].

وكذا رواه مسلم والنسائي وابن ماجه، من حديث شعبة به.

والقَصْدُ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المَجَامع الكبار، كالعيد والجمع؛ لاشتمالها علىٰ ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمَعاد والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[(٣)]

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله:(ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها في أول «سورة البقرة» بما أغنىٰ عن إعادته.

وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿قٓ﴾: جَبَلٌ محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف. وكأن هذا -والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس[(٤)]، لما رأىٰ من جواز الرواية عنهم فيما لا يُصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به علىٰ الناس أمر دينهم، كما افتريَ في هذه الأمة -مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها- أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد مِن قِدَم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طُول المَدىٰ، وقِلة الحُفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»[(٥)]، فيما قد يُجوزه العَقْل، فأما فيما تُحيله العقول، ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب علىٰ الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

---

(١) في (ز): (حبيب بن عبد الرحمن)، والمثبت هو الصواب.
(٢) رواه أبو داود (١١٠٠)، ورواه مسلم (٨٧٣)، والنسائي (٣/ ٧).
(٣) لوحة (٢٣٢/ أ).
(٤) وهو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ينظر: «روح المعاني» للآلوسي (٢٦/ ١٧١)، و«الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لأبي شهبة (ص/ ٢٩٢) وما بعدها. وتقدَّم الكلام علىٰ الإسرائيليات وموقف الحافظ ابن كثير منها في مبحث مستقل في «مقدمة التحقيق».
(٥) البخاري (٣٤٦١)، أبو داود (٣٦٦٢)، الترمذي (٢٦٦٩).

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلىٰ أخبارهم، ولله الحمد والمنة، حتىٰ إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ أورد هاهنا أثرًا غريبًا لا يصح سنده عن ابن عباس، فقال: حدثنا أبي قال: حُدِّثْتُ عن محمد بن إسماعيل المَخْزومي، حدثنا لَيْثُ بن أبي سُليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحرًا محيطًا، ثم خلق من وراء ذلك جبلًا يقال له: «ق»، السماء الدنيا مرفوفة[1] عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضًا مثل تلك الأرض سبع مراتٍ. ثم خلق من وراء ذلك بحرًا محيطًا بها، ثم خلق من وراء[2] ذلك جبلًا يقال له: «ق»، السماء الثانية مرفوفة عليه، حتىٰ عد سبع أرضين، [وسبعة أبحر][3]، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ [القمان:٢٧][4].

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذي رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قٓ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ[5].

والذي ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله:(ص، ن، حم، طس، آلم) ونحو ذلك. فهذه تُبْعِد ما تقدم عن ابن عباس.

وقيل: المراد «قُضِي الأمر والله»، وأن قوله: ﴿قٓ﴾ دلت علىٰ المحذوف من بقية الكلم، كقول الشاعر:

قلتُ لها: قِفِي فقالت: قاف.

وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دَلَّ دليلٌ عليه، ومن أين يُفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟.

وقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ أي: الكريم العظيم الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾.

واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكىٰ ابنُ جرير عن بعض النُّحاة أنه قوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾.

وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القَسَم مُتلقىٰ لفظًا، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾

---

(١) أي: مسقوفة عليه، والذي هنا هو المثبت في (ز)، وفي بعض النسخ: «مرفوعة»، والذي في «تفسير ابن أبي حاتم»: «مُتَرَفْرِفَةٌ».
(٢) لوحة (٢٣٢/ ب).
(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت عند «ابن أبي حاتم».
(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٢٤)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم. اختلط فلم تتميز أحاديثه فترك، وفي الإسناد انقطاع أيضًا كما قال ابن كثير.
(٥) ضعيف: رواه الطبري (٢٦/ ١٤٧)، وإسناده ضعيف. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٨٧): حديث منكر.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس.

ثم قال مخبرًا عنهم في تعجبهم أيضًا من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي: يقولون: أإذا متنا وبَلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابًا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلىٰ هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾!! أي: بعيد الوقوع، ومعنىٰ هذا أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه.

قال الله تعالىٰ رادًّا عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلىٰ، نعلم ذلك ولا يخفىٰ علينا أين تفرقت الأبدان؟[(١)] وأين ذهبت؟ وإلىٰ أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾؛ أي: حَافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة.

قال العَوْفِي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

ثم بين تعالىٰ سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾، أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

يقول تعالىٰ منبهًا للعباد علىٰ قُدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾؟ أي: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعني من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صُدوع. والمعنىٰ متقارب، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]، أي: كليل؛ أي: عن أن يرىٰ عيبًا أو نقصًا.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾؛ أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقرة علىٰ تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ

---

(١) لوحة (٢٣٣/ أ).

بَهِيجٍ﴾؛أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حسن نضر.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما (١) من الآيات العظيمة تبصرةً ودلالةً وذكرىٰ لكل عبدٍ منيب؛ أي: خاضع (٢) خائف وَجِل رَجَّاع إلىٰ الله ﷻ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: نافعًا، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوالًا شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: منضود. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهي: الأرض التي كانت هامدةً، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيجٍ، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتىٰ. وهذا المُشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (٣) أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ متهددًا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرَّسِّ، وقد تقدمت قصتهم في سورة «الفرقان»، ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، وهم أُمته الذين بعث إليهم من أهل سَدُوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرةً منتنةً خبيثةً؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شُعيب ﷺ، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة «الدخان» ما أغنىٰ عن إعادته هاهنا، ولله الحمدُ.

---

(١) في (ز): (وما جُعل فيها).

(٢) لوحة (٢٣٣/ ب).

(٣) في (ز): (أو ليس)، وهو خطأ.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ[(١)] ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب برسولٍ فكأنما كذَّب بجميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله علىٰ التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المُخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾؛ أي: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتىٰ هم في شك من الإعادة؟! ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٍ مِّنۡ خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنىٰ: أن ابتداء الخلق لم يُعجزنا، والإعادة أسهل منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وقد تقدم في «الصحيح»: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[(٢)].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾

يخبر تعالىٰ عن قدرته علىٰ الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتىٰ إنه تعالىٰ يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ»[(٣)].

وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالىٰ أقربُ إلىٰ الإنسان[(٤)] من حبل وريده إليه. ومن تأوله علىٰ العلم فإنما فرَّ؛ لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالىٰ الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾، كما قال في المُحتَضر: ﴿وَنَحۡنُ[(٥)] أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]،

(١) لوحة (٢٣٤/ أ).
(٢) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).
(٣) رواه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، وأبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن ماجه (٢٠٤٠).
(٤) وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٤٩٤ - شرح حديث النزول).
(٥) لوحة (٢٣٤/ ب).

يعني: ملائكته. وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر -وهو القرآن- بإذن الله ﷻ. وكذلك الملائكة أقرب إلىٰ الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم علىٰ ذلك، فللمَلَكِ لَمّة في الإنسان كما أن للشيطان لمة، وكذلك: «**الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ**»(١)، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: المَلَكين اللذين يكتبان عمل الإنسان، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد.

﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ -أي: ابن آدم- ﴿مِن قَوْلٍ﴾؛ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، أي: إلا ولها من يراقبها مُعتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمةً ولا حركةً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب المَلَك كل شيء من الكلام؟ -وهو قول الحسن وقتادة-، أو: إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب -كما هو قول ابن عباس-، علىٰ قولين، وظاهر الآية الأول؛ لعموم قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المُزني قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَىٰ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(٢). قال: فكان علقمة يقول: كم من كلامٍ قد مَنَعنيه حديث بلال بن الحارث.

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو به. وقال الترمذي: حسن صحيح(٣). وله شاهد في «الصحيح»(٤).

وقال الأَحْنَفُ بن قَيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير علىٰ صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئةً قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالىٰ نهاه أن يكتبها، وإن أبىٰ كتبها. رواه ابن أبي حاتم(٥).

وقال الحسن البصري -وتلا هذه الآية-: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٤١٧٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٦٩)، وفيه عمرو بن علقمة الليثي: مقبول، لكن تقدم الحديث من رواية أبي هريرة؛ رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٢٠٢٨)، وابن ماجه (٣٩٦٩).

(٤) هذا الشاهد من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٠٣) إلىٰ ابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٧ برقم ٧٧٦٥)، (٨/ ٢٢٥ برقم ٧٧٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٤٩، ٧٠٥٠) بإسنادين لا يخلو أحدهما من مقال، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢١١): (رواه الطبراني وفيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب، ولكنه موافق لما قبله وليس فيه شيء زائد غير أن الحسنة يكتبها بعشر أمثالها، وقد دل القرآن والسنة علىٰ ذلك). اهـ.

صحيفةٌ، ووكل بك مَلَكَان كريمان(١) أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل(٢) ما شئت، أقلل أو أكثر، حتىٰ إذا مِت طُويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتىٰ تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، ثم يقول: عدَل -والله- فِيك مَن جعلك حسيب نفسك.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتىٰ إنه ليكتب قوله: «أكلتُ، شربتُ، ذهبتُ، جئتُ، رأيتُ»، حتىٰ إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقىٰ سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩](٣).

وذُكِرَ عن الإمام أحمد أنه كان يَئِنُّ في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شيءٍ حتىٰ الأنين. فلم يئن أحمد حتىٰ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤).

وقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول تعالىٰ: وجاءت -أيها الإنسان- سكرة الموت بالحق؛ أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنتَ تمتري فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا مَحيد ولا مَنَاص، ولا فِكَاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المُخَاطَب بقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، **فالصحيح**: أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبي الدُّنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد -سَبَلان-، أخبرنا عَبَّاد بن عَبَّاد، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده عَلقمة بن وَقَّاص، أن عائشة رضي الله عنها قالت: حضرتُ أبي وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشيةٌ فتمثلت ببيت من الشعر:

مَنْ لا يَزَالُ دَمْعُهُ مُقَنَّعًا(٥) … فَإِنَّهُ لا بُدَّ مَرَّةً مدفوق(٦)

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بُنية، ليس كذلك ولكن كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ(٧) سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(٨).

---

(١) لوحة (٢٣٥/ أ). (٢) في (ز): (فأملك ما شئت).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٣٢)، وفي إسناده انقطاع.

(٤) رواه صالح بن الإمام أحمد في سيرة أبيه. (٥) أي: محبوسًا في جوفه.

(٦) في (ز): (مدفون)، والبيت عند ابن حبان هكذا:

مَنْ لا يَزَالُ دَمْعُهُ مُقَنَّعًا … يُوشِكُ أن يَكُونَ مَدْفُوقًا

(٧) لوحة (٢٣٥/ ب).

(٨) ابن حبان (٣٠٣٦)، والبيهقي (٣/ ٣٩٩)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٦٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

وحدثنا خَلَف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخياط][(١)]، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن البَهِيّ قال: لما أن ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لَعَمْـرُكَ مَـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـن الفَتَـىٰ ... إذا حَشْرَجَتْ[(٢)] يَومًـا وَضَـاقَ بهـا الـصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[(٣)] وقد أوردتُ لهذا الأثر طرقًا [كثيرة][(٤)] في «سيرة الصديق» عند ذكر وفاته رضي الله عنه.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ»[(٥)]. وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ قولان:

أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة؛ أي: الذي كنت منه تحيد -بمعنىٰ: تبتعد وتنأىٰ وتفر- قد حَلَّ بك ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن «ما» نافية، بمعنىٰ: ذلك ما كنتَ تقدر علىٰ الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقد قال الطبراني في «المعجم الكبير»: حدثنا محمد بن علي الصَّائغ المَكي، حدثنا حفص بن عُمر[(٦)] الجُدِّي[(٧)]، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلي، عن يونس بن عُبيد، عن الحسن، عن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ المَوْتِ مَثَلُ الثَّعْلَبِ، تَطْلُبُهُ الأَرْضُ بِدَيْنٍ، فَجَاءَ يَسْعَىٰ حَتَّىٰ إِذَا أَعْيَىٰ وَأَسْهَرَ دَخَلَ جُحْرَهُ، فَقَالَتْ لَهُ الأَرْضُ: يَا ثَعْلَبُ، دَيْنِي. فَخَرَجَ وَلَهُ حُصَاصٌ[(٨)]، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ وَمَاتَ»[(٩)].

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا مَحِيد عن الأرض، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) الحَشْرجة: الغرغرة عند الموت وتردد النفس.

(٣) البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١١٦)، وأحمد في «الزهد» (ص١٠٩)، وفي «المسند» (٦/ ٤٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٦٢)، وأبو يعلىٰ (٢٤٥٤).

(٤) ليست في (ز).

(٥) رواه البخاري (٦٥١٠).

(٦) في (ز): (حفص عن ابن عمر الحدي)، والمثبت موافق لما في «الطبراني».

(٧) في (ز): (الحدي)، والمثبت هو الصواب، راجع ترجمته في «لسان الميزان» (٣/ ٢٣٧) ط: مكتبة المطبوعات الإسلامية.

(٨) الحُصاص: سرعة العَدْو.

(٩) ضعيف: رواه الطبراني (٧/ ٢٦٨/ ٦٩٢٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٠٠)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٤٠٥)، وفي سماع الحسن لسمرة غير حديث العقيقة خلاف بين العلماء، وهو مدلس وقد عنعن. انظر: «جامع التحصيل» (١/ ١٦٦)، وفي الإسناد معاذ بن محمد الهذلي أورده الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ١٣٢)، ونقل عن العقيلي قوله: لا يتابع علىٰ رفع حديثه، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ومعاذ في حديثه وهم، ولا يتابع علىٰ رفعه وإنما هو موقوف علىٰ سمرة.

قلت: الموقوف: رواه العقيلي(٤/ ٢٠٠)، والرامهرمزي في «الآمال» (ص١٠٠) وقال العقيلي: هذا أشبه من حديث معاذ وأولىٰ. انتهىٰ، ولكن الموقوف أيضًا ضعيف؛ ففيه إسحاق بن الربيع: فيه لين، وهو أيضًا من طريق الحسن عن سمرة.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾(١). قد تقدم الكلام علىٰ حديث النفخ في الصور والفزع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ**». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «**قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل(٢).

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ أي: مَلَك يسوقه إلىٰ المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة(٣). وهو اختيار ابن جرير، ثم روىٰ من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن يحيىٰ بن رافع -مولىٰ لثقيف- قال: سمعتُ عثمان بن عفان يخطب، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلىٰ الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت(٤). وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّفٌ، عن أبي(٥) جعفر -مولىٰ أَشْجَع- عن أبي هريرة: السائق: المَلَك، والشهيد: العمل(٦). وكذا قال الضحاك والسُّدِّي.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد علىٰ نفسه(٧). وبه قال الضحاك بن مُزاحِم أيضًا.

وحكىٰ ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مُزَاحم وصالح بن كَيْسان.

والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من برٍّ وفاجرٍ؛ لأن الآخرة بالنسبة إلىٰ الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

---

(١) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: فإن قال قائل: يوم القيامة يوم الوعيد للكفار، ويوم الوعد للمؤمنين، فلماذا ذكر الله تعالىٰ هنا الوعيد دون الوعد؟

فالجواب: لأن السورة كلها مبدوءة بتكذيب المكذبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فناسب أن يغلب فيها جانب الوعيد ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ﴾ إلخ.. فكان من الحكمة أن يذكر الوعيد دون الوعد، ومع ذلك فقد ذكر الله تعالىٰ أصحاب الجنة فيما بعد؛ لأن القرآن مثاني.

(٢) صحيح: رواه أبو يعلىٰ (١٠٨٤)، وابن حبان (٨٢٣)، وراجع ما تقدم من التعليق علىٰ تفسير «سورة الزمر» آية (٦٨).

(٣) لوحة (٢٣٦/ أ).

(٤) الطبري (٢٢/ ٣٤٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢١١)، و«الزهد» لأبي داود (١٠١).

(٥) في (ز): (مطرف وأبي جعفر).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٣٥)، و«فوائد ابن ماسي البغدادي» (٣٦٦)، و«ذيل تاريخ بغداد» (٤/ ٤٥٦).

(٧) لم أقف علىٰ إسناده.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم وابنه. والمعنىٰ علىٰ قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحىٰ إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحدٍ يوم القيامة يكون مستبصرًا، حتىٰ الكفار في الدنيا يكونون[1] يوم القيامة علىٰ الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ[2] ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن المَلَك المُوكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي: معتدٍ محضر، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أن يعم السائق والشهيد. وله اتجاه[3] وقوة.

فعند ذلك يحكم الله ﷻ في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقد اختلف النُّحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما رُوي عن الحَجّاج أنه كان يقول: يا حرسي، اضربا عنقه. ومما أنشد ابن جرير علىٰ هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجراني -يا ابن عفان- أنزجر وإن تتركاني أحم عرضًا ممنعًا

وقيل: بل هي نون التأكيد، سهلت إلىٰ الألف. وهذا بعيدٌ؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبةٌ مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلىٰ عرصة الحساب، فلما أدىٰ الشهيد عليه، أمرهما الله -تعالىٰ- بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾، أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾: معاندٍ للحق، معارضٍ له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد في منطقه وسيرته وأمره.

﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: شاكٌ في أمره، مريبٍ لمن نظر في أمره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم في الحديث: «أَنَّ عُنُقًا[1] مِنَ النَّارِ يَبْرُزُ لِلْخَلَائِقِ فَيُنَادِي بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ؛ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ. ثُمَّ تُلْوَىٰ عَلَيْهِمْ»[2].

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية -هو ابن هشام-، حدثنا شَيْبان، عن فِرَاس، عن عَطية، عن أبي سعيد[3] الخدري، عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ، يَقُولُ: وُكِّلْتُ اليَوْمَ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ، وَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، فَتَقْذِفُهُمْ فِي غَمَرَاتِ جَهَنَّمَ»[4].

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به. ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: ما أضللته، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: بل كان هو في نفسه ضالًّا قابلًا للباطل معاندًا للحق، كما أخبر تعالىٰ في الآية الأخرىٰ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن منهج الحق. فيقول الرب ﷻ لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي: قد أعذرتُ إليكم علىٰ ألسنة الرسل، وأنزلتُ الكتب، وقامت عليكم الحُجج والبينات والبراهين.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيتُ ما أنا قاضٍ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[5] أي: لستُ أعذب أحدًا بذنب أحدٍ، ولكن لا أعذب أحدًا إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) في (ز): (أي: عنقا)، أي: طائفة وجانب من النار.

(٢) انظر التخريج التالي.

(٣) لوحة (٢٣٧/ أ).

(٤) ضعيف بهذا اللفظ: رواه أحمد (٣/ ٤٠)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، لكن الحديث ثابتٌ صحيحٌ بالرواية الأولىٰ، وأن الثلاثة هم: من جعل مع الله إلهًا آخر، وبكل جبارٍ عنيدٍ، وبالمصورين. رواه الترمذي (٢٥٧٧)، وإسناده صحيح. وقد تقدم كما ذكر ابن كثير.

(٥) قال القاسمي رحمه الله في توجيه إيراد صيغة المبالغة هنا: (المبالغة لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده، وظلام لعبيده، فالصيغة للمبالغة كمًّا لا كيفًا).

يخبر تعالىٰ أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجِنّة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقىٰ وهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1] أي: هل بقي شيءٌ تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا [حَرَمِيُّ بن عُمَارة][2]، حدثنا شُعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يُلْقَىٰ فِي النَّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»[3].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فَيُسْكِنَهُمْ فِي فُضُولِ الجَنَّةِ»[4].

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه. وقد رواه أَبَانُ العَطَّار، وسُليمان التيمي، عن قتادة، بنحوه.

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا محمد بن موسىٰ القَطَّان، حدثنا أبو سفيان الحِمْيَري سعيد بن يحيىٰ بن مهدي، حدثنا عَوْفٌ، عن محمد، عن أبي هريرة -رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سُفيان-: «يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ ﷻ قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»[5].

رواه أيوب، وهشام بن حَسَّان، عن محمد بن سيرين[6] به.

طريق أخرىٰ: قال البخاري: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام[7]، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ [وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ][8]، وَلا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا [آخَرَ][9]».

---

(١) لوحة (٢٣٧/ ب).
(٢) في (ز): (حدثنا حربي، حدثنا شعبة)، والمثبت موافق للبخاري.
(٣) البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨)، وأحمد (٣/ ٢٣٤). وقط قط: أي حَسْبِي حسبي.
(٤) ورواه البخاري (٤٨٤٩)، وأحمد (٣/ ٢٣٤).
(٥) رواه البخاري (٤٨٤٩، ٤٨٥٠، ٧٤٤٩).
(٦) في (ز): (هشام بن عيان، عن محمد بن سرير به).
(٧) في (ز): (عن تمام).
(٨) سقط من (ز).
(٩) سقط من (ز)، ورواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

حديث آخر: قال مسلم في «صحيحه»: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ[1] النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. فَقَضَىٰ بَيْنَهُمَا، فَقَالَ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا»[2]. انفرد به مسلم دون البخاري من هذا الوجه. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريقٍ أخرىٰ، عن أبي سعيدٍ بأبسط من هذا السياق فقال:

حدثنا حَسَن ورَوْح قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السَّائب، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة[3]، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افْتَخَرَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: يَا رَبِّ، يَدْخُلُنِي الجَبَابِرَةُ وَالمُتَكَبِّرُونَ وَالمُلُوكُ وَالأَشْرَافُ. وَقَالَتِ الجَنَّةُ: أَيْ رَبِّ، يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالفُقَرَاءُ وَالمَسَاكِينُ. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ أَهْلُهَا فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ قَالَ: وَيُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ وَيُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَأْتِيَهَا ﷻ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَزْوَىٰ وَتَقُولُ: قَدْنِي، قَدْنِي[4]. وَأَمَّا الجَنَّةُ فَيَبْقَىٰ فِيهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَبْقَىٰ، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا خَلْقًا مَا يَشَاءُ»[5].

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يَعْلىٰ في «مسنده»: حدثنا عُقبة بن مُكْرَم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن زِرِّ بن حُبَيْش، عن أُبي بن كَعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُعَرِّفُنِي[6] اللهُ ﷻ نَفْسَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَسْجُدُ سَجْدَةً يَرْضَىٰ بِهَا عَنِّي، ثُمَّ أَمْدَحُهُ مِدْحَةً يَرْضَىٰ بِهَا عَنِّي، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فِي الكَلَامِ، ثُمَّ تَمُرُّ أُمَّتِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ -مَضْرُوبٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ- فَيَمُرُّونَ أَسْرَعَ مِنَ الطَّرْفِ وَالسَّهْمِ، وَأَسْرَعَ مِنْ أَجْوَدِ الخَيْلِ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ الرَّجُلُ مِنْهَا يَحْبُو، وَهِيَ الأَعْمَالُ، وَجَهَنَّمُ تَسْأَلُ المَزِيدَ، حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ! وَأَنَا عَلَىٰ الحَوْضِ». قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ شَرَابَهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ المِسْكِ. وَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، لَا يَشْرَبُ مِنْهُ إِنْسَانٌ فَيَظْمَأُ أَبَدًا، وَلَا يُصْرَفُ فَيَرْوَىٰ أَبَدًا»[7]. وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

---

(١) لوحة (٢٣٨/ أ).
(٢) رواه مسلم (٢٨٤٧).
(٣) في (ز): (عقبة).
(٤) أي: حسبي، حسبي.
(٥) رواه أحمد (٣/ ١٣)، ورجاله ثقات، وحماد روىٰ عن عطاء قبل الاختلاط، ويشهد له ما تقدم.
(٦) في (ز): (بعثني).
(٧) إسناده موضوع: أورده ابن حجر في «المطالب العالية» (٤٦٣٥) وعزاه لأبي يعلىٰ، وفي إسناده عبد الغفار بن القاسم، قال ابن المديني: كان يضع الحديث، ومع هذا فألفاظ الحديث ثابتة في أحاديث أخرىٰ.

وقد قال[١] ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا أبو يحيىٰ[٢] الحمَّاني، عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فِيَّ من مكان يزاد فيَّ[٣].

وكذا روىٰ الحَكَم بن أَبَان، عن عكرمة: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: وهل فِيَّ مَدْخَلٍ واحدٍ؟ قد امتلأتُ.

وقال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي مريم، أنه سمع مُجاهدًا يقول: لا يَزال يقذف فيها حتىٰ تقول: قد امتلأت فتقول: هل من مزيد؟. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا.

فعند هؤلاء أن قوله تعالىٰ: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوي حينئذ وتقول: هل[٤] بقي فيَّ من [مزيد يسع][٥] شيئًا؟

قال العَوْفي، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقىٰ فيها موضع يسع إبرة[٦]. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسُّدِّي: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيدٍ؛ لأنه واقعٌ لا محالة، وكل ما هو آتٍ آت.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجاعٍ تائبٍ مقلعٍ، ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه.

وقال عُبيد بن عُمير: الأواب الحفيظ: الذي لا يجلس مجلسًا فيقوم حتىٰ يستغفر الله ﷻ.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحدٌ إلا الله. كقوله عليه الصلاة والسلام: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[٧].

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: ولقي الله يوم القيامة بقلبٍ سليمٍ منيبٍ إليه، خاضعٍ لديه. ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، قال قتادة: سَلِمُوا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا، ولا يبغون عنها حولًا.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: مهما اختاروا وجدوا، من أيّ أصناف الملاذّ طلبوا أُحْضِرَ لهم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةُ، عن بَحِيرٍ[٨] بن سعد، عن خالد بن مَعْدان، عن كثير بن مُرَّةَ قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كَثير: لئن أشهدني الله ذلك لأقولن:

---

(١) لوحة (٢٣٨/ ب).
(٢) في (ز): (أبو بكر)، وهو خطأ.
(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٤٢).
(٤) في (ز): (فتنزوي وتقول حينئذ وتقول هل).
(٥) في (ز): (من ولع).
(٦) لم أقف عليه.
(٧) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، والترمذي (٢٣٩١).
(٨) في (ز): (يحيىٰ بن سعد)، وهو خطأ.

أمطرينا جَواري مُزينات. وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «**إِنَّكَ لَتَشْتَهِي الطَّيْرَ فِي الْجَنَّةِ، فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا**»(١).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مُعاذ(٢) بن هِشام، حدثني أبي، عن عامر الأَحْوَل، عن أبي الصِّدِّيق، عن أبي سعيدٍ الخُدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا اشْتَهَى الْمُؤْمِنُ الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ، كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ(٣) فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ**»(٤).

ورواه الترمذي وابن ماجه، عن بُنْدار، عن مُعاذ بن هشام به. وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ، وزاد: «[كَمَا](٥) **يَشْتَهِي**».

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد تقدم في «صحيح مسلم» عن صُهَيبِ بن سِنَان الرومي: أنها النظر إلىٰ وجه الله الكريم(٦). وقد روىٰ البزار وابن أبي حاتم، من حديث شَرِيك القاضي(٧)، عن عثمان بن عمير(٨) أبي اليقظان، عن أنس بن مالك في قوله ﷻ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يظهر لهم الرب ﷻ في كل جمعةٍ(٩).

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعًا فقال في «مسنده»: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسىٰ بن عُبيدة، حدثني أبو الأزهر مُعاوية بن إسحاق بن طلحة، عن [عبد الله بن عبيد](١٠) بن عمير، أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتىٰ جبرائيل بمرآةٍ بيضاء فيها نُكْتَة(١١) إلىٰ رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**مَا هَذِهِ؟ فَقَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ، فُضِّلْتَ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، فَالنَّاسُ لَكُمْ فِيهَا تَبَعٌ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، وَلَكُمْ فِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللهَ بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ، وَهُوَ عِنْدَنَا يَوْمَ الْمَزِيدِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا جِبْرِيلُ، وَمَا يَوْمُ الْمَزِيدِ؟ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْفِرْدَوْسِ وَادِيًا أَفْيَحَ(١٢) فِيهِ كُثُبُ الْمِسْكِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ أَنْزَلَ اللهُ مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَحَوْلَهُ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، عَلَيْهَا مَقَاعِدُ النَّبِيِّينَ، وَحَفَّ تِلْكَ الْمَنَابِرَ [بِمَنَابِرَ](١٣) مِنْ ذَهَبٍ، مُكَلَّلَةٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ عَلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَىٰ تِلْكَ الْكُثُبِ، فَيَقُولُ اللهُ**

---

(١) ضعيف: رواه العقيلي (١/ ٢٦٨)، والبزار (٢٠٣٢)، وفيه حميد الأعرج: ضعيف.

(٢) لوحة (٢٣٩/ أ).

(٣) أي: كمال سنه، وهو ثلاثون سنة.

(٤) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٩)، والترمذي (٢٥٦٦)، ورجاله ثقات، وصححه الشيخ الألباني.

(٥) بياض في (ز).

(٦) رواه مسلم (١٨١)، وأحاديث الرؤية متواترة، وسيأتي المزيد عن ذلك في «سورة القيامة».

(٧) في (ز): (شريك والقاضي).

(٨) في (ز): (عثمان بن عمر)، وهو خطأ.

(٩) عزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٥) إلىٰ البزار، وقال: فيه عثمان بن عمير، وهو ضعيف.

(١٠) في (ز): (عن عبيد الله بن عمير).

(١١) النُّكْتَةُ: الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه.

(١٢) أي: واسعًا.

(١٣) بياض في (ز).

ﷻ: أَنَا رَبُّكُمْ، قَدْ صَدَقْتُكُمْ[(١)] وَعْدِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ، فَيَقُولُ: قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مَا تَمَنَّيْتُمْ، وَلَدَيَّ مَزِيدٌ. فَهُمْ يُحِبُّونَ يَوْمَ الجُمُعَةِ لِمَا يُعْطِيهِمْ فِيهِ رَبُّهُمْ مِنَ الخَيْرِ، وَهُوَ اليَوْمُ الَّذِي اسْتَوَىٰ فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَىٰ العَرْشِ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ»[(٢)].

وهكذا أورده الإمام الشافعي في كتاب «الجمعة» من «الأم»، وله طرق عن أنس بن مالك ﷺ. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية[(٣)] عثمان بن عُمير، عن أنس بأبسط من هذا، وذكر هاهنا أثرًا مطولًا عن أنس بن مالك موقوفًا وفيه غرائبُ كثيرةٌ.

وقال الإمام أحمد ﷺ: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثنا دَرَّاجٌ، عن [أبي الهيثم][(٤)]، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الجَنَّةِ لَيَتَّكِئُ فِي الجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ، ثُمَّ تَأْتِيهِ امْرَأَةٌ فَتَضْرِبُ عَلَىٰ مَنْكِبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّها أَصْفَىٰ مِنَ المِرْآةِ، وَإِنَّ أَدْنَىٰ لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَيَرُدُّ السَّلَامَ، فَيَسْأَلُهَا: مَنْ أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا مِنَ المَزِيدِ. وَإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً، أَدْنَاهَا مِثْلُ النُّعْمَانِ مِنْ طُوبَىٰ، فَيَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّىٰ يَرَىٰ مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، وَإِنَّ عَلَيْهَا مِنَ التِّيجَانِ، إِنَّ أَدْنَىٰ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»[(٥)].

وهكذا رواه عبد الله بن وَهْب، عن عمرو بن الحارث[(٦)]، عن دَرَّاج به.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قبل هؤلاء المنكرين ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوةً، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾. قال ابن عباس: أَثَّرُوا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد؛ أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمَتَاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها. ويقال لمن

---

(١) في (ز): (صدقتم).

(٢) رواه الشافعي في «المسند» (٧٠-٧١)، وفي إسناده موسىٰ بن عبيدة: ضعيف. وللحديث طرق عن أنس بعضها صحيح، صححها الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» في تخريج أحاديث «السنة».

(٣) لوحة (٢٣٩/ ب). (٤) في (ز): (عن إبراهيم).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٥)، من رواية دراج، عن أبي الهيثم، وهي رواية ضعيفة، وفي الإسناد أيضًا ابن لهيعة: اختلط.

(٦) في (ز): (عن عمرو بن قطرب).

طوف في البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لقــد نَقَّبْـتُ في الآفــاق حَتّــىٰ رضـيتُ مــن الغَنيمــةِ بالإيــابِ

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل من مَفَرٍّ كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضًا لا مَفَرّ لكم ولا مَحيد ولا مَناص ولا مَحيص[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، أي: لعبرةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: لُبٌّ يَعِي به. وقال مجاهد: عقلٌ. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقَّله بقلبه وتفهمه بِلُبِّهِ. وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدث نفسه [بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد][(٢)] بالقلب.

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقىٰ فلانٌ سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد، يقول[(٣)]: غير غائبٍ. وهكذا قال الثوري وغير واحدٍ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: فيه تقريرُ المَعَاد؛ لأن من قدر علىٰ خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادرٌ علىٰ أن يحيي الموتىٰ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ.

وقال قتادة: قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه: يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾؛ أي: من إعياءٍ ولا نَصَبٍ ولا تَعَبٍ، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجرًا جميلًا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ [وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين؛ قبل طلوع الشمس][(٤)] في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبًا علىٰ النبي ﷺ [وعلىٰ أمته][(٥)] حَوْلًا، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قَيْس بن أبي حازم، عن جَرير بن عبد الله قال: كُنَّا جلوسًا عند النبي ﷺ فنظر إلىٰ القمر ليلة البدر فقال: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتُعْرَضُونَ

---

(١) لوحة (٢٤٠/ أ). (٢) في (ز): (لا يحدث نفسه في هذا بقلب).
(٣) في (ز): (وهو شاهد لقول). (٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

عَلَىٰ رَبِّكُمْ فَتَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِيهِ[١]، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[٢].

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث[٣] إسماعيل به.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فَصَلِّ له، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة[٤].

ويُؤيدُ هذا ما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء[٥] المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذَهَبَ أهل الدُّثُورِ بالدرجات العُلَىٰ والنعيم المقيم. فقال: «وَمَا ذَاكَ؟»، قالوا: يُصَلون كما نُصلي، ويَصُومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعْتِقُون ولا نُعتق! قال: «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُمْ؟ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ». قال: فقالوا: يا رسول الله، سَمِعَ إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»[٦].

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب، رُوي ذلك عن عمر، وعلي، وابنه الحسن، وابن عباس[٧]، وأبي هريرة، وأبي أُمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنَّخَعِي، والحسن، وقتادة وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضَمْرَةَ، عن عليٍّ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي علىٰ أثر كل صلاةٍ مكتوبةٍ ركعتين، إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دُبر كل صلاة[٨].

ورواه أبو داود والنسائي، من حديث سفيان الثوري به. زاد النسائي: ومطرف، عن أبي إسحاق به.

---

(١) أي: لا يلحقكم ضيم ولا مشقة، وأحاديث الرؤية متواترة، وانظر ما سيأتي في «سورة القيامة».

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٦٥)، ورواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، وأبو داود (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٦٣٣٠)، وابن ماجه (١٧٧).

(٣) لوحة (٢٤٠/ ب).

(٤) رواه الطبري (٢٦/ ١٨٢)، وابن أبي حاتم (١٨٦٤٦).

(٥) في (ز): (جاء نفر من المهاجرين).

(٦) البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

(٧) قول علي رضي الله عنه رواه الطبري (٢٢/ ٣٧٨-شاكر)، من طريقين عنه.

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٦١١) إلىٰ ابن المنذر ومحمد بن نصر.

وقول ابن عباس رضي الله عنهما رواه الحاكم (١/ ٤٦٥) برقم (١١٩٨).

وقول الحسن رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٨)، والطبري (٢٢/ ٣٧٩-شاكر).

(٨) رواه أحمد (١/ ١٢٤)، وأبو داود (١٢٧٥)، ورجاله ثقات غير أن أبا إسحاق يرسل وقد عنعن، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢٧٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهَمْداني، حدثنا ابن فُضَيْل، عن رِشْدِين بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباسٍ قال: بت ليلةً عند رسول ﷺ فصلىٰ ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلىٰ الصلاة فقال: «**يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الفَجْرِ إِدْبَارَ النُّجُومِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ إِدْبَارَ السُّجُودِ**»(١). ورواه الترمذي عن [أبي](٢) هشام الرفاعي، عن محمد بن فضيل به. وقال: غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وحديث ابن عباس وأنه بات في بيت خالته ميمونة وصلىٰ تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعةً. ثابتٌ في «الصحيحين» وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة، ولا تعرف إلا(٣) من هذا الوجه، ورِشْدِين بن كُرَيْب ضعيفٌ، ولعله من كلام ابن عباس موقوفًا عليه، والله أعلم.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ -يا محمد- ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قال قتادة: قال كَعْبُ الأَحْبَار: يأمر الله تعالىٰ مَلَكًا أن يُنادي علىٰ صخرة بيت المقدس: أيتها العِظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداث.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله -تعالىٰ- يُنزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرىٰ بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل [فينفخ في الصور -وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور- فإذا نفخ إسرافيل](٤) فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله ﷻ: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَىٰ الجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ**»(٥)، فترجع كل روح إلىٰ جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، [وتنشق الأرض

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٢٧١)، وإسناده ضعيف؛ رشدين بن كريب: ضعيف.

(٢) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٣) لوحة (٢٤١/ أ).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٠) من رواية عكرمة مرسلًا، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعيف، وعزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٣٩)، وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعًا عند المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٧٣).

عنهم، فيقومون إلىٰ موقف الحساب سراعًا، مبادرين إلىٰ أمر الله ﷻ، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ [(١)] يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]، وقال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢]، وفي «صحيح مسلم» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ»[(٢)].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ أي: تلك إعادةٌ سهلةٌ علينا، يسيرةٌ لدينا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨].

وقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: نحن عِلْمُنَا محيطٌ بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يَهِيدَنكَ[(٣)] ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولستَ بالذي[(٤)] تجبر هؤلاء علىٰ الهُدىٰ، وليسَ ذلك ما كُلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: لا تتجبر عليهم.

والقول الأول أولىٰ، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جبارًا عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمعنىٰ: وما أنت بمجبرهم علىٰ الإيمان، إنما أنت مُبَلِّغٌ.

قال الفرّاء: سمعتُ العرب تقول: جبر فلانٌ فلانًا علىٰ كذا، بمعنىٰ: أجبره.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر مَن يخافُ اللهَ ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾. كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، [ويرجو موعودك][(٥)] يا بارّ، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (قٓ)، والحمدُ لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) مسلم (٢٢٧٨).
(٣) هَادَهُ الشيء هَيْدًا وهَادًا: أفزعه وكَرَبَه. «اللسان»: هيد.
(٤) لوحة (٢٤١/ ب). (٥) في (ز): (المدحر عن عودك).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

تفسير سورة الذاريات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾

قال شعبة بن الحجاج، عن سِمَاكٍ، عن خالد بن عَرْعَرَةَ أنه سمع عليًّا.

وشعبة أيضًا، عن القاسم بن أبي بزَّة، عن أبي الطُّفَيْلِ، سمع عليًّا.

وثبت أيضًا من غير وجهٍ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آيةٍ في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: الريح. قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السحاب[١]. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟ قال: السفن. قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة[٢].

وقد روي في ذلك حديثٌ مرفوعٌ، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سَبْرَةَ، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمي[٣] إلىٰ عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فقال: هي الرياح[٤]، ولولا أنىٰ سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن

---

(١) لوحة (٢٤٢ أ).

(٢) رواه الطبري (٢٦/ ١٨٦)، والحاكم (٢/ ٤٦٦-٤٦٧)، وصححه ووافقه الذهبي والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٠٤)، ومُكْرم البزاز في «فوائده» (١٠٦)، وإسناده لا بأس به.

(٣) في (ز): (صنيع اليمني).

(٤) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: هنا ذكر القرطبي موعظةً عجبًا، وهي أن رجلًا يقال له: صبيغ بلغ عمر عنه أنه يسأل عن تفسير مشكل القرآن فقال: اللهم أمكني منه، فدخل الرجل علىٰ عمر يومًا وهو لابسٌ ثيابًا وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل وقال: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروًا؟ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ثم قال:
=

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل في بيت، فلما برأ [دعا به و][1] ضربه مائة أخرىٰ، وحمله علىٰ قَتَبٍ[2]، وكتب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتىٰ أتىٰ أبا موسىٰ فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئًا. فكتب في ذلك إلىٰ عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس[3].

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبي سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث.

قلت: فهذا الحديث ضعيفٌ رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوفٌ علىٰ عمر، فإن قصة صَبِيغ[4] بن عسل مشهورةٌ مع عمر، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتًا وعنادًا، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ. ولم يحكِ ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بـ«الذاريات»: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرًا: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلالا

فأما الجاريات يسرًا، [فالمشهور عن الجمهور -كما تقدم-: أنها السفن، تجري ميسرةً في الماء جريًا سهلًا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسرًا][5] في أفلاكها؛ ليكون ذلك ترقيًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرًا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله ﷻ علىٰ وقوع المعاد[6]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ أي: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ أي: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ قال ابن عباس: ذات البهاء، والجمال، والحسن، والاستواء، وكذا

= ألبسوه ثيابه واجعلوه علىٰ قتب وأبلغوا به أهله ثم ليقم خطيبًا فليقل: إن صبيغًا طلب العلم فأخطأ فلم يزل وضيعًا في قومه بعد أن كان سيدًا فيهم. وأخرىٰ وهو أن ابن الكواء سأل عليًّا ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين ما (الذاريات) فقال له: ويلك سل تفقهًا ولا تسأل تعنتًا.

(١) ليست في (ز).

(٢) القَتَبُ: البرذعة.

(٣) ضعيف جدًّا: رواه البزار (٢٩٩)، وفيه أبو بكر بن أبي سبرة: متروك، وبهذا أعله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٦).

(٤) في (ز): (صنيع).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) لوحة (٢٤٢ ب).

قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْرٍ، وأبو مالك، وأبو صالح، والسُّدِّي، وقتادة، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال الضحاكُ، والمِنْهَالُ بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء، والرمل، والزرع، إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضًا طرائق طرائق، فذلك الحبك.

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا [ابن عُلَيَّة، حدثنا][١] أيوب، عن أبي قلابة، عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمُ الكَذَّابَ المُضِلَّ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُبُكٌ حُبُكٌ**» يعني بالحبك: الجعودة[٢].

وعن أبي صالح: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم.

وقال قتادة: عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن مَعْدانِ بن أبي طلحة، عن عمرو البكالي، عن عبد الله ابن عمرو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: يعني: السماء السابعة.

وكأنه -والله أعلم- أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثيرٍ من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلىٰ شيءٍ واحدٍ، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس ﵄، فإنها من حسنها مرتفعةٌ، شفافةٌ، صفيقةٌ، شديدةُ البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللةٌ بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحةٌ بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قولٍ مختلفٍ مضطربٍ، لا يلتئم، ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفي قولٍ مختلفٍ؛ يعني: ما بين مصدقٍ بالقرآن ومكذبٍ به.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: إنما يروج علىٰ من هو ضالٌّ في نفسه؛ لأنه قولٌ باطلٌ إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوكٌ ضالٌّ غُمْر، لا فهم له، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ -١٦٣].

قال ابن عباس، والسُّدِّي: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن[٣].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (٢٦/ ١٩٠)، ورجاله ثقات غير أن أبا قلابة كثير الإرسال وقد عنعن.

(٣) أُفِنَ الرجل: ضعف رأيه، وأَفَنَهُ الله، وأُفِكَ الرجل: ضعف عقله ورأيه، قال: ولم يستعمل (أَفكه الله) بمعنىٰ: أَضعف عقله، وإنما أَتىٰ (أَفكه) بمعنىٰ: صرفه، فيكون المعنىٰ في الآية: يصرف عن الحق من صرفه الله.

وقال[١] الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهي مثل التي في عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث، ولا يوقنون.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أي: لُعِن المرتابون.

وهكذا كان معاذ ﷺ يقول في خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: قال ابن عباسٍ وغير واحدٍ: في الكفر والشك غافلون لاهون.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيبًا وعنادًا وشكًّا واستبعادًا. قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحدٍ: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون.

[قال مجاهد:][٢] كما يفتن الذهب علىٰ النار.

وقال جماعة[٣] آخرون كمجاهد -أيضًا- وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعِي، وزيد بن أسلم، وسفيان الثوري: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون.

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾: أي: يقال لهم ذلك تقريعًا، وتوبيخًا، وتحقيرًا، وتصغيرًا.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المتقين لله ﷻ: إنهم يوم معادهم يكونون في جناتٍ وعيونٍ، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: قبل أن يفرض عليهم الفرائض. كانوا محسنين في الأعمالِ أيضًا. ثم روىٰ عن ابن حميد، حدثنا مهْرَان، عن سفيان، عن أبي عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس في قوله: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: قبل الفرائض يعملون[٤].

---

(١) لوحة (٢٤٣ أ).

(٢) ليست في (ز)، والصواب إثباتها.

(٣) في (ز): (وقال جماعات).

(٤) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٢٦/ ١٢٦)، وفي إسناده أبو عمر حفص بن سليمان: متروك الحديث.

وهذا الإسناد ضعيفٌ، ولا يصح عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبي شيبة، عن معاوية بن[١] هشام، عن سفيان، عن أبي عمر البزار، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره. والذي فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: فالمتقون في حال كونهم في الجناتِ والعيونِ آخذون ما آتاهم ربهم؛ أي: من النعيم، والسرور، والغبطة.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ثم إنه تعالىٰ بَيَّنَ إحسانهم في العمل فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون في ذلك علىٰ قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلًا من الليل لا يهجعونه، قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلةٌ إلا يأخذون منها ولو شيئًا[٢]. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله ﷻ إما من أولها وإما من أوسطها.

وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلةً حتىٰ الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء[٣].

وقال أبو جعفر الباقر: كانوا لا ينامون حتىٰ يصلوا العتمة.

والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلًا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصري: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلىٰ السحر، حتىٰ كان الاستغفار بسحر.

وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلًا ثم يقول: لست من أهل هذه الآية.

وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضتُ عملي علىٰ عمل أهل الجنة، [فإذا قوم][٤] قد باينونا بونًا بعيدًا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون. وعرضتُ عملي علىٰ عملِ أهلِ النار فإذا قومٌ لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسُل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلةً قومًا خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجلٌ من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلًا من الليل ما نقوم. فقال له

---

(١) لوحة (٢٤٣ ب). (٢) الطبري (٢٢/ ٤٠٧-شاكر).

(٣) أبو داود (١٣٢١)، والبيهقي (٣/ ١٩)، وصحح إسناده الشيخ الألباني، انظر: «الإرواء» (٢/ ٢٢٢).

(٤) سقط من (ز).

أبي: طوبىٰ لمن رقد إذا نعس، واتقىٰ الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل(١) الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ»(٢).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا حسن بن موسىٰ، حدثنا ابن لَهيعةَ، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا». فقال أبو موسىٰ الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لِمَنْ أَلَانَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ للهِ قَائِمًا، وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(٣).

وقال مَعْمَرٌ في قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان الزهري والحسن يقولان: كانوا كثيرًا من الليل ما يصلون.

وقال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعِي: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: ما ينامون.

وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال مجاهد، وغير واحدٍ: يصلون.

وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلىٰ الأسحار. كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاةٍ فهو أحسن. وقد ثبت في «الصحاح» وغيرها عن جماعةٍ من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَىٰ سُؤْلَهُ؟ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الفَجْرُ»(٤).

وقال كثيرٌ من المفسرين في قوله تعالىٰ إخبارًا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ

---

(١) أي: أسرعوا إليه.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٤٨٧)، وابن ماجه (١٣٣٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٢/ ١٧٣)، والحاكم (١/ ٣٢١) وإسناده حسن، وله شاهد من حديث علي بن أبي طالب: رواه الترمذي (٢٥٢٧)، وأحمد (١/ ١٥٦)، وفيه النعمان بن سعد: ضعيفٌ، وله شاهدٌ آخر من حديث أبي مالك الأشعري: رواه أحمد (٥/ ٣٤٣)، وإسناده لا بأس به.

(٤) رواه البخاري (١١٤٥) (٦٣٢١) (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٧٦٨)، وابن ماجه (١٣٦٦)، قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وفي الباب عن علي، وعبد الله بن مسعود، وأبي سعيد، وجبير بن مطعم، ورفاعة الجهني، وأبي الدرداء، وعثمان بن أبي العاص.

قلت: وللدارقطني جزءٌ مستقلٌّ في جمع طرقه وشواهده، والرسالة مطبوعة قد اشتملت علىٰ نحو (٩٦ حديثًا وأثرًا).

رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] قالوا: أخرهم إلىٰ وقت السحر.

وقوله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنىٰ بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أي: جزءٌ مقسومٌ قد أفرزوه ﴿لِّلسَّآئِلِ[١] وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حقٌّ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيعٌ وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلىٰ بن أبي يحيىٰ، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَىٰ فَرَسٍ»[٢].

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري به، ثم أسنده من وجهٍ آخر عن علي بن أبي طالب. وروي من حديث الهِرْماس بن زياد مرفوعًا.

وأما ﴿الْمَحْرُومِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف[٣] الذي ليس له في الإسلام سهمٌ. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها[٤].

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال الضحاكُ: هو الذي لا يكون له مالٌ إلا ذهب، قضىٰ الله له ذلك.

وقال أبو قِلابَةَ: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.

وقال ابن عباس أيضًا، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعي، ونافع -مولىٰ ابن عمر- وعطاء ابن أبي رباح ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: المحارف.

وقال قتادة، والزهري: ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: الذي لا يسأل الناس شيئًا.

قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ المِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًىٰ يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ»[٥].

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في «صحيحيهما» من وجهٍ آخر.

وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قُسِّمَ المغنم، فيرضخ له[٦].

---

(١) لوحة (٢٤٤ ب).

(٢) ضعيف: تقدم تخريجه. انظر تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة.

(٣) المحارَف: المحروم.

(٤) الطبري (١١/ ٤٥٦)، والبغوي (١/ ٣٧٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٩٤).

(٥) رواه البخاري (١٤٧٦)، (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩)، وأبو داود (١٦٣١)، والنسائي (٥/ ٨٤)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٢٩٥، ٤٦٩، ٤٩٣).

(٦) أي: فيعطىٰ عطاءً قليلًا، والرَّضْخُ: العطية القليلة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة [فجاء كلب][(١)] فانتزع عمر كتف شاةٍ فرمىٰ بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم.

وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذي لا مال له بأي سببٍ كان قد ذهب ماله، سواءٌ كان لا يقدر علىٰ الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بآفةٍ أو نحوها.

وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قومٌ لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[(٢)].

وهذا يقتضي أن هذه مدنيةٌ، وليس كذلك، بل[(٣)] هي مكيةٌ شاملةٌ لما بعدها.

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها من الآيات الدالة علىٰ عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، [والقفار،][(٤)] والأنهار، والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات، والقوىٰ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضوٍ من أعضائهم في المحل الذي هو محتاجٌ إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحدٍ.

وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إني أرىٰ رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض؟ فدخل خربةً فمكث فيها ثلاثًا لا يصيب شيئًا، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بِدَوْخَلَةٍ[(٥)] من رطبٍ، وكان له أخ أحسن نية منه، [فدخل معه][(٦)] فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتىٰ فرق الموت بينهما.

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يقسم تعالىٰ بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائنٌ لا محالة، وهو حقٌّ لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ ﷺ إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحقٌّ كما أنك هاهنا[(٧)].

---

(١) بياض في (ز).
(٢) إسناده مرسل: رواه الطبري (٢٦/ ٢٠٢-٢٠٣).
(٣) لوحة (٢٤٥ أ).
(٤) سقط من (ز).
(٥) الدوخلة: النسيجة من خوص.
(٦) سقط من (ز).
(٧) أبو داود (٤٢٩٤)، ومسند ابن الجعد (١/ ٤٨٩)، وحسنه الألباني في «المشكاة».

قال مسددٌ، عن ابن أبي عَدِيّ، عن عَوْف، عن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قَاتَلَ اللهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوا»[١].

ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلًا.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ[٢] ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

هذه القصة[٣] قد تقدمت في سورة «هود» و «الحجر» أيضًا. وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفةٌ من العلماء إلىٰ وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ﴾: الرفع أقوىٰ وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل، وإسرافيل، وميكائيل قدموا عليه في صور شبانٍ حسانٍ عليهم مهابةٌ عظيمةٌ؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: انسل خُفيةً في سرعة، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] أي: مشويٍّ علىٰ الرَّضفِ، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تَلَطُّفٌ في العبارة وعرضٌ حسنٌ.

---

(١) مرسل: رواه الطبري (٢٦/ ٢٠٦)، وإسناده مرسل.

(٢) لوحة (٢٤٥ ب).

(٣) قال السعدي ﷺ: ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام.

منها: أن من الحكمة قص الله علىٰ عباده نبأ الأخيار والفجار؛ ليعتبروا بحالهم وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضيلة إبراهيم الخليل ﷺ حيث ابتدأ الله قصته بما يدل علىٰ الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها...

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمدًا وأمته أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، علىٰ وجه المدح له والثناء...

ومنها: أن إبراهيم ﷺ قد كان بيته مأوىٰ للطارقين والأضياف؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذانٍ، وإنما سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام...

ومنها: المبادرة إلىٰ الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله...

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبيرمن ضيف الضيفان.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولًا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعةٍ وخفاءٍ، وأتىٰ بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجلٌ فتيٌّ سمينٌ مشويٌّ، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق علىٰ سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ علىٰ سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: هذا محالٌ علىٰ ما تقدم في القصة في السورة الأخرىٰ، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم علىٰ الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ[1] إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود ٧٢، ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، فالبشارة له هي بشارةٌ لها؛ لأن الولد منهما، فكلٌّ منهما بُشِّرَ به[2].

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صرخةٍ عظيمةٍ، ورنةٍ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسُّدِّي وهي قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت بيدها علىٰ جبينها، قاله مجاهد وابن سابط.

وقال ابن عباس: لطمت؛ أي: تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوزٌ [عقيم][3]، وقد كنتُ في حال الصبا عقيمًا لا أحبل؟.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: عليمٌ بما تستحقون من الكرامة، حكيمٌ في أقواله وأفعاله.

---

(١) لوحة (٢٤٦ أ).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم؛ لأن في القرآن أن إبراهيم بُشر بغلامٍ عليمٍ في آيتين من كتاب الله، وبشر بغلامٍ حليمٍ في آيةٍ واحدةٍ، وهما غلامان، أما الغلام الحليم فإنه إسماعيل أبو العرب، وأما الغلام العليم فإنه إسحاق أبو بني إسرائيل، ولذلك تجد قصتهما مختلفة، ولقد أبعد عن الصواب، من قال: إن الغلام الحليم هو الغلام العليم، بل ونصٌّ صريحٌ في سورة الصافات أنهما غلامان مختلفان، فإن الله تعالىٰ لما ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات قال بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فكيف يبشر بمن أمر بذبحه، وكان عنده وبلغ معه السعي، كل هذا مما يدل علىٰ أن الغلام الحليم غير الغلام العليم.

(٣) ليست في (ز).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)﴾

قال الله مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً﴾ أي: معلمةً ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجرٍ عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيفٌ؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمنٍ مسلمٌ ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا(١) لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حالٍ.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرةً، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا(٢) محلتهم بحيرةً منتنةً خبيثةً، ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين، ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾

---

(١) لوحة (٢٤٦ ب). (٢) في (ز): (وجعل).

يقول تعالىٰ: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهرٍ وحجةٍ قاطعةٍ، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسىٰ من الحق المبين، استكبارًا وعنادًا.

وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدُو الله علىٰ قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

والمعنىٰ الأول قوي كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: معرضٌ عن الحق مستكبرٌ، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرًا، أو مجنونًا.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: ألقيناهم في اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو ملومٌ كافرٌ [جاحدٌ](١) فاجرٌ معاندٌ.

ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئًا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله [بن أخي ابن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثني عبد الله](٢) -يعني: ابن عياش- القتباني، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسىٰ بن هلال الصَّدَفِي، عن عبد الله بن عمرو ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّيحُ مُسَخَّرَةٌ(٣) مِنَ الثَّانِيَةِ -يعني من الأرض الثَّانية- فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُهْلِكَ عَادًا أَمَرَ خَازِنَ الرِّيحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا تُهْلِكُ عَادًا، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أُرْسِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ قَدْرَ مِنْخَرِ الثَّوْرِ؟ قَالَ لَهُ الجَبَّارُ: لَا، إِذًا تَكْفَأُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَرْسِلْ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ خَاتَمٍ. فَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾»(٤).

هذا الحديث رفعه منكرٌ، والأقرب أن يكون موقوفًا علىٰ عبد الله بن عمرو، من زاملتيه(٥) اللتين أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ قالوا: هي الجنوب. وقد ثبت في «الصحيح» من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»(٦).

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والصواب إثباته. (٣) لوحة (٢٤٧ أ).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٦٥)، وفيه عبد الله بن سليمان الطويل: صدوق يخطئ، وعبد الله بن عياش: صدوق يغلط.

(٥) الزاملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع.

(٦) البخاري (١٠٣٥) (٣٢٠٥) (٣٣٤٣) (٤١٠٥).

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعني إلىٰ وقت فناء آجالكم.

والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت:١٧].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوضٍ، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون علىٰ أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوحٍ من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطةً في أماكنَ كثيرةٍ، من سورٍ متعددةٍ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالىٰ منبهًا علىٰ خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها سقفًا [محفوظًا] (١) رفيعًا ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوةٍ (٢). قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحدٍ، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمدٍ، حتىٰ (٣) استقلت كما هي.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشًا للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهدًا لأهلها.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، وجن وإنس، وذكور وإناث (٤)، حتىٰ الحيوانات والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فالأيد هنا؛ أي: القوة، وليست جمع يد كما يتوهم بعض الناس، ويظنون أن الله تعالىٰ بنىٰ السماء بيديه ﷻ؛ لأن الأيد هنا مصدر آد يئيدَ بمعنىٰ القوة، كما يقال: باع يبيع بيعًا، ولهذا لم يضف الله هذه الكلمة إلىٰ نفسه الكريمة كما أضافها إلىٰ نفسه الكريمة في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ فمن فسر الأيد بالقوة هنا فإنه لا يقال: إنه من أهل التأويل الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، بل هو من التأويل الصحيح، والإنسان إذا تأمل وتفكّر في السموات عرف أنها قويةٌ شديدةٌ عظيمةٌ، وأن قوتها تدل علىٰ قوة بانيها ﷻ.

(٣) لوحة (٢٤٧ ب). (٤) ليست في (ز).

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجئوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: و لا تشركوا به شيئًا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مسليًا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾!

قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي: أوصىٰ بعضهم بعضًا بهذه المقالة؟ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قومٌ طغاةٌ، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ يعني: فما نلومك علىٰ ذلك.

﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جُرَيْجٍ: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: إلا للعبادة.

وقال السُّدِّي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(١) [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادةٌ، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»(٢)(٣).

---

(١) لوحة (٢٤٨ أ). (٢) صحيحه الألباني: رواه أحمد (١/ ٣٩٤)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤١).

(٣) قراءة: رَوَىٰ (إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ) ابْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ).

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

ومعنىٰ الآية: أنه تعالىٰ خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاجٍ إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران -يعني ابن زائدة بن نَشِيط- عن أبيه، عن أبي خالد -هو الوالبي[١]- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: «**يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًىٰ، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**»[٢].

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ.

وقد روىٰ الإمام أحمد عن وكيعٍ وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبي[٣] شُرحْبِيل، سمعت حَبَّة[٤] وسواء ابني خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملًا أو يبني بناءً -وقال أبو معاوية: يصلح شيئًا- فَأَعَنَّاهُ عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «**لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُءُوسُكُمَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ[٥] أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ[٦]، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللهُ وَيَرْزُقُهُ**»[٧]. وقد ورد في بعض الكتب [الإلهية][٨]: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتُكَ لِعِبَادَتِي فَلَا تَلْعَبْ، وَتَكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتْعَبْ، فَاطْلُبْنِي تَجِدْنِي؛ فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**»[٩].

وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا من العذاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقعٌ بهم لا محالةَ. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات[١٠].

---

(١) في (ز): (النواي)، وهو خطأ.

(٢) **صححه الألباني**: رواه أحمد (٢/ ٣٥٨)، ورواه الترمذي (٢٤٦٨)، وابن ماجه (٤١٠٧)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (٣١٥٩).

(٣) في (ز): (سلام بن شرحبيل)، وهو خطأ.

(٤) في (ز): (حية).

(٥) في (ز): (فإن الإنسان هذه أمه).

(٦) في (ز): (بسرة).

(٧) ابن ماجه (٤١٦٥)، أحمد (٣/ ٤٦٩)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٨١).

(٨) بياض في (ز).

(٩) لم أجده إلا في كتب ابن القيم، و«جامع العلوم والحكم»، ولم يذكروا له تخريجًا.

(١٠) لوحة (٢٤٨ ب).

سُورَةُ الطُّورِ

تفسير سورة الطور وهي مكية

قال مالك، عن الزهري، عن محمد بن جُبَيرِ بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قراءةً- منه (1).

أخرجاه من طريق مالك، وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد ابن عبد الرحمن بن نَوْفَلٍ، عن عُرْوَةَ، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: شكوت إلىٰ رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ»، فطفت، ورسول الله ﷺ يصلي إلىٰ جنب البيت يقرأ: بالطور وكتابٍ مسطورٍ (2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقسم تعالىٰ بمخلوقاته الدالة علىٰ قدرته العظيمة أن عذابه واقعٌ بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسىٰ، وأرسل منه عيسىٰ، وما لم يكن فيه شجرٌ لا يسمىٰ طورًا، إنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ علىٰ الناس جهارًا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾. ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء -بعد مجاوزته إلىٰ السماء السابعة-: «ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ» (3) يعني: يتعبدون فيه

(1) البخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣). (2) البخاري (٤٦٤)، ومسلم (١٢٧٦).
(3) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

ويطوفون به، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك[1] البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل ﷺ، مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماءٍ بيتٌ يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد [بن مسلم][2]، حدثنا روح بن جناح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**فِي السَّمَاءِ [السَّابِعَةِ][3] بَيْتٌ يُقَالُ لَهُ: المَعْمُورُ؛ بِحِيَالِ الكَعْبَةِ، وَفِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ نَهْرٌ يُقَالُ لَهُ: الحَيَوَانُ يَدْخُلُهُ جِبْرِيلُ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَنْغَمِسُ فِيهِ انْغِمَاسَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيَنْتَفِضُ انْتِفَاضَةً يَخِرُّ عَنْهُ سَبْعُونَ أَلْفَ قَطْرَةٍ، يَخْلُقُ اللهُ مِنْ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكًا يُؤْمَرُونَ أَنْ يَأْتُوا البَيْتَ المَعْمُورَ فَيُصَلُّوا فِيهِ فَيَفْعَلُونَ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ أَحَدُهُمْ، يُؤْمَرُ أَنْ يَقِفَ بِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَوْقِفًا يُسَبِّحُونَ اللهَ فِيهِ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»[4].

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعد[5] الدمشقي.

وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعةٌ من الحفاظ منهم: الجوزجاني، والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، وغيرهم.

قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة، ولا سعيد، ولا الزهري به.

وقال ابن جرير: حدثنا هَنَّادُ بن السريّ، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعرة؛ أن رجلًا قال لعلي: ما البيت المعمور؟» قال: بيت في السماء يقال له: «الضُّراح» وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يومٍ سبعون ألفًا من الملائكة، لا يعودون فيه أبدًا[6].

وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري، عن سِمَاكٍ وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك، ثم رواه ابن جرير عن أبي كُرَيبٍ، عن طَلْقِ بن غنام، عن زائدة، عن عاصم، عن علي بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عليًّا عن البيت المعمور، قال: مسجد في السماء يقال له: «الضُّراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفًا

---

(١) لوحة (٢٤٩ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: فيه روح بن جناح: ضعيف، والوليد بن مسلم: مدلس، ورواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٥٩-٦٠).

(٥) في (ز): (أبو سعيد)، والمثبت هو الصواب.

(٦) حسن لغيره: رواه ابن جرير (٢٧/ ١٦)، وفيه خالد بن عرعرة، أورده ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.
قلت: يشهد له الرواية التي بعده. وإسناده حسن.

من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبدًا[١]. ورواه[٢] من حديث أبي الطُّفَيْلِ، عن علي بمثله.

وقال العَوْفي عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يومٍ[٣] سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه[٤]، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، وغير واحدٍ من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «هَلْ تَدْرُونَ مَا البَيْتُ المَعْمُورُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهُ مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ بِحِيَالِ الكَعْبَةِ، لَوْ خَرَّ لَخَرَّ عَلَيْهَا، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»[٥].

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفةٌ من الملائكة يقال لهم: الحِن[٦]، من قبيلة إبليس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾: قال سفيان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سِمَاك، عن خالد ابن عَرْعَرَة، عن عليٍّ: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، وابن جُرَيْجٍ، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال الربيع بن أنس: هو العرش؛ يعني: أنه سقفٌ لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

---

(١) إسناده حسن: رواه الطبري (٢٧/ ١٧)، وفيه عاصم بن أبي النجود: صدوق له أوهام.

(٢) لوحة (٢٤٩ ب). (٣) في (ز): (كل ليلة)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٢٧/ ١٧) وإسناده ضعيف؛ لأنه من رواية عطية العوفي وهو شيعيٌّ مدلسٌ كثير الخطإ.

(٥) رواه الطبري (٢٧/ ١٧)، وإسناده مرسل.

(٦) في (ز): (الجن)، والمثبت هو الأقرب للصواب، ويدل عليه ما ورد عند الطبري (١/ ٤٥٥) من أثر عن الضحاك عن ابن عباس قال: (كان إبليس من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال له: «الحِن» خلقوا من نار السموم من بين الملائكة).
وعلق علىٰ ذلك العلامة أحمد شاكر: بقوله: (في المطبوعة في الموضعين «الجن» بالجيم، وهو خطأ، يدل عليه سياق هذا الأثر، فقد ميز ما بين إبليس، وبين الجن الذين ذكروا في القرآن. إبليس مخلوق من نار السموم، والآخرون خلقوا من مارج من نار. والجن (بالجيم) أول من سكن الأرض، وإبليس جاء لقتالهم في جند من الملائكة. وهذا بيِّنٌ. وقد قال الجاحظ في «الحيوان» (٧/ ١٧٧): وبعض الناس يقسم الجن علىٰ قسمين فيقول: هم جن وحن (بالحاء)، ويجعل التي بالحاء أضعفهما. وقال في (١/ ٢٩١-٢٩٢): وبعض الناس يزعم أن الحن والجن صنفان مختلفان، وذهبوا إلىٰ قول الأعرابي حين أتىٰ باب بعض الملوك ليكتتب في الزمنىٰ فقال في ذلك:

إن تكتبوا الزمنىٰ فإني لزمن ... من ظاهر الداء وداء مستكن
أبيت أهوىٰ في شياطين ترن ... مختلف نجارُهم جن وحن

ففرق بين هذين الجنسين). اهـ.

* وقد تناول الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» هذه المسألة، ومال إلىٰ أن ذلك من المزاعم، انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٢٨٣).

وقوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي يحيىٰ به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف في معنىٰ قوله: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارًا كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أي: أضرمت فتصير نارًا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب[(١)]، ورُوي عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عُمير وغيرهم.

وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور؛ لأنه لا يُشرب منه ماءٌ، ولا يسقىٰ به زرعٌ، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبي حاتم.

وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ يعني: المرسل. وقال قتادة: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدًا اليوم فهو مملوءٌ[(٢)].

وقيل: المراد به الفارغ، قال الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء، عن ذي الرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمةٌ تستسقي فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجورٌ»؛ تعني: فارغًا. رواه ابن مردويه في «مسانيد الشعراء».

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه يقول السُّدِّي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان مرابطًا بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولىٰ عمر ابن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَالبَحْرُ يُشْرِفُ فِيهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَسْتَأْذِنُ اللهَ أَنْ يَنْفَضِخَ**[(٣)] **عَلَيْهِمْ، فَيَكُفُّهُ اللهُ ﷻ**»[(٤)].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد -وهو ابن هارون- عن العوام بن حوشب، حدثني شيخٌ مرابطٌ قال: خرجت ليلةً لحرسي لم يخرج أحدٌ من الحرس غيري، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخيل إليَّ أن البحر يشرف يحاذي رءوس الجبال، فعل ذلك مرارًا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا**

---

(١) الطبري (٢٧/ ١٨) قول علي، وعزاه صاحب «كنز العمال» (٤٦٢٧) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة». البغوي (١/ ٣٨٦) قول ابن عباس، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٤٢٩) إلىٰ البيهقي في «البعث»، و«الزهد» لهناد (٣٣٥).

(٢) لوحة (٢٥٠ أ).

(٣) أي: يتدفق عليهم ويسيل.

(٤) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤٣)، وفيه رجل مجهول.

والبحرُ يُشرفُ ثلاثَ مرّاتٍ، يَستأذنُ اللهَ أنْ ينفضخَ عليهِمْ، فيكفُّهُ اللهُ ﷻ»(١). فيه رجلٌ مبهمٌ لم يسم.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه؛ أي: الواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ أي: ليس له دافعٌ يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي، حدثنا موسىٰ بن داود، عن صالح المري، عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يَعِسّ المدينة ذات ليلةٍ، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائمًا يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ حتىٰ بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم -ورب الكعبة- حق. فنزل عن حماره واستند إلىٰ حائطٍ، فمكث مليًّا، ثم رجع إلىٰ منزله، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه(٢) رضي الله عنه(٣).

وقال الإمام أبو عبيد في «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾، فربا لها ربوةً(٤)(٥) عيد منها عشرين يومًا(٦).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكًا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورًا. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها في بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارةٍ. قال: وأنشد أبو عبيدة(٧) معمر بن المثنىٰ بيت الأعشىٰ:

كأن مشْيَتَها من بيتِ جارتها ... مَورُ(٨) السحابة لا رَيْثٌ ولا عجلُ

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تذهب فتصير هباءً منبثًّا، وتنسف نسفًا.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويلٌ لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزوًا ولعبًا.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: وقال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسُّدِّي، والثوري: يدفعون فيها دفعًا.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته

---

(١) إسناده ضعيف كسابقه. (٢) لوحة (٢٥٠ ب).

(٣) «الرقة والبكاء» لابن قدامة (١١٨)، وفي إسناده صالح المري قال الحافظ: ضعيف. انظر: «التقريب» (٢٨٤٥).

(٤) أي: ارتفع.

(٥) كذا في (ز)، وفي ط. «الشعب»: (رتالها رتوة) أي: خطىٰ وقفز، ولعل الصواب ما أثبتناه من الأصل بمعنىٰ ارتفع؛ أي: شهق فربا صدره.

(٦) «فضائل القرآن» لأبي عبيد (١٣٦)، وإسناده منقطع بين الحسن وعمر.

(٧) في (ز): (أبو عبيد). (٨) في (ز): (مرُّ السحابة).

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولا يظلم الله أحدًا، بل يجازي كلًّا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال.

﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك(١) نعمةٌ مستقلةٌ بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أي هذا بذاك، تفضلًا منه وإحسانًا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ قال الثوري، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر في الحجال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ الْمُتَّكَأَ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا يَمَلُّهُ، يَأْتِيهِ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَلَذَّتْ عَيْنُهُ»**(٢).

وحدثنا أبي، حدثنا هُدْبَة بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنةً، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرةٌ فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبًا(٣).

ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلنا لهم قريناتٍ صالحاتٍ، وزوجاتٍ حسانًا من الحور العين.

---

(١) لوحة (٢٥١ أ).

(٢) مرسل: عزاه لابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٠٠) إلى الحارث بن أبي أسامة وابن أبي حاتم وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٤٦٠٤) من طريق الحارث بن أبي أسامة.

(٣) مرسل: عزاه لابن أبي حاتم، وثابت هو البناني: تابعي.

وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾: أنكحناهم بحورٍ عينٍ، وقد تقدم وصفهن في غير موضعٍ بما أغنىٰ عن إعادته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم علىٰ أحسن الوجوه(١)، بأن يرفع الناقص العمل، بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

قال الثوري، عن عمرو بن مُرَّةَ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم(٢) عينه ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾(٣).

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري به. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مُرَّةَ به. ورواه البزار، عن سهل بن بحر، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس ابن الربيع، عن عمرو بن مُرَّةَ، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعًا، فذكره، ثم قال: وقد رواه الثوري، عن عمرو بن مرة، عن سعيد عن ابن عباسٍ موقوفًا(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد(٥) البيروتي، أخبرني محمد بن شعيب(٦)،

---

(١) لوحة (٢٥١ ب).
(٢) في (ز): (لتقر به).
(٣) رواه الطبري (٢٧/ ٢٤) عن ابن عباسٍ موقوفًا، ورواه البزار عنه مرفوعًا والموقوف أصح. لكن مثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع، وصححه الألباني في «الصحيحة».
(٤) انظر التعليق السابق.
(٥) في (ز): (الوليد بن يزيد)، وهو خطأ.
(٦) في (ز): (محمد بن شعبة)، وهو خطأ.

أخبرني شيبان، أخبرني ليث، عن[1] حبيب بن أبي ثابت الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان فإن كانت منازل آبائهم، أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوا شيئًا[2].

وقال الحافظ الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَري، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -أظنه عن النبي ﷺ- قال: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ الجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبَوَيْهِ وَزَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَجَتَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ. فَيُؤْمَرُ بِإِلْحَاقِهِمْ بِهِ**»، وقرأ ابن عبَّاسٍ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية[3].

وقال العَوْفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم.

وهذا راجعٌ إلى التفسير الأول، فإن ذاك مفسرٌ[4] أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبي، وسعيد ابن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فُضَيْل[5]، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن عليٍّ قال: سألت خديجة النبي ﷺ، عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**هُمَا فِي النَّارِ**». فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «**لَوْ رَأَيْتِ مَكَانَهُمَا لأَبْغَضْتِيهِمَا**». قالت: يا رسول الله، فولدي منك. قال: «**فِي الجَنَّةِ**». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ المُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ المُشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية[6].

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟**

---

(١) في (ز): (أخبرني ليث بن حبيب)، والمثبت هو الصواب. (٢) انظر التعليق السابق.

(٣) ضعيف: رواه الطبراني (١١/ ٤٤٠/ ١٢٢٤٨)، وفيه شريك القاضي: صدوق سيِّئ الحفظ، ومحمد بن عبد الرحمن: ضعيف.

(٤) لوحة (٢٥٢ أ).

(٥) في (ز): (محمد بن فضل)، والصواب ما أثبتناه.

(٦) ضعيف: رواه عبد الله في «زوائد المسند» (١/ ١٣٤)، وفيه محمد بن عثمان لم يوثقه غير ابن حبان، انظر ترجمته في «تعجيل المنفعة».

فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»(١).

إسناده صحيحٌ، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهدٌ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٢).

وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لمّا أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلىٰ منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحدٍ، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبًا أو ابنًا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤١]. وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتىٰ، مما يستطاب ويشتهىٰ.

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون(٣) فيها كأسًا؛ أي: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يتكلمون عنها بكلامٍ لاغٍ؛ أي: هَذَيَان ولا إثم؛ أي: فُحْشٍ، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان.

فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفىٰ عنها -كما تقدم- صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم علىٰ الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيَانًا وفُحشًا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾: إخبارٌ عن خَدَمِهم وحَشَمِهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم(٤) وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب علىٰ شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٥٠٩)، ورجاله ثقات غير عاصم فهو صدوق له أوهام، ويشهد له الحديث الآتي.
(٢) رواه مسلم (١٦٣١)، وأحمد (٢/ ٣١٦)، وابن حبان (٣٠١٦).
(٣) لوحة (٢٥٢ ب).
(٤) في (ز): (وبهائهم وتصافيهم).

من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾ أي: نتضرع إليه فاستجاب الله لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقد ورد في هذا المقام حديث رواه الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده» فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ اشْتَاقُوا إِلَىٰ الإِخْوَانِ، فَيَجِيءُ سَرِيرُ هَذَا حَتَّىٰ يُحَاذِي سَرِيرَ هَذَا، فَيَتَحَدَّثَانِ، فَيَتَّكِئُ هَذَا وَيَتَّكِئُ هَذَا، فَيَتَحَدَّثَانِ[١] بِمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: يَا فُلَانُ، تَدْرِي أَيُّ يَوْمٍ غَفَرَ اللهُ لَنَا؟ يَوْمَ كُنَّا فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا، فَدَعَوْنَا اللهَ ﷻ فَغَفَرَ لَنَا»[٢].

ثم قال البزار: لا نعرفه يُرْوَىٰ إلا بهذا الإسناد.

قلت: وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم: هو مجهولٌ، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجلٌ صالحٌ ثقةٌ في نفسه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيّ، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحَىٰ، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البرُّ الرحيمُ. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم[٣].

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- بأن يبلِّغ رسالته إلىٰ عباده، وأن يذكِّرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفىٰ عنه ما يرميه[٤] به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريشٍ. والكاهن: الذي يأتيه الرَّئِيُّ من الجانِّ بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجۡنُونٍ﴾: وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

---

(١) لوحة (٢٥٣ أ).

(٢) ضعيف: وفيه سعيد بن دينار: والربيع بن صبيح: ضعيفان قال الحافظ: صدوق سيِّئ الحفظ، ضعيفان كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٢٤) وكما قال ابن كثير بعد إيراده الحديث.

(٣) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٨٦٨٦)، وابن أبي شيبة (٦٠٣٦)، وعبد الرزاق (٤٠٤٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٩٢).

(٤) في (ز): (ما يريبه).

ثم قال تعالىٰ منكرًا عليهم في قولهم في الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتىٰ يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظروا فإني منتظرٌ معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيحٍ، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشًا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ[1] قال قائل منهم: احتبسوه في وَثَاقٍ، ثم تربصوا به ريب المنون حتىٰ يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[2].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذبٌ وزورٌ؟ ﴿أَمْ[3] هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قومٌ ضُلَّالٌ معاندون، فهذا هو الذي يحملهم علىٰ ما قالوه فيك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم علىٰ هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: «تَقَوَّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سورٍ من مثله، ولا بسورةٍ من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

---

(١) لوحة (٢٥٣ ب).

(٢) رجاله ثقات: غير أن ابن إسحاق: مدلس وقد عنعن، انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٣١).

(٣) في (ز): (بل هم)، وهو خطأ.

قال البخاري: حدثنا الحُمَيديّ، حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد[1] قلبي أن يطير[2].

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في «الصحيحين» من طرق، عن الزهري به. وجبير بن مطعم كان قد قدم علىٰ النبي ﷺ بعد وقعة بدرٍ في فداء الأسارىٰ، وكان إذ ذاك مشركًا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله علىٰ الدخول في الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكارٌ عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم علىٰ ذلك، ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: المحاسبون للخلائق ليس الأمر كذلك، بل الله ﷻ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: مرقاةٌ إلىٰ الملإ الأعلىٰ، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجةٍ ظاهرةٍ علىٰ صحة ما هم فيه من الفعال والمقال؛ أي: وليس لهم سبيلٌ إلىٰ ذلك، فليسوا علىٰ شيءٍ، ولا لهم دليلٌ.

ثم قال منكرًا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثًا، واختيارهم لأنفسهم الذكور علىٰ الإناث، بحيث إذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثىٰ ظل وجهه مسودًّا وهو كظيمٌ. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم[3] مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: أجرةً علىٰ إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أي: لست تسألهم علىٰ ذلك شيئًا، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم[4] من أدنىٰ شيءٍ يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالىٰ: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه فكيدهم إنما يرجع وباله علىٰ أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ[5] غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . وهذا إنكارٌ شديدٌ علىٰ المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) لوحة (٢٥٤ أ).
(٢) البخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣).
(٣) في (ز): (وعنادهم مع الله).
(٤) في (ز): (أي فإنهم).
(٥) لوحة (٢٥٤ ب).

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ
يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ
اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: متراكم. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: دعهم -يا محمد- ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئًا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلىٰ أسوإ ما كانوا عليه، كما جاء في بعض الأحاديث: «إِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ وَعُوفِيَ مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الْبَعِيرِ، لا يَدْرِي فِيمَا عَقَلُوهُ وَلَا فِيمَا أَرْسَلُوهُ»(١). وفي الأثر الإلهي: «كَمْ أَعْصِيكَ وَلا تُعَاقِبُنِي؟ قَالَ اللهُ: يَا عَبْدِي، كَمْ أُعَافِيكَ وَأَنْتَ لا تَدْرِي؟».

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبر علىٰ أذاهم ولا تبالهم(٢)، فإنك بمرأىٰ منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أي إلىٰ الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جدك، ولا إله غيرك.

وقد روي مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وروىٰ مسلم في «صحيحه»، عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة(٣). ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيدٍ وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك(٤).

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٣٠٨٩)، وفيه أبو منظور: مجهول.

(٢) لوحة (٢٥٥ أ).

(٣) رواه مسلم (٣٩٩)، والحاكم (١/ ٣٦١) برقم (٨٦٠)، والدارقطني (١/ ٢٩٩) موقوفًا علىٰ عمر بن الخطاب.

(٤) رواه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٢/ ١٣٢)، وابن ماجة (٨٠٤).

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد:

حدثنا الوليد بن[١] مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني عُمَيرُ بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَعَارَّ[٢] مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي** -أو قال: **ثُمَّ دَعَا- اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ[٣]، ثُمَّ صَلَّىٰ تُقُبِّلَتْ صَلاتُهُ**»[٤].

وأخرجه البخاري في «صحيحه»، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم به.

وقال ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلسٍ.

وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي، حدثنا محمد ابن شعيب، أخبرني طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء بن أبي رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرًا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارةً له.

وقد قال عبد الرزاق في «جامعه»: أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن أبي عثمان الفقير؛ أن جبريل علَّم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: «**سُبْحَانَكَ[٥] اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**» قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس[٦] وهذا مرسلٌ، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق -يقوي بعضها بعضًا- بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيْج، عن سُهَيْل[٧] بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ**

---

(١) في (ز): (الوليد أبو مسلم)، والمثبت هو الصواب.
(٢) أي: هَبَّ من نومه واستَيْقَظَ، والتاء زائدة. «النهاية».
(٣) في (ز): (ثم توضأ).
(٤) البخاري (١١٥٤)، وأحمد (٥/ ٣١٣)، وأبو داود (٥٠٦٠)، والترمذي (٣٤١١)، وابن ماجة (٣٨٧٨).
(٥) لوحة (٢٥٥ ب).
(٦) مرسل: رواه عبد الرزاق (١١/ ٢٤/ ١٩٧٩٦)، أبو عثمان الفقير تابعي.
(٧) في (ز): (سهل)، وهو خطأ.

أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»[١].

رواه الترمذي -وهذا لفظه- والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث ابن جريج. وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في «مستدركه» وقال: إسناد على شرط مسلم، إلا أن البخاري علله.

قلت: علله الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرْعَةَ، والدارقطني، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيْجٍ. على أن أبا داود قد رواه في «سننه» من طريقٍ غير ابن جريج إلى أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ بنحوه[٢].

ورواه أبو داود -واللفظ له- والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، من طريق الحجاج بن دينار، عن أبي هاشم[٣]، عن أبي العالية، عن أبي بَرْزَة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». فقال رجلٌ: يا رسول الله، إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى؟! قال: «كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ»[٤].

وقد روي مرسلًا عن أبي العالية، والله أعلم. وهكذا رواه النسائي والحاكم، من حديث الربيع ابن أنس، عن أبي العالية، عن رافع بن خَدِيجٍ، عن النبي ﷺ مثله سواء[٥].

وروي مرسلًا أيضًا، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كَلِمَاتٌ لا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِنَّ عَنْهُ، وَلا يَقُولُهُنَّ فِي مَجْلِسِ خَيْرٍ وَمَجْلِسِ ذِكْرٍ، إِلَّا خَتَمَ لَهُ بِهِنَّ كَمَا يُخْتَمُ بِالْخَاتَمِ عَلَى الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ[٦] اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[٧] وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه[٨]، ومن رواية جُبَير بن مطعم[٩] ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبي ﷺ. وقد أفردت

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٤٢٩) وقال: حسن صحيح. وللحديث شواهد، وقد ذكرها ابن كثير بعد إيراده الحديث.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٥٨)، وفيه عبد الرحمن بن أبي عمرو: مقبول، والطريق يتقوى بالطرق الأخرى.

(٣) هذا هو المثبت في (ز)، وهو الصواب، وفي بعض النسخ: (هاشم)، وفي بعضها (هشام) !! وهو أبو هاشم الرماني يحيى بن دينار من رجال الجماعة.

(٤) إسناده حسن: أبو داود (٤٨٥٩)، والدارمي (٢٦٥٨)، وفيه الحجاج بن دينار، قال الحافظ: لا بأس به، والحديث قال فيه الألباني: حسن صحيح. انظر: «صحيح أبي داود».

(٥) النسائي في «الكبرى» (١٠٢٦٣)، والحاكم (١/ ٥٣٧).

(٦) لوحة (٢٥٦ أ).

(٧) رواه أبو داود (٣٨٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٨) رواه الحاكم (١/ ٤٩٦-٤٩٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٩) رواه الحاكم (١/ ٥٣٧) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

لذلك جزءًا علىٰ حدةٍ بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩].

وقوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر(١)، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم؛ أي: عند جنوحها(٢) للغيبوبة. وقد روىٰ في حديث ابن سيلان، عن أبي هريرة مرفوعًا: «لَا تَدَعُوهُمَا، وَإِنْ طَرَدَتْكُمُ الخَيْلُ»(٣). يعني: ركعتي الفجر، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكي عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيفٌ لحديث: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». قال: هل علي غيرها؟ قال: «لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»(٤) وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة ﵂ أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ علىٰ شيءٍ من النوافل أشد تعاهدًا منه علىٰ ركعتي الفجر(٥) وفي لفظ لمسلم: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٦).

آخر تفسير سورة الطور والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير آخر سورة (ق). (٢) في (ز): (خروجها).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (١٧٥٨)، وأحمد (٢/ ٤٠٥)، وفيه عبد ربه بن سيلان: مقبول كما في «التقريب».

(٤) البخاري (١٨٩١)، ومسلم (١١). (٥) البخاري (١١٦٩)، ومسلم (٧٢٤).

(٦) رواه مسلم (٧٢٥).

الفهرس

❁ **تفسير سورة الأحزاب** ٣

-فصل: خصائص زوجات النبي ﷺ ٣٦

-آية الحجاب ٨٨

-الصلاة على النبي ﷺ صفتها وفضلها ٩٥

-فصل: الصلاة على غير الأنبياء ١١٨

-المراد بـ«الأمانة» وعرضها على السموات والأرض والجبال ١٢٩

❁ **تفسير سورة سبأ** ١٣٧

-قصة سبأ ١٤٨

❁ **تفسير سورة فاطر** ١٧٩

-أقسام الناس من هذه الأمة ١٩٥

-حال السعداء ومآل الأشقياء ٢٠١

❁ **تفسير سورة يس** ٢١٢

-﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ ٢٢٣

-آية خلق الليل والنهار والشمس والقمر: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ٢٢٩

-النفخ في الصور ٢٣٥

-حال أهل الجنة في روضاتها ينعمون ٢٣٧

-حال الكفار يوم القيامة ٢٣٩

-﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ٢٤٣

❁ **تفسير سورة الصافات** ٢٥٤

-أهل الجنة يتساءلون عن أحوالهم، وما كانوا يعانونه في الدنيا ٢٦٤

-شجرة الزقوم وصفتها ٢٦٩

-فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في الذبيح، من هو؟ ٢٨٢

❁ **تفسير سورة «ص»** ٣٠١

-قصة داود وسليمان عليهما السلام ٣١٥

- قصة أيوب عليه السلام ٣٢٧
- الإخبار عن المؤمنين السعداء أن لهم في الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ٣٣٠
- حال الأشقياء في الآخرة، وأن مصيرهم ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ٣٣١

تفسير سورة الزمر **٣٣٧**

- ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ٣٦٢
- ذكر أحاديث فيها نفي القنوط ٣٦٥
- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ٣٧٠
- حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلىٰ النار ٣٧٧
- حال السعداء المؤمنين حين يساقون علىٰ النجائب وفدًا ٣٧٨
- ذكر سعة أبواب الجنة ٣٨٢

تفسير سورة غافر **٣٨٦**

- قصة مؤمن آل فرعون ٤٠٤

تفسير سورة فصلت **٤٢٩**

تفسير سورة الشورى **٤٦٣**

- ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ٤٧٥

تفسير سورة الزخرف **٤٩٧**

- ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة ٥٠٠

تفسير سورة الدخان **٥٢٥**

تفسير سورة الجاثية **٥٤٥**

تفسير سورة الأحقاف **٥٥٥**

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ٥٧١

تفسير سورة محمد **٥٩١**

تفسير سورة الفتح **٦١١**

- ذكر سبب هذه البيعة العظيمة (يوم الحديبية) ٦١٨
- ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح ٦٣٣

❁ **تفسير سورة الحجرات** ٦٥١

❁ **تفسير سورة «ق»** ٦٨١

– سورة «ق» هي أول المفصل على الصحيح من كلام العلماء ٦٨١

– ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ٦٨٧

– ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ ٦٩٣

❁ **تفسير سورة الذاريات** ٧٠٣

❁ **تفسير سورة الطور** ٧١٨

❁ **الفهرس** ٧٣٤